فايز بن سيَّاف السَّريح

التناسب بين الآيات

الجزء الخامس

من سورة يس
إلى سورة الرحمن

تقديم
جماعة من أهل التفسير

دار الحضارة

التناسب بين الآيات

ح شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العتيبي، فايز بن سياف بن فايز السريح
التناسب بين الآيات: الجزء الخامس. /
فايز بن سياف بن فايز السريح العتيبي - ط١ - الرياض ١٤٤٣هـ
٧٤٤ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٠-٠٩-٨٣٨١-٦٠٣-٩٧٨
١ - القرآن - تفسير أ- العنوان
ديوي ٢٢٧ ١٤٤٣/٩٨٨٢

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٩٨٨٢

ردمك: ٠-٠٩-٨٣٨١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع
ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥
هاتف: ٢٤١٦١٣٩ ـ ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٠٧٢٧١٩
فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣
الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٩٠٨
البريد الإلكتروني: daralhadarah@hotmail.com

فَايِزُ بْنُ سَيَّافٍ ٱلسَّرِيحِ

التناسب بين الآيات

الجُزْءُ الخَامِسُ

من سورة يس إلى سورة الرحمن

تقديم

جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ ٱلتَّفْسِيرِ

دار الحضارة

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ يسٓ

﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣ ﴾

ولمَّا كان قد ثبَت في سورةِ «فاطر» أنَّه سبحانه المَلِكُ الأعلىٰ؛ لِما ثبَت له مِن تمامِ القدرة وشمولِ العلم، وكان مِن أجلِّ ثمراتِ المُلْكِ إرسالُ الرُّسلِ إلىٰ الرعايا بأوامرِ المَلِكِ، وردُّهم عمَّا هم عليه ممَّا دعَتْهم إليه النفوسُ، وقادتهم إليه الشَّهواتُ والحظوظ، إلىٰ ما يَفتَحُه لهم مِن الكرَمِ، ويُبصِّرُهم به مِن الحِكَمِ، وكانت الرسالةُ أحدَ الأصولِ الثلاثة التي تنقُلُ الإنسانَ مِن الكفرِ إلىٰ الإيمان، وكانت هي المنظورَ إليها أولًا؛ لأنَّها السَّببُ في الأصلينِ الآخَرَين، وكانوا قد رَدُّوا رسالتَه نفورًا واستكبارًا؛ قال مقدِّمًا لها تقديمَ السببِ علىٰ مسبَّبه علىٰ وجهِ التَّأكيدِ البليغ مع ضميرِ الخطاب الذي لا يحتمِلُ لَبْسًا: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ (١).

جملةُ ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ جوابُ القَسَمِ، وتأكيدُ هذا الخبَرِ بالقَسَمِ وحرفِ التأكيد ولامِ الابتداءِ باعتبار كونِه مرادًا به التعريضُ بالمشركين الذين كذَّبوا بالرسالةِ؛ فهو تأنيسٌ للنبي ﷺ، وتعريضٌ بالمشركين؛ فالتأكيدُ بالنسبة إليه زيادةُ تقريرٍ، وبالنسبة للمعنىٰ الكِنائيِّ لردِّ إنكارِهم، والنُّكَتُ لا تتزاحَمُ (٢).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٩٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٤٦).

﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ ﴾

ثـم أخبَر بـأعظَمِ أوصـافِ الرسـول ﷺ، الدالَّـةِ علىٰ رسـالتِه؛ وهـو أنَّـه ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[(١)].

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ ﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: ما هذا الذي أُرسِلَ به؟ كان كأنَّه قيل جوابًا لِمَن سأل: هو القرآنُ الذي وقَع الإقسامُ به، وهو ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[(٢)].

راجعٌ إلىٰ ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾؛ إذ هو المنزَّلُ مِن عندِ الله، فبعد أن استوفىٰ القَسَمُ جوابَه، رجَع الكلامُ إلىٰ بعضِ المقصود مِن القَسَمِ؛ وهو تشريفُ المُقسَمِ به، فوُسِم بأنَّه ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[(٣)].

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ ﴾

ولمَّا ذكَر المُرسَلَ والمُرسَلَ به والمُرسِلَ، ذكَر المُرسَلَ له، فقال: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[(٤)].

فلمَّا أقسَم تعالىٰ علىٰ رسالتِه، وأقام الأدلَّةَ عليها؛ ذكَر شِدَّةَ الحاجةِ إليها، واقتضاءَ الضرورةِ لها، فقال: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٦٩٢).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٩٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٤٦).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٩٤).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٦٩٢).

📖 ﴿ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ ﴾ 📖

ولمَّا كان تطاوُلُ الإقامةِ علىٰ شيءٍ موجِبًا للإلفِ له، والإلفُ قتَّالٌ -لِما يوجِبُ مِن الإصرارِ علىٰ المألوفِ؛ لمحبَّتِه «وحُبُّك للشيءِ يُعمِي ويُصِمُّ»-؛ قال جوابًا لِمَن يَتوقَّع الجوابَ عمَّا أثمرَتْهُ حالُهم: ﴿ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[1].

هذا تفصيلٌ لحالِ القومِ الذين أُرسِلَ محمَّدٌ ﷺ ليُنذِرَهم؛ فهم قِسْمانِ: قِسْمٌ لم تنفَعْ فيهم النِّذارةُ، وقسمٌ اتبَعوا الذِّكْرَ وخافوا اللهَ، فانتفَعوا بالنِّذارة[2].

لمَّا بيَّن أنَّ الإرسالَ أو الإنزال للإنذار، أشار إلىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ ليس عليه الهدايةُ المستلزِمة للاهتداءِ، وإنَّما عليه الإنذارُ وقد لا يؤمِنُ مِن المُنذَرِينَ كثيرٌ[3].

📖 ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ ﴾ 📖

ولمَّا كان المعنىٰ أنَّه لا يَتجدَّد منهم إيمانٌ بعد البيانِ الواضح والحِكْمةِ الباهرة، وكان ذلك أمرًا عجَبًا؛ علَّله بما يُوجِبُه مِن تمثيلِ حالهم، تصويرًا لعِزَّتِه سبحانه وباهرِ عظَمتِه، الذي لفَت الكلام إليه لإفهامِه، وهذا الذي ذُكِر هو اليومَ معنًىٰ ومثالٌ، وفي الآخرةِ ذاتٌ ظاهرٌ، وأنَّه ما انفكَّ عنهم أصلًا وما زال، فقال: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴾[4].

هذه الجملةُ بدلُ اشتمالٍ مِن جملةِ ﴿ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾؛ فإنَّ انتفاءَ إيمانِهم يشتملُ علىٰ ما تضمَّنتْهُ هذه الآيةُ مِن جَعْلِ أغلالٍ في أعناقهم حقيقةً أو تمثيلًا[5].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٩٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٤٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٥٤).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٩٥).

(٥) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٤٩).

لمَّا بيَّن أنَّهم لا يؤمنون، بيَّن أنَّ ذلك مِن الله، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾(١).

لمَّا أخبَر تعالىٰ أنَّهم لا يؤمنون، أخبَر عن شيءٍ مِن أحوالِهم في الآخرةِ إذا دخَلوا النارَ(٢).

ثم ذكَر الموانعَ مِن وصولِ الإيمان لقلوبهم، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾(٣).

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾

ولمَّا كان الرافعُ رأسَه غيرَ ممنوعٍ مِن النَّظرِ أمامه، قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾(٤).

هذا ارتقاءٌ في حرمانِهم مِن الاهتداءِ لو أرادوا تأمُّلًا بأنَّ فظاظةَ قلوبهم لا تَقبَلُ الاستنتاجَ مِن الأدلةِ والحُجَجِ بحيث لا يَتحوَّلون عمَّا هم فيه، فمُثِّلتْ حالُهم بحالةِ مَن جُعِلوا بَيْنَ سَدَّينِ(٥).

إمَّا تتمَّةٌ للتَّمثيلِ وتكميلٌ له أيَّ تكميلٍ، وإمَّا تمثيلٌ مستقلٌّ؛ فإنَّ ما ذُكِر مِن جَعْلِهم محصورين بَيْنَ سَدَّينِ هائلين قد غطَّيا أبصارَهم بحيث لا يُبصِرون شيئًا قطعًا كافٍ

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٥٤).

(٢) البحر المحيط (٩/ ٤٩).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٦٩٢).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٩٧).

(٥) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٥٠).

في الكشفِ عن كمالِ فظاعةِ حالهم، وكونِهم محبوسِينَ في مطمورةِ[1] الغيِّ والجهالات، محرومِينَ عن النَّظرِ في الأدلةِ والآيات[2].

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠ ﴾

ولمَّا مُنِعوا بذلك حِسَّ البصَرِ، أخبَر عن حِسِّ السمعِ، فقال: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[3].

بيانٌ لشأنِهم بطريقِ التَّصريح إثرَ بيانِه بطريقِ التَّمثيل[4].

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١ ﴾

ولمَّا بيَّن ما كان السَّببَ المانع لهم مِن الإبصار، عُلِم أنَّ السَّببَ المانع مِن السمعِ مِثلُه؛ لأنَّ المُخبرَ عزيزٌ، فهو إذا فعَل شيئًا كان على وجهٍ لا يمكِنُ فيه حيلةٌ، ولمَّا أخبَر أنَّ الأكثرَ بهذه الصفةِ، استشرَف السَّامعُ إلى أمارةٍ يَعرِفُ بها الأقلَّ الناجيَ؛ لأنَّه المقصودُ بالذاتِ، فقال جوابًا له: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴾[5].

لمَّا تضمَّن قولُه: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ ﴾ أنَّ الإنذارَ في جانبِ الذين حَقَّ عليهم القولُ أنَّهم لا يؤمنون هو وعدَمُه سواءٌ، وكان ذلك قد يُوهِمُ انتفاءَ

---

(١) أي: حفرة تحت الأرض.

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٦٠).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٩٨).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٦٠).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٩٨-٩٩).

الجدوىٰ مِن الغيرِ وبعضٍ مِن فضلِ أهل الإيمان؛ أُعقِبَ ببيانِ جدوىٰ الإنذارِ بالنسبة لِمَن ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾(١).

ثم ذكَر القِسْمَ الثاني الذين قَبِلوا النِّذارةَ بقولِه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾(٢).

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾

ولمَّا بيَّن الأصلَ الثاني -الذي هو الرسالةُ- وأتبَعها ثمرتَها المختومةَ بالبشارة، وكان الأصلُ الثالث في الإيمانِ - وهو البعثُ - سببًا عظيمًا في التَّرقيةِ إلىٰ اعتقاد الوحدانيَّةِ التي هي الأصلُ الأول، وكان أكثَرُ الخائفين منه سبحانه مُقتَّرًا عليهم في دنياهم، مُنغَّصةً عليهم حياتُهم؛ علَّل هذه البشارةَ إعلامًا بأنَّ هذا الأجرَ في هذه الدارِ بالملابسِ الباطنة الفاخرة مِن المعارفِ والسَّكينة والبركاتِ والطمأنينة، وبعد البَعْثِ بالملابسِ الطاهرة الزاهرة المسبَّبة عن الملابسِ الدُّنيوية الباطنة الخفيَّةِ مِن غيرِ أهلها، بشارةً لهم ونِذارةً للقِسْمِ الذي قبلهم بقولِه -مُقدِّمًا للبعثِ لِما ذكَر مِن فائدتِه، لافتًا القولَ إلىٰ مظهرِ العظَمة؛ إيذانًا بعظَمةِ هذه المقاصدِ، وبأنَّه لا يَحمِي لهؤلاء الخُلَّصِ مع قلَّتِهم ومُبايَنتِهم للأوَّلين مع كثرتِهم إلا مَن له العظَمةُ الباهرة-: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٥٢).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٦٩٢).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ١٠٠-١٠١).

لمَّا اقتضىٰ القصرُ في قولِه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾، نَفْيَ أن يَتعلَّقَ الإنذارُ بالذين لم يتَّبِعوا الذِّكْرَ ولم يَخشَوُا الرحمنَ، وكان في ذلك كنايةٌ تعريضيةٌ بأنَّ الذين لم يَنتفعوا بالإنذار بمنزلةِ الأمواتِ؛ لعدَمِ انتفاعِهم بما ينفعُ كلَّ عاقلٍ: استَطرَدَ عقِبَ ذلك بالتخلُّص إلىٰ إثبات البعث[1].

في الترتيبِ وجوهٌ: أحدها: أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا بيَّن الرسالةَ، وهو أصلٌ مِن الأصول الثلاثة التي يَصِيرُ بها المكلَّفُ مؤمنًا مسلمًا؛ ذكَر أصلًا آخَرَ؛ وهو الحشرُ. وثانيها: وهو أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا ذكَر الإنذارَ والبشارة بقولِه: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٍ﴾، ولم يَظهَرْ ذلك بكمالِه في الدُّنيا، فقال: إن لم يُرَ في الدُّنيا، فاللهُ يُحيِي الموتىٰ، ويَجزِي المُنذَرِين، ويَجزِي المُبشَّرِين. وثالثها: أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر خشيةَ الرحمنِ بالغيب، ذكَر ما يؤكِّدُه؛ وهو إحياءُ الموتىٰ[2].

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ تذييلٌ عامٌّ للفريقينِ المصمِّمَينِ علىٰ الكفرِ والمشفَّعين بالإنذارِ؛ ترهيبًا وترغيبًا، ووعيدًا ووعدًا[3].

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾

ولمَّا دلَّ سبحانه علىٰ ما له مِن القدرةِ الكاملة بالأفعالِ الهائلة مِن كلٍّ مِن الإماتةِ والإحياء الحِسِّيَّينِ والمعنويَّينِ إبداءً وإعادةً، وكان ضربُ الأمثالِ بالمشاهَدات ألصَقَ شيءٍ بالبال، وأقطَعَ للمِراءِ والجدال، وأكشَفَ لِما يرادُ مِن الأحوال؛ قال عاطفًا علىٰ ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٍ﴾ -مبيِّنًا للأصلِ الثالث الذي هو الأولُ بالأصالةِ

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٥٤).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٥٧).
(٣) روح المعاني (١١/ ٣٩٠).

المقصودُ بالذات؛ وهو التَّوحيد، ضامًّا إليه الأصلينِ الآخَرينِ؛ ليكونَ المثَلُ جامعًا، والبرهانُ به واضحًا ساطعًا-: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾(١).

أعقَب وَصْفَ إعراضِهم وغفلتِهم عن الانتفاع بهَدْيِ القرآن بتهديدِهم بعذابِ الدُّنيا؛ إذ قد جاء في آخِرِ هذه القصَّةِ قولُه: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾(٢).

﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾

ولمَّا كان أعظَمُ مقاصدِ السِّياق تسليةَ النبي ﷺ في توقُّفِهم عن المبادرةِ إلى الإيمان به مع دعائه بالكتابِ الحكيم إلى الصراطِ المستقيم، وكان في المشاركةِ في المصائبِ أعظَمُ تسليةٍ؛ أبدَلَ مِن قولِه: ﴿إِذۡ جَآءَهَا﴾ تفصيلًا لذلك المجيءِ قولَهُ -مُسنَدًا إلى نفسِه المقدَّسِ؛ لكونِه أعظَمَ في التَّسليةِ-: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾(٣).

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥﴾

فأجابوهم بالجوابِ الذي ما زال مشهورًا عند مَن رَدَّ دعوةَ الرُّسلِ: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٠٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٥٧-٣٥٨).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ١٠٤-١٠٥).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٦٩٤).

جملةٌ مستأنفة، جوابُ سؤالٍ مقدَّرٍ: كأنَّه قيل: فما قال لهم أهلُ أنطاكيةَ؟ فقيل: ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾[1].

﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

حُكِيتْ هذه المحاورةُ علىٰ سَنَنِ حكايةِ المحاوراتِ؛ بحكايةِ أقوالِ المتحاوِرين دُونَ عطفٍ[2].

فقالت هؤلاء الرُّسلُ الثلاثة: ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾[3].

فأجابوهم بإثباتِ رسالتهم بكلامٍ مؤكَّدٍ تأكيدًا بليغًا لتكرُّرِ الإنكارِ مِن أهل أنطاكيةَ: ﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾[4].

﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا قرَّروا ذلك عندهم، أتبَعوه بدليله، وبالإعلامِ بأنَّ وبالَ التَّكذيبِ لا يَلحقُهم منه ضررٌ، إشارةً لهم إلىٰ الإنذارِ مِن عذابِ المَلِكِ الجبَّار، فقالوا: ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[5].

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

ولمَّا كان حلولُ الصالحينَ بَيْنَ الناسِ يكون تارةً نِعْمةً، وأخرىٰ نِقْمةً؛ باعتبارِ التَّصديقِ والتَّكذيب، والإساءةِ والإحسان، فكان قد حصَل لهؤلاء الذين كذَّبوا

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٦١).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٦٩٤).

(٤) فتح القدير (٤/ ٤١٨).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ١٠٧).

هؤلاء الرُّسلَ بلاءٌ لتكذيبِهم لهم مِن جَدْبِ الأرض وصعوبةِ الزمان، ونحوِ ذلك مِن الامتحانِ؛ ذكَر ما أثره ذلك عند أهلِ القريةِ، فقال: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾(١).

لمَّا غلَبتْهم الحُجَّةُ مِن كلِّ جانبٍ، وبلَغ قولُ الرُّسلِ: ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ مِن نفوسِ أصحابِ القرية مبلغَ الخجَلِ والاستكانة مِن إخفاقِ الحُجَّةِ، والاتسامِ بمِيسَمِ المكابَرةِ والمنابَذةِ للذين يبتغون نَفْعَهم؛ انصرَفوا إلىٰ سَتْرِ خجَلِهم، وانفحامِهم بتلفيقِ السَّببِ لرفضِ دَعْوتِهم بما حَسِبوه مُقنِعًا للرُّسلِ بتركِ دَعْوتِهم؛ ظنًّا منهم أنَّ ما يَدَّعونه شيءٌ خَفِيٌّ لا قِبَلَ لغيرِ مخترِعِه بالمنازَعةِ فيه؛ وذلك بأنْ زعَموا أنَّهم تَطيَّروا بهم، ولَحِقَهم منهم شؤمٌ، ولا بد للمغلوبِ مِن باردِ العُذْرِ(٢).

لمَّا ظهَر مِن الرُّسُلِ المبالغةُ في البلاغ، ظهَر منهم الغلوُّ في التكذيبِ، فلمَّا قال المرسَلون: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾، قالوا: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾، ولمَّا أكَّد الرُّسُلُ قولَهم باليمينِ حيث قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ﴾، أكَّدوا قولَهم بالتطيُّرِ بهم(٣).

﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾

حُكِي قولُ الرُّسُلِ بما يُرادِفه ويُؤدِّي معناه بأسلوبٍ عربيٍّ تعريضًا بأهلِ الشرك مِن قُرَيشٍ، الذين ضُربتِ القريةُ مثَلًا لهم؛ فالرُّسُلُ لم يذكُروا مادَّةَ الطِّيرةِ والطَّيرِ(٤)، وإنَّما أتَوْا بما دلَّ علىٰ أنَّ شؤمَ القومِ متصِلٌ بذواتِهم، لا جاءٍ مِن المرسَلين

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٠٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٦٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٦١).

(٤) أي: التشاؤم.

إليهم، فحُكِي بما يُوافِقه في كلامِ العرب تعريضًا بمشركي مكَّةَ، وهذا بمنزلةِ التَّجريد لضَرْبِ المثَلِ لهم بأنْ لُوحِظَ في حكايةِ القصَّةِ ما هو مِن شؤونِ المشبَّهِينَ بأصحابِ القصَّة[(١)].

ثم أجاب عليهم الرُّسُلُ دفعًا لِما زعَموه مِن التَّطيُّرِ: ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴾[(٢)].

﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ﴾

ولمَّا كان السِّياقُ لأنَّ الأمرَ بيدِ الله، فلا هاديَ لِمَن أضَلَّ، ولا مُضِلَّ لِمَن هدىٰ، فهو يَهدِي البعيدَ في البقعةِ والنَّسَبِ إذا أراد، ويُضِلُّ القريبَ فيهما إن شاء، وكان بُعْدُ الدارِ ملزومًا في الغالبِ لبُعْدِ النَّسَبِ؛ قدَّم مكانَ المجيءِ علىٰ فاعلِه؛ بيانًا لأنَّ الدعاءَ نفَع الأقصىٰ ولم يَنفَعِ الأدنىٰ، فقال: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[(٣)].

عطفٌ علىٰ قصَّةِ التحاورِ الجاري بَيْنَ أصحابِ القرية والرُّسُلِ الثلاثة؛ لبيانِ البَوْنِ بَيْنَ حالِ المعانِدِين مِن أهلِ القرية وحالِ الرَّجُلِ المؤمن منهم الذي وعَظهم بموعظةٍ بالغة، وهو مِن نفَرٍ قليلٍ مِن أهلِ القرية[(٤)].

في تعلُّقِه بما قبله وجهان: أحدهما: أنَّه بيانٌ لكونِهم أتَوْا بالبلاغِ المُبِينِ؛ حيث آمَن بهم الرَّجُلُ الساعي. وثانيهما: أنَّ ضَرْبَ المثَلِ لمَّا كان لمحمَّدٍ ﷺ تسليةً لقلبه، ذكَر

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٦٤).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤١٨).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ١٠٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٦٥).

بعد الفراغ مِن ذِكْرِ الرُّسُلِ سَعْيَ المؤمنين في تصديقِ رُسُلِهم، وصَبْرَهم على ما أُوذوا، ووصولَ الجزاءِ الأوفىٰ إليهم؛ ليكونَ ذلك تسليةً لقلبِ أصحابِ محمَّدٍ ﷺ؛ كما أنَّ ذِكْرَ المرسَلِينَ تسليةٌ لقلبِ محمَّدٍ ﷺ[1].

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾

ثم نبَّههم على الدَّاعي إلى اتِّباعِهم، والمانعِ مِن الإعراضِ عنهم بقولِه مُعيدًا الفعلَ دلالةً على شدَّةِ اهتمامِه به: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[2].

جملةُ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ مؤكِّدةٌ لجملةِ ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ مع زيادةِ الإيماء إلى علَّةِ اتِّباعهم بلوائحِ علاماتِ الصِّدْقِ والنُّصْحِ على رسالتهم؛ إذ هم يَدْعُون إلى هُدًى، ولا نَفْعَ يَنجرُّ لهم مِن ذلك، فتمحَّضتْ دَعْوتُهم لقصدِ هدايةِ المُرسَلِ إليهم، وهذه كلمة حِكْمة جامعة[3].

لمَّا قال: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، كأنَّهم منَعوا كَوْنَهم مرسَلِينَ، فنزَل درجةً وقال: لا شكَّ أنَّ الخَلْقَ في الدُّنيا سالكون طريقةً، وطالبون للاستقامةِ، والطريقُ إذا حصَل فيه دليلٌ يدلُّ يجبُ اتِّباعُه، والامتناعُ مِن الاتِّباع لا يحسُنُ إلا عند أحدِ أمرَينِ: إمَّا مغالاةِ الدليل في طلبِ الأجرة، وإمَّا عند عدَمِ الاعتماد على اهتدائِه ومعرفتِه الطريقَ، لكنَّ هؤلاء لا يطلُبون أجرةً، وهم مهتدون، عالِمون بالطريقةِ المستقيمة الموصلةِ إلى الحقِّ، فهَبْ أنَّهم ليسوا بمرسَلِينَ هادِينَ، أليسوا بمهتدِين؟ فاتَّبِعوهم[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٦٣).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ١١٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٦٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٦٣).

بعد أن أمَرهم باتِّباعِ المرسَلِين، أمَرهم ثانيًا بجملةٍ جامعة في الترغيبِ في كونِهم لا ينقُصُ منهم مِن حُطامِ دُنْياهم شيءٌ، وفي كونِهم يهتدون بهُدَاهم، فيَشتملون على خَيْرَيِ الدُّنيا والآخرةِ[1].

ثم ذكَر تأييدًا لِما شَهِد به ودعا إليه، فقال: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾[2].

﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ﴾

ولمَّا أفهَمَ السِّياقُ أنَّه قال: فإنِّي اتبَعْتُهم في عبادةِ الله، بنى عليه قولَه -جوابًا لِمَن يلُومُه على ذلك، وترغيبًا فيما اختاره لنفسه، وتوبيخًا لِمَن يأباه-: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[3].

عطفٌ على جملةِ ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾، قصَد إشعارَهم بأنَّه اتبَع المرسَلين، وخلَع عِبادةَ الأوثان، وأبرَزَ الكلامَ في صورةِ استفهامٍ إنكاريٍّ[4].

لمَّا قال: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾، بيَّن ظهورَ اهتدائهم بأنَّهم يَدْعُون مِن عبادةِ الجماد إلى عبادةِ الحيِّ القيُّومِ، ومِن عبادةِ ما لا ينفعُ إلى عبادةِ مَن منه كلُّ نفعٍ[5].

لمَّا أمَرهم باتِّباعِ المرسَلين، أخَذ يُبدِي الدليلَ في اتِّباعِهم وعبادةِ الله؛ فأبرَزَه في صورةِ نُصْحِه لنفسِه، وهو يريد نُصْحَهم؛ ليَتلطَّفَ بهم ويُداريَهم، ولأنَّه أدخَلُ في إمحاضِ[6] النُّصح؛ حيث لا يريد لهم إلا ما يريدُ لنفسِه، فوضَع قولَه:

(١) البحر المحيط (٩/ ٥٦).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٦٩٤).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ١١٠-١١١).
(٤) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٦٨).
(٥) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٦٤).
(٦) أي: بذله محضًا؛ أي: خالصًا.

﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ موضعَ: وما لكم لا تعبُدون الذي فطَركم؟ ولذلك قال: ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾، ولولا أنَّه قصَد ذلك، لقال: وإليه أرجعُ[(١)].

ثم أبرَزَ الكلامَ في مَعرِضِ النصيحةِ لنفسه، وهو يريد مناصَحةَ قومِه، فقال: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[(٢)].

فكأنَّ قومَه لم يَقبَلوا نُصْحَه، بل عادُوا لائمين له على اتِّباعِ الرُّسُل، وإخلاصِ الدِّين لله وَحْدَه، فقال: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[(٣)].

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا أمَر صريحًا ونهى تلويحًا، ورغَّب ورهَّب، ووبَّخ وقرَّع، وبيَّن جلالةَ مَن آمَن به ومَن كانوا سببًا في ذلك؛ أنكَر على مَن يفعلُ غيرَه بالإنكارِ على نفسه، مُحقِّرًا لِمَن عبَدوه مِن دُونِ الله وهم غارقون في نِعَمِه، فقال مُشيرًا بصيغةِ الافتعال إلى أنَّ في ذلك مخالَفةً للفِطْرةِ الأُولى: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾[(٤)].

ثم أتبَعه بإبطالِ عبادةِ الأصنام، فرجَع إلى طريقةِ التعريض بقوله: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾، وهي جملةٌ مستأنَفة استئنافًا بيانيًّا لاستشعارِ سؤالٍ عن وقوعِ الانتفاع بشفاعةِ تلك الآلهةِ عند الذي فطَره، والاستفهامُ إنكاريٌّ؛ أي: أُنكِرُ على نفسي أن أتَّخِذَ مِن دُونِه آلهةً؛ أي: لا أتَّخِذُ آلهةً[(٥)].

---

(١) البحر المحيط (٩/ ٥٦).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤١٩).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٦٩٤).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ١١١).

(٥) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٦٨).

ثـم أتبَـع الكـلامَ كـذلك مخاطِبًـا لنفسـه، فقـال: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾[1].

ثم عاد إلىٰ المساقِ الأول لقصدِ التَّأكيدِ، ومَزيدِ الإيضاح، فقال: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾[2].

﴿ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

ثم استأنَف ما يُبينُ بعد ذلك عن فعلِ العقلاءِ الناصحين لأنفسِهم بقولِه مُؤكِّدًا له بأنواعِ التَّأكيد لأجلِ إنكارِهم له بعدَمِ رجوعِهم عن معبوداتهم: ﴿ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾[3].

جملةُ ﴿ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ جوابٌ للاستفهامِ الإنكاريِّ؛ فحرفُ ﴿إِذٗا﴾ جزاءٌ للمَنْفيِّ، لا للنفيِّ؛ أي: إن اتخذْتُ مِن دُونِ اللهِ آلهةً، أكُنْ في ضلالٍ مبين[4].

﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾

ولـمَّا أقام الأدلةَ ولم يَبقَ لأحدٍ تخلُّفَ عنه علَّةٌ، صرَّح بما لوَّح إليه مِن إيمانِه، فقال مُظهِرًا لسرورِه بالتَّأكيد، وقاطعًا لِما يظنُّونه مِن أنَّه لا يجترئُ علىٰ مقاطعتِهم كلِّهم بمخالَفتِهم في أصلِ الدِّين: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾[5].

---

(١) البحر المحيط (٩/ ٥٦).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤١٩).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ١١٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٦٩).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ١١٢-١١٣).

جملــةُ ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ واقعــةٌ موقــعَ الغايــةِ مِــن الخطــاب، والنَّتيجةِ مِن الـدَّليل، وهـذا إعـلانٌ لإيمانِـه، وتسـجيلٌ عليهم بـأنَّ اللهَ هـو رَبُّهـم، لا تلك الأصنامُ[1].

ثـم صـرَّح بإيمانِـه، وصـدَع بـالحقِّ، فقـال مخاطِبًـا لقومـه: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾[2].

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ ﴾

ولمَّا كان مِن المعلوم - بما دلَّ عليه مِن صلابتِهم في تكذيبِهم الرُّسُلَ، وتهديدِهم مع ما لهم مِن الآياتِ - أنَّهم لا يُبقُون هذا الذي هو مِن مـدينتِهم وقـد صـارَحهم بمـا إن أغضَوْا[3] عنه فيه انتقَضَ عليهم أكثرُ أمرِهم؛ لـم يـذكُرْه تعـالىٰ؛ عَـدًّا لـه عِـدادَ مـا لا يُحتاجُ إلىٰ ذِكْرِه، وقال جوابًا لِمَن تشوَّف إلىٰ علمِ حالِه بعد ذلك بقولِه إيجازًا في البيانِ؛ ترغيبًا لأهلِ الإيمان: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾[4].

استئنافٌ بيانيٌّ لِما ينتظِرُه سامعُ القصَّة مِن معرفةِ ما لَقِيَه مِن قومِه بعـد أن واجَهَهـم بذلك الخطـابِ الجزْلِ[5]، وهل اهتدَوْا بهَدْيِه أو أعرَضـوا عنه وترَكـوه أو آذَوْهُ كمـا يُؤذَىٰ أمثالُه مِن الدَّاعِين إلىٰ الحقِّ، المخالِفِين هَوَىٰ الدَّهْماءِ؟ فيجابُ بمـا دلَّ عليه قولُه: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾، وهو الأهمُّ عند المسلمين، وهم مِن المقصودِين بمعرفةِ مثلِ هذا؛ ليزدادوا يقينًا وثَباتًا في إيمانهم[6].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٦٩).

(٢) البحر المحيط (٩/ ٥٧).

(٣) أي: صرفوا نظرهم.

(٤) نظم الدرر (١٦/ ١١٣-١١٤).

(٥) صفة من الجزالة؛ أي الجودة والعظمة.

(٦) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٧٠).

الجملةُ استئنافٌ وقَع جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن حكايةِ حالِه ومَقالِه، كأنَّه قيل: كيف كان لقاءُ رَبِّه بعد ذلك التَّصلُّبِ في دِينِه، والتَّسَخِّي (١) برُوحِه لوجهِه تعالىٰ؟ فقيل: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾ (٢).

﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ﴾

ولمَّا أُريدَ التَّصريحُ بوقوعِ الإحسان إليه، حَلَّ المصدرُ إلىٰ قولِه: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ (٣).

جوابٌ عن سؤالٍ نشأ مِن حكايةِ حاله، كأنَّه قيل: فماذا قال عند نَيْلِه تلك الكرامةَ السَّنية؟ فقيل: قال: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ (٤).

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ ﴾

ولمَّا كان سبحانه قد جعَل أكثَرَ جُنْدِ هذا النبيِّ الكريم مِن الملائكةِ، فأيَّده بهم في حالتَي المسالَمةِ والمصادَمة، وحرَسه ممَّن أراده في مكَّةَ المشرَّفةِ وبعدها بهم؛ ذكَّره ذلك بقولِه -عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: وما أنزَلْنا علىٰ قومِه قبل قتلِهم له مِن جُنْدٍ مِن السَّماءِ يحُولُ بَيْنَهم وبين ذلك؛ كما فعَلْنا بك إذ أراد أبو جهلٍ قَتْلَك بالصَّخرةِ وأنت ساجدٌ عند البيتِ، وغيرُه بغيرِ ذلك ممَّا هو مفصَّلٌ في السِّيَرِ، وأمَّا بعد الهجرةِ ففي غزوةِ الأحزابِ إذ أرسَلْنا عليهم رِيحًا وجنودًا ردَّتهم خائبين، وفي غزوةِ أُحُدٍ وبَدْرٍ وحُنَينٍ وغيرِ ذلك-: ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ (٥).

---

(١) مبالغة من السخاء.
(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٦٤).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ١١٤).
(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٦٤).
(٥) نظم الدرر (١٦/ ١١٥-١١٦).

رجوعٌ إلىٰ قصَّةِ أصحابِ القرية بعد أن انقطَع الحديثُ عنهم بذِكْرِ الرَّجُلِ المؤمن الذي جاء مِن أقصىٰ المدينةِ ناصحًا لهم، وكان هذا الرجوعُ بمناسبةِ أنَّ القومَ قومُ ذلك الرَّجُلِ؛ فجملةُ ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾؛ فهي مستأنَفةٌ أيضًا استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ السامعَ يَتشوَّف إلىٰ معرفةِ ما كان مِن هذا الرَّجُلِ، ومِن أمرِ قومِه الذين نصَحهم فلم يَنتصِحوا، فلمَّا بيَّن للسامعِ ما كان مِن أمرِه، عطَف عليه بيانَ ما كان مِن أمرِ القومِ بعده[١].

لمَّا بيَّن حالَه، بيَّن حالَ المتخلِّفينَ المخالِفين له مِن قومِه بقولِه تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾؛ إشارةً إلىٰ هلاكِهم بعده سريعًا علىٰ أسهَلِ وجهٍ؛ فإنَّه لم يَحتَجْ إلىٰ إرسالِ جُنْدٍ يُهلِكُهم[٢].

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾

ثم ذكَر نوعَ العقوبةِ التي حلَّتْ بهم، فقال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾.

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾

ولمَّا أخبَر عنهم سبحانه بما هو الحقُّ مِن أمرِهم، ورغَّبهم بما ضرَب لهم مِن المثَلِ ورهَّبهم، ولم يَنفعْهم ذلك؛ أنتَج التَّأسيفَ عليهم وعلىٰ الممثَّلِ بهم ومَن شابَهَهم، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[٣].

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٥).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٦٨).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ١١٧).

تذييلٌ -وهو مِن كلامِ الله تعالىٰ- واقعٌ موقعَ الرِّثاء للأُمَمِ المكذِّبةِ الرُّسُلَ، شاملٌ للأُمَّةِ المقصودة، بسَوْقِ الأمثالِ السابقة مِن قولِه: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، واطِّرادِ هذا السَّنَنِ القبيحِ فيهم[1].

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝٣١﴾

ولمَّا أتَمَّ سبحانه الخبَرَ عن أولِ أمرِ الممثَّلِ بهم، وأولِ أمرِ المؤمِنِ بهم وآخِره، وأَذِن هذا التَّحسُّرُ بأنَّ هلاكَ المكذِّبين أمرٌ لا بد منه؛ دلَّ عليه -مُعجِّبًا مِن عدَمِ نظَرِهم لأنفسِهم، ومُهدِّدًا للسامعين منهم، ومُحذِّرًا مِن آخِرِ أمرِ الممثَّلِ بهم علىٰ وجهٍ اندرَج فيه جميعُ الأُمَمِ الماضية والطوائفِ الخالية- بقولِه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾[2].

هذه الجملةُ بيانٌ لجملةِ ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لِما فيها مِن تفصيلِ الإجمال؛ فإنَّ عاقبةَ ذلك الاستهزاءِ بالرسول كانت هلاكَ المستهزِئين؛ فعدَمُ اعتبارِ كلِّ أُمَّةٍ كذَّبتْ رسولَها بعاقبةِ المكذِّبينَ قبلها يُثيرُ الحسرةَ عليها وعلىٰ نظرائها؛ كما أثارها استهزاؤُهم بالرسولِ، وقلَّةُ التبصُّرِ في دَعْوتِه، ونِذارتِه، ودلائلِ صِدْقِه[3].

لمَّا بيَّن حالَ الأوَّلِين، قال للحاضِرين: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾[4].

ثم عجَّب سبحانه مِن حالِهم حيث لم يَعتبروا بأمثالهم مِن الأُمَمِ الخالية، فقال: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٧).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ١١٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٧٠).

(٥) فتح القدير (٤/ ٤٢٢).

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ولمَّا كان كثيرٌ مِن أهلِ الجهل وذَوِي الحميَّةِ والأنَفةِ لا يُبالون بالهلاكِ في متابَعةِ الهوىٰ اعتمادًا علىٰ أنَّ مَوْتةً واحدةً في لحظةٍ يسيرةٍ أهوَنُ مِن حملِ النَّفسِ علىٰ ما لا تريد، فيكون لهم في كلِّ حينٍ مَوْتاتٌ؛ أخبَر تعالىٰ أنَّ الأمرَ غيرُ مُنقضٍ بالهلاكِ الدُّنيوي، بل هناك مِن الخِزْيِ والذُّلِّ والهوان والعقوبةِ والإيلام ما لا ينقضي أبدًا، فقال: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾(١).

أرىٰ أنَّ عَطْفَه علىٰ جملةِ ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ واقعٌ موقعَ الاحتراسِ مِن توهُّم المخاطَبينَ بالقرآنِ أنَّ قولَه: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ مؤيِّدٌ اعتقادَهم انتفاءَ البعثِ(٢).

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ بيانٌ لرجوعِ الكلِّ إلىٰ المَحشَرِ بعد بيانِ عدمِ الرُّجوع إلىٰ الدُّنيا(٣).

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

ولمَّا أتَمَّ ضَرْبَ المثَلِ المفيدِ لتمام قُدْرتِه علىٰ الأفعالِ الهائلة ببشارةٍ ونِذارةٍ، حتىٰ إنَّ مَن طُبِع علىٰ قلبِه فهو لا يؤمِنُ وإن كان قريبًا في النَّسَبِ والدار، ومَن أُسكِنَ قَلْبُه الخشيةَ يؤمِنُ وإن شَطَّ به النَّسَبُ والمَزار، فتمَّ التَّعريفُ بالقِسْمِ المقصود بالذات، وهو مَن يتَّبعُ الذِّكْرَ، وختَم بالبعث وكانوا له مُنكِرين، وكان قد جعَله في صدرِ الكلام مِن تمامِ بشارةِ مَن اتَّبع الذِّكْرَ؛ دلَّ عليه بقولِه مبتدئًا بنكرةٍ تنوينُها دالٌّ علىٰ تعظيمِها: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٢١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١١).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٦٦).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ١٢٢-١٢٣).

عطفٌ علىٰ قصَّةِ ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾؛ فإنَّه ضرَب لهم مثَلًا لحالِ إعراضِهم وتكذيبهم الرسولَ ﷺ، وما تشتمِلُ عليه تلك الحالُ مِن إشراكٍ وإنكار للبعث وأذىٰ للرسولِ ﷺ، وعاقبة ذلك كلِّه، ثم أعقَب ذلك بالتفصيلِ لإبطال ما اشتمَلتْ عليه تلك الاعتقاداتُ مِن إنكارِ البعث، ومِن الإشراكِ بالله[(١)].

مناسِبٌ لِما قبله مِن وجهينِ: أحدهما: أنَّه لمَّا قال: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾، كان ذلك إشارةً إلىٰ الحشرِ، فذكَر ما يدلُّ علىٰ إمكانِه قطعًا لإنكارِهم واستبعادِهم، وإصرارِهم وعنادِهم، فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ كذلك نُحيي الموتىٰ.

وثانيهما: أنَّه لمَّا ذكَر حالَ المرسَلين وإهلاكَ المكذِّبين، وكان شغلُهم التَّوحيدَ، ذكَر ما يدلُّ عليه، وبدأ بالأرضِ لكونِها مكانَهم، لا مفارَقةَ لهم منها عند الحركةِ والسُّكون[(٢)].

ثم ذكَر سبحانه البرهانَ علىٰ التَّوحيدِ والحشر مع تَعْدادِ النِّعَم وتذكيرها، فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبًّا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾[(٣)].

﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَٰبٍ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ٣٤﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه ما في الزُّروع وما لا ساقَ له مِن النِّعْمة والقدرة، ودلَّ السِّياقُ فيه علىٰ الحصرِ؛ أتبَعه ما بيَّن أنَّ المرادَ التَّعظيمُ، لا الحصر الحقيقيُّ بإظهارِ المنَّةِ في غيره مِن الأشجارِ الكبار والصِّغار ذاتِ الأقواتِ والفواكه، فقال دالًّا علىٰ عِظَمِه بمظهرِ العظَمةِ: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَٰبٍ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٧٢).

(٣) فتح القدير (٤/ ٤٢٢).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ١٢٤).

هذا مِن إحياءِ الأرض بإنباتِ الأشجار ذاتِ الثمار، وهو إحياءٌ أعجَبُ وأبقىٰ، وإن كان الإحياءُ بإنباتِ الزرع والكلأِ أوضَحَ دلالةً؛ لأنَّه سريعُ الحصول[(١)].

﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

ولمَّا كانت حياةُ كلِّ شيءٍ إنَّما هي بالماءِ، أشار إلىٰ ذلك بقولِه: ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾[(٢)].

لمَّا امتنَّ علىٰ خَلْقِه بإيجادِ الزُّروع لهم، عطَف بذِكْرِ الثمارِ وتنوُّعِها وأصنافها، فقال: ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾[(٣)].

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا كان السِّياقُ لإثباتِ الوحدانيَّةِ والإعلام بأنَّ ما عُبِدَ مِن دُونِه لا استحقاقَ له في ذلك بوجهٍ، ولا نَفْعَ بيدِه ولا ضُرَّ، وأنتج هذا السِّياقُ -بما دلَّ عليه مِن تفرُّدِه بكلِّ كمالٍ، وأنَّه لا أمرَ لأحدٍ معه بوجهٍ مِن الوجوهِ- تنزُّهَه عمَّا ادَّعَوْهُ مِن الشركِ غايةَ التَّنزُّهِ؛ قال لافتًا للكلام عن مظهرِ العظَمةِ -لأنَّ إثباتَها بالرَّحمةِ الدالِّ عليها أدخَلُ في التَّعظيمِ-: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾[(٤)].

اعتراضٌ بَيْنَ جملةِ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ﴾، وجملةِ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ ﴾، أثاره ذِكْرُ إحياءِ الأرض وإخراجِ الحَبِّ والشَّجَرِ منها؛ فإنَّ ذلك أحوالًا وإبداعًا عجيبًا يُذكِّر

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٣).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ١٢٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٧٥).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ١٢٧).

بتعظيمِ مُودِعِ تلك الصَّنائعِ بحِكْمتِه، وذلك تضمَّنَ الاستدلالَ بخَلْقِ الأزواجِ على طريقة الإدماج[١].

لمَّا قال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾، وشُكْرُ اللهِ بالعبادة، وهم تركوها ولم يقتنعوا بالتَّرْكِ، بل عبَدوا غيرَه وأتَوْا بالشرك؛ فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾، وغيرُه لم يخلُقْ شيئًا، فقال أو نقول: لمَّا بيَّن أنَّهم أنكَروا الآياتِ ولم يشكُروا، بيَّن ما ينبغي أن يكونَ عليه العاقلُ، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾، أو نقول: لمَّا بيَّن الآياتِ، قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ما ذكَره عن أن يكونَ له شريكٌ، أو يكونَ عاجزًا عن إحياءِ الموتى[٢].

استئنافٌ مسُوقٌ لتنزيهِه تعالى عمَّا فعَلوه مِن تركِ شكرِه على آلائه المذكورةِ، واستعظامِ ما ذُكِر في حيِّزِ صلةٍ مِن بدائعِ آثار قُدْرتِه، وأسرارِ حِكْمته، وروائعِ نَعْمائه الموجِبةِ للشُّكر، وتخصيصِ العبادة به، والتَّعجيبِ مِن إخلالهم بذلك والحالةُ هذه[٣].

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ٣٧﴾

ولمَّا درَّبهم على النَّظرِ بآياتِ الأعيان الحسيَّة الدالةِ على القدرةِ الباهرة، لا سيَّما على البعثِ؛ رقَّاهم إلى المعاني على ذلك النَّحوِ؛ فإنَّ إيجادَ كلٍّ مِن المَلَوين[٤] بعد إعدامِه أدَلُّ دليلٍ على البعثِ، فقال ناقلًا لهم مِن المكانِ الكليِّ إلى الزمانِ الكليِّ، الجامعَينِ للجواهرِ والأعراض: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٧٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٦٧).

(٤) أي: الليل والنهار.

(٥) نظم الدرر (١٦/ ١٢٨).

انتقالٌ إلىٰ دلالةِ مظاهرِ العوالِمِ العُلْوية علىٰ دقيقِ نظامِ الخالق فيها ممَّا تؤذِنُ به المشاهَدةُ مع التَّبصُّر، وابتُدئ منها بنظامِ الليل والنهار؛ لتكرُّرِ وقوعِه أمامَ المشاهَدةِ لكل راءٍ[(١)].

لمَّا استدَلَّ اللهُ بأحوالِ الأرض، وهي المكانُ الكليُّ؛ استدَلَّ بالليلِ والنهار؛ وهو الزمانُ الكليُّ؛ فإنَّ دلالةَ المكانِ والزمان مناسبةٌ[(٢)].

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ ﴾ بيانٌ لقُدْرتِه تعالىٰ الباهرةِ في الزمان بعدما بيَّنها سبحانه في المكانِ[(٣)].

﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر الوقتَينِ، ذكَر آيتَيْهما، فقال: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[(٤)].

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر آيةَ النَّهار، أتبعها آيةَ اللَّيل، فقال: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾[(٥)].

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

ولمَّا تقرَّر أنَّ لكلٍّ منهما مَنازِلَ لا يَعدُوها، فلا يَغلِبُ ما هو آيتُه ما هو آيةُ الآخَرِ، بل إذا جاء سلطانُ هذا ذهَب ذاك، وإذا جاء ذاك ذهَب هذا، فإذا اجتمعا قامت الساعةُ؛

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٧).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٧٥).
(٣) روح المعاني (١٢/ ١٠).
(٤) نظم الدرر (١٦/ ١٢٩).
(٥) نظم الدرر (١٦/ ١٣١).

تحرَّر أنَّ نتيجةَ هذه القضايا: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[١].

لمَّا جرىٰ ذِكْرُ الشمسِ والقمر في مَعرِضِ الآياتِ الدالة علىٰ انفرادِه تعالىٰ بالخَلْقِ والتدبير، وعلىٰ صفاتِ إلهيَّته التي مِن متعلَّقاتِها تعلُّقُ صفةِ القدرة بآيةِ الشمس وسَيْرِها، والقمرِ وسَيْرِه، وكان الناس يَعرِفون تقارُبَ الشمسِ والقمر فيما يراه الرَّاؤون، وكانوا يُقدِّرون سَيْرَهما بأسماتٍ[٢] معلَّمةٍ بعلاماتٍ نُجوميَّةٍ؛ تُسمَّىٰ بُروجًا بالنسبةِ لسَيْرِ الشمس، وتُسمَّىٰ مَنازِلَ بالنسبةِ لسَيْرِ القمر، وكانوا يَعلَمون شِدَّةَ قُرْبِ المنازلِ القمرية مِن البروجِ الشَّمسية؛ فإنَّ كلَّ بُرْجٍ تُسامِتُه[٣] منزلتانِ أو ثلاثُ مَنازِلَ، وبعضُ نجومِ المنازل هي أجزاءٌ مِن نجومِ البروج: زادهم اللهُ عِبْرةً وتعليمًا بأنَّ للشمسِ سَيْرًا لا يُلاقي سَيْرَ القمرِ، وللقمر سَيْرًا لا يُلاقي سَيْرَ الشمس، ولا يمُرُّ أحدُهما بطرائقِ مَسِيرِ الآخَر، وأنَّ ما يَتراءىٰ للناس مِن مشاهدةِ الشمس والقمر في جوٍّ واحد وفي حَجْمَينِ متقارِبَينِ، وما يَتراءىٰ لهم مِن تقارُبِ نجومِ بروجِ الشمس ونجومِ مَنازِلِ القمر: إنْ هو إلا مِن تخيُّلاتِ الأبصار، وتفاوُتِ المقاديرِ بَيْنَ الأجرامِ والأبعاد[٤].

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾

ولمَّا ذكَر ما حَدَّ له حدودًا في السِّباحةِ في وجهِ الفَلَكِ لو تعدَّاها لاختلَّ النظامُ، ذكَر ما هيَّأه مِن الفُلْكِ للسِّباحةِ علىٰ وجهِ الماء الذي طبَّق الأرضَ في زمنِ نوحٍ عليه السلام حتىٰ

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٣٢).

(٢) جمع سَمْت، أي: العلامة.

(٣) أي: توازيه.

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٣).

كانت كالسماءِ، ولو تعدَّتِ السَّفينةُ ما حَدَّ لها سبحانه مِن المَنازِلِ، فنفَذتْ إلىٰ بحرِ الظُّلماتِ؛ لفسَد الشَّأنُ، وكانوا فيها كأنَّهم في الأرضِ، وبسَيْرِها كأنَّهم يخترقون الجبالَ والفيافيَ والقِفارَ[1]؛ كلُّ ذلك تذكيرًا بأيامِ الله، وتنبيهًا علىٰ استدرارِ نِعَمِه، وتحذيرًا مِن سَطَواتِه ونِقَمِه، ومَنًّا عليهم بما يسَّر لهم مِن سلوكِ البحر، والتَّوصُّلِ به إلىٰ جليلِ المنافع، فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾[2].

انتقالٌ مِن عَدِّ آياتٍ في الأرضِ وفي السماء إلىٰ عَدِّ آيةٍ في البحر تَجمَعُ بَيْنَ العِبْرةِ والمنَّة، وهي آيةُ تسخيرِ الفُلْكِ أن تَسِيرَ علىٰ الماء، وتسخيرِ الماءِ لتطفوَ عليه دُونَ أن يُغرِقَها[3].

لها مناسبةٌ مع ما تقدَّم مِن وجهين: أحدهما: أنَّه تعالىٰ لمَّا مَنَّ بإحياءِ الأرض، وهي مكانُ الحيواناتِ؛ بيَّن أنَّه لم يَقتصِرْ، بل جعَل للإنسان طريقًا يُتَّخَذُ مِن البحرِ خيرًا، ويَتوسَّطُه أو يَسِيرُ فيه كما يسير في البَرِّ. وثانيهما: هو أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن سِباحةَ الكواكبِ في الأفلاك، ذكَر ما هو مِثْلُه؛ وهو سِباحةُ الفُلْكِ في البحارِ[4].

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ولمَّا كانت هذه الآيةُ لم تنقطِعْ، بل عَمَّ سبحانه بنَفْعِها؛ قال: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾[5].

---

(١) أي: الصحاري.

(٢) نظم الدرر (١٦/ ١٣٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٦).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٨٢).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ١٣٤).

جملةُ ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ معترضةٌ في خلالِ آيةِ البحر، اقتضتْها مراعاةُ النَّظير؛ تذكيرًا بنِعْمةِ خَلْقِ الإبلِ صالحةً للأسفار، فحُكِيتْ آيةُ الإلهام بصُنْعِ الفُلْكِ مِن حيث الحِكْمةُ العظيمة في الإلهامِ، وتسخيرِ البحرِ لها، وإيجادِها في وقتِ الحاجة لحِفْظِ النَّوع؛ فلذلك لم يُؤْتَ في جانبِها بفعلِ الخَلْقِ المختصِّ بالإيجاد دُونَ صُنْعِ النَّاس[1].

﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

ولمَّا كان قد أنجىٰ سبحانه آباءَنا حين حمَلَه في ذلك الماءِ الذي لم يكُنْ مِثْلُه قطُّ، وكان ربما ظُنَّ أنَّ الإنجاءَ لِسِرٍّ مِن الأسرارِ غيرِ إرادته، جعَل أمرَ ما خلَق مِن مِثْلِه تارةً، وتارةً ليُعرَفَ أنَّ ذلك هو بصُنْعِه، فتُشكَرَ نِعْمتُه أولًا وآخِرًا، فقال: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾[2].

جملةُ ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾؛ باعتبارِ دلالتِها الكِنائيَّةِ علىٰ استمرارِ هذه الآيةِ وهذه المنَّةِ؛ تذكيرًا بأنَّ الله تعالىٰ الذي امتَنَّ عليهم إذا شاء جعَل فيما هو نِعْمةٌ علىٰ الناس نِقْمةً لهم لحِكْمةٍ يعلَمُها[3].

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

ولمَّا كان هو سبحانه يُصرِخُ[4] مَن يشاءُ فيُنجيه، وكانت «لا» نافيةً نفيًا مستغرِقًا؛ استثنىٰ ما كان منه سبحانه، فقال: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٨).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ١٣٤-١٣٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٩).

(٤) أي: يستجيب له.

(٥) نظم الدرر (١٦/ ١٣٥).

الاستثناءُ في قولِه: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ منقطِعٌ؛ فإنَّ الرَّحمةَ ليست مِن الصَّريخِ، ولا مِن المُنقِذِ؛ وإنَّما هي إسعافُ اللهِ تعالىٰ إيَّاهم بسكونِ البحرِ، وتمكينِهم مِن السَّبْحِ علىٰ أعوادِ الفُلْكِ(١).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا الحالُ معلومًا لهم لا يُنازِعون فيه بوجهٍ، بل إذا وقَعوا فيه أخلَصوا الدُّعاءَ وأمَروا به وخلَعوا الأندادَ، وكان عِلْمُ ذلك مُوجِبًا لصاحبه ألَّا يغفُلَ عن القادرِ عليه وقتًا ما، بل لا يفتُرُ عن شُكْرِه خوفًا مِن مَكْرِه، وكان العاقل إذا ذُكِّر بأمرٍ فعَلِمه يقينًا كان جديرًا بأن يَقبلَه، فإذا لم يَقبلْهُ وخُوِّف عاقبتَه بأمرٍ محتملٍ جَدَّ في الاحترازِ منه؛ عجَّب منهم في إعراضِهم عنه سبحانه مع قيامِ الأدلةِ القاطعة علىٰ وَحْدانيَّتِه، وأنَّه قادرٌ علىٰ ما يريد مِن عذابٍ وثوابٍ، وإقبالِهم علىٰ ما لا يَنفعُهم بوجهٍ، فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(٢).

تخلَّص الكلامُ مِن عدمِ انتفاعِهم بالآيات الدالَّةِ علىٰ وَحْدانيَّةِ الله إلىٰ عدمِ انتفاعِهم بالأقوال المبلَّغةِ إليهم في القرآنِ مِن الموعظةِ، والتَّذكيرِ بما حَلَّ بالأُمَمِ المكذِّبةِ؛ أن يُصِيبَهم مثلُ ما أصابهم، وبعدمِ انتفاعهم بتذكيرِ القرآن إيَّاهم بالأدلةِ علىٰ وَحْدانيَّةِ الله، وعلىٰ البعث(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٩-٣٠).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ١٣٥-١٣٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٠).

وجهُ تعلُّقِ الآيةِ بما قبلها: هو أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا عدَّد الآياتِ، وكانت الآياتُ تُفيدُ اليقينَ، وتوجِبُ القطعَ بما قال تعالىٰ، ولم تُفِدهم اليقينَ؛ قال: فلا أقَلَّ مِن أن يَحترزوا عن العذابِ؛ فإنَّ مَن أُخبِرَ بوقوعِ عذابٍ يَتَّقِيه، وإن لم يَقطَعْ بصِدْقِ قولِ المخبِرِ احتياطًا، فقال تعالىٰ: إذا ذُكِر لهم الدَّليلُ القاطع لا يعترفون به، وإذا قيل لهم: اتَّقُوا، لا يَتَّقون، فهم في غايةِ الجهل، ونهايةِ الغفلة؛ لا مِثْلُ العلماءِ الذين يَتَّبعون البرهانَ، ولا مِثْلُ العامةِ الذين يَبنُون الأمرَ علىٰ الأحوطِ(١).

بيانٌ لإعراضِهم عن الآيات التَّنزيليَّة بعد بيانِ إعراضِهم عن الآيات الآفاقيَّة التي كانوا يشاهِدونها، وعدمِ تأمُّلِهم فيها(٢).

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: أعرَضوا؛ لأنَّ الإعراضَ قد صار لهم خُلُقًا لا يَقدِرون علىٰ الانفكاكِ مِن أَسْرِه؛ عطَف عليه قولَه إشارةً إليه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾(٣).

جملةُ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ واقعةٌ موقعَ التَّذييلِ لِما قبلها؛ ففيها تعميمُ أحوالِهم وأحوالِ ما يُبلَّغونه مِن القرآن، فكأنَّه قيل: وإذا قيل لهم: اتَّقُوا، أعرَضوا، والإعراضُ دَأْبُهم في كلِّ ما يقال لهم(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٨٦).

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٦٩).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ١٣٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣١).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولمَّا كانت الرَّحمةُ بالرِّزق والنَّصر إنَّما تُنالُ بالرحمةِ للضُّعفاءِ «هل تُرزَقون وتُنصَرون إلا بضُعَفائِكم»[(١)]، «إنَّما يَرحَمُ اللهُ مِن عبادِه الرُّحَماءَ»[(٢)]، وكان الإنفاقُ خُلُقَ المؤمنين؛ قال مُبيِّنًا أنَّهم انسلَخوا عن الإنسانيةِ جملةً، فلا يَخافون ما يجُوزُ وقوعُه مِن العذاب، ولا يَرجُون ما يجوز حلولُه مِن الثواب: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[(٣)].

كانوا مع ما هم عليه مِن الكرَمِ يشُحُّون على فقراءِ المسلمين، فيَمنَعونهم البَذْلَ تَشفِّيًا منهم، فإذا سَمِعوا مِن القرآنِ ما فيه الأمرُ بالإنفاق، أو سألهم فقراءُ المسلمين مِن فضولِ أموالهم أو أن يُعطُوهم ما كانوا يَجعَلونه للهِ مِن أموالهم؛ قالوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[(٤)].

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر قلَّةَ خيرِهم المستنِدةَ إلى تهكُّمِهم باليوم الذي ذُكِّروا به بالأمرِ بالاتِّقاءِ والتَّعليل بترجِّي الرحمةِ، أتبَعه حكايةَ استهزاءٍ آخَرَ منهم، دالٍّ على عظيمِ جهلِهم بتكذيبِهم بما يُوعَدون على وجهِ التَّصريحِ بذلك اليومِ، والتصويرِ له بما لا يسَعُ مَن له أدنى مُسْكةٍ[(٥)] غيرُ الانقيادِ له، فقال: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٦).
(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ١٣٦-١٣٧).
(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٢).
(٥) أي: عقل.
(٦) نظم الدرر (١٦/ ١٣٨).

ذكَر عَقِب استهزائهم بالمؤمنين لمَّا منَعوهم الإنفاقَ بعلَّةِ أنَّ اللهَ لو شاء لأطعَمهم استهزاءً آخَرَ بالمؤمنين في تهديدِهم المشركين بعذابٍ يحُلُّ بهم، فكانوا يَسألونهم هذا الوعدَ استهزاءً بهم بقرينةِ قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ فالاستفهامُ مستعمَلٌ كنايةً عن التهكُّمِ والتكذيب(١).

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

ولمَّا كان الحازمُ مَن لا يَتهكَّم بشيءٍ إلا إذا استعَدَّ له بما هو محقَّقُ الدَّفعِ، بيَّن سَفَهَهم بإتيانها بَغْتةً، وبأنَّه لا بد مِن وقوعها، وأنَّها بحيث تملأُ السَّماواتِ والأرضَ، فكأنَّه لا شيءَ فيهما غيرُها، بقولِه: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾(٢).

فأجاب اللهُ سبحانه عنهم بقولِه: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾(٣).

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

ولمَّا كانت هذه النَّفْخةَ المميتةَ، سبَّب عنها قولَه: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾(٤).

فُرِّعَ علىٰ ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ جملةُ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾؛ أي: لا يَتمكَّنون مِن توصيةٍ علىٰ أهليهم وأموالِهم مِن بعدِهم؛ كما هو شأنُ المُحتضَر(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٣).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ١٣٩).

(٣) فتح القدير (٤/ ٤٢٨).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ١٤٠).

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٥).

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾

ولمَّا دلَّ ذلك على الموتِ قطعًا، عقَّبه بالبعثِ؛ ولذلك عبَّر فيه بالنَّفخِ؛ فإنَّه معروفٌ في إفاضةِ الرُّوحِ، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾(١).

يجوز أن تكونَ الواوُ للحالِ، والجملةُ موضعُ الحال؛ أي: ما ينظُرون إلا صيحةً واحدة وقد نُفِخ في الصُّور إلخ، ويجوز أن تكونَ الواوُ اعتراضيةً، وهذا الاعتراضُ واقعٌ بَيْنَ جملةِ ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾ وجملةِ ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا﴾؛ والمقصودُ: وعظُهم بالبعثِ الذي أنكَروه، وبما وراءه(٢).

ثم أخبَر سبحانه عمَّا يَنزِلُ بهم عند النَّفخةِ الثانية، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾(٣).

﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥٢﴾

ولمَّا تشوَّفتِ النَّفسُ إلى سماع ما يقولون إذا عاينوا ما كانوا يُنكِرون، استأنَف قولَه: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾(٤).

استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ وَصْفَ هذه الحالِ بعد حكايةِ إنكارِهم البعثَ وإحالتِهم إيَّاه يُثيرُ سؤالَ مَن يسألُ عن مَقالِهم حينما يرَوْنَ حَقِّيَّةَ البعثِ(٥).

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٤١).
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٦).
(٣) فتح القدير (٤/ ٤٢٩).
(٤) نظم الدرر (١٦/ ١٤٢).
(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٧).

﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

ولمَّا كان الإخبارُ بالنَّفخِ لا يَنفِي التَّعدُّدَ، قال -محقِّرًا لأمرِ البعثِ بالنسبة إلىٰ قُدْرتِه، مُظهِرًا للعنايةِ بتأكيدِ كونها واحدةً بجَعْلِ الخبرِ عنه أصلًا مستقلًّا بفصله عن النَّفْخِ، والإتيانِ فيه بفعلِ الكونِ و﴿ إِن ﴾ النافيةِ لأدنىٰ مظاهرِ مدخولها، فكيف بما وراءه؟ دُونَ «ما» التي إنَّما تَنفِي التَّمامَ-: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾[(١)].

فَذْلكةٌ لجملةِ ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾؛ لأنَّ النَّفْخَ مرادِفٌ للصَّيحةِ في إطلاقها المجازيِّ؛ فاقترانُ فعلِ ﴿ كَانَتْ ﴾ بتاءِ التأنيث لتأويلِ النفيِ مأخوذٌ مِن ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ بمعنىٰ النَّفْخةِ يُنظَرُ إلىٰ الإخبارِ عنه بـ﴿ صَيْحَةً ﴾، ووصفُها بـ﴿وَاحِدَةً ﴾ لأنَّ ذلك الوصفَ هو المقصودُ مِن الاستثناءِ المفرَّغ؛ أي: ما كان ذلك النَّفخُ إلا صَيْحةً واحدة، لا يُكرَّرُ استدعاؤهم للحضور، بل النَّفخُ الواحد يُخرِجُهم مِن القبور، ويَسِيرُ بهم، ويُحضِرُهم للحسابِ[(٢)].

﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا الإحضارُ بسببِ العدل وإظهارِ جميع صفاتِ الكمال، قال: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[(٣)].

إن كان قولُه تعالىٰ: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ﴾ حكايةً لكلامِ الكفار يومَ البعثِ، كان هذا كلامًا مِن قِبَلِ اللهِ تعالىٰ بواسطةِ الملائكة، وكانت الفاءُ في قوله: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٩).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ١٤٤).

نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا ﴾ فاءٌ فصيحةٌ، وهي التي تُفصِحُ وتُنبِئُ عن كلامٍ مقدَّرٍ نشأ عن قولِه: ﴿فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٥٣﴾، فهو خطابٌ للذين قالوا: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾؛ والمعنىٰ: فقد أيقَنْتم أنَّ وَعْدَ الله حقٌّ، وأنَّ الرُّسُلَ صدَقوا، فاليومَ يومُ الجزاء كما كان الرُّسُلُ يُنذِرونكم. وإن كان قولُه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مِن كلامِ الملائكة، كانت الفاءُ تفريعًا عليه، وكانت جملةُ ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ إلخ معترضةً بَيْنَ المفرَّعِ والمفرَّعِ عليه[1].

ثم بيَّن ما يكونُ في ذلك اليومِ بقولِه تعالىٰ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[2].

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥﴾

ولمَّا قرَّر أنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العمل، شرَع في تفصيلِه، وبدأ بأشرَفِ الحِزْبَينِ في جوابِ مَن سأل عن هذا الجزاءِ، فقال مُؤسِّفًا لأهلِ الشقاء بالتَّذكيرِ بالتَّأكيد بما كان لهم مِن الإنكارِ في الدُّنيا، وإظهارًا للرغبةِ في هذا القول، والتَّبجُّحِ به لِما له مِن عظيمِ الثَّمرةِ: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾[3].

الجملةُ مستأنَفةٌ، وهذا ممَّا يقال لِمَن حَقَّ عليهم العذابُ؛ إعلامًا لهم بنزولِ مرتبتهم عن مراتبِ أهلِ الجنَّةِ إعلانًا بالحقائقِ؛ لأنَّ ذلك عالَمُ الحقائقِ، وإدخالًا للنَّدامةِ عليهم علىٰ ما فرَّطوا فيه مِن طلبِ الفوزِ في الآخرة، وهذا يُؤذِنُ بأنَّ أهلَ الجنَّةِ عُجِّلَ بهم إلىٰ النعيمِ قبل أن يُبعَثَ إلىٰ النارِ أهلُها، وأنَّ أهلَ الجنَّةِ غيرُ حاضرين ذلك المَحضَرَ[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٤٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٩٣).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ١٤٥).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٤١).

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ مِن جملةِ ما سيقال لهم يومئذٍ زيادةً لحَسْرتِهم وندامتِهم؛ فإنَّ الإخبارَ بحُسْنِ حالِ أعدائهم إثرَ بيانِ سُوءِ حالهم ممَّا يَزيدُهم مَساءةً علىٰ مساءةٍ، وفي هذه الحكايةِ مَزْجَرةٌ لهؤلاء الكفرةِ عمَّا هم عليه، ومَدْعاةٌ إلىٰ الاقتداءِ بسيرةِ المؤمنين(١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّ كلَّ أحدٍ لا يجازىٰ إلا ما عَمِله، ذكَر جزاءَ الفريقين، فبدأ بجزاءِ أهلِ الجنَّة(٢).

﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦﴾

ولمَّا كانت النَّفسُ لا يَتِمُّ سرورُها إلا بالقرينِ الملائم، قال: ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾(٣).

استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ كيفيَّةِ شُغُلِهم وتفكُّههم، وتكميلِهما بما يَزيدُهم بهجةً وسرورًا مِن شَرِكةِ أزواجِهم لهم فيما هم فيه مِن الشُّغُلِ والفُكاهةِ(٤).

﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧﴾

ولمَّا قدَّم المعانيَ التي تُوجِبُ أكلَ الفاكهةِ، أتىٰ بها، فقال: ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾(٥).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٧٢).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٦٩٧).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ١٤٦).
(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٧٣).
(٥) نظم الدرر (١٦/ ١٤٨).

بيانٌ لِما يَتمتَّعون به في الجَنَّةِ مِن المآكلِ والمشارب، ويَتلذَّذون به مِن المَلاذِّ الجُسْمانيَّة والرُّوحانيَّة، بعد بيانِ ما لهم فيها مِن مجالسِ الأُنْس، ومحافلِ القُدْس؛ تكميلًا لبيانِ كيفيَّةِ ما هم فيه مِن الشُّغُلِ والبهجة[1].

﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ (٥٨)

ثم فسَّر الذي يَدَّعُونه - أي: يطلُبونه - بغايةِ الاشتياق إليه، أو استأنَف الإخبارَ عنه بقولِه: ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾[2].

استئنافُ قَطْعٍ عن أن يُعطَفَ على ما قبله؛ للاهتمامِ بمضمونه، وهو الدلالةُ على الكرامةِ والعنايةِ بأهل الجَنَّة؛ إذ يُوجَّهُ إليهم سلامُ الله[3].

كأنَّه تعالى لمَّا قال: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾، بيَّنه ببدَلِه، فقال لهم: ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾[4].

﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ (٥٩)

ولمَّا كان التَّقديرُ: فانظُروا وازدادوا حَسْرةً أيُّها المجرمون، عطَف عليه قولَه: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾[5].

يجوز أن يكونَ عطفًا على جملةِ ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٍ﴾، ويجوز أن يُعطَفَ على ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا ﴾؛ أي: ويقال: امتازوا اليومَ أيُّها المجرِمون، على الضدِّ ممَّا يقال

(١) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٧٣).
(٢) نظم الدرر (١٦/ ١٤٩).
(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٤٤).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٩٦).
(٥) نظم الدرر (١٦/ ١٥٠).

لأصحابِ الجَنَّةِ؛ والتَّقدير: سلامٌ يقالُ لأهلِ الجَنَّة قولًا، ويقال للمجرِمين: امتازُوا، فتكون مِن توزيعِ الخطابَينِ علىٰ مخاطَبين في مَقامٍ واحد(١).

وجهُ الترتيبِ: أنَّ المجرِمَ يَرىٰ منزلةَ المؤمن ورِفْعتَه، ونزولَ دَرَكتِهِ وضَعَتَهُ(٢)، فيَتحسَّرُ، فيقالُ لهم: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾(٣).

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ عطفٌ إمَّا علىٰ الجملةِ السابقة المسُوقةِ لبيانِ أحوالِ أهل الجَنَّة، لا علىٰ أنَّ المقصودَ عطفُ فعلِ الأمر بخصوصِه حتىٰ يَتمحَّل(٤) له مُشاكِلٌ يصحُّ عطفُه عليه، بل علىٰ أنَّه عطفُ قصَّةِ سُوءِ حالِ هؤلاء وكيفيَّةِ عقابهم علىٰ قصَّةِ حُسْنِ حالِ أولئك ووصفِ ثوابهم(٥).

لمَّا ذكَر تعالىٰ جزاءَ المتَّقِين، ذكَر جزاءَ المجرِمين(٦).

﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠﴾

ولمَّا أمَرهم بالامتياز أمرًا إراديًّا حُكْميًّا، فامتازوا في الحالِ، وأسَرُّوا النَّدامةَ، وسُقِط في أيديهم، فعَضُّوا الأناملَ، وصَرُّوا(٧) بالأسنانِ، وشخَصتْ منهم الأبصارُ، وكلَحتِ الوجوهُ، وتقلَّصتِ الشِّفاهُ، ونُكِّستِ الرؤوسُ، وشحَبتِ الألوانُ، وسُحِبوا علىٰ

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٤٥).

(٢) أي: ذلته وحقارته.

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٩٧).

(٤) أي: يتكلف.

(٥) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٧٤).

(٦) تفسير السعدي (ص: ٦٩٨).

(٧) أي: ضغطوا بها حتىٰ يصدر عنها صوت.

الوجوهِ، وكان مِن فنونِ المَساءةِ وشؤونِ الحسرة ما تَعجِزُ عنه العقولُ، وتذُوبُ مِن ذِكْرِه النُّفوسُ، وتنخلعُ القلوبُ؛ قال سبحانه -مُوبِّخًا لهم في تلك الحالِ بهذا المقال، معلِّلًا حُكْمَه عليهم بذلك بأنَّه لم يترُكْهم هَمَلًا، بل ركَّب فيهم مِن العقولِ، ونصَب لهم مِن الدَّلائلِ علىٰ كماله ما هو كافٍ لهم في النَّجاةِ، ثم ما وكَلهم إلىٰ ذلك، بل أرسَلَ إليهم رُسُلًا، وأنزَل عليهم كتبًا-: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[١].

إقبالٌ علىٰ جميعِ البشر الذين جمَعهم المَحشَرُ، غيرَ أهلِ الجَنَّة الذين عُجِّلوا إلىٰ الجَنَّة، فيَشمَل هذا جميعَ أهلِ الضَّلالة مِن مشركين وغيرِهم، ولعلَّه شاملٌ لأهلِ الأعراف، وهو إشهادٌ علىٰ المشركين وتوبيخٌ لهم، والاستفهامُ تقريريٌّ، وخُوطِبوا بعنوانِ بني آدمَ؛ لأنَّ مقامَ التَّوبيخ علىٰ عبادتِهم الشَّيطانَ يقتضي تذكيرَهم بأنَّهم أبناءُ الذي جعَله الشَّيطانُ عدوًّا له[٢].

لمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ حالَ المؤمنين والمجرِمين، كان لقائلٍ أن يقولَ: إنَّ الإنسانَ كان ظلومًا جهولًا، والجهلُ مِن الأعذارِ؛ فقال اللهُ: ذلك عند عدمِ الإنذارِ، وقد سبَق إيضاحُ السُّبُلِ بإيضاحِ الرُّسُلِ، وعَهِدْنا إليكم وتلَوْنا عليكم ما ينبغي أن تفعلوه وما لا ينبغي[٣].

هذا مِن جملةِ ما يقال لهم بطريقِ التَّقريع والإلزام والتَّبكيت بَيْنَ الأمرِ بالامتياز وبَيْنَ الأمرِ بدخول جهنَّمَ[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٥١-١٥٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٤٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٩٧).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٧٥).

﴿ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ ﴾

ولمَّا بكَّتهم بالتَّذكيرِ بما ارتكَبوا مع النَّهيِ عن عبادةِ العدوِّ تقديمًا لدَرْءِ المفاسدِ، وبَّخهم بالتَّذكيرِ بما ضيَّعوا مع أخذِ العهود مِن واجبِ الأمر بعبادةِ الوليِّ، فقال: ﴿ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾(١).

جملةُ ﴿ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِي ﴾ عطفٌ على ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ ﴾ بإعادة ﴿أَن ﴾ التفسيريةِ؛ فهما جملتانِ مفسِّرتانِ لعهدَينِ(٢).

لمَّا منَع عبادةَ الشَّيطان، حمَل على عبادةِ الرحمن(٣).

﴿ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فاتَّبَعْتموه وسلَكْتم سبيلَه مع اعوجاجِه، وترَكْتم سبيلي مع ظهورِ استقامتِه؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴾(٤).

جوابُ قَسَمٍ محذوفٍ، والجملةُ استئنافٌ مسُوقٌ لتشديدِ التَّوبيخ، وتأكيدِ التَّقريع؛ ببيانِ أنَّ جناياتِهم ليست بنقضِ العهد فقط، بل به وبعدمِ الاتعاظ بما شاهَدوا مِن العقوباتِ النازلة على الأُمَمِ الخالية بسببِ طاعتِهم للشيطان(٥).

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣ ﴾

ولمَّا أنكَر عليهم أن يَفعَلوا فِعْلَ مَن لا عقلَ له، قال مُتمِّمًا للخِزْيِ: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾(٦).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٥٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٤٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٠٠).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ١٥٣).

(٥) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٧٥).

(٦) نظم الدرر (١٦/ ١٥٥).

إقبالٌ علىٰ خطابِ الذين عبَدوا معبوداتٍ يُسوِّلها لهم الشَّيطانُ؛ إذ تبدو لهم جهنَّمُ بحيث يشارُ إليها، ويَعرِفون أنَّها هي جهنَّمُ التي كانوا في الدُّنيا يُنذَرون بها، وتُذكَرُ لهم في الوعيدِ مدَّةَ الحياة[١].

استئنافٌ، يُخاطَبون به بعد تمامِ التَّوبيخِ والتَّقريع والإلزامِ والتَّبكيت عند إشرافِهم علىٰ شَفيرِ جهنَّمَ[٢].

﴿ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤ ﴾

ثم يُكمَلُ ذلك بأن يؤمَرَ بهم إلىٰ النارِ، ويقالَ لهم: ﴿ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾[٣].

﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥ ﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: هل يحكُمُ فيهم بعِلْمِه أو يَجري الأمرُ علىٰ قاعدةِ الدُّنيا في العملِ بالبيِّنةِ؟ بيَّن أنَّه علىٰ أظهَرَ مِن قواعدِ الدُّنيا، فقال مهوِّلًا لليومِ علىٰ النَّسَقِ الماضي في مظهرِ العظَمة لأنَّه أليَقُ بالتَّهويلِ: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[٤].

في الترتيبِ وجوهٌ: الأول: أنَّهم حين يَسمَعون قولَه تعالىٰ: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ يريدون أن يُنكِروا كُفْرَهم، فيَختِمُ اللهُ علىٰ أفواههم، فلا يَقدِرون علىٰ الإنكارِ، ويُنطِقُ اللهُ غيرَ لسانهم مِن الجوارحِ، فيَعترفون بذُنوبِهم. الثاني: لمَّا قال اللهُ تعالىٰ

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٤٩).
(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٧٦).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٦٩٨).
(٤) نظم الدرر (١٦/ ١٥٦).

لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾، لم يكُنْ لهم جوابٌ، فسكَتوا، وخَرِسوا، وتكلَّمتْ أعضاؤُهم غيرَ اللسانِ[1].

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

ولمَّا أتَمَّ بضَرْبِ المثَلِ وما بعده الدَّلالةَ على مضمونِ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾، وما عُلِّلَتْ به مِن إحياءِ الموتى، ودلَّ على ذلك بما تركه كالشمسِ ليس فيه لَبْسٌ، وزاد مِن بحورِ الفوائد وجميلِ العوائد ما ملأ الأكوانَ مِن مُوجِبات الإيمان، وذكَر ما في فريقَي المتَّبِعينَ والممتنِعينَ يومَ البعثِ، وختَم بالخَتْمِ على الأفواهِ بعد البعثِ؛ أتبعه آيةَ الخَتْمِ بالطَّمْسِ والمَسْخِ قبل الموتِ تهديدًا، فقال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾[2].

أنَّه لمَّا ذكَر اللهُ إلجاءَهم إلى الاعترافِ بالشرك بعد إنكارِه يومَ القيامة، كان ذلك مُثِيرًا لأن يَهجِسَ في نفوسِ المؤمنين أن يتمنَّوا لو سلَك اللهُ بهم في الدُّنيا مِثْلَ هذا الإلجاءِ فألجأهم إلى الإقرارِ بوَحْدانيَّته، وإلى تصديقِ رسوله واتِّباعِ دِينِه، فأفاد اللهُ أنَّه لو تعلَّقتْ إرادتُه بذلك في الدُّنيا لفعَلَ؛ إيماءً إلى أنَّ إرادتَه تعالى تَجري تعلُّقاتُها على وَفْقِ عِلْمِه تعالى وحِكْمتِه[3].

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

ولمَّا كان هذا كلُّه مع القدرةِ على الحركة، قال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾[4].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٠٢).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ١٥٧-١٥٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٥١).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ١٥٩).

ثم كرَّر التَّهديدَ لهم، فقال: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾[١].

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ولمَّا كانت هذه أمورًا فرضيَّةً يَتأتَّىٰ لبعضِ المعانِدين اللُّدِّ[٢] الطعنُ فيها مكابَرةً، وكان كونُهُ ﷺ نبيَّ الرحمةِ مانعًا مِن المفأجاةِ بالتَّعذيب بعذابِ الاستئصال بها؛ دلَّ عليها بما يشاهِدونه مِن باهرِ قُدْرتِه، وغريبِ حِكْمتِه في صَنْعتِه، فقال دالًّا بالعاطفِ علىٰ غيرِ معطوفٍ عليه ظاهرٍ علىٰ أنَّ التَّقديرَ: فقد خلَقْناهم نُطَفًا، ثم عَلَقًا، ثم مُضَغًا، ثم أولَدْناهم لا يَعلمون شيئًا ولا يَقدِرون علىٰ شيءٍ، ثم درَّجناهم في أطوارِ الأسنانِ مُعْلِينَ لهم في مَعارجِ القُوَىٰ الظاهرةِ والباطنة إلىٰ أن صاروا إلىٰ حدِّ الأشُدِّ - وهو استكمالُ القُوَىٰ البشريَّة - فأوقَفْنا قُواهم الظاهرةَ والباطنة، فلم نُجْرِ العادةَ بأن نُحدِثَ فيهم إذ ذاك قوَّةً لم تكُنْ أيامَ الشَّبابِ: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾[٣].

قد يلُوحُ في بادئِ الرأيِ أنَّ موقعَ هذه الآيةِ كالغريبِ عن السِّياق، فيظُنُّ ظانٌّ أنَّها كلامٌ مستأنَفٌ انتُقِل به مِن غرضِ الحديثِ عن المشركين وأحوالِهم والإملاءِ لهم إلىٰ التذكيرِ بأمرٍ عجيب مِن صُنْعِ الله حتىٰ يخالَ أنَّ الذي اقتضىٰ وقوعَ هذه الآيةِ في هذا الموقعِ أنَّها نزَلتْ في تِباعِ نزولِ الآيات قبلها لسببٍ اقتضىٰ نزولَها، فجعَل كثيرٌ مِن المفسِّرين موقعَها موقعَ الاستدلالِ علىٰ أنَّ قُدْرةَ اللهِ تعالىٰ لا يَستصعِبُ عليها

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤٣٤).

(٢) جمع ألد، وهو الشديد العداوة.

(٣) نظم الدرر (١٦/ ١٦٠-١٦١).

طَمْسُ أعيُنِهم ولا مَسْخُهم كما غيَّر خِلْقةَ المُعمَّرِينَ مِن قوَّةٍ إلىٰ ضَعْفٍ، وجعَلها بعضُ المفسِّرين واقعةً موقعَ الاستدلالِ علىٰ المكانِ البعيد؛ أي: إنَّ الذي قدَر علىٰ تغييرِ خَلْقِهم مِن شبابٍ إلىٰ هَرَمٍ قادرٌ علىٰ أن يَبعَثَهم بعد الموتِ. والوجهُ عندي أن تكون جملةُ ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ عطفًا علىٰ جملةِ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾؛ فهي جملةٌ شَرْطية عُطِفتْ علىٰ جملةٍ شرطية؛ فالمعطوفُ عليها جملةُ شرطٍ امتناعيٍّ، والمعطوفةُ جملةُ شرطٍ تعليقيٍّ، والجملةُ الأُولىٰ أفادت إمهالَهم والإملاءَ لهم، والجملةُ المعطوفة أفادت إنذارَهم بعاقبةٍ غيرِ محمودة، ووعيدَهم بحلولِها بهم؛ أي: إن كنَّا لم نَمسَخْهم ولم نَطمِسْ علىٰ عيونِهم، فقد أبقَيْناهم ليكونوا مغلوبِينَ أذلَّةً[(١)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ الطَّمْسَ والمَسْخَ علىٰ تقديرِ المُشبَّهِ، ذكَر تعالىٰ دليلًا علىٰ باهرِ قُدْرتِه في تنكيسِ المُعمَّرِ، وأنَّ ذلك لا يفعلُه إلا هو تعالىٰ[(٢)].

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾

التقدير: لكنَّ نبيَّنا عمَّرناه وما نكَّسناه، بل منحناه غرائزَ من الفضائل عجَز عنها الأولون والآخِرون، فأتىٰ بقرآن أعجزَ الإنسَ والجنَّ، وعلومٍ وبركاتٍ فاتت القُوىٰ، ومعلومٌ قطعًا أن الذي أتىٰ به ليس بشعر؛ خلافًا لما رمَوه به بَغْيًا وعدوانًا، وكَذِبًا علىٰ جَنابِه وافتراءً، وتجاوُزًا في البَهْتِ وطغيانًا؛ لأنَّه قد مضىٰ عليه سِنُّ الصِّبا والشَّبابِ جميعًا ولم يقُلْ بيتَ شِعْرٍ مع ما يَرىٰ لكم ولأمثالِكم فيه مِن المفاخَرةِ، وبه مِن المكاثَرة، وقد وصَل إلىٰ سِنِّ الوقوفِ المعلوم قطعًا أنَّه لا يحدُثُ للإنسانِ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٥٤).

(٢) البحر المحيط (٩/ ٧٩).

فيه غريزةٌ لم تكُنْ أيَّامَ شَبابِه، لا شِعْريَّةٌ ولا غيرُها: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾(١).

ولمَّا قال كفَّارُ مكَّةَ: إنَّ القرآنَ شِعْرٌ، وإنَّ محمَّدًا شاعرٌ؛ ردَّ اللهُ عليهم بقولِه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾(٢).

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٧٠﴾

ولمَّا ذكَر أمَر الرسولِ ﷺ فيما آتاه مِن غرائزِ الشَّرَفِ في سِنِّ النَّكْسِ لغيرِه، ذكَر علَّةَ ذلك، فقال: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٣).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١﴾

ولمَّا أخبَر سبحانه بإعماءِ أفكارِهم، وهدَّد بطَمْسِ أبصارِهم، ومَسْخِهم على مقاعدِهم وقرارِهم، وأعلَمَ بأنَّ كتابَه خاتمٌ بإنذارِهم؛ ذكَّرهم بقُدْرتِه، وقرَّرهم تثبيتًا لذلك ببدائعِ صَنْعتِه، فقال عاطفًا على ما تقديرُه: ألم يَرَوْا ما قدَّمناه وأفهمَتْهُ آيةُ ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ وما بعدها مِن بدائعِ صُنْعِنا تلويحًا وتصريحًا، الدالِّ على عِلْمِنا الشاملِ، وقُدْرتِنا التامة، فمهما صوَّبْنا كلامَنا إليه، حَقَّ القولُ عليه، ولم يَمنَعْهُ مانعٌ، ولا يُتصوَّر له دافعٌ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٦٤).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤٣٥).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ١٦٨).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ١٧١-١٧٢).

بعد أنِ انقضىٰ إبطالُ معاقدِ شِرْكِ المشركين، أَخَذ الكلامُ يَتطرَّقُ غرَضَ تذكيرِهم بنِعَمِ الله تعالىٰ عليهم، وكيف قابَلوها بكفرانِ النِّعْمة، وأعرَضوا عن شُكْرِ المُنعِمِ وعبادتِه، واتخَذوا لعبادتِهم آلهةً؛ زعمًا بأنَّها تَنفعُهم وتَدفَعُ عنهم، وأدمَج في ذلك التذكيرَ بأنَّ الأنعامَ مخلوقةٌ بقدرةِ الله(١).

ثم ذكَر سبحانه قُدْرتَه العظيمةَ، وإنعامَه علىٰ عبيدِه، وجَحْدَ الكفَّارِ لنِعَمِه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾(٢).

﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

ولمَّا كان المِلْكُ لا يستلزِمُ الطَّواعيةَ، قال تعالىٰ: ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾(٣).

وفي خلالِ هذا الامتنانِ إدماجُ شيءٍ مِن دلائلِ الانفراد بالتصرُّفِ في الخَلْقِ، المُبطِلةِ لإشراكِهم إيَّاه غيرَه في العبادة؛ وذلك في قولِه: ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾(٤).

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

ولمَّا أشار إلىٰ عظَمةِ نفعِ الرُّكوبِ والأكل بتقديمِ الجارِّ، وكانت منافعُها مِن غيرِ ذلك كثيرةً؛ قال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٦٧).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤٣٨).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ١٧٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٦٨).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ١٧٣).

ثم بيَّن تعالىٰ غيرَ الرُّكوبِ والأكل مِن الفوائدِ بقولِه تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾(١).

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾

ولمَّا ذكَّرهم نِعَمَه، وحذَّرهم نِقَمَه؛ عجَّب منهم في سُفولِ نظَرِهم، وقُبْحِ أثرهم، فقال موبِّخًا ومقرِّعًا ومبكِّتًا ومعجِّبًا مِن زيادةِ ضَلالِهم، عادلًا عن مظهرِ العظَمةِ إلىٰ أعظَمَ منه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾(٢).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾؛ أي: ألم يَرَوْا دلائلَ الوَحْدانيَّةِ، ولم يَتأمَّلوا جلائلَ النِّعْمةَ، واتخَذوا آلهةً مِن دُونِ الله المُنعِمِ والمنفردِ بالخَلْقِ؟! ولك أن تَجعَلَه عطفًا علىٰ الجملتينِ المفرَّعتينِ؛ والمقصودُ مِن الإخبار باتخاذِهم آلهةً مِن دُونِ الله التعجيبُ مِن جريانِهم علىٰ خلافِ حقِّ النِّعْمة، ثم مخالَفةِ مقتضىٰ دليلِ الوَحْدانيَّة المُدمَجِ في ذِكْرِ النِّعَمِ. والإتيانُ باسمِ الجلالة العَلَمِ دُونَ ضميرِ إظهارٍ في مقامِ الإضمار لِما يُشعِرُ به اسمُه العَلَمُ مِن عظَمةِ الإلهيَّة؛ إيماءً إلىٰ أنَّ اتخاذَهم آلهةً مِن دُونِه جراءةٌ عظيمة؛ ليكونَ ذلك توطئةً لقولِه بعده: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾؛ أي: فإنَّهم قالوا ما هو أشَدُّ نُكْرًا(٣).

ثم ذكَر سبحانه جهلَهم، واغترارَهم، ووَضْعَهم كفرانَ النِّعَمِ مكانَ شُكْرِها، فقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٠٦).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ١٧٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٧٠).

(٤) فتح القدير (٤/ ٤٣٩).

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

ولمَّا كان للنَّصْرِ سببان: ظاهريٌّ؛ وهو الاجتماعُ، وأصليٌّ باطنيٌّ؛ وهو الإلهُ المجتمَعُ عليه؛ بيَّن غَلَطَهم بتضييعِ الأمل، فقال مستأنِفًا في جوابِ مَن كأنَّه قال: فهل بلَغوا ما أرادوا؟: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾[1].

استئنافٌ سِيقَ لبيانِ بطلانِ رأيهم، وخَيْبةِ رجائهم، وانعكاسِ تدبيرهم[2].

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن ما بيَّن مِن قُدْرتِه الباهرة، وعظَمتِه الظاهرة، ووهَّىٰ أمرَهم في الدُّنيا والآخرة، وكان قد تقدَّم ما لوَّح إلىٰ أنَّهم نسَبوه ﷺ إلىٰ الشِّعْرِ، وصرَّح باستهزائهم بالوعدِ، مع ما قَبْلَ ذلك مِن تكذيبِهم وإجابتِهم للمؤمنين مِن تسفيهِهم وتضليلهم؛ سبَّب عن ذلك بعدما نفَىٰ عنهم النُّصْرةَ قولَه تسليةً له ﷺ: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾[3].

فُرِّع علىٰ قولِه: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ﴾ صَرْفُ أن تحزُنَ أقوالُهم النبيَّ ﷺ؛ أي: تحذيرُه مِن أن يَحزَنَ لأقوالِهم فيه؛ فإنَّهم قالوا في شأنِ الله ما هو أفظَعُ[4].

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

ولمَّا أثبَتَ سبحانه بهذا الدَّليلِ قُدْرتَه علىٰ ما هدَّد به أولًا مِن التَّحويل مِن حالٍ إلىٰ أخرىٰ، فثبَتَتْ بذلك قُدْرتُه علىٰ البعث، وختَم بإحاطةِ العلم الملزوم لتمامِ القدرة؛

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٧٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٧٩).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ١٧٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٧٢).

أتبَع ذلك دليلًا أبينَ مِن الأولِ، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾(١).

لمَّا أُبطِلتْ شُبَهُ المشركين في إشراكِهم بعبادةِ الله وإحالتِهم قُدْرتَه على البعثِ وتكذيبِهم محمَّدًا ﷺ في إنبائه بذلك إبطالًا كليًّا، عُطِف الكلامُ إلى جانبِ تسفيهِ أقوالٍ جزئيَّة لزعماءِ المكذِّبين بالبعث؛ توبيخًا لهم على وقاحتِهم وكُفْرِهم بنِعْمةِ ربِّهم وهم رجالٌ مِن أهلِ مكَّةَ أحسَبُ أنَّهم كانوا يموِّهون الدَّلائل، ويزيِّنون الجدالَ للنَّاس، ويأتون لهم بأقوالٍ إقناعيَّة جاريةٍ على وَفْقِ أفهامِ العامَّة، ولعلَّ ذلك تكرَّر مراتٍ، تولَّى كلُّ واحدٍ مِن هؤلاء بعضَها(٢).

لمَّا ذكَر دليلًا مِن الآفاقِ على وجوبِ عبادته بقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾، ذكَر دليلًا مِن الأنفسِ، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾(٣).

كلامٌ مستأنَفٌ مسُوقٌ لبيانِ بطلانِ إنكارِهم البعثَ بعدما شاهَدوا في أنفسهم أوضَحَ دلائلِه، وأعدَلَ شواهدِه، كما أنَّ ما سبَق مسُوقٌ لبيانِ بطلان إشراكهم بالله تعالى بعدما عايَنوا فيما بأيديهم ما يُوجِبُ التَّوحيدَ والإسلام(٤).

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فعبَدَ -مع أنَّا تفرَّدْنا بالإنعامِ عليه- غيرَنا، وخاصَمَ -بما خلَقْناه له مِن اللسان، وآتَيْناه مِن البيان- رُسُلَنا وجميعَ أهلِ وُدِّنا؛ عطَف عليه قولَه -مقبِّحًا

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٧٦).
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٧٣).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٠٧).
(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٨٠).

إنكارَهم البعثَ تقبيحًا لا يُرىٰ أعجَبُ منه، ولا أبلَغُ ولا أدلُّ علىٰ التَّمادي، في الضَّلالِ والإفراط في الجحود وعقوقِ الأيادي-: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[1].

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

ولمَّا كان موطنًا يَتشوَّف فيه السامعُ لهذا الكلامِ إلىٰ جوابه، استأنَف قولَه مخاطِبًا مَن لا يفهَمُ هذه المجادَلةَ حَقَّ فَهْمِها غيرُه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[2].

وأمرُ النبيِّ ﷺ بأن يقولَ له: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ﴾ أمرٌ بجوابٍ علىٰ طريقةِ الأسلوب الحكيم؛ بحَمْلِ استفهامِ القائل علىٰ خلافِ مراده؛ لأنَّه لمَّا قال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾، لم يكُنْ قاصدًا تطلُّبَ تعيينَ المُحيِي، وإنَّما أراد الاستحالةَ، فأُجيبَ جوابَ مَن هو مُتطلِّبٌ عِلْمًا، فقيل له: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[3].

فأجاب تعالىٰ عن هذا الاستبعادِ بجوابٍ شافٍ كافٍ، فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[4].

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾

ولمَّا كان مآلُ هذا المثَلِ الذي عُلِّق الإنكارُ فيه بالرَّميمِ استبعادَ تمييزِ الشَّيء - إذا صار ترابًا واختلَط بالترابِ - عن غيرِه مِن التراب، وصَف نفسَه المقدَّسَ

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٧٨).
(٢) نظم الدرر (١٦/ ١٧٩).
(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٧٥).
(٤) تفسير السعدي (ص: ٦٩٩).

بإخراجِ الشيء الذي هو أخفىٰ ما يكون مِن ضِدِّه؛ وذلك بتمييزِ النارِ مِن الخشَبِ الذي فيه الماءُ ظاهرٌ بأيدي العَجَزةِ مِن خَلْقِه، فقال مُعيدًا للوصولِ؛ تنبيهًا علىٰ التذكيرِ بالموصوف؛ ليُستحضَرَ ما له مِن صفاتِ الكمال، فيُبادِرَ إلىٰ الخضوعِ له مَن كان حيًّا: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[1].

ثم ذكَر ما هو أغرَبُ مِن خَلْقِ الإنسان مِن النُّطْفةِ؛ وهو إبرازُ الشيءِ مِن ضدِّه؛ وذلك أبدَعُ شيءٍ؛ وهو اقتداحُ النارِ مِن الشيءِ الأخضر، ألَا ترىٰ أنَّ الماءَ يُطفِئُ النارَ؟! ومع ذلك خرَجتْ ممَّا هو مشتمِلٌ علىٰ الماء[2].

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: أليس الذي قدَرَ علىٰ ذلك بقادرٍ علىٰ ما يريد مِن إحياءِ العظام وغيرِها؟! عطَف عليه ما هو أعظَمُ شأنًا منه؛ تقديرًا علىٰ الأدنىٰ بالأعلىٰ، فقال: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[3].

عُطِف هذا التقريرُ علىٰ الاحتجاجاتِ المتقدِّمة علىٰ الإنسانِ المَعْنيِّ مِن قولِه تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾؛ وذلك أنَّه لمَّا تبيَّنَ الاستدلالُ بخَلْقِ أشياءَ علىٰ إمكانِ خَلْقِ أمثالها، ارتُقِيَ في هذه الآيةِ إلىٰ الاستدلال بخَلْقِ مخلوقاتٍ عظيمة علىٰ إمكانِ خَلْقِ ما دُونَها[4].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٨١).

(٢) البحر المحيط (٩/ ٨٤).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ١٨١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٧٨).

ثم ذكَر ما هو أبدَعُ وأغرَبُ مِن خَلْقِ الإنسان مِن نُطْفةٍ، ومِن إعادة الموتىٰ؛ وهو إنشاءُ هذه المخلوقاتِ العظيمة الغريبة مِن صِرْفِ العدمِ إلىٰ الوجودِ، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾(١).

استئنافٌ مسُوقٌ مِن جهتِه ﷻ لتحقيقِ مضمون الجواب الذي أُمِر ﷺ بأن يخاطِبَهم بذلك، ويُلزِمَهم الحجَّةَ(٢).

ثم ذكَر سبحانه ما هو أعظَمُ خَلْقًا مِن الإنسانِ، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾(٣).

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾

ولمَّا تقرَّر ذلك، أنتج قولَه مُؤكِّدًا لأجلِ إنكارِهم القدرةَ علىٰ البعثِ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٤).

هذه فَذْلكةُ الاستدلال، وفصلُ المقال؛ فلذلك فُصِلتْ عمَّا قبلها كما تُفصَلُ جملةُ النتيجةِ عن جملتَي القياسِ؛ فقد نتَج ممَّا تقدَّم أنَّه تعالىٰ إذا أراد شيئًا، قال له: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٥).

ثم ذكَر سبحانه ما يدلُّ علىٰ كمالِ قُدْرتِه، وتيسُّرِ المبدأِ والإعادة عليه، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٦).

---

(١) البحر المحيط (٩/ ٨٥).
(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٨٢).
(٣) فتح القدير (٤/ ٤٤٠).
(٤) نظم الدرر (١٦/ ١٨٤).
(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ٧٩).
(٦) فتح القدير (٤/ ٤٤١).

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

ولمَّا كان ذلك، تسبَّب عنه المبادَرةُ إلىٰ تنزيهِه تعالىٰ عمَّا ضرَبوه له مِن الأمثالِ؛ فلذلك قال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١).

لمَّا تقرَّرتِ الوَحْدانيَّةُ والإعادة، وأنكَروها وقالوا بأنَّ غيرَ اللهِ آلهةٌ؛ قال تعالىٰ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٢).

ثم نزَّه سبحانه نفسَه عن أن يوصَفَ بغيرِ القدرة، فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٨٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣١١).

(٣) فتح القدير (٤/ ٤٤١).

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ ﴾

ثم قال عاطفًا بالفاء: ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴾(١).

ولمَّا وصَف الملائكةَ بأنَّه تصُفُّ في عبادتِها صفوفًا متراصَّةً، وصَفها هنا بأنَّها تزجُرُ السَّحابَ وتسُوقُه بأمرِ الله.

﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣ ﴾

ولمَّا كانت الإفاضةُ مسبَّبةً عن حُسْنِ التَّلقِّي المسبَّبِ عن تفريغِ البال المسبَّبِ عن هَيْبةِ المُفيدِ، وكان فيضُ التلاوة أعظَمَ الفيضِ؛ قال: ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴾(٢).

﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤ ﴾

جملةُ ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴾ جوابُ القَسَمِ، ومناطُ التأكيدِ، صفةُ «واحد»؛ لأنَّ المخاطَبين كانوا قد علِموا أنَّ لهم إلهًا، ولكنَّهم جعَلوه عِدَّةَ آلهةٍ، فأبطَل اعتقادَهم بإثباتِ أنَّه واحدٌ غيرُ متعدِّدٍ، وهذا إنَّما يقتضي نَفْيَ الإلهيَّةِ عن المتعدِّدين، وأمَّا

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٨٩).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ١٨٩).

اقتضاؤه تعيينَ الإلهيَّةِ لله تعالىٰ، فذلك حاصلٌ بأنَّهم لا يُنكِرون أنَّ اللهَ تعالىٰ هو الربُّ العظيم، ولكنَّهم جعَلوا له شركاءَ، فحصَل التعدُّدُ في مفهومِ الإله، فإذا بطَل التعدُّدُ، تعيَّن انحصارُ الإلهيَّة في رَبٍّ واحد هو اللهُ تعالىٰ[١].

فلمَّا كانوا متألِّهينَ لربِّهم، ومتعبِّدِينَ في خِدْمتِه، ولا يعصُونه طَرْفةَ عينٍ؛ أقسَم بهم على ألوهيَّتِه، فقال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾[٢].

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥ ﴾

ولمَّا ثبَت أنَّه واحدٌ، أنتَج وَصْفَه بقولِه: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾[٣].

أتبَع تأكيدَ الإخبارِ عن وَحْدانيَّةِ الله تعالىٰ بالاستدلالِ علىٰ تحقيقِ ذلك الإخبارِ؛ لأنَّ القَسَمَ لتأكيده لا يُقنِعُ المخاطَبين؛ لأنَّهم مكذِّبون مَن بلَّغ إليهم القَسَمَ؛ فالجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ لبيانِ الإلهِ الواحد مع إدماجِ الاستدلال علىٰ تعيينه بذِكْرِ ما هو مِن خصائصِه، المقتضي تفرُّدَه بالإلهيَّة[٤].

لمَّا أقسَمَ بهذه الأشياءِ علىٰ صحَّةِ قولِه تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾، ذكَر عَقِيبَه ما هو كالدليلِ اليقينيِّ في كونِ الإله واحدًا؛ وهو قولُه تعالىٰ: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٨٥-٨٦).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٠٠).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ١٩٢).
(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٨٦).
(٥) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣١٦).

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦ ﴾

ولمَّا كانت المشارقُ تقتضي الفيضَ والإظهار، أتبَعَ ذلك نتيجتَه بما مِن شأنِه الشروقُ والغروب، ولو بمجرَّدِ الخفاء والظهور، فقال مُؤكِّدًا مع لَفْتِ الكلامِ إلىٰ التكلُّم في مظهرِ العظَمة -تنبيهًا علىٰ أنَّ فِعْلَهم فعلُ مَن يُنكِرُ ما للنُّجومِ مِن الزينة، وما تدلُّ عليه مِن عظَمتِه سبحانه وتعالىٰ-، وفخَّم التعبيرَ عن الزينةِ بتضعيفِ الفعل لمِثْلِ ذلك: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴾(١).

هذه الجملةُ تتنزَّلُ مِن جملةِ ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ﴾ منزلةَ الدليلِ علىٰ أنَّه رَبُّ السماوات، واقتصَر علىٰ ربوبيَّةِ السماوات؛ لأنَّ ثبوتَها يقتضي ربوبيَّةَ الأرضِ بطريق الأَوْلىٰ، وأدمَج فيها مِنَّةً علىٰ الناسِ بأنْ جعَل لهم في السماءِ زِينةً الكواكبَ ترُوقُ أنظارَهم؛ فإنَّ محاسنَ المناظرِ لذَّةٌ للناظِرينَ(٢).

﴿ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧ ﴾

ولمَّا كان كونُ الشَّيءِ الواحد لأشياءَ متعدِّدةٍ أدلَّ علىٰ القدرةِ وأظهَرَ في العظَمةِ، قال دالًّا بالعطف علىٰ غيرِ معطوفٍ عليه ظاهرٍ علىٰ مقدَّرٍ يدلُّ علىٰ أنَّ الزينةَ بالنجوم أمرٌ مقصودٌ لا اتفاقيٌّ: ﴿ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴾(٣).

ثم أخبَر تعالىٰ عن قُدْرتِه بتزيينِ السماء بالكواكب، وانتظامُ التَّزيينِ أنْ جعَلها حِفْظًا وحرزًا مِن الشَّيطان(٤).

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٩٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٨٧).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ١٩٥).
(٤) البحر المحيط (٩/ ٩١).

﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ ﴾

ولمَّا تشوَّف السامعُ إلىٰ معرفةِ هذا الحفظِ وثمرتِه وبيان كيفيَّته، استأنَف قولًا: ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾(١).

اعتراضٌ بَيْنَ جملةِ ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا ﴾ وجملةِ ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾، قُصِد منه وصفُ قصَّةِ طردِ الشياطين(٢).

كلامٌ مبتدأٌ مسُوقٌ لبيانِ حالهم بعد بيانِ حِفْظِ السماء عنهم، مع التَّنبيهِ علىٰ كيفيَّة الحفظ، وما يعتريهم في أثناءِ ذلك مِن العذاب(٣).

﴿ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ ﴾

وبعد أن وصَفهم بأنَّهم لا يَسَّمَّعُون إلىٰ الملأِ الأعلىٰ، وصَفهم هنا بأنَّهم ﴿ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾.

ثم ذكَر علَّةَ القذفِ بقولِه: ﴿ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾.

﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ ﴾

ولمَّا ثبَتَ بهذا حراسةُ القرآن بقدرةِ الملك الدَّيان عن لَبْسِ الجَانِّ، وكان بعضُهم مع هذا يَسَّمَّعُ في بعضِ الأحايينِ ما أراد اللهُ أن يُسمِعَه ليَجعَلَه فتنةً لِمَن أراد مِن عبادِه مع تميُّزِ القرآن بالإعجاز؛ استثنىٰ مِن فاعل ﴿يَسَّمَّعُونَ ﴾ قولَه: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ١٩٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٩١).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٨٥).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ١٩٨).

ولولا أنَّه تعالىٰ استثنىٰ، لكان ذلك دليلًا علىٰ أنَّهم لا يستمعون شيئًا أصلًا، ولكن قال: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾[1].

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾

ولمَّا كان المقصودُ مِن هذا الكتابِ الأعظم بيانَ الأصولِ الأربعة: التوحيدِ، والنُّبوَّة، والمَعاد، وإثبات القضاء والقَدَر، ودَلَّ سبحانه بهذه المذكوراتِ علىٰ وجودِه وكمالِ عِلْمِه وتمامِ قُدْرتِه وبديعِ حِكْمته؛ سبَّب عن ذلك -لإثباتِ الحشر الذي أخبَر به هذا القرآنُ الذي حرَسه عن تلبيسِ الجانِّ بزينةِ الكواكبِ التي أنشأ منها الشُّهُبَ الثواقبَ- قولَه تهكُّمًا بهم: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾[2].

الفاءُ تفريعٌ علىٰ قولِه: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾ باعتبارِ ما يقتضيه مِن عظيمِ القدرةِ علىٰ الإنشاء؛ أي: فسَلْهم عن إنكارِهم البعثَ، وإحالتِهم إعادةَ خَلْقِهم بعد أن يَصِيروا عظامًا ورُفاتًا، أخَلْقُهم حينئذٍ أشَدُّ علينا أم خَلْقُ تلك المخلوقاتِ العظيمة؟![3].

إنَّه تعالىٰ افتَتح هذه السُّورةَ بإثباتِ ما يدلُّ علىٰ وجودِ الصانع، ويدلُّ علىٰ وَحْدانيَّته؛ وهو خَلْقُ السماواتِ والأرض وما بينهما، وخَلْقُ المشارقِ والمغارب، فلمَّا أحكَم الكلامَ في هذا البابِ، فرَّع عليه إثباتَ القولِ بالحشر والنَّشر والقيامة[4].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٠١).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ١٩٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٩٤).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٢١).

ولمَّا بيَّن هذه المخلوقاتِ العظيمةَ، قال: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴾[1].

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن المعلوم قطعًا أنَّ المرادَ بهذا الأمرِ بالاستفتاء إنَّما هو التَّبكيتُ؛ لأنَّ مِن المعلوم قطعًا أنَّ الجوابَ: ليسوا أشَدَّ خَلْقًا مِن ذلك؛ فليس بَعْثُهم ممتنِعًا، وليست غلَبَتُهم لرسولِ الواحدِ القهَّار - الذي حكَّمه في هذا الوحيِ بإظهارِه علىٰ الدِّين كلِّه - بجائزةٍ أصلًا، نقلًا ولا عقلًا، بوجهٍ مِن الوجوه، فلا شُبْهةَ لهم في إنكارِه، ولا في ظنِّهم أنَّهم يَغلِبون رسولَنا، بل هم في محَلِّ عجَبٍ شديدٍ في إنكارِه، وظنِّهم أنَّهم غالبون في الدُّنيا؛ عبَّر عن ذلك بقولِه مسنِدًا العجَبَ إلىٰ أجلِّ المخلوقات تعظيمًا له؛ بمعنىٰ أنَّه قولٌ يستحِقُّ أن يقالَ فيه: إنَّه لا يدري ما الذي أوقَع فيه وكان سببًا لارتكابه، فقال: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾[2].

﴿ بَلْ ﴾ للإضرابِ الانتقالي مِن التقريرِ التوبيخي إلىٰ أنَّ حالَهم عجَبٌ[3].

لمَّا قرَّر الدَّليلَ القاطع في إثباتِ إمكانِ البَعْثِ والقيامة، حكىٰ عن المنكِرين أشياءَ: أولها: النبيُّ ﷺ يَتعجَّب مِن إصرارِهم علىٰ الإنكار وهم يَسخَرون منه في إصرارِه علىٰ الإثبات؛ وهذا يدلُّ علىٰ أنَّه ﷺ مع أولئك الأقوامِ كانوا في غايةِ التباعدِ، وفي طرَفَيِ النقيضِ[4].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٠١).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٠١-٢٠٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٩٥).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٢٤).

ثم أضرَبَ سبحانه عن الكلامِ السابق، فقال: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾[(١)].

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

ثم ذكَر أنَّ مِن دَأْبِهم أنَّهم ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾.

﴿ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر إعراضَهم عن المسموع، أتبَعه إعراضَهم عن المرئيِّ، فقال: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾[(٢)].

﴿ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾

ولمَّا كان إنكارُهم للبَعْثِ -ولو صدَر مرةً واحدةً- في الشَّناعةِ والعِظَمِ والقباحة مِثْلَ تجديدِهم للسُّخريَّةِ كلمَّا سَمِعوا آيةً، والمبالغةِ فيها؛ لأنَّ دلائلَه مِن الظهورِ والوضوح بمكانٍ هو في غايةِ البُعْدِ عن الشُّكوكِ؛ دلَّ على ذلك بالتَّعبيرِ بالماضي، فقال: ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[(٣)].

ومِن العجَبِ أيضًا قولُهم للحقِّ لمَّا جاءهم: ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[(٤)].

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

ثم خَصُّوا البَعْثَ بالإنكار: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤٤٦).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٠٣).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٠٣-٢٠٤).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٧٠١).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٠٤).

ومِن العجَبِ أيضًا قياسُهم قدرةَ ربِّ الأرضِ والسماوات علىٰ قدرةِ الآدميِّ الناقص مِن جميعِ الوجوه، فقالوا استبعادًا وإنكارًا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[١].

﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾

ولمَّا كان المعنىٰ: أيثبُتُ بَعْثُنا؟! عطَفوا عليه قولَهم مُكرِّرين للاستفهام الإنكاريِّ تأكيدًا لزيادةِ استبعادِهم، حتىٰ إنَّهم قاطعون بأنَّه مُحالٌ، فقالوا قولًا واهيًا: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾[٢].

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا بالَغوا هذه المبالغاتِ في إنكارِه بعد قيامِ البراهين في هذه السُّورةِ وغيرِها علىٰ جوازِه، بل وجوبِه عادةً؛ أمَره بأن يُجِيبَهم بما يقابِلُ ذلك، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾[٣].

ولمَّا كان هذا منتهَىٰ ما عندهم، وغايةَ ما لديهم؛ أمَر اللهُ رسولَه ﷺ أن يُجِيبَهم بجوابٍ مشتمِلٍ علىٰ ترهيبِهم، فقال: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾[٤].

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾

ثم سبَّب عن الوعدِ بتحتُّمِ كونه ما يدلُّ علىٰ أنَّه غايةٌ في الهوانِ، فقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾[٥].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٠١).
(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٠٤-٢٠٥).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٠٥).
(٤) تفسير السعدي (ص: ٧٠١).
(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٠٥).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن في الآيةِ المتقدِّمة ما يدلُّ علىٰ إمكانِ البَعْثِ والقيامة، ثم أردَفه بما يدلُّ علىٰ وقوعِ القيامة؛ ذكَر في هذه الآياتِ بعضَ تفاصيلِ أحوال القيامة[(١)].

ثم ذكَر سبحانه أنَّ بَعْثَهم يقعُ بزَجْرةٍ واحدةٍ، فقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾[(٢)].

﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠)﴾

ولمَّا حصَل الغرضُ مِن تصويرِ حالهم بهذا الفعلِ المضارع، عطَف عليه بصيغةِ المُضِيِّ التي معناها الاستقبالُ؛ إعلامًا بتحقُّقِ الأمرِ تحقُّقَ ما مضىٰ وكان، وتحقُّقِه مع القيام سواءً مِن غيرِ تخلُّفٍ ولا تخلُّلِ زمانٍ أصلًا، فقال: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾[(٣)].

يجوز أن تكونَ الواوُ للحالِ؛ أي: قائلين: يا وَيْلَنا؛ أي: يقول جميعُهم: يا ويلنا، يقوله كلُّ أحدٍ عنه وعن أصحابه، ويجوز أن يكونَ عطفًا علىٰ جملةِ ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ والمعنىٰ: ونظَروا وقالوا[(٤)].

﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)﴾

ولمَّا كان قولُهم هذا إنَّما هو للتَّحسُّرِ علىٰ ما فاتهم مِن التَّصديقِ النافع به، زادوا في ذلك بقولِهم يخاطِبُ بعضُهم بعضًا بدلًا أو وصفًا بعد وَصْفٍ، دالِّينَ بإعادةِ اسمِ الإشارة علىٰ ما داخَلَهم مِن الهَوْلِ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٢٥).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤٤٧).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٠٠).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٠٦-٢٠٧).

يجوز أن يكونَ هذا كلامًا موجَّهًا إليهم مِن جانبِ الله تعالىٰ جوابًا عن قولهم: ﴿يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠﴾، والخبرُ مستعمَلٌ في التعريضِ بالوعيد، ويجوز أن يكونَ مِن تمامِ قولهم؛ أي: يقولُ بعضُهم لبعضٍ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[1].

فأجاب عليهم الملائكةُ بقولِهم: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[2].

﴿۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٢٢﴾

تخلُّصٌ مِن الإنذارِ بحصول البَعْثِ إلىٰ الإخبار عمَّا يحُلُّ بهم عَقِبَه إذا ثبَتوا علىٰ شِرْكِهم وإنكارِهم البَعْثَ والجزاء[3].

فلمَّا عايَنوا ما به يكذِّبون، ورأَوْا ما به يَستسخِرون؛ يؤمَرُ بهم إلىٰ النارِ التي بها كانوا يكذِّبون، فيقال: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾[4].

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣﴾

وأشار إلىٰ سُفُولِ رُتْبةِ معبوداتِهم، وتسفيهِ آرائهم بانتحال الأذىٰ، بقولِه -صارفًا الأسلوبَ مِن المتكلِّم، ولو بمظهرِ العظَمةِ، إلىٰ أعظَمَ منه-: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾[5].

﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ۝٢٤﴾

ولمَّا كان المقصودُ مِن تعريفِهم طريقَ النار أولًا ازديادَ الحَسْرةِ، صرَّح بما أفهَمَه حرفُ الغايةِ مِن طُولِ الحَبْسِ، فقال: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾[6].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٠٠-١٠١).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤٤٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٠١).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٧٠١).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٠٨).

(٦) نظم الدرر (١٦/ ٢٠٩).

﴿ وَقِفُوهُمْ ﴾ أمر بإيقافهم في ابتداءِ السَّيْرِ بهم؛ لِما أفاده الأمرُ مِن الفَوْرِ، بقرينةِ فاءِ التعقيب التي عطَفَته[(١)].

وبعد ما يَتعيَّن أمرُهم إلى النارِ، ويَعرِفون أنَّهم مِن أهلِ دار البوار، يقال: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾[(٢)].

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

ولمَّا أُوقِفوا هذا الموقفَ الذَّليل، قد شغَلهم ما دَهِمَهم[(٣)] مِن الأسفِ عن القالِ والقيل؛ نُودوا مِن مقامِ السَّطْوة، وحجابِ الجبروت والعِزَّة -زيادةً في تأسيفِهم وتوبيخهم وتعنيفهم؛ لفتًا عن سياقِ الغَيْبةِ إلى الخطاب؛ دلالةً على أعظَمِ خيبةٍ-: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾[(٤)].

جملةُ ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ مُبيِّنةٌ لإبهام ﴿ مَّسْـُٔولُونَ ﴾، وهو استفهامٌ مستعمَلٌ في التَّعجيبِ للتَّذكير بما يسُوءُهم، فظهَر أنَّ السؤالَ ليس على حقيقتِه؛ وإنَّما أُريدَ به لازِمُه؛ وهو التَّعجيب[(٥)].

﴿ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

ولمَّا كان قد دَهِمَهم مِن الأمرِ ما أوجَب إبلاسَهم[(٦)]، وأحَدَّ[(٧)] إدراكَهم وإحساسهم؛ أشار إلى ذلك بإحلالِهم في محَلِّ الغَيْبةِ المؤذِنة بالإبعاد بأن قال مُضرِبًا عمَّا تقديرُه: إنَّهم لا يَتناصَرون: ﴿ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾[(٨)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٠٢).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٠١-٧٠٢).
(٣) أي: غشيهم.
(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢١٠).
(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٠٢).
(٦) أي: يأسهم.
(٧) أي: جعله حادًّا.
(٨) نظم الدرر (١٦/ ٢١٠-٢١١).

الإضرابُ المستفاد مِن ﴿بَلْ﴾ إضرابٌ لإبطالِ إمكان التناصُرِ بينهم، وليس ذلك ممَّا يَتوهَّمه السمعُ؛ فلذلك كان الإضرابُ تأكيدًا لِما دل عليه الاستفهامُ مِن التعجيز(١).

ثم أضرَب سبحانه عمَّا تقدَّم إلىٰ بيانِ الحالة التي هم عليها هنالك، فقال: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾(٢).

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ولمَّا أخبَر بأنَّهم سُئِلوا فلم يُجِيبوا، كان ربما ظُنَّ أنَّهم أُخرِسوا، فنبَّه علىٰ أنَّهم يَتكلَّمون بما يَزيدُ نكَدَهم، فقال عاطفًا علىٰ قوله: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ -إشارةً إلىٰ إقبالِهم علىٰ الخصام، حين تمامِ القيام، والأخذِ في تحريك الأقدام، بالسَّيرِ علىٰ هيئةِ الاجتماع والازدحام، إلىٰ مواطنِ النَّكَدِ والاغتمام، ولم يَعطِفْهُ بالفاءِ لأنَّه ليس مسببًا عن القيام، ولا عن الإيقافِ للسؤال، بخلافِ ما يأتي عن أهلِ الجَنَّة-: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾(٣).

عطفٌ علىٰ ﴿مُسْتَسْلِمُونَ﴾؛ أي: استسلَموا، وعاد بعضُهم علىٰ بعضٍ باللائمة، والمتسائلون: المتقاوِلون؛ وهم زعماءُ أهلِ الشرك ودَهْماؤُهم(٤).

﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: عن ماذا؟ أُجيب بقولِه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٠٣).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤٤٩).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢١١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٠٣).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢١١).

لمَّا حكىٰ عنهم أنَّه أقبَلَ بعضُهم علىٰ بعضٍ يَتساءلون، شرَح كيفيةَ ذلك التساؤلِ، فقالوا: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾؛ وهذا قولُ الأتباع لِمَن دعَاهم إلىٰ الضَّلالة[(١)].

استئنافٌ وقَع جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن حكايةِ تساؤلهم، كأنَّه قيل: كيف تَساءلوا؟ فقيل: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾[(٢)].

﴿قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٢٩﴾

ولمَّا أشار سبحانه بتسميةِ كلامهم هذا سؤالًا إلىٰ أنَّ مرادَهم: فهل أنتم مُغْنون عنَّا شيئًا أو حاملون عنَّا جزءًا مِن العذاب؟ وكان كأنَّه قيل: بمَ أجاب الرُّؤساءُ بعد هذا القولِ مِن الأتباع؟ قيل: ﴿قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[(٣)].

جوابُ الزعماءِ بقولِهم: ﴿بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٢٩﴾ إضرابُ إبطالٍ لزَعْمِ الأتباعِ أنَّهم الذين صَدُّوهم عن طريقِ الخير؛ أي: بل هم لم يكونوا ممَّن يَقبَل الإيمانَ؛ لأنَّ تسليطَ النَّفْيِ علىٰ فعلِ الكونِ دُونَ أن يقالَ: بل لم تؤمنوا، مُشعِرٌ بأنَّ الإيمانَ لم يكُنْ مِن شأنهم، أي: بل كنتم أنتم الآبِينَ قَبولَ الإيمان[(٤)].

تفريعٌ علىٰ صريحِ ما تقدَّم مِن عدمِ إيمان أولئك المخاصِمِينَ لهم، وكونِهم قومًا طاغِينَ في حدِّ ذاتهم، وعلىٰ ما اقتضاه وأشعَرَ به خصامُهم مِن كُفْرِ هؤلاء المُجِيبِين لأولئك الطاغِينَ، وغَوايتِهم في أنفسهم[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٣٠).

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٨٨).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٢١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٠٥).

(٥) روح المعاني (١٢/ ٨٠).

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

ثم أكَّدوا هذا المعنىٰ بقولهم -نافِينَ لِما أشاروا باليمينِ إليه-: ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾[1].

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

وفرَّعوا علىٰ كلامِهم اعترافَهم بأنَّهم جميعًا استحَقُّوا العذابَ؛ فقولهم: ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾ تفريعُ الاعتراض؛ أي: كان أمرُ ربِّنا بإذاقتِنا عذابَ جهنَّمَ حقًّا[2].

فتسبَّب عن ذلك قولُه: ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾.

﴿ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ولمَّا قضَوْا عُلالةَ[3] التَّحسُّرِ والتَّأسُّف والتَّضجُّر، رجَعوا إلىٰ إتمامِ ذلك الكلامِ، فقالوا: ﴿ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾[4].

وفرَّعوا علىٰ مضمونِ رَدِّهم عليهم مِن قولِهم: ﴿ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ إلىٰ ﴿ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾ قولَهم: ﴿ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ ﴾؛ أي: ما أكرَهْناكم علىٰ الشركِ، ولكنَّا وجَدْناكم متمسِّكين به، وراغبين فيه، ﴿ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ ﴾؛ أي: فأيَّدْناكم في غَوايتِكم؛ لأنَّا كنَّا غاوين، فسوَّلْنا لكم ما اخترْناه لأنفسِنا، فموقعُ جملةِ ﴿ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾ موقعُ العلَّة[5].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٢١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٠٥).

(٣) أي: بقية.

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٢٢).

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٠٦).

﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

ولمَّا قال لهم الرُّؤساءُ ما هو الحقُّ مِن أمرِهم ممَّا أوجَبَ الحُكْمَ باشتراكهم، سبَّب عنه قولَه تعالىٰ مُؤكِّدًا -دفعًا لِمَن يَتوهَّم اختصاصَ العذابِ بالسَّبب-: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[1].

هذا الكلامُ مِن الله تعالىٰ موجَّهٌ إلىٰ النبيِّ ﷺ والمؤمنين، ويُشبِهُ أن يكونَ اعتراضًا بَيْنَ حكايةِ حوارِ اللهِ أهلَ الشركِ في القيامة وبَيْنَ توبيخِ الله إيَّاهم بقولِه: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾، والفاءُ للفصيحةِ؛ لأنَّها وردَتْ بعد تقريرِ أحوالٍ، وكان ما بعد الفاءِ نتيجةً لتلك الأحوالِ، فكانت الفاءُ مُفصِحةً عن شرطٍ مُقدَّرٍ[2].

ثم أخبَر اللهُ سبحانه عن الأتباعِ والمتبوعين بقولِه: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[3].

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر سبحانه باشتراكِهم، استأنَف الإخبارَ بما يُهوِّل أمرَ عذابِهم، ويُشيرُ إلىٰ عمومِه في الدَّارَينِ لكلِّ مَن شارَكهم في الإجرام، فقال مُؤكِّدًا -دفعًا لظنِّ مَن يُنكِرُ القيامةَ، وظنِّ مَن يَرىٰ الإملاءَ للمجرم في الدُّنيا نعمةً ويَنفِي كونَه نقمةً، أو يفعلُ في التَّمادي في الإجرام فِعْلَ المنكِرِ-: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٠٦).

(٣) فتح القدير (٤/ ٤٤٩).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٢٥).

جملةُ ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ تعليلٌ لِما اقتضته جملةُ ﴿ فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴾؛ أي: فإنَّ جزاءَ المجرمين يكون مِثْلَ ذلك الجزاءِ في مؤاخذةِ التابع المتبوع(١).

كما اشتركوا في الدُّنيا على الكفرِ، اشتركوا في الآخرةِ بجزائه؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾(٢).

﴿ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥ ﴾

ثم علَّل تعذيبَه لهم بقولِه مُؤكِّدًا للتَّعجُّبِ منهم -لأنَّ فِعْلَهم هذا أهلٌ لأن يُنكَرَ؛ لأنَّ هذه الكلمةَ لا يُصدِّق عاقلٌ أنَّ أحدًا يستكبرُ عليها؛ لأنَّه لا شيءَ أعدَلُ منها-: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾(٣).

استئنافٌ بيانيٌّ أفاد تعليلَ جزائهم، وبيانَ إجرامِهم؛ بذِكرِ ما كانوا عليه مِن التكبُّرِ عن الاعتراف بالوحدانيَّة لله، ومِن وَصْفِ الرسولِ ﷺ بما هو منزَّهٌ عنه وصفًا يرمُون به إلى تكذيبِه فيما جاء به(٤).

ثم أخبَر عنهم بأكبَرِ إجرامِهم؛ وهو الشركُ بالله، واستكبارُهم عن توحيدِه وإفرادِه بالإلهيَّة(٥).

ثم ذكَر أنَّ إجرامَهم قد بلَغ الغايةَ، وجاوَز النهايةَ، فقال: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٠٧).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٠٢).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٢٥).
(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٠٧).
(٥) البحر المحيط (٩/ ٩٩).
(٦) تفسير السعدي (ص: ٧٠٢).

﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجۡنُونِۭ (٣٦) ﴾

ولمَّا أخبَر أنَّهم استكبَروا علىٰ توحيدِ الإله، أتبَعه الإخبارَ بأنَّهم تكلَّموا في رسوله ﷺ بما لا يَرضاه، فقال: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجۡنُونِۭ ﴾[1].

ثم ذكَر عنهم ما قدَحوا به في الرسولِ؛ وهو نِسبتُه إلىٰ الشِّعْرِ والجنون، وأنَّهم ليسوا بتاركي آلهتِهم له ولِما جاء به؛ فجمَعوا بَيْنَ إنكارِ الوَحْدانيَّةِ وإنكار الرسالة[2].

﴿ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٣٧) ﴾

ولمَّا كان مرادُهم بذلك أنَّ كلامَه باطلٌ؛ فإنَّ أكثَرَ كلامِ الشاعر غلوٌّ وكَذِبٌ، وكلامِ المجنون تخليطٌ؛ كان كأنَّه قال في جوابهم: إنَّه لم يَجِئْ بشِعْرٍ ولا بجنونٍ: ﴿ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[3].

اعتراضٌ في آخِرِ الاعتراض، قُصِدتْ منه المبادرةُ بتنزيهِ النبي ﷺ عمَّا قالوه، و﴿ بَلۡ ﴾ إضرابُ إبطالٍ لقولهم: ﴿ لِشَاعِرٍ مَّجۡنُونِۭ ﴾، وبإثباتِ صفتِهِ الحقِّ لبيانِ حقيقةِ ما جاء به[4].

ثم أضرَبَ تعالىٰ عن كلامهم، وأخبَر بأنْ جاءَ الحقُّ؛ وهو إثباتُ الذي لا يَلحَقُه إضمحلالٌ؛ فليس ما جاء به شِعْرًا؛ بل هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه، ثم أخبَر أنَّه صدَّق مَن تقدَّمَه مِن المرسَلين؛ إذ هو وهُمْ علىٰ طريقةٍ واحدة في دَعْوىٰ الأُمَمِ إلىٰ التوحيدِ، وتركِ عبادةِ غيره[5].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٢٦).

(٢) البحر المحيط (٩/ ٩٩).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٢٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٠٨).

(٥) البحر المحيط (٩/ ٩٩).

ردٌّ عليهم، وتكذيبٌ لهم؛ ببيانِ أنَّ ما جاء به ﷺ مِن التَّوحيدِ هو الحقُّ الثابت الذي قام عليه البرهانُ، وأجمَعَ عليه كافَّةُ المرسَلين؛ فأين الشِّعْرُ والجنون مِن ساحتِه ﷺ الرَّفيعةِ الشَّأنِ؟![1].

ثم قال ناقضًا لقولهم: ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[2].

﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾

ولمَّا وصَلوا إلىٰ هذا الحدِّ مِن الطغيان، والزُّورِ الظاهر والبهتان، تشوَّف السامعُ إلىٰ جزائهم؛ فاستأنَف الإخبارَ بذلك، مُظهِرًا له في أسلوبِ الخطاب؛ إيذانًا بتناهي الغضبِ، فقال في قالَبِ التَّأكيدِ -نفيًا لِما يرجونه مِن العفوِ بشفاعةِ مَن ادَّعَوْا أنَّهم يقرِّبونهم زُلْفَىٰ، ووعظًا لهم ولأمثالِهم في الدُّنيا فيما يُنكِرونه حقيقةً أو مجازًا-: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴾[3].

هذا مِن كلامِ الله يومَ القيامة، الموجَّهِ إلىٰ المشركين عَقِبَ تساؤلِهم وتحاوُرِهم، فيكونُ ما بَيْنَ هذا وبَيْنَ محاوَرتِهم المنتهية بقولِهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾ اعتراضًا؛ أي: فلمَّا انتهَوْا مِن تحاوُرِهم، خُوطِبوا بما يَقطَعُ طَمَعَهم في قَبولِ تنصُّلِ كِلا الفريقينِ مِن تَبِعاتِ الفريق الآخر؛ ليزدادوا تحقُّقًا مِن العذابِ الذي عَلِموه مِن قولِهم: ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾[4].

لمَّا حكىٰ اللهُ عنهم تكذيبَهم بالتَّوحيدِ والنُّبوَّة، نقَل الكلامَ مِن الغَيْبةِ إلىٰ الحضور، فقال: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴾[5].

---

(١) روح المعاني (١٢/ ٨٢).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٠٢).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٢٧-٢٢٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٠٩).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٣١).

ولمَّا كان قولُهم السابق: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ قولًا صادرًا منهم، يحتمِلُ أن يكونَ صِدْقًا أو غيرَه؛ أخبَر تعالىٰ بالقولِ الفصل الذي لا يحتمِلُ غيرَ الصدق واليقين؛ وهو الخبَرُ الصادر منه تعالىٰ، فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾[1].

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾

ولمَّا كان سبحانه الحكَمَ العَدْلَ، فلا يَظلِمُ أحدًا مثقالَ ذرَّةٍ، فلا يَزيدُ في جزائه شيئًا علىٰ ما يستحِقُّ، مع أنَّ له أن يفعلَ ما يشاء، ولا يكونُ فِعْلُه - كيفما كان - إلا عَدْلًا؛ قال: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

لمَّا وصَف عذابَهم بأنَّه أليمٌ، عطَف عليه إخبارَهم بأنَّ ذلك المقدارَ لا حَيْفَ عليهم فيه؛ لأنَّه علىٰ وِفاقِ أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدُّنيا مِن آثارِ الشرك[3].

كأنَّه قيل: فكيف يَلِيقُ بالرَّحيمِ الكريم المتعالي عن النفعِ والضُّرِّ أن يُعذِّبَ عبادَه؟! فأجاب عنه بقولِه: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4].

ثم بيَّن سبحانه أنَّ ما ذاقُوه مِن العذابِ ليس إلا بسببِ أعمالهم، فقال: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[5].

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

ولمَّا كان في المخاطَبين بهذا مَن عَلِم اللهُ أنَّه سيؤمن، واستثنىٰ مِن واوِ «ذَائِقُو» قولَه -مُرغِّبًا لهم في الإيمان، مُشيرًا إلىٰ أنَّهم لا يَحمِلُهم علىٰ الثَّباتِ علىٰ ما هم عليه مِن

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٠٢).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٢٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٠٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٣١).

(٥) فتح القدير (٤/ ٤٥٠).

الضَّلالِ إلا غِشُّ الضمائرِ بالرياء وغيره؛ فهو استثناءٌ متصِل بهذا الاعتبارِ الدَّقيق-: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[(١)].

استثناءٌ منقطِع في معنىٰ الاستدراكِ، والاستدراكُ تعقيبُ الكلام بما يضادُّه، وهذا الاستدراكُ تعقيبٌ علىٰ قوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾؛ فإنَّ حالَ عبادِ الله المخلَصِينَ تامُّ الضِّدِّيةِ لحالِ الذين ظلَموا، وليس يَلزمُ في الاستدراك أن يكونَ رَفْعَ توهُّمٍ، وإنَّما ذلك غالبٌ[(٢)].

لمَّا وصَف أحوالَ المتكبِّرين عن قَبولِ التوحيد، المُصِرِّين علىٰ إنكارِ النُّبوَّة؛ أردَفه بذِكْرِ حالِ المخلَصِينَ في كيفيَّةِ الثواب[(٣)].

لمَّا ذكَر شيئًا مِن أحوالِ الكفار وعذابِهم، ذكَر شيئًا مِن أحوالِ المؤمنين ونعيمِهم[(٤)].

ثم استثنىٰ المؤمنين، فقال: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[(٥)].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ ﴾

ولمَّا خلَّصهم منهم، ذكَر ما لهم، فقال مُعظِّمًا لهم بأداة البُعْدِ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾[(٦)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٢٨).
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١١٠).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٣٢).
(٤) البحر المحيط (٩/ ١٠٠).
(٥) فتح القدير (٤/ ٤٥٠).
(٦) نظم الدرر (١٦/ ٢٢٩).

﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ٤٢﴾

ولمَّا كان أهلُ الجنَّة لا يأكلون تقوُّتًا واحتياجًا، بل تنعُّمًا والتذاذًا وابتهاجًا؛ لأنَّ أجسامَهم محكَمةٌ، مخلوقةٌ للأبد، فهي غيرُ محتاجةٍ إلىٰ حفظِ الصحَّةِ؛ قال: ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾[1].

ثم فسَّره بقولِه: ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾[2].

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٤٣﴾

ولمَّا كان الإكرامُ لا يَتِمُّ إلا مع طِيبِ المقامِ، قال: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[3].

﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٤﴾

ولمَّا كان التَّلذُّذُ لا يكمُلُ إلا مع الأحبابِ، وكانت عادةُ الملوكِ الاختصاصَ بالمحَلِّ الأعلىٰ؛ بيَّن أنَّهم كلَّهم ملوكٌ، فقال: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[4].

لمَّا ذكَر تعالىٰ مأكولَهم، وصَف تعالىٰ مساكنَهم، فقال: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[5].

ومِن كرامتِهم عند ربِّهم، وإكرامِ بعضِهم بعضًا: أنَّهم ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[6].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٢٩).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٠٢).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٢٩).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٢٩).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٣٢).

(٦) تفسير السعدي (ص: ٧٠٢).

﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ٤٥ ﴾

ولمَّا كان ذلك لا يكمُلُ إلا بالشَّرابِ، وكان المقصودُ الطَّوافَ فيه، لا كَوْنَهُ مِن مُعيَّنٍ؛ قال: ﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴾(١).

لمَّا شرَح اللهُ صفةَ المأكلِ والمَسكَن، ذكَر بعده صفةَ الشُّرْبِ، فقال: ﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴾(٢).

ثم ذكَر سبحانه صفةً أخرىٰ لهم، فقال: ﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴾(٣).

استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ نشأ مِن حكايةِ تكامُنِ مجالِسِ أُنْسِهم(٤).

﴿ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ٤٦ ﴾

ولمَّا كان أولُ ما يُختارُ في الشَّرابِ لَوْنَه ثم طَعْمَه، قال واصفًا ما في الكأسِ مِن الخمرِ استخدامًا: ﴿ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾(٥).

ثم ذكَر لونَها، فقال: ﴿ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾.

﴿ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ٤٧ ﴾

ولمَّا كان قد أثبَتَ لها الكمالَ، نفىٰ عنها النَّقصَ، فقال: ﴿ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴾(٦).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٣٢).

(٣) فتح القدير (٤/ ٤٥١).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٩١).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٠).

(٦) نظم الدرر (١٦/ ٢٣١).

ثم وصَف هذه الكأسَ مِن الخمرِ بغيرِ ما يتَّصِفُ به خمرُ الدُّنيا، فقال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾(١).

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾

ولمَّا كان ذلك كلُّه لا يكمُلُ إلا بالجماعِ، والخمرُ أدعى شيءٍ إليه، وهو لا يكمُلُ النَّعيمُ به إلا بالاختصاص؛ قال: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾(٢).

ذكَر أولًا الرزقَ؛ وهو ما يَتلذَّذ به الأجسامُ. وثانيًا الإكرامَ؛ وهو ما يَتلذَّذ به النفوسُ. ورِزْقٌ بإهانةٍ تنكيدٌ. ثم ذكَر المحَلَّ الذي هم فيه؛ وهو جنَّاتُ النَّعيمِ. ثم أشرَفَ المحَلِّ؛ وهو السُّرُرُ. ثم لذَّةَ التآنُسِ؛ بأنَّ بعضَهم يقابِلُ بعضًا، وهو أتمُّ السُّرورِ وآنَسُه. ثم المشروبَ، وأنَّهم لا يَتناولون ذلك بأنفسِهم؛ بل يطافُ عليهم بالكؤوسِ. ثم وصَف ما يطافُ عليهم به مِن الطِّيبِ وانتفاءِ المفاسد. ثم ذكَر تمامَ اللذَّةِ الجسمانية، وختَم بها كما بدأ باللذَّةِ الجسمانية مِن الرزقِ، وهي أبلَغُ المَلاذِّ؛ وهي التآنُسُ بالنساءِ(٣).

ولمَّا ذكَر سبحانه صفةَ مشروبِهم، ذكَر عَقِبَه صفةَ منكوحِهم، فقال: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾(٤).

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾

ولمَّا كان أحسَنُ الألوانِ -لا سيَّما عند العربِ- الأبيضَ الأحمرَ المُشرَبَ صُفْرةً أكسَبَتْهُ صفاءً وإشراقًا وبهاءً، قال: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾(٥).

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤٥١).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٢).

(٣) البحر المحيط (٩/ ١٠٠).

(٤) فتح القدير (٤/ ٤٥٢).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٢).

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

ولمَّا كان ذلك الاجتماعُ إنَّما هو للسُّرورِ، وكان السُّرورُ لا يَتِمُّ إلا بالمُنادَمة، وكان أحلىٰ المنادمةِ ما يذكِّرُ بحلولِ نِعْمةٍ أو انحلال نِقْمةٍ؛ تسبَّب عن ذلك -ولا بدَّ- قولُه -إشارةً إلىٰ فراغِ البال، وصحَّةِ العقل بالإصابةِ في المقال-: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾[(١)].

الفاءُ للتفريعِ؛ لأنَّ شأنَ المتجالِسينِ في مسرَّةٍ أن يَشرَعوا في الحديثِ؛ فإنَّ في الحديثِ مع الأصحابِ والمُنْتدِمينَ[(٢)] لذَّةً، فإذا استشعَروا أنَّ ما صاروا إليه مِن النعيم كان جزاءً علىٰ ما سبَق مِن إيمانِهم وإخلاصهم، تذكَّر بعضُهم مَن كان يجادِلُه في ثُبوتِ البَعْثِ والجزاء، فحَمِد اللهَ علىٰ أنْ هَداه لعدمِ الإصغاء إلىٰ ذلك الصادِّ، فحدَّث بذلك جُلَساءَه، وأراهم إيَّاه في النارِ؛ فلذلك حُكِي إقبالُ بعضِهم علىٰ بعضٍ بالمُساءلة بفاءِ التعقيب[(٣)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ نعيمَهم، وتمامَ سرورِهم، بالمآكلِ والمشارب، والأزواجِ الحِسان، والمَجالسِ الحسنة؛ ذكَر تذاكُرَهم فيما بينهم، ومُطارَحتَهم للأحاديثِ عن الأمورِ الماضية، وأنَّهم ما زالوا في المحادثةِ والتساؤل[(٤)].

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾

ولمَّا تشوَّف السامعُ إلىٰ سماعِ شيءٍ منها يكونُ نموذجًا للباقي، أشار إلىٰ ذلك بقولِه مستأنِفًا: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٣).

(٢) أي: الجلساء.

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ١١٥).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٧٠٣).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٣).

جملةُ ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن جملةِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠﴾؛ أي: قال أحدُهم في جوابِ سؤالِ بعضِهم؛ فإنَّ معنى التساؤلِ يشتمِلُ على معنى الجواب؛ فلذلك جعَلْناه بدَلَ اشتمالٍ، لا بدَلَ بعضٍ، ولا عَطْفَ بيانٍ، والقرينُ مرادٌ به الجنسُ؛ فإنَّ هذا القولَ مِن شأنِه أن يقولَه كثيرٌ مِن خُلَطاءِ المشركين قبل أن يُسلِموا[١].

ثم حكى تعالى عن بعضِهم ما حكى، يتذكَّر بذلك نِعَمَه تعالى عليه؛ حيث هَدَاه إلى الإيمانِ، واعتقادِ وقوعِ البَعْثِ والثواب والعقاب، وهو مثالٌ للتحفُّظِ مِن قُرَناءِ السوءِ، والبُعْدِ منهم[٢].

﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢﴾

ثم ذكَر ما قاله قرينُه، فقال: ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾.

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾

ويُكرِّر الإنكارَ بقولِه: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾[٣].

جملةُ ﴿ أَءِذَا مِتْنَا ﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾؛ بيَّنت الإنكارَ المُجمَلَ بإنكارٍ مفصَّلٍ؛ وهو إنكارُ أن يُبعَثَ الناسُ بعد تفرُّقِ أجزائهم، وتحوُّلها ترابًا بعد الموتِ، ثم يُجازَوْا[٤].

ثم ذكَر ما يدلُّ على الاستبعادِ للبَعْثِ عنده وفي زَعْمِه، فقال: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١١٦).
(٢) البحر المحيط (٩/ ١٠٢).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٤).
(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ١١٦).
(٥) فتح القدير (٤/ ٤٥٤).

﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ ﴾

ولمَّا كان هذا المقالُ سببًا لعظيمِ تشوُّفِ السامع إلىٰ ما يكونُ بعده، وكان أهلُ الجَنَّة مِن عُلُوِّ المكانِ والمكانةِ وصحَّةِ الأجسام وقوَّةِ التركيب ونفوذِ الأبصار بحيث ينظُرون ما شاؤوا مِن النارِ وغيرِها ممَّا دُونَهم متىٰ شاؤوا؛ استأنَف قولَه مشيرًا إلىٰ أنَّ حاله هذه مُعلِمٌ أنَّه مِن أهلِ النار: ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾[(١)].

جملةُ ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن جملة ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ المَحْكيَّ بها هو ممَّا اشتمَل عليه قولُه الأول؛ إذ هو تكملةٌ للقولِ الأول، والاستفهامُ بقولِه: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ مستعمَلٌ في العَرْضِ، عرَضَ علىٰ رُفَقائِه أن يَتطلَّعوا إلىٰ رؤيةِ قرينِه وما صار إليه[(٢)].

وفي الكلامِ حذفٌ؛ تقديرُه: فقال لهذا القائلِ حاضِرُوه مِن الملائكةِ: إنَّ قرينَك هذا في جهنَّمَ يُعذَّب، فقال عند ذلك: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾[(٣)].

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ ۝٥٥ ﴾

ولمَّا كان المحدَّثُ عنه المخلَصِين؛ وهم أهلُ الجَنَّةِ كلُّهم أو جلُّهم، وكان الضَّمير يعودُ لِما سبَقه بعينِه، وكان مخاطَبو هذا القائلِ إنَّما هم شَرْبُه، وكان مِن المعلوم ممَّا مضىٰ مِن التَّقابلِ والتَّوادِّ والتَّواصل بالمُنادَمة والتَّساؤل أنَّهم يَنتدبون نَدْبَهم إليه، ويُقبِلون قطعًا عليه، وكان النافعُ لنا إنَّما هو قولُه فقط في توبيخِ عدوِّه، وتغبيطِ نفسه ووليِّه؛ لم يَجمَعِ الضَّميرَ لئلا يُلبِسَ فيُوهِمَ أنَّه للجميع، وأعاده عليه وَحْدَه لنعتبِرَ بمَقالِه، ونتَّعِظَ بما قصَّ علينا مِن حالِه، فقال: ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١١٧).

(٣) البحر المحيط (٩/ ١٠٣).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٥).

﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

ثـم استأنَف الإخبارَ عن مكافأتِه له بما كـان مِن تقريعِه وتوبيخه على التَّصديقِ بالآخرة بقولِه: ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾(١).

﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سُوءَ ما كان يأتي إليه، ذكَر حُسْنَ أثرِ الله سبحانه عنده، فقال لافتًا الكلامَ إلى صفةِ الإحسان؛ لأنَّه مقامُه: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾(٢).

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

ولمَّا رأى ذاك فيما هو فيه مِن الجحيم، ورأى نفسَه فيما هي فيه مِن النَّعيم؛ ما ملَكَ نفسَه أنْ قال -كما يَعرِضُ لِمَن يكون في شِدَّةٍ، فيأتيه الفَرَجُ فجأةً، فيَصِير كأنَّه في مَنامٍ أو أضغاثِ أحلامٍ، لا يُصدِّق ما صار إليه سرورًا-: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾(٣).

عطَفتِ الفاءُ الاستفهامَ على جملةِ ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾؛ فالاستفهامُ موجَّهٌ مِن هذا القائلِ إلى بعض المتسائِلين، وهو مستعمَلٌ في التقريرِ المراد به التذكيرُ بنعمةِ الخلود؛ فإنَّه بعد أن أطلَعهم على مصيرِ قرينِه السَّوْءِ، أقبَل على رفاقِه بإكمال حديثه؛ تحدُّثًا بالنِّعْمةِ، واغتباطًا وابتهاجًا بها، وذِكْرًا لها؛ فإنَّ لذِكْرِ الأشياءِ المحبوبة لذَّةً، فما ظنُّك بذِكرِ نِعْمةٍ قد انغمسَوا فيها، وأيقَنوا بخلودها، ولعلَّ نَظْمَ هذا التذكُّرِ في أسلوبِ الاستفهام التقريريِّ لقَصْدِ أن يَسمَعَ تكرُّرَ ذِكْرِ ذلك حين يجيبُه الرفاقُ بأن يقولوا: نَعم، ما نحن بميِّتين(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٦).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٦).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ١١٩).

ولمَّا تمَّم كلامَه مع ذلك القرينِ الذي هو في النارِ، عاد إلىٰ مخاطَبةِ جلسائه مِن أهل الجنَّة، فقال: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾[١].

﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾

ثم أعرَقَ في العمومِ بما هو معيارُه، فقال: ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[٢].

الاستثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ منقطِعٌ؛ لأنَّ الموتَ المَنْفيَّ هو الموتُ في الحالِ أو الاستقبال؛ كما هو شأنُ اسمِ الفاعل؛ فتعيَّن أنَّ المستثنىٰ غيرُ داخلٍ في المَنْفيِّ، فهو منقطعٌ؛ أي: لكنِ المَوْتةُ الأُولىٰ، وذلك الاستدراكُ تأكيدٌ للنفي[٣].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

ولمَّا تذكَّر هذا فاستفزَّه السُّرورُ، وازدهَتْهُ[٤] الغِبْطةُ والحُبور؛ لم يَملِكْ نفسَه أنْ قال في أسلوبِ التَّأكيد لِما له في ذلك مِن النَّشاط لِما له مِن خَرْقِ العادة مُنبِّهًا علىٰ عظَمتِه لتعظيم الغبطة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٥].

الظاهرُ أنَّ جملةَ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ حكايةٌ لبقيَّةِ كلامِ القائل لرفاقِه؛ فهي بمنزلةِ التذييل والفَذْلكة لحالتِهم المُشاهَدِ بعضُها، والمتحدَّثِ عن بعضها بقولِه: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾﴾[٦].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤٥٥).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ١١٩).

(٤) أي: استخفَّته.

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٦) التحرير والتنوير (٢٣/ ١١٩).

فلمَّا ذكَر تعالىٰ نعيمَ الجَنَّة، ووصَفه بهذه الأوصافِ الجميلة؛ مدَحَه، وشوَّق العاملين، وحثَّهم علىٰ العمل، فقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1].

ثم قال مُشيرًا إلىٰ ما هم فيه مِن النعيم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[2].

﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

ولمَّا دلَّ هذا السِّياقُ علىٰ عظيمِ ما نالوه، زاد في تعظيمِه بقولِه: ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾[3].

هذا تذييلٌ لحكايةِ حالِ عباد الله المخلَصِينَ؛ فهو كلامٌ مِن جانبِ الله تعالىٰ للتنويهِ بما فيه عبادُ الله المخلَصون، وللتحريضِ علىٰ العمل بمِثْلِ ما عَمِلوه ممَّا أوجَب لهم إخلاصَ الله إياهم[4].

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ ﴾

ولمَّا فات الوصف هذا التَّشويق إلىٰ هذا النَّعيم، رمىٰ في نَعْتِه رميةً أخرىٰ سبقتِ العقولَ، وتجاوَزتْ حدَّ الإدراك، وعلَتْ عن تخيُّلِ الوَهْمِ، في استفهامٍ منفِّرٍ مِن ضدِّه بمقدار الترغيبِ فيه لِمَن كان له لبٌّ، فقال: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾[5].

استئنافٌ بعد تمامِ قصَّةِ المؤمن ورفاقِه، قُصِد منه التَّنبيهُ إلىٰ البَوْنِ بَيْنَ حالِ المؤمن والكافر، جرىٰ علىٰ عادةِ القرآن في تعقيبِ القصصِ والأمثال بالتَّنبيه إلىٰ مغازيها ومواعظِها[6].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٠٤).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤٥٦).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٢٠).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٨).

(٦) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٢١).

لمَّا قال بعد ذِكْرِ أهلِ الجَنَّة ووصفِها، أتبَعه بقولِه: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾، فأمَر رسولَ الله ﷺ أن يورِدَ ذلك على كفارِ قومِه؛ ليَصِيرَ ذلك زاجرًا لهم عن الكفرِ، وكما وصَف مِن قبلُ مآكلَ أهلِ الجَنَّة ومشاربَهم، وصَف أيضًا في هذه الآيةِ مآكلَ أهلِ النار ومشاربَهم[(١)].

لمَّا انقضَتْ قصَّةُ المؤمنِ وقرينِه، وكان ذلك على سبيلِ الاستطراد مِن شيءٍ إلى شيءٍ؛ عاد إلى ذِكْرِ الجَنَّةِ والرزق الذي أعَدَّه اللهُ فيها لأهلها، فقال: أذلك الرِّزْقُ خيرٌ نُزُلًا؟ والنُّزُلُ: ما يُعَدُّ للأضيافِ، وعادَل بَيْنَ ذلك الرزقِ وبين شجرةِ الزَّقُّوم[(٢)].

ولمَّا وصَف مَلاذَّ أهلِ الجَنَّة، تأثَّره بمَطاعمِ أهلِ النار بقولِه سبحانه: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾[(٣)].

﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

ولمَّا كان قد أخبَر أنَّ نباتَها في النَّارِ، فكان ذلك سببًا لزيادةِ تكذيبِهم؛ لأنَّ عدمَ إيمانِهم كان سببًا لضِيقِ عقولِهم؛ قال مُؤكِّدًا -ردًّا على مَن يظُنُّ أنَّه سبحانه لا يَفتِنُ عبادَه؛ لأنَّه غنيٌّ عن ذلك-: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴾[(٤)].

لمَّا ذكَر هذه الشجرةَ، وصَفها بصفاتٍ[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٣٦).

(٢) البحر المحيط (٩/ ١٠٦).

(٣) محاسن التأويل (٨/ ٢١٠).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٩).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٣٧).

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ ﴾

ثم نبَّه على أنَّ محَلَّ الفتنةِ جعَلها فيما يُنكِرونه، فقال تعالى مُؤكِّدًا لأجلِ إنكارهم، معلِّلًا لجَعْلِها فتنةً تخالِطُهم فتُحِيلهم في الدُّنيا بحَرِّها، وفي الأخرى بأثَرِها: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[1].

استأنَف لوصفِها استئنافًا ثانيًا مكرِّرًا فيه كلمةَ ﴿ إِنَّهَا ﴾ للتَّهويلِ[2].

ثم بيَّن سبحانه أوصافَ هذه الشجرةِ ردًّا على منكِريها، فقال: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[3].

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾

ثم زاد ذلك وضوحًا وتصويرًا بقولِه: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[4].

﴿ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

ولمَّا أثبَتَ أمرَها بما هو في غايةِ الفتنة لها واللُّطفِ للمؤمنين، سبَّب عن الفتنةِ بها قولَه -رادًّا لإنكارِهم أن يأكلوا ممَّا لا يشتهونه، ومُكذِّبًا لِما كانوا يَدَّعُون مِن المدافعةِ-: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٢٣).

(٣) فتح القدير (٤/ ٤٥٦).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٣٩-٢٤٠).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٤٠).

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ٦٧ ﴾

ولـمَّا جرَتِ العادةُ بأنَّ الآكِلَ المتنعِّمَ يَتفكَّه بعد أكلِه بما يُبرِّد غُلَّةَ[١] كبدِه، قال مُشيرًا إلىٰ تَناهي شناعةِ مُتفكَّهِهم، وطويلِ تلهُّبِهم مِن عطشِهم، بأداةِ التَّراخي وآلة التَّأكيد لِما لهم في ذلك مِن عظيمِ الإنكار: ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾[٢].

ثم ذكَر شرابَهم، فقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾[٣].

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ٦٨ ﴾

ولـمَّا كان ما ذُكِر للفريقينِ إنَّما هو النُّزُلُ الذي مدلولُه ما يكون في أولِ القُدوم علىٰ حينِ غفلةٍ، وكانوا يُورَدُونَ الحميمَ كما يورَدُ الإبلُ الماءَ؛ قال مُبيِّنًا أنَّ لهم ما هو أشَدُّ شناعةً مِن ذلك ملوِّحًا إليه بأداة التَّراخي: ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾[٤].

لمَّا ذُهِب بهم مِن منازِلِهم التي أُسكِنوها في النار إلىٰ شجرةِ الزَّقُّومِ للأكل والتملُّؤِ منها والسَّقْيِ مِن الحميمِ وتراخىٰ رجوعهم إلىٰ منازلهم، دخلتْ ﴿ ثُمَّ ﴾ للدلالةِ علىٰ ذلك، والرجوعُ دليلٌ علىٰ الانتقالِ في وقتِ الأكل والشُّرب إلىٰ مكانٍ غيرِ مكانهما[٥].

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ٦٩ ﴾

ولـمَّا أخبَر عن عذابِهم هذا، وكان سببُه الجمودَ مع العادةِ الجارية علىٰ غيرِ الحق، والتَّقيُّدَ بما أَلِفَتْهُ النَّفسُ ومالَ إليه الطِّباعُ، ممَّا أصَّله مَن يعتقدون أنَّه أكبرُ منهم وأتَمُّ

---

(١) أي: حرارة العطش.

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٤١).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٠٤).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٤١).

(٥) البحر المحيط (٩/ ١٠٧).

عقلًا؛ علَّل ذلك تحذيرًا مِن مِثْلِه لأنَّه كان سببَ هلاكِ أكثَرِ الخَلْقِ، وأكَّده لأنَّهم يُنكِرون ضَلالَ مَن أضَلَّ لهم، فتلك العوائدُ مِن آبائهم وغيرِهم، فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾[1].

تعليلٌ لِما جازاهم اللهُ به مِن العذاب، وإبداءٌ للمناسبةِ بينه وبين جُرْمِهم؛ فإنَّ جُرْمَهم كان تَلَقِّيًا لِما وجَدوا عليه آباءهم مِن الشركِ وشُعَبِه بدُونِ نظَرٍ ولا اختيار لِما يختارُه العاقلُ، فكان مِن جزائهم علىٰ ذلك أنَّهم يُطعَمون طعامًا مؤلِمًا ويُسقَوْنَ شرابًا قَذِرًا بدُونِ اختيارٍ؛ كما تَلقَّوْا دِينَ آبائهم تقليدًا واعتباطًا[2].

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ تعليلٌ لاستحقاقِهم ما ذُكِر مِن فنونِ العذاب بتقليد الآباء في الدِّينِ مِن غيرِ أن يكونَ لهم ولا لآبائهم شيءٌ يُتمسَّك به أصلًا[3].

وكأنَّه قيل: ما الذي أوصَلَهم إلىٰ هذه الدارِ؟ فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾[4].

﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠﴾

الفاءُ الداخلة علىٰ جملةِ ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ فاءُ العطفِ للتَّفريع والتَّسبُّب؛ أي: متفرِّعٌ علىٰ إلفائِهم[5] آباءَهم ضالِّين أنِ اقتفَوْا آثارهم تقليدًا بلا تأمُّلٍ؛ وهذا ذمٌّ لهم[6].

ثم بيَّن مسارعتَهم في تقليدِ آباءهم مِن غيرِ نظَرٍ ولا تبصُّر، فقال: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٤٢).
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٢٧).
(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٩٤).
(٤) تفسير السعدي (ص: ٧٠٤).
(٥) مصدر (ألفَىٰ)؛ أي: وجد.
(٦) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٢٧).

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ۝٧١﴾

ولمَّا كان النبيُّ ﷺ شديدَ المحبَّة لهُدَاهم، والحُزْنِ علىٰ ضَلالهم، والأسفِ علىٰ غَيِّهم ومِحالِهم[1]، وكان الضَّلالُ مع العقل أولًا ثم مع وجودِ الرُّسُلِ الذين هم مِن الصِّدق والمعجِزات والأمور الملجِئة إلىٰ الهدىٰ ثانيًا كالمحال؛ سلَّاه سبحانه بقولِه علىٰ سبيل التَّأكيدِ لزيادة التَّحقيق: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾[2].

عُقِّب وصفُ حالِ المشركين في الآخرةِ وما عُلِّل به مِن أنَّهم ألفَوْا آباءَهم ضالِّين فاتَّبَعوا آباءَهم بتنظيرِهم بمَن سلَفوا مِن الضالِّين، وتذكيرًا للرسولِ ﷺ بذلك؛ مَسْلاةً له علىٰ ما يلاقيه مِن تكذيبِهم، واستقصاءً لهم في العِبْرةِ والموعظة بما حَلَّ بالأُمَمِ قبلهم؛ فهذه الجملةُ معطوفةٌ علىٰ مضمونِ الجملة التي قبلها إكمالًا للتَّعليل؛ أي: اتَّبَعوا آثارَ آبائهم، واقتَدْوا بالأُمَمِ أشياعِهم[3].

ثم أخبَر بضَلالِ أكثَرِ مَن تقدَّم مِن الأُمَم؛ هذا وما خلَتْ أزمانُهم مِن إرسال الرُّسُل، وإنذارِهم عواقبَ التَّكذيبِ[4].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢﴾

ولمَّا كان ربما ظُنَّ أنَّه لعدمِ الرُّسُلِ، نفىٰ ذلك بقولِه مُؤكِّدًا لنحوِ ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾[5].

---

(١) أي: كيدهم.

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٤٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٢٨).

(٤) البحر المحيط (٩/ ١٠٧).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٤٣).

أُكمِلَتِ العلَّةُ والتَّسلية والعبرة بقولِه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾، وخَصَّ المرسَلين بوَصْفِ المنذِرين لمناسبةِ حالِ المتحدَّثِ عنهم وأمثالِهم[1].

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

فرَّع على هذا التَّوجيهِ الخطابَ إلى الرسول ﷺ ترشيحًا لِما في الكلامِ السابق مِن جانبِ التَّسلية والتَّثبيت مع التَّعريضِ بالكلام لتهديدِ المشركين بذلك، ويجوز أن يكونَ الخطابُ لكلِّ مَن يَسمَع القرآنَ، فشَمِل النبيَّ ﷺ[2].

فتسبَّب عن الإرسالِ قولُه: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾.

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

ولمَّا أفهَمَ الحُكْمُ على الأكثرِ بالضَّلال أنَّ الأقلَّ على غيرِ حالهم، نبَّه على حالِ الطائعين بقولِه مُستثنيًا مِن ضميرِ المُنذَرين: ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾[3].

استثنى عبادَ اللهِ المخلَصين مِن الأوَّلين استثناءً متصلًا؛ فإنَّ عبادَ الله المخلَصين كانوا مِن جملةِ ﴿ الْمُنذَرِينَ ﴾، فصدَّقوا المنذِرين، ولم يشارِكوا المنذَرين في عاقبتِهم المنظورِ فيها؛ وهي عاقبةُ السَّوْءِ[4].

ولمَّا كان المنذَرون ليسوا كلُّهم ضالِّين، بل منهم مَن آمَنَ وأخلَص الدِّينَ لله؛ استثناه اللهُ مِن الهلاكِ، فقال: ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٢٨).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٤٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٢٩).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٧٠٥).

﴿ وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ٧٥ ﴾

ولمَّا كان مقصودُ السُّورةِ التَّنزيهَ، الذي هو الإبعادُ عن النَّقائص؛ ولذلك كان أنسَبَ الأشياءِ الإقسامُ، أولُها بالملائكةِ الذين هم أنزَهُ الخَلقِ، وكان أعلىٰ الخَلْقِ مَن جرَّد نفسَه عن الحظوظ بما يُؤتيه اللهُ مِن المجاهَدات والمنازَلات والمعالَجات حتىٰ يَلحَقَ بهم، فيحُوزَ مع فضلِهم معاليَ الجهادِ، فكان أحقَّ الأنبياء بالذِّكرِ مَن كان أكثَرَ تجريدًا لنفسه مِن الشَّواغل سيرًا إلىٰ مولاه، وتعريجًا عن كلِّ ما سواه، وكان الأبُ الثاني مِن أحَقِّهم بذلك؛ لأنَّه تجرَّد في الجهاد بالدُّعاء إلىٰ الله ألفَ عامٍ، ثم تجرَّد عن كلِّ شيءٍ علىٰ ظهرِ الماء بَيْنَ الأرضِ والسَّماء، فقال تعالىٰ مُؤكِّدًا لِما تقدَّم مِن أنَّه دعا إلىٰ التَّأكيد مِن أنَّ مُكْثَه في قومِه المدَّةَ الطويلة مُبعِدٌ لأن يكونوا وافقوه ومالُوا معه وتابَعوه، ولأنَّ فِعْلَ العربِ في التَّكذيب مع ترادُفِ المعجِزات وتواتُرِ العظات عمَلُ مَن هو مكذِّبٌ بوقوعِ النُّصرة للمرسلين، والعذابِ للمكذِّبين، عطفًا علىٰ ما تقديرُه: فقاسَىٰ الرُّسُلُ مِن الشَّدائدِ ما لا تسَعُه الأوراقُ، وجاهَدوهم بأنفسهم والتَّضرُّعِ إلىٰ الله تعالىٰ في أمرِهم: ﴿ وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ﴾[(١)].

أتبَعَ التَّذكيرَ والتَّسلية مِن جانبِ النَّظر في آثارِ ما حلَّ بالأُمَمِ المُرسَل إليهم، وما أخبَر عنهم مِن عاقبتِهم في الآخرة؛ بتذكيرٍ وتسليةٍ مِن جانبِ الإخبار عن الرُّسُل الذين كذَّبهم قومُهم وآذَوْهم، وكيف انتصَر اللهُ لهم؛ ليَزيدَ رسولَه ﷺ تثبيتًا، ويُلقِمَ المشركين تبكيتًا، وذكَر في هذه السُّورةِ سِتَّ قِصَصٍ مِن قِصَصِ الرُّسُلِ مع أقوامهم؛ لأنَّ في كلِّ قصَّةٍ منها خاصيَّةً لها شَبَهٌ بحالِ الرسول ﷺ مع قومِه، وبحالِه الأكمَلِ في دَعْوتِه؛ ففي القِصَصِ كلِّها عِبرةٌ وأسوةٌ وتحذيرٌ؛ كما سيأتي تفصيلُه عند كلِّ قصَّة منها، ويَجمَعها كلَّها مقاومةُ الشرك، ومقاومةُ أهله[(٢)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٤٤-٢٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٢٩).

لمَّا قال مِن قبلُ: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١)﴾، وقال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣)﴾؛ أتبعه بشرحِ وقائعِ الأنبياء عليهم السلام[1].

ثم ذكَر أولَهم شهرةً؛ وهم قومُ نوحٍ عليه السلام، تضمَّن أشياءَ؛ منها: الدعاءُ على قومه، وسؤالُه النجاةَ، وطلبُ النُّصرةِ، وأجابه تعالى في كلِّ ذلك إجابةً بلَغ بها مرادَه[2].

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ نوعُ تفصيلٍ لِما أُجمِلَ فيما قبلُ ببيانِ أحوالِ بعض المرسلين، وحُسْنِ عاقبتِهم، متضمِّنٌ لبيانِ سُوءِ عاقبةِ بعض المنذَرِين[3].

📖 ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)﴾ 📖

ولمَّا كان معنى هذا: فأجَبْناه إجابةً هي النهايةُ في استحقاق عليِّ المَمادحِ؛ مِن إيصالِه إلى مرادِه؛ مِن حَمْلِه وحملِ مَن آمَنَ به، والانتقامِ ممَّن كذَّبه -كما هي عادتُنا دائمًا-؛ عطَف عليه قولَه: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾[4].

فأنتَج عن ذلك قولَه: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾.

📖 ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧)﴾ 📖

وإنجاءُ اللهِ إيَّاه نِعْمةٌ عليه، وإنجاءُ أهلِه نعمةٌ أخرى، وإهلاكُ ظالِمِيه نعمةٌ كبرى، وجَعْلُ عُمْرانِ الأرضِ بذُرِّيتِه نعمةٌ دائمة؛ لأنَّهم يَدْعون له، ويُذكَر بينهم بصالح أعمالِه؛ وذلك ممَّا يَرحَمه اللهُ لأجلِه[5].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٣٩).

(٢) البحر المحيط (٩/ ١٠٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٩٥).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٤٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٣١).

وبعد أن أغرَق جميعَ الكافرين، ونجَّىٰ نوحًا ومَن معه؛ أبقىٰ نَسْلَه وذريتَه متسلسلين؛ فجميعُ الناسِ مِن ذريةِ نوحٍ عليه السلام.

﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٧٨ ﴾

ولمَّا ذكَر أنَّه بارَكَ في نَسْلِه، أعلَمَ أنَّه أدامَ ذِكْرَه بالخيرِ في أهلِه، فقال: ﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾[1].

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩ ﴾

ولمَّا كان قد كتَبَ اللهُ في القِدَم سلامتَه مِن كلِّ سُوءٍ -علىٰ كثرةِ الأعداء، وطُولِ الإقامة فيهم، وشِدَّة الخلاف-، قال تعالىٰ مستأنِفًا مادحًا: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[2].

والمتروكُ هذا هو قولُه: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[3].

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فعَلْنا به ذلك لإحسانِه، وكان الضالُّون يُنكِرون أن ينجوَ الدعاةُ إلىٰ اللهِ وأتباعُهم منهم؛ أخبرَ في سياقِ التَّأكيد أنَّه يفعلُ بكلِّ محسِنٍ ما فعَل به، فقال: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[4].

جملةُ ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ تذييلٌ لِما سبَق مِن كرامةِ الله نوحًا عليه السلام[5].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٤٦).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٤٧).

(٣) فتح القدير (٤/ ٤٥٩).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٤٧).

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٣٤).

لمَّا شرَح تفاصيلَ إنعامِه عليه، قال: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾(١).

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ تعليلٌ لِما فُعِل به عليه السلام مِن التَّكرِمةِ السَّنيَّة؛ مِن إجابةِ دعائه أحسَنَ إجابةٍ، وإبقاءِ ذريتِه، وتبقيةِ ذِكْرِه الجميل، وتسليمِ العالَمِينَ عليه إلى آخِرِ الدَّهر(٢).

﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨١ ﴾

ولمَّا أفهمتْ هذه الجملةُ - ولا بد - إحسانَه إلى المحسِنِ، علَّل ما أفهَمتْهُ بقولِه مُؤكِّدًا -إظهارًا للإقبال عليه بأنَّ ذِكْرَه ممَّا يُرغَب فيه، وتكذيبًا لِمَن كذَّبه-: ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾(٣).

﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ تعليلٌ لكونِه مِن المحسِنين؛ بخُلُوصِ عبوديَّتِه، وكمالِ إيمانه(٤).

﴿ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٨٢ ﴾

ولمَّا أفهَمَ تخصيصُ ذريتِه بالبقاء إهلاكَ غيرِهم، وقدَّم ما هو أهلٌ له مِن مدحِه اهتمامًا به وترغيبًا في مثلِه؛ أخبَرَ عن أعدائه بأنَّه أوقَعَ بهم لأنَّهم لم يَتحلَّوا بما كان سبَبَ سعادته مِن الإيمان بقولِه -مُشيرًا إلى العظَمةِ التي أوجَدَها سبحانه في إغراقِهم بأداة التَّراخي-: ﴿ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴾(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٤٠).
(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٩٦).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٤٨).
(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ١٩٦).
(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٤٨).

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ ﴾

ولمَّا كان لإبراهيمَ عليه السلام مِن التَّجرُّدِ عن النُّعوت البشرية والعلائق النَّفسانيَّة إلىٰ الأحوالِ الملَكيَّةِ ما لم يكُنْ لِمَن بينهما مِن النبِّيين مِن المصارَحة بالمعارَضة لقومه، والإبلاغِ فيها بكسرِ الأوثان، وتوهيةِ مذهبِ الكفران، والانفرادِ عمَّا سِوىٰ الله في غمَراتِ النِّيران، حتىٰ عن الدُّعاءِ بقلبٍ أو لسانٍ، وفناء عن جميعِ الأكوان، ثم الهجرةِ عن الأوطان، ثم بالخروجِ عن الأحباب والإخوان، بوضعِ ابنِه بِكْرِه وسُرِّيَّته[(١)] في ذلك المكان، الذي ليس به إنسٌ ولا جانٌّ، ثم بمعالَجةِ ذَبْحِه بأتَمِّ قوَّةٍ وأقوىٰ جَنان، ثم ببناءِ البيت ذي الأركان، قِبْلةً للمتجرِّدين مِن أهلِ الإيمان في كلِّ أوان، عمَّا سِوىٰ المَلِكِ الديَّان، يصُفُّون عند كلِّ صلاةٍ مثلَ صفوفِ الملائكةِ الكرام، وكان موافِقًا لنُوحٍ عليه السلام مع ما تقدَّم في البركةِ في نسلِه، بحيث إنَّهم قريبُ نصفِ أهلِ الأرض الآن، وكان أشهَرُ أمرِه في النارِ التي هي ضدُّ أشهَرِ أمرِ نوحٍ عليه السلام في الماء؛ تلاه به، فقال مُؤكِّدًا -إظهارًا أيضًا لِما له مِن الكرامةِ والمنزلة العالية في الإمامة، المقتضيةِ للنَّشاط في الثناءِ عليه، المنبِّهة علىٰ ما ينبغي مِن إتمامِ العزم في متابَعتِه، وتكذيبًا لِمَن ادَّعىٰ أنَّه ابتدَع وخالَف مَن كان قبله-: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾[(٢)].

تخلَّص إلىٰ حكايةِ موقفِ إبراهيمَ عليه السلام مِن قومِه في دَعْوتِهم إلىٰ التَّوحيد، وما لاقاه منهم، وكيف أيَّده اللهُ ونجَّاه منهم، وقَع هذا التَّخلُّصُ إليه بوصفِه مِن شِيعةِ نوحٍ عليه السلام؛ ليُفيدَ بهذا الأسلوبِ الواحدِ تأكيدَ الثناء علىٰ نوحٍ، وابتداءَ الثناءِ علىٰ إبراهيمَ، وتخليدَ مَنقَبةٍ لنوحٍ؛ أنْ كان إبراهيمُ الرسولُ العظيم مِن شِيعتِه، وناهِيكَ به![(٣)].

---

(١) أي: جاريته.

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٥١-٢٥٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٣٥-١٣٦).

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤﴾

ثم علَّق بمعنى المشايَعةِ -بيانًا لِما كانت به المتابَعةُ- قولَه على تقديرِ سؤالِ مَن قال: متى شايَعه؟ ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[(١)].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥﴾

ثم أبدَل مِن ذلك ما هو دليلٌ عليه، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾[(٢)].

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦﴾

ولمَّا لوَّح لهم بالإنكار، صرَّح، فقال مقدِّمًا للمفعول تخصيصًا: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾[(٣)].

جملةُ ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥﴾، بيَّن به مصَبَّ الإنكارِ في قولِه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥﴾، وإيضاحه؛ أي: كيف تُريدون آلهةً إفكًا؟![(٤)].

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾

ولمَّا كان قد غلَب عليه الشُّهودُ عند تحقيرِه لهم، سبَّب عن ذلك تهديدًا على فعلِهم عظيمًا، فقال مُشيرًا إلى أنَّه يكفي العاقلَ في النَّهيِ ظنُّ العطَبِ: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٥٢).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٥٢).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٥٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٣٨).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٥٣).

فُرِّع علىٰ استفهامِ الإنكار استفهامٌ آخَرُ؛ وهو قولُه: ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وهو استفهامٌ أُريدَ به الإنكارُ والتوقيفُ علىٰ الخطأ، وأُريد بالظنِّ الاعتقادُ الخطأ(١).

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ ﴾

ولمَّا أفهَمَ السِّياقُ شِدَّةَ عداوتِه ﷺ، وكان اللهُ تعالىٰ قد أجرىٰ عادتَه بأنْ جعَل في النُّجومِ أدلةً علىٰ بعضِ المسائل الظنية -لا سيَّما البُحْرانات(٢) في أنواعِ الأسقام-، وكان أهلُ تلك البلادِ -وهم الكسدانيُّون- مِن أشَدِّ الناس نظرًا في النُّجوم، والاستدلالِ بها علىٰ أحوالِ هذا العالَمِ في بعضِ ما كان وبعضِ ما يكون، وكان ﷺ يريدُ أن يَتخلَّفَ عن الذَّهاب معهم إلىٰ المحَلِّ الذي يجتمعون فيه للعيدِ ليَكسِرَ الأصنام، ويريدُ إخفاءَ وقتِ الكسر عليهم ليَتمكَّنَ مِن ذلك؛ قال تعالىٰ حاكيًا عنه، مُشيرًا إلىٰ ذلك بالتَّسبُّبِ عمَّا مضىٰ: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴾(٣).

مُفرَّعٌ علىٰ جملةِ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ ﴾ تفريعَ قصصٍ، بعطفِ بعضِها علىٰ بعضٍ؛ والمقصودُ مِن هذه الجُمَلِ المتعاطِفة بالفاءات هو الإفضاءُ إلىٰ قوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾، وأمَّا ما قبلها فتمهيدٌ لها، وبيانُ كيفيَّةِ تمكُّنِه مِن أصنامهم وكسرِها؛ ليَظهَرَ لعَبَدتِها عَجْزُها(٤).

﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾

ثم عقَّب هذه النظرةَ موهِمًا أنَّها سببُه قولَهُ: ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٣٩).

(٢) أي: الأيام التي جرت العادة بحدوث الأمراض فيها.

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٥٣-٢٥٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٤١).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٥٤).

قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ عذرٌ انتحَله ليتركوه، فيخلوَ ببيتِ الأصنام، ليخلُصَ إليها عن كثَبٍ، فلا يجدَ مَن يَدفَعُه عن الإيقاعِ بها، وليس في القرآنِ ولا في السُّنةِ بيانٌ لهذا؛ لأنَّه غنيٌّ عن البيان[1].

ثم ذكَر عُذْرَه في تخلُّفِه عن عيدِهم، ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠)﴾

ولمَّا فَهِموا عنه ظاهرَ قولِه، وظنُّوا فيه ما يَظهَرُ مِن حالِه، ولكنَّهم لم يسَعْهم -لعظَمتِه فيهم- إلا التَّسليمُ؛ تركوه، فقال تعالىٰ مُسبِّبًا عن قولِه مُشيرًا إلىٰ استبعادِهم مرَضَه بصيغةِ التفعُّلِ: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾[2].

ولمَّا أشار لهم إلىٰ مرَضٍ يُسقِمُ ويُعدِي -وهو الطاعونُ-، وكانوا يهرُبون مِن ذلك؛ أنتَج عن ذلك قولَه: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١)﴾

فخَلَا له الوقتُ مِن رقيبٍ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾[3].

وبعدما خرَجوا عنه وأدبَروا، أنتَج عنه قولَه: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢)﴾

ثم زاد في إظهارِ الحقِّ والاستهزاءِ بانحطاطها عن رُتْبةِ عابدِيها، فقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٤٢).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٥٦).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٥٦).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٥٧).

مخاطبـةُ إبـراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تلـك الأصـنامَ بقولِـه: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢﴾، وهو في حالِ خَلْوةٍ بها، وعلىٰ غيرِ مَسمَعٍ مِن عَبَدتِها؛ قُصِد به أن يُثيرَ في نفسِه غضبًا عليها؛ إذ زعَموا لها الإلهيَّةَ؛ ليزدادَ قوَّةَ عزمٍ علىٰ كسرِها، فليس خطابُ إبراهيمَ للأصنام مستعمَلًا في حقيقتِه، ولكنَّه مستعمَلٌ في لازمِه؛ وهو تذكُّرُ كَذِبِ الذين ألَّهوها، والذين سدَنوا[1] لها، وزعَموا أنَّها تأكل الطعامَ الذي يضعونه بَيْنَ يدَيْها، ويزعُمون أنَّها تُكلِّمُهم وتُخبِرُهم[2].

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ۝٩٣﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ أنَّه أظهَر ما يَعرِفُه باطنًا مِن الحجَّة، فقال: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾[3].

فلمَّا أظهَر عَجْزَها، شرَع في كسرِها ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾.

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤﴾

ولمَّا تسبَّب عن ذلك أنَّهم لمَّا عَلِموا بكسرِها، ظنُّوا فيه -لِما كانوا يَسمَعونه منه مِن ذمِّها، وحَلِفِه بأنَّه لَيَكِيدَنَّها-، فأتَوْهُ؛ أخبَر عن ذلك بقولِه مُسببًا: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾[4].

لمَّا عَلِموا بما فعَل إبراهيمُ بأصنامِهم، أرسَلوا إليه مَن يُحضِرُه في مَلَئِهم حول أصنامِهم؛ كما هو مفصَّلٌ في سورةِ «الأنبياء»، وأُجمِلَ هنا[5].

---

(١) أي: قاموا علىٰ خدمتها وتولوا أمرها.

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٤٣-١٤٤).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٥٧).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٥٧).

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٤٤).

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ ﴾

ولمَّا كان مِن المعلوم أنَّهم كلَّموه في ذلك فطالَ كلامُهم، وكان تشوُّفُ النفسِ إلىٰ جوابه أكثَرَ؛ استأنَف الخبَرَ عنه في قولِه: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾(١).

جملةُ ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ إقبالَ القومِ إلىٰ إبراهيمَ بحالةٍ تُنذِرُ بحَنَقِهم وإرادةِ البطشِ به يُثِيرُ في نفسِ السامع تساؤلًا عن حالِ إبراهيمَ في تلقِّيهِ بأولئك وهو فاقدٌ للنَّصير، مُعرَّضٌ للنَّكال(٢).

لمَّا أنكَروا علىٰ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ما فعَله بالأصنام، ذكَر لهم الدَّليلَ الدالَّ علىٰ فسادِ عبادتِها، فقال مُبكِّتًا لهم ومُنكِرًا عليهم: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾(٣).

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦ ﴾

ولمَّا كان المتفرِّدَ بالنِّعْمة، وهو المستحِقُّ للعبادةِ، وكان الإيجادُ مِن أعظَمِ النِّعَم، وكان قد بيَّن أنَّهم إنَّما عبَدوها لأجلِ عمَلِهم الذي عَمِلوه فيها، فصيَّرها إلىٰ ما صارت إليه مِن الشكلِ؛ قال تعالىٰ مُبيِّنًا أنَّه هو وَحْدَه خالِقُهم، وخالِقُ أعمالِهم التي ما عبَدوا في الحقيقةِ إلا هي، وأنَّه لا مَدخَلَ لمنحوتاتِهم في الخَلْقِ؛ فلا مدخلَ لها في العبادةِ: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٤).

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۝٩٧ ﴾

ولمَّا كان السامعُ يعلمُ أنَّهم لا بد وألَّا يُجِيبوه بشيءٍ، فتشوَّف إلىٰ ذلك؛ أُجيب بقولِه: ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٥٧-٢٥٨).
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٤٥-١٤٦).
(٣) فتح القدير (٤/ ٤٦١).
(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٥٨).
(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٥٨).

لمَّا أورَد عليهم هذه الحُجَّةَ القويَّة، ولم يَقدِروا على الجوابِ؛ عدَلوا إلى طريقِ الإيذاء، فقالوا: ﴿ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾[(١)].

لمَّا غلَبهم إبراهيمُ عليه السلام بالحُجَّةِ، مالُوا إلى الغلَبةِ بقوَّةِ الشَّوكةِ والجَمْعِ، فقالوا: ﴿ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾[(٢)].

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨﴾

ولمَّا كان هذا مُسبَّبًا عن إرادتِهم لإهانتِه، قال: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾[(٣)].

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فأجمَعَ النُّزوحَ عن بلادِهم؛ لأنَّهم عدَلوا عن الحُجَّةِ إلى العناد، عطَف عليه قولَه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[(٤)].

لمَّا نجَا إبراهيمُ عليه السلام مِن نارِهم، صمَّم على الخروج مِن بلدِه؛ وهذه أولُ هِجْرةٍ في سبيلِ الله للبُعْدِ عن عبادةِ غيرِ الله[(٥)].

لمَّا سلَّمه اللهُ منهم ومِن النارِ التي ألقَوْهُ فيها، عزَم على مفارَقتِهم، وعبَّر بالذَّهاب إلى ربِّه عن هِجْرتِه إلى أرضِ الشَّام[(٦)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٤٤).

(٢) البحر المحيط (٩/ ١١٢).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٥٨).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٥٩).

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٤٦).

(٦) البحر المحيط (٩/ ١١٥).

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) ﴾

ولمَّا لم يَجِدْ له مُعِينًا على الهجرةِ غيرَ لوطٍ ابنِ أخيه عليه السلام، قال مناديًا مناداةَ الخواصِّ بإسقاطِ الأداة: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(١).

إنَّه بعد أن أخبَر أنَّه مهاجِرٌ استشعَر قلَّةَ أهلِه، وعُقْمَ امرأتِه، وثار ذلك الخاطرُ في نفسِه عند إزماعِ الرَّحيل؛ لأنَّ الشُّعورَ بقلَّةِ الأهل عند مفارَقةِ الأوطان يكون أقوى؛ لأنَّ المرءَ إذا كان بَيْنَ قومِه كان له بعضُ السُّلُوِّ بوجودِ قَرابتِه وأصدقائه(٢).

﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) ﴾

فتسبَّب عن دَعْوتِه أنَّا استجَبْناها له، ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾(٣).

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾

ولمَّا كانت البُشْرى مِن الله لا تَتخلَّف، كان التَّقديرُ: فوُلِد له غلامٌ كما قُلْنا، ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾(٤).

الفاءُ في ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ فصيحةٌ؛ لأنَّها مُفصِحةٌ عن مقدَّرٍ؛ تقديره: فوُلِد له، ويفَعَ، وبلَغ السعيَ، ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٦١).
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٤٨).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٦١).
(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٦٣).
(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٤٩-١٥٠).

لمَّا قال: ﴿ فَبَشَّرْنَهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾، أتبعه بما يدلُّ على حصولِ ما بُشِّر به وبلوغِه، فقال: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾(١).

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾

ولمَّا وَثِق منه، بادَر إلىٰ ما أُمِر به، ودلَّ علىٰ قُرْبِ زمنِه مِن زمنِ هذا القولِ بالفاء، فقال: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾(٢).

﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

ولمَّا كان مِن الواضحِ أنَّ التَّقديرَ جوابًا: لمَّا عالَج ذَبْحَه بعزمٍ أمضىٰ مِن السِّنان، وجَنانٍ في ثَباتِه أيَّما جنانٍ، فمنَعْناه مِن التَّأثيرِ بقُدْرتِنا، وردَدْنا شَفْرتَه الماضيةَ عن عُنُقِه الليِّنةِ بأيدينا وقُوَّتِنا؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾(٣).

﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

ولمَّا كان محلَّ التَّوقُّعِ الثَّناءَ عليه، قال: ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٤).

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾

ولمَّا كان جزاؤُه عظيمًا جدًّا، دلَّ علىٰ عِظَمِه بأنْ علَّل إكرامَه به بقولِه -مُعجِّبًا، ومُعظِّمًا مُؤكِّدًا؛ تنبيهًا علىٰ أنَّه خارقٌ للعادة-: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٤٦).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٦٥).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٦٦).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٦٦).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٦٧).

جملةُ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾ في محلِّ العلَّةِ لجملةِ ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ علىٰ نحوِ ما تقدَّم(١).

﴿ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧ ﴾

ولمَّا قدَّم ما هو الأهمُّ مِن نَهْيِه عن علاجِه، ومِن البشارةِ بالجزاء؛ ذكَر فداءَه بما جعَله سُنَّةً باقيةً يُذكَرُ بها الذِّكْرَ الجميل علىٰ مَرِّ الأيام وتعاقُبِ السِّنين، ولمَّا كان المفتدىٰ منه مَن كان الأسيرُ في يده، وكان إسماعيلُ في يدِ إبراهيمَ عليه السلام، وهو يُعالِجُ إتلافَه؛ جعَل تعالىٰ نفسَه المقدَّسَ فاديًا؛ لأنَّ الفاديَ مَن أعطى الفداءَ؛ وهو ما يُدفَعُ لفكاكِ الأسير، وجعَل إبراهيمَ عليه السلام مُفتدًىٰ منه تشريفًا له، وإن كان في الحقيقةِ كالآلة التي لا فِعْلَ لها، واللهُ تعالىٰ هو المفتدىٰ منه حقيقةً، فقال: ﴿ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴾(٢).

﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨ ﴾

ولمَّا كان سبحانه إذا مَنَّ بشيءٍ، عُلِم أنَّه عظيمٌ، فإذا ذكَر الفعلَ وترَك المفعولَ، أراد فخامتَه وعظَمتَه؛ قال: ﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾(٣).

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ ﴾

ولمَّا عظَّم الغلامَ، استأنَف تعظيمَ والدِه بما يدلُّ مع تشريفِه علىٰ سلامتِه بقولِه: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٥٥).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٦٧-٢٦٨).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٦٨).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٦٨).

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا خطابًا لِمَن بعده عليه السلام، وهم كلُّهم مُحَبُّون مُجَلُّون مُعظَّمون مُبجَّلون؛ لم يكُنْ هناك حالٌ يُحوِجُ إلىٰ تأكيدٍ، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(١).

﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾

ولمَّا كانت أهلُ المِلَلِ كلِّها متَّفقةً علىٰ حُبِّه، وكان كلُّهم يَدَّعي اتِّباعَه ورُتْبةَ قُرْبِه؛ قال معلِّلًا لجزائه بهذا المدحِ في سياقِ التَّأكيد -استعطافًا لهم إلىٰ اتِّباعه في الإيمان، وتكذيبًا لِمَن يُنكِرُ أن يكونَ الإيمان مُوجِبًا للإحسان-: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢).

﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

ولمَّا أتمَّ قِصَّتَه في أمرِ الذَّبيح، وشرَع في ذِكْرِ ما جازاه به علىٰ ذلك؛ جعَل منه أمرَ إسحاقَ عليه السلام، فقال: ﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾(٣).

هذه بشارةٌ أخرىٰ لإبراهيمَ عليه السلام، ومَكرُمةٌ له، وهي غيرُ البشارةِ بالغلام الحليم؛ فإسحاقُ عليه السلام غيرُ الغلامِ الحليم(٤).

﴿ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾

ولمَّا أثنىٰ علىٰ إبراهيمَ عليه السلام بما عالَج ممَّا لم يحصُلْ لغيرِه مثلُه، وكان مِن أعظَمِ جزاءِ الإنسان البركةُ في ذريَّتِه؛ قال: ﴿ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٦٨).
(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٦٩).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٦٩).
(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٦١).
(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٦٩).

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر هؤلاء السادةَ الذين لهم مِن رُتْبةِ التَّجرُّد والنَّزاهة ما تقدَّم بيانُه، وختَمهم بأخوَينِ ما اجتمَعا قطُّ، وكان مِن أعظَمِ المقاصد بذِكْرِهم المنَّةُ علىٰ مَن اتصَف بمثلِ صفاتِهم بالقُرْبِ والنُّصرة تسليةً وتَرْجيةً للنبيِّ ﷺ ولِمَن اتبَعه مِن المؤمنين ممَّن قارَب - مِن شدَّةِ البلاء والقهر - اليأسَ مِن النَّصر؛ أتبَعهم بأمثالِهم في التَّجرُّد، وابتدأهما بأخوَينِ افترَقا حين ولادةِ الثاني علىٰ حالةٍ لا يمكِنُ الاجتماعُ معها عادةً، ثم اجتمَعا في الباطنِ مع الافتراق في الظاهر، ثم افترَقا علىٰ حالةٍ يبعُدُ الاجتماعُ معها عادةً، ثم اجتمَعا اجتماعًا لم يَفترِقا منه إلا بالموتِ، وبدأهما بأولِ مَن تجرَّد منهما مِن حينِ ولادتِه إلىٰ أوانِ هِجْرتِه، ثم مِن حينِ رَجْعتِه، إلىٰ أن جرَّدَ آلَهُ - وهم بعضُ ذريةِ إبراهيمَ عليه السلام - وأنقَذهم مِن علائقِ الكفَرة، ثم تجرَّد معهم هو وأخوه عن المُدُنِ والقرىٰ وأكثَرِ علائقِ البشر، ملازِمين البراريَّ والفلَواتِ حيث يكثُرُ ظهورُ الكلمةِ مع إرسال اللهِ إليهما بمَعادنِ الحِكْمةِ إلىٰ أن ماتا عليهما الصلاة والسلام والتَّحية والإكرام، فقال مُؤكِّدًا تنبيهًا لِمَن يعُدُّ نَصْرَ المؤمنين مُحَالًا، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فلقد أنشأنا منهما مِن الأُمَمِ ما يُعجِزُ الوصفَ ويفُوتُ الحصرَ، ومَنَنَّا علىٰ كثيرٍ منهم بالإحسان مِن ولَدِ إسماعيلَ عليه السلام، إلىٰ أنْ غيَّر دِينَه عمرُو بنُ لُحَيٍّ، ومِن ولَدِ إسحاقَ يعقوبَ والأسباطَ عليهم السلام ومَن شاء الله مِن أولادهم: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾(١).

لمَّا فرَغ سبحانه مِن ذِكْرِ إنجاءِ الذَّبيح مِن الذَّبح، وما مَنَّ عليه بعد ذلك مِن النبوَّة؛ ذكَر ما مَنَّ به علىٰ موسىٰ وهارونَ، فقال: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾(٢).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤٦٩).

﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ ﴾

ولمَّا كان جُلُّ المقصود - كما مضىٰ - مقامَ التَّجرُّدِ، والإعلام بنصرِ المستضعَفِين مِن المؤمنين؛ قال: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾(١).

لمَّا ذكَر أنَّه مَنَّ علىٰ موسىٰ وهارون، فصَّل أقسام تلك المنَّةِ(٢).

﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن نعمةَ النَّجاةِ مِن الأَسْرِ، أتبعَها نعمةَ الالتذاذِ بالنَّصر، فقال: ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾(٣).

﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

ولمَّا كانت فائدةُ النُّصرةِ التَّمكُّنَ مِن إقامةِ الدِّين، قال: ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴾(٤).

﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ ﴾

ثم تسبَّب عن إيتاءِ الكتابِ قولُه: ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

ولمَّا كان الذِّكْرُ الجميل عند ذَوِي الهِمَمِ العالية والعزائمِ الوافية هو الشَّرَفَ، قال: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٨٠).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٥٢).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٨٠).
(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٨١).
(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٨١).

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٠ ﴾

ولمَّا ظهَر بهذا أنَّ لهما مِن الشَّرَفِ والسُّؤددِ أمرًا عظيمًا، كانت نتيجتُه: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾[1].

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٢١ ﴾

ولمَّا كان نصرُ النبيِّ ﷺ بمَن معه مِن الضُّعفاء على قُرَيشٍ وسائرِ العرب عند قُرَيشٍ في غايةِ البُعْدِ، وكان التَّقديرُ: فعَلْنا معهما ذلك لإحسانهما، علَّله بما يُقطِّعُ قلوبَ قُرَيشٍ في مظهرِ التَّأكيد، فقال: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٢ ﴾

ثم علَّل إحسانَهما وبيَّنه وأكَّده ترغيبًا في مضمونه، وتكذيبًا لِمَن يقول: إنَّ المؤمنين لا يُنصَرون، بقولِه: ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ ﴾

ولمَّا كان إلياسُ أعظَمَ المتجرِّدين مِن أتباعِهما، المجدِّدين لِما درَس مِن أحكامِ التَّوراة، وكان تَرْكُ أحكامِها مع ما وُصِفتْ به مِن البيانِ وما دعَتْ إليه مِن الاستقامةِ في غايةٍ مِن الضَّلال تكادُ ألا يُصدَّق مثلُها؛ أشار إلى الزَّيغِ عنه بيانًا لأنَّ القلوبَ بيدِه سبحانه، فقال مُؤكِّدًا: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٨٢).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٨٢).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٨٢).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٨٣).

أتبَع الكلامَ علىٰ رُسُلٍ ثلاثةٍ أصحابِ الشرائعِ «نوحٍ، وإبراهيمَ، وموسىٰ» بالخبَرِ عن ثلاثةِ أنبياءَ وما لَقُوه مِن قومِهم؛ وذلك كلُّه شواهدُ لتسليةِ الرسول محمَّدٍ ﷺ، وقوارعُ مِن الموعظةِ لكفار قُرَيشٍ(١).

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤﴾

﴿إِذْ﴾ ظرفٌ متعلِّقٌ بـ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: إنَّه مِن حينِ ذلك القولِ كان مبلِّغًا رسالةً عن اللهِ تعالىٰ إلىٰ قومِه(٢).

ثم أبدَل مِن ذلك ما هو دليلٌ عليه، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٢٥﴾

ولمَّا كان هذا الإنكارُ سببًا للإصغاءِ، كرَّره مُفصِحًا بسببِه، فقال: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾(٣).

ثم أنكَر عليهم بقولِه: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾(٤).

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٢٦﴾

ولمَّا كان الإنسانُ يَعلَم يقينًا أنَّه لم يُرَبِّ نفسَه إلا بالإنشاءِ مِن العدَمِ ولا بما بعده، وكان الإحسانُ أعظَمَ عاطفٍ للإنسان؛ قال مُبيِّنًا لِمَن أراد، مُذكِّرًا لهم بإحسانِه إليهم

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٦٦).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٨٤).

(٤) فتح القدير (٤/ ٤٦٩).

وإلىٰ مَن يُحامُون عنهم، ويُوادُّون مَن كان يُوادُّهم بالتربيةِ بعد الإنشاء مِن العدَمِ، الذي هو أعظَمُ تربيةٍ، مُفخِّمًا للأمر ومُعظِّمًا: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[(١)].

ثم صرَّح به بقولِه: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[(٢)].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٢٧﴾

ولمَّا كان مِن أعظَمِ المقاصدِ - كما مضىٰ - التَّسليةُ والتَّرجيَة، سبَّب عن دعائِه قولَه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾[(٣)].

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٢٨﴾

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ استثناءٌ يدلُّ علىٰ أنَّ مِن قومِه مخلَصِينَ لم يكذِّبوه؛ فهو استثناءٌ متصِلٌ مِن ضميرِ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾[(٤)].

﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٢٩﴾

ولمَّا جاهَد في اللهِ تعالىٰ وقام بما يجبُ عليه مِن حُسْنِ الثَّناء، جازاه سبحانه، فقال عاطفًا علىٰ ﴿فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٨٥).

(٢) محاسن التأويل (٨/ ٢٢٥).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٨٦).

(٤) البحر المحيط (٩/ ١٢٢).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٢٨٦).

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠ ﴾

ولمَّا كان السَّلامُ اسمًا جامعًا لكلِّ خيرٍ؛ لأنَّه إظهارُ الشَّرفِ والإقبال علىٰ المسلَّمِ عليه بكلِّ ما يريدُ؛ أنتَج ذلك قولَه: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾[1].

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣١ ﴾

ولمَّا أظهَر سبحانه شرَفَ إلياسَ عليه السلام أو الأنبياءِ الذين هو أحدُهم، علَّله مُؤكِّدًا له، تنبيهًا علىٰ أنَّه لا بد مِن إعلاءِ النبيِّ ﷺ وأتباعِه علىٰ كلِّ مَن يناوئُهم وإن كذَّبتْ بذلك قُريشٌ، فقال: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[2].

﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣٢ ﴾

ثم علَّل الحُكْمَ بإحسانِه مُؤكِّدًا لِما مضىٰ في مِثْلِه بقولِه: ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[3].

﴿ وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٣ ﴾

ولمَّا أتَمَّ ما أراد سبحانه مِن أمورِ المحسِنين مِن ذُريَّةِ إبراهيمَ عليه السلام المرسَلِين إلىٰ ذُريَّتِه في التَّسليةِ والتَّرجية، وقدَّمهم لأنَّ المنَّةَ عليهم منَّةٌ عليه، والإنسانُ بابنِهِ أسَرُّ منه بقريبِه، وهم الذين أظهَر اللهُ بهم ما تُرِك عليه، مِن لسانِ الصِّدْقِ في الآخِرين؛ أتبَعهم قصَّةَ ابنِ أخيه مع أهلِ بلاد الأُرْدُنِّ مِن غيرِ قومهم، فقال مُؤكِّدًا للتَّنبيهِ علىٰ نصرِ المؤمنين وإن كانوا في القلَّةِ والذِّلَّةِ علىٰ حالٍ لا يُظَنُّ انجبارُه، وتكذيبًا لليهودِ المكذِّبين برسالتِه أو الشَّاكِّين فيها: ﴿ وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٨٦).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٨٨).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٨٨).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٨٨).

هذا ثاني الأنبياءِ الذين جمَعهم التنظيرُ في هذه الآيةِ، ولـوطٌ عليه السلام كـان رسولًا للقُرَىٰ التي كان ساكنًا في إحداها؛ فهو رسولٌ لا شريعةَ له سِوىٰ أنَّه جاء يَنهَىٰ الأقوامَ الذين كان نازلًا بينهم عن الفاحشةِ، وتلك لم يَسبِقِ النَّهْيُ عنها في شريعةِ إبراهيمَ عليه السلام.

﴿ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

ولمَّا كان جُلُّ المقصودِ تبشيرَ المؤمنين وتحذيرَ الكافرين، وكان مخالِفُه كثيرًا، وكان هو غريبًا بينهم؛ قال في مظهرِ العظَمةِ: ﴿ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾[1].

﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

ولمَّا كان الكفرُ قاطعًا للسَّببِ القريب كما أنَّ الإيمانَ واصل للسَّببِ البعيد؛ قال: ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾[2].

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر نجاتَه وابتدأ بها اهتمامًا بالتَّرجيةِ، قال مخوِّفًا معبِّرًا بأداةِ البُعْدِ إفادةً مع الترتيبِ لعظيمِ رُتْبةِ ما دخَلتْ عليه: ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾[3].

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

ولمَّا كان المقصودُ مِن مثلِ هذا تحذيرَ المخالِفين، وكان تجارُ قُريشٍ يرَوْنَ البقعةَ التي كانت فيها أماكنُ قوم لوطٍ، وهي البُحَيرةُ المعروفة، ولا يَعتبِرون بهم؛ عُدُّوا منكِرين للمرورِ عليهم، فأُبرِزَ لهم الكلامُ في سياقِ التَّأكيد، فقيل: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٨٩).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٨٩).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٨٩).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٨٩-٢٩٠).

﴿ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨ ﴾

ولـمَّا كان للَّيلِ منظرٌ في الهولِ غيرُ منظرِ النَّهار، قال: ﴿ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[1].

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ ﴾

ولـمَّا أكمَلَ سبحانه ما أراد مِن أمورِ مَن كان علىٰ أيديهم هلاكٌ في الدُّنيا أو في الآخرة، ختَم بمَن آلَ أمرُ قومِه إلىٰ سلامةٍ وإيمانٍ، ونعمةٍ وإحسانٍ؛ تغليبًا للترجيةِ علىٰ التَّأسيةِ والتَّعزية، فقال مُؤكِّدًا -لأنَّ ما يأتي مِن ذِكْرِ الإباقِ[2] ربما أوهَمَ شيئًا في أمرِه-: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[3].

﴿ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ ﴾

ولـمَّا كان مِن أعظَمِ المقاصدِ التَّسليةُ علىٰ استكبارهم عن كلمةِ التَّوحيد وقولِهم: إنَّه شاعرٌ مجنونٌ، ذكَر مِن أمرِ يونُسَ عليه السلام ما يُعرَف منه صعوبةُ أمرِ الرسالة، وشِدَّةُ خَطْبِها، وثِقَلُ أمرها، وشِدَّةُ عنايتِه سبحانه بالرُّسُلِ عليهم السلام، وأنَّه ما اختارهم إلا عن علمٍ، فهو لا يقوله وإن اجتهَدوا في دفعِ الرسالةِ؛ ليزدادوا ثباتًا لأعبائها، وقوَّةً في القيامِ بشأنها، فقال: ﴿ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴾[4].

و﴿ إِذۡ ﴾ ظرفٌ متعلِّقٌ بـ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾، وإنَّما وُقِّتَتْ رسالتُه بالزمن الذي أبَقَ فيه إلىٰ الفُلْكِ؛ لأنَّ فَعْلَتَهُ تلك كانت عندما أمَره اللهُ بالذَّهاب إلىٰ نِينَوَىٰ لإبلاغِ بني إسرائيل أنَّ اللهَ غَضِب عليهم لأنَّهم انحرَفوا عن شريعتِهم[5].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٩٠).

(٢) أي: الهرب والفرار.

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٩٠).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٩١).

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٧٢).

فلمَّا تأخَّر عنهم العذابُ، خرَج عنهم، وقصَد البحرَ وركِب السَّفينةَ، فكان بذهابه إلى البحرِ كالفارِّ مِن مولاه، فوُصِف بالإباقِ؛ وهو معنى قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾(١).

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١)﴾

فحينَ وضَع رِجْلَه فيه ساروا؛ فاضطرَب عليهم الأمرُ، وعظُمَ الزلزالُ، حتى أشرَفَ مَركَبُهم على الغرَقِ، على هيئةٍ عرَفوا بها أنَّ ذلك لَعَبْدٌ أبَق مِن سيِّدِه؛ فإنَّ عند أهلِ البحر أنَّ السفينةَ لا يستقيمُ سَيْرُها وفيها آبِقٌ؛ فسبَّب لهم ذلك المساهَمةَ -أي: المقارَعة-، فاستهَموا، ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾(٢).

فهبَّتْ رياحٌ شديدةٌ كادت تُغرِقُهم، فاقترَعوا ليَعلَموا بسببِ مَن أصابهم هذا البلاءُ، فوقَعتْ على يونُسَ، فألقَوْهُ في البحرِ؛ وهو معنى قولِه تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾(٣).

﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)﴾

فلمَّا وقَعتِ القُرْعةُ عليه، رمَوْهُ في البحرِ، ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾(٤).

فأُلقِيَ في البحرِ، ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤٧١).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٢٩٢).

(٣) محاسن التأويل (٨/ ٢٢٧).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٩٢).

﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ ﴾

ولمَّا وقَع ما وقَع، فتجرَّد عن نفسِه وغيرِها تجرُّدًا لم يكُنْ لأحدٍ مثلُ مجموعِهِ؛ لا جرَمَ زاد في التَّجرُّدِ بالفَناءِ في مقامِ الوَحْدانيَّة، فلازَم التنزيهَ حتىٰ أنجاه اللهُ تعالىٰ؛ وإلىٰ ذلك الإشارةُ بقولِه تعالىٰ: ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴾(١).

﴿ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤ ﴾

فأنجاه اللهُ بسببِ تسبيحِه وتوبته، فقذَفه الحوتُ مِن بطنِهِ إلىٰ البَرِّ بعد أن مكَث في جوفِ الحوت ثلاثَ ليالٍ، ولولا ذلك ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾؛ بأن يُميتَ اللهُ الحوتَ حينَ ابتلاعِه، ويُبقِيَهما في قعرِ البحر(٢).

فلولا ما تقدَّم له مِن كثرةِ العبادةِ والعملِ الصالح قبل وقوعِه في بطنِ الحوت، وتسبيحِه وهو في بطنِ الحوت؛ لأنتَج عن ذلك قولَه: ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾، فصار له بطنُ الحوتِ قبرًا إلىٰ يومِ القيامةِ.

﴿ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: ولكنَّه لمَّا كان ذكَّارًا للهِ في حالِ الرَّخاء، ذكَرْناه في حالِ الشِّدَّة، فأنجَيْناه مِن بطنِه، وأخرَجْناه منه سالمًا، وكان ذلك أمرًا باهرًا للعقل، أبرَزه في مظهرِ العظَمةِ، فقال: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٩٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٧٧).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ٢٩٤).

﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦ ﴾

ولمَّا كان سَقَمُه متناهيًا، بالغًا إلىٰ حدٍّ يَجِلُّ عن الوصفِ؛ نبَّه علىٰ أنَّه أظَلَّه وستَره، فقال: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴾.

﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ ﴾

ولمَّا كان النَّظرُ إلىٰ الترجيةِ أعظَمَ، ختَم بها إشارةً إلىٰ أنَّه لا يُمِيتُه ﷺ حتىٰ يُقِرَّ عينَه بأمَّتِه كثرةً طواعيةً ونِعْمةً، فقال: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴾[(١)].

ظاهرُ ترتيبِ ذِكْرِ الإرسالِ بعد الإنجاء مِن الحوتِ أنَّه إعادةٌ لإرساله[(٢)].

ثم لطَف به لُطْفًا آخرَ، وامتنَّ عليه مِنَّةً عُظْمىٰ؛ وهي ﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴾[(٣)].

﴿ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨ ﴾

ولمَّا تسبَّب عن إتيانِه إليهم انشراحُ صدرِه بعدما كان حصَل له مِن الضِّيقِ الذي أوجَبَ له ما تقدَّم، قال: ﴿ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾[(٤)].

الفاءُ في ﴿ فَـَٔامَنُواْ ﴾ للتَّعقيبِ العُرْفيِّ؛ لأنَّ يونُسَ لمَّا أُرسِلَ إليهم ودعَاهم، امتنَعوا في أولِ الأمر، فأخبَرهم بوعيدٍ بهلاكهم بعد أربعين يومًا، ثم خافوا ﴿ فَـَٔامَنُواْ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٢٩٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٧٩).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٠٨).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٢٩٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٨٠).

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

ولمَّا كان الذي سبَق ادِّعاؤه أمرينِ: أحدهما: أنَّ هؤلاء المُنذَرين يُسارِعون في اقتفاءِ آثار آبائهم في الضَّلال، والثاني: أنَّ أكثرَ الأوَّلين ضَلُّوا، وسِيقتْ دليلًا شُهوديًّا علىٰ الثاني هذه القِصَصُ السِّتُّ التي ما اهتدىٰ مِن أهلِها أُمَّةٌ بكمالِها إلا قومَ يونُسَ عليه السلام؛ كان ذلك سببًا للأمرِ بإقامة الدَّليل علىٰ ضَلالِ هؤلاء تبعًا لآبائهم بأمرٍ ليس في بيانِ الضَّلالِ أوضَحُ منه، فقال متهكِّمًا بهم، مخصِّصًا الأمرَ به ﷺ -إشارةً إلىٰ عِظَمِ هذه النَّتيجةِ، وأنَّه لا يفهَمُها حقَّ فَهْمِها سِواه ﷺ-: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾[1].

تفريعٌ علىٰ ما تقدَّم مِن الإنكارِ علىٰ المشركين، وإبطالِ دعاويهم، وضرَب الأمثالَ لهم بنُظَرائهم مِن الأُمَمِ، ففرَّع عليه أمرَ اللهِ رسولَه ﷺ بإبطالِ ما نسَبه المشركون إلىٰ الله مِن الولدِ[2].

لمَّا ذكَر أقاصيصَ الأنبياءِ عليهم السلام، عاد إلىٰ شرحِ مذاهبِ المشركين، وبيانِ قُبْحِها وسخافتها[3].

﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

ولمَّا كان دَعْواهم لأنوثةِ الملائكة مُتضمِّنةً لادعاءِ العلم باختصاصِه عند دعوىٰ الولديَّةِ بأدنىٰ القبيلتينِ، أو ادِّعاءِ العلم بأنَّه خلَقهم إناثًا بمشاهَدةٍ منهم، أو كتابٍ منه إليهم، وأمَّا العقلُ فإنَّه لا مدخلَ له في ذلك؛ قال -مُعلِمًا بأنَّهم أهلٌ لأن يُبكَّتوا ويُستهزأَ بهم؛ لأنَّه لا علمَ عندهم بإحدىٰ الطريقينِ، ولا يَقدِرون أن يَدَّعوا

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣٠١-٣٠٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٨٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٥٩).

ذلك؛ لئلا يفتضحوا فضيحةً لا تنجبرُ أصلًا-: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴾[(١)].

إضرابٌ، وانتقالٌ مِن التَّبكيتِ بالاستفتاءِ السابق إلىٰ التَّبكيت بهذا[(٢)].

ثم زاد في توبيخِهم وتقريعهم، فقال: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴾[(٣)].

﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

ولمَّا اشتَدَّ تشوُّفُ السامعِ إلىٰ أن يَعلَمَ حقيقةَ قولهم الذي تسبَّب عنها هذا الاستفتاءُ، أعلَمَ سبحانه بذلك في قولِه مُؤكِّدًا إشارةً إلىٰ أنَّه قولٌ لا يكاد ألا يُقَرَّ أحدٌ أنَّه قاله، مُعجِّبًا منهم فيه، مناديًا عليهم بما أبانَ مِن فضيحتِهم بما قدَّم مِن استفتائهم: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴾[(٤)].

ارتقاءٌ في تجهيلِهم بأنَّهم يقولون المستحيلَ، فضلًا علىٰ القولِ بلا دليل؛ فلذلك سمَّاه إفكًا، والجملةُ معترِضة بَيْنَ جُمَلِ الاستفتاء[(٥)].

استئنافٌ مِن جهتِه، غيرُ داخلٍ تحت الأمر بالاستفتاء، مسُوقٌ لإبطالِ أصل مذهبهم الفاسد؛ ببيانِ أنَّ مَبْناه ليس إلا الإفكَ الصريح، والافتراءَ القبيح، مِن غيرِ أن يكونَ لهم دليلٌ أو شُبْهةٌ قطعًا[(٦)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٠٧).

(٣) فتح القدير (٤/ ٤٧٤).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٣٠٥).

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٨١).

(٦) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٠٧).

﴿وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢﴾

ثم عدَل عن مظهرِ العظَمة إلىٰ اسمِ الجلالةِ، العَلَمِ علىٰ الذاتِ الجامعة لجميعِ الصفات؛ إشارةً إلىٰ أنَّ كلَّ صفةٍ مِن صفاته ونعتٍ مِن نعوته يأبىٰ الولديَّةَ، فقال: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[1].

بدأ أولًا بتوبيخِهم علىٰ تفضيلِ أنفسهم بقولِه: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾، وثنَّىٰ بأنَّ نسبةَ الأنوثةِ إلىٰ الملائكة تقتضي المشاهَدةَ؛ فأنكَر عليهم بقولِه: ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾، ثم أخبَر عنهم ثالثًا بأعظَمِ الكفرِ؛ وهو ادعاؤهم أنَّه تعالىٰ قد ولَدَ، فبلَغ إفكُهم إلىٰ نسبةِ الولد، ولمَّا كان هذا فاحشًا، قال: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[2].

ثم أفصَح عن إفكِهم بقولِه: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ١٥٣﴾

ودَلَّ علىٰ كَذِبِهم أيضًا بإنكارِه موبِّخًا لهم في أسلوبِ الخطاب زيادةً في الإغضابِ في قولِه: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾[3].

عَوْدٌ إلىٰ الاستفتاءِ؛ ولذلك لم تُعطَفْ؛ لأنَّ بَيْنَها وبين ما قبلها كمالَ الاتصال؛ فالمعنىٰ: وقُلْ لهم: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣٠٥).

(٢) البحر المحيط (٩/ ١٢٦).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٣٠٥).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٨٢).

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤)﴾

جملةُ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن جملةِ ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾؛ فإنَّ إنكارَ اصطفاءِ البناتِ يقتضي عدمَ الدَّليلِ في حُكْمِهم ذلك، فأبدَلَ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ مِن إنكارِ ادعائهم اصطفاءَ اللهِ البناتِ لنفسه(١).

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥)﴾

ولمَّا كان هذا شديدَ المنافاةِ للعقول، عظيمَ البُعْدِ عن الطباعِ؛ حسُنَ جدًّا قولُه أيضًا مُبكِّتًا: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٢).

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦)﴾

ولمَّا قرَّرهم على شهودِ ذلك بما تضمَّن إبطالَه عقلًا، فلم يَبقَ مِن طُرُقِ الأدلةِ إلا السَّمعُ؛ عادَل به قولَه: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾(٣).

إضرابٌ وانتقالٌ مِن توبيخِهم وتبكيتهم بما ذكَر إلى تبكيتِهم بتكليفهم ما لا يدخُلُ تحت الوجودِ أصلًا(٤).

﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧)﴾

ولمَّا كان المرادُ بهذا - ولا بد - البرهانَ السَّمْعيَّ، بيَّنه بما سبَّب عنه مِن قولِه: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٨٢).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٣٠٦).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٣٠٧).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٠٨).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٣٠٧).

تفرَّع علىٰ إنكارِ أن تكونَ لهم حُجَّةٌ بما قالوا أنْ خُوطِبوا بالإتيان بكتابٍ مِن عندِ الله علىٰ ذلك إن كانوا صادقين فيما زعَموا[١].

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨)﴾

ولمَّا تمَّ إظهارُ ضَلالِهم، بكَّتهم في أسلوبٍ آخَرَ مُعرِضًا عن خطابهم تخويفًا مِن إحلالِ عذابهم، فقال: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[٢].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿لَيَقُولُونَ (١٥١)﴾؛ أي: شفَعوا قولَهم: ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾، فجعَلوا بَيْنَ اللهِ وبين الجِنِّ نسَبًا بتلك الولادةِ[٣].

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩)﴾

ولمَّا ذكَر اليومَ الأعظم الذي يَظهَرُ فيه لكلِّ أحدٍ معاقدُ الصفات، وتتلاشىٰ عند تلك المظاهرِ أعيانُ الكائنات، وتنمحي لدىٰ تلك النُّعوتِ آثارُ الفانيات، وكان ذكره علىٰ وجهٍ مُبينٍ بعد الجن عن المناسبة، كان محزًّا للتَّنزيه وموضعًا بعد تلك الضَّلالاتِ للتَّقديس نتيجةً لذلك، فقال مصرِّحًا باسمِ التَّسبيح الجامعِ لجميع أنواعه، والجلالةِ إشارةً إلىٰ عِظَمِ المقام: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٤].

اتُّبِعتْ حكايةُ قولِهم الباطلِ والوعيد عليه باعتراضٍ بَيْنَ المستثنىٰ منه والمستثنىٰ، يَتضمَّن إنشاءَ تنزيهِ الله تعالىٰ عمَّا نسَبوه إليه؛ فهو إنشاءٌ مِن جانبِ اللهِ تعالىٰ لتنزيهه، وتلقينٌ للمؤمنين بأن يقتدوا باللهِ في ذلك التَّنزيهِ، وتعجيبٌ مِن فظيعِ ما نسَبوه إليه[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٨٣).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٣٠٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٨٥).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٣٠٩).

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٨٨).

حكايةٌ لتنزيهِ الملائكة إيَّاه تعالىٰ عمَّا وصَفه المشركون به بعد تكذيبِهم لهم في ذلك[1].

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

ثم استثنىٰ الذين اصطفاهم لعبادتِه؛ فهم لا يَصِفونه إلا بما يليقُ بجلالِه سبحانه، فقال: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾

ولمَّا نزَّه نفسَه المقدَّسَ سبحانه عن كلِّ نقصٍ، دلَّ علىٰ ذلك بأنَّهم وجميعَ ما يعبُدونه مِن دُونِه لا يَقدِرون علىٰ شيءٍ لم يُقدِّرْهُ، فقال مُسبِّبًا عن التَّنزيه، مُؤكِّدًا تكذيبًا لِمَن يظنُّ أنَّ غيرَ الله يَملِكُ شيئًا، مواجِهًا لهم بالخطاب؛ لأنَّه أنكىٰ وأجدَرُ بالإغضاب: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾[2].

عُقِّب قولُهم في الملائكةِ والجِنِّ بهذا؛ لأنَّ قولَهم ذلك دعَاهم إلىٰ عبادةِ الجِنِّ وعبادةِ الأصنام التي سوَّلها لهم الشَّيطانُ، وحرَّضهم عليها الكهَّانُ خَدَمةُ الجِنِّ، فعُقِّب ذلك بتأييسِ المشركين مِن إدخالِ الفتنة علىٰ المؤمنين في إيمانهم بما يحاوِلون منهم مِن الرجوعِ إلىٰ الشرك[3].

لمَّا ذكَر الدلائلَ علىٰ فسادِ مذهبِ الكفار، أتبَعه بما نبَّه به علىٰ أنَّ هؤلاء الكفارَ لا يَقدِرون علىٰ حَمْلِ أحدٍ علىٰ الضَّلال إلا إذا كان قد سبَق حُكْمُ اللهِ في حقِّه بالعذابِ والوقوع في النار[4].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٠٩).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٣٠٩-٣١٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٨٨-١٨٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٦١).

ثم خاطَب الكفارَ على العموم، أو كفارَ مكَّةَ على الخصوصِ؛ فقال: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ (١).

﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ١٦٢﴾

تعليلٌ وتحقيقٌ لبراءةِ المُخلَصِين ممَّا ذُكِر؛ ببيانِ عَجْزِهم عن إغوائِهم وإضلالهم (٢).

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ١٦٣﴾

ثم استثنى مِن الإضلال قولَه: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ١٦٤﴾

ولمَّا كان مِن المعلوم أنَّ هذا الاستفتاءَ مِن النبي ﷺ وقَع امتثالًا للأمرِ المصدَّر به، وبطَل بهذه الجملةِ قُدْرتُهم وقدرة معبوداتهم التي يَدَّعون لها بعضَ القدرة؛ قال مُؤكِّدًا لذلك، ومُبطِلًا لقدرةِ المُخلَصين أيضًا، عطفًا على ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (٣).

يجوز أن يكونَ عطفًا على قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ على أولِ الوجهَينِ في المعنى بعبادِ الله المُخلَصِين، فيكونَ عطفًا على معنى الاستثناءِ المنقطِع؛ لأنَّ معناه أنَّهم ليسوا أولادَ الله تعالى، وعطفَ عليه أنَّهم يَتبرَّؤون مِن ذلك، فالواوُ عاطفةٌ قولًا محذوفًا يدلُّ عليه أنَّ ما بعد الواوِ لا يصلُحُ إلا أن يكونَ كلامَ قائل؛ والتَّقدير: ويقولون: ما منَّا إلا له مقامٌ معلوم، وإنَّا لنحن الصافُّون، وإنَّا لنحن المسبِّحون،

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤٧٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٠٩).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٣٠٩-٣١١).

ويجوز أن يكونَ هذا ممَّا أُمِر النبيُّ ﷺ بأن يقولَه للمشركين؛ عطفًا على التَّفريعِ الذي في قولِه: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخرِه(١).

تبيينٌ لجليَّةِ أمرِهم، وتعيينٌ لحيِّزهم في موقفِ العبوديَّة - بعد ما ذُكِر مِن تكذيبِ الكفرة فيما قالوا، وتنزيهِ الله تعالى عن ذلك، وتبرئةِ المُخلَصين عنه -، وإظهارٌ لقصورِ شأنهم، وقَمَاءتِهم(٢)(٣).

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥)﴾

ولمَّا سلَب عن الكلِّ كلَّ شيءٍ مِن القدرة إلا ما وهَبهم، وكان الكفارُ يَدَّعون أنَّهم يعبُدون اللهَ تعالى وينزِّهونه، وأنَّ الإشراكَ لا يَقدَح في ذلك؛ بيَّن أنَّ المُخلَصين خُصُّوا دُونَهم بمواقفِ الصَّفاء، ومقاماتِ الصِّدْقِ والوفاء؛ لأنَّ طاعتَهم أبطَلَها إشراكُهم، فقال مُؤكِّدًا ومُخصِّصًا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾(٤).

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)﴾

وبعد أن ذكَروا صفوفَهم، ذكَروا صلاتَهم، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾.

﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧)﴾

ولمَّا بيَّن ضلالَهم، وهُدَاه ﷺ وهُدَى مَن اتبَعه؛ أعلَمَ بأنَّهم زادوا على عيبِ الضَّلال في نفسه عيبَ الإخلافِ للوعد، والنَّقضِ لِما أكَّدوه مِن العهدِ، فقال مُؤكِّدًا -إشارةً

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٩٠-١٩١).

(٢) أي: ذلهم وصَغارهم.

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٠٩).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٣١٢).

إلىٰ أنَّه لا يكاد يُصدَّق أنَّ عاقلًا يُؤكِّدُ علىٰ نفسه في أمرٍ، ثم يُخلِفُه؛ جوابًا لِمَن يقول: هل نزَّهوه كما نزَّهه المُخلَصون؟-: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ﴾[1].

انتقالٌ مِن ذِكْرِ كفرِ المشركين بتعدُّدِ الإله وبإنكارِ البعث وما وصَفوا به الرسولَ ﷺ مِن السِّحْرِ والجنون، ثم بما نسَبوا الله ممَّا لا يليقُ بإلهيَّتِه، وما تخلَّل ذلك مِن المواعظِ والوعيد لهم والوعد للمؤمنين، والعِبْرةِ بمصارعِ المكذِّبين السابقين، وما لَقِيَه رُسُلُ اللهِ مِن أقوامهم؛ فانتقالُ الكلامِ إلىٰ ذِكْرِ ما كفَر به المشركون مِن تكذيبِ القرآن الذي أنزَله اللهُ هُدًىٰ لهم[2].

﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٦٨﴾

ثم ذكَر قولَهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ١٦٩﴾

فتسبَّب عن ذلك قولُه: ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ١٧٠﴾

ولـمَّا كان هذا الذِّكْرُ - الذي أتاهم مع كونِه أعظَمَ ذِكْرٍ أتىٰ مصدِّقًا لكُتُبِ الأوَّلين، وكان الرسولُ الآتي به أعظَمَ الرُّسُل؛ فكان لذلك هو عَيْنَ ما عقَدوا عليه مع زيادةِ الشَّرف - سببًا لكفرِهم؛ قال: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣١٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٩٣).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٣١٣).

الفاءُ في قولِه: ﴿ فَكَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ للتَّعقيبِ علىٰ فعلِ ﴿لَيَقُولُونَ ﴾؛ أي: استمَرَّ قولُهم حتىٰ كان آخِرُه أن جاءهم الكتابُ، فكفَروا به، أو للفصيحةِ؛ والتَّقدير: فكان عندهم ذِكْرٌ ﴿ فَكَفَرُواْ بِهِۦ ﴾؛ فالضميرُ عائدٌ إلى الذِّكْرِ؛ وهو القرآن(١).

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ -كما أرشَد إليه سياقُ التَّهديد-: فلقد سبَقتْ كلمتُنا علىٰ مَن خالَف رُسُلَنا بالخِذْلانِ المُهين؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(٢).

تسليةٌ للنبيِّ ﷺ علىٰ ما تضمَّنه قولُه: ﴿ فَكَفَرُواْ بِهِۦ ﴾، وبيانٌ لبعضِ الوعيد الذي في قولِه: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾، بمنزلةِ بدلِ البعض مِن الكلِّ، ولكنَّه غلَب عليه جانبُ التسلية، فعُطِف بالواوِ عَطْفَ القصَّةِ علىٰ القصَّة(٣).

لمَّا هدَّد الكفارَ بقولِه تعالىٰ: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ أي: عاقبةَ كفرِهم، أردَفه بما يُقوِّي قلبَ الرسولِ ﷺ، فقال: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(٤).

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

ولمَّا آذَنتِ اللامُ بعلوِّهم، أوضَح ذلك ببيانِ ما سمَّاه كلمةً لانتظامِه في معنًىٰ واحدٍ بقولِه: ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٩٤).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٣١٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٩٥).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٦٣).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٣١٤).

بُيِّنَتِ الكلمةُ بجملةِ ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾؛ أي: الكلامُ المتضمِّنُ وَعْدَهم بأن ينصُرَهم اللهُ على الذين كذَّبوهم وعادَوْهم؛ وهذه بشارةٌ للنبي ﷺ عَقِب تسليتِه؛ لأنَّه داخلٌ في عمومِ المرسَلين[١].

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

ولمَّا خَصَّ بذلك المُرسَلِين، عمَّ فقال: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[٢].

وعطف ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ بشارةً للمؤمنين؛ فإنَّ المؤمنين جندُ الله؛ أي: أنصارُه؛ لأنَّهم نصَروا دِينَه، وتلقَّوْا كلامَه[٣].

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾

ولمَّا ثبَتَ لا محالةَ بهذا أنَّه ﷺ هو المنصورُ -لأنَّه مِن المرسَلِين، ومِن جندِ الله، بل هو أعلاهم-، سبَّب عن ذلك قولَه: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[٤].

هذا مفرَّعٌ على التَّسليةِ التي تضمَّنها قولُه: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا ﴾[٥].

ثم أمَرَ اللهُ سبحانه رسولَه ﷺ بالإعراضِ عنهم، والإغماضِ عمَّا يصدُرُ منهم مِن الجهالاتِ والضَّلالات، فقال: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[٦].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٩٥).
(٢) نظم الدرر (١٦/ ٣١٤).
(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٩٥).
(٤) نظم الدرر (١٦/ ٣١٥).
(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٩٦).
(٦) فتح القدير (٤/ ٤٧٧).

﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

عبَّر عن ترتُّبِ نزولِ الوعيد بهم بفعلِ الإبصار؛ للدلالةِ علىٰ أنَّ ما تُوُعِّدوا به واقعٌ لا محالةَ، وأنَّه قريبٌ، حتىٰ إنَّ الموعودَ بالنصر يَتشوَّف إلىٰ حلولِه، فكان ذلك كنايةً عن تحقُّقه وقُرْبِه؛ لأنَّ تحديقَ البصر لا يكون إلا إلىٰ شيءٍ أشرَفَ علىٰ الحلول(١).

فتسبَّب عن الإعراضِ عنهم قولُه: ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾.

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾

ولمَّا كانت عادتُهم الاستعجالَ بما يُهدَّدون به استهزاءً كلمَّا ورَد عليهم تهديدٌ، سبَّب عن ذلك الإنكارَ عليهم علىٰ وجهٍ هو تهديدٌ آخرُ لهم، فقال: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾(٢).

هذا تفريعٌ علىٰ التَّأجيلِ المذكور في قولِه: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾؛ فإنَّ ذلك ما أنذَرهم بعذابٍ يحُلُّ بهم، تُوُقِّعَ أنَّهم سيقولون علىٰ سبيلِ الاستهزاء: أرِنا العذابَ الذي تخوِّفُنا به، وعجِّلْهُ لنا(٣).

ثم هدَّدهم بقولِه سبحانه: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾(٤).

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

ولمَّا عُلِم مِن هذا أنَّه لا بشرىٰ لهم يومَ حلولِه، ولا قرارَ عند نزولِه؛ صرَّح بذلك في قولِه: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٩٦).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٣١٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٩٧).

(٤) فتح القدير (٤/ ٤٧٧).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٣١٦).

الفاءُ في قولِه: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ فاءُ الفصيحةِ؛ أي: إن كانوا يستعجلون بالعذابِ، فإذا نزَل بهم، فبئس وقتُ نزوله، وإسنادُ النزولِ إلىٰ العذاب وجعلُه في ساحتِهم استعارةٌ تمثيلية مَكْنيَّةٌ، شبَّهتْ هيئةَ حصولِ العذاب لهم بعد ما أُنذِروا به فلم يَعبؤوا بهيئةِ نزول جيشِ عدوٍّ في ساحتهم بعد أن أنذَرهم به النذيرُ العريان، فلم يأخذوا أُهْبتَهم حتىٰ أناخ بهم(١).

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ ﴾

ولمَّا كان النبيُّ ﷺ نبيَّ الرَّحمةِ لا يَستأصل قومَه بعذابٍ، قال دالًّا علىٰ ذلك بتكريرِ الأمر تأكيدًا للتَّسلية، ووعدِ النُّصرةِ، مع ما فيه مِن زيادةِ المعنىٰ علىٰ الأول: ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾(٢).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ الآيةَ؛ لأنَّ معنىٰ المعطوفِ عليها الوعدُ بأنَّ اللهَ سينتقمُ منهم، فعطَف عليه أمرَه رسولَه ﷺ بألا يَهتمَّ بعنادِهم(٣).

كرَّر الأمرَ بالتولي تأنيسًا له ﷺ، وتسليةً وتأكيدًا لوقوعِ الميعاد، ولم يقيِّدْ أمرَه بالإبصار كما قيَّده في الأول: إمَّا لاكتفائه به في الأولِ، فحذَفه اختصارًا، وإمَّا لِما في تركِ التقييد مِن جَوَلانِ الذهن فيما يتعلقُ به الإبصارُ منه مِن صنوفِ المَسرَّات، والإبصارُ منهم مِن صنوفِ المَساءَاتِ(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٩٧).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٣١٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٩٨).

(٤) البحر المحيط (٩/ ١٣١).

﴿وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ١٧٩﴾

ولمَّا كان هذا مُنطبِقًا على يومِ الفتح، وكان ذلك اليومُ قد أَحَلَّ الكفارَ محَلًّا صاروا به بحيث لا اعتبارَ لهم؛ قال: ﴿وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾(1).

﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾

ولمَّا تقرَّر له سبحانه مِن العظَمةِ ما ذكَر، فكان الأمرُ أمرَه والخَلْقُ خَلْقَه؛ ثبَت تنزُّهُه عن كلِّ نقصٍ، واتصافُه بكل كمالٍ؛ فلذلك كانت نتيجةُ ذلك الخَتْمَ بمجامعِ التَّنزيهِ والتَّحميد، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(2).

ثم نزَّه سبحانه نفسَه عن قبيحِ ما يصدُرُ منهم، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(3).

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١﴾

ولمَّا قدَّم السَّلامَ على مَن شاء تخصيصَه في هذه السُّورةِ مِن رُسُلِه، عَمَّهم، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾(4).

ثم ذكَر ما يدلُّ على تشريفِ رُسُلِه وتكريمِهم، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾(5).

---

(1) نظم الدرر (16/ 318).

(2) نظم الدرر (16/ 319).

(3) فتح القدير (4/ 477).

(4) نظم الدرر (16/ 320).

(5) فتح القدير (4/ 477).

﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

ولمَّا كانت النفوسُ وإن تفاوتت في مراتبِ الكمال لا تَسلَمُ مِن نقصٍ أو حَيْرةٍ، كانت في حاجةٍ إلىٰ مرشِدِين يبلِّغونها مراتبَ الكمال بإرشادِ الله تعالىٰ؛ وذلك بواسطةِ الرُّسُلِ إلىٰ الناس، وبواسطة المبلِّغِين مِن الملائكة إلىٰ الرُّسُل، وكانت غايةُ ذلك هي بلوغَ الكمالِ في الدُّنيا، والفوز بالنعيم الدائم في الآخرة، وتلك نعمةٌ تستوجب علىٰ الناسِ حَمْدَ اللهِ تعالىٰ علىٰ ذلك؛ لأنَّ الحمدَ يقتضي اتصافَ المحمودِ بالفضائل، وإنعامَه بالفواضل، وأعظَمُها نعمةً الهدايةُ بواسطةِ الرُّسُلِ؛ فهم المبلِّغون إرشادَ الله إلىٰ الخَلْقِ[1].

وبعد أن علَّمهم كيف يُسلِّمون علىٰ رُسُلِه، علَّمهم كيف يَحمَدونه، فقال: ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٩٩).

سُورَةُ صٓ

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢﴾

﴿بَلِ﴾ للإضرابِ الإبطالي؛ وهذا نوعٌ مِن الإضرابِ الإبطالي، وتحريرُه أنَّه ليس إبطالًا محضًا للكلامِ السابق بحيث يكونُ حرفُ ﴿بَلِ﴾ فيه بمنزلةِ حرفِ النَّفي؛ كما هو غالبُ الإضرابِ الإبطالي، ولا هو إضرابٌ انتقاليٌّ، ولكن هذا إبطالٌ لتوهُّمٍ ينشأ عن الكلامِ الذي قبله؛ إذ دلَّ وصفُ القرآنِ بـ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ أنَّ القرآنَ مذكِّرٌ سامعيه تذكيرًا ناجعًا، فعقَّب بإزالةِ توهُّم مَن يتوهَّم أنَّ عدمَ تذكُّرِ الكفار ليس لضَعْفٍ في تذكيرِ القرآن، ولكن لأنَّهم متعزِّزون مشاقُّون؛ فحرفُ ﴿بَلِ﴾ في مثلِ هذا بمنزلةِ حرفِ الاستدراك؛ والمقصودُ منه تحقيقُ أنَّه ذو ذِكْرٍ، وإزالةُ الشُّبْهةِ التي قد تَعرِضُ في ذلك(١).

﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣﴾

ولمَّا كان للعِلْمِ الذي أراد اللهُ إظهارَه في هذا الوجودِ طريقان: حالٌ ومقالٌ؛ فأمَّا الحالُ: فهو ما تنطقُ به أحوالُ الموجودات التي أبدَعَها سبحانه في هذا الكونِ مِن علومٍ يُدرِكُ منها مَن أراد اللهُ ما أراد، وأمَّا المقالُ: فهو هذا الذِّكْرُ الذي هو ترجمةٌ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٠٤).

عن جميعِ الوجود، وكان سبحانه قد قدَّم الذِّكْرَ لأنَّه أبيَنُ وأظهر، وأخبَر أنَّهم أعرَضوا عنه وشاققوه، وكان مَن شاقَق المَلِكَ استحَقَّ الهلاكَ، وكان ما أبدَوْهُ مِن المغالَبةِ أمرًا غائظًا للمؤمنين؛ أتبَعه ما يصلُحُ لتخويفِ الكافرين، وترجيةِ المؤمنين، ممَّا أفصَحَ به لسانُ الحالِ مِن إهلاك المُنذَرين، وهو أبيَنُ ما يكونُ مِن دلالاتِه، وأظهَرُ ما يوجَدُ مِن آياتِه، فقال استئنافًا: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾[1].

استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ العزَّةَ عن الحقِّ والشِّقاقَ للهِ ولرسوله ﷺ ممَّا يُثيرُ في خاطرِ السامع أن يَسأَلَ عن جزاءِ ذلك، فوقَع هذا بيانًا له[2].

ثم أوعَدهم على شقاقِهم بقولِه تعالى: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾[3].

﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾

ولمَّا كان جَعْلُ المُنذِرِ منهم ليس محَلًّا للعجَبِ، فعَدُّوه عجَبًا لِما ظهَر مِن تقسيمِهم القولَ فيه؛ عجَّب منهم في قولِه: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[4].

لمَّا حكى عن الكفارِ كونَهم في عِزَّةٍ وشِقاق، أردَفه بشرحِ كلماتِهم الفاسدة[5].

عطفٌ على جملةِ ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ ﴾؛ فهو مِن الكلامِ الواقع الإضراب للانتقالِ إليه[6].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣٢٥).
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٠٦).
(٣) محاسن التأويل (٨/ ٢٣٩).
(٤) نظم الدرر (١٦/ ٣٢٦-٣٢٧).
(٥) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٦٧).
(٦) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٠٨).

حكايةٌ لأباطيلِهم المتفرِّعة على ما حُكِي مِن استكبارِهم وشِقاقهم[١].

﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر قولَهم الناشئ عن عجَبِهم، ذكَر سببَه؛ ليُعلَمَ أنَّ حالَهم هو الذي يُعجَبُ منه، لا حال مَن أنذَرهم بقولِه حاكيًا قولَهم إنكارًا لمضمونِ ما دخَل عليه: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[٢].

جملةُ ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾؛ أي: حيث عَدُّوه مُباهِتًا لهم بقلبِ الحقائقِ والأخبار بخلاف الواقع[٣].

ثم أنكَروا ما جاء به ﷺ مِن التَّوحيدِ، وما نفَاه مِن الشُّركاءِ لله، فقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[٤].

﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ ﴾

ولمَّا كان العجَبُ -فكيف بالعُجَابِ؟!- جديرًا بأن يُلزِمَ صاحبَه ليزدادَ النَّاظرُ عجَبًا، بيَّن أنَّهم فعَلوا خلافَ ذلك؛ تصديقًا لِما نسَبهم إليه مِن الشِّقاقِ، فقال: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾[٥].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢١٤).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٣٢٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢١٠).

(٤) فتح القدير (٤/ ٤٨٣).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٣٢٨).

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: فما حالُ ما يقوله؟ قالوا -جوابًا واقفًا مع التَّقليدِ والعادة التي وجَدوا عليها أسلافَهم-: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾(١).

الجملةُ مستأنَفةٌ أو مبيِّنةٌ لجملةِ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾؛ لأنَّ عدمَ سماعِ مثلِه يُبيِّن أنَّه شيءٌ مصطنَعٌ مبتدَعٌ(٢).

﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾﴾

ولمَّا كان مرادُهم بهذه التَّأكيداتِ الدَّلالةَ علىٰ أنَّهم في غايةِ الثَّبات علىٰ ما كانوا عليه قبل دعائه، وأبىٰ اللهُ أن يَبقَىٰ باطلًا بغيرِ أمارةٍ يقرنُه بها تَفضَحُه، وسلطانٍ يُبطِله ويَهتِكه؛ أتبَع ذلك حكايةَ قولِهم الذي جعَلوه دليلًا علىٰ جزمِهم، فكان دالًّا علىٰ عدمِ صِدْقِهم في هذا الحُكْمِ الجازم غايةَ الجزمِ بالاختلاق، المنادي عليهم بأنَّ أصلَ دائهم والحاملَ لهم علىٰ تكذيبهم إنَّما هو الحسَدُ، فقال دالًّا بتعبيرِهم بالإنزال علىٰ أنَّه ﷺ كان جديرًا بأن يُتوهَّمَ فيه النبوَّةُ؛ بما كان له قبل الوحيِ مِن التَّعبُّد، والأحوالِ الشَّريفة؛ وقدَّموا ما يدلُّ علىٰ اختصاصِه عنادًا؛ لِما يَعلَمون مِن أحوالِه المقتضيةِ للخَصُوصيَّة، وعبَّروا بحرفِ الاستعلاء إشارةً إلىٰ أنَّ مِثْلَ هذا الذي يذكُرُه لا يقولُه إلا مَن غُلِب علىٰ عقلِه، فقالوا: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣٣١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢١٢).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٣٣٥).

ثم استنكَروا أن يخُصَّ اللهُ رسولَه بمزيَّةِ النبوَّةِ دُونَهم، فقالوا: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾(١).

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ﴾

ولمَّا أرشَد إنكارُهم خَصُوصيَّتَه بالذِّكْرِ بنفي شكِّهم اللازمِ منه إثباتُ أنَّهم علىٰ علمٍ بأنَّه مرسَلٌ، وأنَّه أحَقُّهم بالرسالةِ إلىٰ أنَّ التَّقدير: أفيهم غيرُه مَن هو أهلٌ لتَلقِّي هذا الذِّكْرِ حتىٰ يُنزِلَه اللهُ عليه، ويترُكَ هذا البشيرَ النَّذير ﷺ؟! عادَل به قولَه: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾(٢).

﴿ أَمْ ﴾ منقطِعةٌ، وهي للإضراب أيضًا، وهو إضرابٌ انتقاليٌّ؛ فإنَّ ﴿ أَمْ ﴾ مُشعِرةٌ باستفهامٍ بعدها هو للإنكار والتَّوبيخ إنكارًا لقولهم: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾؛ أي: ليست خزائنُ فضلِ الله تعالىٰ عندهم فيَتصدَّوا لحرمانِ مَن يشاؤون حِرْمانَه مِن مواهبِ الخير؛ فإنَّ المواهبَ مِن اللهِ يصيبُ بها مَن يشاء، فهو يختار للنُّبوءةِ مِن يصطفيه، وليس الاختيار لهم فيَجعَلوا مَن لم يُقدِّموه عليهم في دِينِهم غيرَ أهلٍ لأن يختارَه اللهُ(٣).

﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ ﴾

ولمَّا سلَب عنهم التَّصرُّفَ في الخزائن، أتبَعه نَفْيَ المِلْكِ عمَّا شاهَدوا منها، وهو جزءٌ يسيرٌ جدًّا، فقال: ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾(٤).

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤٨٣).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٣٣٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢١٥-٢١٦).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٣٣٨).

إضرابٌ انتقاليٌّ إلىٰ ردٍّ يأتي علىٰ جميعِ مزاعمِهم، ويشملُ بإجماله جميعَ النُّقوضِ التَّفصيليَّة لمزاعمِهم بكلمةٍ جامعةٍ كالحَوْصلةِ، فيُشبِهُ التَّذييلَ؛ لِما يَتضمَّنه مِن عمومِ الملكِ، وعمومِ الأماكن المقتضي عمومَ العلم وعمومَ التَّصرُّف، يَنعَىٰ عليهم قولَهم في المغيَّبات بلا علمٍ، وتحكُّمَهم في مراتبِ الموجودات بدُونِ قدرةٍ ولا غِنًىٰ[(١)].

لمَّا ذكَر الخزائنَ أولًا علىٰ عمومِها، أردَفها بذِكرِ ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ يعني أنَّ هذه الأشياءَ أحدُ أنواعِ خزائنِ الله[(٢)].

لمَّا استفهَم استفهامَ إنكارٍ في قولِه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾، وكان ذلك دليلًا علىٰ انتفاءِ تصرُّفِهم في خزائنِ رحمةِ ربك؛ أتىٰ بالإنكارِ والتوبيخ بانتفاءِ ما هو أعَمُّ، فقال: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: ليس لهم شيءٌ مِن ذلك[(٣)].

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾

ولمَّا انتفىٰ عنهم بما مضىٰ وعن كلِّ مَن يَدَّعون ممالأتَه ومناصَرته عن آلهتهم وغيرِها خصائصُ الإلهيَّة، أنتج ذلك أنَّهم مِن جملةِ عباده سبحانه، فعبَّر عن حالِهم بأعلىٰ ما يصِلُون إليه مِن التَّجمُّعِ والتَّعاضد الذي دلَّ عليه ما تقدَّم الإخبارُ عنه مِن عِزَّتِهم وشِقاقهم، ونُفْرتِهم عن القَبولِ، وانطلاقِهم، فقال مخبِرًا عن مبتدأٍ حُذِف لوضوحِ العلمِ به: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢١٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٧٠).

(٣) البحر المحيط (٩/ ١٣٩-١٤٠).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٣٣٨-٣٣٩).

يجوز أن يكونَ استئنافًا يتصلُ بقولِه: ﴿ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ ﴾ الآيةَ، أُريدَ به وصلُ الكلامِ السابق؛ فإنَّه تقدَّم قولُه: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ ﴾، وتلاه قولُه: ﴿ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ ﴾ الآيةَ، فلمَّا تَقضَّىٰ الكلامُ علىٰ تفصيلِ ما للذين كفروا مِن عِزَّةٍ وشِقاق، وما لذلك مِن الآثارِ؛ ثُنِيَ العِنانُ[1] إلىٰ تفصيلِ ما أُهلِكَ مِن القرونِ أمثالِهم مِن قبلِهم في الكفرِ؛ ليُفضِيَ به إلىٰ قولِه: ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ ﴾، ويجوز أن يكونَ استئنافًا ابتدائيًّا مستقلًّا، خارجًا مخرجَ البشارةِ للنبي ﷺ بأنَّ هؤلاء جندٌ مِن الأحزاب مهزومٌ؛ أي: مُقدَّرٌ انهزامُه في القريبِ؛ وهذه البشارةُ معجزةٌ مِن الإخبارِ بالغيب، خُتِم بها وصفُ أحوالِهم[2].

أنَّه تعالىٰ لمَّا قال: إن كانوا يَملِكون السماواتِ والأرضَ فَلْيَرتقوا في الأسبابِ، ذكَر عَقِيبه أنَّهم جندٌ مِن الأحزابِ ضعيفون، فكيف يكونون مالكي السماواتِ والأرضِ وما بينهما؟![3].

﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٢ ﴾

ولمَّا أوجَب ذلك التَّشوُّفَ إلىٰ بيانِ الأحزابِ الماضية، وكانوا أحقَرَ شيءٍ بالنسبة إليه سبحانه مع شِدَّتهم في أنفسِهم؛ بيَّن ذلك بالتَّاءِ الدالة علىٰ الرُّتْبةِ الثانية المؤخرة؛ وهي رُتْبةُ التَّأنيثِ اللازمِ منه الضَّعْفُ، فقال: ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴾[4].

---

(١) المقصود: تحول الكلام واتجه إلىٰ كذا.

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢١٧-٢١٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٧٠).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٣٤٠).

لمَّا كان قولُه: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ تسليةً للنبي ﷺ، ووعدًا له بالنصرِ، وتعريضًا بوعيدِ مكذِّبيه بأنَّهم صائرون إلىٰ ما صارت إليه الأحزابُ الذين هؤلاء منهم، كما تقدَّم آنفًا؛ جِيءَ بما هو كالبيانِ لهذا التَّعريضِ، والدليلِ علىٰ المصيرِ المقصود، علىٰ طريقةِ قياسِ المساواة، وقد تقدَّم آنفًا أنَّ هذه الجملةَ: إمَّا بدلٌ مِن جملةِ ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾، وإمَّا استئنافٌ؛ ولذلك فُصِلتْ عن التي قبلها(١).

لمَّا ذكَر في الجواب عن شُبْهةِ القوم أنَّهم إنَّما توانَوْا وتكاسَلوا في النَّظرِ والاستدلال، لأجلِ أنَّهم لم يَنزِلْ بهم العذابُ؛ بيَّن تعالىٰ في هذه الآيةِ أنَّ أقوامَ سائرِ الأنبياء هكذا كانوا، ثم بالآخرةِ نزَل ذلك العقابُ(٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّه أهلَكَ قبل قُريشٍ قرونًا كثيرة لمَّا كذَّبوا رُسُلَهم، سرَد منهم هنا مَن له تعلُّقٌ بعِرْفانِه(٣).

استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله؛ ببيانِ أحوالِ العُتَاةِ الطغاة الذين هؤلاء جندٌ ما مِن جنودِهم ممَّا فعَلوا مِن التَّكذيبِ، وفُعِل بهم مِن العقابِ(٤).

لمَّا ذكَر سبحانه أحوالَ الكفارِ المعاصِرين لرسول الله ﷺ، ذكَر أمثالَهم ممَّن تقدَّمهم وعَمِل عملَهم مِن الكفرِ والتكذيب، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٢٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٧١).

(٣) البحر المحيط (٩/ ١٤٠).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢١٧).

(٥) فتح القدير (٤/ ٤٨٥).

﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا كانت ثمودُ أضخَمَ الناسِ بعدهم بما لهم مِن إتقانِ الأبنيةِ في الجبال والسُّهول، والتَّوسُّع بعمارةِ الحدائق وإنباطِ[1] العيون، وغيرِ ذلك مِن الأمورِ، مع مناسبتِهم لهم في رؤيةِ الآيات المحسوسة الظاهرة العظيمة؛ أتبعَهم بهم، فقال: ﴿ وَثَمُودُ ﴾[2].

﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا كان في معرضِ المعارَضةِ لتألُّبهم وشِقاقهم، وتجمُّعهم على المناواةِ[3] باطلًا واتفاقِهم، ولمَّا كانوا لِما عندهم مِن العنادِ وحميَّةِ الجاهليَّة ربما أنكروا أن يكونَ هلاكُ هؤلاء الأحزابِ لأجل التَّكذيب، وقالوا: هو عادةُ الدَّهرِ في الإهلاكِ والتَّخالُفِ في أسباب الهلاك؛ قال مُؤكِّدًا بأنواع التَّأكيد: ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾[4].

جملةُ ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ مؤكِّدةٌ لجملة ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ﴾، أخبَر أولًا عنهم بأنَّهم كذَّبوا، وأكَّد ذلك بالإخبارِ عنهم بأنَّهم ليسوا إلا مكذِّبين على وجهِ الحصر، كأنَّهم لا صفةَ لهم إلا تكذيبُ الرُّسُلِ؛ لتوغُّلِهم فيها، وكونِها هِجِّيراهم[5][6].

---

(١) أي: إخراجها.

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٣٤٢).

(٣) أي: المعاداة.

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٣٤٤).

(٥) أي: عادتهم.

(٦) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٢٢).

﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ استئنافٌ جِيءَ به تقريرًا لتكذيبهم، وبيانًا لكيفيَّته، وتمهيدًا لِما يعقُبُه(١).

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ١٥ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فلقد أعقَبْنا كُلًّا مِن أولئك الأحزابِ لمَّا حقَّ عليهم العقابُ بنوعٍ مِن الأنواع لا شكَّ فيه عند أحدٍ ولا ارتياب، عطَف عليه قولَه: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾(٢).

لمَّا أشعَر قولُه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ١٤﴾ بتهديدِ مشركي قُرَيشٍ بعذابٍ ينتظِرُهم جريًا علىٰ سُنَّةِ الله في جزاءِ المكذِّبين رُسُلَه؛ عُطِف علىٰ جملةِ الإخبار عن حلولِ العذاب بالأحزابِ السابقين جملةُ توعُّدٍ بعذابِ الذين ماثَلوهم في التَّكذيب(٣).

شروعٌ في بيانِ عقابِ كفار مكَّةَ إثر بيانِ عقابِ أضرابهم مِن الأحزاب الذين أُخبِرَ فيما سبَق بأنَّهم جُندٌ حقيرٌ منهم، مهزومٌ عن قريبٍ(٤).

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ١٦ ﴾

ولمَّا عجَّب منهم بما مضىٰ، وأبطَل شُبَهَهم، وعرَّفهم أنَّهم قد عرَّضوا أنفسَهم للهلاك تعريضًا قريبًا؛ أتبَع ذلك تعجيبًا أشدَّ مِن الأولِ، فقال: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾(٥).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢١٧).
(٢) نظم الدرر (١٦/ ٣٤٥).
(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٢٣).
(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢١٨).
(٥) نظم الدرر (١٦/ ٣٤٧).

حكايةُ حالةِ استخفافهم بالبعثِ والجزاء، وتكذيبِهم ذلك، وتكذيبِهم بوعيدِ القرآن إياهم، فلمَّا هدَّدهم القرآنُ بعذابِ الله، قالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾؛ إظهارًا لعدمِ اكتراثهم بالوعيدِ وتكذيبه؛ لئلا يظُنَّ المسلمون أنَّ استخفافَهم بالوعيد لأنَّهم لا يؤمنون بالبعث، فأبانوا لهم أنَّهم لا يُصدِّقون النبيَّ ﷺ في كلِّ وعيدٍ، حتىٰ الوعيدِ بعذابِ الدُّنيا الذي يعتقدون أنَّه في تصرُّفِ الله؛ فالقولُ هذا قالوه علىٰ وجهِ الاستهزاء، وحُكِي عنهم هنا إظهارًا لرَقَاعتِهم، وتصلُّبِهم في الكفرِ[(١)].

حكايةٌ لِما قالوه عند سماعِهم بتأخيرِ عقابهم إلىٰ الآخرة[(٢)].

لمَّا سَمِعوا ما توعَّدهم اللهُ به مِن العذابِ، قالوا هذه المقالةَ استهزاءً وسُخْريَّةً[(٣)].

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)﴾

ولمَّا كان سؤالُهم في تعجيلِ العذاب استهزاءً مع ما قدَّموا مِن الإكذابِ، والكلامِ البعيد عن الصَّواب، ربما اقتضىٰ أن يسألَ في تعجيلِ ما طلَبوا، وربما أُوقِعَ في ظنٍّ أنَّ إعراضَهم والابتلاءَ بهم ربما كان لشيءٍ في البلاءِ أو المبلِّغ؛ بيَّن تعالىٰ أنَّ عادتَه الابتلاءُ للصالحين رفعةً لدرجاتهم، فقال تعالىٰ مسلِّيًا ومعزِّيًا ومؤسيًا لهذا النبيِّ الكريم ﷺ بمَن تقدَّمه مِن إخوانِه الأنبياء والمرسَلين، مُذكِّرًا له بما قاسَوْا مِن الشَّدائد وما لاقَوْا مِن المِحَن، وحاثًّا علىٰ العملِ بأعمالهم، آمِرًا بالتأني والتُّؤدة والحِلْمِ، ومحذِّرًا مِن العجَلة والتَّبرُّم والضَّجر، وبدأ بأهلِ الشَّرف لأنَّ السِّياقَ لشَرَفِ القرآنِ الذي يلزمُ منه شرفُ صاحبه؛ تعريفًا بأنَّه لا يلزمُ مِن الشرفِ الراحةُ في الدُّنيا، ومنبِّهًا علىٰ أنَّ شَرَفَه مُحْوِجٌ عن قُرْبٍ بكثرةِ الأتباع إلىٰ الحُكْمِ بَيْنَ ذَوِي

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٢٤-٢٢٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢١٨).

(٣) فتح القدير (٤/ ٤٨٧).

الخصومات والنزاع الذي لا قِوَامَ له إلا بالحِلْمِ والأناة والصَّبر، وبدأ مِن أهلِ الشَّرف بمَن كان أولُ أمرِه مِثْلَ أولِ أمرِ هذا النبيِّ الكريم في استضعافِ قومِه له، وآخرُ أمرِه مُلْكًا ثابتَ الأركان، مَهِيبَ السُّلطان؛ ليكونَ حالُه مَثَلًا له، فيحصُلَ به تمامُ التَّسليةِ: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[(١)].

أعقَب حكايةَ أقوالِهم مِن التَّكذيب ابتداءً مِن قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾ إلىٰ هنا بأمرِ اللهِ رسولَه ﷺ بالصبرِ علىٰ أقوالهم؛ إذ كان جميعُها أذىٰ: إمَّا صريحًا؛ كما قالوا: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾، وقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾، وإمَّا ضمنًا؛ وذلك ما في سائرِ أقوالهم؛ مِن إنكارِ ما جاء به الرسولُ ﷺ، والاستهزاءِ بقولِهم: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ مِن إثباتِ أنَّ الإلهَ واحدٌ، ويَشمَل ما يقولونه ممَّا لم يُحْكَ في أولِ هذه السُّورة[(٢)].

لمَّا بالَغوا في السَّفاهةِ علىٰ رسول الله ﷺ حيث قالوا: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾، وقالوا له علىٰ سبيلِ الاستهزاء: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾؛ أمَره اللهُ بالصبرِ علىٰ سفاهتهم، فقال: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[(٣)].

لمَّا كانت مقالتُهم تقتضي الاستخفافَ، أمَر تعالىٰ نبيَّه بالصبرِ علىٰ أذاهم، وذكَر قِصَصًا للأنبياءِ: داودَ، وسُلَيمانَ، وأيُّوبَ، وغيرِهم، وما عرَضَ لهم، فصبَروا حتىٰ فرَّج اللهُ عنهم، وصارت عاقبتُهم أحسَنَ عاقبة. فكذلك أنت تَصبِرُ، ويؤُولُ أمرُك إلىٰ أحسَنِ مآل، وتبلُغُ ما تريد مِن إقامةِ دِينِك وإماتةِ الضَّلال[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣٤٨-٣٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٢٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٧٣).

(٤) البحر المحيط (٩/ ١٤١).

ثم أمَر اللهُ سبحانه نبيَّه ﷺ أن يَصبِرَ على ما يسمعُه مِن أقوالهم، فقال: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (١).

﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨﴾

ولمَّا كان الإنسانُ لا يزال يَتقرَّب إلى اللهِ تعالى حتى يُحِبَّه، فإذا أحَبَّه صار يفعلُ به سبحانه، وظهَرتْ على يديه الخوارقُ؛ قال مستأنِفًا جوابًا لِمَن سأل عن جزائه على ذلك الجهاد، مُؤكِّدًا له؛ لِما طُبِع عليه البشَرُ مِن إنكارِ الخوارق؛ لتقيُّدِه بالمألوفاتِ: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ (٢).

﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ استئنافٌ مسُوقٌ لتعليلِ قوَّته في الدِّين، وأوَّابيَّتِه إلى مرضاتِه تعالى (٣).

﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩﴾

ولمَّا أخبَر سبحانه عن تسخيرِ أثقَلِ الأشياء وأثبَتِها له، أتبَعها أخَفَّها وأكثرها انتقالًا، وعبَّر فيها بالاسمِ الدالِّ على الاجتماع جملةً والثَّباتِ؛ لأنَّه أدَلُّ على القدرةِ، فقال مُعبِّرًا باسم الجمع دُونَ الجمع إشارةً إلى أنَّها في شِدَّةِ الاجتماع كأنَّها شيءٌ واحدٌ؛ ذكَر حالها في وصفٍ صالحٍ للواحد، وجعَله مؤنَّثًا إشارةً إلى ما تقدَّم مِن الرَّخاوة اللازمة للإناثِ، المقتضيةِ لغاية الطواعيَة والقَبولِ لتصرُّفِ الأحكام: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ (٤).

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤٨٧).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٣٥٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢١٩).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٣٥٣).

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا دالًّا على المُلْكِ مِن حيث إنَّه التَّصرُّفُ في الأشياءِ العظيمة قسرًا، فكان كأنَّه قيل: كلُّ ذلك إثباتًا لنبوَّتِه، وتعظيمًا لمُلْكِه؛ قال: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾[1].

ثم ذكر مِنَّته عليه بالمُلْكِ العظيم، فقال: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾[2].

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ﴾

ولمَّا كان السِّياقُ للتَّدريبِ على الصَّبرِ والتَّثبيت الشافي والتَّدبُّر التامِّ والابتلاء لأهلِ القُرْبِ، وكان المظنونُ بمَن أُوتيَ فصلَ الخطابِ ألا يقعَ له لَبْسٌ في حُكْمٍ ولا عجَلةٌ في أمرٍ، وكان التَّقدير: هل أتَتْكَ هذه الأنباءُ؛ عطَف عليه -مبيِّنًا عواقبَ العجَلةِ، معلمًا أنَّ على مَن أُعطِيَ المعارفَ ألا يَزالَ ناظرًا إلى مَن أعطاه ذلك، سائلًا له التَّفهيمَ، استعجازًا لنفسِه، متصوِّرًا لمقامِ العبودية التي كرَّر التَّنبيهَ عليها في هذه السُّورةِ بنحوِ قوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾- قولَه في سياقٍ ظاهرُه الاستفهامُ، وباطنُه التَّنبيهُ على ما في ذلك من الغرابة والعجب؛ لتعظُم الرغبةُ في سماعه، فيُوعى حقَّ الوعي ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ أي خبره العظيم جدًّا، وأفرَده -وإن كان المرادُ الجمعَ- دلالةً على أنَّهم على كلمةٍ واحدة في إظهارِ الخصومة، لا يَظهَرُ لأحدٍ منهم أنَّه متوسِّطٌ مثلًا ونحو ذلك، ولمَّا كان الخَصْمُ مصدرًا يقع على الواحدِ فما فوقه ذكَرًا كان أو أنثى، وكان يصحُّ تسميةُ رِبْقةِ المتخاصِمين خَصْمًا لأنَّهم في صورةِ الخَصْمِ؛ قال: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣٥٤-٣٥٥).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧١١).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٣٥٥-٣٥٦).

لمَّا أثنى تعالى على داودَ عليه السلام بما أثنى، ذكَر قصتَه هذه؛ ليُعلَمَ أنَّ مثلَ قصَّتِه لا يَقدَحُ في الثناءِ عليه والتعظيمِ لقدره، وإن تضمَّنتِ استغفارَه ربَّه، وليس في الاستغفارِ ما يُشعِر بارتكاب أمرٍ يُستغفر منه، وما زال الاستغفارُ شِعارَ الأنبياءِ المشهود لهم بالعصمة(١).

ثم ذكَر تعالى مِن حِكْمتِه عليه السلام وقضائه الفصلِ، وشِدَّة خوفِه وخشيتِه مع ذلك؛ ما قصَّه بقولِه سبحانه: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾(٢).

لمَّا ذكَر تعالى أنَّه آتى نبيَّه داودَ عليه السلام الفصلَ في الخطابِ بَيْنَ الناس، وكان معروفًا بذلك مقصودا؛ ذكَر تعالى نبأ خَصْمَينِ اختصَما عنده في قضيةٍ، جعَلهما اللهُ فتنةً لداودَ، وموعظةً لخَلَلٍ ارتكبه، فتاب اللهُ عليه، وغفَر له، وقيَّض له هذه القضيةَ، فقال لنبيِّه محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾(٣).

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢)﴾

﴿إِذْ﴾ هذه بدلٌ مِن ﴿إِذْ﴾ الأُولى بدلَ كلٍّ مِن كلٍّ؛ بأن يُجعَلَ زمانُ التَّسوُّر وزمانُ الدُّخول لقُرْبِهما بمنزلةِ المتَّحِدَين، أو بدل اشتمالٍ؛ بأن يُعتبَرَ الامتدادُ، أو ظرف لـ﴿تَسَوَّرُوا﴾، ويُعتبَرَ امتدادُ وقتِه، وإلا فالتَّسوُّر ليس في وقتِ الدُّخول(٤).

---

(١) البحر المحيط (٩/ ١٤٦).

(٢) محاسن التأويل (٨/ ٢٤٦).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٧١١).

(٤) روح المعاني (١٢/ ١٧١).

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا كانت هذه الدَّعوىٰ بأمرٍ مُستغرَبٍ يكاد ألا يَسمَعَه أحدٌ إلا أنكَره، ساق الكلامَ مُؤكَّدًا، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ﴾[1].

جملةُ ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ إلىٰ آخِرها بيانٌ لجملةِ ﴿خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾، وظاهرُ الأخِ أنَّهما أرادا أخوَّةَ النَّسب، وقد فرَضا أنفسهما أخوَينِ، وفرَضا الخصومةَ في معاملاتِ القرابة وعَلاقةِ النَّسب واستبقاءِ الصِّلات، ثم يجوز أن يكونَ ﴿أَخِى﴾ بدلًا مِن اسمِ الإشارة[2].

لمَّا أخبَروا عن وقوعِ الخصومة علىٰ سبيلِ الإجمال، أردَفوه ببيانِ سبب تلك الخصومةِ علىٰ سبيلِ التفصيل، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ﴾[3].

ثم لمَّا أخبَراه عن الخصومةِ إجمالًا، شرَعا في تفصيلِهما وشرحِهما، فقالا: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣٥٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٣٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٨٣).

(٤) فتح القدير (٤/ ٤٨٩).

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) ﴾

ولمَّا تمَّتِ الدَّعوىٰ، حصَل التَّشوُّفُ إلىٰ الجوابِ، فاستُؤنف قولُه: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴾(١).

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٢٥) ﴾

ولمَّا كان الحالُ قد يُشكِل في الإخبارِ عن المغفرة لو عبَّر بضميرِ الغائب لإيهامِ أنَّ ربَّه غيرُ المتكلِّم، وكان الغفرانُ لا يحسُنُ إلا مع القدرة؛ عاد إلىٰ مظهرِ العظَمة إثباتًا للكمال، ونفيًا للنَّقص، فقال: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾(٢).

ثم أخبَر سبحانه أنَّه قَبِلَ استغفارَه وتوبتَه، قال: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾(٣).

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ (٢٦) ﴾

مقولُ قولٍ محذوفٍ معطوف علىٰ ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي: صفَحْنا عنه، وذكَّرْناه بنِعْمةِ المُلْكِ ووعَظْناه، فجمَع له بهذا تنويهًا بشأنِه، وإرشادًا للواجبِ، وافتتاحُ الخطابِ بالنداء لاسترعاءِ وَعْيِه، واهتمامِه بما سيقالُ له(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣٥٩).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٣٦٤).

(٣) فتح القدير (٤/ ٤٩٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٤٢).

إمَّا حكايةٌ لِما خُوطِب به ﷺ مبيِّنةٌ لزُلْفَاهُ عنده ﷻ، وإمَّا مقولُ قولٍ مقدَّرٍ هو معطوفٌ علىٰ «غفَرْنا»، أو حالٌ مِن فاعلِه[(١)].

لمَّا تمَّم سبحانه قصَّةَ داودَ ﷺ، أردَفها ببيانِ تفويضِ أمرِ خلافةِ الأرض إليه[(٢)].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فما قضَيْناه في الأزَلِ بيومِ الحساب، وتوعَّدْنا به سُدًىٰ؛ عطَف عليه قولَه صارفًا الكلامَ عن الغَيْبةِ إلىٰ مظهرِ العظَمة إشارةً إلىٰ أنَّ العظيمَ تأبىٰ له عظَمتُه غيرَ الجدِّ العظيمِ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[(٣)].

لمَّا جرَىٰ في خطابِ داودَ ﷺ ذِكْرُ نسيانِ يوم الحساب، وكان أقصىٰ غاياتِ ذلك النسيانِ جحودَ وقوعِه؛ لأنَّه يُفضي إلىٰ عدمِ مراعاته ومراقَبتِه أبدًا: اعترِض بَيْنَ القصَّتَينِ بثلاثِ آياتٍ لبيانِ حِكْمةِ الله تعالىٰ في جَعْلِ الجزاء ويومِه احتجاجًا علىٰ مُنكِريه مِن المشركين[(٤)].

كلامٌ مستأنَفٌ مقرِّرٌ لِما قبله مِن أمرِ البعث، والحساب، والجزاء[(٥)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٢٣).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤٩٣).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٣٧٠-٣٧١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٤٦).

(٥) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٢٣).

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقدير: أفنحن نخلُقُ ذلك باطلًا؟ فلا يكون له مآلٌ يُظهِرُ فيه حِكْمتَه، ونحن منزَّهون عن العبثِ؛ عطَف عليه قولَه إنكارًا لِما يَلزمُ مِن تَرْكِ البعثِ مِن التَّسوية بَيْنَ ما حقُّه المفاوَتةُ فيه، وذلك أشَدُّ مِن العبثِ، وإن كان له أن يفعلَ ذلك؛ لأنَّه لا يقبُحُ منه شيءٌ: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾[(١)].

﴿ أَمْ ﴾ منقطِعةٌ أفادت إضرابًا انتقاليًّا، وهو ارتقاءٌ في الاستدلالِ على ثبوتِ البعث، وبيانٌ لِما هو مِن مقتضى خَلْقِ السماءِ والأرض بالحقِّ، بعد أن سِيقَ ذلك بوجهِ الاستدلالِ الجمليِّ، وقد كان هذا الانتقالُ بِناءً على ما اقتضاه قولُه: ﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾؛ فلأجلِ ذلك بُنِي على استفهامٍ مقدَّرٍ بعد ﴿ أَمْ ﴾، وهو مِن لوازمِ استعمالها، وهو استفهامٌ إنكاريٌّ؛ والمعنى: لو انتفى البعثُ والجزاء كما تزعُمون، لاستَوتْ عند اللهِ أحوالُ الصالحين وأحوالُ المفسِدين[(٢)].

ثم ذكَر ما بَيْنَ المؤمنِ عاملِ الصالحات والمفسِدِ مِن التبايُنِ، وأنَّهما ليسا سِيَّيْنِ، وقابَل الصلاحَ بالفسادِ، والتقوى بالفجورِ[(٣)].

ثم وبَّخهم وبكَّتهم، فقال: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٤٩).

(٣) البحر المحيط (٩/ ١٥٣).

(٤) فتح القدير (٤/ ٤٩٣).

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾

ولـمَّا ثبتَ بما ذكَر مِن أولِ السُّورة إلىٰ هنا ما ذكَر في هذا الذِّكْرِ مِن البراهينِ التي لا يأباها إلا مدخولُ الفكرِ مخالِطُ العقلِ، ثبتَ أنَّه ذو الذِّكْرِ والشَّرف الأعظم، فقال تعالىٰ منبِّهًا علىٰ ذلك تنبيهًا علىٰ أنَّه القانونُ الذي يُعرَف به الصَّلاحُ ليُتَّبَعَ والفسادُ ليُجتنَب، مُخبِرًا علىٰ مبتدأٍ تقديرُه هو: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[(١)].

عَقِب الإمعانِ في تهديدِ المشركين وتجهيلِهم علىٰ إعراضهم عن التدبُّرِ بحِكْمةِ الجزاء ويومِ الحساب عليه والاحتجاجِ عليهم، أعرَض اللهُ عن خطابهم، ووجَّه الخطابَ إلىٰ النبيِّ ﷺ بالثناء علىٰ الكتابِ المنزَّلِ عليه، وكان هذا القرآنُ قد بيَّن لهم ما فيه لهم مَقنَعٌ، وحِجاجًا هو لشُبُهاتهم مَقلَعٌ، وأنَّه إن حرَم المشركون أنفسَهم مِن الانتفاع به، فقد انتفَع به أولو الألبابِ؛ وهم المؤمنون[(٢)].

لـمَّا ذكَر اللهُ تعالىٰ هذه الطريقةَ الدقيقةَ في الإلزامِ في القرآن، لا جرَمَ وصَف القرآنَ بالكمال والفضل، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[(٣)].

لـمَّا انتفَتِ التسويةُ، بيَّن ما تحصُلُ به لـمُتَّبِعِه السعادةُ الأبدية؛ وهو كتابُ الله تعالىٰ، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٥١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٨٩).

(٤) البحر المحيط (٩/ ١٥٣).

ولمَّا كان القرآنُ يُرشِدُ إلىٰ المقاصدِ الصَّحيحة، والمآخذِ العقليَّة الصَّريحة؛ قال تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[1].

﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠ ﴾

ولمَّا كان الإنسانُ وإن أطال التَّدبُّر، وأقبَلَ بكُليَّتِه علىٰ التَّذكُّر، لا بد له مِن نسيانٍ وغفلةٍ وذهولٍ، ولمَّا كان الممدوحُ إنَّما هو الرَّجَّاعُ: «لو لم تُذنِبوا، لجاء اللهُ بقومٍ يُذنِبون، فيَستغفرون، فيَغفِرُ لهم»[2]، وكان اللهُ تعالىٰ هو المَلِكَ الذي لا شريكَ له، والمالكَ الذي له المُلْكُ كلُّه؛ فهو يَرفَع مَن يشاء ممَّن لا يخطُرُ في وَهْمٍ أن يرتفِعَ، ويَخفِضُ مَن يشاء ممَّن علا في المُلْكِ حتىٰ لا يقعَ في خاطرٍ أنَّه يحصُلُ له خَلَلٌ، ولا سيَّما إن كان علىٰ أعلىٰ خِلالِ الطاعةِ؛ ليبيِّنَ لكلِّ ذي لُبٍّ أنَّ الفاعلَ لذلك هو الفاعلُ المختار، فلا يَزالُ خيرُه مرجوًّا، وانتقامُه مرهوبًا مخشيًّا؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[3].

جُعِل التخلُّصُ إلىٰ مناقبِ سليمانَ عليه السلام مِن جهةِ أنَّه مِن مِنَنِ اللهِ علىٰ داودَ عليه السلام، فكانت قصَّةُ سليمانَ كالتَّكْملةِ لقصَّةِ داودَ عليه السلام، ولم يكُنْ لحالِ سليمانَ عليه السلام شَبَهٌ بحالِ محمَّدٍ ﷺ؛ فلذلك جزَمْنا بأن لم يكُنْ ذِكْرُ قصَّتِه هنا مثالًا لحالِ محمَّدٍ ﷺ، وبأنَّها إتمامٌ لِما أنعَم اللهُ به علىٰ داودَ؛ إذ أعطاه سليمانَ ابنًا بهجةً له في حياتِه، ووَرِث مُلْكَه بعد مماتِه؛ كما أنبأ عنه قولُه تعالىٰ: ﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[4].

---

(١) محاسن التأويل (٨/ ٢٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٣٧٦-٣٧٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٥٣).

لمَّا أمَر تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالصبرِ علىٰ ما يقول كفارُ قُريشٍ وغيرُهم، أمَره بأن يذكُرَ مَن ابتُلِي فصبَر؛ فذكَر قصَّةَ داودَ، وقصَّةَ سليمانَ، وقصَّةَ أيُّوبَ؛ ليتأسَّىٰ بهم، وذكَر ما لهم عنده مِن الزُّلْفىٰ والمكانةِ(١).

لمَّا أثنىٰ تعالىٰ علىٰ داودَ، وذكَر ما جرَىٰ له ومنه؛ أثنىٰ علىٰ ابنِه سليمانَ ﷺ، فقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾(٢).

﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ ﴾

ولمَّا كانت الخيلُ مِن أعظَمِ ما زُيِّن للناس مِن حُبِّ الشَّهوات، وكان السِّياقُ للعِزَّةِ والشقاق الدالَّينِ علىٰ عظيمِ الاحتياج إلىٰ ما يكُفُّ ذلك ممَّا أعظَمُه الخيلُ؛ ذكَر فيها أمرًا له ﷺ، دلَّ علىٰ أنَّه مع ما له مِن عظَمةِ المُلْكِ كثيرُ الأَوْبةِ عظيمُها؛ لأنَّ مَن لم يكُنْ ذلك له طبعًا لم يَقدِرْ علىٰ ما فعَل، فقال: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾(٣).

﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾

ولمَّا كان بيانُ ضخامةِ مُلْكِه وكثرةِ هَيْبته وعِزَّته مع زيادة أَوْبتِه لتحصُلَ التَّأسيةُ به في حُسْنِ ائتمارِه وانتهائه، والتَّسليةُ بابتلائه مع ذلك مِن شرَفِه وبهائه؛ أشار إلىٰ كثرةِ الخيل جدًّا وزيادةِ محبَّتِه له وسرعةِ أَوْبتِه بقولِه: ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾(٤).

---

(١) البحر المحيط (٩/ ١٥٦).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٧١٢).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ٣٧٧-٣٧٨).
(٤) نظم الدرر (١٦/ ٣٧٩).

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

ولمَّا اشتَدَّ تشوُّفُ السَّامع إلىٰ الفعل الذي أوجَب له الوصفَ بـ﴿أَوَّابٌ﴾ بعد سماعِ قوله في لومِه نفسه ليَجمَعَ بَيْنَ معرفةِ القول والفعل؛ أُجيب بقولِه: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[(١)].

لمَّا شغَله عرضُ الخيلِ حتىٰ فاتته صلاةُ العصرِ، غَضِبَ للهِ، وقال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[(٢)].

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾

ولمَّا ظهَر بهذا ما له مِن ضخامةِ المُلْكِ وعِزِّ السلطان، وكانت الأَوْبةُ عظيمةً جدًّا، وكان الثَّباتُ علىٰ مقام الشُّهود مع حفظِه مِن جميع جهاتِه أعظَمَ؛ نبَّه عليه بقولِه مُؤكِّدًا لِما طُبِعتْ عليه النُّفوسُ مِن ظنٍّ أنَّ الأوَّابَ لا ينبغي أن يُواجَهَ بالعتابِ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾[(٣)].

قد قلتُ آنفًا عند قولِه تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ﴾: إنَّ ما ذُكِر مِن مناقبِ سليمانَ لم يَخلُ مِن مقاصدِ ائتساءٍ وعِبْرةٍ وتحذير؛ علىٰ عادةِ القرآن في ابتدارِ وسائلِ الإرشاد بالترغيب والترهيب، فكذلك كانت الآياتُ المتعلِّقة بندَمِه علىٰ الاشتغال بالخيلِ عن ذِكْرِ الله موقعَ أسوةٍ به في مبادرةِ التوبة، وتحذيرٍ مِن الوقوع في مثلِ غفلتِه، وكذلك جاءت هذه الآياتُ مشيرةً إلىٰ فتنةٍ عرَضتْ لسليمانَ أعقَبَتْها إنابةٌ، ثم أعقَبَتْها إفاضةُ نِعَمٍ عظيمة، فذُكِرتْ عَقِب ذِكرِ قصَّةِ ما ناله مِن السهوِ عن عبادته، وهو دُونَ الفتنة[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣٨٠).

(٢) فتح القدير (٤/ ٤٩٥).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٣٨١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٥٩).

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾

وفسَّر الإنابةَ ليُعلَمَ أنَّه تعالىٰ فتنه مع أنَّه عبدٌ عظيمُ المنزلةِ مُجابُ الدَّعوة بقولِه جوابًا لِمَن سأل عنها: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾(١).

جملةُ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى ﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن جملة ﴿ أَنَابَ ﴾؛ لأنَّ الإنابةَ تشتمِلُ علىٰ ترقُّبِ العفوِ عمَّا عسىٰ أن يكونَ قد صدَر منه ممَّا لا يَرضَىٰ اللهُ تعالىٰ صدورَه مِن أمثاله(٢).

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا تسبَّب عن دعائِه الإجابةُ، أعلَمَ به سبحانه بقولِه: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾(٣).

اقتضت الفاءُ وترتيب الجُمَل أنَّ تسخيرَ الرِّيح وتسخيرَ الشياطين كانا بعد أن سأل اللهَ مُلْكًا لا ينبغي لأحدٍ مِن بعدِه أن أعطاه هاتينِ الموهبتينِ زيادةً في قوَّةِ مُلْكِه، وتحقيقًا لاستجابةِ دعوته؛ لأنَّه إنَّما سأل مُلْكًا لا ينبغي لأحدٍ غيرِه، ولم يَسألِ الزيادةَ فيما أُعطِيَه مِن الملك، ولعلَّ اللهَ أراد أن يُعطِيَه هاتينِ الموهبتينِ، وألا يُعطِيَهما أحدًا بعده، حتىٰ إذا أعطىٰ أحدًا بعده مُلْكًا مثلَ مُلْكِه فيما عدا هاتينِ الموهبتينِ، لم يكُنْ قد أخلَف إجابتَه(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣٨٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٦١).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٣٨٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٦٤).

ثم ذكَر سبحانه إجابتَه لدعوتِه، وإعطاءَه لمسألتِه، فقال: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾[1].

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧﴾

وكما سخَّر اللهُ له الريحَ، سخَّر له الشياطينَ، فقال: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾.

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨﴾

ولمَّا دلَّ على مُطلَقِ تسخيرِهم، دلَّ على أنَّه قهرٌ وغلَبةٌ؛ كما هو شأنُ إيالةِ[2] المُلْكِ وصَوْلةِ العِزِّ، فقال: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾[3].

﴿وَءَاخَرِينَ﴾ عطفٌ على ﴿كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾؛ فهو مِن جملةِ بدلِ البعض، وهذا صِنْفٌ ممَّن عُبِّر عنهم بالشياطين، شديدُ الشَّكيمة، يُخشَى تفلُّتُه، ويُرام أن يستمِرَّ، يعمل أعمالًا لا يجيدُها غيرُه، فيُصفَّدُ في القيودِ؛ ليعملَ تحت حراسةِ الحُرَّاس[4].

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾

ولمَّا كان ذلك مُلْكًا عظيمًا، نبَّه على عظَمتِه بكثرته ودوامه، وعظَمةِ مُؤتِيه، فقال مستأنِفًا بتقديرِ: قُلْنا له ونحوه: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[5].

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ إشارةٌ لِما أعطاه اللهُ تعالى مِن المُلْكِ الضخم، وتسخيرِ الرِّيح والإنس والجنِّ والطير، وأمَره بأن يمُنَّ على مَن يشاء، ويُمسِكُ عمَّن يشاء[6].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٤٩٧).

(٢) أي: سياسة.

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٣٨٥).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٦٦).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٣٨٦).

(٦) البحر المحيط (٩/ ١٥٨).

حكايةٌ لِما خُوطِب به سليمانُ عليه السلام، مبيِّنةٌ لعِظَمِ شأنِ ما أُوتِيَ مِن المُلْكِ، وأنَّه مفوَّضٌ إليه تفويضًا كليًّا[1].

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

ولمَّا رفَع الحرَجَ عنه في الدَّارينِ، أثبَتَ المزيدَ، فقال عاطفًا على ما تقديرُه: هذا له في الدُّنيا، مُؤكِّدًا زيادةً في الطُّمَأنينةِ لكونِه خارقًا لِما حكَم به مِن العادة في أنَّه كلُّ ما زاد عن الكَفافِ في الدُّنيا كان ناقصًا للحظِّ في الآخرة: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾[2].

لمَّا ذكَر اللهُ تعالى ما أنعَم به على سليمانَ في الدُّنيا، أردَفه بإنعامِه عليه في الآخرةِ، فقال: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾[3].

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾

ولمَّا انقضى الخبرُ عن المَلِكِ الأوَّاب الذي ملَك الدُّنيا بالفعل قهرًا وغلَبةً شرقًا وغربًا، وكان أيُّوبُ عليه السلام في ثروةِ الملوك وإن لم يكُنْ مَلِكًا بالفعل، وكان تكذيبُ مَن كذَّب بالنبيِّ ﷺ إنَّما هو بتسليطِ اللهِ الشياطينَ بوسوستِه عليهم، وأمَره سبحانه بالصبرِ على ذلك، وقَصَّ عليه مِن أخبارِ الأوَّابين تعليمًا لحُسْنِ الأَوْبةِ إن وهَن الصَّبرُ؛ أتبَعه الإخبارَ عن الصابرِ الأوَّاب الذي لم يَتأوَّهْ إلا مِن وسوسةِ الشَّيطان لزوجِه بما كان يَفتِنُها؛ ليزدادَ النبيُّ ﷺ بذِكْرِ هذه الأخبارِ صبرًا، ويَتضاعَفَ إقبالُه على الله تعالى، وتضرُّعُه له؛ اقتداءً بإخوانه الذين لم تَشغَلْهم عنه مِنْحةُ السَّرَّاء، ولا مِحْنةُ الضَّرَّاء، وتذكيرًا لقدرةِ الله على كلِّ ما يريده؛ تنبيهًا على أنَّه قادرٌ على ردِّ

---

(١) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٢٨).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٣٨٧-٣٨٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٣٩٦).

قُرَيشٍ عمَّا هم فيه، ونصرِ المستضعَفِينَ مِن عبادِه عليهم بأيسَرِ سَعْيٍ، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾[1].

هذا مَثَلٌ ثانٍ، ذُكِّر به النبيُّ ﷺ أسوةً به في الصبرِ على أذى قومه، والالتجاءِ إلى الله في كشفِ الضرِّ، وهو معطوفٌ على ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾، ولكونه مقصودًا بالمثلِ أُعيدَ معه فعلُ «اذكر»[2].

لمَّا أمَر نبيَّه ﷺ بالصبر، وذكَر ابتلاءَ داودَ وسليمانَ، وأثنى عليهما؛ ذكَر مَن كان أشَدَّ ابتلاءً منهما، وأنَّه كان في غايةِ الصبرِ، بحيث أثنى اللهُ عليه بذلك[3].

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾

ولمَّا تشوَّف السَّامعُ إلى جوابِه عن ذلك، استأنَف قولَه: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾[4].

جملةُ ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ إلخ مقولةٌ لقولٍ محذوف؛ أي: قلنا له: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾، وذلك إيذانٌ بأنَّ هذا استجابةٌ لدعائه[5].

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٤٣﴾

ولمَّا كان التَّقدير: ففعَل، اغتسَل، فبرأ ظاهرُه، وسُرَّ باطنُه؛ عطَف عليه قولَه صارفًا القولَ إلى مظهرِ الجلال تنبيهًا على عظَمةِ الفعل: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[6].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣٨٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٦٨).

(٣) البحر المحيط (٩/ ١٦٠).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٣٩٠).

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٧٠).

(٦) نظم الدرر (١٦/ ٣٩١).

اقتصارُ أيُّوبَ عليه السلام في دعائه على التعريضِ بإزالة النَّصَبِ والعذاب يُشعِرُ بأنَّه لم يُصَبْ بغيرِ الضُّرِّ في بدَنِه، ويحتمِلُ أن يكونَ قد أصابه تلَفُ المال، وهلاكُ العيال، فيكون اقتصارُه على النَّصب والعذاب في دعائه؛ لأنَّ في هلاكِ الأهل والمال نَصَبًا وعذابًا للنفس، ولم يَتقدَّمْ في هذه الآيةِ ولا في آيةِ سورة «الأنبياء» أنَّ أيُّوبَ عليه السلام رُزِئَ أهلَه، فيجوز أن يكونَ معنى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾: أنَّ اللهَ أبقى له أهلَه، فلم يُصَبْ فيهم بما يَكرَه، وزاده بنينَ وحفَدةً، ويكون فعلُ «وهَبْنا» مستعمَلًا في حقيقتِه ومجازه، ويؤيِّدُ هذا المحملَ وقوعُ كلمةِ ﴿مَّعَهُمْ﴾ عَقِبَ كلمةِ ﴿ومثلهم﴾؛ فإنَّ «مع» تُشعِرُ بأنَّ الموهوبَ لاحِقٌ بأهله، ومَزيدٌ فيهم، فليس في الآيةِ تقديرُ مضافٍ في قولِه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾[(١)].

معطوفٌ على مُقدَّرٍ مترتِّبٍ على مُقدَّرٍ آخرَ يقتضيه القولُ المُقدَّر آنفًا، كأنَّه قيل: فاغتسَل وشَرِب، فكشَفْنا بذلك ما به، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[(٢)].

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

ولمَّا أجمَلَ العذابَ الصَّالح لألَمِ الظاهر، وذكَر المخلصَ منه؛ أتبَعه التَّنبيهَ على أعظَمِه؛ وهو أَلَمُ الباطن، بل أبطَنُ الباطن للتَّعلُّق بالاعتقاد فيما وسوس لزوجِه رضي الله عنها بما كاد يُزِلُّها، فحلَف لَيَضرِبَنَّها مائةً؛ لئلا تعودَ إلى شيءٍ مِن ذلك، فيُزِلَّها عن مقامِها كما أزَلَّ غيرَها، فأرشَده سبحانه وتعالى إلى المخلصِ مِن ذلك الحَلِفِ على أخفِّ وجهٍ؛ لأنَّها كانت صابرةً محسِنة، فشكَر اللهُ لها ذلك، وجعَل هذا المخلصَ بعدها

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٧١).

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٢٩).

سُنَّةً باقيةً لعباده؛ تعظيمًا لأجرها، وتطييبًا لذِكرها، فقال عاطفًا على ﴿ٱرۡكُضۡ﴾: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾(١).

مقولٌ لقولٍ محذوف دلَّتْ عليه صيغةُ الكلام؛ والتَّقدير: وقُلْنا: خُذْ ﴿ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾، وهو قولٌ غيرُ القولِ المحذوف في قولِه: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾؛ لأنَّ ذلك استجابةُ دعوةٍ، وهذا إفتاءٌ برُخْصةٍ، وذلك له قِصَّتُه، وهذا له قصَّةٌ أخرىٰ أشارت إليها الآيةُ إجمالًا، ولم يَرِدْ في تعيينها أثَرٌ صحيح(٢).

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه مَن ابتلاه في بدَنِه وماله وولَدِه، ثم جعَل له الماءَ بَرْدًا وسلامًا، وعافيةً ونظامًا، وشِفاءً وقِوامًا؛ عطَف عليه مَن ابتلاه بالنَّار علىٰ أيدي الجبابرةِ، فجعَلها عليه بَرْدًا وسلامًا باعتماده عليه، وصبره لديه، ونجَّاه مِن كيدِهم، وجعَل أَيْدَهُ(٣) بمفرده فوقَ أيدِهم، ثم ابتلاه بالهجرةِ لوطنِه وأهله وعشيرتِه وسكَنِه، ثم بذَبْحِ ابنِه، فصبرَ علىٰ ذلك كلِّه، اعتمادًا علىٰ فضلِ اللهِ ومَنِّه، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾(٤).

القولُ فيه كالقول في نظائرِه لغةً ومعنًىٰ، وذِكْرُ هؤلاء الثلاثةِ ذكرُ اقتداءٍ وائتساء بهم؛ فأمَّا إبراهيمُ عليه السلام فبما عُرِف مِن صبرِه علىٰ أذىٰ قومه، وإلقائه في النار، وابتلائه بتكليفِ ذَبْحِ ابنه، وأمَّا ذِكْرُ إسحاقَ ويعقوبَ فاستطرادٌ بمناسبة ذِكْرِ إبراهيمَ عليه السلام، ولِما اشتركا به مِن الفضائلِ مع أبيهم، التي يَجمَعُها اشتراكُهم في معنىٰ قوله:

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣٩٢-٣٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٧٣).

(٣) أي: قوته.

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٣٩٥).

﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾؛ ليقتـديَ النبـيُّ ﷺ بثلاثـتِهم في القـوَّة في إقامـة الـدِّين، والبصيرةِ في حقائق الأمور[1].

﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦﴾

ولمَّا اشتدَّ تشوُّفُ السامع لِما استحَقُّوا به هذا الذِّكْرَ، قال مُؤكِّدًا إشارةً إلىٰ محبَّتِه سبحانه لمدحِهم، وردًّا علىٰ مَن ينسُبُ إليهم أو إلىٰ أحدٍ منهم ما لا يَلِيقُ؛ كما كذَبه اليهودُ فيما بدَّلوه مِن التَّوراة في حقِّ إسحاقَ عليه السلام في بعضِ المواضع، معدِّيًا للفعل بالهمزة إشارةً إلىٰ أنَّه جذَبهم مِن العوائقِ إليه جَذْبةً واحدةً هي في غايةِ السُّرعة: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾[2].

جملةُ ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾ علَّةٌ للأمر بذِكْرِهم؛ لأنَّ ذِكْرَهم يُكسِبُ الذاكرَ الاقتداءَ بهم في إخلاصهم، ورجاءَ الفوز بما فازوا به مِن الاصطفاءِ والأفضليَّةِ في الخير[3].

تعليلٌ لِما وُصِفوا به مِن شرَفِ العبوديَّة، وعلوِّ الرُّتبة في العلمِ والعمل[4].

﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٧﴾

ولمَّا دلَّتْ هذه الجملةُ علىٰ هذا المدحِ البليغ، عطَف عليه ما يُلازِم الإخلاصَ، فقال مُؤكِّدًا لمثلِ ما تقدَّم مِن التَّنبيهِ علىٰ أنَّهم ممَّن يُغتبط بمدحهم، وردًّا علىٰ مَن ربما ظَنَّ خلافَ ذلك بكثرةِ مصائبهم في الدُّنيا: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٧٦).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٣٩٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٧٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٣٠).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٣٩٨).

عُطِف عليه ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾؛ لأنَّه ممَّا يَبعَث علىٰ ذِكْرِهم بأنَّهم اصطفاهم اللهُ مِن بَيْنِ خَلْقِه، فقرَّبهم إليه، وجعَلهم أخيارًا[1].

﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولمَّا أتَمَّ الأمرَ بذِكْرِ الخليلِ وابنه عليهما السلام، الذي لم يَخرُجْ مِن كنَفِه قطُّ، ونافلتِهِ المبشَّرِ به؛ للتَّأسي بهم في صبرِهم علىٰ الدِّين، وإن خالَفهم مَن خالَفهم؛ أتبَعه ولَدَه الذي أُمِر بالتَّجرُّد عنه مرةً بالإسكانِ عند البيتِ الحرام ليَصِيرَ أصلًا برأسه في أشرَفِ البقاع، ومرةً بالأمرِ بذَبْحِه في تلك المشاعرِ الكرام، فصار ما أضيفَ إليه مِن الأحوالِ والأفعال مِن المناسكِ العظام عليه الصلاة والسلام، وأفرَده بالذِّكْرِ دلالةً علىٰ أنَّه أصلٌ عظيمٌ برأسه مِن أصولِ الأئمَّة الأعلام، فقال: ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ ﴾[2].

فُصِل ذِكْرُ إسماعيلَ عليه السلام عن عَدِّهِ مع أبيه إبراهيمَ وأخيه إسحاقَ؛ لأنَّ إسماعيلَ عليه السلام كان جَدَّ الأُمَّةِ العربيةِ؛ أي: معظَمِها؛ فإنَّه أبو العَدْنانيِّين، وجَدٌّ للأمِّ لمعظَمِ القَحْطانيِّين؛ لأنَّ زوجَ إسماعيلَ جُرْهميَّةٌ؛ فلذلك قُطِع عن عطفِه علىٰ ذِكْرِ إبراهيمَ، وعاد الكلامُ إليه هنا[3].

﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ ﴾

ولمَّا أتَمَّ سبحانه ما أراد مِن ذِكْرِ هؤلاء الأصفياءِ عليهم السلام، الذين عافَاهم بصبرِهم، وعافىٰ مَن دعَوْهم، فجعَلهم سبحانه سببَ الفلاح، ولم يَجعَلْهم سببًا للهلاك؛ قال مُؤكِّدًا لشرَفِهم وشرفِ ما ذُكِروا به، حاثًّا علىٰ إدامةِ تذكُّره وتأمُّله وتدبُّره للعمل به،

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٧٩).
(٢) نظم الدرر (١٦/ ٣٩٨-٣٩٩).
(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٧٩).

مبيِّنًا ما لهم في الآخرةِ علىٰ ما ذُكِر مِن أعمالهم، وما لِمَن نكَب عن طريقِهم علىٰ سبيل التَّفصيل: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾[(١)].

﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾ جملةٌ فصَلتِ الكلامَ السابق عن الكلامِ الآتي بعدها؛ قصدًا لانتقالِ الكلام مِن غرضٍ إلىٰ غرض؛ مثلُ جملةِ: «أمَّا بعدُ»[(٢)].

إنَّما شرَح ذِكْرَ أحوالِ هؤلاء الأنبياءِ عليهم السلام لأجلِ أن يَصبِرَ محمَّدٌ ﷺ علىٰ تحمُّلِ سفاهةِ قومه، فلمَّا تمَّم بيانَ هذا الطريقِ، وأراد أن يذكُرَ عَقِيبَه طريقًا آخرَ يُوجِب الصبرَ علىٰ سفاهةِ الجُهَّالِ، وأراد أن يميِّزَ أحدَ البابينِ عن الآخرِ؛ لا جرَمَ قال: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾[(٣)].

﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠ ﴾

ولمَّا شوَّق سبحانه إلىٰ هذا الجزاءِ، أبدَل منه أو بيَّنه بقولِه: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾[(٤)].

ثم فسره وفصله، فقال: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾[(٥)].

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝٥١ ﴾

ولمَّا ذكَر إقامتَهم ويُسْرَ دخولِهم، وصَف حالَهم إذ ذاك، فقال: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾[(٦)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٠٠).
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٨٠).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٠١).
(٤) نظم الدرر (١٦/ ٤٠١).
(٥) تفسير السعدي (ص: ٧١٥).
(٦) نظم الدرر (١٦/ ٤٠٢).

﴿ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ٥٢ ﴾

ولمَّا كان الأكلُ والشُّرب داعيَينِ إلىٰ النساءِ، لا سيَّما مع الراحةِ؛ قال: ﴿ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴾(١).

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٥٣ ﴾

ولمَّا ذكَر هذا النَّعيمَ لأهلِ الطاعة، وقدَّم ذلك العذابَ لأهلِ المعصية؛ قال: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾(٢).

استئنافٌ ابتدائيٌّ، فيجوزُ أن يكونَ كلامًا قيل للمتقين وقتَ نزولِ الآية؛ فهو مؤكِّدٌ لمضمونِ جملة ﴿ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٩ ﴾، والإشارةُ إذًا إلىٰ ما سبَق ذِكْرُه مِن قولِه: ﴿ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾؛ فاسمُ الإشارة هنا مغايِرٌ لاستعماله المتقدِّمِ في قولِه: ﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞ ﴾، وجيءَ باسمِ الإشارة القريبِ تنزيلًا للمشار إليه منزلةَ المشار إليه الحاضرِ؛ إيماءً إلىٰ أنَّه محقَّقٌ وقوعُه تبشيرًا للمتَّقين، ويجوز أن يكونَ كلامًا يقال للمتقين في الجنَّةِ، فتكونَ الجملةُ مقولَ قولٍ محذوف هو في محَلِّ حالٍ ثانية مِن المتقين؛ والتَّقدير: مقولًا لهم: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾(٣).

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ٥٤ ﴾

ولمَّا كان هذا يُصدَّق بأن يُوجَدَ ثم ينقطِعَ كما هو المعهودُ مِن حالِ الدُّنيا، أخبَر أنَّه علىٰ غيرِ هذا المنوالِ، فقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٠٢).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٤٠٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٨٣).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٤٠٣).

ثم أخبرَ عن الجَنَّةِ أنَّه لا فراغَ لها ولا انقضاء، ولا زوالَ ولا انتهاء، فقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾[(١)].

﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥ ﴾

ولمَّا كانت النُّفوسُ نزاعةً للهوىٰ، ميَّالةً إلىٰ الرَّدىٰ، فكانت محتاجةً إلىٰ مَزيدِ تخويفٍ وشديدِ تهويلٍ؛ قال تعالىٰ متوعِّدًا لِمَن ترَك التَّأسيَ بهؤلاء السادةِ في أحوال العبادة، مُؤكِّدًا لِما مضىٰ مِن إيعادِ العُصاةِ وتخويفِ العُتاةِ: ﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾[(٢)].

لمَّا وصَف ثوابَ المتقين، وصَف بعده عقابَ الطاغين؛ ليكونَ الوعيدُ مذكورًا عَقِيبَ الوعد، والتَّرهيبُ عَقِيبَ التَّرغيب[(٣)].

﴿ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝٥٦ ﴾

ثم بيَّنه بقولِه: ﴿ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾[(٤)].

ثم فصَّل هذا المرجعَ الذي يَرجِعون إليه، فقال: ﴿ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾.

﴿ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ۝٥٧ ﴾

ولمَّا قدَّم أنَّ لأهل الطَّاعة فاكهةً وشرابًا، وكان ما وصَف به مأوىٰ العُصاةِ لا يكون إلا عذابًا، وكان مُفهِمًا لا محالةَ أنَّ الحرارةَ تَسِيلُ مِن أهلِ النَّار عُصارةً مِن صديدٍ وغيره؛ قال: ﴿ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴾[(٥)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٧٨).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٤٠٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٠٣).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٤٠٤-٤٠٥).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٤٠٥).

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ۝٥٨﴾

ولمَّا كان في النَّار - أجارنا اللهُ منها بعفوِه ورحمته - ما لا يُعَدُّ مِن أنواعِ العقاب، قال عاطفًا على ﴿هَٰذَا﴾: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾[1].

قولُه: ﴿وَءَاخَرُ﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوف، دلَّت عليه الإشارةُ بقولِه: ﴿هَٰذَا﴾، وضمير ﴿فَلۡيَذُوقُوهُ﴾، ووصفُ آخَرُ يدُلُّ على مغايِرٍ، وقولُه: ﴿مِن شَكۡلِهِۦٓ﴾ يدُلُّ على أنَّه مغايِرٌ له بالذات، وموافِقٌ في النَّوع؛ فحصَل مِن ذلك أنَّه عذابٌ آخَرٌ، أو مَذُوقٌ آخَرُ[2].

﴿هَٰذَا فَوۡجٌ مُّقۡتَحِمٌ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ۝٥٩﴾

ولمَّا كان ممَّا أفهَمَه الكتابُ في هذا الخطابِ أنَّ الطاغِينَ الداخلين إلى جهنَّمَ أصنافٌ كثيرةٌ، وكانت العادة جاريةً بأنَّ الأصنافَ إذا اجتمَعوا كانت محاوَراتٌ، ولا سيَّما إن كانوا مِن الطُّغاةِ العُتاة؛ تحرَّك السامعُ إلى تعرُّفِ ذلك، فقال تعالى مستأنِفًا جوابَه بما يدُلُّ على تقاوُلِهم بأقبحِ المقاوَلة، وهو التَّخاصمُ الناشئ عن التَّباغض والتَّدابر الذي مِن شأنِه أن يقعَ بَيْنَ الذين دبَّروا أمرًا فعاد عليهم بالوبالِ في أنَّ كلًّا منهم يُحِيلُ ما وقَع به العكسُ على صاحبِه، وذلك أشَدُّ لعذابِهم: ﴿هَٰذَا فَوۡجٌ مُّقۡتَحِمٌ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾[3].

لمَّا وصَف مسكنَ الطاغِينَ ومأكولَهم، حكى أحوالَهم مع الذين كانوا أحِبَّاءَ لهم في الدُّنيا أولًا، ثم مع الذين كانوا أعداءً لهم في الدُّنيا ثانيًا[4].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٠٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٨٧).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٤٠٦-٤٠٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٠٤).

حكايةُ ما يقال مِن جهةِ الخزَنةِ لرؤساءِ الطاغين إذا دخَلوا النارَ، واقتحَمها معهم فَوْجٌ كانوا يتبعونهم في الكفرِ والضَّلالة[(١)].

وعند توارُدِهم علىٰ النارِ يَشتِمُ بعضُهم بعضًا، ويقولُ بعضُهم لبعضٍ: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾[(٢)].

﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٦٠﴾

ولمَّا كان مِن المعلوم علىٰ ما جرَتْ به العوائدُ أنَّهم يتأثَّرون مِن هذا القولِ، فيحصُلُ التَّشوُّقُ إلىٰ ما يكون مِن أمرِهم: هل يُجيبونهم أم تَمنَعُهم هيبتُهم علىٰ ما كانوا في الدُّنيا؟ أعلَمَ بما يُعلَم منه انقطاعُ الأسباب هناك، فلا يكون مِن أحدٍ منهم خوفٌ مِن آخَرَ، فقال مستأنِفًا: ﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾[(٣)].

فسَمِعهم الأتباعُ، فيقولون: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡ﴾ إضرابًا عن كلامهم، وجيءَ بحكايةِ قولهم علىٰ طريقةِ المحاوَرات؛ فلذلك جُرِّد مِن حرفِ العطف[(٤)].

﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ٦١﴾

ولمَّا كان قولُ الأتباع هذا مُفهِمًا لأنَّهم عَلِموا أنَّ سببَ ما وصَلوا إليه مِن الشَّقاءِ هو الرُّؤساء، وكان هذا موجِبًا لنهايةِ غيظِهم منهم؛ تشوَّف السامعُ لِما يكون مِن أمرِهم معهم: هل يكتفون بما أجابوهم به، أو يكونُ منهم شيءٌ آخرُ؟ فاستأنَف قولَه إعلامًا بأنَّهم لم يكتفوا بذلك، وعَلِموا أنَّهم لا يَقدِرون علىٰ الانتقام منهم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ﴾[(٥)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٣٢).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧١٦).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٤٠٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٨٩).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٤٠٩).

لمَّا كان الرؤساءُ ضُلَّالًا في أنفسهم، وأضَلُّوا أتباعَهم؛ ناسَب أن يَدْعُوا عليهم بأن يَزِيدَهم ضِعْفًا[(١)].

ثم دعَوْا علىٰ المُغْوِينَ لهم؛ ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾[(٢)].

ثم حكىٰ عن الأتباع أيضًا أنَّهم أردفوا هذا القولَ بقولٍ آخرَ؛ وهو ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾[(٣)].

﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾

ولمَّا ذكَر مِن اقتحامِهم في العذاب وتقاوُلِهم بما دلَّ علىٰ خِزْيِهم وحسرتِهم وحزنِهم، أعلَمَ بما دلَّ علىٰ زيادةِ خُسْرانِهم وحسرتهم وهوانِهم بمعرفتهم بنجاةِ المؤمنين الذين كانوا يهزؤون بهم ويُذِلُّونهم؛ فقال: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾[(٤)].

عطفٌ علىٰ ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾، علىٰ ما قُدِّر فيه مِن فعلِ قولٍ محذوفٍ؛ كما تقدَّم، فهذا مِن قولِ الطاغينَ؛ فإنَّهم الذين كانوا يُحقِّرون المسلمين[(٥)].

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾

ولمَّا كانوا يَسخَرون مِن المؤمنين ويَستهزئون بهم، وهم ليسوا موضعًا لذلك، بل حالُهم في جِدِّهم وجَدِّهم في غايةِ البُعْدِ عن ذلك؛ قالوا مُستفهِمين: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[(٦)].

---

(١) البحر المحيط (٩/ ١٦٩-١٧٠).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧١٥).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٠٧).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٤١٠).

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٩٢).

(٦) نظم الدرر (١٦/ ٤١١).

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا رائعًا جدًّا زاجرًا لِمَن له عقلٌ، فتأمَّله مجرِّدًا لنفسه مِن الهوىٰ، وكانت الجدودُ تَمنَعُهم عن التَّصديقِ به؛ كان موضعًا لتأكيدِ الخبَرِ عنه، فقال: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾[(١)].

تذييلٌ وتَنْهيَةٌ لوصفِ حالِ الطاغين وأتباعهم، وعذابِهم، وجدالِهم، وتأكيدُ الخبَرِ بحرفِ التوكيد منظورٌ فيه لِما يَلزمُ الخبَرَ مِن التعريضِ بوعيدِ المشركين وإثباتِ حشرِهم وجزائهم بأنَّه حقٌّ؛ أي: ثابتٌ[(٢)].

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴾

ولمَّا كانت قد جرَتْ عادتُهم عند التَّخويف أن يقولوا: عَجِّلْ لنا هذا إن كنتَ صادقًا فيما ادَّعيتَ، ومِن المقطوع به أنَّه لا يَقدِرُ علىٰ ذلك إلا الإلهُ، فصاروا كأنَّهم نسَبوه إلىٰ أنَّه ادَّعىٰ الإلهيَّةَ؛ قال تعالىٰ مُنبِّهًا علىٰ ذلك، آمرًا له بالجوابِ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[(٣)].

هذا راجعٌ إلىٰ قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾، فلمَّا ابتدرَهم الجواب عن ذلك التَّكذيبِ بأن نظَّر حالَهم بحالِ الأُمَمِ المكذِّبة مِن قبلِهم، ولتنظيرِ حالِ الرسول ﷺ بحالِ الأنبياء الذين صبَروا، واستوعَب ذلك بما فيه مَقنَعٌ؛ عاد الكلامُ إلىٰ تحقيقِ مقامِ الرسول ﷺ مِن قومِه، فأمَره اللهُ أن يقولَ: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ﴾ مقابِلَ قولِهم: ﴿ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾، وأن يقولَ:

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤١٢).
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٩٣).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ٤١٣).

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مقابِلَ إنكارهم التَّوحيدَ؛ كقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾؛ فالجملةُ استئنافٌ ابتدائي(١).

ثم أمَر اللهُ سبحانه رسولَه ﷺ أن يقولَ قولًا جامعًا بَيْنَ التَّخويفِ والإرشاد إلى التَّوحيد، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾(٢).

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ (٦٦)﴾

ولمَّا وصَف نفسَه سبحانه بذلك، دلَّ عليه بقولِه: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾(٣).

اعلَمْ أنَّ كونَه سبحانه قهَّارًا مُشعِرٌ بالترهيبِ والتَّخويف، فلمَّا ذكَر ذلك، أردَفه بما يدلُّ على الرجاءِ والترغيب، فقال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾(٤).

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ (٦٧)﴾

ولمَّا ثبَتَ بهذا وحدانيَّتُه وقُدْرتُه، ولم يَزَعْهم(٥) ذلك عن ضَلالِهم، ولا رَدَّهم عن عُتُوِّهم ومِحالِهم، مع كونه مُوجِبًا لأن يُقبِلَ كلُّ أحدٍ عليه، ولا يَعدِلَ أبدًا عنه؛ قال آمِرًا له بما يُنبِّههم على عظيمِ خطَئِهم: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٩٥).

(٢) فتح القدير (٤/ ٥٠٨).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٤١٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٠٦).

(٥) أي: يمنعهم.

(٦) نظم الدرر (١٦/ ٤١٥).

إعادةُ الأمرِ بالقول هنا مستأنَفًا. والعدولُ عن الإتيانِ بحرفٍ يَعطِفُ المقولَ -أعني ﴿هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ على المقولِ السابق -أعني ﴿أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾-: عدولٌ يُشعِرُ بالاهتمامِ بالمقولِ هنا كي لا يؤتى به تابعًا لمقولٍ آخرَ، فيضعُفَ تَصدِّي السامعين لوعيِه. وجملةُ ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ يجوز أن تكونَ في موقعِ الاستئناف الابتدائيِّ؛ انتقالًا مِن غرضٍ وصفِ أحوال أهلِ المَحشَرِ إلى غرضِ قصَّةِ خَلْقِ آدمَ وشقاءِ الشَّيطان، فيكونَ ضميرُ ﴿هُوَ﴾ ضميرَ شأنٍ يُفسِّره ما بعده، وما يُبيَّنُ به ما بعده مِن قولِه: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١﴾، جُعِل هذا كالمقدِّمةِ للقصَّة؛ تشويقًا لتلقِّيها، فيكون المرادُ بالنبأ نبأَ خَلْقِ آدمَ وما جرى بعده، ويجوز أن تكونَ جملةُ ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ تذييلًا للذي سبَق مِن قولِه: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٩﴾ إلى هنا، تذييلًا يُشعِر بالتَّنويه به، وبطلبِ الإقبال على التدبُّر فيه، والاعتبار به[(١)].

ثم أمَره سبحانه أن يُبالِغَ في إنذارهم، ويُبيِّنَ لهم عِظَمَ الأمرِ وجلالتَه، فقال: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾[(٢)].

﴿أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ٦٨﴾

ولمَّا كانوا يَدَّعُون أنَّهم أعظَمُ الناس إقبالًا على الغرائب، وتنقيبًا عن الدَّقائق والجلائل مِن المناقب؛ بكَّتهم بقولِه واصفًا له: ﴿أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾[(٣)].

﴿أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾ استئنافٌ ناعٍ عليهم سُوءَ صنيعِهم به؛ ببيانِ أنَّهم لا يَقدِرون قَدْرَه الجليل؛ حيث يُعرِضون عنه مع عظَمتِه، وكونِه موجِبًا للإقبال الكليِّ عليه، وتلَقِّيه بحَسَنِ القَبول[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٩٥-٢٩٦).

(٢) فتح القدير (٤/ ٥٠٨).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٤١٥-٤١٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٣٤).

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩﴾

ولمَّا قصَر نفسَه الشَّريفة على الإنذار، وكانوا يُنازِعون فيه وينسبونه إلى الكذبِ؛ دلَّ على صِدْقِه وعلى عظيمِ هذا النَّبأِ بقولِه: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[1]. استئنافٌ مسُوقٌ لتحقيقِ أنَّه نبأٌ عظيمٌ، واردٌ مِن جهته تعالى بذِكْرِ نبأٍ مِن أنبائه على التفصيل مِن غيرِ سابقةِ معرفةٍ به، ولا مباشرةِ سببٍ مِن أسبابها المعتادة[2].

﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝٧٠﴾

ولمَّا كانوا ربما قالوا في تعنُّتهم: فلعلَّه مِثْلُ ما أُوحيَ إليك بعلمِ ما لم تكُنْ تعلَم، يوحى إليك بالقدرةِ على ما لم تكُنْ تَقدِرُ عليه، فتُعجِّل لنا الموتَ ثم البعثَ لنرى ما أخبَرْتَنا به مِن التَّخاصم مُصوَّرًا؛ لعلَّنا نُصدِّقك فيما أتيتَ به؛ قال مجيبًا لهم، قاصرًا للوحيِ على قصرِه على النِّذارة؛ وهي إبلاغُ ما أُنزِلَ إليه، لا تعجيلُ شيءٍ ممَّا تُوُعِّدوا به: ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[3].

جملةُ ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ مبيِّنةٌ لجملةِ ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: ما عَلِمتُ بذلك النبأِ إلا بوحيٍ مِن الله، وإنَّما أوحى اللهُ إليَّ ذلك لأكونَ نذيرًا مُبينًا[4].

ثم احتجَّ بصحَّةِ نبوَّتِه بأنَّ ما يُنبِئُ به عن الملأِ الأعلى واختصامِهم أمرٌ لم يكُنْ له به مِن علمٍ قطُّ، ثم عَلِمه مِن غيرِ الطريق الذي يسلُكُه المتعلِّمون؛ بل ذلك مستفادٌ مِن الوحيِ[5].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤١٦).

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٣٤).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٤١٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٩٨).

(٥) البحر المحيط (٩/ ١٧٢).

﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ ﴾

ولمَّا دلَّ علىٰ أنَّه نذيرٌ، وأزال ما ربما أورَدوه عليه، أتبَعه ظَرْفَ اختصامِ الملأ الأعلىٰ، فقال: ﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴾[١].

موقعُ ﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ صالحٌ لأن يكونَ استئنافًا، فإذا جعَلْنا النَّبأَ بمعنىٰ: نبأِ أهلِ المَحشَرِ الموعودِ به، فيكونُ ﴿ إِذۡ قَالَ ﴾ متعلِّقًا بفعلٍ محذوف تقديرُه: اذكُرْ؛ علىٰ جعلِ النَّبأ بمعنىٰ: نبأِ خَلْقِ آدمَ، فإنَّ جملةَ ﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ ﴾ بدلٌ مِن ﴿ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴾ بدَلَ بعضٍ مِن كلٍّ[٢].

﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ شروعٌ في تفصيلِ ما أُجمِلَ مِن الاختصام الذي هو ما جرىٰ بينهم مِن التَّقاول[٣].

ثم ذكَر اختصامَ الملأ الأعلىٰ، فقال: ﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴾[٤].

﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ ﴾

ولمَّا أخبَرهم سبحانه بما يريد أن يفعلَ، سبَّب عنه قولَه: ﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[٥].

﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٧٣ ﴾

ففعَلوا ما أمَرهم به سبحانه مِن غيرِ توقُّفٍ؛ ولذلك ذكَر فِعْلَهم، فقال: ﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴾[٦].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٠٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٣٥).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٧١٧).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٤١٩).

(٦) نظم الدرر (١٦/ ٤٢٠).

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ في الكلام حذفٌ تدلُّ عليه الفاءُ؛ والتَّقدير: فخلَقه، فسوَّاه، ونفَخ فيه مِن رُوحِه، فسجَد له الملائكةُ(١).

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٤) ﴾

ثم زاد في إيضاحِ العموم بالاستثناءِ الذي هو معيارُه، فقال: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٢).

لمَّا كانت قُرَيشٌ خالَفوا الرسولَ ﷺ بسببِ الحسَدِ والكِبْرِ، ذكَر حالَ إبليسَ -حيث خالَف أمرَ اللهِ بسببِ الحسد والكِبر، وما آلَ إليه مِن اللَّعنةِ والطَّردِ مِن رحمةِ الله- ليزدجِرَ عن ذلك مَن فيه شيءٌ منهما(٣).

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ (٧٥) ﴾

ولمَّا كان مَن خالَف أمرَ المَلِكِ جديرًا بأن يحدُثَ إليه أمرٌ ينتقِمُ به منه، فتشوَّف السامعُ لِما كان مِن المَلِكِ إليه؛ استأنَف البيانَ لذلك بقولِه: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾(٤).

فكأنَّه قيل: فماذا قال اللهُ ربُّ العالَمين؟ فقيل: وبَّخه وعاتَبه، و﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾.

---

(١) فتح القدير (٤/ ٥١٠).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٤٢٠).

(٣) البحر المحيط (٩/ ١٧٣).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٤٢١).

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ ﴾

ولـمَّا صدَعه سبحانه بهذا الإنكارِ، دلَّ علىٰ إبلاسِه[1] بقولِه مستأنفًا: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾[2].

﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ ﴾

واستؤنِفَ بيانُ ما حصَل التَّشوُّفُ إليه مِن علمِ جوابه بقولِه مُعرِضًا عن القَدْحِ في جوابِه لظهورِ سقوطه بأنَّ المخلوقَ المربوب لا اعتراضَ له علىٰ رَبِّه بوجهٍ: ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴾[3].

عاقَبه اللهُ علىٰ ما برَز مِن نَفْسانيَّته فخالَف ما كان مِن طريقتِه، فأطرَده مِن الملأِ الأعلىٰ ومِن الجنَّةِ، وضميرُ ﴿ قَالَ ﴾ عائدٌ إلىٰ اللهِ تعالىٰ علىٰ طريقةِ حكايةِ المقاوَلات[4].

﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾

ولـمَّا كان الطَّردُ قد يكون في وقتٍ يسيرٍ، بيَّن أنَّه دائمٌ بقولِه مُؤكِّدًا -إشارةً إلىٰ الإعلامِ بما في نفسِه مِن مزيدِ الكِبْرِ-: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾[5].

---

(١) أي: يأسه.

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٤٢٤).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٤٢٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٠٥).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٤٢٤).

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩﴾

ولمَّا كان ذلك، تشوَّف السامعُ إلىٰ ما كان منه، فأخبَر سبحانه به في سياقٍ مُعلِمٍ أنَّه منَعه التَّوفيقَ، فلم يَسألِ التَّخفيفَ، ولا عطَف نحوَ التَّوبةِ، بل أدركه الخِذْلانُ بالتَّمادي في الطغيانِ، فطلَب ما يزدادُ به لعنةً مِن الإضلال، والإعراقِ في الضَّلال، ضدَّ ما أنعَم به علىٰ آدمَ عليه السلام، فقال ذاكرًا صفةَ الإحسانِ والتَّسبيب لسؤالِ الإنظار لما جرَّأه عليهما مِن ظاهرِ العبارة في أنَّ اللَّعنةَ مُغيَّاةٌ[1] بيومِ الدِّينِ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2].

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠﴾

فأجابه اللهُ تعالىٰ بقولِه: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١﴾

ولمَّا دبَّج في عبارتِه بما يقتضي السُّؤالَ في ألا يموتَ، فإنَّ يومَ البعثِ ظرفٌ لفيضِ الحياة لا لغيضِها، ولبسطِها لا لقبضِها؛ منَعه ذلك بقولِه: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[3].

فأُجيبَ بما يُبطِلُ مرادَه، وينقُضُ عليه مقصدَه؛ وهو الإنظارُ إلىٰ يومِ الوقت المعلوم، وهو الذي يَعلَمُه اللهُ، ولا يَعلَمه غيرُه[4].

---

(١) أي: محددة بغاية.

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٤٢٥).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٤٢٦).

(٤) فتح القدير (٤/ ٥١٢).

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

ولمَّا كانت هذه الإجابةُ سببًا لأن يَخضَعَ ويُنِيبَ شكرًا عليها، وأن يَطغَىٰ ويَتمرَّد ويَخِيبَ لأنَّها تسليطٌ، وتهيئةٌ للشرِّ، فاستشرَف السامعُ إلىٰ معرفةِ ما يكون مِن هذينِ المسبَّبَينِ؛ عرَّف أنَّه منَعه الخِذْلانَ مِن اختيارِ الإحسان بقولِه: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١).

فلمَّا سَمِع اللَّعينُ إنظارَ الله له إلىٰ ذلك الوقتِ، ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢).

فلمَّا عَلِم أنَّه مُنظَرٌ، بادَىٰ رَبَّه -مِن خُبْثِه- بشِدَّةِ العداوة لربِّه، ولآدَمَ وذُرِّيتِه؛ ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣).

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

ولمَّا كان عالِمًا بأنَّ القادرَ ما خلَق آدَمَ عليه السلام وشرَّفه بما شرَّفه به ليُشقِيَ ذُرِّيتَه كلَّهم، قال: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٤).

﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ ﴾

ولمَّا حصَل التَّشوُّفُ إلىٰ جوابِه، دلَّ عليه بقولِه: ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ (٥).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٢٦).

(٢) فتح القدير (٤/ ٥١٢).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٧١٧).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٤٢٧).

(٥) نظم الدرر (١٦/ ٤٢٧).

﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٥﴾

ولمَّا كانت إجابتُه بالإنظارِ ربما كانت سببًا لطمَعِه في الخلاص، قطَع رجاءَه بما أبرَزه في أسلوبِ التَّأكيد مِن قولِه جوابًا لقَسَمٍ مُقدَّرٍ، وبيانًا للحقِّ، والجوابُ: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[(١)].

جملةُ ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ مبيِّنةٌ لجملةِ ﴿فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾، وهي مؤكَّدةٌ بلامِ القَسَمِ والنُّون[(٢)].

﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾

ولمَّا تَمَّ ما أراد مِن الدَّليل علىٰ أنَّ ما ذكَره لهم نبأٌ عظيمٌ هم عنه مُعرِضون بما أخبَر به مِن الغيبِ مع ما له مِن الإعجازِ، فثبَت بذلك ما اقتضىٰ أنَّه صادقٌ في نسبتِه إلىٰ الله تعالىٰ، وختَم بالتَّحذيرِ مِن اتِّباعِ إبليسَ؛ أمَره بالبراءةِ مِن طريقه، وأن يَنفِيَ عن نفسِه ما قد يَحمِلُ علىٰ التَّقوُّل بقولِه: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾[(٣)].

لمَّا أمَر اللهُ رسولَه ﷺ بإبلاغِ المواعظ والعِبَرِ التي تضمَّنتْها هذه السُّورةُ، أمَره عند انتهائها أن يَقرَعَ أسماعَهم بهذا الكلامِ الذي هو كالفَذْلكةِ للسُّورةِ؛ تَنْهيَةً لها، وتسجيلًا عليهم أنَّه ما جاءهم إلا بما ينفعُهم، وليس طالبًا مِن ذلك جزاءً، فلمَّا انتفىٰ ذلك، وجَب أن ينتفيَ توهُّمُ اتهامِه بالكذب؛ لأنَّ وازعَ العقل يَصرِفُ صاحبَه علىٰ أن يَكذِبَ لغيرِ نفعٍ يرجوه لنفسه[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٢٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٠٧).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٤٣٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٠٨).

فلمَّا بيَّن الرسولُ للناس الدليل، ووضَّح لهم السبيل؛ قال اللهُ له: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[(١)].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

ولمَّا أثبَت المقتضِيَاتِ لأنَّه مِن عندِ الله، وأزال الموانعَ؛ بيَّن حقيقَته التي لا يَتعدَّاها إلىٰ ما نسَبوه إليه بقولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[(٢)].

جملةُ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن جملة ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ اشتمالَ نفيِ الشيء علىٰ ثبوتِ ضدِّه، فلمَّا نفىٰ بقولِه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أن يكونَ تقوَّلَ القرآنَ علىٰ الله، ثبَتَ مِن ذلك أنَّ القرآنَ ذِكْرٌ للنَّاس ذكَّرهم اللهُ به؛ أي: ليس هو بالأساطيرِ أو التُّرَّهاتِ، ولك أن تجعلَها تذييلًا؛ إذ لا منافاةَ بينهما هنا[(٣)].

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

ولمَّا كان التقديرُ: أنا عالمٌ بذلك، عطَف عليه قولَه جوابًا لقَسَمٍ: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾[(٤)].

جملةُ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ باعتبارِ ما يشتمِلُ عليه القصرُ مِن جانبِ الإثبات؛ أي: وستعلمون خبَرَ هذا القرآنِ بعد زمانٍ علمًا جزمًا، فيزُولُ شكُّكم فيه؛ فالكلامُ إخبارٌ عن المستقبَل؛ كما هو مقتضىٰ وجودِ نونِ التوكيد[(٥)].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧١٧).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٤٣٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٠٩).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٤٣٤).

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣١٠).

سُورَةُ الزُّمَرِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر أنَّه مِن عندِه، علَّل ذلك بما ثبَتَ به جميعُ ما مضىٰ مِن الخيرِ، فقال صارفًا القولَ عن الغَيْبةِ، منبِّهًا علىٰ زيادةِ عظَمتِه بذِكرِ إنزاله ثانيًا، مُبرزًا له في أسلوبِ العظَمة، مخبِرًا أنَّه خصَّ به أعظَمَ خَلْقِه، معبِّرًا بالإنزالِ الظاهر في الكلِّ تجوُّزًا عن الحُكْمِ الجازم الذي لا مردَّ له: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾(١).

جملةُ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ تتنزَّل منزلةَ البيان لجملةِ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾(٢).

شروعٌ في بيانِ شأن المُنزَّل إليه، وما يجب عليه، إثرَ بيانِ شأنِ المُنزَّل، وكونِه مِن عندِ الله تعالىٰ(٣).

ولمَّا كان نازلًا مِن الحقِّ، مشتمِلًا على الحقِّ لهدايةِ الخَلق، علىٰ أشرَفِ الخَلق؛ عظُمتْ فيه النِّعْمةُ، وجلَّتْ، ووجَب القيامُ بشكرِها؛ وذلك بإخلاصِ الدِّين لله؛ فلهذا قال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٣٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣١٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٤٠).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٧١٨).

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾

ولمَّا أمَره سبحانه بهذا الأمرِ، نادىٰ باستحقاقه لذلك، وأنَّه لم يطلُبْ غيرَ حقِّه، وأنَّ ذلك لا يُتصوَّر أن يكونَ لغيرِه، فقال في جوابِ مَن كأنَّه قال: لِمَ منعه مِن الالتفاتِ إلىٰ غيره؟ مناديًا إشارةً إلىٰ أنَّه لا مكافئَ له، فلا يسَعُ أحدًا يبلُغُه هذا النداءُ إلا الخضوعُ طائعًا أو كارهًا: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[1].

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ استئنافٌ للتَّخلُّص إلىٰ استحقاقِه تعالىٰ الإفرادَ بالعبادة؛ وهو غرضُ السُّورة، وأفاد التَّعليلَ للأمر بالعبادة الخالصة لله؛ لأنَّه إذا كان الدِّينُ الخالص مستحَقًّا لله وخاصًّا به، كان الأمرُ بالإخلاص له مُصِيبًا مَحَزَّه[2]، فصار أمرُ النبيِّ ﷺ بإخلاصِ العبادة له مُسبَّبًا عن نعمةِ إنزالِ الكتاب إليه، ومقتضًىٰ لكونِه مستحِقَّ الإخلاصِ في العبادة اقتضاءَ الكليَّةِ لجزئيَّاتها، وبهذا العمومِ أفادت الجملةُ معنىٰ التَّذييل، فتحمَّلتْ ثلاثةَ مواقعَ كلُّها تقتضي الفصلَ[3].

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِما قبله مِن الأمرِ بإخلاص الدِّينِ له تعالىٰ، ووجوبِ الامتثال به[4].

﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر سبحانه بالحُكْمِ بينهم، فكان ذلك مع تضمُّنِه التَّهديدَ وافيًا بنفيِ الشَّريك، كافيًا في ذلك؛ لأنَّ المحكومَ فيه لا يجوز أن يكونَ قسيمًا للحاكم، فلم يَبقَ في شيءٍ

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٤١).
(٢) المقصود: موقعه الصحيح.
(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣١٧).
(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٤١).

مِن ذلك شُبْهةٌ إلا عند ادِّعاءِ الولَديَّةِ؛ قال نافيًا لها علىٰ سبيلِ الاستئناف جوابًا لِمَن يقول: فما حالُ مَن يَتولَّىٰ الولَدَ؟ ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾(١).

موقعُ هذه الآيةِ موقعُ الاحتجاجِ علىٰ أنَّ المشركين كاذبون وكفَّارون في اتخاذِهم أولياءَ مِن دُونِ الله، وفي قولِهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، وأنَّ اللهَ حرَمهم الهدىٰ، وذلك ما تضمَّنَه قولُه قبله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾، فقصَد إبطالَ شِرْكِهم بإبطالِ أَقْواه؛ وهو عَدُّهم في جملةِ شركائِهم شركاءَ زعَموا لهم بُنوَّةً للهِ تعالىٰ(٢).

لمَّا كان مِن كذبِهم دعوىٰ بعضِهم أنَّ الملائكةَ بناتُ الله، وعبَدوها؛ عقَّبه بقولِه: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾(٣).

هذا مقرِّرٌ لِما سبَق مِن إبطالِ قولِ المشركين بأنَّ الملائكةَ بناتُ الله؛ لتضمُّنِه استحالةَ الولدِ في حقِّه سبحانه علىٰ الإطلاق(٤).

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٥﴾

ولمَّا أثبَتَ هذه الصفاتِ التي نفَتْ أن يكونَ له شريكٌ أو ولدٌ، وأثبتت له الكمالَ المطلَقَ؛ دلَّ عليها بقولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٢٤).

(٣) البحر المحيط (٩/ ١٨٣).

(٤) فتح القدير (٤/ ٥١٦).

ﱡﭐ ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﱠ(١).

هذه الجملةُ بيانٌ لجملةِ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾؛ فإنَّ خَلْقَ هذه العوالمِ والتَّصرُّفَ فيها علىٰ شدَّتِها وعظَمتِها يبيِّنُ معنىٰ الوحدانيَّة ومعنىٰ القهَّاريَّة، فتكونُ جملةُ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ ذاتَ اتصالينِ: اتصالٍ بجملةِ ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا﴾ كاتصالِ التَّذييل، واتصالٍ بجملةِ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ اتصالَ التَّمهيد، وقد انتقلَ مِن الاستدلالِ باقتضاءِ حقيقةِ الإلهيَّة نَفْيَ الشَّريكِ إلىٰ الاستدلال بخَلْقِ السَّماواتِ والأرض علىٰ أنَّه المنفرِدُ بالخَلق؛ إذ لا يستطيع شركاؤُهم خَلْقَ العوالم(٢).

اعلَمْ أنَّ الآيةَ المتقدِّمة دلَّتْ علىٰ أنَّه تعالىٰ بيَّن كونَه منزَّهًا عن الولدِ بكونه إلهًا واحدًا، وقهَّارًا غالبًا، فلمَّا بنىٰ تلك المسألةَ علىٰ هذه الأصولِ، ذكَر عَقِيبها ما يدلُّ علىٰ كمالِ القدرة، وعلىٰ كمالِ الاستغناء، وأيضًا فإنَّه تعالىٰ طعَن في إلهيَّةِ الأصنام، فذكَر عَقِيبَها الصفاتِ التي باعتبارها تحصُلُ الإلهيَّةُ(٣).

لمَّا نزَّه تعالىٰ نفسَه، ووصَف ذاتَه بالوَحْدةِ والقهر؛ ذكَر ما دلَّ علىٰ ذلك: مِن اختراعِ العالَم العُلْوي والسُّفْلي بالحقِّ، وتكويرِ الليل والنهار، وتسخيرِ النَّيِّرَينِ وجَرْيِهما علىٰ نظامٍ واحد(٤).

ثم لمَّا ذكَر سبحانه كونَه مُنزَّهًا عن الولدِ بكونه إلهًا واحدًا قهَّارًا، ذكَر ما يدلُّ علىٰ ذلك مِن صفاتِه، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٥٢).
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٢٨).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٢٣).
(٤) البحر المحيط (٩/ ١٨٤).

﴿وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾[١].

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾

ولمَّا كان خَلْقُ الحيوانِ أدلَّ علىٰ الوحدانيَّةِ والقهر بما خالَف به الجمادات مِن الحياةِ التي لا يَقدِرُ علىٰ الانفكاكِ عنها قبل أجلِه، وبما له مِن أمورٍ اضطرارية لا محيصَ له عنها، وأمورٍ اختياريةٍ موكولةٍ في الظاهر إلىٰ مشيئتِه، وكان أعجَبَه خَلْقًا الإنسانُ بما له مِن قوَّةِ النُّطق؛ قال دالًّا علىٰ ما دلَّ عليه بخَلْقِ الخافقَين، لافتًا القولَ إلىٰ خطابِ النوع كلِّه؛ إيذانًا بتأهُّلهم للخطاب، وتَرقِّيهم في عُلَا الأسباب، مِن غيرِ عطفٍ؛ إيذانًا بأنَّ كلًّا مِن خَلْقِهم وخَلْقِ ما قبلهم مستقلٌّ بالدَّلالة علىٰ ما سِيقَ له: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[٢].

انتقالٌ إلىٰ الاستدلالِ بخَلْقِ الناس؛ وهو الخَلق العجيب، وأُدمِجَ فيه الاستدلالُ بخَلْقِ أصلهم؛ وهو نَفْسٌ واحدةٌ تشعَّب منها عددٌ عظيمٌ، وبخَلْقِ زوجِ آدَمَ؛ ليَتقوَّمَ ناموسُ التَّناسل. والجملةُ يجوز أن تكونَ في موضعِ الحال مِن ضميرِ الجلالة، ويجوز أن تكونَ استئنافًا ابتدائيًّا تكريرًا للاستدلال[٣].

ثم إنَّه تعالىٰ أتبَع ذِكْرَ الدَّلائلِ الفَلَكية بذِكْرِ الدَّلائلِ المأخوذة مِن هذا العالَمِ الأسفل، فبدأ بذِكْرِ الإنسان، فقال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[٤].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٥١٦).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٤٥٤-٤٥٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٣١).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٢٣).

لمَّا ذكَر ما دلَّ علىٰ وَحْدانيَّتِه وقهرِه، ذكَر الإنسانَ؛ وهو الذي كُلِّف بأعباءِ التكاليف، فذكَر أنَّه أوجَدَنا مِن نَفْسٍ واحدة؛ وهي آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

ثم بيَّن سبحانه نوعًا آخَرَ مِن قُدْرتِه وبديعِ صُنْعِه، فقال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾[2].

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ بيانٌ لبعضٍ آخَرَ مِن أفعالِه الدالَّة علىٰ ما ذُكِر، وتُرِك عطفُه علىٰ خَلْقِ السَّماوات للإيذانِ باستقلاله في الدلالة، ولتعلُّقه بالعالَم السُّفْلي، والبَداءةُ بخَلْقِ الإنسان لعراقتِه في الدلالة؛ لِما فيه مِن تعاجيبِ آثارِ القدرة، وأسرارِ الحِكْمة، وأصالتِه في المعرفة؛ فإنَّ الإنسانَ بحالِ نفسِه أعرَفُ[3].

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾

ولمَّا ظهَرتِ الأدلةُ، وبهَرتِ الحُجَجُ؛ بيَّن ما علىٰ مَن غطَّاها بالإصرار، وما لِمَن تاب ورجَع بالتَّذكار، فقال مستأنِفًا لِما هو نتيجةُ ما مضىٰ، مُعرِّفًا لهم نِعْمتَه عليهم بأنَّه ما تُعُبِّدَ لشيءٍ يخُصُّه مِن نفعٍ أو ضرٍّ، وإنَّما هو لمصالحِهم خاصةً، بادئًا بما هو مِن درءِ المفاسد: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[4].

---

(١) البحر المحيط (٩/ ١٨٥).

(٢) فتح القدير (٤/ ٥١٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٤٣).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٤٥٩).

أُتبِعَ إنكارُ انصرافهم عن توحيدِ الله بعد ما ظهَر علىٰ ثبوته مِن الأدلةِ بأن أُعلِموا بأنَّ كُفْرَهم إن أصَرُّوا عليه لا يضُرُّ اللهَ، وإنَّما يضرُّ أنفسَهم؛ وهذا شروعٌ في الإنذارِ والتهديد للكافرين، ومقابلتِه بالترغيبِ والبشارة للمؤمنين. فالجملةُ مستأنَفة، واقعةٌ موقعَ النتيجة لِما سبَق مِن إثباتِ توحيد اللهِ بالإلهيَّة؛ فجملةُ ﴿إِن تَكۡفُرُواْ﴾ مبيِّنةٌ لإنكارِ انصرافهم عن التوحيد(١).

لمَّا ذكَر سبحانه النِّعَمَ التي أنعَم بها علىٰ عباده، وبيَّن لهم مِن بديعِ صُنْعِه وعجيبِ فعله ما يُوجِب علىٰ كلِّ عاقلٍ أن يؤمِنَ به؛ عقَّبه بقولِه: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾(٢).

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه أنَّه المختصُّ بالمُلْكِ وحده، وأتبَعه بما يُرضِيه وما يُسخِطه؛ أقام الدَّليلَ علىٰ ذلك الاختصاصِ -مع أنَّه أوضَحُ مِن الشمس- بدليلٍ وجدانيٍّ لكلِّ أحدٍ، علىٰ وجهٍ ذمَّهم فيه بالتَّناقض الذي هم أعظَمُ الناسِ ذمًّا له، ونُفْرةً منه، وذمًّا به، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(٣).

هذا مثالٌ لتقلُّبِ المشركين بَيْنَ إشراكهم مع اللهِ غيرَه في العبادةِ وبَيْنَ إظهارِ احتياجهم إليه؛ فذلك عنوانٌ علىٰ مبلغِ كفرِهم وأقصاه، والجملةُ معطوفةٌ علىٰ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٣٧).
(٢) فتح القدير (٤/ ٥١٨).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ٤٦٢).

جملةِ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ الآيةَ؛ لاشتراكِ الجملتينِ في الدَّلالة على أنَّ اللهَ منفرِدٌ بالتَّصرُّف، مستوجِبٌ للشُّكر، وعلى أنَّ الكفرَ به قبيحٌ، وتَتضمَّن الاستدلالَ على وحدانيَّة إلهيَّته بدليلٍ مِن أحوالِ المشركين به؛ فإنَّهم إذا مسَّهم الضُّرُّ لجَؤوا إليه وحده، وإذا أصابتهم نِعْمةٌ أعرَضوا عن شكرِه، وجعَلوا له شركاءَ[١].

لمَّا بيَّن فسادَ القولِ بالشرك، وبيَّن أنَّ اللهَ تعالى هو الذي يجب أن يُعبَدَ؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ طريقةَ هؤلاء الكفارِ الذين يعبُدون الأصنامَ متناقِضةٌ؛ وذلك لأنَّهم إذا مَسَّهم نوعٌ مِن أنواعِ الضُّرِّ لم يَرجِعوا في طلبِ دفعِه إلا إلى الله، وإذا زال ذلك الضُّرُّ عنهم رجَعوا إلى عبادة الأصنام[٢].

﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾

ولمَّا أرشَدتْ «أَمْ» أنَّ التَّقديرَ شرحًا لأحوالِ المؤمنين بعد أحوالِ المشركين: أهذا - الذي يدعو اللهَ مرَّةً، وغيرَه ممَّن يجعلُه له ندًّا أخرى - أسَدُّ طريقةً وأقومُ قِيلًا: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾[٣].

لمَّا شرَح اللهُ تعالى صفاتِ المشركين والضالِّين، ثم تمسُّكَهم بغيرِ الله تعالى؛ أردَفه بشرحِ أحوال المُحِقِّينَ الذين لا رجوعَ لهم إلا إلى اللهِ، ولا اعتمادَ لهم إلا على فضلِ الله، فقال: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٤٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٢٧).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٤٦٦).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٢٨).

ثم لمَّا ذكَر سبحانه صفاتِ المشركين، وتمسُّكَهم بغيرِ الله عند اندفاعِ المكروهاتِ عنهم؛ ذكَر صفاتِ المؤمنين، فقال: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(١).

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾

ولمَّا ثبَتَ أنَّ القانتَ خيرٌ، وكان المخالِفُ له كثيرًا، وكان أعظَمَ حاملٍ له على القنوتِ التَّقوى، وكانت كثرةُ المخالِفِ أعظَمَ مُزلزِلٍ، وكان الإنسانُ - لِما له مِن النُّقصان - أحوَجَ شيءٍ إلى التَّثبيتِ، وكان التَّثبيتُ مِن المُجانِس والتَّأنيسُ مِن المُشاكِلِ أسكَنَ للقلب وأشرَحَ للصَّدر؛ أمَر أكمَلَ الخَلْقِ وأحسَنَهم ملاطَفةً بتثبيتِهم، فقال: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٢).

لمَّا أُجرِيَ الثَّناءُ على المؤمنين بإقبالهم على عبادةِ الله في أشدِّ الآناء وبشِدَّةِ مراقبتهم إيَّاه بالخوف والرَّجاء، وبتمييزِهم بصفةِ العلم والعقل والتَّذكُّر، بخلافِ حالِ المشركين في ذلك كلِّه؛ أُتبِعَ ذلك بأمرِ رسولِ الله ﷺ بالإقبال على خطابهم؛ للاستزادةِ مِن ثَباتِهم، ورباطةِ جأشهم(٣).

لمَّا بيَّن نَفْيَ المساواةِ بَيْنَ مَن يَعلَم وبَيْنَ مَن لا يعلم، أتبَعه بأنْ أمَر رسولَه ﷺ بأن يخاطِبَ المؤمنين بأنواعٍ مِن الكلام(٤).

(١) فتح القدير (٤/ ٥١٩).
(٢) نظم الدرر (١٦/ ٤٦٩-٤٧٠).
(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٥٢).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٣٠).

لمَّا نفىٰ سبحانه المساواةَ بَيْنَ مَن يَعلَم ومَن لا يعلم، وبيَّن أنَّه ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾؛ أمَر رسولَه ﷺ بأن يأمرَ المؤمنين مِن عباده بالثَّبات علىٰ تقْواه والإيمانِ به(١).

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾

ولمَّا كانت الأعيُنُ ناظرةً إلىٰ الآمرِ هل يفعلُ ما يأمُرُ به، ومُقيَّدةً بالرئيسِ لتأتسيَ به، وكان أعظَمَ الصابرين مَن جاهَد نفسَه حتىٰ خلَّص أعمالها مِن الشَّوائب، وحمَاها مِن الحظوظِ والعوائق، وصانَها مِن الفُتُورِ والشَّواغل؛ أمَره بما يُرغِّبهم في المجاهَدة، ويَكشِف لهم عن حلاوةِ الصَّبر، بقولِه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾(٢).

بعد أن أمَر اللهُ رسولَه ﷺ بخطابِ المسلمين بقولِه: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾، أمَر رسولَه ﷺ بعد ذلك أن يقولَ قولًا يَتعيَّن أنَّه مقولٌ لغيرِ المسلمين(٣).

لمَّا أمَره أولًا أن يُخبِرَ بأنَّه أُمِر بعبادةِ الله، أمَر ثانيًا أن يُخبِرَ بأنَّه يعبُدُ اللهَ وَحْدَه(٤).

ثم أمَر اللهُ سبحانه رسولَه ﷺ أن يُخبِرَهم بما أُمِر به مِن التَّوحيدِ والإخلاص، فقال: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾(٥).

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

ولمَّا كان الرئيسُ إذا سابَق إلىٰ شيءٍ، شوَّق النُّفوسَ إليه، وأوجَب عليها العكوفَ عليه؛ قال: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾(٦).

---

(١) فتح القدير (٤/ ٥٢٠).
(٢) نظم الدرر (١٦/ ٤٧٣).
(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٥٧).
(٤) البحر المحيط (٩/ ١٩١).
(٥) فتح القدير (٤/ ٥٢١).
(٦) نظم الدرر (١٦/ ٤٧٣).

ثم ذكَر الأمرَ الثانيَ الذي أُمِر به، فقال: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣﴾

ولمَّا كان ما أُمِر به مُفهِمًا لأن يكونَ مع ترغيبٍ ومع ترهيبٍ، وكان ربما ظُنَّ أنَّ الرئيسَ لا يَرهَب المَلِكَ لأمورٍ تُرجَىٰ منه أو تُخشَىٰ، وكان تكريرُ الأمر بإبلاغ المأمورين أوقَعَ في قلوبهم وأشَدَّ إقبالًا بنفوسهم؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ (١).

هذا القولُ متعيِّنٌ لأن يكونَ الرسولُ ﷺ مأمورًا بأن يُواجِهَ به المشركين الذين كانوا يحاوِلون النبيَّ ﷺ أن يترُكَ الدَّعوةَ، وأن يتابِعَ دِينَهم (٢).

لمَّا بيَّن اللهُ تعالىٰ أمرَه بالإخلاصِ بالقلب وبالأعمالِ المخصوصة، وكان الأمرُ يحتمِلُ الوجوبَ ويحتمل النَّدْبَ؛ بيَّن أنَّ ذلك الأمرَ للوجوب، فقال: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ (٣).

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾

ولمَّا بيَّن ما أُمِر به، وأعلَمَ أنَّه يَخافُ مِن مخالَفةِ الأمر له بذلك، فأفهَمَ أنَّه مُمتثِلٌ لِما أُمِر به؛ أمَره سبحانه بأن يُصرِّحَ بذلك؛ لأنَّ للتَّصريحِ مِن المزيَّةِ ما لا يَخفَىٰ، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ (٤).

أُمِر بأن يُعيدَ التَّصريحَ بأنَّه يعبُدُ اللهَ وَحْدَه تأكيدًا لقوله: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١﴾؛ لأهميَّته، وإن كان مُفادُ الجملتينِ واحدًا؛ لأنَّهما معًا تفيدانِ أنَّه لا يعبُدُ

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٥٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٣٢).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٤٧٥).

إلا اللهَ تعالىٰ باعتبارِ تقييدِ ﴿أَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾ الأولِ بقيدِ ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُۥ ٱلدِّينَ﴾، وباعتبارِ تقديم المفعول علىٰ ﴿أَعۡبُدُ﴾ الثاني، فتأكَّد معنىٰ التَّوحيد مرتينِ؛ ليتقرَّر ثلاثَ مراتٍ، وتمهيدًا لقوله: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾؛ وهو المقصود(١).

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾

ولمَّا عُلِم مِن هذا غايةُ الامتثالِ بغايةِ الرَّغبة والرَّهبة وهم يَعلَمون أنَّه ﷺ أقواهم قلبًا، وأصفاهم لبًّا، وأجرَؤُهم نفسًا، وأصدَقُهم وأشجَعُهم عشيرةً وحزبًا؛ كان خوفُ غيرِه مِن بابِ الأَوْلىٰ، فسبَّب عنه تهديدَهم أعظَمَ تهديدٍ بقولِه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾(٢).

﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦﴾

ولمَّا عُلِم بهذا أنَّه البيِّنُ في نفسه، المنادي بما فيه مِن القباحةِ بأنَّه لا خسرانَ غيرُه؛ فصَّله بقولِه علىٰ طريقِ التَّهكُّم بهم: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾(٣).

﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن جملة ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾، وخُصَّ بالإبدال؛ لأنَّه أشَدُّ خسرانِهم عليهم؛ لتسلُّطِه علىٰ إهلاك أجسامهم(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٥٩).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٤٧٥).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٤٧٦-٤٧٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٦١).

لمَّا ذكَر خسرانَهم أنفسَهم وأهلِيهم، ذكَر حالَهم في جهنَّمَ، وأنَّه مِن فوقِهم ظُلَلٌ، ومِن تحتِهم ظُلَل، فيَظهَر أنَّ النارَ تَغاشهم مِن فوقِهم ومِن تحتِهم (١).

ثم بيَّن سبحانه هذا الخسرانَ الذي حَلَّ بهم والبلاءَ النازل فوقهم بقولِه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ (٢).

ثم ذكَر شِدَّةَ ما يحصُلُ لهم مِن الشقاءِ، فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ (٣).

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾

ولمَّا ذكَر ما لِمَن عبَد الطاغوتَ، عطَف عليه أضدادَهم ليقترنَ الوعدُ بالوعيد، فيحصُلَ كمالُ التَّرغيبِ والتَّرهيب، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ (٤).

لمَّا انتهى تهديدُ المشركين، وموعظةُ الخلائقِ أجمعين؛ ثُنِيَ عِنانُ الخطاب إلى جانبِ المؤمنين فيما يَختصُّ بهم مِن البشارةِ مقابَلةً لنِذارة المشركين (٥).

لمَّا ذكَر وعيدَ عبَدةِ الأصنام والأوثان، ذكَر وَعْدَ مَن اجتنَب عبادتَها، واحترَز عن الشركِ؛ ليكونَ الوعدُ مقرونًا بالوعيد أبدًا، فيحصُلَ كمالُ الترغيبِ والترهيب (٦).

لمَّا ذكَر حالَ المجرمين، ذكَر حالَ المُنِيبين وثوابَهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ (٧).

---

(١) البحر المحيط (٩/ ١٩١).

(٢) فتح القدير (٤/ ٥٢٣).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٢١).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٤٧٨).

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٦٣).

(٦) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٣٤).

(٧) تفسير السعدي (ص: ٧٢١).

﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨ ﴾

لمَّا قال: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴾، وكان هذا كالمُجمَل؛ أردَفه بكلامٍ يَجري مجرىٰ التفسيرِ والشرح له، فقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[(١)].

ثم وصفهم بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾.

﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩ ﴾

ولمَّا خَصَّ سبحانه البشارةَ بالمحسنين، عُلِم أنَّ غيرَهم قد حُكِم بشَقاوته، وكان ﷺ -لِما جُبِل عليه مِن عظيمِ الرحمة، ومزيدِ الشفقة- جديرًا بالأسفِ علىٰ مَن أعرَض؛ سبَّب عن أسَفِه عليهم قولَه: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾[(٢)].

لمَّا أفاد الحصرُ في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، والحَصْرانِ اللذان في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ أنَّ مَن سِواهم -وهم المشركون- لا بُشْرَىٰ لهم، ولم يَهدِهم اللهُ، ولا ألبابَ لهم لعدمِ انتفاعهم بعقولهم، وكان حاصلُ ذلك أنَّ المشركين محرومون مِن حُسْنِ العاقبةِ بالنعيم الخالد لحرمانِهم مِن الطاعةِ التي هي سببُه؛ فُرِّعَ علىٰ ذلك استفهامٌ إنكاريٌّ مفيد التنبيه علىٰ انتفاءِ الطَّماعيَةِ في هداية الفريقِ الذي حَقَّتْ عليه كلمةُ العذاب؛ وهم الذين قُصِد إقصاؤهم عن البشرىٰ، والهدايةِ والانتفاع بعقولهم[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٣٦-٤٣٧).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٤٨٠-٤٨١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٦٨).

بيانٌ لأحوالِ أضداد المذكورين علىٰ طريقةِ الإجمال، وتسجيلٌ عليهم بحرمانِ الهداية؛ وهم عبَدةُ الطاغوتِ، ومُتّبِعو خطواتِها[1].

ثم ذكَر سبحانه مَن سبقَتْ له الشّقاوةُ، وحُرِمَ السّعادةَ، فقال: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾[2].

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

ولمّا بيّن أنَّ مَن عبَد الأندادَ هالكٌ لخروجِه عن دائرةِ العقل بجرأةٍ وعدمِ تدبيرٍ، بيّن ما لأضدادهم، فقال صارفًا القولَ عن الاسمِ الأعظم إلىٰ وصفِ الإحسان إشارةً إلىٰ كرَمِ المتقين بما لهم مِن أصالةِ الرأي التي أوجَبتْ خوفَهم مع تذكُّرِ الإحسان ليدُلَّ علىٰ أنَّ خوفَهم عند تذكُّرِ الانتقام أَوْلىٰ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾[3].

أُعيدت بشارةُ الذين اجتنَبوا الطاغوتَ تفصيلًا للإجمالِ الواقع مِن قبلُ، وافتُتح الإخبارُ عنهم بحرفِ الاستدراك لزيادةِ تقرير الفارق بَيْنَ حالِ المؤمنين وحالِ المشركين، والمضادَّةِ بينهما؛ فحرفُ الاستدراكِ هنا لمجرَّدِ الإشعار بتضادِّ الحالينِ؛ ليَعلَمَ السامعُ أنَّه سيتلقَّىٰ حُكْمًا مخالفًا لِما سبَق[4].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٤٨).

(٢) فتح القدير (٤/ ٥٢٤).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٤٨١-٤٨٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٧٣).

لمَّا ذكَر حالَ الكفارِ في النار، وأنَّ الخاسرين لهم ظُلَلٌ؛ ذكَر حالَ المؤمنين، وناسَب الاستدراكُ هنا؛ إذ هو واقعٌ بَيْنَ الكافرين والمؤمنين، فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾(١).

ولمَّا ذكَر سبحانه فيما سبَق أنَّ لأهلِ الشَّقاوة ظُلَلًا، مِن فوقِهم النارُ، ومِن تحتِهم ظُلَلٌ؛ استدرَك عنهم مَن كان مِن أهلِ السَّعادة، فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾(٢).

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢١﴾

ولمَّا أخبَر سبحانه بقُدْرته على البعثِ، دلَّ عليها بما يتكرَّر مشاهَدتُه مِن مثلِها، وخَصَّ المصطفى ﷺ بالخطاب حثًّا على تأمُّلِ هذا الدَّليل؛ تنبيهًا على عظَمتِه، فقال مُقدِّرًا: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾(٣).

استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتقَل به إلى غرضِ التنويهِ بالقرآن وما احتوى عليه مِن هُدَى الإسلام، وهو الغرضُ الذي ابتُدئت به السُّورةُ، وانثنى الكلامُ منه إلى الاستطرادِ بقولِه تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ إلى هنا، فهذا تمهيدٌ لقولِه:

---

(١) البحر المحيط (٩/ ١٩٣).

(٢) فتح القدير (٤/ ٥٢٤).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٤٨٣).

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، فمُثِّلَتْ حالةُ إنزالِ القرآن واهتداءِ المؤمنين به والوعدِ بنَماءِ ذلك الاهتداءِ بحالةِ إنزالِ المطر، ونباتِ الزَّرع به واكتمالِه(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا وصَف الآخرةَ بصفاتٍ توجِبُ الرغبةَ العظيمة لأُولي الألبابِ فيها، وصَف الدُّنيا بصفةٍ توجِبُ اشتدادَ النُّفرة عنها(٢).

استئنافٌ واردٌ: إمَّا لتمثيلِ الحياة الدُّنيا في سرعة الزَّوال، وقُرْبِ الاضمحلال، بما ذُكِر مِن أحوالِ الزَّرع؛ ترغيبًا عن زخارفِها وزينتها، وتحذيرًا مِن الاغترارِ بزَهْرتِها. أو للاستشهادِ علىٰ تحقُّق الموعودِ مِن الأنهارِ الجارية مِن تحتِ الغُرف بما يشاهَدُ مِن إنزالِ الماء مِن السماء، وما يَترتَّب عليه مِن آثارِ قُدْرتِه تعالىٰ، وإحكامِ حِكْمتِه ورحمته(٣).

لمَّا ذكَر سبحانه الآخرةَ، ووصَفها بوصفٍ يُوجِب الرَّغبةَ فيها والشَّوقَ إليها؛ أتبَعه بذِكْرِ الدُّنيا، ووصَفها بوصفٍ يُوجِب الرَّغبةَ عنها والنُّفرة منها؛ فذكَر تمثيلًا لها في سرعةِ زوالها وقريبِ اضمحلالها، مع ما في ذلك مِن ذِكْرِ نوعٍ مِن أنواعِ قُدْرتِه الباهرة وصُنْعِه البديع، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٧٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٣٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٤٩).

(٤) فتح القدير (٤/ ٥٢٥).

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا كان الذي قرَّر به أمرًا فيما يظنُّه السامع ظاهرًا، كما كان جديرًا بأن يُنكِرَ بعضُ الواقفين مع الظواهرِ تخصيصَ الألبَّاءِ به، سبَّب -عن ذلك- الإنكارَ في قولِه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

تفريعٌ على ما تقدَّم مِن قولِه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ﴾ وما أُلحِقَ به مِن تمثيلِ حالهم في الانتفاعِ بالقرآن، فُرِّع عليه هذا الاستفهامُ التقريري[2].

لمَّا بالَغ في تقريرِ البيانات الدالةِ على وجوبِ الإقبال على طاعةِ الله تعالى، ووجوبِ الإعراض عن الدُّنيا؛ بيَّن بعد ذلك أنَّ الانتفاعَ بهذه البياناتِ لا يكمُلُ إلا إذا شرَح اللهُ الصدورَ، ونوَّر القلوبَ، فقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[3].

استئنافٌ جارٍ مَجرى التَّعليلِ لِما قبله مِن تخصيصِ الذِّكرى بأُولي الألباب[4].

ثم لمَّا ذكَر سبحانه أنَّ في ذلك لَذِكْرَىٰ لأُولي الألباب، ذكَر شَرْحَ الصَّدرِ للإسلام؛ لأنَّ الانتفاعَ الكامل لا يحصُلُ إلا به، فقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٧٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٤٠).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٥٠).

(٥) فتح القدير (٤/ ٥٢٦).

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا كان مِن المستبعَدِ جدًّا أن يقسوَ قلبٌ مِن ذِكْرِ الله، بيَّنه اللهُ وصوَّره في أعظَمِ الذِّكر؛ فإنَّه كان للذين آمنوا هُدًىٰ وشفاءً، وللذين لا يؤمنون في آذانِهم وَقْرًا، وفي أبصارِهم عمًىٰ، فقال مُفخِّمًا للمنزَّلِ بجعلِ الاسمِ الأعظم مبتدأً، وبناءِ الكلامِ عليه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(١).

استئنافٌ بيانيٌّ، نشأ بمناسبةِ المضادَّة بَيْنَ مضمونِ جملة ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾، ومضمونِ هذه الجملةِ؛ وهو أنَّ القرآنَ يُلِينُ قلوبَ الذين يَخشَون ربَّهم؛ لأنَّ مضمونَ الجملة السابقة يُثِير سؤالَ سائلٍ عن وجهِ قسوةِ قلوب الضالِّين مِن ذِكْرِ الله، فكانت جملةُ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿مِنْ هَادٍ﴾ مبيِّنةً أنَّ قساوةَ قلوبِ الضالِّين مِن سماعِ القرآن إنَّما هي لِرَيْنٍ في قلوبهم وعقولِهم، لا لنقصٍ في هدايته(٢).

ثم ذكَر سبحانه بعضَ أوصافِ كتابِه العزيز، فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٨٧-٤٨٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٨٣).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٢٦).

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا أتَمَّ الإنكارَ علىٰ مَن سوَّىٰ بَيْنَ مَن شرَح صدرَه ومَن ضيَّق، وما تَبِعه، وختَم بأنَّ الأولَ مهتدٍ، والثانيَ ضالٌّ؛ شرَع في بيانِ ما لكلٍّ منهما نشرًا مشوَّشًا في أسلوبِ الإنكار أيضًا، فقال مُشيرًا إلىٰ أنَّ الضَّلالَ سببُ العذاب، والهدىٰ سببُ النعيم، وحذَف هنا المُنعَّمَ الذي سبَّب له النعيمُ لِينَ قلبِه كما حذَف القاسيَ القلبِ في آية الشَّرح الذي سبَّبتْ له قَسْوَتُهُ العذابَ؛ لتَتقابلَ الآيتانِ، وتَتعادلَ العبارتانِ: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾[1].

الجملة اعتراضٌ بَيْنَ الثناءِ على القرآن فيما مضىٰ وقولِه الآتي: ﴿ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾، وجعَلها المفسرون تفريعًا علىٰ جملةِ ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ بدلالةِ مجموع الجملتينِ علىٰ فريقينِ: فريقٍ مهتدٍ، وفريقٍ ضالٍّ، ففُرِّع علىٰ ذلك هذا الاستفهامُ المستعمَل في معنًىٰ مجازيٍّ[2].

استئنافٌ جارٍ مجرىٰ التَّعليل لِما قبله مِن تبايُنِ حالَيِ المهتدي والضَّال[3].

ثم لمَّا حكَم علىٰ القاسيةِ قلوبُهم بحُكْمٍ في الدُّنيا وهو الضَّلال، حكَم عليهم في الآخرة بحُكْمٍ آخرَ وهو العذاب، فقال: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٩٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٥٢).

(٤) فتح القدير (٤/ ٥٢٧).

﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر ما أُعِدَّ لهم مِن الآخرةِ، وكانوا في مُدَّةِ كفرِهم كالحيواناتِ العُجْمِ لا ينظُرون إلا الجزئيَّاتِ الحاضرةَ؛ خوَّفهم بما يعملونه في الدُّنيا، فقال على طريقِ الاستئناف في جوابِ مَن يقول: فهل يُعذَّبون في الدُّنيا؟: ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾(١).

استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ ما ذُكِر قبله مِن مصيرِ المشركين يُثِير في نفوسِ المؤمنين سؤالًا عن تمتُّعِ المشركين بالنِّعْمة في الدُّنيا، ويتمنَّوْنَ أن يُجعَلَ لهم العذابُ، فكان جوابًا عن ذلك قولُه: ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾؛ أي: هم مظنَّةُ أن يأتيَهم العذابُ كما أتى العذابُ الذين مِن قبلهم؛ إذ أتاهم العذابُ في الدُّنيا بدُونِ إنذارٍ غيرَ مترقِّبينَ مجيئَه، فكان عذابُ الدُّنيا خزيًا يُخزِي به اللهُ مَن يشاء مِن الظالمين، وأمَّا عذابُ الآخرة فجزاءٌ يَجزي به اللهُ الظالمين على ظُلْمِهم، والفاءُ في قولِه: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾ دالَّةٌ على تسبُّب التكذيبِ في إتيانِ العذاب إليهم، فلمَّا ساوَاهم مشركو العربِ في تكذيب الرسول ﷺ، كان سببُ حلولِ العذاب بأولئك موجودًا فيهم؛ فهو مُنذِرٌ بأنَّهم يحُلُّ بهم مثلُ ما حَلَّ بأولئك(٢).

استئنافٌ مسُوقٌ لبيانِ ما أصاب بعضَ الكفرة مِن العذابِ الدُّنيويِّ، إثرَ بيانِ ما يُصِيبُ الكلَّ مِن العذابِ الأخرويِّ(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٩٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٥٢).

﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن سَفَهَهم وشِدَّة حُمْقِهم باستعجالِهم بالعذاب استهزاءً، سبَّب عنه تبكيت مَن لم يتَّعِظْ بحالهم، فقال: ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾(١).

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه حالَ الأوَّلين موعظةً للعرب، فكان كأنَّه قيل -صرفًا للقولِ إلى مظهرِ العظَمة؛ تذكيرًا بما في الأناةِ مِن المنَّة؛ لأنَّ حالها يقتضي المعاجَلةَ بالأخذِ، والمبادَرةَ بإحلالِ السَّطوة-: ضرَبْنا لكم حالَهم مثَلًا لحالكم لتَعتبروا به؛ فإنَّ الأمثالَ يُفهَم بها المعاني الغائبة، وتَصِيرُ كأنَّها محسوسةٌ مشاهَدة؛ عطَف عليه قوله -مُؤكِّدًا لإنكارهم أن يكونَ في القرآنِ بيانٌ شافٍ، وادعائهم أنَّه إنَّما هو شِعْرٌ وكِهانةٌ وسِحْرٌ-: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(٢).

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

ولمَّا كان ذلك غايةً في الشَّرف، دلَّ على زيادةِ شرَفِه بحالٍ مؤكدةً دالةً على شِدَّةِ عنادهم، تُسمَّى موطِّئة؛ لأنَّ الحالَ في الحقيقةِ ما بعدها بقولِه: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٤٩٤).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٤٩٥).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٤٩٦).

عطفٌ على جملةِ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾، تتمَّةً للتنويهِ بالقرآن وإرشاده، وللتعريض بتسفيهِ أحلامِ الذين كذَّبوا به وأعرَضوا عن الاهتداء بهَدْيه[1].

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩﴾

ولمَّا أقام سبحانه الدَّليلَ المنير على التَّفاوتِ العظيم، بيَّن مَن هو قانتٌ آناءَ الليل ساجدًا وقائمًا يدعو اللهَ مُخلِصًا له الدِّين، وبيَّن مَن يدعو للهِ أندادًا، وختَم بضَرْبِ الأمثال، وكان الأمثالُ أبيَنَ فيما يرادُ مِن الأحوال؛ قال مُنبِّهًا على عظَمتِها بلَفْتِ القول عن مظهرِ العظَمة إلى الاسمِ الأعظَمِ الجامع لجميعِ صفات الكمال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2].

استئنافٌ، وهو مِن قبيلِ التَّعرُّض إلى المقصودِ بعد المقدمة؛ فإنَّ قوله: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ توطئةٌ لهذا المثَلِ المضروب لحالِ أهل الشرك وحالِ أهل التوحيد، وفي هذا الانتقالِ تخلُّصٌ أُتبِعَ تذكيرَهم بما ضُرِب لهم في القرآن مِن كلِّ مثَلٍ على وجهِ إجمالِ العموم؛ استقصاءً في التَّذكير، ومعاوَدةً للإرشاد، وتخلُّصًا مِن وصفِ القرآن بأنَّ فيه مِن كلِّ مثَلٍ إلى تمثيلِ حالِ الذين كفَروا بحالٍ خاصٍّ[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٩٧).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٤٩٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٩٩).

لمَّا بالَغ في شرحِ وعيد الكفار، أردَفه بذِكْرِ مَثَلٍ ما يدلُّ علىٰ فسادِ مذهبهم وقُبْحِ طريقتهم(١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّه ضرَب في القرآن مِن كلِّ مثَلٍ، ضرَب هنا مثَلًا لعابدِ آلهةٍ كثيرة، ومَن يعبُدُ اللهَ وَحْدَه(٢).

إيرادٌ لمثَلٍ مِن الأمثالِ القرآنية بعد بيانِ أنَّ الحِكْمةَ في ضَرْبِها هو التَّذكُّرُ، والاتعاظُ بها، وتحصيلُ التَّقوىٰ(٣).

ثم ذكَر سبحانه مثَلًا مِن الأمثالِ القرآنية للتَّذكيرِ والإيقاظ، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(٤).

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾

ولمَّا كان السالمُ مثَلًا له ﷺ ولأتباعه، والآخَرُ للمخالِفين، وكان سبحانه قد أثبَتَ جهلَهم، وكان الجاهلُ ذا حميَّةٍ وإباءٍ لِما يُدعَىٰ إليه مِن الحقِّ وعصبيةٍ، فكان -لذلك- التَّفكُّرُ في أمرِهم وما يُؤدِّي إليه مِن التَّقاعدِ مِن الأتباع والتَّصويبِ بالأذىٰ -ولا سيَّما وهم أكثرُ مِن أهلِ العلم- مؤديًا إلىٰ الأسفِ وشديد القلق، فكان موضعَ أن يقالَ: فما يعملُ؟ وكان لا ينبغي في الحقيقةِ أن يَقلَقَ إلا مَن ظَنَّ دوامَ النَّكَدِ؛ قال تعالىٰ - مسلِّيًا ومعزِّيًا ومؤسيًا في سياقِ التَّأكيد؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ مَن قَلِق كان حالُه مقتضيًا لإنكارِ انقطاع التَّأكيد -: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٥٠).
(٢) البحر المحيط (٩/ ١٩٧).
(٣) روح المعاني (١٢/ ٢٥١).
(٤) فتح القدير (٤/ ٥٢٩).
(٥) نظم الدرر (١٦/ ٥٠٠).

لمَّا جرىٰ الكلامُ مِن أولِ السُّورة في مَهيَعِ إبطالِ الشرك، وإثباتِ الوحدانيَّة للإلـهِ، وتوضيحِ الاختلاف بَيْنَ حالِ المشركين وحالِ الموحِّدين المؤمنين بما يُنبِئُ بتفضيلِ حال المؤمنين، وفي مَهيَعِ إقامةِ الحُجَّة علىٰ بطلانِ الشرك، وعلىٰ أحقيَّةِ الإيمان، وإرشادِ المشركين إلىٰ التبصُّرِ في هذا القرآن، وتخلَّل في ذلك ما يقتضي أنَّهم غيرُ مقلِعِين عن باطلهم، وخُتِم بتسجيلِ جهلهم وعدمِ علمهم؛ خُتِم هذا الغرضُ بإحالتهم علىٰ حُكْمِ الله بَيْنَهم وبين المؤمنين يومَ القيامةِ حين لا يستطيعون إنكارًا، وحين يَلتفتون فلا يرَوْنَ إلا نارًا(١).

لمَّا لم يَلتفتوا إلىٰ هذه الدَّلائلِ الباهرة، أخبَر الجميعَ بأنَّهم ميِّتون وصائرون إليه، فيَتميز المُحِقُّ مِن المُبطِلِ؛ وهو ﷺ وأتباعُه المُحِقُّون الفائزون بالظَّفَرِ والغلَبة، والكافرون هم المُبطِلون(٢).

أنَّه لمَّا لم يَلتفتوا إلىٰ الحقِّ، ولم يَنتفعوا بضربِ المَثَلِ؛ أخبَر سبحانه بأنَّ مصيرَ الجميعِ بالموت إلىٰ الله تعالىٰ(٣).

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

ولمَّا كان الشفاءُ الكامل إنَّما يكون بأخذِ الثَّأر، وإذلالِ الظالم؛ قال مُشيرًا بأداةِ التراخي إلىٰ مدَّةِ البرزخ، مُؤكِّدًا؛ لأجل إنكارِهم البعثَ، فضلًا عن القِصاص، صادعًا لهم بالخطابِ بعد الغَيْبةِ: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٤٠٣).

(٢) البحر المحيط (٩/ ١٩٨).

(٣) روح المعاني (١٢/ ٢٥٢).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٥٠٠-٥٠١).

﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر سبحانه بأنَّهم جعلوا للهِ أندادًا، وأعلَمَ بأنَّهم كذَبةٌ في ذلك، كافرون ساترون للحقِّ، وأنَّه لا يَهدي مَن هو كاذبٌ كفارٌ، وأخبَر أنَّه لا بد مِن خصامِ الداعي لهم بَيْنَ يدَيهِ سبحانه، لأنَّه لا يجوز في الحِكْمةِ تركُهم هَمَلًا؛ كما هو مقرَّرٌ في العقول، وموجودٌ في الفِطَرِ الأُولىٰ، ومعلومٌ بالمشاهَدةِ مِن أحوالهم، فيُنعِم علىٰ المظلوم، وينتقِمُ مِن الظالم، وكان الكاذبُ في أقلِّ الأشياءِ ظالمًا، وأظلَمُ منه الكاذبُ علىٰ الأكابر، وأظلَمُ الظالمين الكاذبُ علىٰ الله؛ قال تعالىٰ مُسبِّبًا عمَّا مضىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[(١)].

أفادت الفاءُ تفريعَ ما بعدها علىٰ ما قبلها تفريعَ القضاءِ عن الخصومةِ التي في قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾؛ إذ قد عَلِمتَ أنَّ الاختصامَ كُنِّي به عن الحُكْمِ بَيْنَهم فيما خالَفوا فيه وأنكَروه؛ والمعنىٰ: يَقضي بينكم يومَ القيامةِ، فيكون القضاءُ علىٰ مَن كذَب علىٰ اللهِ وكذَّب بالصِّدق[(٢)].

بيانُ حالِ كلٍّ مِن طرَفَي الاختصامِ الجاري في شأنِ الكفرِ والإيمان لا غيرُ[(٣)].

ثم بيَّن سبحانه حالَ كلِّ فريقٍ مِن المختصِمينَ، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٥٠٢-٥٠٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٥٤).

(٤) فتح القدير (٤/ ٥٣٠).

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣ ﴾

ولمَّا ذكَّر سبحانه الظالمين بالكذبِ، ذكَّر أضدادهم الذين يخاصِمونهم عند ربِّهم؛ وهم المحسِنون بالصِّدق، فقال: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾(1).

لمَّا ذكَر وعيدَ الكاذبين والمكذِّبين للصادقين، ذكَر عَقِيبَه وعدَ الصادقين ووعدَ المصدِّقين؛ ليكونَ الوعدُ مقرونًا بالوعيد(2).

ثم ذكَر سبحانه فريقَ المؤمنين المصدِّقين، فقال: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾(3).

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤ ﴾

ولمَّا مدَحهم علىٰ تَقْواهم، قال في جوابِ مَن سأل عن ثوابهم، فقال لافتًا القولَ إلىٰ صفةِ الإحسان تعريفًا بمزيدِ إكرامهم: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾(4).

جملةُ ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّهم لمَّا قصَر عليهم جنسَ المتَّقِين، كان ذلك مُشعِرًا بمزيَّةٍ عظيمةٍ، فكان يقتضي أن يَسأَلَ السامعُ عن جزاءِ هذه المزيَّةِ، فبيَّن له أنَّ لهم ما يشاؤون عند الله(5).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٥٠٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٥٢).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٣١).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٥٠٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢٤/ ٨).

بيانٌ لِما لهم في الآخرةِ مِن حُسْنِ المآب بعد بيانِ ما لهم في الدُّنيا مِن محاسنِ الأعمال(١).

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٥﴾

ولمَّا كان العاقلُ مَن قدَّم في كلِّ أمرٍ الأهمَّ فالأهمَّ، فميَّز بَيْنَ خيرِ الخيرينِ فاتَّبَعه، وشَرَّ الشَّرَّينِ فاجتنَبه؛ كان المحسِنُ مَن جعَل أكبرَ ذُنوبِه نُصْبَ عينيَه، وعَمِل على هدمِه؛ فلذلك علَّل الإحسانَ بقولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾(٢).

ثم بيَّن سبحانه ما هو الغايةُ ممَّا لهم عند ربِّهم، فقال: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾(٣).

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٦﴾

ولمَّا فُهِم أنَّ المشركين يُكذِّبونه، وكان مِن طبعِ الآدميِّ الاهتمامُ بمثلِ ذلك، ولا سيَّما إذا كان المكذِّبُ كثيرًا وقويًّا، وتقرَّر أنَّه سبحانه الحَكَمُ العدلُ بَيْنَ المتخاصِمين وغيرِهم في الدُّنيا والآخرة، ولَزِم كلَّ سامعٍ الإقرارُ بالآخرة، وبشَّر المحسِنين وحذَّر المسِيئين، وكان مِن المعلوم أنَّهم يُحذِّرونه آلهتَهم كما يُحذِّرهم

(١) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٥٤).
(٢) نظم الدرر (١٦/ ٥٠٧).
(٣) فتح القدير (٤/ ٥٣١).

إلَهه؛ حسُنَ كلَّ الحُسْنِ قولُه مُقِرًّا للكفايةِ غايةَ الإقرار، ومُنكِرًا لنَفْيِها كلَّ الإنكار: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾(١).

لمَّا ضرَب اللهُ مثَلًا للمشركين والمؤمنين بمثَلِ رجُلٍ فيه شركاءُ متشاكسون ورجُلٍ خالصٍ لرجُلٍ، كان ذلك المثَلُ مثيرًا لأن يقولَ قائلُ المشركين: لَتَتألَّبَنَّ(٢) شركاؤنا على الذي جاء يُحقِّرها ويسُبُّها، ومثيرًا لحَميَّةِ المشركين أن يَنتصروا لآلهتهم(٣).

ولمَّا جرت العادةُ أنَّ المُبطِلين يخوِّفون المُحِقِّين بالتخويفاتِ الكثيرة، حسَم اللهُ مادةَ الخوفِ بقولِه تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾(٤).

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

جملةُ ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ قد اقتضاها أنَّ الكلامَ الذي اعترَضتْ بعده الجملتان اقتضى فريقينِ: فريقًا متمسِّكًا باللهِ القادر على النَّفع والضر؛ وهو النبيُّ ﷺ والمؤمنون. وآخَرَ مستمسِّكًا بالأصنامِ العاجزة عن الأمرينِ. فلمَّا بيَّن أنَّ ضَلالَ الفريقِ الثاني ضلالٌ مَكِينٌ ببيانِ أنَّ هُدى الفريقِ الآخر راسخٌ متينٌ؛ فلا مَطمَعَ للفريق الضالِّ بأن يجُرُّوا المهتدين إلى ضَلالهم(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٥٠٨-٥٠٩).

(٢) أي: تتجمع وتتضافر.

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٥٣).

(٥) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٥).

وبعد أن ذكر مَن أضلَّهم اللهُ، ذكَر مَن هداهم اللهُ، فقال: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

ولمَّا عُلِم بهذه البراهينِ أنَّه سبحانه المتصرِّفُ في المعاني بتصرُّفه في القلوبِ بالهداية والإضلال، وكان التَّقديرُ: فلئن قرَّرتم بهذا الاستفهامِ الإنكاري ليقولنَّ: بلىٰ! عطَف عليه بيانَ أنَّه الخالقُ للذات، كما أنَّه المالكُ للمعاني والصفات، فقال مفسِدًا لدِينِهم -باعترافهم بأصلينِ: القدرةِ التامَّةِ له، والعَجْزِ الكامل لمعبوداتهم-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[١].

لمَّا أطنَب في وعيدِ المشركين وفي وعدِ الموحِّدين، عاد إلىٰ إقامةِ الدَّليل علىٰ تزييفِ طريقةِ عبَدةِ الأصنام[٢].

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

ولمَّا كانوا مع هذه الحُجَجِ القاطعة، والأدلَّةِ القامعة، والبراهينِ الساطعة، التي لا دافعَ لها بوجهٍ، كالبهائمِ لا يُبصِرون إلا الجزئياتِ حالَ وقوعها؛ قال مُهدِّدًا مع الاستعطافِ: ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[٣].

(١) نظم الدرر (١٦/ ٥١١).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٥٤).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ٥١٤).

لمَّا أبلَغهم اللهُ مِن الموعظةِ أقصىٰ مبلغٍ، ونصَب لهم مِن الحُجَجِ أسطَعَ حُجَّةٍ، وثبَّت رسولَه ﷺ أرسَخَ تثبيتٍ؛ لا جرَمَ أمَر رسولَه ﷺ بأن يُوادِعَهم موادَعةَ مستقرِبِ النَّصر، ويُواعِدَهم ما أُعِدَّ لهم مِن خُسْرٍ [1].

لمَّا أورَد اللهُ عليهم هذه الحُجَّةَ التي لا دَفْعَ لها، قال بعده علىٰ وجهِ التَّهديد: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [2].

ثم أمَره اللهُ أن يُهدِّدَهم ويتوعَّدهم، فقال: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [3].

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

ثم بعد تهديدِهم أشار إلىٰ عذابِهم الدُّنْيويِّ والأخروي، فقال: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

ولمَّا تجلَّتِ عرائسُ هذه المعاني آخِذةً بالألباب، ولمَعتْ سيوفُ تلك المباني مِن المثاني قاطعةً الرِّقاب، وختَمها بما ختَم مِن صادعِ الإرهاب؛ أنتَجتْ ولا بد قولَه معلِّلًا لإتيانِ ما توعَّدهم به، مُؤكِّدًا لِما لهم مِن الإنكارِ لمضمونِ هذا الإخبارِ:

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٥٥).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٣٣).

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[١].

الجملةُ تعليلٌ للأمرِ بأن يقولَ لهم: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، المفيدِ موادعتَهم وتهوينَ تصميمِ كُفْرِهم عليه، وتثبيتَه علىٰ دَعْوتِه[٢].

لمَّا أطنَب اللهُ تعالىٰ في هذه الآيةِ في فسادِ مذاهبِ المشركين تارةً بالدَّلائل والبينات، وتارةً بضربِ الأمثال، وتارةً بذِكْرِ الوعدِ والوعيد؛ أردَفه بكلامٍ يُزِيلُ ذلك الخوفَ العظيم عن قلبِ الرَّسول ﷺ، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[٣].

ثم لمَّا كان يعظُمُ علىٰ رسولِ الله ﷺ إصرارُهم علىٰ الكفرِ، أخبَره بأنَّه لم يُكلَّفْ إلا بالبيانِ، لا بأن يَهدِيَ مَن ضَلَّ، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[٤].

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ولمَّا كان الوكيلُ في الشَّيء لا تصلُحُ وَكالتُه فيه إلا إن كان قادرًا عليه بطريقٍ مِن الطُّرق، وكان حِفْظُهم علىٰ الهدىٰ وعن الضَّلال لا يكونُ عليه إلا لحاضرٍ لا يَغِيبُ،

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٥١٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٥٥).

(٤) فتح القدير (٤/ ٥٣٤).

ولا يعتريه نومٌ، ولا يطرُقُه موتٌ؛ لم تَصِحَّ وكالةُ أحدٍ مِن الخَلْقِ فيه، وكان كأنَّه قيل: لأنَّه لو وُكل إليك أمرُهم، لضاعوا عند نومِك وموتِك؛ فدلَّ عليه بما أدَّىٰ معناه، وزاد عليه مِن الفوائدِ ما يُعرَف بالتَّأمُّل مِن تشبيهِ الهدايةِ بالحياة واليقَظة، والضَّلالِ بالموت والنَّوم، فكما أنَّه لا يَقدِرُ علىٰ الإماتةِ والإنامة إلا اللهُ، فكذلك لا يَقدِرُ علىٰ الهدايةِ والإضلال إلا اللهُ؛ فمَن عرَف هذه الدَّقيقةَ عرَف سِرَّ اللهِ في القدرة، ومَن عرَف السِّرَّ فيه هانت عليه المصائبُ؛ فهي تسليةٌ له ﷺ، لفَت القولَ إلىٰ التَّعبير بالاسمِ الأعظم لاقتضاءِ الحال له، وأسنَد التَّوفِّيَ إليه سبحانه لأنَّه في بيانِ أنَّه لا يصلُحُ للوكالة غيرُه أصلًا، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّه أنزَل الكتابَ علىٰ رسولِه ﷺ بالحقِّ للناس، نبَّه علىٰ أنَّه مِن آياتِه الكبرىٰ يدُلُّ علىٰ الوَحْدانيَّة، لا يَشرَكُه في ذلك صَنَمٌ ولا غيرُه، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ولمَّا أنتج هذا ولا بدَّ نحوَ أن يقالَ توعُّدًا لهم: هل عَلِموا أنَّه لا يقومُ شيءٌ مَقامَه، ولا يكونُ شيءٌ إلا بإذنِه، ولا يقرُبُ أحدٌ مِن القدرةِ علىٰ شيءٍ مِن فعلِه؛ فكيف

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٥١٧).

(٢) البحر المحيط (٩/ ٢٠٧).

بالقُرْبِ مِن رُتْبتِه، فضلًا عن مماثَلتِه؟! فرجَعوا عن ضَلالِهم؛ عادَله بقولِه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾[١].

﴿ أَمِ ﴾ منقطِعةٌ، وهي للإضرابِ الانتقاليِّ انتقالًا مِن تشنيعِ إشراكهم إلىٰ إبطالِ معاذيرهم في شِرْكِهم؛ ذلك أنَّهم لمَّا دمَغتْهم حُجَجُ القرآنِ باستحالةِ أن يكونَ لله شركاءُ، تمحَّلُوا تأويلًا لشِرْكِهم، فقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾؛ كما حُكِي عنهم في أولِ هذه السُّورة، فلمَّا استُوفِيتِ الحُجَجُ علىٰ إبطالِ الشرك، أقبَلَ هنا علىٰ إبطالِ تأويلهم منه، ومعذرتِهم[٢].

واعلَمْ أنَّ الكفارَ أورَدوا علىٰ هذا الكلامِ سؤالًا، فقالوا: نحن لا نعبُدُ هذه الأصنامَ لاعتقادِ أنَّها آلهةٌ تضُرُّ وتنفع، وإنَّما نعبُدُها لأجلِ أنَّها تماثيلُ لأشخاصٍ كانوا عند اللهِ مِن المقرَّبين؛ فنحن نعبُدُها لأجلِ أن يَصِيرَ أولئك الأكابرُ شفعاءَ لنا عند الله؛ فأجاب اللهُ تعالىٰ بأن قال: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾[٣].

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٤٤﴾

ولمَّا نفَىٰ صلاحيةَ أصنامِهم لهذا الأمرِ، أشار إلىٰ نَفْيِه عمَّا سِواه بقصرِ الأمر عليه، فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٥٢٠-٥٢١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٥٦).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٥٢١).

لمَّا نفىٰ أن يكونَ لأصنامهم شيءٌ مِن الشفاعةِ في عمومِ نَفْيِ مُلْكِ شيءٍ مِن الموجودات عن الأصنام، قُوبِلَ بقولِه: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾؛ أي: الشفاعةُ كلُّها لله(١).

ثم أمَره سبحانه بأن يُخبرَهم أنَّ الشَّفاعةَ للهِ وَحْدَه، فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾(٢).

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٥﴾

ولمَّا دلَّ علىٰ أنَّ شفعاءَهم ليست بأهلٍ للشَّفاعة، وعلىٰ أنَّ الأمرَ كلَّه مقصورٌ عليه، وختَم بأنَّه لا بد مِن الرُّجوع إليه المقتضي لأن تُصرَفَ الهِمَمُ كلُّها نحوَه، وتُوجَّه العزائمُ جميعُها تلقاءَه، ولأنَّه لا يُخشَىٰ سِواه، ولا يُرجَىٰ غيرُه؛ ذكَر حالًا مِن أحوالهم، فقال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾(٣).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ لإظهارِ تناقُضِهم في أقوالهم، المُشعِرِ بأنَّ ما يقولونه أقضيةٌ سُفسطائيَّةٌ، يقولونها للتَّنصُّل مِن دمَغاتِ الحُجَجِ التي جَبَهَهم(٤) بها القرآنُ؛ فإنَّهم يعتذرون تارةً علىٰ إشراكهم بأنَّ شركاءَهم شفعاءُ لهم عند الله، وهذا يقتضي أنَّهم معترفون بأنَّ اللهَ هو إلهُهم وإلهُ شركائهم، ثم إذا ذكَر النبيُّ ﷺ أنَّ اللهَ واحدٌ، أو ذكَر المسلمون كلمةَ لا إلهَ إلا اللهُ؛ اشمأزَّتْ قلوبُهم مِن

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٧).
(٢) فتح القدير (٤/ ٥٣٥).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ٥٢٢).
(٤) أي: قابلهم وردهم.

الاقتصارِ علىٰ ذِكْرِ الله، فلا يَرضَوْنَ بالسُّكوتِ عن وصفِ أصنامهم بالإلهيَّة؛ وذلك مُؤْذِنٌ بأنَّهم يُسَوُّونها باللهِ تعالىٰ[1].

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

ولمَّا نفىٰ صلاحيةَ الوكالةِ علىٰ الناس في الهُدىٰ والضَّلال لغيرِه، ودلَّ علىٰ ذلك بمُلْكِه ومِلْكِه، وأخبَر بتعمُّدِهم الباطلَ؛ أنتَج ذلك وجوبَ اللجأ إليه، والإعراضِ عمَّا سِواه، وقَصْرِ العزمِ عليه، فقال مُعلِمًا بذلك، ومُعلِّمًا لِما يقال عند مخالَفةِ الدَّاعي باتِّباع الهوىٰ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[2].

لمَّا كان أكثَرُ ما تقدَّم مِن السُّورة مُشعِرًا بالاختلاف بَيْنَ المشركين والمؤمنين، وبأنَّ المشركين مصمِّمون علىٰ باطِلِهم علىٰ ما غمَرهم مِن حُجَجِ الحقِّ دُونَ إغناءِ الآياتِ والتَّدبُّر عنهم؛ أُمِر الرسولُ ﷺ عَقِب ذلك بأن يقولَ هذا القولَ؛ تنفيسًا عنه مِن كَدَرِ الأسىٰ علىٰ قومه، وإعذارًا لهم بالنِّذارة، وإشعارًا لهم بأنَّ الحقَّ في جانبِهم مُضاعٌ، وأنَّ الأجدرَ بالرسول ﷺ مُتارَكتُهم، وأن يُفوِّضَ الحُكْمَ في خلافِهم إلىٰ الله[3].

لمَّا أخبَرَ عن سخافةِ عقولهم باشمئزازهم مِن ذِكْرِ الله، واستبشارِهم بذِكْرِ الأصنامِ؛ أمَره أن يدعوَ بأسماءِ الله العُظْمىٰ: مِن القدرة، والعلم، ونسبةِ الحُكْمِ إليه؛ إذ غيرُه لا قُدْرةَ له، ولا علمَ تام، ولا حُكْمَ، وفي ذلك وصفٌ لحالهم السيِّئ، ووعيدٌ لهم، وتسليةٌ للرسول ﷺ[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٨).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٥٢٣-٥٢٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣٠-٣١).

(٤) البحر المحيط (٩/ ٢٠٩).

ولمَّا لم يَقبَلِ المتمرِّدون مِن الكفارِ ما جاءهم به ﷺ مِن الدُّعاء إلىٰ الخير، وصمَّموا علىٰ كفرِهم؛ أمَره اللهُ سبحانه أن يرُدَّ الأمرَ، فقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾(١).

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فيُعذِّب الظالمين، فلو عَلِموا ذلك، لَمَا ظنُّوا بادِّعائهم له سبحانه ولَدًا وشركاءَ يُقرِّبونهم إليه زُلْفَىٰ جهلًا منهم بجلالِه ونزاهته عمَّا ادَّعَوْهُ له وكمالِه؛ عطَف عليه تهويلًا للأمرِ قولَه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾(٢).

عطفٌ علىٰ جملة ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ لأنَّها تُشير إلىٰ أنَّ الحقَّ في جانبِ النبيِّ ﷺ، وهو الذي دعا ربَّه للمحاكَمة، وأنَّ الحُكْمَ سيكون علىٰ المشركين، فأعقَب ذلك بتهويلِ ما سيكون به الحُكْمُ؛ بأنَّه لو وجَد المشركون فِدْيةً منه بالغةً ما بلَغتْ، لافتدَوْا بها(٣).

كلامٌ مستأنَفٌ مسُوقٌ لبيانِ آثار الحُكْمِ الذي استدعاه النبيُّ ﷺ، وغايةِ شِدَّته وفظاعته(٤).

---

(١) فتح القدير (٤/ ٥٣٦).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٥٢٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣٢).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٥٨).

ثم لمَّا حكىٰ عن الكفارِ ما حكاه مِن الاشمئزاز عند ذِكْرِ اللهِ، والاستبشارِ عند ذِكْرِ الأصنام؛ ذكَر ما يدلُّ علىٰ شِدَّةِ عذابهم، وعظيمِ عقوبتهم، فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ (١).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّه الحاكمُ بيْنَ عباده، وذكَر مقالةَ المشركين وشناعتَها؛ كأنَّ النفوسَ تشوَّقتْ إلىٰ ما يفعلُ اللهُ بهم يومَ القيامةِ، فأخبَر بقولِه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ (٢).

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

ثم ذكَر حالًا لهم أُخرىٰ حين تُعرَضُ عليهم صحائفُ أعمالهم، فقال: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر عن ظهورِ هذا لهم، علَّله بأنَّهم كانوا يفعلون ما لم يكُنْ في العادة يُتوقَّع منهم؛ وهو مُجازاةُ الإحسانِ بالإساءة وقد كانوا جديرين بضدِّه، فقال: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣).

---

(١) فتح القدير (٤/ ٥٣٦).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٢٦).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٥٢٧-٥٢٨).

الفاءُ لتفريعِ هذا الكلامِ على قولِه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ الآيةَ، وما بَيْنَهما اعتراضٌ مُسلسَلٌ بعضُه مع بعضٍ للمناسبات، وتفريعُ ما بعد الفاءِ على ما ذكَرْناه تفريعُ وصفِ بعضٍ مِن غرائبِ أحوالهم على بعضٍ، وهل أغرَبُ مِن فزَعِهم إلى اللهِ وحده بالدُّعاء إذا مسَّهم الضُّرُّ وقد كانوا يَشمئزُّون مِن ذِكْرِ اسمِه وحده؟! فهذا تناقضٌ مِن أفعالِهم وتعكيسٌ؛ فإنَّه تسبُّبُ حديثٍ على حديثٍ، وليس تسبُّبًا على الوجودِ، وهذه النُّكْتةُ هي الفارقةُ بَيْنَ العطفِ بالفاء هنا وعطفِ نظيرِها بالواو[(١)].

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٥٠﴾

ولمَّا كان كفارُ قُرَيشٍ مقصودين بهذا قصدًا عظيمًا، وإن كان شاملًا بإطلاقِه غيرَهم مِن الأوَّلين والآخِرين؛ قال مُوضِّحًا لذلك: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[(٢)].

جملةُ ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ مبيِّنةٌ لمضمونِ ﴿هِىَ فِتْنَةٌ﴾؛ لأنَّ بيانَ مَغبَّةِ الذين قالوا هذا القولَ في شأنِ النِّعْمة التي تَنالُهم يُبيِّن أنَّ نِعْمةَ هؤلاء كانت فتنةً لهم[(٣)].

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥١﴾

فتسبَّب عن عدمِ الإغناءِ قولُه: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣٤).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٥٣٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣٧).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٥٣١).

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

ولمَّا ثبَتَ أنَّ الضارَّ النافع إنَّما هو اللهُ: مَن شاء أعطاه، ومَن شاء منَعه، ومَن شاء استلَبه، ووضَعه بعدما رفَعه، وكان التَّقديرُ: ألم يَعلَموا أنَّ ما جمَعه مَن قَبْلَهم لم يَدفَعْ عنهم أمرَ اللهِ؟! عطَف عليه قولَه: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[(١)].

عطفٌ على جملةِ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾؛ فبعد أن وُصِف أكثرُهم بانتفاءِ العلم بأنَّ الرحمةَ لهم فتنةٌ وابتلاء، عُطِف عليه إنكارُ علمِهم بذلك، وإهمالُهم النَّظرَ في الأدلةِ المفيدة للعلم، وصَمُّهم آذانَهم عن الآياتِ التي تُذكِّرهم بذلك حتى بقُوا في جَهالةٍ مُركَّبةٍ، وكان الشَّأنُ أن يَعلَموا أنَّ اللهَ يبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يشاء ويَقدِر[(٢)].

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾

ولمَّا حذَّر سبحانه في هذه السُّورةِ -ولا سيَّما في هذه الآياتِ- فطال التَّحذيرُ، وأودَعها مِن التَّهديدِ وصادعِ الإنذار والوعيدِ العظيم الكثير، وختَم بالحثِّ على الإيمان، والنَّظرِ السَّديد في العرفان، وكانت كثرةُ الوعيد ربما أيأست ونفَّرتْ وأوحَشتْ، وصدَّت عن العطفِ وأبعَدتْ؛ قال تعالى مُستعطِفًا مُترفِّقًا بالشَّاردين عن بابه، متلطِّفًا جامعًا بَيْنَ العاطفينِ كلامَ ذَوِي النِّعْمة على لسانِ نبيِّ الرحمة، صارفًا

(١) نظم الدرر (١٦/ ٥٣١-٥٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣٨).

القولَ إلىٰ خطابِه بعد أسلوبِ الغَيْبةِ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

أطنَبَتْ آياتُ الوعيد بأفنانها السابقةِ إطنابًا يبلُغُ مِن نفوسِ سامعيها أيَّ مبلغٍ مِن الرُّعب والخوف، علىٰ رغمِ تظاهُرِهم بقلَّةِ الاهتمام بها، وقد يبلُغُ بهم وَقْعُها مبلغَ اليأس مِن سعيٍ يُنجيهم مِن وعيدها؛ فأعقَبها اللهُ ببعثِ الرَّجاء في نفوسهم للخروجِ إلىٰ ساحلِ النَّجاة إذا أرادوها؛ علىٰ عادةِ هذا الكتابِ المَجيد مِن مُداواةِ النُّفوس بمزيجِ التَّرغيب والتَّرهيب[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا أطنَب في الوعيد، أردَفه بشرحِ كمال رحمتِه وفضله وإحسانه في حقِّ العبيد[3].

لمَّا شدَّد علىٰ الكفار وذكَر ما أعَدَّ لهم مِن العذاب، وأنَّهم لو كان لأحدِهم ما في الأرضِ ومِثْلُه معه لافتدىٰ به مِن عذابِ الله؛ ذكَر ما في إحسانِه مِن غفرانِ الذُّنوب إذا آمَن العبدُ ورجَع إلىٰ الله، وكثيرًا تأتي آياتُ الرحمة مع آياتِ النِّقْمة؛ ليرجوَ العبدُ ويَخافَ[4].

لمَّا ذكَر سبحانه ما ذكَره مِن الوعيدِ، عقَّبه بذِكْرِ سَعةِ رحمته، وعظيمِ مغفرته، وأمَر رسولَه ﷺ أن يُبشِّرَهم بذلك، فقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٥٣٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣٩).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٤٦٣).
(٤) البحر المحيط (٩/ ٢١١).
(٥) فتح القدير (٤/ ٥٣٨).

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقدير: فأقلِعوا عن ذُنوبكم؛ فإنَّها قاطعةٌ عن الخير، مُبعِدةٌ عن الكمال؛ عطَف عليه استعطافًا قولَه دالًّا علىٰ أنَّ الغفرانَ المتقدِّم إنَّما هو إذا شاء التَّفضُّلَ سبحانه بتوبةٍ وبغيرِ توبةٍ: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾(١).

لمَّا فتَح لهم بابَ الرجاء، أعقَبه بالإرشادِ إلىٰ وسيلةِ المغفرة معطوفًا بالواو، وللدَّلالة علىٰ الجمعِ بَيْنَ النَّهيِ عن القُنوطِ مِن الرَّحمة وبَيْنَ الإنابة جمعًا يقتضي المبادَرةَ، وهي أيضًا مقتضىٰ صيغةِ الأمر(٢).

لمَّا كانت هذه الآيةُ فيها فُسْحةٌ عظيمة للمسرِف، أتبَعها بأنَّ الإنابةَ -وهي الرجوعُ- مطلوبةٌ مأمور بها، ثم توعَّد مَن لم يتُبْ بالعذاب؛ حتىٰ لا يَبقَىٰ المرءُ كالمهمل مِن الطاعةِ، والمتَّكِلِ علىٰ الغفرانِ دُونَ إنابةٍ(٣).

ولهذا أمَر تعالىٰ بالإنابةِ إليه، والمبادرةِ إليها، فقال: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾(٤).

لمَّا بشَّرهم سبحانه بأنَّه يغفرُ الذُّنوبَ جميعًا، أمَرهم بالرجوعِ إليه؛ بفعلِ الطاعات، واجتنابِ المعاصي(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٥٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٤٣).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٢١٢).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٧٢٧).

(٥) فتح القدير (٤/ ٥٣٩).

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

ولمَّا أمَر برؤيةِ الأمور كلِّها مِن الله، وإسلامِ القِيادِ كلِّه إليه؛ أمَر بما هو أعلى مِن ذلك؛ وهو المجاهَدةُ بقتلِ النَّفس، فقال: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[١].

ولمَّا أمَرهم بالإسلام له، أمَرهم هنا بالمتابَعةِ لرسوله ﷺ، فقال: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾.

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

ولمَّا كان للإنسان عند وقوعِ الخُسْران أقوالٌ وأحوالٌ لو تخيَّلها قبل هجومِه لحسَبَ حسابَه، فباعَد أسبابَه؛ علَّل الإقبالَ على الاتِّباعِ بغايةِ الجهدِ والنزاع، فقال: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾[٢].

ثم حذَّرهم، فقال: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾[٣].

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

ولمَّا كانت النَّفسُ إذا وقَعتْ في ورطةٍ لا تدَعُ وجهًا محتملًا حتى تتعلَّقَ بأذيالِه، وتمُتَّ بحِبالِه، وتغترَّ بمُحالِه؛ قال حاكيًا كَذِبَها حيث لا يُغني إلا الصِّدقُ: ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٥٣٦).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٥٣٧).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٢٨).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٥٣٩).

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

ولمَّا ذكَر حالَها في الاعترافِ بالبُطْلان، ثم الفزَعِ إلى الزُّور والبُهْتان؛ أتبعه التَّمنِّي الذي لا يفيدُ غيرَ الخُسْران، فقال: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١).

ثم ذكَر سبحانه مقالةً أخرى ممَّا قالوا، فقال: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

ولمَّا حذَّر سبحانه بما يكون للمأخوذ مِن سيِّئِ الأحوال، وفظيعِ الأهوال، وكان معنى ما تقدَّم مِن كَذِبه وتَمنِّيه أنَّه ما جاءني بيانٌ، ولا كان لي وقتٌ أتمكَّنُ فيه مِن العمل؛ قال تعالى مُكذِّبًا له: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾(٣).

﴿بَلَىٰ﴾ حرفٌ لإبطالِ مَنْفيٍّ، أو فيه رائحةُ النفي؛ لقصدِ إثبات ما نُفِيَ قبله، فتعيَّن أن تكونَ هنا جوابًا لقولِ النَّفس: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لِما تقتضيه ﴿لَوْ﴾ التي استُعمِلت للتَّمني مِن انتفاءِ ما تمنَّاه؛ وهو أن يكونَ اللهُ هَداه ليكونَ مِن المتَّقين؛ أي: لم يَهدِني اللهُ فلم أتَّقِ، وجملةُ ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى﴾ تفصيلٌ للإبطال، وبيانٌ له، وهو مثلُ الجوابِ بالتَّسليم بعد المنعِ؛ أي: هَداك اللهُ(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٥٣٩-٥٤٠).

(٢) فتح القدير (٤/ ٥٤١).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٥٤٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/ ٤٨).

ثـم ذكَـر سـبحانه جوابَـه علـىٰ هـذه النُّفـوسِ المتمنِّيـة المُتعلِّلـة بغيـرِ علَّـةٍ، فقـال: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

ولمَّا كان قد تعمَّد الكذبَ عند مسِّ العذابِ في عدمِ البيان والوقتِ القابل، قال تعالىٰ مُحذِّرًا مِن حالِه وحالِ أمثاله، ولفَت القولَ إلىٰ مَن لا يَفهَمه حقَّ فهمِه غيره تسليةً لـه، وزيـادةً في التَّخويـف لغيـره: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٢].

عطفٌ علىٰ إحدىٰ الجُمَلِ المتقدِّمة المتعلِّقة بعذابِ المشركين في الدُّنيا والآخرة، والأحسن أن يكونَ عطفًا علىٰ جملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾؛ أي: في الدُّنيا كما أصاب الذين مِن قبلِهم، ويومَ القيامةِ تسوَدُّ وجوهُهم[٣].

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

ولمَّا ذكَر حالَ الذين أشقاهم، أتبَعهم حالَ الذين أسعَدهم، فقال عاطفًا لجملةٍ علىٰ جملةٍ، لا علىٰ ﴿تَرَى﴾ المظروفِ ليومِ القيامةِ؛ إشارةً إلىٰ أنَّ هذا فعلُه معهم في الدَّارين، وإشارةً إلىٰ كثرةِ التَّنجيةِ؛ لكثرةِ الأهوال كثرةً تفُوتُ الحصرَ: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٤].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٥٤١).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٥٤١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٤٩).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٥٤٢).

عطفٌ على جملةِ ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ﴾ إلى آخرها؛ أي: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ مِن جهنَّمَ؛ لأنَّهم ليسوا بمتكبِّرين، وهذا إيذانٌ بأنَّ التَّقوى تُنافي التَّكبُّرَ؛ لأنَّ التَّقوى كمالُ الخُلُقِ الشَّرعي، وتقتضي اجتنابَ المنهيَّات، وامتثالَ الأمرِ في الظاهرِ والباطن، والكِبْرُ مرَضٌ قلبيٌّ باطنيٌّ، فإذا كان الكِبْرُ مُلقِيًا صاحبَه في النَّار، فَضِدُّ أولئك ناجون منها؛ وهم المتَّقون؛ إذ التَّقوى تحُولُ دُونَ أسبابِ العقاب، التي منها الكِبْرُ(١).

لمَّا ذكَر اللهُ هذا الوعيدَ، أردَفه بالوعد، فقال: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾(٢).

ولمَّا ذكَر حالةَ المتكبِّرين، ذكَر حالةَ المتَّقِين، فقال: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾(٣).

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾

ولمَّا كان المُخوَّفُ منه والمحزونُ عليه جامعَينِ لكلِّ ما في الكون، فكان لا يَقدِرُ على دفعِهما إلا المُبدِعُ القيُّوم؛ قال مستأنِفًا أو معلِّلًا، مظهرًا الاسمَ الأعظم تعظيمًا للمَقام: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾(٤).

هذا استئنافٌ ابتدائيٌّ، تمهيدٌ لقوله: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾ في ذِكْرِ تمسُّكِ الرسول ﷺ والرُّسل مِن قبلِه بالتَّوحيد، ونَبْذِ الشرك، والبراءةِ منه، والتَّصلُّبِ في مقاومته، والتَّصميمِ على قطعِ دابره(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٥٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٤٦٩).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٢٨).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٥٤٣).

(٥) التحرير والتنوير (٢٤/ ٥٣).

لمَّا أطال الكلامَ في شرحِ الوعد والوعيد، عاد إلىٰ دلائلِ الإلهيَّة والتَّوحيد[(١)].

﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

ولمَّا كان الخافقانِ خزائنَ الكائنات، وكان لا يَتصرَّف في الخزائن إلا ذو المفاتيح؛ قال دالًّا علىٰ وكالتِه: ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[(٢)].

﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ جيءَ بها مفصولةً؛ لأنَّها تفيدُ بيانَ الجملةِ التي قبلها؛ فإنَّ الوكيلَ علىٰ شيءٍ يكونُ هو المتصرِّفَ في العطاءِ والمنع[(٣)].

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

ولمَّا قامت هذه الدَّلائلُ -كما ترىٰ- قيامَ الأعلام، فانجابت دياجيرُ الظَّلام، وكان الجهَلةُ قد دعَوْهُ ﷺ إلىٰ أن يكُفَّ عن آلهتِهم، وكان الإقرارُ عليها عبادةً لها؛ تسبَّب عن ذلك أمرُه ﷺ بما يَصدَعُهم به بقولِه: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾[(٤)].

هذا نتيجةُ المقدِّمات، وهو المقصودُ بالإثبات؛ فالفاء في قولِه: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ ﴾ لتفريعِ الكلام المأمورِ الرسولُ ﷺ بأن يقولَه علىٰ الكلامِ الموحَىٰ به إليه؛ ليَقرَعَ به أسماعَهم؛ فإنَّ الحقائقَ المتقدِّمة موجَّهةٌ إلىٰ المشركين، فبعد تقرُّرِها عندهم وإنذارِهم علىٰ مخالَفةِ حالهم لِما تقتضيه تلك الحقائقُ، أُمِر الرسولُ ﷺ بأن يُوجِّهَ

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٤٧٠).
(٢) نظم الدرر (١٦/ ٥٤٤).
(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٥٤).
(٤) نظم الدرر (١٦/ ٥٤٥).

إليهم هذا الاستفهامَ الإنكاريَّ مُنوَّعًا علىٰ ما قبله؛ إذ كانت أنفسُهم قد خَسِئتْ بما جَبَهَها مِن الكلامِ السابق؛ تأييسًا لهم مِن محاولةِ صرفِ الرسول ﷺ عن التَّوحيدِ إلىٰ عبادةِ غير الله[1].

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقديمُ يدلُّ علىٰ الاختصاصِ، وكانوا لم يَدْعُوه للتَّخصيص، بل للكفِّ المقتضي للشرك؛ بيَّن أنَّه تخصيصٌ مِن حيث إنَّ الإلهَ غنيٌّ عن كلِّ شيءٍ، فهو لا يَقبَل عملًا فيه شِرْكٌ، ومتىٰ حصَل أدنىٰ شركٍ، كان ذلك العملُ كلُّه لِلَّذي أشرَك؛ فكان التَّقديرُ بيانًا لسببِ أمره بأن يقولَ لهم ما تقدَّم مُنكِرًا عليهم: قل كذا؛ فلقد أوحيَ إليك وإلىٰ الذين مِن قبلِك وجوبُ التَّوحيد، فعطَف عليه قولَه مُؤكِّدًا لأجلِ ما استقرَّ في النُّفوس مِن أنَّ مَن عَمِل لأحدٍ شيئًا قُبِل، سواءٌ كان علىٰ وجهِ الشَّركةِ أو لا: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[2].

تأييدٌ لأمره بأن يقولَ للمشركين تلك المقالةَ، مقالةَ إنكارِ أن يَطمَعوا منه في عبادةِ الله، بأنَّه قولٌ استحَقُّوا أن يُرمَوْا بغِلْظتِه؛ لأنَّهم جاهلون بالأدلة، وجاهلون بنفسِ الرَّسول وزَكائِها، وأُعقِبَ بأنَّهم جاهلون بأنَّ التَّوحيدَ هو سُنَّةُ الأنبياء، وأنَّهم لا يَتطرَّق الإشراكُ حوالَيْ قلوبِهم؛ فالمقصود الأهمُّ مِن هذا الخبرِ التَّعريضُ بالمشركين؛ إذ حاوَلوا النبيَّ ﷺ علىٰ الاعترافِ بإلهيَّةِ أصنامهم[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٥٦).

(٢) نظم الدرر (١٦/ ٥٤٦-٥٤٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٥٨).

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ قطعًا: فلا تُشرِكْ، بنى عليه قولَه: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(١).

﴿ بَلِ ﴾ لإبطالِ مضمونِ جملة ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ﴾؛ أي: بل لا تُشرِك، أو لإبطالِ مضمون جملة ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾، والفاء في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدۡ﴾ يَظهَر أنَّها تفريعٌ على التَّحذيرِ مِن حَبْطِ العملِ، ومِن الخُسْران، فحصَل باجتماعِ ﴿ بَلِ ﴾ والفاءِ في صدرِ الجملة أن جمَعْتَ غرضَينِ: غرضَ إبطالِ كلامهم، وغرضَ التَّحذيرِ مِن أحوالهم؛ وهذا وجهٌ رشيقٌ(٢).

لمَّا أخبَر أنَّ الجاهلين يأمرونه بالشرك، وأخبَر عن شناعتِه؛ أمَره بالإخلاصِ، فقال: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(٣).

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧ ﴾

ولمَّا كان التَّقدير: فما أحسَنَ هؤلاء ولا أجمَلُوا حين دعَوْك للإشراكِ بالله، وما عبَدوه حقَّ عبادتِه إذ أشرَكوا به؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٥٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٥٩).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٢٩).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٥٤٨-٥٤٩).

لمَّا جرىٰ الكلامُ علىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ خلَق كلَّ شيء، وأنَّ له مقاليدَ السَّماواتِ والأرض؛ وهو مُلْكُ عوالِمِ الدُّنيا، وذيَّل ذلك بأنَّ الذين كفَروا بدليلِ الوَحْدانيَّة هم الخاسرون، وانتقَل الكلامُ هنا إلىٰ عظَمةِ مُلْكِ اللهِ تعالىٰ في العالَمِ الأخروي الأبدي، وأن الذين كفروا بآيات الله الدالةِ علىٰ ملكوت الدنيا قد خسِروا بترك النظر، فلو اطلعوا علىٰ عظيمِ مُلكِ الله في الآخرة لقدَروه حقَّ قدره(١).

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عن المشركين أنَّهم أمَروا الرسولَ ﷺ بعبادةِ الأصنام، ثم إنَّه تعالىٰ أقام الدَّلائلَ علىٰ فسادِ قولهم، وأمَر الرسولَ ﷺ بأن يعبُدَ اللهَ ولا يعبُدَ شيئًا آخرَ سِواه؛ بيَّن أنَّهم لو عرَفوا اللهَ حقَّ معرفتِه، لَمَا جعَلوا هذه الأشياءَ الخسيسة مشارِكةً له المعبوديَّةَ، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٢).

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

ولمَّا دلَّ علىٰ عظيمِ قَدْرِه بعضُ ما يكون يومَ القيامةِ، أتبَعه ما لا يحتمِلُه القويُّ مِن أحوالِ ذلك اليومِ دليلًا آخرَ، فقال دالًّا علىٰ عظيمِ قُدْرتِه وعِزِّه وعظَمتِه: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾(٣).

انتقالٌ مِن إجمالِ عظَمةِ القدرة يوم القيامةِ إلىٰ تفصيلها؛ لِما فيه مِن تهويلٍ وتمثيلٍ لمجموعِ الأحوال يومئذٍ ممَّا يُنذِر الكافرَ، ويُبشِّر المؤمنَ، ويُذكِّر بإقامةِ العدل

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٦١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٤٧٠).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٥٥١).

والحقِّ، ثم تمثيلِ إزجاءِ[1] المشركين إلىٰ جهنَّمَ، وسَوْقِ المؤمنين إلىٰ الجنَّةِ؛ فالجملةُ مِن عطفِ القصَّة علىٰ القصَّة، ومناسبةُ العطف ظاهرة[2].

لمَّا خوَّفهم تعالىٰ مِن عظَمتِه، خوَّفهم بأحوالِ يوم القيامةِ، ورغَّبهم ورهَّبهم، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[3].

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾

ولمَّا ذكَر إقامتَهم بالحياةِ التي هي نُورُ البدَنِ، أتبَعه إقامتَهم بنُورِ جميعِ الكون ظاهرًا وباطنًا، فقال: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[4].

ولمَّا كانت النَّفخةُ لبعثِ العباد لحسابها، ناسَب أن يُذكَرَ مجيءُ رَبِّ العبادِ لفصلِ القضاء بينهم، فقال: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ولمَّا كان ذلك ربما كان بالنسبةِ إلىٰ ما وقَع فيه الحُكْمُ، وليس نصًّا في شمولِ الحُكْمِ لكلِّ عملٍ؛ نَصَّ عليه بقولِه، ذاكرًا الوفاءَ والعملَ لاقتضاءِ السِّياق ذلك؛ بذِكْرِ الكتابِ وما في حيِّزه مِن النبيِّين والشُّهداء والقضاءِ الحق، وذلك كلُّه أليَقُ بذِكْرِ

---

(١) أي: دفع وسَوق.

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٦٤).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٢٩).

(٤) نظم الدرر (١٦/ ٥٦١).

العملِ المؤسَّس علىٰ العلم، والوفاءِ الذي هو الرُّكنُ الأعظم في الحقِّ ومساقِ العلم، والعلمُ والوفاء أوفَقُ لجَعْلِ العملِ نفسِه هو الجزاءَ بأن يُصوَّرَ بما يستحِقُّه مِن الصُّوَرِ المليحة إن كان ثوابًا، والقبيحةِ إن كان عقابًا، والفرق بينه وبين العقل المؤسَّس علىٰ الشَّهوةِ وقوة الدَّاعية: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[(١)].

فيحصُلُ حُكْمٌ يُقِرُّ به الخَلْقُ، ويعترفون للهِ بالحمد والعدل، ويَعرِفون به مِن عظَمتِه وعلمه وحِكْمتِه ورحمته ما لم يخطُرْ بقلوبهم، ولا تعبِّرْ عنه ألسنتُهم؛ ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[(٢)].

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾

ولمَّا كان الأغلَبَ علىٰ هذه المقاماتِ التَّحذيرُ، قدَّم في هذه التَّوفيةِ حالَ أهلِ الغضب، فقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(٣)].

هذا تنفيذُ القضاءِ الذي جاء في قولِه: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، وقولِه: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾؛ فإنَّ عاقبةَ ذلك ونتيجتَه إيداعُ المجرمين في العقاب[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٥٦٣-٥٦٤).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٣٠).

(٣) نظم الدرر (١٦/ ٥٦٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/ ٦٨).

لمَّا شرَح أحوالَ أهلِ القيامة علىٰ سبيلِ الإجمال، فقال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾؛ بيَّن بعده كيفيَّةَ أحوالِ أهلِ العقاب، ثم كيفيَّةَ أحوالِ أهلِ الثواب، وختَم السُّورةَ[1].

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ تفصيلٌ للتَّوفية، وبيانٌ لكيفيَّتِها[2].

ثم ذكَر سبحانه تفصيلَ ما ذكَره مِن توفيةِ كلِّ نفسٍ ما كسَبتْ، فقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3].

لمَّا ذكَر تعالىٰ حُكْمَه بَيْنَ عبادِه، الذين جمَعهم في خَلْقِه ورزقه وتدبيره، واجتماعَهم في الدُّنيا، واجتماعَهم في موقفِ القيامة؛ فرَّقهم تعالىٰ عند جزائهم كما افترَقوا في الدُّنيا بالإيمانِ والكفر، والتقوىٰ والفجورِ، فقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[4].

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

ولمَّا فرَغوا مِن إهانتِهم بتبكيتهم، أنكَوْهم[5] بالأمر بالدُّخول، وعبَّر بالمبنيِّ للمفعول إشارةً إلىٰ أنَّهم وصَلوا إلىٰ أقصىٰ ما يكون مِن الذُّلِّ بحيث إنَّهم يمتثلون

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٤٧٨).

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٦٣).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٤٦).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٧٣٠).

(٥) أي: غلبوهم وذلوهم.

قولَ كلِّ قائلٍ، جلَّ أو قلَّ، فقيل في جوابِ مَن كأنَّه قال: ماذا وقَع بعد هذا التَّقريع؟ ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾[(١)].

لمَّا فرَغتْ محاوَرتُهم مع الملائكة، أُمِروا بدخول النَّار[(٢)].

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ ﴾

ولمَّا ذكَر أحوالَ الكافرين، أتبَعه أحوالَ أضدادِهم، فقال: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[(٣)].

لمَّا شرَح أحوالَ أهلِ العقاب في الآيةِ المتقدِّمة، شرَح أحوالَ أهلِ الثواب في هذه الآيةِ[(٤)].

لمَّا ذكَر فيما تقدَّم حالَ الذين كفَروا وسَوْقَهم إلىٰ جهنَّمَ، ذكَر هنا حالَ المتَّقِين وسَوْقَهم إلىٰ الجنَّة، فقال: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[(٥)].

﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤ ﴾

ولمَّا كان التَّقديرُ: فدخَلوها، عطَف عليه قولَه: ﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾[(٦)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٥٦٦).
(٢) البحر المحيط (٩/ ٢٢٤).
(٣) نظم الدرر (١٦/ ٥٦٧).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٤٧٩).
(٥) فتح القدير (٤/ ٥٤٨).
(٦) نظم الدرر (١٦/ ٥٦٩).

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه الذين ركَّب فيهم الشَّهواتِ، وما وصَلوا إليه مِن المقاماتِ؛ أتبَعهم أهلَ الكرامات، الذين لا شاغلَ لهم عن العبادات، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[(١)].

عطفٌ على ما قبله مِن ذِكْرِ أحوالِ يوم القيامةِ التي عُطِف بعضُها على بعضٍ؛ فإنَّ مِن جملةِ تلك الأحوال حَفَّ الملائكةِ حول العرش[(٢)].

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٥٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٧٤).

سورة غافر

﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾

ولمَّا تقدَّم آخِرَ تلك أنَّ كلمةَ العذاب حَقَّتْ علىٰ الكافرين، فكان ذلك ربما أيأس مَن تلبَّس بكُفْرٍ مِن الفلاح، وأوهَمه أنَّ انسلاخَه مِن الكفر غيرُ ممكنٍ، وكان الغفرانُ - وهو محوُ الذَّنْبِ عينًا وأثرًا - مترتِّبًا علىٰ العلم به، وكان التمكُّنُ مِن الغفران وما رُتِّب عليه مِن الأوصافِ نتيجةَ العِزَّةِ؛ دلَّ عليهما مستعطِفًا لكلِّ عاصٍ ومقصِّرٍ بقولِه: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾(١).

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾

ولمَّا تبيَّن ما للقرآن مِن البيانِ الجامع بحسَبِ نزوله جوابًا لِما يَعرِضُ لهم مِن الشُّبَه، فدَلَّ بإزاحته كلَّ علَّةٍ علىٰ ما وصَف سبحانه به نفسَه المقدَّس مِن العِزَّةِ والعلم بيانًا لا خَفاءَ في شيءٍ منه؛ أنتج قولُه ذمًّا لِمَن يريدُ إبطالَه وإخفاءه: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾(٢).

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٥).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٧).

استئنافٌ بيانيٌّ نشأ مِن قولِه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ المقتضي أنَّ كونَ القرآنِ منزَّلًا مِن عندِ الله أمرٌ لا ريبَ فيه؛ كما تقدم، فينشأ في نفوسِ السامعين أن يقولوا: فما بالُ هؤلاء المجادِلين في صِدْقِ نسبةِ القرآن إلىٰ الله لم تُقنِعْهم دلائلُ نزولِ القرآن مِن الله؟! فأجيبَ بأنَّه ما يجادِلُ في صِدْقِ القرآن إلا الذين كفَروا بالله[1].

لمَّا قرَّر أنَّ القرآنَ كتابٌ أنزَله ليُهتدىٰ به في الدِّين، ذكَر أحوالَ مَن يجادِلُ لغرضِ إبطالِه، وإخفاءِ أمرِه، فقال: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾[2].

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾

ولمَّا نهىٰ عن الاغترارِ بما لا قوَّةَ لأحدٍ علىٰ صرفِه مِن نفسه إلا بتأييدٍ مِن الله، علَّله بما يحقِّقُ معنىٰ النهيِ مِن أنَّ التقلُّبَ وما يُثمِره لا يصحُّ أن يكونَ معتمَدًا ليزهَدَ فيه كلُّ مَن سَمِع هاتينِ الآيتينِ، فقال مشيرًا بتأنيثِ الفعل إلىٰ ضَعْفِهم عن المقاوَمة، وتَلاشيهم عند المصادَمة، وإن كانوا في غايةِ القوَّةِ بالنسبة إلىٰ أبناءِ جنسهم: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾[3].

جملةُ ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾ باعتبارِ التفريع الواقع عَقِب هاتِه الجُمَلِ مِن قولِه: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ فالمعنىٰ: سبقَتْهم أُمَمٌ بتكذيبِ الرُّسُل كما كذَّبوك، وجادَلوا بالباطل

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٨١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٤٨٥).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٨).

رُسُلَهم كما جادَلك هؤلاء، فأخَذتُهم، فكيف رأيتَ عقابي إياهم؟! كذلك مَثَلُ هؤلاء في إمهالِهم إلىٰ أنْ آخُذَهم[١].

لمَّا كان جدالُ الكفار ناشئًا عن تكذيبِ ما جاء به الرسولُ ﷺ مِن آياتِ الله، ذكَر مَن كذَّب قبلهم مِن الأُمَمِ السالفة، وما صار إليه حالُهم مِن حلولِ نَقِماتِ الله بهم؛ ليرتدِعَ بهم كفارُ مَن بُعِث الرسولُ ﷺ إليهم: فبدأ بقومِ نوحٍ؛ إذ كان عليه السلام أولَ رسولٍ في الأرض، وعطَف علىٰ قومِه الأحزابَ، وهم الذين تحزَّبوا علىٰ الرُّسُل، ولم يَقبَلوا ما جاؤوا به مِن عندِ الله؛ ومنهم: عادٌ، وثمودُ، وفِرْعونُ وأتباعه، وقدَّم الهَمَّ بالأخذِ علىٰ الجدالِ بالباطل؛ لأنَّ الرُّسُلَ لمَّا عصَمهم اللهُ منهم أن يقتُلوهم، رجَعوا إلىٰ الجدالِ بالباطل[٢].

ثم بيَّن حالَ مَن كان قبلهم، وأنَّ هؤلاء سلكوا سبيلَ أولئك في التَّكذيبِ، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[٣].

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فحَقَّتْ عليهم كلمةُ الله لأخذهم علىٰ هذا الجدال إنَّهم أصحابُ النارِ التي جادَلوا فيها؛ عطَف عليه قولَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٨٧).

(٢) البحر المحيط (٩/ ٢٣٦).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٥٢).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ١٠).

الواوُ عاطفةٌ على جملةِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾؛ أي: ومثلَ ذلك الحقِّ حقَّت كلماتُ ربِّك[1].

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾

ولمَّا بيَّن عداوةَ الكفارِ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعِهم رضي الله عنهم بقولِه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وما بعده، وكان ذلك أمرًا غائظًا مُحزِنًا موجِعًا، وختَم ذلك ببيانِ حقوقِ كلمةِ العذاب عليهم تسليةً لِمَن عادَوْهم فيه سبحانه؛ زاد في تسليتِهم شرحًا لصدورهم وتثبيتًا لقلوبِهم ببيانِ وَلايةِ الملائكة المقرَّبينَ لهم، مع كونِهم أخَصَّ الخَلْقِ بحَضْرتِه سبحانه، وأقربَهم مِن محلِّ أُنْسِه وموطنِ قُدْسِه، وبيانِ حقوقِ رحمتِه للذين آمَنوا بدعاءِ أهل حَضْرته لهم، فقال، أو يقال: إنَّه لمَّا بيَّن حقوقَ كلمةِ العذاب، كان كأنَّه قيل: فكيف النجاةُ؟ قيل: بإيقاعِ الإيمان بالتوبة عن الكفران؛ ليكونَ موقعُه أهلًا للشفاعةِ فيه مِن أهلِ الحَضْرةِ العليَّة، فيُغفَرَ له إن تابَ ما قدَّم مِن الكفرِ، فقال مظهرًا لشرفِ الإيمان وفضلِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[2].

استئنافٌ ابتدائيٌّ، اقتضاه الانتقالُ مِن ذِكْرِ الوعيد المؤذِنِ بذَمِّ الذين كفَروا إلى ذِكْرِ الثناء على المؤمنين؛ فإنَّ الكلامَ الجاريَ على ألسنةِ الملائكة مثلُ الكلام الجاري على ألسنةِ الرُّسُلِ؛ إذ الجميعُ مِن وحيِ الله، والمناسبةُ المضادَّةُ بَيْنَ الحالينِ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٨٧).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ١١-١٢).

والمقالينِ. ويجوز أن يكونَ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن وعيدِ المجادِلين في آياتِ الله أن يَسأَلَ سائلٌ عن حالِ الذين لا يجادِلون في آيات الله فآمَنوا بها[١].

لمَّا بيَّن أنَّ الكفارَ يبالغون في إظهارِ العداوة مع المؤمنين، بيَّن أنَّ أشرَفَ طبقاتِ المخلوقات هم الملائكةُ الذين هم حمَلةُ العرشِ، والحافُّون حولَ العرش يبالغون في إظهارِ المحبَّة والنُّصْرة للمؤمنين، كأنَّه تعالىٰ يقول: إن كان هؤلاء الأراذلُ يبالغون في العداوةِ، فلا تُبالِ بهم، ولا تلتفِتْ إليهم، ولا تُقِمْ لهم وزنًا؛ فإنَّ حمَلةَ العرشِ معك، والحافُّون مِن حولِ العرش معك ينصُرونك[٢].

لمَّا ذكَر جدالَ الكفارِ في آياتِ الله وعصيانَهم، ذكَر طاعةَ هؤلاء المصطفَيْنَ مِن خَلْقِه؛ وهم حمَلةُ العرش، ومَن حوله، وهم الحافُّون به مِن الملائكة[٣].

ثم ذكَر أحوالَ حمَلةِ العرش ومَن حوله، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾[٤].

﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨﴾

ولمَّا كانت النجاةُ مِن العذاب لا تستلزِمُ الثوابَ، قالوا مكرِّرين صفةَ الإحسانِ زيادةً في الرِّقَّةِ في طلبِ الامتنان: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٨٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٤٨٧).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٢٣٧).

(٤) فتح القدير (٤/ ٥٥٣).

(٥) نظم الدرر (١٧/ ١٤-١٥).

إعادةُ النداء في خلالِ جُمَلِ الدعاء اعتراضٌ للتأكيدِ بزيادةِ التضرُّع، وهذا ارتقاءٌ مِن طلبِ وِقايتِهم العذابَ إلىٰ طلبِ إدخالِهم مكانَ النعيم[1].

اعلَمْ أنَّهم لمَّا طلَبوا مِن اللهِ إزالةَ العذاب عنهم، أردَفوه بأن طلَبوا مِن اللهِ إيصالَ الثواب إليهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٩)﴾

ولمَّا كان الإنسانُ قد يُغفَر له ويُكرَم، وفيه مِن الأخلاق ما ربما حمَله علىٰ بعضِ الأفعالِ الناقصَّة؛ دعَوْا لهم بالكمالِ، فقالوا: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3].

أعقَبوا بسؤالِ النَّجاة مِن العذابِ والنعيمِ بدار الثواب بدعاءٍ بالسلامة مِن عمومِ كلِّ ما يَسُوءُهم يومَ القيامةِ بقولِهم: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وهو دعاءٌ جامع؛ إذ السيئاتُ هنا جمعُ سيئة، وهي الحالةُ أو الفَعْلة التي تسُوءُ مَن تعلَّقتْ به[4].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ (١٠)﴾

ولمَّا أتَمَّ الذين آمَنوا، فتشوَّفتِ النفسُ إلىٰ معرفةِ ما لأضدادهم؛ قال مستأنِفًا مؤكِّدًا لإنكارِهم هذه المناداةَ بإنكارِ يومها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٨٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٤٩٢).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ١٥-١٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/ ٩٣).

(٥) نظم الدرر (١٧/ ١٧).

مقابَلةُ سؤالِ الملائكة للمؤمنين بالنَّعيم الخالص يومَ القيامةِ بما يخاطَبُ به المشركون يومئذٍ مِن التوبيخِ والتنديم، وما يراجِعون به مِن طلَبِ العفو: مؤذِنةٌ بتقديرِ معنىٰ الوعدِ باستجابةِ دعاء الملائكة للمؤمنين؛ فَطَيُّ ذِكْرِ ذلك ضربٌ مِن الإيجاز، والانتقالُ منه إلىٰ بيانِ ما سيحُلُّ بالمشركين يومئذٍ ضربٌ مِن الأسلوبِ الحكيم؛ لأنَّ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ﴾ الآياتِ، مستأنَفٌ استئنافًا بيانيًّا، كأنَّ سائلًا سأل عن تقبُّلِ دعاءِ الملائكة للمؤمنين، فأجيبَ بأنَّ الأهَمَّ أن يَسأَلَ عن ضدِّ ذلك، وفي هذا الأسلوبِ إيماءٌ ورمزٌ إلىٰ أنَّ المُهِمَّ مِن هذه الآياتِ كلِّها هو موعظةُ أهلِ الشرك؛ رجوعًا إلىٰ قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾(١).

لمَّا عاد إلىٰ شرحِ أحوالِ الكافرين المجادِلين في آياتِ الله، وهم الذين ذكَرهم اللهُ في قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ بيَّن أنَّهم في القيامةِ يعترفون بذُنوبِهم، واستحقاقِهم العذابَ الذي يَنزِل بهم، ويَسألون الرجوعَ إلىٰ الدُّنيا ليَتلافَوْا ما فرَطَ منهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾(٢).

لمَّا ذكَر شيئًا مِن أحوالِ المؤمنين، ذكَر شيئًا مِن أحوالِ الكافرين، وما يَجري لهم في الآخرةِ مِن اعترافِهم بذُنوبِهم، واستحقاقِهم العذابَ، وسؤالِهم الرجوعَ إلىٰ الدُّنيا(٣).

شروعٌ في بيانِ أحوالِ الكفَرةِ بعد دخولِ النار بعدما بُيِّنَ فيما سبَق أنَّهم أصحابُ النار(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٩٤-٩٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٤٩٣).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٢٤٠).

(٤) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٦٨).

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١﴾

ولمَّا كان مِن أعظَمِ ذنوبِهم إنكارُ البعث، وكانوا قد استَقرَوُا[1] العوائدَ، وسبَروا ما جرَتْ به الأقدارُ في الدهورِ والمدائد[2]: مِن أنَّ كلَّ ثانٍ لا بد له مِن ثالثٍ، وكان الإحياءُ لا يُطلَق عُرْفًا إلا مَن كان عن موتٍ؛ حكىٰ سبحانه جوابَهم بقولِه الذي مَحَطُّه الإقرارُ بالبعث، والترفُّق بالاعتراف بالذَّنب حيث لا ينفعُ لفواتِ شرطِه -وهو الغيب-: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾[3].

جوابٌ عن النداء الذي نُودُوا به مِن قِبَلِ الله تعالىٰ، فحكىٰ مقالَهم علىٰ طريقةِ حكاية المحاوَرات: بحذفِ حرف العطف، طَمِعوا أن يكونَ اعترافُهم بذنوبهم وسيلةً إلىٰ مَنْجِهم خروجًا مِن العذاب خروجًا ما ليَستريحوا منه، ولو بعضَ الزمن؛ وذلك لأنَّ النداءَ الموجَّهَ إليهم مِن قِبَلِ اللهِ أوهَمهم أنَّ فيه إقبالًا عليهم[4].

وجهُ اتصالِ هذه بما قبلها: أنَّهم كانوا يُنكِرون البعثَ، وعظَّم مَقْتُهم أنفسَهم هذا الإنكارَ، فلمَّا مقَتوا أنفسَهم ورأَوْا حزنًا طويلًا، رجَعوا إلىٰ الإقرار بالبعث، فأقَرُّوا أنَّه تعالىٰ أماتهم اثنتين، وأحياهم اثنتين؛ تعظيمًا لقُدْرتِه، وتوسُّلًا إلىٰ رِضاه، ثم أطمَعوا أنفسَهم بالاعتراف بالذُّنوب أن يُرَدُّوا إلىٰ الدُّنيا؛ أي: إن رجَعْنا إلىٰ الدُّنيا ودُعِينا للإيمان، بادَرْنا إليه[5].

---

(١) أي: تتبعوا.

(٢) لعله يقصد: المدد الطويلة.

(٣) نظم الدرر (١٧/ ١٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/ ٩٧).

(٥) البحر المحيط (٩/ ٢٤١).

ثم أخبر سبحانه عمَّا يقولون في النار، فقال: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾[1].

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

ولمَّا كان الجوابُ قطعًا: لا سبيلَ إلىٰ ذلك، علَّله بقولِه: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾[2].

عدَل عن جوابِهم بالحرمان مِن الخروج إلىٰ ذِكْرِ سببِ وقوعهم في العذاب، وإذ قد كانوا عالِمين به حين قالوا: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾، كانت إعادةُ التوقيفِ عليه بعد سؤالِ الصَّفْحِ عنه كنايةً عن استدامتِه، وعدمِ استجابة سؤالهم الخروجَ منه علىٰ وجهٍ يُشعِرُ بتحقيرهم، وزِيدَ ذلك تحقيقًا بقولِه: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾[3].

ثم أجاب اللهُ سبحانه عن قولهم هذا بقولِه: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾[4].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾

ولمَّا قصَر الحُكْمَ عليه، دلَّ علىٰ ذلك بقولِه ذاكرًا مِن آياتِ الآفاق العُلْوية ما يرُدُّ الموفَّقَ عن غيِّه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[5].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٥٥٥).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ١٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٩٩-١٠٠).

(٤) فتح القدير (٤/ ٥٥٥).

(٥) نظم الدرر (١٧/ ٢٠-٢١).

هذا استئنافٌ ابتدائيٌّ، إقبالٌ على خطابِ الرسول ﷺ والمؤمنين بعد أن انقضى وصفُ ما يُلاقي المشركون مِن العذاب، وما يَدْعون مِن دعاءٍ لا يستجاب؛ وقرينةُ ذلك قولُه: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ١٤﴾، ومناسبةُ الانتقال هي وَصْفا ﴿ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾؛ لأنَّ جملةَ ﴿يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ تناسب وَصْفَ العُلُوِّ، وجملة ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ تناسب وَصْفَ الكبيرِ؛ بمعنى الغنيِّ المطلَق[(١)].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا ذكَر ما يوجِبُ التهديدَ الشديد في حقِّ المشركين، أردَفه بذِكْرِ ما يدلُّ على كمالِ قُدْرتِه وحِكْمته؛ ليَصِيرَ ذلك دليلًا على أنَّه لا يجوز جَعْلُ هذه الأحجارِ المنحوتة والخُشُبِ المصوَّرة شُركاءَ لله تعالى في المعبوديَّةِ، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[(٢)].

﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ١٤﴾

ولمَّا كان كلٌّ مِن الناس يَدَّعي أنَّه لا يَعدِل عن الدليل، وكان كلُّ أحدٍ مأمورًا بالنظرِ في الدليل، مأمورًا بالإنابةِ لِما دلَّ عليه مِن التوجُّهِ إلى الله وحده؛ كان ذلك سببًا في معرفةِ الكلِّ التوحيدَ الموجِبَ لاعتقادِه القدرةَ التامة، الموجِبَ لاعتقادِ البعثِ؛ فكان سببًا لإخلاصِهم، فقال تعالى مسبِّبًا عنه: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[(٣)].

تفريعٌ على ما شاهَدوا مِن الآيات، وما أُفِيضَ عليهم مِن الرِّزق، وعلى أنَّهم المرجوون للتذكُّرِ؛ أي: إذ كنتم بهذه الدرجةِ، ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٠٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٤٩٦).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٢٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٠٤).

ثم لمَّا ذكَر سبحانه ما نصَبه مِن الأدلَّةِ علىٰ التَّوحيد، أمَر عبادَه بدعائه، وإخلاصِ الدِّين له، فقال: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[1].

ولمَّا كانت الآياتُ تُثمِر التذكُّرَ، والتذكُّرُ يوجِب الإخلاصَ لله؛ رتَّب الأمرَ علىٰ ذلك بالفاءِ الدالَّة علىٰ السَّببية، فقال: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[2].

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾

ولمَّا كان الإخلاصُ لا يَتأتَّىٰ إلا ممَّن رفَعه إشراقُ الرُّوح عن كُدُوراتِ الأجسام، وطارت به أنوارُها عن حضيضِ ظُلُماتِ الجهل إلىٰ عرشِ العِرفان، فصار إذ كان المَلِكُ الديَّان سَمْعَه الذي يَسمَع به: بمعنىٰ أنَّه لا يفعل بشيءٍ مِن هذه الجوارحِ إلا ما أمَره به سبحانه، يتصرف في الأكوان بإذن الفتاح العليم، تكسِبُ القلوبُ مِن ضياء أنواره ويَحيَىٰ ميتُ الهمم بصافي أسراره؛ نبَّه سبحانه علىٰ ذلك حثًّا عليه وتشويقًا إليه، بقولِه -ممثِّلًا بما يَفهَمه العبادُ، مخبِرًا عن مبتدأٍ محذوف تقديره: هو-: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[3].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر مِن صفاتِ كبريائه وإكرامِه كونَه مُظهِرًا للآيات، مُنزِلًا للأرزاق؛ ذكَر في هذه الآيةِ ثلاثةً أخرىٰ مِن صفاتِ الجلال والعظَمة؛ وهو قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾[4].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٥٥٦).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٣٤).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٢٣-٢٤).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٤٩٧).

ثم ذكر مِن جلالِه وكماله ما يقتضي إخلاصَ العبادة له، فقال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِى ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[1].

﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾

ولمَّا أفهَمَ ذلك عدمَ الحجابِ مِن بيوتٍ أو جبال، أو أشجارٍ أو تلال، أو غيرِ ذلك مِن سائرِ ذواتِ الظِّلال؛ نبَّه عليه في قولِه مُعِيدًا ذِكْرَ اليومِ لأنَّه أهولُ له: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[2].

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

ولمَّا أخبَر عن إذعانِ كلِّ نفسٍ بانقطاع الأسباب، أخبَرهم بما يَزيدُ رُعْبَهم، ويَبعَث رَغَبَهم ورَهَبَهم -وهو نتيجةُ تفرُّدِه بالمُلْكِ-؛ قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[3].

لا ريبَ في أنَّ هذه الجُمَلَ الثلاث متصلةٌ بالمقولِ الصادر مِن جانبِ الله تعالىٰ، سواءٌ كان مجموعُ الجملتينِ السابقتين مقولًا واحدًا أم كانت الثانيةُ منهما مِن مقولِ أهل المَحشَر، وترتيبُ هذه الجُمَلِ الخمس: هو أنَّه لمَّا تقرَّر أنَّ المُلْكَ للهِ وَحْدَه في ذلك اليومِ بمجموعِ الجملتين السابقتين، عُدِّدتْ آثارُ التصرف بذلك المُلْكِ؛ وهي: الحُكْمُ علىٰ العباد بنتائجِ أعمالهم، وأنَّه حَكَمٌ عادل لا يشُوبُه ظُلْمٌ، وأنَّه عاجلٌ لا يُبطِئ؛ لأنَّ اللهَ لا يَشغَله عن إقامةِ الحق شاغلٌ، ولا هو بحاجةٍ إلىٰ التدبُّر والتأمُّل في طُرُقِ قضائه، وعلىٰ هذه النتائجِ جاء ترتيبُ ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡ﴾،

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٣٤).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٢٧).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٢٨).

ثـم ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾، ثـم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، وأمَّـا مواقـعُ هاتـه الجُمَـلِ الثلاث، فإنَّ جملـةَ ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ واقعـةٌ موقـعَ البيـان لِمـا في جملةِ ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ وجوابِها مِن إجمالٍ، وجملةَ ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ واقعةٌ موقـعَ بدلِ الاشتمال مِن جملةِ ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾؛ أي: جزاءً عـادلًا لا ظُلْمَ فيه؛ أي: ليس فيه أقلُّ شَوْبٍ مِن الظُّلْمِ، حسبما اقتضاه وقوعُ النَّكرة بعد «لا» النافيـةِ للجنس، وجملـةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ واقعـةٌ موقـعَ التعليـل لوقـوعِ الجزاء في ذلك اليومِ، ولانتفاءِ الظُّلْمِ عن ذلك الجزاءِ، وتأخيرُها عن تَيْنِكَ الجملتينِ مشيرٌ إلىٰ أنَّها علَّةٌ لهما(١).

لمَّـا شـرَح صـفاتِ القهـر في ذلـك اليـومِ، أردَفـه ببيـانِ صـفاتِ العـدل والفضـل في ذلـك اليـومِ، فقـال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(٢).

إمَّـا مِـن تتمَّـةِ الجـواب لبيـانِ حُكْـمِ اختصـاصِ المُلْـكِ بـه تعـالىٰ، ونتيجتُـه التي هـي الحُكْـمُ السَّـوِيُّ، والقضـاءُ الحـقُّ، أو حكايـةً لِمـا سيقوله تعـالىٰ يومئـذٍ عَقِيـبَ السُّؤالِ والجواب(٣).

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا تَمَّ هذا علىٰ هذا الوجهِ المَهُول، وكان يومُ القيامةِ لـه أسـماءٌ تـدُلُّ علىٰ أهوالِـه باعتبارِ مواقفِه وأحواله؛ منها: يومُ البعث؛ وهو ظاهرٌ، ومنها: يومُ التَّلاقِ؛ لِما تقدم،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١١٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٠١).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٧١).

ومنها: يومُ التغابُنِ؛ لغَبْنِ أكثَرِ مَن فيه خَسارته، ومنها: يومُ الآزِفة؛ لقُرْبِه وسرعةِ أخذِه، وكان كأنَّه قيل خطابًا للنبيِّ ﷺ: وأنت ممَّن ألقَيْنا إليك هذا الرُّوحَ الأعظم مِن أمرِنا، فأنذِرْهم ما مضىٰ مِن يومِ التلاقي وما عقَّبْناه به؛ عطَف عليه قولَه زيادةً في بيانِ هولِه، إعلاما بأنَّه مع ثُبوتِه وثبوت التَّلاقي فيه قريبٌ، تحذيرًا مِن تزيينِ إبليسَ للشهوات، وتقريره بالتسويفِ بالتوبة: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾(١).

الأظهَرُ أن يكونَ قولُه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ وما بعده معترِضًا بَيْنَ جملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾، وجملةِ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾، والمناسبةُ أنَّ ذِكْرَ الحسابِ به يقتضي التذكيرَ بالاستعداد ليومِ الحساب؛ وهو يومُ الآزِفة(٢).

ثم أمَر اللهُ سبحانه رسولَه ﷺ بإنذارِ عباده، فقال: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾(٣).

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا كانت الشفاعةُ إنَّما تقعُ وتنفع بشرطِ براءةِ المشفوع له مِن الذَّنْبِ: إمَّا بالاعتراف بما نُسِب إليه والإقلاعِ عنه، وإمَّا بالاعتذار عنه، وكان ذلك إنَّما يَجري عند المخلوقين علىٰ الظاهرِ؛ ولذلك كانوا ربما وقَع لهم الغلَطُ فيمَن لو عَلِموا باطنَه، لَمَا قَبِلوا الشفاعةَ فيه؛ علَّل تعالىٰ ما تقدَّم بعلمِه أنَّ المشفوعَ له ليس بأهلِ لقَبول الشفاعة فيه -لإحاطةِ علمه-، فقال: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٣٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ١١٣).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٥٧).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٣٢).

يجوز أن تكونَ جملةُ ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ ﴾ خبرًا عن مبتدأٍ محذوف، هو ضميرٌ عائد إلىٰ اسمِ الجلالة مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾ علىٰ نحوِ ما قُرِّر قبله في قولِه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ﴾، ومجموعُ الظاهر والمقدَّر استئنافٌ للمبالغة في الإنذار؛ لأنَّهم إذا ذُكِّروا بأنَّ اللهَ يَعلَم الخفايا، كان إنذارًا بالغًا يقتضي الحَذَرَ مِن كلِّ اعتقادٍ أو عملٍ نهاهم الرسولُ ﷺ عنه، فبعد أن أيأسهم مِن شفيعٍ يسعىٰ لهم في عدمِ المؤاخذة بذنوبهم، أيأسهم مِن أن يَتوهَّموا أنَّهم يستطيعون إخفاءَ شيءٍ مِن نواياهم أو أدنىٰ حركاتِ أعمالهم علىٰ ربِّهم، ويجوز أن تكونَ خبرًا ثانيًا عن اسمِ ﴿إِنَّ﴾ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾، وما بينهما اعتراضٌ -كما مرَّ- علىٰ كِلا التقديرينِ(١).

ثم وصَف سبحانه شمولَ علمِه لكلِّ شيءٍ، وإن كان في غايةِ الخَفاء، فقال: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾(٢).

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٢٠﴾

ولـمَّا كان العفوُ عن الظالم الذي لا يَرجِعُ عن ظُلْمِه نقصًا، لكونِه لا حِكْمةَ فيه؛ عبَّر بالاسمِ الأعظَمِ في جملةٍ حاليَّة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١١٥).

(٢) فتح القدير (٤/ ٥٥٧).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٣٣).

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ٢١ ﴾

ولمَّا وعَظهم سبحانه بصادقِ الأخبار عن قومِ نوحٍ ومَن تَبِعهم مِن الكفار، وختَمه بالإنذار بما يقع في دارِ القرار للظالمين الأشرار؛ أتبَعه الوعظَ والتخويف بالمشاهدة مِن تتبُّعِ الديار والاعتبار، بما كان لهم فيها مِن عجائبِ الآثار: مِن الحصونِ والقصور، وسائرِ الأبنية الصِّغار والكبار، فقال -موبِّخًا ومقرِّرًا، عاطفًا على ما تقديرُه: ألم يتَّعِظوا بما أخبَرْناهم به عن الظالمين الأوَّلين ومن تَبِعهم مِن الإهلاك في الدُّنيا، المتصلِ بالشقاء في الأخرى-: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾[1].

انتقالٌ مِن إنذارِهم بعذابِ الآخرة على كفرِهم إلى موعظتِهم وتحذيرهم مِن أن يحُلَّ بهم عذابُ الدُّنيا قبل عذابِ الآخرة؛ كما حَلَّ بأُمَمٍ أمثالِهم؛ فالواوُ عاطفةٌ جملةَ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على جملة ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ﴾[2].

لمَّا خوَّفهم سبحانه بأحوالِ الآخرة، أردَفه ببيانِ تخويفِهم بأحوالِ الدُّنيا، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ١١٩).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٥٩).

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه أَخْذَهم، ذكَر سببَه بما حاصلُه أنَّ الاستهانةَ بالرسول استهانةٌ بمَن أرسَله في قولِه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1].

في هذا تفصيلٌ للإجمالِ الذي في قولِه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾[2].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا كان ذلك عجَبًا لأنَّ البيِّناتِ تَمنَع مِن الكفرِ، فكان تقديرًا لِمَن يُنكِر الإرسالَ علىٰ هذه الصفةِ: فلقد أرسَلْناهم كذلك، وكان موسىٰ عليه السلام مِن أجَلِّ المرسَلِينَ آياتٍ؛ عطَف علىٰ ذلك -تسليةً ونذارة لِمَن أدبَر، وإشارةً لِمَن استبصَر- قولَه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[3].

هذا ذِكْرُ فريقٍ آخرَ مِن الأُمَمِ لم يَشهَدِ العربُ آثارهم؛ وهم: قومُ فِرْعونَ أقباطُ مِصْرَ، وتقدَّم نظيرُ هذه الآيةِ في أواخرِ سورة «هود»، وتقدَّم ذِكْرُ هامانَ -وهو لقبُ وزيرِ فِرْعونَ- في سورةِ «القَصص»، وفي هذه القصَّةِ -فوق أنَّها تَزيدُ علىٰ ما أُجمِلَ مِن قَصصِ أُمَمٍ أخرىٰ- أنَّ فيها عِبرتينِ: عِبْرةً بكيدِ المكذِّبين وعنادِهم ثم هلاكِهم، وعبرةً بصبرِ المؤمنين وثباتِهم ثم نصرِهم، وفي كلتا العِبرتينِ وعيدٌ ووعد[4].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٤٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٢١).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٤٧-٤٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٢٢).

لمَّا سلَّىٰ رسولَه ﷺ بذِكْرِ الكفارِ الذين كذَّبوا الأنبياءَ قبله، وبمشاهَدةِ آثارهم؛ سلَّاه أيضا بذِكْرِ موسىٰ عليه السلام، وأنَّه مع قوَّةِ معجزاتِه بعَثه إلىٰ فِرْعونَ وهامانَ وقارونَ، فكذَّبوه وكابَروه[(١)].

ابتدأ تعالىٰ قصَّةَ موسىٰ عليه السلام مع فِرْعونَ تسليةً للرسول عليه الصلاة والسلام، ووعيدًا لقُريشٍ أن يحُلَّ بهم ما حَلَّ بفِرْعونَ وقومِه مِن نَقِماتِ الله، ووعدًا للمؤمنين بالظَّفَرِ والنَّصر وحُسْنِ العاقبة، وآياتُ موسىٰ عليه السلام كثيرةٌ، والذي تحدَّىٰ به مِن المُعجِزِ: العصا، واليدُ[(٢)].

ثم ذكَر سبحانه قصَّةَ موسىٰ وفِرْعونَ ليَعتبروا، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾[(٣)].

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾

ولمَّا ذكَر الرسولَ، ذكَر المرسَلَ إليهم، فقال: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾

ولمَّا أجمَل أمرَه كلَّه في هاتينِ الآيتينِ، شرَع في تفصيلِه، فقال مشيرًا إلىٰ مبادرتِهم إلىٰ العنادِ مِن غيرِ توقُّفٍ أصلًا، التي أشار إليها حذفُ المبتدأ والاقتصارُ علىٰ الخبَرِ الذي هو مَحطُّ الفائدةِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٠٦).

(٢) البحر المحيط (٩/ ٢٤٩).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٥٩).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٤٩).

رمَوْهُ ابتداءً بأنَّه ساحرٌ كذَّاب؛ توهُّمًا أنَّهم يُلقِمونه حَجَرَ الإحجام، فلمَّا استمَرَّ علىٰ دَعْوتِــــه، وجـــاءهم ﴿بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، ووجهُ وقوعِ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ بعد قوله: ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ مع اتحادِ مُفاد الجملتين؛ فإنَّ مُفادَ جملةِ ﴿جَآءَهُم﴾ مساوٍ لِمُفاد جملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ومُفادَ قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مساوٍ لِمُفاد قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: أنَّ الأولَ للتنويهِ برسالة موسىٰ، وعظَمةِ موقفه أمامَ أعظَمِ ملوكِ الأرض يومئذٍ. وأمَّا قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، فهو بيانٌ لدَعْوتِه إياهم وما نشأ عنها؛ وتقديرُ الكلام: أرسَلْنا موسىٰ بآياتِنا إلىٰ فِرْعونَ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، فسُلِكتْ في هذا النَّظْمِ طريقةُ الإطنابِ للتنويهِ والتشريف(١).

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾

ولمَّا أخبَرَ تعالىٰ بفعلِه بمَن تابَع موسىٰ عليه السلام، أخبَر عن فعلِه معه بما عُلِم به أنَّه عاجزٌ، فقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾(٢).

عطفُ ﴿وَقَالَ﴾ بالواوِ يدلُّ علىٰ أنَّه قال هذا القولَ في موطنٍ آخَرَ، ولم يكُنْ جوابًا لقولهم: ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، وفي هذا الأسلوبِ إيماءٌ إلىٰ أنَّ فِرْعونَ لم يَعمَلْ بإشارةِ الذين قالوا: ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، وأنَّه سكَت ولم يُراجِعْهم بتأييدٍ ولا إعراض، ثم رأىٰ أنَّ الأجدرَ قتلُ موسىٰ دُونَ أن يقتُلَ الذين آمنوا معه؛ لأنَّ قَتْلَه أقطَعُ لفتنتِهم(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٢٢).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٥٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٢٤).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ٢٧﴾

ولمَّا أعلَمَ بمقالة العدوِّ، أتبعه الإعلامَ بقول الوليِّ، فقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[(١)].

هذا حكايةُ كلامٍ صدَر مِن موسىٰ عليه السلام في غيرِ حضرة فِرْعونَ لا محالةَ؛ لأنَّ موسىٰ عليه السلام لم يكُنْ ممَّن يضُمُّه ملأٌ استشارة فِرْعونَ حين قال لقومه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾، ولكنَّ موسىٰ عليه السلام لمَّا بلَغه ما قاله فِرْعونُ في ملئِه، قال موسىٰ في قومه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾؛ ولذلك حُكِي فعلُ قوله معطوفًا بالواو؛ لأنَّ ذلك القولَ لم يقَعْ في محاورةٍ مع مقالِ فِرْعونَ[(٢)].

لمَّا حكىٰ عن فِرْعونَ هذا الكلامَ، حكىٰ بعده ما ذكَره موسىٰ عليه السلام، فحكىٰ عنه أنَّه قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[(٣)].

لمَّا سَمِع موسىٰ بمقالةِ فِرْعونَ، استعاذَ بالله مِن شرِّ كلِّ متكبِّرٍ منكِرٍ للمَعاد[(٤)].

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ٢٨﴾

ولمَّا انقضىٰ كلامُ الرأسين، وكانت عادةُ مَن لم يكُنْ لهم نظامٌ مِن الله رابطٌ أنَّ قلوبَهم لا تكاد تجتمع، وأنَّه لا بد أن يجاهِرَ بعضُهم بما عنده، ولو عظُمَ شأنُ المَلِك القائم بأمرهم، واجتهَد في جمعِ مفترِقِ علَنِهم وسِرِّهم؛ قال تعالىٰ مخبِرًا عن كلامِ بعضِ

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٥٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٢٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٠٧).

(٤) البحر المحيط (٩/ ٢٥١).

الأتباع في بعضِ ذلك: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[(١)].

عطفُ قولِ هذا الرجُلِ يقتضي أنَّه قال قولَه هذا في غيرِ مجلسِ شورىٰ فِرْعونَ؛ لأنَّه لو كان قولُه جاريًا مَجرىٰ المحاوَرة مع فِرْعونَ في مجلسِ استشارته، أو كان أجاب به عن قولِ فِرْعونَ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾؛ لكانت حكايةُ قوله بدُونِ عطفٍ على طريقة المحاوَرات، والذي يظهر أنَّ اللهَ ألهَمَ هذا الرجُلَ بأن يقولَ مقالتَه إلهامًا كان أولَ مظهرٍ مِن تحقيقِ الله لاستعاذة موسىٰ بالله، فلمَّا شاع توعُّدُ فِرْعونَ بقتلِ موسىٰ عليه السلام، جاء هذا الرجُلُ إلىٰ فِرْعونَ ناصحًا، ولم يكُنْ يتَّهِمُه فِرْعونُ؛ لأنَّه مِن آلِه[(٢)].

لمَّا حكىٰ عن موسىٰ عليه السلام أنَّه ما زاد في دفعِ مكرِ فِرْعونَ وشَرِّه علىٰ الاستعاذة بالله، بيَّن أنَّه تعالىٰ قيَّض إنسانًا أجنبيًّا غيرَ موسىٰ حتىٰ ذَبَّ عنه علىٰ أحسَنِ الوجوه، وبالَغ في تسكينِ تلك الفتنة، واجتهَد في إزالةِ ذلك الشرِّ[(٣)].

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾

ولمَّا خيَّلهم بهذا الكلامِ الذي يمكِنُه توجيهُه، شرَع في وعظِهم؛ إظهارًا للنصيحة لهم، والتحسُّر عليهم، فقال مذكِّرًا لهم بنِعْمةِ الله عليهم، محذِّرًا لهم مِن سلبِها، مستعطِفًا بذِكْرِ أنَّه منهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٥٢-٥٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٢٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٠٨).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٥٧).

لمَّا توسَّم نهوضَ حُجَّتِه بينهم، وأنَّها داخَلتْ نفوسَهم؛ أَمِنَ بأسَهم، وانتهز فرصةَ انكسار قلوبهم، فصارَحهم بمقصوده مِن الإيمان بموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ سَنَنِ الخطباءِ وأهلِ الجدَلِ بعد تقريرِ المقدِّمات والحُجَجِ؛ أن يهجُموا علىٰ الغرضِ المقصود؛ فوعَظهم بهذه الموعظةِ(١).

اعلَمْ أنَّ مؤمنَ آلِ فِرْعونَ لمَّا أقام أنواعَ الدلائل علىٰ أنَّه لا يجوز الإقدامُ علىٰ قتلِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، خوَّفهم في ذلك بعذابِ الله، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ يعني: قد علَوْتُم الناسَ وقهَرتموهم؛ فلا تُفسِدوا أمركم علىٰ أنفسكم، ولا تَتعرَّضوا لبأسِ الله وعذابه؛ فإنَّه لا قِبَلَ لكم به(٢).

ثم حذَّر قومَه ونصَحهم، وخوَّفهم عذابَ الآخرة، ونهاهم عن الاغترارِ بالمُلْكِ الظاهر، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾(٣).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠﴾

ولمَّا ظهَر لهذا المؤمنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ فِرْعونَ ذَلَّ لكلامِه، ولم يستطِعْ مصارحتَه؛ ارتفَع إلىٰ أصرَحَ مِن الأسلوبِ الأول، فأخبَرَنا تعالىٰ عنه بقولِه -مكتفيًا في وصفِه بالفعل الماضي؛ لأنَّه في مقامِ الوعظ، الذي ينبغي أن يكونَ مِن أدنىٰ متَّصِفٍ بالإيمان، بعد أن ذكَر عراقتَه في الوصفِ؛ لأجلِ أنَّه كان في مقامِ المجاهَدة والمدافعة عن الرسولِ عليه وعلىٰ نبينا أفضل الصلاة والسلام، الذي لا يُقدِمُ عليه إلا راسخُ القَدَمِ في الدِّين-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٣٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥١١).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٣٧).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٥٩).

لمَّا كان هذا تكملةً لكلامِ الذي آمَن، ولم يكُنْ فيه تعريجٌ علىٰ محاوَرةِ فِرْعونَ علىٰ قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ إلخ، وكان الذي آمَن قد جعَل كلامَ فِرْعونَ في البَيْنِ، واسترسَل يُكمِل مقالتَه؛ عطَف فعلَ قولِه بالواو؛ ليتصِلَ كلامُه بالكلام الذي قبله، ولئلا يُتوهَّمَ أنَّه قصَد به مراجعةَ فِرْعونَ، ولكنَّه قصَد إكمالَ خطابه، وعبَّر عنه بـ﴿ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾؛ لأنَّه قد عُرِف بمضمونِ الصلة بعد ما تقدم[١].

لمَّا رأىٰ ما لَحِق فِرْعونَ مِن الخَوَرِ[٢] والخوفِ، أتىٰ بنوعٍ آخرَ مِن التهديد، وخوَّفهم أن يُصِيبَهم ما أصاب الأُمَمَ السابقة؛ مِن استئصالِ الهلاك حين كذَّبوا رُسُلَهم، وقَوِيتْ نفسُه حتىٰ سرَد عليه ما سرَد، ولم يَهَبْ فِرْعونَ[٣].

ثم كرَّر ذلك الرجُلُ المؤمن تذكيرَهم، وحذَّرهم أن يَنزِلَ بهم ما نزَل بمَن قبلهم، فقال اللهُ حاكيًا عنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾[٤].

﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾

ولمَّا أجمَل، فصَّل وبيَّن، أو بدَّل بعد أن هوَّل، فقال بادئًا بمَن كان عذابُهم مِثْلَ عذابهم، ودأبُهم شبيهًا بدأبِهم: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾[٥].

ثم فسَّر الأحزابَ، فقال: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾[٦].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٣٤).

(٢) أي: الضعف.

(٣) البحر المحيط (٩/ ٢٥٥).

(٤) فتح القدير (٤/ ٥٦٣).

(٥) نظم الدرر (١٧/ ٦٠).

(٦) فتح القدير (٤/ ٥٦٣).

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢﴾

ولمَّا أشرَق مِن آفاقِ هذا الوعظِ شمسُ البعثِ ونورُ الحشر؛ لأنَّه لا يسُوغُ أصلًا أنَّ مَلِكًا يدَعُ عبيدَه يَبغي بعضُهم علىٰ بعضٍ مِن غيرِ إنصافٍ بينهم، ونحن نرىٰ أكثَرَ الخَلْقِ يموت مقهورًا مِن ظالِمِه، ومكسورًا مِن حاكمِه، فعُلِم قطعا أنَّ الموتَ الذي لم يَقدِرْ ولا يَقدِرُ أحدٌ أصلًا أن يَسلَمَ منه إنَّما هو سَوْقٌ إلىٰ دارِ العرض، وساحةِ الجزاء للقرض؛ كما جرت به عادةُ الملوك إذا وكَّلوا بمَن يأمرون بإحضارِه إليهم لعرضِه عليهم؛ ليَظهَرَ التجلي في صفاتِ الجبروت والعدل، ومظاهر الكرمِ والفضل؛ قال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾[1].

أعقَب تخويفَهم بعقابِ الدُّنيا الذي حَلَّ مثلُه بقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين مِن بعدِهم بأنْ خوَّفهم وأنذَرهم عذابَ الآخرة، عاطفًا جملتَه علىٰ جملةِ عذاب الدُّنيا[2].

ثم زاد في الوعظ والتَّذكير، فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾[3].

﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾

ولمَّا كانت عادةُ المتنادِينَ الإقبالَ، وصَف ذلك اليومَ بضدِّ ذلك؛ لشِدَّة الأهوال، فقال مُبدِلًا أو مبيِّنًا: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٦١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٣٦).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٦٣).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٦٢-٦٣).

فخوَّفهم رضي الله عنه هذا اليومَ المَهُول، وتوجَّعَ لهم أن أقاموا على شركِهم بذلك؛ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[1].

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾

ولمَّا كان حاصلُ ما مضىٰ مِن حالهم في أمرِ موسىٰ عليه السلام أنَّه جاءهم بالبيناتِ فشَكُّوا فيها، وختَم بتحذيرهم مِن عذابِ الدُّنيا والآخرة؛ عطَف عليه شَكَّ آبائهم في مثلِ ذلك، فقال مبيِّنًا أنَّهم مستحِقُّون لِما حذَّر منه العذابَ؛ ليشكُروا نِعْمةَ الله في إمهاله إيَّاهم، ويَحذَروا نِقْمتَه إن تمادَوْا، وأكَّد لأجلِ إنكارهم أن يكونوا أتَوْا ببيِّنةٍ، وافتتَح بحرف التوقُّع؛ لأنَّ حالَهم اقتضت توقُّع ذلك، ودعَتْ إليه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[2].

توسَّم فيهم قلَّةَ جدوىٰ النُّصح لهم، وأنَّهم مصمِّمون علىٰ تكذيبِ موسىٰ عليه السلام، فارتقىٰ في موعظتِهم إلىٰ اللَّوْمِ علىٰ ما مضىٰ، ولتذكيرِهم بأنَّهم مِن ذُريةِ قومٍ كذَّبوا يوسُفَ عليه السلام لمَّا جاءهم بالبينات؛ فتكذيبُ المرشِدين إلىٰ الحق شِنْشِنةٌ معروفة في أسلافهم، فتكون سجيَّةً فيهم[3].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٣٧).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٦٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٣٨).

اعلَمْ أنَّ مؤمنَ آلِ فِرْعونَ لمَّا قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾، ذكَر لهذا مثَلًا؛ وهو أنَّ يوسُفَ جاءهم بالبينات الباهرة، فأصَرُّوا على الشك والشُّبْهة، ولم يَنتفعوا بتلك الدلائلِ؛ وهذا يدلُّ على أنَّ مَن أضَلَّه اللهُ، ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[1].

ثم زاد في وعظِهم وتذكيرهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[2].

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾

ولمَّا ظهَر ظهورًا لا يحتمِلُ شكًّا بما أتى به موسى عليه السلام مِن البيِّناتِ أنَّ شكَّهم في رسالةِ الماضي وجَزْمَهم في الحُكْمِ بنفيِ رسالة الآتي أعظَمُ ضَلالٍ، وأنَّه مِن الجدال الذي لا معنًى له إلا فَتْلُ[3] المُحِقِّ عمَّا هو عليه مِن الحقِّ إلى ما عليه المجادِلُ مِن الضَّلال؛ وصَل بذلك قولَه على سبيلِ الاستنتاج ذمًّا لهم بعبارةٍ تعُمُّ غيرَهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[4].

ثم بيَّن تعالى ما لأجلِه بقُوا في ذلك الشكِّ والإسراف، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[5].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥١٢).

(٢) فتح القدير (٤/ ٥٦٣).

(٣) أي: لَفْتُه وصَرْفُه.

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٦٦).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥١٣).

ثم ذكَر وَصْفَ المسرِفِ الكذَّاب، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[1].

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر الطبعَ المذكور، دلَّ عليه بما ذكَر مِن قولِ فِرْعونَ وفعلِه عطفًا علىٰ ما مضىٰ مِن قولِه وقول المؤمن؛ فإنَّه قصَد ما لا مَطمَعَ في نيلِه تِيهًا وحماقة تكبُّرًا وتجبُّرًا لكثافةِ قلبه، وفسادِ لُبِّه، فصار به ضُحْكةً لكلِّ مَن سَمِعه؛ هذا إن كان ظَنَّ أنَّه يصل إلىٰ ما أراد، وإن كان قصَد بذلك التلبيسَ علىٰ قومِه للمدافعة عن اتِّباع موسىٰ عليه السلام إلىٰ وقتٍ ما، فقد نادىٰ عليهم بالجهل، والإغراقِ في قلَّةِ الحزمِ والشهامة والعقل، فقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾[2].

هذه مقالةٌ أخرىٰ لِفرْعونَ في مجلسٍ آخرَ غيرِ المجلس الذي حاجَّه فيه موسىٰ؛ ولذلك عُطِف قولُه بالواو؛ كما أشَرْنا إليه فيما عُطِف مِن الأقوالِ السابقة آنفًا[3].

لمَّا وصَف فِرْعونَ بكونه متكبِّرًا جبَّارًا، بيَّن أنَّه أبلَغَ في البلادةِ والحماقة إلىٰ أن قصَد الصُّعودَ إلىٰ السماوات[4].

ثم لمَّا سَمِع فِرْعونُ هذا، رجَع إلىٰ تكبُّرِه وتجبُّره مُعرِضًا عن الموعظة، نافرًا مِن قَبولها، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾[5].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٣٨).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٦٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٤٥).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥١٤).

(٥) فتح القدير (٤/ ٥٦٤).

﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧﴾

ولمَّا كان بلوغُها أمرًا عجيبًا، أورَده على نمطٍ مشوِّقٍ عليه؛ ليُعطيَه السامعُ حقَّه مِن الاهتمام تفخيمًا لشأنها؛ ليَتشوَّفَ السامعُ إلى بيانها، بقولِه: ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾[(١)].

انتصب ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على البدلِ المطابِق لقوله: ﴿ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾، وجيءَ بهذا الأسلوبِ مِن الإجمال، ثم التفصيلِ؛ للتشويقِ إلى المراد بالأسباب؛ تفخيمًا لشأنها، وشأنِ عملِه؛ لأنَّه أمرٌ عجيب؛ ليُورَدَ على نفسٍ متشوِّقة إلى معرفته؛ وهي نفسُ هامانَ[(٢)].

وأبهَمَ أولًا الأسبابَ، ثم أبدَل منها ما أوضَحها، والإيضاحُ بعد الإبهام يفيد تفخيمَ الشيء؛ إذ في الإبهام تشوُّقٌ للمراد، وتعجُّبٌ مِن المقصود، ثم بالتوضيحِ يحصُلُ المقصودُ ويَتعيَّن[(٣)].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨﴾

ولمَّا كان فسادُ ما قاله فِرْعونُ أظهَرَ مِن أن يَحتاجَ إلى بيانٍ، أعرَض المؤمنُ عنه تصريحًا، ولوَّح إلى ما حكاه اللهُ عنه مِن أنَّه محيطٌ به الهلاكُ تلويحًا، في قولِه مناديًا قومَه ومستعطِفًا لهم ثلاثَ مرات: الأُولى على سبيلِ الإجمال في الدعوة، والأُخريانِ على سبيل التفصيل، فقال تعالى عنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٦٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٤٦).
(٣) البحر المحيط (٩/ ٢٥٨).
(٤) نظم الدرر (١٧/ ٧١).

هذا مقالٌ في مقامٍ آخرَ قاله مؤمنُ آلِ فِرْعونَ؛ فهذه المقالاتُ المعطوفة بالواوِ مقالاتٌ متفرِّقة، فابتدأ موعظتَه بندائهم ليَلفِتَ إليه أذهانَهم، ويَستصغيَ أسماعَهم، وبعُنوانِ أنَّهم قومُه؛ لتُصغِيَ إليه أفئدتُهم[(١)].

تكرَّر وعظُ المؤمن إثرَ كلام فِرْعونَ بندائه قومَه مرتينِ مرتينِ، مُتْبِعًا كلَّ نداءٍ بما فيه زجرٌ واتعاظ لو وُجِد مَن يَقبَل، وأمَر هنا باتِّباعِه لأن يَهدِيَهم سبيلَ الرشاد[(٢)].

ثم إنَّ ذلك الرجُلَ المؤمن أعاد التَّذكيرَ والتَّحذير -كما حكىٰ اللهُ عنه- بقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[(٣)].

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾

ولمَّا كان هذا دعاءً علىٰ سبيلِ الإجمال، وكان الداءُ كلُّه في الإقبال علىٰ الفاني، والدواءُ كلُّه في الإقدام علىٰ الباقي؛ قال استئنافًا في جوابِ مَن سأل عن تفصيلِ هذه السبيلِ، مبيِّنًا أنَّها العدولُ عمَّا يَفنَىٰ إلىٰ ما يَبقَىٰ، محقِّرًا للدنيا، مصغِّرًا لشأنها؛ لأنَّ الإخلادَ إليها أصلُ الشرِّ كلِّه، ومنه يَتشعَّب ما يؤدي إلىٰ سَخَطِ الله: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾[(٤)].

أعاد النداءَ تأكيدًا لإقبالهم إذ لاحت بوارقُه، فأكمَل مقدمتَه بتفصيلِ ما أجمَله، يذكِّرُهم بأنَّ الحياةَ الدُّنيا محدودةٌ بأجلٍ غيرِ طويل، وأنَّ وراءها حياةً أبديَّة؛ لأنَّه عَلِم أنَّ أشدَّ دفاعِهم عن دِينِهم منبعِثٌ عن محبَّةِ السِّيادة والرَّفاهية، وذلك مِن متاع الدُّنيا الزائل، وأنَّ الخيرَ لهم هو العملُ للسعادة الأبدية[(٥)].

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٤٨).
(٢) البحر المحيط (٩/ ٢٥٩).
(٣) فتح القدير (٤/ ٥٦٥).
(٤) نظم الدرر (١٧/ ٧٢).
(٥) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٤٩).

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

ولمَّا حرَّك الهِمَمَ بهذا الوعظِ إلىٰ الإعراضِ عن دارِ الأنكاد والأمراض، والإقبالِ علىٰ دارِ الجلال والجمال، بجوارِ ذي العِزِّ والكمال؛ قال في جوابِ مَن سأل عن كيفيَّةِ ذلك ما حاصله: أنَّه بالإقبالِ علىٰ محاسنِ الأعمال، وتركِ السيِّئِ مِن الخِلال، واصلًا بذلك علىٰ طريقِ البيان للبيان، ذاكرًا عاقبةَ كلٍّ ليُثبِّطَ عمَّا يُتلِفُ، ويُنشِّطَ لِما يُزلِف، مشيرًا إلىٰ أنَّ جانِبَ الرحمةِ أغلَبُ، مقدِّمًا لِما هم عليه مِن السُّوءِ محذِّرًا منه ليَرجعوا: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[(١)].

﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ ﴾

ولمَّا بلَغ النهايةَ في نُصْحِهم، وختَم بإعلامِهم بأنَّ الناسَ قسمان: هالكٌ وناجٍ، وكان حاصلُ إرادتِهم لأن يكونَ علىٰ ما هم عليه الهلاكَ بالنار؛ قال مبكِّتًا لهم بسُوءِ مكافأتِهم، مناديًا لهم، مكرِّرًا للنداء لزيادةِ التنبيه والإيقاظِ مِن الغفلة، والتذكيرِ بأنَّهم قومُه وأعضادُه، وعاطفًا علىٰ ندائه السابق؛ لأنَّه غيرُ مفصَّلٍ له، ولا داخلٍ في حُكْمِه: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[(٢)].

أعاد نداءَهم، وعُطِفت حكايتُه بواوِ العطف؛ للإشارة إلىٰ أنَّ نداءه اشتمَل علىٰ ما يقتضي في لغتِهم أنَّ الكلامَ قد تخطىٰ مِن غرضٍ إلىٰ غرض، وأنَّه سيطرُقُ ما يغايِرُ أولَ كلامه مغايرةً ما تُشبِه مغايرةَ المتعاطفَينِ في لغةِ العرب، وأنَّه سيرتقي باستدراجهم في درجِ الاستدلال إلىٰ المقصودِ بعد المقدِّمات، فانتقَل هنا إلىٰ أن

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٧٣).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٧٥-٧٦).

أنكَر عليهم شيئًا جرىٰ منهم نحوُه؛ وهو أنَّهم أعقَبوا موعظتَه إيَّاهم بدَعْوتِه للإقلاع عن ذلك، وأن يَتمسَّكَ بدِينِهم، وهذا شيءٌ مطويٌّ في خلالِ القصَّة، دلَّتْ عليه حكايةُ إنكاره عليهم، فصرَّح هنا وبيَّن بأنَّه لم يَزَلْ يَدْعوهم إلىٰ اتِّباع ما جاء به موسىٰ، وفي اتِّباعه النجاةُ مِن عذاب الآخرة؛ فهو يَدْعوهم إلىٰ النجاةِ حقيقةً، وليس إطلاقُ النجاة علىٰ ما يَدْعوهم إليه بمجازٍ مُرسَل؛ بل يَدْعوهم إلىٰ حقيقةِ النجاة بوسائطَ[(١)].

بدأ المؤمنُ بذِكْرِ المتسبِّب عن دعوتِهم، وأبدىٰ التفاضلَ بينهما، ولمَّا ذكَر المسبَّبَينِ، ذكَر سببَهما؛ وهو دعاؤهم إلىٰ الكفرِ والشرك، ودعاؤه إيَّاهم إلىٰ الإيمان والتوحيد[(٢)].

ثم كرَّر ذلك الرجُلُ المؤمن دعاءهم إلىٰ الله، وصرَّح بإيمانه، ولم يسلُكِ المسالكَ المتقدِّمة مِن إيهامِه لهم أنَّه منهم، وأنَّه إنَّما تصدَّىٰ للتَّذكير كراهةَ أن يُصيبَهم بعضُ ما توعَّدهم به موسىٰ؛ كما يقولُه الرجُلُ المحبُّ لقومه مِن التَّحذيرِ عن الوقوع فيما يَخافُ عليهم الوقوعَ فيه، فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[(٣)].

﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢ ﴾

ولمَّا أخبَر بقلَّةِ إنصافهم إجمالًا، بيَّنه بقولِه: ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٥٢-١٥٣).

(٢) البحر المحيط (٩/ ٢٦٠).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٦٦).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٧٦).

جملةُ ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ ﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾؛ لأنَّ الدعوةَ إلىٰ النار أمرٌ مجمَل مستغرَب، فبيَّنه ببيانِ أنَّهم يَدْعونه إلىٰ التلبُّسِ بالأسباب الموجِبة عذابَ النار[(١)].

ثم فسَّر الدَّعوتينِ، فقال: ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾[(٢)].

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾

ولمَّا كان انتفاءُ العلمِ بالشيء مِن أهلِ العلم انتفاءَ ذلك الشيءِ في أصول الدِّين، كان ما دعَوْهُ إليه باطلًا، وكان ما دعَاهم إليه هو الحقَّ؛ فلذلك أنتج قطعًا قولَه: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾[(٣)].

جملةُ ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ ﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ ﴾[(٤)].

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾

ولمَّا تقرَّر أنَّه لا أمرَ لغيرِ الله، وأنَّه لا بدَّ مِن المَعادِ؛ تسبَّب عنه بقولِه: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٥٣).

(٢) فتح القدير (٤/ ٥٦٦).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٧٧-٧٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٥٤).

(٥) نظم الدرر (١٧/ ٧٩).

هذا الكلامُ متارَكةٌ لقومه، وتَنْهِيَةٌ لخطابه إيَّاهم، ولعلَّه استشعَر مِن ملامحِهم أو مِن مقاطعتِهم كلامَه بعباراتِ الإنكار ما أيأسه مِن تأثُّرِهم بكلامه، فتحدَّاهم بأنَّهم إن أعرَضوا عن الانتصاحِ لنُصْحِه سيَندَمون حين يرَوْنَ العذابَ: إمَّا في الدُّنيا، أو في الآخرة(١).

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾

ولمَّا تسبَّب عن نُصْحِه هذا لهم والتجائه إلىٰ مَلِكِ الملوك حِفْظُه منهم علىٰ عِظَمِ الخطَرِ، قال تعالىٰ مخبِرًا أنَّه صدقَ ظنه: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾(٢).

تفريعُ ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ مؤذِنٌ بأنَّهم أضمَروا مكرًا به، وتسميتُه مكرًا مؤذِنٌ بأنَّهم لم يُشعِروه به، وأنَّ اللهَ تكفَّل بوقايتِه؛ لأنَّه فوَّض أمرَه إليه؛ والمعنىٰ: فأنجاه اللهُ، فيجوز أن يكونَ نجَا مع موسىٰ وبني إسرائيلَ فخرَج معهم، ويجوز أن يكونَ فَرَّ مِن فِرْعونَ ولم يعثُروا عليه(٣).

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

ثم بيَّن ذلك بقوله: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾(٤).

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٥٧).
(٢) نظم الدرر (١٧/ ٨٠).
(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٥٦).
(٤) نظم الدرر (١٧/ ٨١).

قولُه: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا ﴾ يجوز أن يكونَ جملةً وقَعتْ بدلًا مِن جملةِ ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾، فيجعل ﴿ ٱلنَّارُ ﴾ مبتدأً، ويجعل جملة ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا ﴾ خبرًا عنه، ويكون مجموعُ الجملة مِن المبتدأ وخبَرِه بدلَ اشتمالٍ مِن جملةِ ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾؛ لأنَّ سُوءَ العذاب إذا أُريدَ به الغرَقُ كان مشتمِلًا علىٰ موتهم، وموتُهم يشتمِلُ علىٰ عرضِهم علىٰ النَّارِ غُدُوًّا وعَشِيًّا؛ فالمذكور عذابانِ: عذاب الدُّنيا، وعذاب الغرَقِ، وما يَلحَق به مِن عذابٍ قبل عذابِ يوم القيامةِ(١).

ثم بيَّن سبحانه ما أجمَله مِن سُوءِ العذاب، فقال: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾(٢).

﴿ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧ ﴾

ولمَّا كان هذا مِن خبَرِ موسىٰ عليه السلام وفِرْعونَ أمرًا غريبًا جدًّا، قلَّ مَن يَعرِفه علىٰ ما هو عليه؛ لأنَّه مِن خَفِيِّ العلم؛ أشار سبحانه إلىٰ ذلك بقوله: ﴿ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾(٣).

يجوز أن يكونَ «إذ» معمولًا لـ«اذكر» محذوفٍ، فيكونَ عطفًا علىٰ جملةِ ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ ﴾، والضميرُ عائدًا إلىٰ ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ ﴾، وما بَيْنَ هذا وذاك اعتراضٌ واستطراد؛ لأنَّها قُصِد منها عِظَةُ المشركين بمَن سبقهم مِن الأُمَمِ

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٥٨).

(٢) فتح القدير (٤/ ٥٦٧).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٨٢).

المكذِّبين، فلمَّا استُوفي ذلك، عاد الكلامُ إليهم، ويفيد ذلك صريحَ الوعيد للمشركين بعد أن ضُرِبتْ لهم الأمثالُ، ويجوز أن تكونَ ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ ﴾ عطفًا علىٰ جملةِ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾؛ لأنَّ «إذ» و«يوم» كليهما ظرفٌ بمعنىٰ حِينَ، فيكون المعنىٰ: وحينَ تقومُ الساعةُ، يقال: أدخِلوا آلَ فِرْعونَ أشدَّ العذاب، وحين يتحاجُّ أهلُ النار، فيقول الضعفاء.. إلخ[(١)].

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولمَّا أتىٰ بكلامِ الضعفاء مضارِعًا علىٰ الأصل، وإشارةً مع تصويرِ الحال؛ لأنَّه أقطَعُ إلىٰ طُولِ خصامِهم؛ لأنَّه أشَدُّ في إيلامهم، فتشوَّف السامعُ إلىٰ جوابهم: استأنَف الخبَرَ عنه بصيغةِ الماضي؛ تأكيدًا لتحقيق وقوعه ردًّا لِما قد يتوهَّمه الضعيفُ مِن أنَّ المستكبِرَ له قوَّةُ المدافَعة، وإباءُ الأنفةِ، فقال: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾[(٢)].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ﴾

ولمَّا دلَّ علىٰ أنَّه لا يُغنِي أحدٌ عن أحدٍ شيئًا، أخبَر أنَّهم لمَّا رأَوْا بُعْدَهم مِن الله، وأنَّهم ليسوا بأهلٍ لدعائه سبحانه؛ علَّقوا آمالَهم بتوسُّطِ الملائكة، فأخبَر عن ذلك منهم بقولِه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٦٠).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٨٣).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٨٤).

لَمَّا لم يَجِدوا مساغًا للتخفيفِ مِن العذاب في جانبِ كُبَرائهم، وتنصَّل كبراؤهم مِن ذلك، أو اعترَفوا بغلَطِهم وتوريطهم قومَهم وأنفسَهم؛ تمالأ الجميعُ علىٰ محاولةِ طلب تخفيف العذاب بدعوةٍ مِن خزنةِ جهنَّمَ؛ فلذلك أسنَد القولَ إلىٰ ﴿ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: جميعُهم؛ مِن الضعفاءِ والذين استكبَروا[1].

لمَّا أجاب الضُّعفاءَ المستكبِرون، قالوا جميعًا: ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾، وأُبرِز ما أُضيفَ إليه الخزَنةُ، ولم يأتِ ضميرًا، فكان يكون التركيبُ لخزَنتِها؛ لِما في ذِكْرِ جهنَّمَ مِن التهويل، وفيها أطغىٰ الكفارِ وأعتاهم، ولعلَّ الكفارَ توهَّموا أنَّ ملائكةَ جهنَّمَ الموكَّلين بعذابِ تلك الطغاةِ هم أقربُ منزلةً عند اللهِ مِن غيرِهم مِن الملائكة الموكَّلين ببقيَّةِ دركاتِ النار، فرَجَوْا أن يُجِيبوهم، ويَدْعوا لهم بالتخفيف[2].

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ٥٠﴾

ولمَّا سألوهم، استأنَفوا جوابَهم إشارةً إلىٰ ما حصَل مِن تشوُّف السامع إليه، معرِّفين لهم بسياقِه بالسببِ الجاعل لهم في محَلِّ الاطِّراح والسُّفول عن التأهُّل لأن يُسمَعَ لهم كلامٌ، فقال تعالىٰ مخبِرًا عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[3].

جوابُ خزَنةِ جهنَّمَ لهم بطريقِ الاستفهام التقريريِّ المرادِ به: إظهارُ سُوءِ صنيعهم بأنفسهم إذ لم يتَّبِعوا الرُّسُلَ حتىٰ وقَعوا في هذا العذابِ، وتنديمُهم علىٰ ما أضاعوه في حياتِهم الدُّنيا مِن وسائلِ النجاة مِن العقاب. وهو كلامٌ جامع يَتضمَّن التوبيخَ،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٦٣-١٦٤).

(٢) البحر المحيط (٩/ ٢٦٤).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٨٥).

والتنديم، والتحسير، وبيانَ سببِ تجنُّبِ الدعاء لهم، وتذكيرَهم بأنَّ الرُّسُلَ كانت تحذِّرهم مِن الخلودِ في العذاب. والواوُ في قوله: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم﴾ لم يعرِّجِ المفسرون على موقعِها، وهي واوُ العطف، عطَف بها «خزنةُ جهنَّمَ» كلامَهم على كلامِ الذين في النار؛ مِن قَبيلِ طريقة عطفِ المتكلِّم كلامًا على كلامٍ صدَر مِن المخاطَبِ إيماءً إلى أنَّ حقَّه أن يكونَ مِن بقيَّةِ كلامه، وألا يُغفِلَه[(١)].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾

ولمَّا كان حاصلُ ما مضى مِن هذا القَصِّ -الذي هو أحلى مِن الشراب، وأغلى مِن الجوهرِ المنظم في أعناقِ الكواعب الأتراب- أنَّه سبحانه نصَر الرُّسُلَ على أُمَمِهم حين هَمُّوا بأخذِهم، فلم يَصِلوا إليهم، ثم أهلكهم اللهُ، هذا في الدُّنيا، وأمَّا في الآخرة فعذَّبهم أشدَّ العذاب، وكذلك نصَر موسى عليه السلام والمؤمنَ الذي دافَع عنه، وكان نصرُ أهلِ الله قاطبةً خفيًّا؛ لأنَّهم يُبتلَوْنَ ثم يكونُ لهم العاقبةُ، فكان أكثَرُ الجامدين -وهم أكثر الناس- يظُنُّ أنَّه لا نُصْرةَ لهم؛ قال الله تعالى لافتًا القولَ إلى مظهر العظَمة؛ لأنَّ النُّصرةَ عنها تكون على سبيلِ الاستنتاج ممَّا مضى، مؤكدًا تنبيهًا للأغبياء على ما يَخفَى عليهم: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾[(٢)].

كلامٌ مستأنَف، وهو استخلاصٌ للعِبْرة مِن القِصص الماضية، مسُوقٌ لتسليةِ الرسول ﷺ، ووعدِه بحُسْنِ العاقبة، وتسليةِ المؤمنين، ووعدِهم بالنصر وحُسْنِ العاقبة في الدُّنيا والآخرة[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٦٥).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٨٦-٨٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٦٧).

اعلَمْ أنَّ في كيفيَّةِ النَّظم وجوهًا: الأول: أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكَر وقايةَ اللهِ موسىٰ صلوات الله عليه وذلك المؤمنَ مِن مكرِ فِرْعونَ، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه ينصُرُ رُسُلَه والذين آمَنوا معه. والثاني: لمَّا بيَّن مِن قبلُ ما يقع بَيْنَ أهلِ النار مِن التخاصم، وأنَّهم عند الفزَعِ إلىٰ خزَنةِ جهنَّمَ يقولون: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أتبَع ذلك بذِكْرِ الرُّسُل، وأنَّه ينصُرُهم في الدُّنيا والآخرة. والثالث -وهو الأقربُ عندي- أنَّ الكلامَ في أولِ السُّورة إنَّما وقَع مِن قولِه: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾﴾، وامتدَّ الكلامُ في الرد علىٰ أولئك المجادِلين، وعلىٰ أنَّ المُحِقِّينَ أبدًا كانوا مشغولين بدفعِ كيدِ المُبطِلين، وكلُّ ذلك إنَّما ذكَره اللهُ تعالىٰ تسليةً للرسول ﷺ، وتصبيرًا له علىٰ تحمُّلِ أذىٰ قومه، ولمَّا بلَغ الكلامُ في تقريرِ المطلوب إلىٰ الغايةِ القُصْوىٰ، وعَد تعالىٰ رسولَه ﷺ بأن ينصُرَه علىٰ أعدائه في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة، فقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[١].

ثم ذكَر تعالىٰ أنَّه ينصُرُ رُسُلَه ويُظفِرُهم بأعدائهم؛ كما فعَل بموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حيث أهلَك عدوَّه فِرْعونَ وقومَه، وفيه تبشيرٌ للرسول ﷺ بنَصْرِه علىٰ قومِه؛ في الحياةِ الدُّنيا العاقبةُ الحسَنة لهم، ويومَ يقومُ الأشهاد؛ وهو يوم القيامةِ[٢].

كلامٌ مستأنَف مسُوقٌ مِن جهتِه تعالىٰ لبيانِ أنَّ ما أصاب الكفرةَ مِن العذاب المحكيِّ مِن فروعِ حُكْمٍ كليٍّ تقتضيه الحِكْمةُ؛ وهو أنَّ شأنَنا المستمرَّ أنَّا ننصُرُ رُسُلَنا وأتباعَهم[٣].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٢٣).
(٢) البحر المحيط (٩/ ٢٦٤).
(٣) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٨٠).

لمَّا ذكَر عقوبةَ آلِ فِرْعونَ في الدُّنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وذكَر حالةَ أهلِ النار الفظيعةَ، الذين نابَذوا رُسُلَه وحارَبوهم؛ قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾[1].

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

ولمَّا وصَف اليومَ الآخِرَ بما لا يَفهَمه كثيرٌ مِن الناس، أتبَعه ما أوضَحه علىٰ وجهٍ بيَّن نَصْرَه لهم غايةَ البيان، فقال مبدِلًا ممَّا قبله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ﴾[2].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾﴾

ولمَّا كان التقدير: فلقد نصَرْنا موسىٰ رسولَنا مع إبراقِ فِرْعونَ وإرعادِه، عطَف عليه قولَه دالًّا علىٰ الكرامةِ والرحمة، مؤكِّدًا لإزالةِ ما استقرَّ في النفوس مِن أنَّ ملوكَ الدُّنيا لا يَغلِبُهم الضعفاءُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَـٰبَ﴾[3].

هذا مِن أوضَحِ مَثَلِ نصرِ اللهِ رُسُلَه والذين آمَنوا بهم، وهو أشبَهُ الأمثال بالنَّصر الذي قدَّره اللهُ تعالىٰ للنبي ﷺ والمؤمنين؛ فإنَّ نَصْرَ موسىٰ عليه السلام علىٰ قومِ فِرْعونَ كوَّن اللهُ به أُمَّةً عظيمة لم تكُنْ يؤبَهُ بها، وأوتيت شريعةً عظيمة ومُلْكًا عظيمًا، وكذلك كان نصرُ النبيِّ ﷺ والمؤمنين، وكان أعظَمَ مِن ذلك وأكمَلَ وأشرَفَ؛ فجملةُ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَـٰبَ﴾ معترضةٌ بَيْنَ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ وبين التفريعِ عليه في قولِه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، وأيُّ نصرٍ أعظَمُ مِن الخلاصِ مِن العبودية والقلَّة والتَّبَعِ لأُمَّةٍ أخرىٰ في أحكامٍ

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٣٩).
(٢) نظم الدرر (١٧/ ٨٨).
(٣) نظم الدرر (١٧/ ٨٩).

تلائم أحوالَ الأُمَّة التابعة إلىٰ مصيرِ الأُمَّةِ مالكةِ أمرِ نفسها ذاتِ شريعةٍ ملائمة لأحوالها ومصالحِها، وسيادةٍ علىٰ أُمَمٍ أخرىٰ؟! وذلك مَثَلُ المسلمين مع النبي ﷺ وبعده، وهو إيماءٌ إلىٰ الوعدِ بأنَّ القرآنَ الذي كذَّب به المشركون باقٍ موروث في الأُمَّةِ الإسلامية(١).

لمَّا ذكَر ما حلَّ بآلِ فِرْعونَ، واستطرَد مِن ذلك إلىٰ ذِكْرِ شيءٍ مِن أحوالِ الكفار في الآخرة؛ عاد إلىٰ ذِكْرِ ما منَح رسولَه موسىٰ عليه السلام، فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾؛ تأنيسًا لمحمَّدٍ ﷺ، وتذكيرًا لِما كانت العربُ تَعرِفه مِن قصَّةِ موسىٰ عليه السلام(٢).

لمَّا ذكَر ما جرىٰ لموسىٰ وفِرْعونَ، وما آلَ إليه أمرُ فِرْعونَ وجنوده، ثم ذكَر الحُكْمَ العامَّ الشامل له ولأهل النار؛ ذكَر أنَّه أعطىٰ موسىٰ عليه السلام الآياتِ، فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾(٣).

﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ ﴾

ثم ذكَر ما اشتمَل عليه هذا الكتابُ، فقال: ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ بعد أن تقدَّم الوعدُ المؤكَّد بنُصْرةِ الرُّسُلِ وأتباعهم: ولقد آتيناك الهدىٰ والكتابَ كما آتينا موسىٰ، ولَننصُرَنَّك مِثْلَ ما نصَرْناه، وإن زاد إبراقُ قومِك

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٦٩).

(٢) البحر المحيط (٩/ ٢٦٦).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٤٠).

وإرعادُهم؛ فإنَّهم لا يَعشِرون[(١)] فِرْعونَ فيما كان فيه مِن الجبروتِ والقهر والعِزِّ والسلطان والمكر، ولم يَنفَعْهُ شيءٌ منه؛ سبَّب عنه قولَه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[(٢)].

تفريعٌ على قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾؛ أي: فاعلَمْ أنَّا ناصِروك والذين آمَنوا، واصبِرْ على ما تُلاقيه مِن قومِك ولا تَهِنْ، وجملةُ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالصبر[(٣)].

ثم أمَر اللهُ رسولَه ﷺ بالصبرِ على الأذى، فقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾[(٤)].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)﴾

ولمَّا كان الأمرُ بشَغْلِ هذينِ الوقتين أمرًا بشغلِ غيرهما مِن بابِ الأَوْلى؛ لأنَّ أولَ النهار وقتُ الاشتغالِ بالأعمال والاهتمامِ بالابتداء والتمام، وآخِرَه وقتُ التهيُّؤ للراحةِ والمَقيل بالأكل والشُّرب وما يَتبَعهما، وكان ذلك موجِبًا للاشتغالِ عن أعداء الدِّين رأسًا، وكان ذلك أمرًا على النفوسِ شاقًّا: علَّله بما يقتضي المداومةَ على الأعمال، والإعراضَ عنهم؛ لأنَّ خِذْلانَهم أمرٌ قد فُرِغ منه، فقال معلِّلًا للمداومةِ على الطاعة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[(٥)].

---

(١) أي: لا يصلون إلى مقدار عُشره.

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٨٩-٩٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٧٠).

(٤) فتح القدير (٤/ ٥٦٩).

(٥) نظم الدرر (١٧/ ٩١).

جرىٰ الكلامُ مِن أولِ السُّورة إلىٰ هنا في ميدانِ الردِّ علىٰ مجادلةِ المشركين في آياتِ الله، ودَحْضِ شُبَهِهم، وتوعُّدِهم علىٰ كفرِهم، وضربِ الأمثال لهم بأمثالهم مِن أهلِ العناد؛ ابتداءً مِن قولِه: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، وقولِه: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾، كما ذُكِرتْ أمثالُ أضدادهم مِن أهلِ الإيمان؛ مَن حضَر منهم ومَن غبَر؛ مِن قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ ﴾، ثم قولِه: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾، وخُتِم ذلك بوعدِ النبيِّ ﷺ والمؤمنين بالنصر؛ كما نُصِر النَّبيئون مِن قبلِه والذين آمَنوا بهم، وأُمِر بالصبر علىٰ عنادِ قومه، والتوجُّه إلىٰ عبادةِ ربِّه، فكان ذِكْرُ الذين يجادِلون في آياتِ الله بغيرِ سلطانٍ عَقِب ذلك مِن بابِ المثل المشهور: «الشيءُ بالشيء يُذكَر»، وبهذه المناسبةِ انتُقل هنا إلىٰ كشفِ ما تُكِنُّه صدورُ المجادلين مِن أسبابِ جدالهم بغير حقٍّ؛ ليَعلَمَ الرسولُ ﷺ دخيلتَهم، فلا يَحسَبَ أنَّهم يكذِّبونه تنقُّصًا له، ولا تجويزًا للكذبِ عليه، ولكن الذي يَدفَعُهم إلىٰ التكذيبِ هو التكبُّرُ عن أن يكونوا تبَعًا للرسول ﷺ، ووراءَ الذين سبَقوهم بالإيمان ممَّن كانوا لا يَعبَؤون بهم (١).

📖 ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ 📖

ولمَّا كان أعظَمُ النظرِ في آيةِ المجادَلةِ المكرَّرة مِن أولِ السُّورة إلىٰ هنا إلىٰ البعث وصيرورة العباد إلىٰ الله بالحشرِ ليقعَ فيه الحُكْمُ الفصل، وتَتحقَّقَ نصرةُ الأنبياء وأتباعِهم يومَ يقوم الأشهادُ؛ دلَّ علىٰ قُدْرتِه عليه بما هو كالتعليل لِما نفىٰ في آيةِ المجادَلة مِن بلوغِهم لِما قصَدوا مِن الكِبْرِ، فقال مؤكِّدًا تنزيلًا للمُقِرِّ العالِمِ منزلةَ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٧٢).

الجاهلِ المعانِد؛ لمخالَفةِ فعلِه لاعتقاده: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١].

مناسبةُ اتصالِ هذا الكلامِ بما قبله: أنَّ أهَمَّ ما جادَلوا فيه مِن آيات الله هي الآياتُ المُثبِتة للبعث، وجدالُهم في إثباتِ البعث هو أكبرُ شُبْهةٍ لهم ضلَّلتْ أنفسَهم وروَّجوها في عامَّتِهم، فكانوا يَسخَرون مِن النبيِّ ﷺ لأجلِ ذلك، ولمَّا كانوا مُقِرِّينَ بأنَّ اللهَ هو خالقُ السماوات والأرضِ، أُقيمت عليهم الحُجَّةُ علىٰ إثباتِ البعث بأنَّ بَعْثَ الأموات لا يبلُغُ أمرُه مقدارَ أمرِ خَلْقِ السماوات والأرضِ بالنسبة إلىٰ قدرةِ الله تعالىٰ[٢].

ثم بيَّن سبحانه عظيمَ قُدْرتِه، فقال: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٣].

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) ﴾

ولمَّا ثبَتَ بهذا القياسِ -الذي لا خفاءَ به ولا دافعَ له ولا مطعنَ فيه- أنَّ القادرَ علىٰ خَلْقِ الكبيرِ ابتداءً قادرٌ علىٰ تسويةِ الصغير إعادةً، وثبَتَ به أيضًا أنَّ خَلْقَ الناس ليس مستنِدًا إلىٰ طبائعِ السماوات والأرضِ، وإلا لتَساوَوْا في العلمِ والجهل، والقَدْرِ والهيئة والشكل؛ لأنَّ اقتضاءَ الطبائع لذلك علىٰ حدٍّ سواءٍ لا تفاوُتَ فيه، وهي لا اختيارَ لها، وكان مِن الناس مَن يقول: إنَّ هذا الإيجادَ إنَّما هو للطبائع، ومِن هؤلاء فِرْعونُ، الذي مضىٰ في هذه السُّورةِ كثيرٌ مِن كشفِ عُوارِه، وإظهارِ عارِه؛ دلَّ علىٰ إبطاله بأنَّ ذلك قولٌ يَلزمه التساوي فيما نشأ عن ذي الطَّبْعِ؛ لأن لا اختيارَ له، ونحن

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٩٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٧٥-١٧٦).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٧٠).

نشاهِدُ الأشياءَ مختلِفةً؛ فدل ذلك قطعًا على أنَّها غيرُ مستنِدة إلى طبيعة، بل إلى خالقٍ مختار، فكان التقديرُ بما أرشَد إليه سياقُ الآية قطعًا مع ختمها بنفيِ العلم، وعطفِ ما بعدها على غيرِ مذكور: وأقلُّهم يعلمون؛ فثبَتَ أنَّ خالِقَهم الذي فاوَت بينهم قادرٌ مختار لا شريك له؛ فإنَّه ما يستوي العالِمُ والجاهل: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾(١).

لمَّا نزَّلهم منزلةَ مَن لا يَعلَم، ضرَب مثَلًا لهم وللمؤمنين؛ فمثَلُ الذين يجادلون في أمرِ البعث مع وضوحِ إمكانه مثَلُ الأعمى، ومثَلُ المؤمنين الذين آمَنوا به حال البصير، وقد عُلِم حالُ المؤمنين مِن مفهومِ صفةِ أكثرِ الناس؛ لأنَّ الأكثرين مِن الذين لا يَعلَمون يقابِلُهم أقلُّون يَعلَمون؛ والمعنى: لا يستوي الذين اهتدَوْا والذين هم في ضَلالٍ؛ فإطلاقُ الأعمى والبصير استعارةٌ للفريقين اللذينِ تضمَّنهما قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾(٢).

ثم لمَّا ذكَر سبحانه الجدالَ بالباطل، ذكَر مثالًا للباطل والحقِّ، وأنَّهما لا يستويانِ، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾(٣).

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٩﴾

ولمَّا ثبَتَ بهذا كلِّه تمامُ القدرة، وانتفى ما توهَّمه مَن لا بصَرَ له مِن الطبائع؛ ثبَتَ قطعًا قولُه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٩٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٧٧).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٧٠).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٩٧-٩٨).

لمَّا أعطيَ إثباتُ البعث ما يَحِقُّ مِن الحِجاجِ والاستدلال، تهيَّأ المقامُ لاستخلاصِ تحقيقه كما تُستخلص النتيجةُ مِن القياس؛ فأعلَن بتحقيقِ مجيء الساعة، وهي ساعةُ البعث؛ إذ الساعةُ في اصطلاحِ الإسلام عَلَمٌ بالغلَبةِ علىٰ ساعةِ البعث؛ فالساعةُ والبعث مترادفانِ في المآل، فكأنَّه قيل: إنَّ الذي جادَل فيه المجادِلون سيقعُ لا محالة؛ إذ انكشفتْ عنه شُبَهُ الضالِّين وتمويهاتهم، فصار بيِّنًا لا ريبَ فيه[1].

لمَّا قرَّر الدليلَ الدال علىٰ إمكانِ وجودِ يوم القيامةِ، أردَفه بأن أخبَر عن وقوعِها ودخولها في الوجود، فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فعَل ذلك ربُّكم ليقضيَ بَيْنَ عبادِه بالعدل، فيُدخِلَ المحسِنَ الجَنَّةَ نُصْرةً له، والمسيءَ النارَ خِذْلانًا وإهانة له؛ لِما برَز به وعدُه مِن أنَّه ينصُرُ رُسُلَه وأتباعَهم في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة، وقال لعباده كلِّهم: آمِنوا لأسلِّمَكم مِن غوائلِ تلك الدارِ؛ عطَف عليه قولَه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3].

لمَّا كانت المجادَلةُ في آيات الله تَشمَل مجادلتَهم في وَحْدانيَّة الإلهيَّةِ؛ كما دلَّ عليه قولُه الآتي: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾، فجعَل ﴿لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟﴾ نقيضَ ما قيل لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾، وتَشمَل المجادَلةَ في وقوعِ البعث؛ كما دلَّ عليه قولُه بعد هذه: ﴿أَلَمْ تَرَ

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٧٩).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٢٧).
(٣) نظم الدرر (١٧/ ٩٨-٩٩).

إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴾ إلـى قولـه: ﴿ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ الآيةَ؛ أعقب ذِكْرَ المجادَلةِ أولًا بقولِه: ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ ﴾، وذلك استدلالٌ على إمكانِ البعث، ثم عطَف عليه قولَه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ الآيةَ؛ تحذيرًا مِن الإشراك به، وأيضًا لمَّا ذكَر أمرَ اللهِ رسولَه ﷺ بدعاءِ الله وحده أمرًا مفرَّعًا على توبيخِ المشركين بقولِه: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ ﴾، وعلى قوله عَقِبَ ذلك: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾، وانتقَل الكلامُ إثر ذلك إلى الأهمِّ -وهو الأمرُ بإنذار المشركين- بقولِه: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ ﴾ إلخ، وتتابعت الأغراضُ حتى استوفت مقتضاها؛ عاد الكلامُ الآن إلى ما يَشمَل عبادةَ المؤمنين الخالصةَ لله تعالى، وهو أيضًا متصِلٌ بقولِه: ﴿ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾، فلمَّا تقدَّم ذِكْرُ الدعاءِ بمعنيَيهِ: معنى العبادةِ، ومعنى سؤالِ المطلوب؛ أردَف بهذا الأمرِ الجامع لكِلا المعنيَين[1].

اعلَمْ أنَّه تعالى لمَّا بيَّن أنَّ القولَ بالقيامة حقٌّ وصِدق، وكان مِن المعلوم بالضرورة أنَّ الإنسانَ لا ينتفع في يومِ القيامةِ إلا بطاعةِ الله تعالى؛ لا جرَمَ كان الاشتغالُ بالطاعة مِن أهمِّ المهمات، ولمَّا كان أشرَفُ أنواعِ الطاعات الدعاءَ والتضرُّع، لا جرَمَ أمَر اللهُ تعالى به في هذه الآيةِ، فقال: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[2].

ثم لمَّا بيَّن سبحانه أنَّ قيامَ الساعة حقٌّ لا شكَّ فيه ولا شُبْهةَ، أرشَد عبادَه إلى ما هو الوسيلةُ إلى السعادةِ في دارِ الخلود، فأمَر رسولَه صلى الله عليه وآله وسلم أن يحكيَ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٨١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٢٧).

عنه ما أمَره بإبلاغه؛ وهو: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(١).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾

ولمَّا ختَم ذلك أيضًا بأمرِ الساعة، زاد في الدلالةِ عليه وعلىٰ الفعلِ بالاختيار والحِكْمةِ التي لا يسُوغُ معها إهمالُ الخَلْقِ مِن غيرِ حساب، في دارِ ثوابٍ وعقاب، بعد الإتقانِ لدارِ العمل بالخطأ والصواب، فقال معلِّلًا مفتتِحًا بالاسمِ الأعظم الذي لا يُتخيَّل أنَّ المُسمَّىٰ به يُهمِلُ المتكبِّرين عليه مع الإبلاغِ في الإحسانِ إليهم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾(٢).

يجوز أن يكونَ اسمُ الجلالة بدلًا مِن ﴿رَبُّكُمُ﴾ في ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾، أُتبِع ﴿ربكم﴾ بالاسمِ العَلَمِ ليُقضَىٰ بذلك حقَّانِ: حقُّ استحقاقه أن يطاعَ بمقتضىٰ الرُّبوبية والعبودية، وحقُّ استحقاقه الطاعةَ لصفاتِ كماله التي يَجمَعُها اسمُ الذات؛ ولذلك لم يؤتَ مع وصفِ الربِّ المتقدم بشيءٍ مِن ذِكْرِ نِعَمِه ولا كمالاته اجتزاءً بمقتضىٰ حقِّ الربوبية، وذُكِر مع الاسمِ العَلَمِ بعضُ إنعامه وإفضاله ثم وُصِف الاسمُ بالموصول وصلتِه؛ إشارةً إلىٰ بعضِ صفاته، وإيماءً إلىٰ وجهِ الأمر بعبادته، وتكون الجملة استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن تقويةِ الأمر بدعائه، ويجوز أن يكونَ اسمُ الجلالة مبتدأً، والموصولُ صفةً له، ويكونَ الخبَرُ قولَه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، ويكونَ جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ معترِضةً، أو أن يكونَ اسمُ الجلالة مبتدأً،

---

(١) فتح القدير (٤/ ٥٧١).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ١٠٠-١٠١).

والموصولُ خبرًا، واعتبارُ الجملة مستأنَفةً أحسَنُ مِن اعتبارِ اسم الجلالة بدلًا؛ لأنَّه أنسَبُ بالتوقيف على سُوءِ شكرهم، وبمقام تَعْداد الدلائل، وأسعَدُ بقولِه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾، فتكون الجملةُ واقعةً موقعَ التعليل لجملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾؛ أي: تسبَّبوا لأنفسِهم بذلك العقابِ؛ لأنَّهم كفَروا نِعْمةَ الله إذ جعَل لهم الليلَ والنهار[١].

ثم أشار تعالى إلى أنَّه كيف لا يَلزمُ العبادُ عبادتَه وقد أنعَم عليهم بما يَقتضي شُكْرَه بالعبادة، ممَّا أجْلاهُ[٢] منافعُ الليل والنهار، بقولِه سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[٣].

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

ولمَّا ثبَتَ بآيةِ الخافقينِ وآية الملَوَينِ ثبوتًا لا شكَّ فيه أصلًا شمولُ القدرة بالاختيار، قال معظِّمًا بأداةِ البُعْدِ وميمِ الجمع: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[٤].

اتصَل الكلام على دلائلِ التفرُّد بالإلهيَّة مِن قولِه: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ إلى قولِه: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ اتصالَ الأدلةِ بالمستدَلِ عليه، والإشارةُ بـ ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ إلى اسمِ الجلالة في قولِه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾، وعدَل عن الضميرِ إلى اسمِ الإشارة لإفادة أنَّه تعالى معلومٌ متميِّز بأفعاله

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٨٣).
(٢) أي: أظهرُه وأوضحُه.
(٣) محاسن التأويل (٨/ ٣١٧).
(٤) نظم الدرر (١٧/ ١٠٢).

المنفرِدِ بها، بحيث إذا ذُكِرتْ أفعالُه تميَّزَ عمَّا سِواه، فصار كالمشاهَدِ المشار إليه، فكيف تلتبِسُ إلهيَّتُه بإلهيَّةٍ مزعومة للأصنام؛ فليست للذين أشركوا به شُبْهةٌ تلبِسُ عليهم ما لا يَفعَلُ مِثْلَ فعلِه؛ أي: ذلكم ربُّكم لا غيرُه، وفي اسمِ الإشارة هذا تعريضٌ بغباوةِ المخاطَبين الذين التبَستْ عليهم حقيقةُ إلهيَّتِه(١).

لمَّا بيَّن اللهُ تعالىٰ بتلك الدلائلِ المذكورة وجودَ الإلهِ القادر الرحيم الحكيم، قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾(٢).

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

ولمَّا كشَف هذا السياقُ عن أنَّ هذا الصَّرْفَ أمرٌ لا يُقدِم عليه عاقلٌ، كان كأنَّه قيل: هل وقَع لأحدٍ غيرِ هؤلاء مثلُ هذا؟ فأجيب بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(٣).

هذه الجملة معترضةٌ بمنزلةِ التعليل لمضمونِ الجملة التي قبلها؛ وهو التعجيبُ مِن انصرافهم عن عبادةِ رَبِّهم خالقِهم، وخالقِ كلِّ شيء؛ فإنَّ في تعليلِ ذلك ما يبيِّنُ سببَ التعجيب؛ فجيءَ في جانبِ المأفوكين بالموصول لأنَّ الصلةَ تومئ إلىٰ وجهِ بناءِ الخبر وعلَّتِه؛ أي: إنَّ استمرارهم علىٰ الجحدِ بآيات الله دُونَ تأمُّلٍ ولا تدبُّر في معانيها ودلائلها يَطبَعُ نفوسَهم علىٰ الانصرافِ عن العلمِ بوجوب الوَحْدانيَّة له تعالىٰ؛ فالإشارةُ بذلك إلىٰ الإفكِ المأخوذ مِن فعل ﴿تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾؛ أي: مِثْلَ إفكِكم ذلك يؤفَكُ الذين كانوا بآياتِ الله يَجحَدون(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٨٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٢٩).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ١٠٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٨٨).

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

ولمَّا تقرَّر أنَّه سبحانه ربُّنا وحده، وأنَّ مدَّعِي ربوبيَّةِ ما سِواه معانِدٌ؛ لأنَّه سبحانه متميِّزٌ بأفعاله التي لا يشارِكُه فيها أحدٌ؛ دل علىٰ ذلك بوجهٍ مركوز في الطبائعِ صحَّتُه، واضحٍ في العقول معرفتُه؛ كالمعلِّلِ لتسميةِ هذا الإنكارِ جحودًا، فقال دالًّا بالخافقينِ بعد الدلالة بما نشأ عنهما مِن الملَوَينِ، وأخَّر هذا لأنَّه مع كونه أجلىٰ سببٍ بقراريَّةِ الأرض وفلكيَّةِ السماء لذاك، بما حصَل فيه مِن الاختلافِ، فقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١).

استئنافٌ ثانٍ بِناءً علىٰ أحسَنِ الوجوه التي فسَّرْنا بها موقعَ قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ كما تقدم؛ فلذلك لم تُعطَفْ علىٰ التي قبلها؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تَعْدادِ دلائلِ انفراده تعالىٰ بالتصرُّف وبالإنعام عليهم حتىٰ يفتضحَ خطَلُهم في الإشراك به، وكفرانِ نِعَمِه، فذكَّرهم في الآيةِ السابقة بآثارِ قُدْرتِه في إيجادِ الأعراض القائمةِ بجواهرِ هذا العالم، وهما عَرَضَا الظُّلمة والنُّور، وفي كليهما نِعَمٌ عظيمة علىٰ الناس، وذكَّرهم في هذه الآيةِ بآثارِ خَلْقِ الجواهر في هذا العالَمِ علىٰ كيفيَّاتٍ هي نِعْمةٌ لهم، وفي خَلْقِ أنفسِهم علىٰ صُوَرٍ صالحة بهم(٢).

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ١٠٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٨٩).

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما امتَنَّ به مِن الليل والنهار، ذكَر أيضًا ما امتَنَّ به مِن جعلِ الأرض مستقَرًّا، والسماءِ بناءً[١].

بيانٌ لفضلِه تعالىٰ المتعلِّقِ بالمكان بعد بيانِ فضله المتعلِّق بالزمان[٢].

ثم ذكَر لهم سبحانه نوعًا آخَرَ مِن نِعَمِه التي أنعَم بها عليهم مع ما في ذلك مِن الدلالة علىٰ كمال قُدْرته، وتفرُّده بالإلهيَّة، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣].

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

ثم دلَّ علىٰ ما أفاده الدليلُ معللًا بقولِه: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٤].

استئنافٌ ثالث للارتقاءِ في إثبات إلهيَّته الحقِّ بإثبات ما يناسبها؛ وهو الحياةُ الكاملة؛ فهذه الجملةُ مقدِّمة لجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ بإثبات الحياةِ الواجبة لذاتِه؛ فإنَّ الذي رَبَّ العالَمين وأوجَدهم علىٰ أكمَلِ الأحوال، وأمَدَّهم بما به قِوامُهم علىٰ مَمَرِّ الأزمانِ: لا جرَمَ أنَّه موصوفٌ بالحياة الحقِّ؛ لأنَّ مدبِّرَ المخلوقاتِ علىٰ طُولِ العصور يجب أن يكونَ موصوفًا بالحياة[٥].

(١) البحر المحيط (٩/ ٢٦٩).

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٨٢).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٧١).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ١٠٧).

(٥) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٩٢).

﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي
وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٦٦ ﴾

ولمَّا أمَر سبحانه بما دلَّ علىٰ استحقاقِه إيَّاه، أنتج قطعًا قولَه: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

جملةٌ معترضة بَيْنَ أدلةِ الوَحْدانيَّة بدلالةِ الآيات الكونية والنفسية ليَجْرُوا علىٰ مقتضاها في أنفسِهم؛ بأن يعبُدوا اللهَ وحده، فانتقَل إلىٰ تقريرِ دليل الوَحْدانيَّة بخبَرِ الوحيِ الإلهي بإبطال عبادة غيرِ اللهِ علىٰ لسانِ رسوله ﷺ؛ ليَعمَلَ بذلك في نفسِه، ويبلِّغَ ذلك إليهم، فيَعلَموا أنَّه حُكْمُ اللهِ فيهم، وأنَّهم لا عُذْرَ لهم في الغفلةِ عنها، أو عدمِ إتقان النظر فيها، أو قصورِ الاستنتاج منها بعد أن جاءهم رسولٌ مِن الله يبيِّنُ لهم أنواعًا بمختلِفِ البيانِ مِن أدلةٍ برهانية، وتقريبيةٍ إقناعية(٢).

لمَّا بيَّن صفاتِ الجلال والعظَمة، قال: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فأورَد ذلك علىٰ المشركين بألْيَنِ قولٍ؛ ليَصرِفَهم عن عبادةِ الأوثان، وبيَّن أنَّ وجهَ النهيِ في ذلك ما جاءه مِن البينات(٣).

لمَّا ذكَر الأمرَ بإخلاص العبادةِ لله وحده، وذكَر الأدلةَ علىٰ ذلك والبيناتِ؛ صرَّح بالنهي عن عبادةِ ما سِواه، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ١٠٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٩٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٣٠).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٧٤٢).

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾

ولمَّا قامت الأدلةُ وسطَعتِ الحُجَجُ علىٰ أنَّه سبحانه رَبُّ العالَمين الذين مِن جملتِهم المخاطَبون، ولا حُكْمَ للطبيعة ولا غيرِها؛ أتبَع ذلك آيةً أخرىٰ في أنفسِهم هي أظهَرُ ممَّا مضىٰ، فوصَل به علىٰ طريقِ العلَّةِ -لمشاركتِهم له ﷺ في الأمرِ والنهي في التي قبلها- قولَه تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[(١)].

استئنافٌ رابع بعد استئنافِ جملة ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ﴾ وما تفرَّع عليها، وكلُّها ناشئٌ بعضُه عن بعض، وهذا الامتنانُ بنِعْمةِ الإيجاد، وهو نعمةٌ؛ لأنَّ الموجودَ شرفٌ، والمعدومَ لا عنايةَ به، وأُدمِجَ فيه الاستدلالُ علىٰ الإبداع[(٢)].

ثم بيَّن أمرَ الوَحْدانيَّةِ والألوهية التي أصنامُهم عاريةٌ عن شيءٍ منهما، بالاعتبار في تدريجِ ابنِ آدمَ بأن ذكَر مبدأَه الأول؛ وهو ﴿مِّن تُرَابٖ﴾، ثم أشار إلىٰ التناسُلِ بخَلْقِه مِن نُطْفة، ثم مِن علَقة، ثم يُخرِجه طفلًا[(٣)].

ثم قرَّر هذا التوحيدَ بأنَّه الخالقُ لكم، والمطوِّرُ لخِلْقتِكم؛ فكما خلَقكم وحده، فاعبُدوه وحده، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ١٠٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٩٧).
(٣) البحر المحيط (٩/ ٢٧٠).

طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(١).

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾

ولمَّا نظم سبحانه هذا الدليلَ في صُنْعِ الآدميِّ مِن التراب، وختَمه بأنَّ دلالتَه علىٰ البعث - بإجراء سنَّتِه في إرجاعِ أواخرِ الأمور علىٰ أوائلِها، وغيرِ ذلك - لا يَحتاجُ إلىٰ غيرِ العقل؛ أنتج عنه قولَه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(٢).

استئنافٌ خامس، ومناسبةُ موقعه مِن قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ إلىٰ ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾؛ فإنَّ مِن أولِ ما يُرجَىٰ أن يَعقِلوه هو ذلك التصرُّف البديع بخَلْقِ الحياة في الإنسان عند تكوينِه بعد أن كان جثَّةً لا حياةَ فيها، وخَلْقِ الموت فيه عند انتهاءِ أجلِه بعد أن كان حيًّا متصرِّفًا بقوَّتِه وتدبيره(٣).

لمَّا ذكَر انتقالَ الإنسان مِن كونه ترابًا إلىٰ كونه نُطْفةً، ثم إلىٰ كونه علَقةً، ثم إلىٰ كونه طفلًا، ثم إلىٰ بلوغِ الأشُدِّ، ثم إلىٰ الشيخوخة، واستدَل بهذه التغيُّراتِ علىٰ وجودِ الإله القادر؛ قال بعده: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾؛ يعني: كما أنَّ الانتقالَ مِن صفةٍ إلىٰ صفة أخرىٰ مِن الصفاتِ التي تقدَّم ذِكْرُها يدلُّ علىٰ الإلهِ القادر، فكذلك الانتقالُ مِن الحياةِ إلىٰ الموت وبالعكس يدلُّ علىٰ الإلهِ القادر(٤).

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٤٢).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ١١١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٩٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٣١).

ولمَّا ذكَر رُتَبَ الإيجاد، ذكَر أنَّه المتصِفُ بالإحياءِ والإماتة، وأنَّه متىٰ تعلَّقتْ إرادتُه بإيجادِ شيء، أوجَده مِن غيرِ تأخُّر[1].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

ولمَّا عُلِم مِن هذا أنَّه لا كُلْفةَ عليه في شيءٍ مِن الأشياء بهذه الأمورِ المشاهَدة في أنفسهم وفي الآفاقِ، أنتَج التعجُّبَ مِن حالِهم لِمَن له الفَهْمُ الثاقب والبصيرةُ الوقَّادة، وجعَل ذلك مِن آياته الباهرة، وقُدْرتِه القاهرة الظاهرة؛ فلذلك قال لافتًا الخطابَ إلىٰ أعلى الخَلْقِ -لأنَّ ذمَّ الجدالِ بالباطل مِن أجَلِّ مقصودِ هذه السُّورةِ-: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾[2].

بُنِيَتْ هذه السُّورةُ علىٰ إبطالِ جَدَلِ الذين يجادِلون في آياتِ الله جدالَ التكذيبِ والتورُّك؛ كما تقدم في أولِ السُّورة؛ إذ كان مِن أولها قولُه: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾، وتكرَّر ذلك خمسَ مرَّاتٍ فيها، فنبَّه علىٰ إبطالِ جدالهم في مناسباتِ الإبطال كلِّها؛ إذ ابتُدِئ بإبطاله على الإجمالِ عَقِبَ الآياتِ الثلاث مِن أولها بقولِه: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾، ثم بإبطاله بقولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ ﴾، ثم بقولِه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾، ثم بقولِه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾، وذلك كلُّه إيماءٌ إلىٰ أنَّ الباعثَ لهم علىٰ المجادَلةِ في آياتِ الله هو ما اشتمَل عليه القرآنُ مِن إبطال الشرك؛ فلذلك أعقَب كلَّ طريقةٍ مِن طرائقِ إبطالِ شركهم بالإنحاء علىٰ جدالِهم في آياتِ الله؛

---

(١) البحر المحيط (٩/ ٢٧١).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ١١٢).

فجملةُ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ مستأنَفةٌ للتعجيبِ مِن حالِ انصرافهم عن التصديقِ بعد تلك الدلائلِ البيِّنة[1].

تعجيبٌ مِن أحوالِهم الشنيعة وآرائهم الركيكة، وتمهيدٌ لِما يعقُبُه مِن بيانِ تكذيبهم بكلِّ القرآن وبسائرِ الكتب والشرائع، وترتيب الوعيدِ علىٰ ذلك[2].

ثم عجَّب سبحانه مِن أحوالِ المجادِلين في آيات الله، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾[3].

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

ثم فصَّل ما جادَلوا فيه واصفًا لهم بما يَزيدُ في التعجيب مِن شِدَّةِ جهلهم، وتعاظُمِ عَمَاهم، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[4].

﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

ولمَّا كانوا في الدُّنيا قد جُمِعتْ أيديهم إلىٰ أذقانهم بجوامعِ السَّطوة، ثم وُصِلتْ بسلاسلِ القهر، يُساقون بها عن مقامِ الظَّفَرِ بالنجاح إلىٰ أُهْوِيَّاتِ[5] الكفرِ بالجدال بالباطل، ومَهامِهِ[6] الضَّلال المُبين، فجعَل باطنَ تلك السَّلاسلِ الدُّنيوية والأغلالِ ظاهرًا في ذلك المَجمَعِ؛ قال: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾[7].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٠٠).

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٨٤).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٧٤).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ١١٢).

(٥) أي: مهاوي.

(٦) جمع (مَهْمَهٍ) أي صحراء.

(٧) نظم الدرر (١٧/ ١١٣-١١٤).

ثـم إنَّـه تعـالىٰ وصَـف كيفيَّـةَ عقـابهم، فقـال: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾(١).

﴿ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

فكأنَّه قيل: فإلىٰ أين يُسحَبون؟ فقيل: ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

ولمَّا كان المدعوُّ إنَّما يُدَّخَرُ لأوقاتِ الشدائد، قال موبِّخًا لهم مندِّمًا، مقبِّحًا لقاصرِ نظرهم لأنفسهم، بانيًا للمفعول؛ لأنَّ المنكر هذا القول مطلقًا، لا لكونه مِن قائلٍ معيَّنٍ: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾(٢).

﴿ ثُمَّ ﴾ هذه للتراخي الرُّتبي لا محالةَ؛ لأنَّ هذا القولَ يقال لهم قبل دخول النار؛ بدليل أنَّ ممَّا وقَع في آخرِ القول: ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾، ودخولُ أبواب جهنَّمَ قبل السَّحب في حميمها، والسَّجْرِ في نارها(٣).

﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

ثم بيَّن سُفولَهم بقولِه لافتًا القولَ عن مظهرِ العظَمة إلىٰ أعظَمَ منه، فقال: ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٤).

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٣٢).
(٢) نظم الدرر (١٧/ ١١٥-١١٦).
(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٠٣).
(٤) نظم الدرر (١٧/ ١١٦).

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۝٧٥﴾

ولمَّا تمَّ جوابُ السؤال عن التعجُّب مِن هذا الضَّلالِ، رجَع إلىٰ خطابِ الضُّلَّالِ، فقال معظِّمًا لِما ذكَر مِن جزائهم بأداة البُعْدِ وميمِ الجمع نصًّا علىٰ تقريعِ كلٍّ منهم: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾[1].

قوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ تكملةُ القيلِ الذي يقال لهم حينَ ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾، والإشارةُ إلىٰ ما هم فيه مِن العذاب[2].

ثم يقال لأهلِ النار: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾.

﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٦﴾

ولمَّا كان السياقُ لذَمِّ الجدال، وكان الجدالُ إنَّما يكون عن الكِبْرِ، وكان الفرَحُ غيرَ ملازِمٍ للكِبر؛ لم يسبِّبْ دخولَ النار عنه، بل جعَله كالنتيجة لجميعِ ما مضىٰ، فقال: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[3].

جملةُ ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ يجوز أن تكونَ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّهم لمَّا سَمِعوا التقريعَ والتوبيخ وأيقَنوا بانتفاءِ الشفيع، ترقَّبوا ماذا سيؤمَرُ به في حقِّهم، فقيل لهم: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، ويجوز أن تكونَ بدلَ اشتمالٍ مِن جملة ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ إلخ؛ فإنَّ مدلولَ اسمِ الإشارة العذابُ المُشاهَد لهم، وهو يشتمِلُ علىٰ إدخالِهم أبوابَ جهنَّمَ، والخلودِ فيها[4].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ١١٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٠٦).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ١١٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٠٦).

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا في الجزاءِ أعظَمَ الشماتة بهم، فكان فيهم أعظَمُ التسلية لِمَن جادَلوه وتكبَّروا عليه؛ سبَّب عنه قولَه: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾(١).

قد كان فيما سبَق مِن السُّورةِ ما فيه تسليةٌ للنبي ﷺ علىٰ ما تلقَّاه به المشركون مِن الإساءةِ والتصميم علىٰ الإعراضِ ابتداءً مِن قولِه في أولِ السُّورة: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾، ثم قولِه: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ﴾، ثم قولِه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾، ثم قولِه: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ الآيةَ، ففُرِّع هنا علىٰ جميعِ ما سبق وما تخلَّله مِن تصريحٍ وتعريض أنْ أمَر اللهُ النبيَّ ﷺ بالصبرِ علىٰ ما يلاقيه منهم، وهذا كالتكريرِ لقوله فيما تقدَّم: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾؛ وذلك أنَّ نظيرَه المتقدِّمَ ورَد بعد الوعدِ بالنصر في قولِه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾، ثم قولِه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾﴾ الآيةَ، فلمَّا تمَّ الكلامُ علىٰ ما أخذ اللهُ به المكذِّبين مِن عذابِ الدُّنيا، انتقَل الكلامُ إلىٰ ذِكْرِ ما يَلقَوْنَه في الآخرةِ بقولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ ﴾ الآياتِ، ثم أعقبه بقولِه: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ عودًا إلىٰ بَدْءٍ؛ إذ الأمرُ بالصبر مفرَّعٌ علىٰ ما اقتضاه قولُه: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ الآياتِ، ثم قولِه: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ ﴾، ثم قولِه: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى

(١) نظم الدرر (١٧/ ١١٩).

ﵟٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْﵞ وما بعده، فلمَّا حصَل الوعدُ بالانتصافِ مِن مكذِّبي النبيِّ ﷺ في الدُّنيا والآخرة، أعقَب بقولِه: ﵟفَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡﵞ؛ فإنَّ مناسبةَ الأمرِ بالصبر عَقِب ذلك أن يكونَ تعريضًا بالانتصار له؛ ولذلك فُرِّع علىٰ الأمرِ بالصبر الشرطُ المردَّد بَيْنَ أن يُرِيَه بعضَ ما توعَّدهم اللهُ به وبَيْنَ ألَّا يراه؛ فإنَّ جوابَ الشرط حاصلٌ علىٰ كلتا الحالتينِ، وهو مضمونُ ﵟفَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَﵞ؛ أي: إنَّهم غيرُ مفلِتِين مِن العقاب، فلا شك أنَّ أحدَ الترديدَينِ هو أن يرىٰ النبيُّ ﷺ عذابَهم في الدُّنيا[1].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا تكلَّم مِن أولِ السُّورة إلىٰ هذا الموضعِ في تزييفِ طريقة المجادِلين في آيات الله، أمَر في هذه الآيةِ رسولَه ﷺ بأن يَصبِرَ علىٰ إيذائهم وإيحاشِهم[2] بتلك المجادَلات[3].

ﵟوَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٧٨ﵞ

ولمَّا قسَّم له اللهُ سبحانه الحالَ إلىٰ إصابتِهم أو وفاته ﷺ، وكان قد بَقِي ممَّا هو أقرُّ لعينه وأشفىٰ لصدرِه أن يُرِيَهم في حياتِه آيةً تُلجئهم إلىٰ الإيمان، وتَحمِلهم علىٰ الموافقة والإذعان، فيَزُول النزاعُ بحُسْنِ الاتِّباع؛ كما وقَع لقوم يونُسَ عليه السلام؛ قال - عاطفًا علىٰ ما تقديرُه في تعليلِ الأمر بالصبر: فلقد أرسَلْناك إليهم، ولَنُنفِذَنَّ أمرَنا فيهم، وأمَّا أنت فما عليك إلا البلاغُ -: ﵟوَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٢) أي: الإصابة بالوحشة، ضد الإيناس.

(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٣٣).

قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[١].

ذكَرْنا عند قوله تعالىٰ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في أولِ هذه السُّورة أنَّ مِن صُوَرِ مجادلتِهم في الآيات إظهارَهم عدمَ الاقتناعِ بمعجزة القرآن، فكانوا يقترحون آياتٍ كما يريدون لقصدِهم إفحامَ الرسول ﷺ، فلمَّا انقضىٰ تفصيلُ الإبطال لضَلالهم بالأدلةِ البيِّنة، والتذكيرِ بالنِّعْمة، والإنذارِ بالترهيب والترغيب، وضربِ الأمثال بأحوالِ الأُمَمِ المكذبة، ثم بوعدِ الرسول ﷺ والمؤمنين بالنصرِ وتحقيق الوعد؛ أعقَب ذلك بتثبيتِ الرسول ﷺ بأنَّه ما كان شأنُه إلا شأنَ الرُّسُلِ مِن قبلِه؛ ألَّا يأتوا بالآياتِ مِن تلقاءِ أنفسهم، ولا استجابةً لرغائبِ معانِديهم، ولكنَّ الآيات عند الله، يُظهِر ما شاء منها بمقتضىٰ إرادتِه الجاريةِ علىٰ وَفْقِ علمه وحِكْمته، وفي ذلك تعريضٌ بالردِّ علىٰ المجادِلين في آياتِ الله، وتنبيهٌ لهم علىٰ خطأِ ظنِّهم أنَّ الرُّسُلَ تنتصِبُ لمناقشةِ المعانِدين[٢].

ثم ردَّ تعالىٰ علىٰ العربِ في إنكارهم بَعْثَةَ الرُّسُل[٣].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

ولمَّا كان المُبطِلون ليسوا أشَدَّ ولا أقوىٰ مِن بعضِ الحيوانات العُجْمِ، دلَّ علىٰ ما أخبَر به مِن نافذِ نُصْرتِه فيهم بقولِه مذكِّرًا لهم نِعْمتَه، مستعطِفًا إلىٰ طاعته، دالًّا علىٰ التوحيد بعد تليينِهم بالوعيد، مظهِرًا الاسمَ الجامع إشارةً إلىٰ أنَّ ما في هذه

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ١٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٠٩-٢١٠).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٣٧٥).

الآيـةِ مِـن الـدَّلالاتِ لا يحصـىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[1].

انتقالٌ مِن الامتنان علىٰ الناسِ بما سخَّر لأجلهم مِن نظامِ العوالم العُلْيا والسُّفلىٰ، وبما منَحهم مِن الإيجادِ وتطوُّره، وما في ذلك مِن الإلطافِ بهم، وما أدمَج فيه مِن الاستدلالِ علىٰ انفراده تعالىٰ بالتصرُّف، فكيف ينصرفُ عن عبادته الذين أشركوا به آلهةً أخرىٰ! إلىٰ الامتنانِ بما سخَّر لهم مِن الإبلِ لمنافعِهم الجمَّة، خاصة وعامَّة؛ فالجملةُ استئنافٌ سادس[2].

اعلَمْ أنَّه تعالىٰ لمَّا أطنَب في تقريرِ الوعيد، عاد إلىٰ ذِكْرِ ما يدلُّ علىٰ وجودِ الإلهِ الحكيم الرحيم، وإلىٰ ذِكْرِ ما يصلُحُ أن يُعَدَّ إنعامًا علىٰ العباد[3].

ثم امتنَّ سبحانه علىٰ عبادِه بنوعٍ مِن أنواعِ نِعَمِه التي لا تُحصَىٰ، فقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[4].

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ولمَّا كان التصرُّفُ فيها غيرَ منضبِطٍ، أجمَله بقولِه: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ١٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢١٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٣٤).

(٤) فتح القدير (٤/ ٥٧٥).

(٥) نظم الدرر (١٧/ ١٢٣).

جملةُ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾، والمعنى أيضًا على اعتبار التعليل، كأنَّه قيل: ولتَجتنوا منافعَها المجعولةَ لكم، وإنَّما غيَّر أسلوبَ التعليل تفنُّنًا في الكلام، وتنشيطًا للسامع؛ لئلا يتكررَ حرفُ التعليل تكراراتٍ كثيرة(١).

﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

ولمَّا كانت هذه آيةً عظيمة جعَلها سبحانه مشتمِلةً على آياتٍ كثيرة، عبَّر فيها بالماضي، وعطَف بالمضارع -تنبيهًا على ما تقديرُه: فأراكم هذه الآياتِ البيِّناتِ منها- قولَه: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾(٢).

ولمَّا ذكَر اللهُ هذه الدلائلَ الكثيرة، قال: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾، تنبيهٌ على أنَّه ليس في شيء مِن الدلائل التي تقدَّم ذِكْرُها ما يمكن إنكارُه(٣).

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

ولمَّا وصَل الأمر إلى حدٍّ مِن الوضوح لا يَخفَى على أحدٍ، تسبَّب عنه لفتُ الخطابِ عنهم دلالةً على الغضبِ الموجِب للعقاب، المقتضي للرَّهَبِ، فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢١٥).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ١٢٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٣٤).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ١٢٥).

تفريعُ هذا الاستفهامِ عَقِب قوله: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ يقتضي أنَّه مُساوِقٌ[(١)] للتفريعِ الذي قبله ﴿فَأَيَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾، فيقتضي أنَّ السيرَ المستفهَم عنه بالإنكار علىٰ تَرْكِه هو سيرٌ تحصُلُ فيه آياتٌ ودلائلُ علىٰ وجودِ الله ووَحْدانيَّته، وكِلا التفريعين متصِلٌ بقولِه: ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾؛ فذلك هو مناسبةُ الانتقالِ إلىٰ التذكير بعِبْرةِ آثار الأُمَم التي استأصلها اللهُ تعالىٰ لمَّا كذَبتْ رُسُلَه، وجحَدتْ آياتِه ونِعَمَه، وحصَل بذلك تكريرُ الإنكار الذي في قولِه قبل هذا: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ الآيةَ، فكان ما تقدَّم انتقالًا عَقِب آياتِ الإنذار والتهديد، وكان هذا انتقالًا عَقِب آياتِ الامتنان والاستدلال، وفي كِلا الانتقالينِ تذكيرٌ وتهديد ووعيد، وهو يشير إلىٰ أنَّهم إن لم يكونوا ممَّن تَزَعُهم النِّعَمُ عن كفرانِ مُسْدِيها -كشأنِ أهلِ النفوس الكريمة-، فليكونوا ممَّن يَردَعهم الخوفُ مِن البطش -كشأنِ أهل النفوس اللئيمة-؛ فليَضعوا أنفسَهم حيث يختارون مِن إحدىٰ الخُطَّتين[(٢)].

ثم أرشَدهم سبحانه إلىٰ الاعتبارِ والتفكُّر في آيات الله، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[(٣)].

---

(١) أي: متابع.

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢١٩).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٧٦).

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر عن كثرتِهم وقوَّتهم وآثارِهم الدالة علىٰ مُكْنتِهم، سبَّب عنه شرحَ حالِهم، الذي أدىٰ إلىٰ هلاكهِم واغتيالهم، فقال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1].

جملةُ ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ الآيةَ، مفرَّعةٌ علىٰ جملة ﴿ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾؛ أي: كانوا كذلك إلىٰ أن جاءتهم رُسُلُ اللهِ إليهم بالبينات، فلم يصدِّقوهم، فرأَوْا بأسَنا[2].

ثم ذكر جُرْمَهم الكبيرَ، فقال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[3].

﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

ولمَّا ثبَتَ بذلك عنادُهم وغِلْظتهم وقوَّتهم في لَدَدِهم[4] واشتدادهم، بيَّن جهلَهم بذُلِّهم عندما بدا لهم وبالُ أمرهم، وحانَ أن تبرُكَ عليهم أثقالُ العذاب الفائتةُ للقُوَىٰ، فحلَّتْ ما أحكَموا عَقْدَه مِن شَرِّهم، فقال مبيِّنًا لِما أجمَل مِن الحَيْقِ[5]،

(١) نظم الدرر (١٧/ ١٢٧).
(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٢٠).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٤٤).
(٤) أي: خصومتهم.
(٥) مصدر (حاقَ) أي نزل وأصاب.

مسببًا عنه، لافتًا القولَ إلىٰ مظهرِ العظَمةِ ترهيبًا: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾[1].

موقعُ جملةِ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ مِن قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ كموقعِ جملة ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ مِن قولِه: ﴿كَانُوٓا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾؛ لأنَّ إفادةَ «لَمَّا» معنىٰ التوقيتِ يُثِير معنَىٰ توقيتِ انتهاء ما قبلها؛ أي: دامَ دعاءُ الرُّسُل إيَّاهم ودام تكذيبُهم واستهزاؤهم إلىٰ أن رأَوْا بأسنا، ﴿قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾[2].

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

ولمَّا كان الكفرُ بالغيب سببًا لعدمِ قَبول الإيمان عند الشَّهادة، قال: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3].

(١) نظم الدرر (١٧/ ١٣١).
(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٢١).
(٣) نظم الدرر (١٧/ ١٣٢).

سورة فصلت

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣﴾

ولمَّا تشوَّف السامعُ إلىٰ بيانِ هذا التنزيل المفرَّق بالتدريج، بيَّن أنَّه مع ذلك حاوٍ لكل خيرٍ، فقال مبدلًا من ﴿تنزيلٌ﴾: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

ثم أثنىٰ علىٰ الكتابِ بتمامِ البيان، فقال: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2].

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤﴾

ولمَّا كان حالُ الإنسان إن مالَ إلىٰ جانبِ الخوف الهَلَعَ، أو إلىٰ جانبِ الرَّجاء البَطَرَ، فكان لا يُصلِحه إلا الاعتدالُ، بالتوسُّط الموصل إلىٰ الكمال، بما يكونُ لطبعِه بمنزلةِ حفظِ الصحة، ودفعِ المرضِ لبدَنِه؛ قال واصفًا لـ﴿قُرْءَانًا﴾: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ١٣٥-١٣٦).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٤٤).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ١٤١).

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥ ﴾

ولمَّا أخبَر عن إعراضِهم، أخبَر عن مباعَدتِهم فيه، فقال: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾[1].

لمَّا وصَف القرآنَ بأنَّهم أعرَضوا عنه ولا يَسمَعونه، بيَّن أنَّهم صرَّحوا بهذه النُّفْرةِ والمباعَدة، وذكَروا ثلاثةَ أشياءَ[2].

ثم أخبَر تعالىٰ عنهم بالمقالةِ الدالَّة علىٰ امتناعِ قَبولِهم، واليأسِ مِن رجوعِهم إليه، ومِن سماعهم لِما يتلوه؛ وهو قولُه تعالىٰ حكايةً عنهم: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾[3].

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ﴾

ولمَّا أخبَروا بإعراضِهم، وعلَّلوا بعدمِ فهمِهم بما يدعو إليه؛ أمَره سبحانه بجوابٍ يبيِّنُ أنَّهم علىٰ محضِ العناد، فقال: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[4].

استئنافٌ ابتدائي، هو تلقينُ الرسولِ ﷺ أن يجيبَ قولَهم: ﴿ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥ ﴾ المفرَّعَ علىٰ قولِهم: ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ ﴾ إلىٰ آخِره، جوابَ المتبرِّئِ مِن

(١) نظم الدرر (١٧/ ١٤٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٤٠).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٢٨٥).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ١٤٣-١٤٤).

أن يكونَ له حَوْلٌ وقوَّة ليَعمَلَ في إلجائهم إلىٰ الإيمانِ لمَّا أبَوْهُ؛ إذ ما هو إلا بشَرٌ مثلُهم في البشرية، لا حَوْلَ له علىٰ تقليبِ القلوب الضالَّة إلىٰ الهدىٰ، وما عليه إلا أن يُبلِّغَهم ما أوحىٰ اللهُ إليه(١).

لمَّا حكىٰ اللهُ عنهم هذه الشُّبْهةَ، أمَر محمَّدًا ﷺ أن يجيبَ عن هذه الشبهةِ بقولِه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾(٢).

﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾

ولمَّا كانت العقولُ والشرائع ناطقةً بأنَّ خلاصةَ السعادة في أمرينِ: التعظيمِ لأمر الله، والشفقةِ علىٰ خَلْقِ الله، وكان أفضَلَ أبوابِ التعظيم لأمر الله الإقرارُ بوَحْدانيَّته، فكان أخَسَّ الأعمال التي بَيْنَ العبدِ وربِّه الإخلالُ بذلك، وكان أخَسَّ الأعمالِ التي بَيْنَ العبدِ وبين الخَلْقِ مَنْعُ ما أوجَبه اللهُ في الزَّكاة، وكان معنىٰ الشركِ الحُكْمَ بأنَّ ما لا شيءَ له أصلًا وما لا يمكن أن يكونَ له مُلْكٌ تام علىٰ شيءٍ أصلًا قد شارَكَ مَن له الكلُّ -خَلْقًا وتصرُّفًا- فيما هو عليه مِن المُلْكِ التام الذي لا شَوْبَ فيه، وكانت الزكاةُ إشراكَ مَن له مُلْكٌ غيرُ تامٍّ لمثلِه في جزءٍ يسير مِن مالِه؛ قال ذامًّا لِمَن أبىٰ أن يشارِكَ الخلائقَ وأشرَكَ بالخالقِ: ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾(٣).

ثم وصَفهم بقولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٣٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٤١).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ١٤٥-١٤٦).

(٤) فتح القدير (٤/ ٥٨٠).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر ما للجاهلين وعيدًا وتحذيرًا، ذكَر ما لأضدادهم وعدًا وتبشيرًا، فقال مجيبًا لِمَن تشوَّف لذلك مؤكِّدًا لإنكارِ مَن يُنكِره: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[1].

استئنافٌ بياني نشأ عن الوعيدِ الذي تُوُعِّدَ به المشركون بعد أن أُمِروا بالاستقامة إلىٰ الله واستغفارِه عمَّا فرَط منهم، كأنَّ سائلًا يقول: فإن اتعَظوا وارتدَعوا، فماذا يكون جزاؤهم؟ فأفيدَ ذلك؛ وهو أنَّهم حينئذٍ يكونون مِن زُمْرةِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾، وفي هذا تنويهٌ بشأنِ المؤمنين[2].

ولمَّا ذكَر الكافرين، ذكَر المؤمنين، ووصَفهم وجزاءَهم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[3].

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه سَفَهَهم في كفرِهم بالآخرة، شرَع في ذِكْرِ الأدلة علىٰ قُدْرتِه عليها، وعلىٰ كلِّ ما يريد بخَلْقِ الأكوان وما فيها، الشاملِ لهم ولمعبوداتهم مِن الجمادات وغيرِها، الدالِّ علىٰ أنَّه واحدٌ لا شريكَ له، فقال منكِرًا عليهم، ومقرِّرًا بالوصف لأنَّهم كانوا عالِمين بأصلِ الخلْقِ: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ١٤٧-١٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٤٠).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٤٤).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ١٤٨).

بعد أن أمَر اللهُ رسولَه ﷺ أن يجيبَ المشركين بأنَّه بشَرٌ يوحىٰ إليه، فما يَملِك إلجاءَهم إلىٰ الإيمان؛ أمَره عَقِب ذلك بمعاوَدة إرشادهم إلىٰ الحقِّ علىٰ طريقةِ الاستفهام عن كفرِهم بالله، مدمِجًا في ذلك تذكيرَهم بالأدلةِ الدالة علىٰ أنَّ اللهَ واحد، بطريقةِ التوبيخ علىٰ إشراكِهم به في حينِ وضوحِ الدلائل علىٰ انفرادِه بالخَلق، واتصافِه بتمام القدرة والعلم؛ فجملةُ ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ إلىٰ آخِرها، استئنافٌ ابتدائي ثانٍ، هو جوابٌ ثانٍ عن مضمون قولهم: ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥﴾[(١)].

لمَّا أمَر محمَّدًا ﷺ في الآيةِ الأُولىٰ أن يقولَ: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾، أردفَه بما يدلُّ علىٰ أنَّه لا يجوز إثباتُ الشَّركة بَيْنَه تعالىٰ وبين هذه الأصنامِ في الإلهيَّة والمعبوديَّة؛ وذلك بأنْ بيَّن كمالَ قُدْرته وحِكْمته في خَلْقِ السماوات والأرضِ في مدَّة قليلة؛ فمَن هذا صِفتُه، كيف يجوز جعلُ الأصنامِ الخسيسة شركاءَ له في الإلهيَّةِ والمعبوديَّة؟![(٢)].

ثم أمَر اللهُ سبحانه رسولَه ﷺ أن يوبِّخَهم ويقرِّعَهم، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[(٣)].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠﴾

ولمَّا ذكَر ما هم به مُقِرُّون مِن إبداعها، أتبَعه ما جعَل فيها مِن الغرائب، فقال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: أبدَع الأرضَ علىٰ ما ذكَر: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٤١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٤٣).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٨١).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ١٥٠).

عطفٌ علىٰ فعلِ الصلة، لا علىٰ معمولِ الفعل؛ فجملةُ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ إلخ، صلةٌ ثانية في المعنىٰ؛ ولذلك جيءَ بفعلٍ آخرَ غيرِ فعلِ ﴿خَلَقَ﴾؛ لأنَّ هذا الجَعْلَ تكوينٌ آخَرُ حصَل بعد خَلْقِ الأرض، وهو خَلْقُ أجزاءٍ تتصل بها: إمَّا مِن جنسِها كالجبال، وإمَّا مِن غيرِ جنسها كالأقوات(١).

لمَّا أخبَر عن كونِه خالقًا للأرض في يومينِ، أخبَر أنَّه أتىٰ بثلاثةِ أنواعٍ مِن الصُّنْعِ العجيب والفعلِ البديع بعد ذلك(٢).

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾

ولمَّا كانت السماواتُ أعظَمَ مِن الأرضِ في ذاتِها: بنُورِ أبنيتِها واتساعِها، وزينتِها ودورانِ أفلاكِها وارتفاعِها؛ نبَّه علىٰ ذلك بالتعبيرِ بأداة التراخي، ولفظِ الاستواء وحرفِ الغاية، الدالِّ علىٰ عظيمِ العناية، فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾(٣).

﴿ثُمَّ﴾ للترتيبِ الرُّتبي، وهي تدلُّ علىٰ أنَّ مضمونَ الجملةِ المعطوفة أهَمُّ مرتبةً مِن مضمونِ الجملة المعطوف عليها؛ فإنَّ خَلْقَ السماواتِ أعظَمُ مِن خلقِ الأرض، وعوالِمَها أكثَرُ وأعظم؛ فجيءَ بحرفِ الترتيب الرُّتْبي بعد أن قُضِيَ حقُّ الاهتمام بذِكْرِ خَلْقِ الأرض حتىٰ يُوفَّىٰ المقتضِيانِ حقَّهما(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٤٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٤٤).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ١٥٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٤٥).

شروعٌ في بيانِ كيفيَّةِ التكوين إثر بيانِ كيفيَّةِ التقدير، ولعلَّ تخصيصَ البيان بما يتعلقُ بالأرض وأهلِها لِما أنَّ بيانَ اعتنائه تعالىٰ بأمرِ المخاطَبين وترتيب مَبادي معايشِهم قبل خَلْقِهم ممَّا يَحمِلُهم علىٰ الإيمان، ويزجُرُهم عن الكفرِ والطغيان(١).

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

تفريعٌ علىٰ قوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾(٢).

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ تفسيرٌ وتفصيل لتكوينِ السماء المُجمَل، المعبَّرِ عنه بالأمر وجوابه، لا أنَّه فعلٌ مترتِّب علىٰ تكوينها(٣).

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾

ولمَّا كان هذا القَدْرُ مِن العلم موجِبًا للانقياد لكلِّ خير مِن الوَحْدانيَّة وغيرها، والإقبالِ علىٰ الحق في كلِّ أمر، فكان المتمادي علىٰ إعراضِه قبل الوعظ به كأنَّه جدَّد إعراضًا غيرَ إعراضه الأول؛ قال مفصِّلًا بعضَ قوله: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾(٤).

بعد أن قرَعتْهم الحُجَّةُ التي لا تترُكُ للشك مَسرَبًا إلىٰ النفوس بعدها في أنَّ الله منفردٌ بالإلهيَّة؛ لأنَّه منفردٌ بإيجادِ العوالِمِ كلِّها، وكان ثبوتُ الوَحْدانيَّة مِن شأنه أن يزيلَ

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ٥).
(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٤٨).
(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ٥).
(٤) نظم الدرر (١٧/ ١٥٨).

الرِّيبةَ في أنَّ القرآنَ منزَّلٌ مِن عندِ الله؛ لأنَّهم ما كفَروا به إلا لأجلِ إعلانه بنفيِ الشريك عن الله تعالىٰ، فلمَّا استبانَ ذلك، كان الشأنُ أن يَفيئوا إلىٰ تصديقِ الرسول والإيمانِ بالقرآن، وأن يُقلِعوا عن إعراضهم المَحْكيِّ عنهم بقولِه في أول السُّورة: ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾﴾؛ فلذلك جُعِل استمرارُهم علىٰ الإعراضِ بعد تلك الحُجَجِ أمرًا مفروضًا كما يُفرَض المُحالُ؛ فجيءَ في جانبِه بحرف «إن»، الذي الأصلُ فيه أن يقعَ في الموقعِ الذي لا جَزْمَ فيه بحصولِ الشرط[(١)].

اعلَمْ أنَّ الكلامَ إنَّما ابتُدِئ مِن قولِه: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، واحتُجَّ عليه بقولِه: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾؛ وحاصلُه أنَّ الإلهَ الموصوف بهذه القدرةِ القاهرة كيف يجوزُ الكفر به؟ وكيف يجوز جعلُ هذه الأجسامِ الخسيسة شركاءَ له في الإلهيَّة؟ ولمَّا تمَّم تلك الحُجَّةَ، قال: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾، وبيانُ ذلك لأنَّ وظيفةَ الحُجَّة قد تمت علىٰ أكملِ الوجوه، فإن بقُوا مُصِرِّين علىٰ الجهل، لم يَبقَ حينئذٍ علاجٌ في حقِّهم إلا إنزالُ العذابِ عليهم[(٢)].

﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

وعلَّل إيقاعَ ذلك بهم بقولِه: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٥٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٥١).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ١٥٩).

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) ﴾

ولمَّا جمَعهم فيما اجتمَعوا فيه حتىٰ كأنَّهم تواصَوْا به، فصَّل ما اختلَفوا فيه، فقال مسبِّبا عمَّا مضىٰ مِن مقالِهم: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾(١).

بعد أن حكىٰ عن عادٍ وثمودَ ما اشترَكَ فيه الأُمَّتانِ مِن المكابَرةِ والإصرار علىٰ الكفر، فصَّل هنا بعضَ ما اختصَّتْ به كلُّ أُمَّةٍ منهما مِن صورةِ الكفر، وذكَر مِن ذلك ما له مناسبةٌ لِما حَلَّ بكلِّ أُمَّةٍ منهما مِن العذاب(٢).

لمَّا بيَّن تعالىٰ كُفْرَ عادٍ وثمودَ علىٰ الإجمال، فصَّل بعد ذلك؛ فذكَر خاصيةَ كلِّ واحدةٍ مِن الطائفتين، فقال: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾(٣).

شروعٌ في حكايةِ ما يختصُّ بكلِّ واحدةٍ مِن الطائفتين مِن الجنايةِ والعذاب إثر حكايةِ ما يعُمُّ الكلَّ مِن الكفرِ المطلق(٤).

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦) ﴾

فتسبَّب عن كِبْرِهم وكفرِهم قولُه: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ١٦٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٥٥).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٢٩٥).

(٤) إرشاد العقل السليم (٨/ ٨).

ثـم ذكـر تعـالىٰ مـا أصـاب بـه عـادًا، فقـال: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴾[1].

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٧ ﴾

ولـمَّا أنهىٰ أمرَ صـاعقتِهم، شـرَع في بيـانِ صـاعقةِ ثمـودَ، فقـال: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[2].

لمَّا كان حالُ الأمَّتينِ واحدًا في عدمِ قَبول الإرشاد مِن جانـبِ الله تعـالىٰ -كمـا أشـار إليـه قولُـه تعـالىٰ: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾-، كـان الإخبـارُ عـن ثمـودَ بـأنَّ الله هَداهم مقتضيًا أنَّه هَدىٰ عـادًا مثـلَ مـا هَـدىٰ ثمـودَ، وأنَّ عـادًا استحَبُّوا العَمىٰ علىٰ الهدىٰ مثلَ ما استحَبَّتْ ثمودُ[3].

بدأ بقصَّةِ عادٍ لأنَّها أقدَمُ زمانًـا، ثـم ذكـر ثمـودَ، فقـال: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[4].

ثـم ذكـر حـالَ الطائفـةِ الأخـرىٰ، فقـال: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[5].

---

(١) البحر المحيط (٩/ ٢٩٥).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ١٦٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٦٢).

(٤) البحر المحيط (٩/ ٢٩٦).

(٥) فتح القدير (٤/ ٥٨٦).

﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝١٨ ﴾

ولمَّا أتمَّ الخبرَ عن الكافرينَ مِن الفريقَينِ، أتبَعه الخبرَ عن مؤمنِيهم؛ بشارةً لِمَن اتبَع النبيَّ ﷺ، ونِذارةً لِمَن صدَّ عنه، فقال: ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾[١].

الأظهر أنَّه عطفٌ على التفصيل في قولِه: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾، وما عُطِف عليه مِن قولِه: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾؛ لأنَّ موقعَ هاته الجملةِ المتضمِّنةِ إنجاءَ المؤمنين مِن العذاب بعد أن ذُكِر عذابُ عادٍ وعذابُ ثمودَ يشير إلى أنَّ المعنى إنجاءُ الذين آمَنوا مِن قومِ عادٍ وقومِ ثمودَ؛ فمضمونُ هذه الجملةِ فيه معنى استثناءٍ مِن عمومِ أمَّتَيْ عادٍ وثمودَ، فيكون لها حُكْمُ الاستثناءِ الوارد بعد جُمَلٍ متعاقِبة؛ أنَّه يعُودُ إلى جميعها[٢].

لمَّا ذكَر اللهُ الوعيدَ، أردَفه بالوعد، فقال: ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾[٣].

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ ﴾

ولمَّا ذكَر حالَهم في الدُّنيا، وأشار إلى حالِ الآخرة؛ أتبَعه تفصيلَ ذلك، فقال: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾[٤].

لمَّا فرَغ مِن موعظةِ المشركين بحالِ الأُمَمِ المكذِّبة مِن قبلِهم، وإنذارِهم بعذابٍ يحُلُّ بهم في الدُّنيا كما حَلَّ بأولئك؛ ليكونَ لهم ذلك عِبْرةً؛ فإنَّ لاستحضارِ المُثُلِ والنظائر أثرًا في النفس تَعتبر به ما لا تَعتبر بتوصُّفِ المعاني العقلية؛ انتقَل إلى إنذارهم بما سيحُلُّ بهم في الآخرة[٥].

(١) نظم الدرر (١٧/ ١٦٧).
(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٦٣).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٥٤).
(٤) نظم الدرر (١٧/ ١٦٨).
(٥) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٦٤).

لمَّا بيَّن كيفيَّةَ عقوبةِ أولئك الكفار في الدُّنيا، أردَفه بكيفيَّةِ عقوبتِهم في الآخرة؛ ليحصُلَ منه تمامُ الاعتبارِ في الزَّجر والتحذير[١].

شروعٌ في بيانِ عقوباتهم الآجلة إثر بيانِ عقوباتهم العاجلة، والتعبيرُ عنهم بأعداءِ الله تعالى لذَمِّهم، والإيذانِ بعلَّةِ ما يَحِيقُ بهم مِن ألوانِ العذاب[٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠﴾

ولمَّا بيَّن إهانتَهم بالوَزْعِ، بيَّن غايتها، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[٣].

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾

ولمَّا أخبَر بهذا الذي يفتِّتُ الحجارةَ لو عقَلتْ ساعةً ما، أخبَر أنَّه لم يُفِدْهم الرجوعُ عن طبعِهم الجافي وبَلادتِهم الكثيفة، فقال عاطفًا على ما تقديرُه: فلم تُفِدْهم هذه الشَّهادةُ خجَلًا مِن الله، ولا خضوعًا في أنفسِهم، ولا رجوعًا عن الجدالِ والعناد، كما لم يُفِدْهم ذلك مجرَّدُ عِلْمِ الله فيهم: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[٤].

ثم سألوا جلودَهم عن سببِ شَهادتها عليهم، فلم تذكُرْ سببًا غيرَ أنَّ اللهَ تعالى أنطَقَها[٥].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٥٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ٩).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ١٦٨-١٦٩).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ١٦٩-١٧٠).

(٥) البحر المحيط (٩/ ٢٩٨).

فإذا شَهِدتْ عليهم عاتَبوها، ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١).

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا اعتذَروا بما إخبارُهم به في هذه الدُّنيا وعظٌ وتنبيه، وفي الآخرةِ توبيخٌ وتنديم؛ قالوا مكرِّرين للوعظ، محذِّرين مِن جميع الكون: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٢).

قلَّ مَن تصدىٰ مِن المفسِّرين لبيانِ اتصالِ هذه الآياتِ الثلاث بما قبلها، ومَن تصدىٰ منهم لذلك، لم يأتِ بما فيه مَقنَعٌ، وأَوْلىٰ كلامٍ في ذلك كلامُ ابنِ عطيَّة، ولكنَّه وجيزٌ وغيرُ محرَّر، وهو وبعضُ المفسرين ذكَروا سببًا لنزولها، فزادوا بذلك إشكالًا، وما أبانوا انفصالًا، ولنبدأ بما يقتضيه نظمُ الكلام، ثم نأتي علىٰ ما رُوِي في سببِ نزولها بما لا يُفضِي إلىٰ الانفصام، فيجوز أن تكونَ جملةُ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ بتمامها معطوفةً علىٰ جملةِ ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إلخ، فتكونَ مشمولةً للاعتراض، متصِلة بالتي قبلها علىٰ كِلا التأويلينِ السابقين في التي قبلها. ويجوز أن تكونَ مستقلَّةً عنها: إمَّا معطوفةً علىٰ جملةِ ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ الآيات، وإمَّا معترضةً بَيْنَ تلك الجملةِ وجملة ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، وتكونَ الواوُ اعتراضيةً، ومناسبةُ الاعتراضِ ما جرىٰ مِن ذِكْرِ شَهادةِ سمعِهم وأبصارهم وجلودِهم عليهم، فيكون الخطابُ لجميعِ المشركين الأحياء في الدُّنيا، أو للمشركين في يومِ القيامةِ(٣).

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٤٧).
(٢) نظم الدرر (١٧/ ١٧١-١٧٢).
(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٦٩).

حكايةٌ لِما سيقال لهم يومئذٍ مِن جهتِه تعالىٰ بطريقِ التوبيخ والتقريع تقريرًا لجوابِ الجلود(١).

﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا كان ذِكْرُ المعصية وما جرَّأ عليها يقتضي انتقاصًا يَقدَح في الإلهيَّة، بيَّن أنَّه الموجِبُ للغضب، فقال: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾(٢).

﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ﴾ الإشارةُ إلىٰ الظنِّ المأخوذ مِن فعلِ ﴿ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ويستفاد مِن الإشارةِ إليه تمييزُه أكمَلَ تمييزٍ، وتشهيرُ شناعتِه للنداء علىٰ ضَلالِهم(٣).

﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا كان ذلك، تسبَّب عنه قولُه لافتًا القولَ عن خطابهم؛ إيذانًا بشِدَّة الغضب، وإشارةً إلىٰ أنَّهم لمَّا وصَلوا إلىٰ ما ذُكِر مِن الحال، أعيَا عليهم المقال، فلم يَقدِروا علىٰ نُطْقٍ بلسان، ولا إشارةٍ برأس ولا بَنان: ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾(٤).

تفريعٌ علىٰ جوابِ ﴿إِذَا﴾ علىٰ كِلا الوجهينِ المتقدِّمين، أو تفريع علىٰ جملة ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾، أو هو جوابُ ﴿إِذَا﴾، وما بينهما اعتراضٌ؛ علىٰ

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٠).
(٢) نظم الدرر (١٧/ ١٧٣).
(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٧١).
(٤) نظم الدرر (١٧/ ١٧٤).

حسَبِ ما يناسب الوجوهَ المتقدِّمة. والمعنىٰ علىٰ جميعِ الوجوه: أنَّ حاصلَ أمرِهم أنَّهم قد زُجَّ بهم في النار، فإن صبَروا واستسلَموا فهم باقونَ في النار، وإن اعتذَروا لم يَنفَعْهم العُذْرُ، ولم يُقبَلْ منهم تنصُّلٌ[(١)].

ثم أخبَر عن حالهم، فقال: ﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴾[(٢)].

﴿ ۞ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ٢٥ ﴾

ولمَّا ذكَر وعيدَهم في الدُّنيا والآخرة، أتبَعه كُفرَهم الذي هو سببُ الوعيد، وعطَفه علىٰ ما تقديرُه: فإنَّا طبَعْناهم طبيعةَ سَوْءٍ تقتضي أنَّهم لا ينفكُّون عمَّا يوجِب العتبَ، فأعرَضوا ولم تَنفَعْهم النُّذْرَىٰ[(٣)] بصاعقةِ عادٍ وثمودَ، فقال صارفًا القولَ إلىٰ مظهرِ العظَمةِ إشارةً إلىٰ أنَّ التصرُّفَ في القلوب أمرٌ عظيم جدًّا: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾[(٤)].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ ﴾؛ وذلك أنَّه حُكِي قولُهم المقتضي إعراضَهم عن التدبُّر في دعوةِ الإيمان، ثم ذكَر كفرَهم بخالق الأكوان بقولِه: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ ﴾، ثم ذكَر مصيرَهم في الآخرة بقولِه: ﴿ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ ﴾، ثم عقَّب ذلك بذِكرِ سببِ ضَلالهم الذي نشأت عنه

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٧٣).

(٢) فتح القدير (٤/ ٥٨٧).

(٣) أي: الإنذار.

(٤) نظم الدرر (١٧/ ١٧٤).

أحوالُهم بقولِه: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾، وتخلَّل بَيْنَ ما هنالك وما هنا أفانينُ مِن المواعظِ والدلائل، والمِنَنِ والتعاليم، والقوارع والإيقاظ[(١)].

لمَّا ذكَر الوعيدَ الشديد في الدُّنيا والآخرة علىٰ كفرِ أولئك الكفارِ، أردَفه بذِكْرِ السببِ الذي لأجلِه وقَعوا في ذلك الكفرِ، فقال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾[(٢)].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾

ولمَّا أخبَر بخُسْرانهم، دلَّ عليه بما عُطِف علىٰ ما أرشَد إليه السياقُ مِن تقديره مِن قولي: فأعرَضوا -أي: هؤلاء العربُ- وقالوا -هكذا كان الأصل-، ولكنَّه قال تنبيهًا علىٰ الوصفِ الذي أوجَب إعراضَهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[(٣)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ عَطْفَ القصَّةِ علىٰ القصَّة، ومناسبةُ التخلُّص إليه: أنَّ هذا القولَ ممَّا ينشأ عن تزيينِ قُرَنائهم مِن الإنس، أو هو عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم﴾، وهذا حكايةٌ لحالٍ أخرىٰ مِن أحوالِ إعراضهم عن الدعوةِ المحمَّدية، بعد أن وصَف إعراضَهم في أنفسهم، انتقَل إلىٰ وصفِ تلقينِهم الناسَ أساليبَ الإعراض؛ فالذين كفَروا هنا هم أئمَّةُ الكفر، يقولون لعامَّتهم: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٧٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٥٧).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ١٧٧-١٧٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٧٦-٢٧٧).

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

ولمَّا استحَقُّوا بهذا العقوبةَ، سبَّب عن ذلك مؤكِّدًا لإنكارهم قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[(١)].

دلَّتِ الفاءُ علىٰ أنَّ ما بعدها مفرَّعٌ عمَّا قبلها: فإمَّا أن يكونَ تفريعًا علىٰ آخرِ ما تقدَّم؛ وهو قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ الآيةَ، وإمَّا أن يكونَ مفرَّعًا علىٰ جميعِ ما تقدم، ابتداءً مِن قولِه: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾ الآيةَ، وقوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ ﴾ إلخ[(٢)].

ولمَّا كان هذا ظلمًا منهم وعنادًا، لم يَبقَ فيهم مَطمَعٌ للهداية، فلم يَبقَ إلا عذابُهم ونكالهم؛ ولهذا قال: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[(٣)].

ثم توعَّدهم سبحانه علىٰ ذلك، فقال: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[(٤)].

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

ولمَّا أبلَغ سبحانه في الترهيبِ مِن عقابهم، زاد في تعظيمِه وفضله لطفًا لِمَن أراد هدايتَه مِن عباده، وإقامة الحُجَّةِ علىٰ غيرهم، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ١٧٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٧٨).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٤٨).
(٤) فتح القدير (٤/ ٥٨٩).
(٥) نظم الدرر (١٧/ ١٧٩-١٨٠).

لمَّا قال في الآية المتقدِّمة: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧)﴾، بيَّن أنَّ ذلك الأسوأَ الذي جُعِل جزاءَ أعداءِ الله هو النارُ[١].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾

ولمَّا تراءىٰ لهم أنَّ الذي أوجَب لهم هذا السُّوءَ جلودُهم بالشَّهادة عليهم، وقرناؤُهم بإضلالهم لهم، وكان التباغضُ والعداوة قد وقَع بَيْنَ الجميع، فصار تَمنِّي كلٍّ للآخَر السُّوءَ زيادةً في عذابهم، وكانت مَساءةُ جلودِهم مَساءتَهم؛ خَصُّوا القرناءَ بإرادةِ الانتقام منهم، فحكىٰ سبحانه قولَهم بقولِه عطفًا علىٰ ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ﴾، أو علىٰ ما تقديره: فعَلِموا حينئذ أنَّهم كانوا علىٰ ضَلال لتقصيرِهم في النظر، وتقليدِهم لغيرهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾[٢].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾؛ أي: ويقولون في جهنَّمَ، فعدَل عن صيغةِ الاستقبال إلىٰ صيغةِ المضيِّ للدلالة علىٰ تحقيقِ وقوع هذا القولِ؛ فالقائلون: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾: هم عامةُ المشركين؛ كما يدلُّ عليه قولُه: ﴿الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾، ومعنىٰ ﴿أَرِنَا﴾: عَيِّنْ لنا، وهو كنايةٌ عن إرادةِ انتقامهم منهم؛ ولذلك جزمَ ﴿نَجْعَلْهُمَا﴾ في جوابِ الطلب، علىٰ تقدير: إن تُرِنَاهُمَا، نَجعَلْهما تحتَ أقدامنا[٣].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٥٩).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ١٨٠-١٨١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٨٠).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

ولمَّا ذكَر الأعداءَ وقُرناءهم نِذارةً، أتبعه ذِكْرَ الأولياءِ وأَوِدَّاءَهم[(١)] بِشارةً، فقال مبيِّنًا لحالهم القابلِ للإعراض وثمراته، جوابًا لِمَن يسأل عنهم، مؤكِّدًا لأجلِ إنكار المعانِدين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[(٢)].

بعد استيفاءِ الكلام على ما أصاب الأُمَمَ الماضية المشركين المكذِّبين مِن عذاب الدُّنيا، وما أُعِدَّ لهم مِن عذابِ الآخرة ممَّا فيه عِبْرةٌ للمشركين الذين كذَّبوا محمَّدًا ﷺ بطريقِ التعريض، ثم أُنذِروا بالتصريح بما سيحُلُّ بهم في الآخرة، ووصفِ بعضِ أهواله؛ تشوَّف السامعُ إلى معرفةِ حظِّ المؤمنين ووصفِ حالهم، فجاء قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ إلخ، بيانًا للمترقِّب، وبشرى للمتطلِّب؛ فالجملة استئنافٌ بياني ناشئ عمَّا تقدم مِن قولِه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾[(٣)].

لمَّا أطنَب في الوعيد، أردَفه بهذا الوعدِ الشريف؛ وهذا ترتيبٌ لطيف، مدارُ كلِّ القرآن عليه[(٤)].

شروعٌ في بيانِ حُسْنِ أحوال المؤمنين في الدُّنيا والآخرة بعد بيانِ سُوءِ حالِ الكفرة فيهما[(٥)].

---

(١) أي: أحبابهم.

(٢) نظم الدرر (١٧/ ١٨٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٨١-٢٨٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٦٠).

(٥) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٣).

﴿ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ ﴾

ولمَّا أثبَتوا لهم الخيرَ، ونفَوْا عنهم الضَّيْرَ؛ علَّلوه بقولِهم: ﴿ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾[1].

ويقولون لهم أيضًا - مثبِّتِينَ لهم ومبشِّرِينَ -: ﴿ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾[2].

ثم بشَّرهم - سبحانه - بما هو أعظَمُ مِن ذلك كلِّه، فقال: ﴿ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾[3].

﴿ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢ ﴾

ولمَّا كان هذا كلُّه بالنسبةِ إلىٰ ما يُعطَوْنَ شيئًا يسيرًا، نبَّه عليه بقولِه: ﴿ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴾[4].

﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣ ﴾

ولمَّا كان هذا لِمَن كمَّل نفسَه، أتبَعه بمَن أكمَلَ غيرَه؛ إشارةً إلىٰ أنَّ السعادةَ التامة أن يكتسِبَ الإنسانُ مِن الصفاتِ الفاضلة ممَّا يَصِيرُ بها كاملًا في نفسه، فإذا فرَغ اشتغَل بتكميلِ الناقص، عاطفًا علىٰ ما تقديره: ما أحسَنَ هذا الذي كمَّل نفسه، وقاله تنويهًا

(١) نظم الدرر (١٧/ ١٨٤).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٤٨).

(٣) فتح القدير (٤/ ٥٩٠).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ١٨٥).

بعلوِّ قَدْرِ النفعِ المتعدي، وحثًّا على مداومةِ الدعاء، وإن أبَوْا وقالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾، ثم قالوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾؛ فإنَّهم لم يقولوا مِن ذلك شيئًا إلا ذُكِرتْ أجوبتُه الشافية الكافية، فاندفَعتْ جميعُ الشُّبهات، وزالت غياهبُ الضَّلالات، فصار تحذيرُ الدعاء موضعًا للقبول: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[1].

ليس هذا مِن حكايةِ خطابِ الملائكة للمؤمنين في الآخرة، وإنَّما هو موجَّهٌ مِن الله؛ فالأظهر أنَّه تكملةٌ للثناء على الذين قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ واستقاموا، وتوجيهٌ لاستحقاقِهم تلك المعاملةَ الشريفة، وقمعٌ للمشركين إذ تَقرَعُ أسماعَهم؛ أي: كيف لا يكونون بتلك المثابةِ وقد قالوا أحسَنَ القول، وعَمِلوا أحسَنَ العمل؟! وذِكْرُ هذا الثناءِ عليهم بحُسْنِ قولهم عَقِب ذِكْرِ مَذمَّةِ المشركين ووعيدِهم على سُوءِ قولهم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾: مُشعِرٌ -لا محالةَ- بأنَّ بَيْنَ الفريقينِ بَوْنًا بعيدًا، طَرَفاه: الأحسَنُ المصرَّح به، والأسوأ المفهومُ بالمقابلة؛ أي: فلا يستوي الذين قالوا أحسَنَ القول وعَمِلوا أصلَحَ العمل مع الذين قالوا أسوأَ القول وعَمِلوا أسوأَ العمل؛ ولهذا عقب بقولِه: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾[2].

مراتبُ السَّعادات اثنانِ: التامُّ، وفوقَ التام؛ أمَّا التام: فهو أن يكتسِبَ مِن الصفاتِ الفاضلة ما لأجلِها يَصِيرُ كاملًا في ذاته، فإذا فرَغ مِن هذه الدرجةِ، اشتغَل بعدها بتكميلِ الناقصين؛ وهو فوقَ التام. إذا عرَفْتَ هذا، فنقول: إنَّ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ إشارةٌ إلى المرتبة الأُولى؛ وهي اكتسابُ الأحوال التي تفيد كمالَ النفس في جوهرها، فإذا حصَل الفراغُ مِن هذه المرتبةِ، وجَب الانتقالُ إلى

(١) نظم الدرر (١٧/ ١٨٦).
(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٨٧).

المرتبة الثانية؛ وهي الاشتغالُ بتكميل الناقصين؛ وذلك إنَّما يكونُ بدعوةِ الخَلْقِ إلىٰ الدِّينِ الحق؛ وهو المرادُ مِن قولِه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ فهذا أيضًا وجهٌ حسَنٌ في نظمِ هذه الآيات[1].

لمَّا تقدَّم قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، ذكَر مَن دعَا إلىٰ ذلك، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2].

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

ولمَّا كان التقدير: لا أحدَ أحسَنُ قولًا منه؛ بل هو المحسِنُ وحده؛ فلا يستوي هذا المحسِنُ وغيرُه أصلًا، ردًّا عليهم أنَّ حالَهم أحسَنُ مِن حالِ الدعاة إلىٰ الله، وكان القيامُ بتكميل الخَلق يحتاج إلىٰ جهادٍ للنفس عظيمٍ: مِن تحمُّلِ المشاقِّ، والصبرِ علىٰ الأذىٰ، وغيرِ ذلك مِن جميعِ الأخلاق؛ عطَف عليه التفرقةَ بَيْنَ عملَيْهما ترغيبًا في الحسنات، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[3].

عطفُ هذه الجملةِ له موقعٌ عجيب؛ فإنَّه يجوز أن يكونَ عطفًا علىٰ جملة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلخ، تكملةً لها؛ فإنَّ المعطوفَ عليها تضمَّنتِ الثناءَ علىٰ المؤمنين إثر وعيدِ المشركين وذمِّهم، وهذه الجملة فيها بيانُ التفاوت بَيْنَ مرتبةِ المؤمنين وحالِ المشركين؛ فإنَّ الحسنةَ اسمٌ منقول مِن الصفةِ، فتلمُّحُ الصفةِ مقارِنٌ له؛ فالحسنةُ حالة المؤمنين، والسيئةُ حالة المشركين، فيكون المعنىٰ كمعنىٰ

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٦٢).

(٢) البحر المحيط (٩/ ٣٠٥).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ١٨٧).

آياتٍ كثيرة مِن هذا القبيل؛ مثلُ: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾، فعطفُ هذه الجملةِ علىٰ التي قبلها علىٰ هذا الاعتبار يكون مِن عطفِ الجُمَلِ التي يجمعها غرضٌ واحد، وليس مِن عطفِ غرضٍ علىٰ غرض، ويجوز أن تكونَ عطفًا علىٰ جملةِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾، الواقعةِ بعد جملة ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾؛ فإنَّ ذلك مثيرٌ في نفسِ النبي ﷺ الضَّجَرَ مِن إصرارِ الكافرين علىٰ كفرِهم، وعدمِ التأثُّر بدعوةِ النبي ﷺ إلىٰ الحقِّ، فهو بحالِ مَن تَضِيقُ طاقةُ صبرِه علىٰ سفاهةِ أولئك الكافرين، فأردَف اللهُ ما تقدم بما يدفعُ هذا الضِّيقَ عن نفسه بقولِه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ الآية[1].

ابتدأ أولًا بأن قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾، فلهم الثوابُ العظيم، ثم ترقَّىٰ مِن تلك الدرجةِ إلىٰ درجةٍ أخرىٰ؛ وهي أنَّ الدعوةَ إلىٰ الله مِن أعظَمِ الدرجات، فصار الكلامُ مِن أولِ السُّورة إلىٰ هذا الموضعِ واقعًا علىٰ أحسَنِ وجوهِ الترتيب، ثم كأنَّ سائلًا سأل، فقال: إنَّ الدعوةَ إلىٰ الله وإن كانت طاعةً عظيمة، إلا أنَّ الصبرَ علىٰ سفاهةِ هؤلاء الكفارِ شديدٌ لا طاقةَ لنا به؟ فعند هذا ذكَر اللهُ ما يصلُحُ لأن يكونَ دافعًا لهذا الإشكالِ، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[2].

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّه لا أحدَ أحسَنُ ممَّن دعا إلىٰ الله، ذكَر ما يترتبُ علىٰ ذلك مِن حُسْنِ الأخلاق، وأنَّ الداعيَ إلىٰ الله قد يجافيه المدعوُّ؛ فينبغي أن يرفُقَ به، ويَتلطَّفَ في إيصالِ الخير فيه[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٩٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٦٤).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٣٠٦).

جملةٌ مستأنَفة، سيقت لبيانِ محاسنِ الأعمال الجارية بَيْنَ العباد إثر بيانِ محاسنِ الأعمال الجارية بَيْنَ العبد وبين الربِّ ﷻ؛ ترغيبًا لرسولِ الله ﷺ في الصبرِ علىٰ أذية المشركين، ومقابَلةِ إساءتهم بالإحسان(١).

ثم بيَّن سبحانه الفرقَ بَيْنَ محاسنِ الأعمال ومَساويها، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾(٢).

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾

ولمَّا كانت هذه الخَصْلةُ أمرًا جامعًا لجميعِ مصالحِ الدِّين والدُّنيا، قال منبِّهًا علىٰ عظيمِ فضلها، وبديع نُبْلِها، حاثًّا علىٰ الاستظلالِ بجميع ظِلِّها، مشيرًا بالبناء للمفعول إلىٰ أنَّها هي العمدةُ المقصودة بالذات، علىٰ وجهٍ منبِّهٍ علىٰ أنَّها مخالِفةٌ لجبِلَّةِ الإنسان؛ حثًّا علىٰ الرغبةِ في طلبِها مِن واهبها: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(٣).

لمَّا أرشَد اللهُ تعالىٰ إلىٰ هذا الطريقِ النافع في الدِّين والدُّنيا والآخرة، عظَّمه، فقال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(٤).

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

ولمَّا كان التقدير: فإن لَقِيتَ ذلك، وأعاذك اللهُ مِن الشَّيطان؛ فأنتَ أنتَ؛ عطَف عليه قولَه معبِّرًا بأداةِ الشك المُفهِمة لجوازِ وقوع ذلك في الجملةِ، مع العلم بأنَّه ﷺ معصومٌ؛ إشارةً إلىٰ رُتْبةِ الإنسان مِن حيث هو إنسانٌ، وإلىٰ أنَّ الشَّيطانَ يتوهَّم مع

---

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٤).

(٢) فتح القدير (٤/ ٥٩١).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ١٨٨-١٨٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٦٥).

علمِه بالعصمة أنَّه يَقدِر علىٰ ذلك، فيعلِّقُ أمَلَه به، وكأنَّه لذلك أكَّد لأنَّ نَزْغَه له في محَلِّ الإنكار: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾؛ فبعد أن أرشَد إلىٰ ما هو عَوْنٌ علىٰ تحصيلِ هذا الخُلُقِ المأمور به؛ وهو دفعُ السيئةِ بالتي هي أحسن، وبعد أن شُرِحتْ فائدةُ العمل بها بقولِه: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ ﴾، صرَف العِنانَ هنا إلىٰ التحذيرِ مِن عوائقها التي تجتمع كثرتُها في حقيقةِ نَزْغِ الشَّيطان، فأمَر بأنَّه إن وجَد في نفسِه خواطرَ تَصرِفُه عن ذلك، وتَدْعوه إلىٰ دفعِ السيئة بمثلِها؛ فإنَّ ذلك نَزْغٌ مِن الشَّيطان، دواؤه أن تستعيذَ بالله منه؛ فقد ضَمِن اللهُ له أن يُعيذَه إذا استعاذه؛ لأنَّه أمَره بذلك، والخطابُ للنبي ﷺ، وفائدةُ هذه الاستعاذة: تجديدُ داعيةِ العصمة المركوزةِ في نفس النبي ﷺ؛ لأنَّ الاستعاذةَ بالله مِن الشَّيطان استمدادٌ للعصمة، وصَقْلٌ لزَكاءِ النفس ممَّا قد يقتربُ منها مِن الكدراتِ[(٢)].

لمَّا ذكَر هذا الطريقَ الكامل في دفعِ الغضب والانتقام، وفي تركِ الخصومة؛ ذكَر عَقِيبَه طريقًا آخرَ عظيمَ النفع أيضًا في هذا البابِ، فقال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[(٣)].

لمَّا أمَر تعالىٰ بدفعِ السيئة بالأحسن، كان قد يَعرِضُ للمسلم في بعضِ الأوقات مقابَلةُ مَن أساء بالسيئةِ؛ فأمَره إن عرَض له ذلك أن يستعيذَ بالله؛ فإنَّ ذلك مِن نَزْغِ الشَّيطان[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ١٨٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٩٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٦٥).

(٤) البحر المحيط (٩/ ٣٠٧).

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما يقابَلُ به العدوُّ مِن الإنس: وهو مقابَلةُ إساءتِه بالإحسان، ذكَر ما يُدفَعُ به العدوُّ الجِنِّي: وهو الاستعاذةُ بالله، والاحتماءُ مِن شرِّه، فقال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[1].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر أنَّهم جعَلوا له أندادًا مع أنَّه خلَق الأرضَ في يومينِ، وختَم ذلك بأنَّ أحسَنَ الحسَنِ الدعاءُ إلىٰ الله، وختَم الأمرَ بالدعاء بصفة العلم؛ أتبعَه دلائلَ التوحيد؛ إعلامًا بأنَّ التوحيدَ أحسَنَ الحسَنِ يطرُدُ كلَّ شيء، وتنبيهًا علىٰ أنَّ الدعوةَ إلىٰ الله تعالىٰ عبارةٌ عن تنويرِ الدلائل الدالةِ علىٰ الذات والصفات؛ وذلك ببيانِ الأفعال وآثارها، وهو العالِمُ بجميعِ ما فيه مِن الأجزاء والأبعاض جوهرًا وعرَضًا، وبدأ بذِكْرِ الفلكياتِ لأنَّها أدَلُّ، فقال عاطفًا علىٰ ما تقديره: فمِن آياته الناشئةِ عن شمول علمِه، المستلزِمِ لشمول قُدْرته، المنتجِة لإعادته لِمَن يريد، ونفوذِ تصرُّفِه في كلِّ ما يشاء، المستلزِمِ لتفرُّدِه بالإلهيَّة: أنَّه خلَق الخافقينِ -كما مضىٰ- في ستَّةِ أيامٍ؛ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[2].

عطفٌ علىٰ جملة ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ الآية، عَطْفَ القصَّةِ علىٰ القصَّة؛ فإنَّ المقصودَ مِن ذِكْرِ خَلْقِ العوالم أنَّها دلائلُ علىٰ انفرادِ الله بالإلهيَّة؛

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٥٠).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ١٩١).

فلذلك أخبَر هنا عن المذكوراتِ في هذه الجملةِ بأنَّها مِن آيات الله انتقالًا في أفانينِ الاستدلال؛ فإنَّه انتقالٌ مِن الاستدلالِ بذواتٍ مِن مخلوقاته إلىٰ الاستدلال بأحوالٍ مِن أحوالِ تلك المخلوقات، فابتُدئ ببعضِ الأحوال السماوية؛ وهي حالُ الليلِ والنهار، وحالُ طلوعِ الشمس وطلوعِ القمر (١).

لمَّا بيَّن في الآيةِ المتقدِّمة أنَّ أحسَنَ الأعمالِ والأقوال هو الدعوةُ إلىٰ الله تعالىٰ، أردَفه بذِكْرِ الدلائلِ الدالة علىٰ وجودِ الله وقُدْرته وحِكْمته؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ الدعوةَ إلىٰ الله تعالىٰ عبارةٌ عن تقريرِ الدلائل الدالة علىٰ ذاتِ الله وصفاته (٢).

لمَّا بيَّن تعالىٰ أنَّ أحسَنَ الأعمال والأقوال هو نظيرُ هذه الآيةِ: الدعوةُ إلىٰ الله، أردَفه بذِكْرِ الدلائلِ العُلْوية والسُّفْلية، وعلىٰ قُدْرته الباهرة، وحِكْمته البالغة، وحُجَّته القاطعة؛ فبدأ بذِكْرِ الفلَكياتِ بالليل والنهار، وقدَّم ذِكْرَ الليل؛ قيل: تنبيهًا علىٰ أنَّ الظُّلمةَ عدَمٌ، والنُّورَ وجودٌ، وناسَب ذِكْرُ الشمسِ بعد النهار؛ لأنَّها سببٌ لتنويره، ويَظهَر العالَمُ فيه، ولأنَّها أبلَغُ في التنوير مِن القمر، ولأنَّ القمرَ -فيما يقولون- مستفادٌ نورُه مِن نورِ الشمس (٣).

ثم شرَع سبحانه في بيانِ بعضِ آياته البديعة، الدالَّة علىٰ كمال قُدْرته وقوَّة تصرُّفه؛ للاستدلالِ بها علىٰ توحيده، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٩٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٦٥).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٣٠٧).

(٤) فتح القدير (٤/ ٥٩٣).

﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾

ولمَّا كانوا في هذا الأمرِ بَيْنَ طاعةٍ ومعصية، وكان درءُ المفاسدِ مقدَّمًا؛ سبَّب عن ذلك قولَه معبِّرًا بأداةِ الشك تنبيهًا لهم على أنَّ استكبارَهم بعد إقامةِ هذه الأدلةِ ينبغي ألا يُتوهَّمَ، وصرَفَ القولَ إلى الغَيْبة تحقيرًا لهم، وإبعادًا على تقديرِ وقوع ذلك منهم: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ (١).

الفاءُ للتفريع على نهيِهم عن السجود للشمس والقمر، وأمرِهم بالسجودِ لله وحده؛ أي: فإن استكبَروا أن يتَّبِعوك، وصمَّموا على السجودِ للشمس والقمر، أو فإن استكبَروا عن الاعترافِ بدلالة الليل والنهار والشمس والقمر على تفرُّدِ الله بالإلهيَّة؛ فاللهُ غنيٌّ عن عبادتهم إيَّاه (٢).

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر بعضَ آياتِ السماء لشرفِها، ولأنَّ بعضَها عُبِدَ، ومِن آثارِ الإلهيَّة، فذكَر دلالتَها على وَحْدانيَّته، اللازمَ منه إبطالُ عبادتها؛ أتبَعه بعضَ آياتِ الأرض بخلاف ما في «يس»؛ فإنَّ السياقَ هناك للبعث، وآياتِ الأرض أدلُّ، فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣).

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ١٩٤).
(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣٠١).
(٣) نظم الدرر (١٧/ ١٩٦).

عطفٌ على جملة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾، وهذا استدلالٌ بهذا الصُّنْعِ العظيم على أنَّه تعالى منفرِدٌ بفعله؛ فهو دليلُ إلهيَّتِه دُونَ غيره؛ لأنَّ مَن يفعلُ ما لا يفعله غيرُه هو الإلهُ الحقُّ، وإذا كان كذلك، لم يجُزْ أن يتعدَّدَ؛ لكونِ مَن لا يفعل مِثْلَ فعلِه ناقصَ القدرة، والنقصُ ينافي الإلهيَّةَ(١).

لمَّا ذكَر الآياتِ الأربعَ الفلكية -وهي الليل والنهار، والشمس والقمر-، أتبَعها بذِكْرِ آيةٍ أَرْضيَّةٍ، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

ولمَّا بيَّن أنَّ الدعوةَ إلى الله أعظَمُ المناصب، وأشرَفُ المراتب، وبيَّن أنَّها إنَّما تحصُلُ ببيانِ دلائلِ التوحيد التي مِن أعظَمِها البعثُ، وبيَّنه إلى أن كان بهذا الحدِّ مِن الوضوح؛ كان محل التهديد مَن أعرَض عن قَبوله، فقال في عبارةٍ عامة له ولغيره، مؤكِّدًا تنبيهًا على أنَّ فِعْلَهم فعلُ مَن يظُنُّ أنَّه سبحانه لا يطَّلِعُ على أعماله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٣).

استئنافٌ ابتدائي، قُصِد به تهديدُ الذين أهمَلوا الاستدلالَ بآياتِ الله على توحيده(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣٠٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٦٧).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ١٩٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣٠٣).

لمَّا بيَّن أنَّ الدعوةَ إلىٰ دِينِ الله تعالىٰ أعظَمُ المناصب، وأشرَفُ المراتب، ثم بيَّن أنَّ الدعوةَ إلىٰ دِينِ الله تعالىٰ إنَّما تحصُلُ بذِكْرِ دلائلِ التوحيد والعدل، وصحَّةِ البعث والقيامة؛ عاد إلىٰ تهديدِ مَن ينازِعُ في تلك الآياتِ، ويحاوِلُ إلقاءَ الشُّبهات فيها، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(١).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ ﴾

ولمَّا جعَل إليهم الاختيارَ في العمل تهديدًا، أتبَعه الإخبارَ بما لِمَن خالَفه، فقال مؤكِّدًا لإنكارِهم مضامينَ ما دخَل عليه التأكيدُ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴾(٢).

أعقَب تهديدَهم علىٰ الإلحاد في آياتِ الله علىٰ وجهِ العموم بالتعرُّضِ إلىٰ إلحادِهم في آياتِ القرآن؛ وهو مِن ذِكْرِ الخاصِّ بعد العامِّ للتنويهِ بخصالِ القرآن، وأنَّه ليس بعُرْضةٍ لأن يُكفَرَ به، بل هو جديرٌ بأن يُتقبَّلَ بالاقتداءِ والاهتداء بهَدْيه(٣).

﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢ ﴾

ولمَّا كان مِن معاني العِزَّةِ أنَّه ممتنِعٌ بمتانة رَصْفِه وجزالة نَظْمِه وجلالة معانيه مِن أن يَلحَقَه تغييرٌ ما، بيَّن ذلك بقولِه: ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٦٨).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٢٠٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣٠٥).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٢٠١).

ثم وصفه بأنَّه حقٌّ لا سبيلَ للباطل إليه بوجهٍ مِن الوجوه، فقال: ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾(١).

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ٤٣ ﴾

ولمَّا وصَف الذِّكْرَ بأنَّه لا يصحُّ ولا يُتصوَّر أن يَلحَقَه نقصٌ، فبطَل قولُهم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾، ونحوُه ممَّا مضىٰ، وحصَل الأمنُ منه؛ أتبعه التسليةَ ممَّا يَلحَق به مِن الغمِّ؛ ليقعَ الصبرُ علىٰ جميع أقوالهم، فقال: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴾(٢).

استئنافٌ بياني، جوابٌ لسؤالٍ يُثيره قولُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾، وقولُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ ﴾، وما تخلَّل ذلك مِن الأوصاف، فيقول سائلٌ: فما بالُ هؤلاء طعَنوا فيه؟ فأجيبَ بأنَّ هذه سُنَّةُ الأنبياءِ مع أُمَمِهم، لا يَعدَمون معانِدين جاحدين يكفُرون بما جاؤوا به، وهذا تسليةٌ للنبي ﷺ بطريقِ الكناية، وأمرٌ له بالصبرِ علىٰ ذلك -كما صبرَ مَن قَبْلَه مِن الرُّسُلِ- بطريقِ التعريض(٣).

لمَّا هدَّد الملحِدين في آياتِ الله، ثم بيَّن شرَفَ آياتِ الله، وعلوَّ درجةِ كتاب الله؛ رجَع إلىٰ أمرِ رسولِ الله ﷺ بأن يَصبرَ علىٰ أذىٰ قومه، وألَّا يَضِيقَ قلبُه بسبب ما حكاه عنهم في أولِ السُّورة(٤).

---

(١) فتح القدير (٤/ ٥٩٥).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٢٠٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣٠٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٦٩).

ثم سلَّىٰ سبحانه رسولَه ﷺ علىٰ ما كان يتأثَّرُ له مِن أذيَّةِ الكفار، فقال: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ٤٤﴾

ولمَّا افتُتِحت السُّورة بأنَّه أُنزِلَ علىٰ أحسَنِ الوجوه وأجملها، وأعلاها وأبيَنِها، وأكمَلِها مِن التفصيل والجمعِ والبيان، بهذا اللسانِ العظيم الشأن، فقالوا فيه ما وقَعتْ هذه التسليةُ لأجله؛ مِن قولِهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾ إلىٰ آخِره، وكان ربما قال قائل: لو كان بلسانٍ غيرِ العرب، وأُعطِيَ هذا النبيُّ فَهْمَه، والقدرةَ علىٰ تبيينِه؛ لكان أقوىٰ في الإعجاز، وأجدَرَ بالاتِّباع؛ أخبَر أنَّ الأمرَ ليس كذلك؛ لأنَّهم لم يقولوا: هذا الشكُّ حصَل لهم في أمرِه، بل عنادًا، والمعانِدُ لا يرُدُّه شيء، فقال علىٰ سبيلِ التأكيد مُعلِمًا بأنَّ الأمرَ علىٰ غيرِ ما ظَنَّه هذا الظانُّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[2].

اتصالُ نَظْمِ الكلام مِن أول السُّورة إلىٰ هنا، وتناسُبُ تنقُّلاته بالتفريعِ والبيان والاعتراضِ والاستطراد يقتضي أنَّ قولَه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ﴾ إلىٰ آخِره، تنقُّلٌ في درجِ إثباتِ أنَّ قَصْدَهم العنادُ فيما يَتعلَّلون به؛ ليواجِهوا إعراضَهم عن القرآن والانتفاعَ بهَدْيِه بما يختلقونه عليه مِن الطعنِ فيه، والتكذيب به، وتكلُّفِ الأعذار الباطلة ليَتستروا بذلك مِن الظهورِ في مظهرِ المنهزم المحجوج، فأخذ

(١) فتح القدير (٤/ ٥٩٥).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٢٠٤-٢٠٥).

ينقُضُ دعاويَهم عُرْوةً عروة؛ إذ ابتُدئت السُّورةُ بتَحدِّيهم بمعجزةِ القرآن بقولِه: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾؛ فهذا تَحدٍّ لهم، ووصفٌ للقرآنِ بصفة الإعجاز، ثم أخذ في إبطالِ معاذيرِهم ومطاعنهم بقولِه: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾؛ فإنَّ قولَهم ذلك قصَدوا به أنَّ حُجَّةَ القرآن غيرُ مقنعةٍ لهم؛ إغاظةً منهم للنبي ﷺ، ثم تمالئِهم علىٰ الإعراض بقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ۝٢٦﴾، وهو عَجْزٌ مكشوف بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾، وبقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ الآيات، فأعقَبها بأوصافِ كمال القرآن التي لا يجدون مطعنًا فيها بقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١﴾ الآية، وإذ قد كانت هذه المجادَلاتُ في أولِ السُّورة إلىٰ هنا إبطالًا لتعلُّلاتهم، وكان عمادُه علىٰ أنَّ القرآنَ عربيٌّ مفصَّلُ الدَّلالةِ المعروفةِ في لُغَتِهم حسبما ابتُدئ الكلامُ بقولِه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾، وانتُهي هنا بقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾؛ فقد نَهضتِ الحُجَّةُ عليهم بدلالتِه علىٰ صِدْقِ الرسول ﷺ مِن هذه الجهةِ، فانتقَل إلىٰ حُجَّةٍ أخرىٰ عمادُها الفرضُ والتقدير أن يكونَ قد جاءهم الرسولُ ﷺ بقرآنٍ مِن لغة أخرىٰ غيرِ لغة العرب؛ ولذلك فجملة ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ معطوفةٌ علىٰ جملة ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١﴾ علىٰ الاعتبارينِ المتقدِّمينِ آنفًا في موقعِ تلك الجملة، ومعنىٰ الآيةِ متفرِّعٌ علىٰ ما يَتضمَّنه قولُه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ مِن التحدي بصفةِ الأُمِّيَّةِ؛ كما عَلِمتَ آنفًا؛ أي: لو جئناهم بلونٍ آخَرَ مِن معجزةِ الأمية، فأنزَلْنا علىٰ الرسول قرآنًا أعجميًّا، وليس للرسول ﷺ علمٌ بتلك اللغةِ مِن قبلُ؛ لقلَبوا معاذيرَهم، فقالوا: لولا بُيِّنتْ آياتُه بلُغَةٍ نفهمُها، وكيف يخاطِبُنا بكلامٍ أعجميٍّ؟! فالكلام جارٍ علىٰ طريقةِ الفرض؛ كما هو مقتضىٰ حرفِ «لو» الامتناعيةِ، وهذا إبانةٌ علىٰ أنَّ هؤلاء

القومَ لا تُجدِي معهم الحُجَّةُ، ولا ينقطعون عن المعاذيرِ؛ لأنَّ جدالَهم لا يريدون به تطلُّبَ الحق، وما هو إلا تعنُّتٌ لترويجِ هواهم[(١)].

ثم إنَّه تعالىٰ ذكَر جوابًا آخَرَ عن قولهم: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ ﴾، فقال: ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾[(٢)].

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾ ﴾

ولمَّا كان التقدير: فلقد آتيناك الكتابَ علىٰ هذه الصفةِ مِن العظَمة، فاختلَفتْ فيه أمَّتُك علىٰ ما أعلَمْناك به أولَ «البقرة» مِن انقسامِ الناس، فعاقَبْنا الذين تكبَّروا عليه أنْ ختَمْنا علىٰ مشاعرِهم؛ عطَف عليه مسلِّيًا قولَه -مؤكدًا لِمَن يقول مِن أهلِ الكتاب إضلالًا: لو كان نبيًّا، ما اختلَف الناسُ عليه، ونحو ذلك ممَّا يُلبَسُ به-: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾[(٣)].

اعتراضٌ بتسليةٍ للنبي ﷺ علىٰ تكذيبِ المشركين وكفرِهم بالقرآن بأنَّه ليس بأوحَدَ في ذلك؛ فقد أُوتيَ موسىٰ التوراةَ، فاختلَف الذين دعَاهم في ذلك، فمنهم مَن آمَن به، ومنهم مَن كفَر[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣١١-٣١٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٦٩).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٢٠٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣١٧).

كلامٌ مستأنَف مسُوقٌ لبيانِ أنَّ الاختلافَ في شأنِ الكتب عادةٌ قديمة للأُمَم، غيرُ مختصٍّ بقومِك؛ على منهاجِ قوله تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾[1].

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

ولمَّا تقرَّر بما مضى أنَّ المطيعَ ناجٍ، وتحرَّر أنَّ العاصيَ هالكٌ؛ كانت النتيجةُ مِن غيرِ تردُّدٍ: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[2].

هذا مِن مكمِّلات التسلية، ومِن مناسَبات ذِكْرِ الأجل المسمى، وفيه معنى التذييلِ؛ لأنَّ ﴿ مَّنْ ﴾ في الموضعينِ مفيدةٌ للعموم، سواءٌ اعتُبِرت شرطيَّةً أو موصولة، ووجودُ الفاء في الموضعينِ: إمَّا لأنَّهما جوابانِ للشرط، وإمَّا لمعاملةِ الموصول معاملةَ الشرط، وهو استعمالٌ كثير؛ والمعنى: أنَّ الإمهالَ إعذارٌ لهم ليَتداركوا أمرَهم[3].

﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولمَّا تضمَّنتِ الآيةُ السالفة الجزاءَ على كلِّ جليلٍ وحقير، وقليلٍ وكثير، والبراءةَ مِن الظُّلم؛ أشيرَ إلى التوعُّد بالجزاء في يومِ الفصل؛ لأنَّا نشاهِدُ أكثرَ الخَلْقِ يموت مِن غيرِ جزاء، وكان مِن عادتهم السؤالُ عن علمِ ذلك اليومِ، وكان تركُ الجزاء إنَّما يكون للعَجْزِ، والظُّلْمُ إنَّما يكون للجهل؛ لأنَّه وضعُ الأشياءِ في غيرِ مَحالِّها، فعل الماشي في الظلام؛ دلَّ على تَعاليه عن كلٍّ منهما بتمامِ العلم، المستلزِمِ

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٧).
(٢) نظم الدرر (١٧/ ٢٠٩).
(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣١٩).

لشمولِ القدرة، على وجهٍ فيه جوابُهم عن السؤال عن علمِ الوقت الذي تقوم فيه الساعةُ، الذي كان سببًا لنزولِ هذه الآية، بقولِه على سبيلِ التعليل: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾(١).

كانوا إذا أُنذِروا بالبعث وساعته، استهزَؤوا فسألوا عن وقتها، وكان ذلك ممَّا يتكرر منهم، فلمَّا جرى ذِكْرُ دليلِ إحياءِ الموتى، وذِكْرُ إلحادِ المشركين في دلالتِه بسؤالهم عنها استهزاءً؛ انتقَل الكلامُ إلى حكايةِ سؤالهم تمهيدًا للجواب عن ظاهرِه، وتقديمُ المجرورِ على متعلَّقِه لإفادةِ الحصر؛ أي: إلى اللهِ يفوَّضُ علمُ الساعة، لا إليَّ؛ فهو قَصْرُ قلبٍ، وردٌّ عليهم بطريقِ الأسلوب الحكيم؛ أي: الأجدر أن تَعلَموا أنْ لا يَعلَمُ أحدٌ متى الساعة، وأن تؤمنوا بها، وتَستعدوا لها(٢).

لمَّا ذكَر تعالى ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الآية، كان في ذلك دلالةٌ على الجزاءِ يوم القيامةِ، وكأنَّ سائلًا قال: ومتى ذلك؟ فقيل: لا يَعلَمها إلا اللهُ، ومَن سُئل عنها فليس عنده علمٌ بتعيينِ وقتِها؛ وإنَّما يُرَدُّ ذلك إلى الله، ثم ذكَر سَعةَ علمِه، وتعلُّقَه بما لا يَعلَمه إلا هو تعالى(٣).

ثم أخبَر سبحانه أنَّ عِلْمَ القيامةِ ووقتَ قيامِها لا يَعلَمه غيرُه، فقال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٢١١-٢١٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٥).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٣١٤).

(٤) فتح القدير (٤/ ٥٩٧).

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولمَّا قرَّر جهلهم، أتبعه عَجْزَهم، فقال: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾(١).

﴿ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

ولمَّا دلَّ اتِّباعُهم للظنِّ -حتىٰ في ذلك اليومِ الذي تنكشف فيه الأمور، وتَظهَر عظائمُ المقدور، وإلقاؤهم بأيديهم فيه- علىٰ أنَّهم في غايةِ العراقة في الجهل، والرسوخِ في العَجْزِ؛ أتبَع ذلك الدليلَ علىٰ أنَّ ذلك طبعُ هذا النوعِ، فلا يَزالُ متبدِّلَ الأحوال، متغيِّرَ المناهجِ، إن أحَسَّ بخيرٍ انتفَخ عظمُه وتطاوَل كِبْرًا، وإن مُسَّ ببلاءٍ تضاءَلَ ذُلًّا وامتلأ ضعفًا وعَجْزًا، وذلك ضدُّ مقصودِ السُّورة، الذي هو العلمُ؛ بيانًا لأنَّ حالَ هذا النوعِ بعيدٌ مِن العلم، عريقُ الصفاتِ في الجهل والشرِّ، إلا مَن عصَمه اللهُ، فقال تعالىٰ: ﴿ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾(٢).

اعتراضٌ بَيْنَ أجزاءِ الوعيد، وموقعُ هذه الآياتِ عَقِب قوله: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ ﴾ إلخ، يقتضي مناسبةً في النَّظم داعيةً إلىٰ هذا الاعتراضِ؛ فتلك قاضيةٌ بأنَّ الإنسانَ المُخبَرَ عنه بأنَّه لا يَسأم مِن دعاء الخير وما عُطِف عليه هو مِن صِنْفِ الناس الذين جرىٰ ذِكْرُ قِصَصِهم قبل هذه الآيةِ؛ وهم المشركون، فإمَّا أن يكونَ المراد فريقًا مِن نوع الإنسان، فيكونَ تعريفُ الإنسان تعريفَ الجنس العامِّ، لكن عمومه عُرْفيٌّ بالقرينة، وهو الممثَّلُ له في علمِ المعاني بقولك: جمَع الأميرُ الصاغةَ. وإمَّا أن يكونَ المراد إنسانًا معيَّنًا مِن هذا الصِّنف، فيكونَ التعريفُ تعريفَ

(١) نظم الدرر (١٧/ ٢١٥).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٢١٦).

العهد، كما أنَّ الإخبارَ عن الإنسان بأنَّه يقول: ما أظُنُّ الساعةَ قائمةً، صريحٌ أنَّ المُخبَرَ عنه مِن المشركين، معيَّنًا كان أو عامًّا عمومًا عُرْفيًّا. فقيل: المراد بالإنسان: المشركون كلُّهم، وقيل: أريد به مشركٌ معيَّن، قيل: هو الوليدُ بن المغيرةِ، وقيل: عُتْبةُ بن ربيعةَ. وأيًّا ما كان، فالإخبارُ عن إنسانٍ كافر. ومحملُ الكلامِ البليغ يرشِدُ إلىٰ أنَّ إناطةَ هذه الأخبارِ بصِنْفٍ مِن المشركين، أو بمشركٍ معيَّن بعنوان إنسانٍ؛ يومئُ بأنَّ للجِبِلَّةِ الإنسانية أثرًا قويًّا في الخُلُقِ الذي منه هذه العقيدةُ، إلا مَن عصَمه اللهُ بوازعِ الإيمان(١).

ثم ذكَر سبحانه بعضَ أحوالِ الإنسان، فقال: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾(٢).

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾

ولمَّا دلَّ ذلك علىٰ عظيمِ جهله، وغلَبةِ أفكاره الرديئة علىٰ عقله؛ أتبَعه تأكيدًا لذلك ما يدلُّ علىٰ أنَّ حالَه بعد هذا اليأسِ الذي قطَع فيه بلزومِ الشرِّ وامتناعِ حصول الخير أنَّه لو عاوَدتْهُ النِّعْمةُ بَغْتةً مِن وجهٍ لا يرجوه، وليس له دليلٌ علىٰ ما دوامِها وانصرامِها؛ لعادَ إلىٰ البَطَرِ والكِبْرِ والأشَرِ، ونَسِي ما كان فيه مِن الشِّدة، فقال مسنِدًا إلىٰ نفسِه الخيرَ بعد أن ذكَر الشرَّ، ولم يُسنِدْهُ إليه تعليمًا للأدب، معبِّرًا بمظهر العظَمة؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ ذلك مِن جليلِ التدبير: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٩).

(٢) فتح القدير (٤/ ٥٩٨).

مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[1].

ثم بيَّنتِ الآيةُ خُلُقًا آخرَ في الإنسان؛ وهو أنَّه إذا زال عنه كَرْبُه، وعادت إليه النِّعْمةُ؛ نَسِي ما كان فيه مِن الشِّدة، ولم يَتفكَّرْ في لُطْفِ الله به، فبَطِرَ النِّعْمةَ، وقال: قد استرجَعْتُ خيراتي بحيلتي وتدبيري، وهذا الخيرُ حقٌّ لي حصَلتُ عليه، ثم إذا كان مِن أهلِ الشرك -وهم المتحدَّثُ عنهم- تَراه إذا سَمِع إنذارَ النبي ﷺ بقيامِ الساعة، أو هجَس في نفسه هاجسُ عاقبةِ هذه الحياةِ؛ قال لِمَن يَدْعوه إلىٰ العملِ ليوم الحساب، أو قال في نفسه: ما أظُنُّ الساعةَ قائمةً، ولئن فرَضْتُ قيامَ الساعة علىٰ احتمالٍ ضعيف، فإنِّي سأجد عند اللهِ المعاملةَ بالحسنىٰ؛ لأنِّي مِن أهلِ الثراء والرفاهية في الدُّنيا، فكذلك سأكونُ يومَ القيامةِ؛ وهذا مِن سُوءِ اعتقادِهم؛ أن يَحسَبوا أحوالَ الدُّنيا مقارِنةً لهم في الآخرة[2].

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن جهلَ الإنسانِ في حالاتٍ مخصوصة باليأس عند مسِّ الشرِّ، والأمنِ عند ذَوْقِ النِّعْمة بعد الضرِّ؛ بيَّن حالَه عند النِّعْمة مطلقًا، ودعاءَه عند الشر وإن كان قانطًا؛ تكريرًا لتقلُّب أحواله، وتناقُصِ أقواله وأفعاله، تصريفًا لذلك علىٰ وجوهٍ شتىٰ؛ ليكونَ داعيًا له إلىٰ عدم الأنَفةِ مِن الرجوعِ عن الكفر إلىٰ الإيمان، ومسقِطًا عنه خوفَ الشبه بذلك، والنسبة إلىٰ الخِفَّةِ وعدم الثبات، فقال معبِّرًا بأداةِ التحقيق دلالةً علىٰ غلَبةِ نِعَمِه تعالىٰ في الدُّنيا لنِقَمِه، ودلالةً علىٰ حالةِ الإنسان عند مسِّ النِّعْمةِ مِن

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٢١٧-٢١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ١١-١٢).

جهةٍ يتوقَّعُها بعد بيانِ حالِه عند مسِّها بَغْتةً مِن غيرِ توقُّع، تأكيدًا لبيانِ جهله؛ حيث جعَل ظرفَ النِّعْمةِ ظرفًا للإعراض مِن غيرِ خوفٍ مِن نزعِها علىٰ قُرْبِ عهدِه بالضرِّ: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾(١).

هذا وصفٌ وتذكير بضربٍ آخرَ مِن طغيانِ النفس الإنسانية، غيرِ خاصٍّ بأهل الشرك؛ بل هو منبثٌّ في جميعِ الناس علىٰ تفاوُتٍ، إلا مَن عصَم اللهُ(٢).

لمَّا حكىٰ اللهُ تعالىٰ أقوالَ الذي أنعَم عليه بعد وقوعه في الآفات، حكىٰ أفعالَه أيضًا، فقال: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾(٣).

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه مِن أحوالِهم المندرجة في أحوالِ هذا النوعِ كلِّه ما هو مكشوفٌ بشاهدِ الوجود؛ مِن أنَّه لا ثباتَ لهم، لا سيما عند الشدائدِ، إعلامًا بالعراقةِ في الجهل والعَجْزِ: دلَّ علىٰ الأمرينِ معًا بما لا يمكِنُ عاقلًا دفعُه؛ مِن أنَّهم لا يجوِّزون الممكِنَ، فيُعِدُّون له ما يَمنعُه علىٰ تقديرِ وقوعه؛ فأمَره ﷺ أن يذكُرَ ذلك إيذانًا بالإعراض عنهم دليلًا علىٰ تَناهي الغضبِ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٢٢٠-٢٢١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٧٣).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٢٢٣).

استئنافٌ ابتدائي متصِل بقولِه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنۡهُ مُرِيبٍ ۝٤٥﴾؛ فهذا انتقالٌ إلىٰ المجادَلةِ في شأنِ القرآن، رجَع به إلىٰ الغرضِ الأصلي مِن هذه السُّورة؛ وهو بيانُ حقِّيَّةِ القرآن، وصِدْقِه، وصدقِ مَن جاء به، وهذا استدعاءٌ ليُعمِلوا النظرَ في دلائلِ صدقِ القرآن؛ مثل: إعجازِه، واتساقِه، وتأييدِ بعضِه بعضًا، وكونِه مؤيِّدًا للكتبِ قبله، وكونِ تلك الكتبِ مؤيِّدةً له[(١)].

لمَّا ذكَر الوعيدَ العظيم علىٰ الشرط، وبيَّن أنَّ المشركين يَرجِعون عن القول بالشرك في يومِ القيامةِ، ويُظهِرون مِن أنفسهم الذِّلَّةَ والخضوع بسببِ استيلاء الخوف عليهم، وبيَّن أنَّ الإنسانَ جُبِلَ علىٰ التبدُّل، فإن وجَد لنفسه قوَّةً بالَغ في التكبُّر والتعظُّم، وإن أحَسَّ بالفتور والضَّعف بالَغ في إظهارِ الذِّلَّةِ والمسكنة؛ ذكَر عَقِيبه كلامًا آخرَ يوجِب علىٰ هؤلاء الكفار ألا يبالِغوا في إظهار النُّفْرة مِن قَبول التوحيد، وألا يُفرِطوا في إظهارِ العداوة مع الرسول ﷺ، فقال: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِى شِقَاقِۭ بَعِيدٍ ﴾[(٢)].

رجوعٌ لإلزامِ الطاعنين والملحِدين، وختمٌ للسورة بما يلتفتُ لفتَ بَدْئِها، وهو مِن الكلام المُنصِف، وفيه حثٌّ علىٰ التأمل، واستدراجٌ للإقرار، مع ما فيه مِن سِحْرِ البيان، وحديثُ الساعةِ وقَع في البَيْنِ تتميمًا للوعيد، وتنبيهًا علىٰ ما هم فيه مِن الضَّلال البعيد[(٣)].

ثم رجَع سبحانه إلىٰ مخاطَبة الكفار ومحاجَّتِهم، فقال: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِى شِقَاقِۭ بَعِيدٍ ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٧٣).

(٣) روح المعاني (١٣/ ٦).

(٤) فتح القدير (٤/ ٥٩٩).

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا محزنًا للشُّفوقِ عليهم -لإفهامِه لشِدَّةِ بُعْدِهم عن الرجوع-، قال منبِّهًا على أنَّه إذا أراد سبحانه، قرَّب ذلك منهم غايةَ القُرْبِ، لافتًا القول إلى مظهرِ العظَمة؛ إيذانًا بسهولةِ ذلك عليه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾(١).

أعقَب اللهُ أمرَ رسولِه ﷺ أن يقولَ للمشركين ما فيه تخويفُهم مِن عواقبِ الشِّقاق؛ على تقديرِ أن يكونَ القرآنُ مِن عندِ الله وهم قد كفَروا به، إلى آخِرِ ما قررَ آنفًا؛ بأنْ وعَد رسولَه ﷺ -على سبيلِ التسلية والبشارة- بأنَّ اللهَ سيغمُرُ المشركين بطائفةٍ مِن آياته ما يَتبيَّنون به أنَّ القرآنَ مِن عندِ الله حقًّا، فلا يسَعُهم إلا الإيمانُ به؛ أي: إنَّ القرآنَ حقٌّ بيِّنٌ، غيرُ محتاجٍ إلى اعترافهم بحَقِّيَّتِه، وستَظهَر دلائلُ حقيته في الآفاقِ البعيدة عنهم، وفي قبيلتِهم وأنفسهم، فتَتظاهَر الدلائلُ على أنَّه الحقُّ، فلا يجدوا إلى إنكارها سبيلًا؛ والمراد: أنَّهم يؤمنون به يومئذٍ مع جميعِ مَن يؤمن به، وفي هذا الوعدِ للرسول ﷺ تعريضٌ بهم؛ إذ يَسمَعونه على طريقةِ: «فاسمَعي يا جارةُ»(٢).

ثم توعَّدهم بما هو كائنٌ لا محالةَ، فقال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٢٢٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٨).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٣١٧).

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾

ولمَّا لم يَبقَ بعد هذا لمتعنِّتٍ مَقالٌ، ولا شُبْهة أصلًا لضالٍّ؛ كان موضعُ المناداة علىٰ مَن استمَرَّ علىٰ عنادِه بقولِه مؤكدًا لادعائهم أنَّهم علىٰ جليَّةٍ مِن أمرِهم، ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾(١).

تذييلانِ للسورة، وفَذْلكتانِ افتُتِحا بحرفِ التنبيه اهتمامًا بما تضمَّناه؛ فأمَّا التذييلُ الأول: فهو جماعُ ما تضمنته السُّورةُ مِن أحوال المشركين المعانِدين؛ إذ كانت أحوالُهم المذكورة فيها ناشئةً عن إنكارِهم البعثَ، فكانوا في مأمنٍ مِن التفكير فيما بعد هذه الحياةِ، فانحصَرتْ مساعيهم في تدبيرِ الحياة الدُّنيا، وانكَبُّوا علىٰ ما يعودُ عليهم بالنفع فيها، وأمَّا التذييل الثاني: فهو جامعٌ لكل ما تضمنته السُّورةُ مِن إبطالٍ لأقوالهم، وتقويمٍ لاعوجاجهم؛ لأنَّ ذلك كلَّه مِن آثارِ علمِ الله تعالىٰ بالغيبِ والشَّهادة، وتأكيدُ الجملتين بحرفِ التأكيد مع أنَّ المخاطَبَ بهما لا يشُكُّ في ذلك؛ لقصدِ الاهتمام بهما، واستدعاءِ النظر لاستخراج ما تحويانِه مِن المعاني والجزئيات(٢).

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٢٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢١-٢٢).

سُورَةُ الشُّورَىٰ

﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾

ولمَّا كانت هذه الحروفُ -واللهُ أعلم- مشيرةً إلىٰ الاجتماع -كما أشار إليه آخِرُ السُّورة الماضية-، قال اللهُ سبحانه وتعالىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[1].

كلامٌ مستأنَف، واردٌ لتحقيقِ أنَّ مضمونَ السُّورة موافِق لِما في تضاعيفِ سائر الكتب المنزَّلة علىٰ الرُّسُلِ المتقدِّمة في الدعوة إلىٰ التوحيد، والإرشاد إلىٰ الحق، أو أنَّ إيحاءها مثلُ إيحائها بعد تنويهِها بذِكْرِ اسمِها، والتنبيهِ علىٰ فخامة شأنها[2].

﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر سبحانه أنَّه صاحبُ الوحيِ بالشرائع دائمًا قديمًا وحديثًا، علَّل ذلك بأنَّه صاحبُ المُلْكِ العام، فقال: ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[3].

جملةُ ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ مقرِّرةٌ لوصفِه ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾؛ لأنَّ مَن كان ما في السماوات وما في الأرض مِلْكًا له تتحقَّق له العِزَّةُ لقوَّة ملكوته، وتتحقق له

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٢٣٧).

(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢١).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٢٤١).

الحِكْمةُ لأنَّ الحِكْمة تقتضي خَلْقَ ما في السماوات والأرضِ، وإتقانَ ذلك النظامِ الذي تَسِيرُ به المخلوقاتُ، ولكونِ هذه الجملةِ مقرِّرةً معنىٰ التي قبلها كانت بمنزلةِ التأكيد فلم تُعطَفْ عليها(١).

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

ولمَّا كان السياقُ مُفهِمًا عظيمَ مُلْكِه سبحانه وقُدْرتِه بكثرةِ ما في الأكوان مِن الأجسام والمعاني التي هي لفظاعتِها لا تحتمل؛ قال مبيِّنًا لذلك: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٢).

جملةٌ مستأنفة مقرِّرة لمعنىٰ جملة ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾؛ ولذلك لم تَعطَفْ عليها؛ أي: يكادُ السماواتُ علىٰ عظَمتِهنَّ يَتشقَّقْنَ مِن شدَّةِ تسخُّرِهنَّ فيما يسخِّرُهنَّ اللهُ له مِن عملٍ لا يخالِف ما قدَّره اللهُ لهنَّ(٣).

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾

ولمَّا كان التقدير: فالذين تولَّوْهُ وماتوا في وَلايتِه فهو يَغفِر ذنوبَهم؛ بمعنىٰ أنَّه يُزيلُها عينًا وأثرًا؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٨).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٢٤٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٩).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٢٤٧).

جملةٌ معطوفة علىٰ جملة ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بعد أن أفيدَ ما هو كالحُجَّةِ علىٰ أنَّ للهِ ما في السماوات وما في الأرض مِن قولِه ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ الآيتين؛ فالمعنىٰ: قد نَهَضتْ حُجَّةُ انفرادِه تعالىٰ بالعِزَّةِ والحِكْمة، والعلوِّ والعظَمة، وعَلِمها المؤمنون، فاستغفَرتْ لهم الملائكةُ، وأمَّا الذين لم يُبصِروا تلك الحُجَّةَ، وعَمِيَتْ عليهم الأدلةُ؛ فلا تَهتمَّ بشأنهم؛ فإنَّ اللهَ حَسْبُهم، وما أنت عليهم بوكيل، فهذا تسكينٌ لحُزْنِ الرسولِ ﷺ مِن أجلِ عدم إيمانهم بوَحْدانيَّة الله تعالىٰ(١).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾

ولمَّا كان الإيحاءُ السابق أولَ السُّورة للبشرىٰ لأنَّها المقصودُ بالذات، وكانت البشرىٰ مقتضِيةً تلويحًا ورمزًا بالأحرفِ المقطَّعة لاجتماعِ أهل الدِّين وغلَبتِهم علىٰ سائر الأديان، وأنَّ دِينَهم يعُمُّ سائرَ الأُمَم، ويحيط بجميع الخَلق، ولا يريد أحدٌ بأهله سُوءًا إلا كان له فيه رِفْعةٌ كما مضىٰ بيانُه، وكانت رمزًا لأنَّ المقامَ للإنذارِ بما تَشهَد به السُّورةُ الماضية، وكان المرادُ بها التَّكرارَ حتىٰ لا تَزالَ لَذاذتُها في أُذُنِ المبشَّرِ وحلاوتُها في قلبِه؛ ذكَرها بلفظِ المضارع الدالِّ علىٰ التجدُّد والتَّكرار، والحدوث والاستمرار، وكان المتعنِّتُ ربما حمَله له علىٰ الوعدِ بالإيحاء في المستقبل، وكان العاقلُ يَكفيه في النُّذْرىٰ مرَّةٌ واحدة؛ فقال معبِّرًا بالماضي الدالِّ علىٰ الإمضاء والقطع والقضاء الحَتْمِ في كلٍّ مِن الإيحاء وفائدتِه التي هي الإنذارُ، عاطفًا علىٰ ما يتصلُ بالآية السالفة المختومة بنفي الوكالة ممَّا تقديره: إنَّما عليك البلاغُ بالبشارة والنِّذارة، وقد أوحَيْنا إليك البشارةَ رمزًا، كما جرَتْ به عادةُ الأحباب في محاوَرات

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣١).

الخطاب، ولفت القول إلىٰ مظهر العظَمةِ لأنَّ الإنذارَ مِن مَجازِه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾(١).

عطفٌ علىٰ جملة ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ﴾ إلخ، باعتبارِ المغايَرة بَيْنَ المعطوفةِ والمعطوفِ عليها بما في المعطوفة مِن كونِ الموحَىٰ به قرآنًا عربيًّا، وما في المعطوفِ عليها مِن كونه مِن نوعِ ما أُوحيَ به إلىٰ الذين مِن قبلِه، وفي هذا إشارةٌ إلىٰ أنَّه لا فَرْقَ بَيْنَ ما أوحيَ إليك وما أوحيَ إلىٰ مَن قَبْلَك إلا اختلافُ اللغات(٢).

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾

ولمَّا كان ملوكُ الدُّنيا غالبًا لا يريدون أن يُعصَىٰ أمرُهم، فإذا حذَّروا مِن شيءٍ أرادوا ألا يُقرَبَ، فإن فعَله أحدٌ كان فعلُه له خارجًا عن مرادِهم، فكانت عقوبتُهم له لخروجه عن المراد شفاءً لِما حصَل لهم مِن داءِ الغيظ؛ بيَّن أنَّه سبحانه علىٰ غيرِ ذلك، وأنَّه منزَّهٌ عن خروجِ شيء عن مراده، وعن أن يَلحقَه نفعٌ بطاعةٍ أو ضرٌّ بمعصيةٍ، وأنَّ عقوبتَه إنَّما هي علىٰ مخالفةِ أمره مع الدخول تحت مرادِه بإلجائه وقَسْرِه، وهذا في نفسِ الأمر، وأمَّا في الظاهر، فالأمرُ ألا يَظهَرَ أنَّه لشيءٍ منهما مانعٌ إلا صرفُ الاختيار، فقال صارفًا القولَ عن مظهر العظَمةِ استيفاءً لإنذارِ ما هو حقيقٌ به منها إلىٰ الاسمِ الجامعِ صفاتِ العظَمةِ وغيرِها لاقتضاءِ الحال له: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٢٤٨-٢٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٥).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٢٥٢).

عطفٌ علىٰ جملة ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾، والغرضُ مِن هذا العطفِ إفادةُ أنَّ كونهم فريقينِ أمرٌ شاء اللهُ تقديرَه؛ أي: أوجَد أسبابه بحِكْمته، ولو شاء لقدَّر أسبابَ اتحادهم علىٰ عقيدةٍ واحدة مِن الهدىٰ، فكانوا سواءً في المصير، وهذا مسُوقٌ لتسليةِ الرسول ﷺ والمؤمنين علىٰ تَمنِّيهم أن يكونَ الناسُ كلُّهم مهتدين، ويكونَ جميعُهم في الجَنَّة[1].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾

ولمَّا كان التقدير: هل قصَر هؤلاء الذين تُنذرهم، هِمَمهم وعزائمَهم وأقوالَهم وأفعالهم علىٰ الله تعالىٰ اتعاظًا وانتذارًا بهذا الكلامِ المُعجِز؟ عادَل به قولَه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

﴿أَمِ﴾ للإضراب الانتقاليِّ؛ كما يقال: دَعِ الاهتمامَ بشأنهم وإنذارهم، وَلْنعُدْ إلىٰ فظاعةِ حالهم في اتخاذِهم مِن دُونِ الله أولياءَ[3].

جملةٌ مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها مِن انتفاءِ أن يكونَ للظالمين وليٌّ أو نصير[4].

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾

ولمَّا كانوا جميعًا يُقِرُّون بجميعِ ما وصَف به نفسَه المقدَّسة في هذه الآيةِ عند الشدائد، بعضه تصريحًا مِن الوَحْدانيَّة في الوَلاية والإحياء في هذه الدارِ والقدرةِ علىٰ

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٨).
(٢) نظم الدرر (١٧/ ٢٥٣).
(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٩).
(٤) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٤).

كلِّ شيء، وبعضه لزومًا وهو الإحياءُ بالبعث؛ تسبَّب عن ذلك قطعًا أن يقالَ مع صرفِ القول إلىٰ الخطاب إشارةً إلىٰ أنَّه تعالىٰ قرَّب إليهم كلَّ خيرٍ، وقرَّب إليهم فَهْمَ الوَحْدانيَّة لعقولهم بعد أن فطَرهم علىٰ لزومها عند الاضطرار، فما اتفقتم فيه مِن أمرِه سبحانه فهو الحقُّ، وذلك هو أصلُ الدِّين الذي أطبَق عليه الخلائقُ في وقتِ الاضطرار، لم يَتلعثَمْ فيه منهم ضعيف، ولا جبَّارٌ مُنيف؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾(١).

الجملةُ معطوفةٌ علىٰ الجُمَل التي قبلها؛ لأنَّ الكلامَ موجَّه إلىٰ النبيِّ ﷺ وإلىٰ المسلمين، والواوُ عاطفةٌ فعلَ أمرٍ بالقول، وحذفُ القول شائعٌ في القرآن بدلالةِ القرائن؛ لأنَّ مادةَ الاختلاف مُشعِرة بأنَّه بَيْنَ فريقَين، وحالةُ الفريقين مُشعِرةٌ بأنَّه اختلافٌ في أمور الاعتقاد التي أنكَرها الكافرون؛ مِن التوحيدِ والبعث، والنفعِ والإضرار(٢).

وجهُ النَّظم أنَّه تعالىٰ كما منَع الرسولَ ﷺ أن يَحمِلَ الكفارَ علىٰ الإيمان قهرًا، فكذلك منَع المؤمنين أن يَشرَعوا معهم في الخصوماتِ والمنازَعات، فقال: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾؛ وهو إثابةُ المُحِقِّين فيه، ومعاقبةُ المُبطِلين(٣).

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾

ولمَّا تقرَّر بهذا الكلامِ أنَّه قد ركَز في الفِطَرِ أنَّه لا إلهَ غيرُه؛ لأنَّه خالقُ سِواه؛ كما يَهدي إليه الاضطرار، وإن أغفَلَ عنه البَطَرُ: وصَفه بالدليلِ علىٰ ذلك الذي جبَل

(١) نظم الدرر (١٧/ ٢٥٤-٢٥٥).
(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٤١).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٨١).

عليه جميعَ الفِطَرِ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١).

خبرٌ ثانٍ عن الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ⁽٩⁾﴾، وما بينهما اعتراضٌ كما عَلِمتَ آنفًا، أُعقِبَ به أنَّه علىٰ كلِّ شيء قديرٌ؛ فإنَّ خَلْقَ السماوات والأرضِ مِن أبرَزِ آثار صفةِ القدرة المنفرِدِ بها(٢).

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ⁽١٢⁾﴾

ولمَّا قرَّر أمرَ الوحيِ بما ثبَتَ به مِن الإعجاز، وأراهم الآياتِ في الآفاق، بأنَّ له ما في الوجود، وأنَّه هو الذي فطَره، وكان ربما كان للإنسان شيءٌ ولم يكُنْ كاملَ التصرُّفِ فيه؛ بأن يكونَ مفاتيحُ خزائنه مع غيره مِن شريكٍ أو غيره، وكان ربما اخترَع الإنسانُ بِناءً وكان لغيره: أخبَر -إكمالًا لتنزيهِ الآية السالفة، وشرحًا له- أنَّه تعالىٰ ليس كمثلِه شيءٌ، وليس كغيرِه في هذا أيضًا، بل كما أنَّ له ما في الخافقينِ، وهو مخترِعُهما، فله مفاتيحُ خزائنهما، فقال: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(٣).

خبرٌ رابع أو خامس عن الضميرِ في قولِه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ⁽٩⁾﴾، وموقعُ هذه الجملةِ كموقعِ التي قبلها، تَتنزَّل منزلةَ النتيجة لِما تقدَّمها؛ لأنَّه إذا ثبَتَ أنَّ اللهَ هو الوليُّ، وما تضمَّنته الجُمَلُ بعدها إلىٰ قوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ مِن انفرادِه بالخَلْقِ؛ ثبَتَ أنَّه المنفرِدُ بالرزق(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٢٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٤٣).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٢٦١-٢٦٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ٤٨).

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا ثبتَ أنَّ له كلَّ شيء، وأنَّه لا متصرِّفَ في الوجود سِواه؛ أنتَج ذلك أنَّه لا ناهجَ لطُرُقِ الأديانِ التي هي أعظَمُ الرزق وأعظَمُ قاسمةٍ للرزق غيرُه؛ فأعلَمَهم أنَّه لم يَشرَعْ دِينًا قديمًا وحديثًا غيرَ ما اتفقوا عليه وقتَ الشدائد، فقال دالًّا علىٰ ما ختَم به الآيةَ التي قبلها مِن شمولِ علمه، ومرغِّبًا في لزومِ ما هدىٰ إليه ودلَّ عليه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[١].

انتقالٌ مِن الامتنان بالنِّعَمِ الجثمانية إلىٰ الامتنان بالنِّعْمة الرُّوحيَّةِ بطريقِ الإقبال علىٰ خطابِ الرسول ﷺ والمؤمنين؛ للتنويهِ بدِينِ الإسلام، وللتعريضِ بالكفار الذين أعرَضوا عنه؛ فالجملةُ ابتدائية[٢].

لمَّا عظَّم وحيَهُ إلىٰ محمَّدٍ ﷺ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ذكَر في هذه الآيةِ تفصيلَ ذلك، فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[٣].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٢٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٤٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٨٧).

لمَّا عدَّد تعالىٰ نِعَمِه عليهم الخاصةَ، أتبعه بذِكْرِ نِعَمِه العامة؛ وهو ما شرَع لهم مِن العقائدِ المتفَقِ عليها؛ مِن توحيدِ الله وطاعته، والإيمانِ برُسُلِه وبكتبه وباليوم الآخِر، والجزاءِ فيه، ولمَّا كان أولَ الرُّسُلِ نوحٌ عليه السلام، وآخِرَهم محمَّدٌ ﷺ؛ قال: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، ثم أتبَع ذلك ما وصَّىٰ به إبراهيمَ عليه السلام؛ إذ كان أبَا العرَبِ، ففي ذلك هَزٌّ لهم، وبَعْثٌ علىٰ اتِّباع طريقتِه، وموسىٰ وعيسىٰ صلواتُ الله عليهم؛ لأنَّهما هما اللذانِ كان أتباعُهما موجودِينَ زمانَ بَعْثةِ رسول الله ﷺ(١).

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤﴾

ولمَّا كان المرادُ بالمشركين مع عبَّادِ الأوثان أهلَ الكتاب الذين اتخذوا أحبارَهم ورهبانهم أربابًا مِن دُونِ الله؛ لقَبولِهم منهم التحليلَ والتحريم، وكان ذلك مُفهِمًا لأنَّهم فارَقوا أهلَ الطاعة، وكان ذلك موهِمًا لأنَّهم ما فارَقوهم إلا عن جهلٍ؛ قال عاطفًا علىٰ ما تقديره: فأتىٰ الرُّسُلُ إلىٰ الناس، فأقاموا لهم الدِّين، وبيَّنوا لهم غايةَ التبيين، فاجتبىٰ اللهُ بعضَهم، وأضَلَّ بعضَهم، فافترَقوا: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾(٢).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾، وما بينهما اعتراضٌ، وفي الكلامِ حذفٌ يدلُّ عليه قولُه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾؛ تقديره: فتفرَّقوا، وضميرُ ﴿تَفَرَّقُوٓاْ﴾ عائدٌ إلىٰ ما عاد إليه ضميرُ ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾، وهم أُمَمُ الرُّسُلِ المذكورين؛ أي: أوصَيْناهم

(١) البحر المحيط (٩/ ٣٢٨).
(٢) نظم الدرر (١٧/ ٢٦٧-٢٦٨).

بواسطةِ رُسُلِهم؛ بأن يُقيموا الدِّينَ، دلَّ على تقديرِه ما في فعلِ ﴿وَصَّىٰ﴾ مِن معنى التبليغ؛ كما تقدم(١).

لمَّا بيَّن أنَّه أمَر كلَّ الأنبياء والأُمَم بالأخذ بالدِّين المتفَق عليه، كان لقائلٍ أن يقولَ: فلماذا نجدهم متفرِّقين؟ فأجاب اللهُ تعالى عنهم بقولِه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾(٢).

شروعٌ في بيانِ أحوالِ أهل الكتاب عَقِيبَ الإشارة الإجمالية إلى أحوالِ أهل الشرك(٣).

ثم لمَّا ذكَر سبحانه ما شرَعه لهم مِن إقامةِ الدِّين وعدمِ التفرُّق فيه، ذكَر ما وقَع مِن التفرُّقِ والاختلاف، فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾(٤).

لمَّا أمَر تعالى باجتماعِ المسلمين على دِينهم، ونهاهم عن التفرُّق؛ أخبَرهم أنَّكم لا تَغترُّوا بما أنزَل اللهُ عليكم مِن الكتاب؛ فإنَّ أهلَ الكتاب لم يَتفرَّقوا حتى أنزَل اللهُ عليهم الكتابَ الموجِب للاجتماع، ففعَلوا ضدَّ ما يأمر به كتابُهم، وذلك كلُّه بغيًا وعدوانًا منهم؛ فإنَّهم تباغَضوا وتحاسَدوا، وحصَلتْ بينهم المشاحَنة والعداوة، فوقَع الاختلافُ، فاحذَروا أيُّها المسلمون أن تكونوا مثلهم(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٥٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٨٨).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٦).

(٤) فتح القدير (٤/ ٦٠٧).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٧٥٥).

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۚ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾

ولمَّا ثبَتَ بهذا زَيْغُهم عن أوامرِ الكتاب الآتي مِن الله، سبَّب عنه أمرَه ﷺ بإبلاغِ الناس ما ينفعُهم عن رسالةِ ربِّه الذي أنزَل تلك الكتبَ في آيةٍ واحدة مفصَّلة بعَشْرِ كلمات، في كلِّ كلمةٍ منها حُكْمٌ برأسه، قالوا: ولا نظيرَ لها إلا آيةُ الكُرْسيِّ؛ فإنَّها عشَرةُ أصولٍ، كلُّ أصلٍ منها مستقِلٌّ برأسه، فقال مسبِّبًا عن حالِهم الاجتهادَ في إزالتها والعمل بضدِّها: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۚ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[1].

الفاءُ للتفريع على قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ إلى آخره، المفسَّرِ بقوله: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾، المُخلَّلِ بعضُه بجُملٍ معترضة مِن قوله: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾[2].

لمَّا تقدَّم شيئان: الأمرُ بإقامة الدِّين، وتفرُّقُ الذين جاءهم العلمُ واختلافُهم وكونُهم في شكٍّ؛ احتمَل قولُه: ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ أن يكونَ إشارةً إلى إقامة الدِّين؛ أي: فادعُ لدِينِ الله وإقامتِه، لا تحتاج إلى تقديرِ اللام بمعنى «لأجلِ»؛ لأنَّ «دعا» يَتعدَّى باللام، واحتمَل أن تكونَ اللامُ للعلَّة؛ أي: فلأجلِ ذلك التفرُّقِ، ولِما حدَث بسببه مِن تشعُّبِ الكفر شُعَبًا؛ فادعُ إلى الاتفاقِ والائتلاف على المِلَّة الحنيفيَّة[3].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٢٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٦٠).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٣٣٠).

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)﴾

ولمَّا كان التقدير: فالذين رجَعوا إليه طوعًا في هذه الدارِ بعد هذا البيانِ والإظهار، وتركوا الجدالَ: حُجَّتُهم ثابتةٌ، ولهم الرضا والنعيمُ المقيم؛ عطَف عليه قولَه مبتدِئًا بالموصول ليصِلَه بما يُفهِمُ التجدُّدَ والاستمرار: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[(١)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ إلخ، وهو يقتضي انتقالَ الكلام، فلمَّا استوفىٰ حظَّ أهلِ الكتاب في شأنِ المُحاجَّةِ معهم؛ رجَع إلىٰ المشركين في هذا الشأنِ بقولِه: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾، وتغييرُ الأسلوبِ بالإتيان بالاسمِ الظاهر الموصول وكونِ صلتِه مادةَ الاحتجاجِ مؤذِنٌ بتغييرِ الغرض في المتحدَّثِ عنهم[(٢)].

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧)﴾

ولمَّا جزَم سبحانه بما توعَّدهم بعد أن حكَم علىٰ حُجَّتِهم بالدُّحوضِ، وكان لا يَجزِم بالشيء إلا مَن كان نافذَ الأمرِ، محيطَ الحُكْمِ؛ نبَّه علىٰ أنَّه كذلك، مبيِّنًا ما به يُعرَف ثباتُ الحُجَجِ ودُحوضُها، المستلزِمُ للغضب مِن الله، المستعقِبُ للعذاب، بقولِه لافتًا القولَ إلىٰ الاسمِ الأعظم تنبيهًا علىٰ عظَمةِ المُخبَرِ عنه: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٢٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٦٥).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٢٨٠).

قد عَلِمتم أنَّ مِن جملةِ مُحاجَّةِ المشركين في الله، ومِن أشدِّها تشغيبًا في زعمِهم: محاجَّتَهم بإنكارِ البعث، وقد دحَض اللهُ حُجَّتَهم في مواضعَ مِن كتابه بنفيِ استحالته، وبدليلِ إمكانه، وأومأ هنا إلىٰ مقتضِي إيجابِه، فبيَّن أنَّ البعثَ والجزاء حقٌّ وعدل، فكيف لا يُقدِّرُه مدبِّرُ الكون ومُنزِلُ الكتابِ والميزان؟!(١).

لمَّا ذكَر مَن يحاجُّ في دِينِ الإسلام، صرَّح بأنَّه تعالىٰ هو الذي أنزَل الكتابَ، والكتابُ جنسٌ يراد به الكتبُ الإلهيَّة(٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّ حُجَجَه واضحةٌ بيِّنة، بحيث استجاب لها كلُّ مَن فيه خيرٌ؛ ذكَر أصلَها وقاعدتها، بل جميعَ الحُجَجِ التي أوصَلها إلىٰ العباد، فقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾(٣).

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾

ولمَّا تُصُوِّرَ بهذا قُرْبُها مشارًا بالتعبيرِ بـ﴿لَعَلَّ﴾ إلىٰ أنَّ حالَ المستعجِلِ بها حالُ المترجِّي لشيءٍ محبوب، وهو جهلٌ منه عظيم؛ شرَع في تفصيلِ الناس في أمرِها، فقال مشيرًا إلىٰ أنَّه ينبغي للعاقلِ الاستعدادُ لها للخلاصِ في وقتها؛ لظهورِ دلائلها مِن غيرِ بحثٍ عن قُرْبِها أو بُعْدِها؛ فإنَّه لا بد مِن كونها: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٦٧).

(٢) البحر المحيط (٩/ ٣٣٠).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٥٦).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٢٨٢-٢٨٣).

يجوز أن تكونَ جملةُ ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ﴾ إلىٰ آخرِها حالًا مِن ﴿ٱلسَّاعَةَ ﴾، ويجوز أن تكونَ بيانًا لجملة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾؛ لِما تضمَّنته مِن التنبيهِ والتهيئة بالنسبة إلىٰ فريقَي المؤمنين بالساعة، والذين لا يؤمنون بها، فذكَر فيها حالَ كِلَا الفريقينِ تجاه ذلك التنبيهِ؛ فأمَّا المشركون فيَتلقَّونه بالاستهزاءِ والتصميم علىٰ الجحدِ بها؛ وهو المرادُ بقولِه: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾، والذين آمَنوا بها يَعمَلون لِما به الفوزُ عندها؛ ولذلك جيء عَقِبها بجملةِ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴾[1].

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا كان حاصلُ أمرِ الفريقينِ أنَّه أظهَرَ خوفَ الكافرين في غايةِ الأمن، وأبطَنَ أمنَ المؤمنين في أزعَجِ خوفٍ، وكان هذا عينَ اللُّطْفِ؛ فإنَّه الوصولُ إلىٰ الشيء بضدِّه، ويُطلَق علىٰ إيصالِ البِرِّ إلىٰ الخَلْقِ علىٰ وجهٍ يَدِقُّ إدراكُه، وكان أكثَرَ ما يُبطِئُ بالإنسان في أمرِ الدِّين اهتمامُه بالرزقِ؛ أنتج ذلك قولَه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾[2].

هذه الجملةُ توطئةٌ لجملةِ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾؛ لأنَّ ما سيُذكَر في الجملةِ الآتية هو أثرٌ مِن آثارِ لُطْفِ الله بعباده، ورفقِه بهم، وما يسَّر مِن الرزقِ للمؤمنين منهم والكفارِ في الدُّنيا، ثم ما خَصَّ به المؤمنين مِن رزقِ الآخرة؛ فالجملةُ مستأنَفة استئنافًا ابتدائيًّا، مقدِّمةٌ لاستئنافِ الجملة الموطَّأِ لها؛ وهي جملةُ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ الآية[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٦٩).
(٢) نظم الدرر (١٧/ ٢٨٥).
(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٧١).

وإنَّما حسُنَ ذِكْرُ هذا الكلامِ ههنا؛ لأنَّه أنزَل عليهم الكتابَ المشتمِل علىٰ هذه الدلائلِ اللطيفة، فكان ذلك مِن لطفِ الله بعباده، وأيضًا المتفرِّقون استوجَبوا العذابَ الشديد، ثم إنَّه تعالىٰ أخَّر عنهم ذلك العذابَ، فكان ذلك أيضًا مِن لطفِ الله تعالىٰ، فلمَّا سبَق ذِكْرُ إيصالِ أعظَمِ المنافع، إليهم ودفعِ أعظَمِ المَضارِّ عنهم؛ لا جرَمَ حسُنَ ذِكْرُه ههنا(١).

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن بهذا أنَّ الرزقَ ليس إلا في يدِه، أتبَعه ما يزهِّدُ في طلبِ رزقِ البدَنِ، ويرغِّبُ في رزقِ الرُّوح، فقال علىٰ سبيلِ الاستئناف جوابًا لِمَن يسأل: هل يكون الرزقُ بشِدَّةِ السعيِ أو لا؟ وبدأ برزقِ الرُّوحِ لشرَفِه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾(٢).

هذه الآيةُ متصلة بقوله: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ الآية؛ لِما تضمَّنته مِن وجودِ فريقين: فريقُ المؤمنين أكبرُ هَمِّهم حياةُ الآخرة، وفريقُ الذين لا يؤمنون هممهم قاصرة علىٰ حياة الدُّنيا، فجاء في هذه الآيةِ تفصيلُ معاملةِ الله الفريقينِ معاملةً متفاوِتة مع استوائهم في كونِهم عبيدَه، وكونِهم بمحَلِّ لُطْفٍ منه، فكانت جملةُ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ تمهيدًا لهذه الجملةِ، وكانت هاته الجملةُ تفصيلًا لحظوظِ الفريقينِ في شأن الإيمان بالآخرة وعدم الإيمان بها، ولأجلِ هذا الاتصالِ بَيْنَها وبين جملة ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ تُرِك عطفُها عليها، وتُرِك عطفُ توطئتها كذلك، ولأجلِ الاتصال بَيْنَها وبين جملة ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٩٠).
(٢) نظم الدرر (١٧/ ٢٨٧).

بِعِبَادِهِۦ﴾ اتصالَ المقصودِ بالتوطئة تُرِك عطفُها على جملة ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾[(١)].

لمَّا بيَّن كونه لطيفًا بعباده، كثيرَ الإحسان إليهم؛ بيَّن أنَّه لا بد لهم مِن أن يَسْعَوْا في طلبِ الخيرات، وفي الاحترازِ عن القبائح، فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[(٢)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ الرزقَ، ذكَر حديثَ الكسبِ، ولمَّا كان الحرثُ في الأرض أصلًا مِن أصولِ المكاسب، استُعير لكلِّ مكسبٍ أريدَ به النَّماءُ والفائدة[(٣)].

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

ولمَّا تقرَّر ما شرَع مِن الدِّين ممَّا وصَّىٰ به جميعَ النبيِّين فبانت أصولُه، واتضَحتْ فروعُه وفصوله، وظهَرتْ غرائبه، وأشرَقتْ فرائدُه وآياته، وختَم بالقانونِ الأعظم في أمرِ الدارينِ ممَّا هو مُشاهَدٌ، ولا يَقدِرُ عليه غيرُه، فكان التقدير مِن غيرِ خفاءٍ: هذا شرعُ اللهِ الذي ارتضاه لعبادِه، وحكَم بأنَّ الإقبالَ عليه غيرُ ضارٍّ بطلبِ الرزق، وقدَّر الأرزاقَ، فلا قدرةَ لأحدٍ أن يَزيدَ في رزقِه شيئًا، ولا أن ينقُصَ منه شيئًا: عادَل ذلك بقولِه تعالىٰ -مقرِّرًا موبِّخًا منبِّهًا علىٰ ما هو الأصلُ في الضَّلال عن قوانينِه المحرَّرة، وشرائعِه الثابتة المقرَّرة-: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٧٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٩١).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٣٣١).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٢٩٠).

﴿أَمْ﴾ للإضرابِ الانتقالي، وهو انتقالٌ مِن الكلام على تفرُّقِ أهلِ الشرائع السالفة في شرائعهم -مَن انقرَض منهم ومَن بَقِي- كأهلِ الكتابينِ، إلى الكلامِ على ما يشابهُ ذلك مِن الاختلافِ على أصلِ الدِّيانة، وتلك مخالَفةُ المشركين للشرائعِ كلِّها، وتَلقِّيهم دِينَ الإشراكِ مِن أئمَّة الكفر، وقادة الضَّلال(١).

لمَّا بيَّن القانونَ الأعظم والقِسطاس الأقوَمَ في أعمال الآخرة والدُّنيا، أردَفه بالتنبيهِ على ما هو الأصلُ في بابِ الضَّلالة والشقاوة، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢).

لمَّا ذكَر تعالى أنَّه شرَع للناس ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ الآيةَ، أخذ يُنكِرُ ما شرَع غيرُه(٣).

لمَّا بيَّن سبحانه القانونَ في أمرِ الدُّنيا والآخرة، أردَفه ببيانِ ما هو الذَّنْبُ العظيم الموجِب للنار(٤).

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا عُلِم مِن هذا السياقِ -كما ترى- أنَّه لا بد مِن الفصلِ، وأنَّ الفصلَ لا يكون إلا يومَ القيامةِ؛ قال شارحًا للفصلِ بَيْنَ الفريقينِ في ذلك اليومِ، مُقبِلًا على خطابِ أعلى الخَلْقِ، إشارةً إلى أنَّ هذا لا يَفهَمه حقَّ الفهم ويوقِنُ به حقَّ الإيقان غيرُه ﷺ، أو

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٧٦).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٩٢).
(٣) البحر المحيط (٩/ ٣٣٢).
(٤) فتح القدير (٤/ ٦١١).

يكون المرادُ كلَّ مَن يصحُّ أن يخاطَبَ؛ إشارةً إلىٰ أنَّ الأمرَ في الوضوح بحيث لا يَختصُّ به أحدٌ دُونَ أحدٍ، فقال: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِ ﴾(١).

جملةُ ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾﴾، بيَّن حالَ هذا العذابِ ببيانِ حالِ أصحابه حينَ توقُّعِ حلوله، وكفىٰ بذلك مُنبِئًا عن هَوْلِه(٢).

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا ذكَر محلَّهم ومآلهم فيه، بيَّن دوامَه زيادةً في تعظيمِه، فقال مبتدِئًا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾(٣).

اسمُ الإشارةِ مؤكِّدٌ لنظيره الذي قبله؛ أي: ذلك المذكورُ الذي هو فضلٌ يحصُلُ لهم في الجنَّة هو أيضًا بُشْرَىٰ لهم مِن الحياة الدُّنيا(٤).

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

ولمَّا أثبتَ أنَّه أنزَل الكتابَ بالحق، ودلَّ علىٰ ذلك إلىٰ أن ختَم بنفيِ الغرض في البلاغ، فحصَل القطعُ بمضمونِ الخبرِ؛ كان كأنَّه قيل إنكارًا عليهم وتوبيخًا لهم: هل

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٢٩٢-٢٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٧٨).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٢٩٣-٢٩٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ٨٠).

عَمِلوا بما نبَّهناهم عليه ممَّا يَدَّعون أنَّهم عريقون فيه: مِن صلةِ الرحم، والإقبالِ على معالي الأخلاق؛ باجتنابِ السيِّئات، وارتكابِ الحسنات، والبُعْدِ عن الكذبِ والمكابَرة والبهتان، فاعتقَدوا أنَّه حقٌّ، وأنَّه وحيٌ مِن عندِ الله بما قام على ذلك مِن البرهانِ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(1).

إضرابٌ انتقاليٌّ عطفًا على قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾، وهو الكلام المُضرَب عنه، والمُنتقَل منه، والمرادُ الانتقال إلى توبيخٍ آخَرَ؛ فالهمزةُ المقدَّرة بعد ﴿أَمْ﴾ للاستفهامِ التوبيخي؛ فإنَّهم قالوا ذلك فاستحَقُّوا التوبيخَ عليه، وجيءَ بفعلِ ﴿يَقُولُونَ﴾ بصيغةِ المضارع؛ ليَتوجَّهَ التوبيخُ لاستمرارهم على هذا القولِ الشنيع مع ظهورِ دلائلِ بطلانه، فإذا كان قولُهم هذا شنعًا مِن القولِ، فاستمرارُهم عليه أشنَعُ(2).

اعلَمْ أنَّ الكلامَ في أول السُّورة إنَّما ابتُدئ في تقريرِ أنَّ هذا الكتابَ إنَّما حصَل بوحيِ الله؛ وهو قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣﴾، واتصَل الكلامُ في تقريرِ هذا المعنى، وتعلَّق البعضُ بالبعض حتى وصَل إلى ههنا، ثم حكى ههنا شُبْهةَ القوم؛ وهي قولُهم: إنَّ هذا ليس وحيًا مِن اللهِ تعالى، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(3).

---

(1) نظم الدرر (١٧/ ٣٠٠).

(2) التحرير والتنوير (٢٥/ ٨٥).

(3) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٩٦).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

ولمَّا أخبَر بضَلالِهم، وجزَم بإبطال أعمالهم؛ رغَّبهم -رحمةً منه لهم- في التوبةِ، التي هي مِن الحقِّ الذي يُحِقُّه، ولو على أقلِّ وجوهِها، بأن يقولوها بألسنتِهم؛ ليبلُغَه ذلك عنهم: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[1].

لمَّا جرى وعيدُ الذين يحاجُّون في اللهِ لتأييدِ باطلهم مِن قولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾، ثم أُتبِعَ بوصفِ سُوءِ حالهم يومَ الجزاء بقولِه: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾، وقوبِلَ بوصفِ نعيم الذين آمنوا بقولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، وكان ذلك مَظِنَّةَ أن يَكسِرَ نفوسَ أهلِ العناد والضَّلالة؛ أُعقِبَ بإعلامِهم أنَّ اللهَ مِن شأنه قَبولُ توبةِ مَن يتُوبُ مِن عباده، وعفوُهُ بذلك عمَّا سلَف مِن سيِّئاتِهم[2].

لمَّا قال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾، ثم برَّأ رسولَه ﷺ ممَّا أضافوه إليه مِن هذا، وكان مِن المعلوم أنَّهم قد استحَقُّوا بهذه الفِرْيةِ عقابًا عظيمًا؛ لا جرَمَ ندَبهم اللهُ على التوبة، وعرَّفهم أنَّه يَقبَلها مِن كلِّ مُسيءٍ، وإن عظُمتْ إساءتُه، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٣٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٨٨-٨٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٩٧).

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

ولمَّا رغَّب بالعفوِ، زاد بالإكرام، فقال: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[1].

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾

ولمَّا كان المتبادِرُ مِن الاستجابةِ إيجادَ كلِّ ما سألوه في هذه الدُّنيا على ما أرادوه، وكان الموجودُ غيرَ ذلك، بل كان أكثَرُ أهلِ الله مضيَّقًا عليهم، وكانت الإجابةُ إلى كلِّ ما يُسأل بأن يكونَ في هذه الدار يؤدي في الغالبِ إلى البَطَرِ المؤدي إلى الشقاء، فيؤدي ذلك إلى عكسِ المراد؛ قال على سبيلِ الاعتذار لعباده -وهو المَلِكُ الأعظم- مبيِّنًا أنَّ استجابتَه تارةً تكون -كما ورَد به الحديث[2]- لِما سألوه، وتارةً تكونُ بدفعِ مثلِه مِن البلاء، وتارةً تكون بتأخيره إلى الدارِ الآخرة: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾[3].

عطفٌ على جملةِ ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، أو على المجموع مِن جملة ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ومِن جملةِ ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، وموقعُ معناها موقعُ الاستدراكِ والاحتراس؛ فإنَّها تشير إلى جوابٍ عن سؤالٍ مقدَّر في نفسِ السامع إذا سَمِع أنَّ الله يستجيب للذين آمنوا، وأنَّه يَزيدهم مِن فضله أن يَتساءلَ في نفسه: أنَّ ممَّا يَسأل المؤمنون سَعَةَ الرزقِ، والبَسْطةَ فيه، فقد كان المؤمنون أيامَ صدرِ الإسلام في حاجةٍ،

(١) نظم الدرر (١٧/ ٣٠٦).

(٢) أخرجه أحمد في "مسنده" (١١١٣٣).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٣٠٧-٣٠٨).

وضيقِ رزقٍ؛ إذ منَعهم المشركون أرزاقَهم، وقاطَعوا معاملتهم، فيجاب بأنَّ اللهَ لو بسَط الرزقَ للناس كلِّهم، لكان بَسْطُه مُفسِدًا لهم؛ لأنَّ الذي يستغني يَتطرَّقُه نسيانُ الالتجاءِ إلىٰ الله، ويَحمِلُه علىٰ الاعتداءِ علىٰ الناس، فكان مِن خيرِ المؤمنين الآجِلِ لهم ألَّا يُبسَطَ لهم في الرزقِ، وكان ذلك منُوطًا بحِكْمةٍ أرادها اللهُ مِن تدبيرِ هذا العالم تطَّرِدُ في الناسِ؛ مؤمنِهم وكافرِهم[1].

لمَّا قال في الآيةِ الأُولىٰ: إنَّه يجيب دعاءَ المؤمنين، ورَد عليه سؤالٌ؛ وهو أنَّ المؤمنَ قد يكون في شِدَّةٍ وبَلِيَّةٍ وفقر، ثم يدعو، فلا يشاهِدُ أثَرَ الإجابة، فكيف الحالُ فيه مع ما تقدَّم مِن قولِه: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؟ فأجاب تعالىٰ عنه بقولِه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾[2].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

ولمَّا ذكَر إنزالَ الرزقِ علىٰ هذ المنوالِ، وكان مِن الناس ممَّن خذَّله الإضلالُ مَن يقول: إنَّ ما الناسُ فيه مِن المطرِ والنبات وإخراجِ الأقوات إنَّما هو عادةُ الدهر؛ بيَّن أنَّه سبحانه هو الخالقُ لذلك بقُدْرتِه واختياره بما هو كالشمس؛ مِن أنَّه قد يَحبِسُ المطرَ عن إبَّانِه، وإعادتِه في وقتِه وأوانه، حتىٰ يَيْئَسَ الناسُ منه، ثم يُنزِله إن شاء، فقال معبِّرًا بالضميرِ الذي هو غيبٌ لأجلِ أنَّ إنزالَ الغيث مِن مفاتيحِ الغيب: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٩٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٩٨).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٣٠٩-٣١٠).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾؛ فإنَّ الغيثَ سببُ رزقٍ عظيم؛ وهو ما ينزِّلُه اللهُ بقَدَرٍ هو أعلَمُ به، وفيه تذكيرٌ بهذه النِّعْمةِ العظيمة على الناس، التي منها معظمُ رزقِهم الحقيقي لهم ولأنعامهم، وخَصَّها بالذِّكر دُونَ غيرِها مِن النِّعَمِ الدُّنيوية؛ لأنَّها نِعْمةٌ لا يختلف الناسُ فيها؛ لأنَّها أصلُ دوامِ الحياة بإيجادِ الغذاء الصالح للناس والدوابِّ، وبهذا يَظهَر وَقْعُ قولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ عَقِب قولِه هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾[(١)].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

ولمَّا كان ما مضىٰ مِن بسطِ الرزق وقبضِه، وإنزالِ الغيثِ وحبسِه مِن الآيات العظيمة؛ عمَّم بذِكْرِ ما ذلك بعضٌ منه، وهو دالٌّ علىٰ جميعِ ما ختَم به الآيةَ السالفة مِن الحمدِ الذي هو الاتصافُ بجميعِ صفات الكمال، فقال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فذلك مِن آياتِ الله الدالَّةِ علىٰ قُدْرتِه واختياره، وإنَّه هو الذي يُحْيي هذا الوجودَ بالمعاني مِن رُوحِ الوحيِ وغيرِه تارة، والأعيانِ مِن الماء وغيرِه أخرىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[(٢)].

لمَّا كان إنزالُ الغيثِ جامعًا بَيْنَ كونه نِعْمةً وكونه آيةً دالَّةً علىٰ بديعِ صُنْعِ الله تعالىٰ، وعظيمِ قُدْرتِه المقتضيةِ انفرادَه بالإلهيَّة؛ انتقَل مِن ذِكْرِه إلىٰ ذكرِ آياتٍ دالة علىٰ انفرادِ الله تعالىٰ بالإلهيَّة؛ وهي آيةُ خَلْقِ العوالِم العظيمة وما فيها -ممَّا هو مُشاهَدٌ للناس- دُونَ قصدِ الامتنان؛ وهذا الانتقالُ استطرادٌ واعتراض بَيْنَ الأغراضِ التي سياقُ الآيات فيها[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٩٥).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٣١٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٩٧).

ثم ذكر آيةً أخرىٰ تدلُّ علىٰ إلهيَّتِه، فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾[(١)].

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

ولـمَّا ذكَّرهم سبحانه بنِعَمِه، وكان السياقُ لتَعْدادِ ما ناسَب مقصودَ هذه السُّورةِ منها، وكان الفكرُ جديرًا بأن يخطُرَ له ما في الدُّنيا مِن الأمراضِ والأنكاد، والهمومِ والغموم، بالإشقاءِ فيها والإسعاد؛ قال شافيًا لعِيِّ سؤاله عن ذلك؛ ببيانِ ما فيه مِن نعمتِه علىٰ وجهٍ دالٍّ علىٰ تمام قُدْرتِه، عاطفًا علىٰ ما هو مضمونُ ما مضىٰ بما تقديرُه: فهو الذي خلَقكم ورزَقكم، وهو المتصرِّفُ فيكم بعد بَثِّكم بالعافيةِ والبلاء تمامَ التصرُّف، فلا نِعْمةَ عندكم ولا نِقْمةَ إلا منه، ولا يَقدِرُ أصحابُها علىٰ ردِّها، ولا رَدِّ شيءٍ منها؛ فهو وليُّكم وَحْدَه: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[(٢)].

لمَّا تضمَّنتِ المنَّةُ بإنزالِ الغيث بعد القُنوطِ أنَّ القومَ أصابهم جَهْدٌ مِن القحطِ بلَغ بهم مَبلَغَ القنوط مِن الغيث؛ أُعقِبت ذلك بتنبيهِهم إلىٰ أنَّ ما أصابهم مِن ذلك البؤسِ هو جزاءٌ علىٰ ما اقترَفوه مِن الشرك تنبيهًا يَبعَثهم ويبعث الأُمَّةَ علىٰ أن يلاحِظوا أحوالهم نحوَ امتثالِ رضا خالقِهم، ومحاسبةِ أنفسهم؛ حتىٰ لا يَحسَبوا أنَّ الجزاءَ الذي أُوعِدوا به مقصورٌ علىٰ الجزاءِ في الآخرة، بل يَعلَموا أنَّه قد يُصِيبُهم اللهُ بما هو جزاءٌ لهم في الدُّنيا، ولـمَّا كان ما أصاب قُريشًا مِن القحطِ والجوع استجابةً لدعوةِ النبيِّ ﷺ عليهم كما تقدم، وكانت تلك الدعوةُ ناشئةً علىٰ ما لاقَوْهُ به مِن الأذىٰ؛ لا جرَمَ كان ما أصابهم مسبَّبًا علىٰ ما كسَبتْ أيديهم[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٩٩).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٣١٤-٣١٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٩٩).

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٣١﴾

ولمَّا كان مَن يعاقِبُ بما دُونَ الموتِ ربما ظُنَّ أنَّه عاجزٌ، قال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾[1].

عطفٌ على جملةِ ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾، وهو احتراسٌ؛ أي: يعفو عن قُدْرةٍ؛ فإنَّكم لا تُعجِزونه، ولا تَغلِبونه، ولكنْ يعفو تفضُّلًا[2].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢﴾

ولمَّا دلَّ سبحانه على تمامِ قُدْرتِه واختياره، وختَم بنفيِ الشريكِ اللازم للوَحْدانيَّة التي اعتقادُها أساسُ الأعمال الصالحة؛ دلَّ عليها بأعظَمِ الآياتِ عندهم، وأوضَحِها في أنفسهم، وأقرَبِها إلى أفهامِهم؛ لِما لهم مِن الإخلاصِ عندها، فقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾[3].

لمَّا جرى تذكيرُهم بأنَّ ما أصابهم مِن مصيبةٍ هو مسبَّبٌ عن اقترافِ أعمالهم، وتذكيرُهم بحلولِ المصائب تارةً وكشفِها تارةً أخرى بقوله: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾، وأُعقِبَ بأنَّهم في الحالتينِ غيرُ خارجينَ عن قبضةِ القدرة الإلهيَّة؛ سِيقَ لهم ذِكْرُ هذه الآيةِ جامعةً مثالًا لإصابةِ المصائب، وظهورِ مَخايِلِها المُخِيفةِ، المذكِّرة بما يغفُلون عنه مِن قدرةِ الله، والتي قد تأتي بما أُنذِروا به، وقد تنكشف عن غيرِ ضرٍّ، ودليلًا على عظيمِ قدرة الله تعالى، وأنَّه لا محيصَ عن إصابةِ ما أراده، وإدماجًا للتذكيرِ بنِعْمةِ السَّيْرِ في البحر، وتسخيرِ البحرِ للناس؛ فإنَّ ذلك نِعْمةٌ[4].

(١) نظم الدرر (١٧/ ٣١٦-٣١٧).
(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٠٣).
(٣) نظم الدرر (١٧/ ٣١٧-٣١٨).
(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٠٥).

لمَّا ذكَر تعالىٰ مِن دلائلِ وَحْدانيَّتِه أنواعًا، ذكَر بعدها العالَمَ الأكبر؛ وهو السمواتُ والأرض، ثم العالَمَ الأصغر؛ وهو الحيوانُ، ثم أتبَعه بذِكْرِ المَعادِ: أتبَعه بذِكْرِ السُّفُنِ الجارية في البحر؛ لِما فيها مِن عظيمِ دلائل القدرة مِن جهةِ أنَّ الماءَ جسمٌ لطيف شفَّاف يغُوصُ فيه الثقيلُ، والسُّفُنُ تَشخَصُ بالأجسامِ الثقيلة الكثيفة، ومع ذلك جعَل تعالىٰ للماءِ قوَّةً يَحمِلُها بها، ويَمنَع مِن الغوصِ[1].

ثم ذكَر سبحانه آيةً أخرىٰ مِن آياتِه العظيمة الدالَّة علىٰ توحيدِه، وصِدْقِ ما وعَد به، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾[2].

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾

ولـمَّا كان كأنَّه قيل: وما تلك الآياتُ؟ ذكَر ما يخوِّفُهم منها، ويعرِّفُهم أنَّ جميعَ ما أباحهم إيَّاه مِن شؤونها إنَّما هو بقُدْرتِه واختياره، فقال: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[3].

ثم نبَّه علىٰ هذه الأسبابِ بقولِه: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[4].

---

(١) البحر المحيط (٩/ ٣٣٩-٣٤٠).

(٢) فتح القدير (٤/ ٦١٧).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٣١٨-٣١٩).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٧٥٩).

﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ٣٤﴾

ولمَّا نبَّه بهذا الاعتراضِ بَيْنَ الجزاءِ ومعطوفِه علىٰ ما فيه مِن دقائقِ المعاني في جلائلِ المباني، قال مكمِّلًا لِما في ذلك مِن الترغيبِ في صورةِ الترهيب: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾(١).

﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٣٥﴾

ولمَّا كان هذا كلُّه علىٰ صورةِ الاختبار لِمَن يستبصِرُ فيدُومُ إخلاصُه، ومَن يَرجِعُ إلىٰ العَمَىٰ فلا يكون خلاصُه؛ قال مبيِّنًا بالنَّصْبِ؛ للصرفِ عن العطف علىٰ شيءٍ مِن الأفعالِ الماضية لفسادِ المعنىٰ لكونها في حيِّزِ الشرط، فيصير العلمُ أيضًا مشروطًا: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾(٢).

قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ برفعِ «وَيَعْلَمُ» علىٰ أنَّه كلامٌ مستأنَف، وقرأه الباقون بالنصب؛ فأمَّا الاستئنافُ علىٰ قراءة نافع وابن عامر ويعقوبَ، فمعناه: أنَّه كلامٌ أُنُفٌ، لا ارتباطَ له بما قبله؛ وذلك تهديدٌ للمشركين بأنَّهم لا محيصَ لهم مِن عذابِ الله؛ لأنَّه لمَّا قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾، صار المعنىٰ: ومِن آياتِ انفراده بالإلهيَّة الجواري في البحرِ، والمشركون يجادِلون في دلائلِ الوَحْدانيَّة بالإعراضِ والانصراف عن سماعها، فهدَّدهم اللهُ بأنْ أعلَمَهم أنَّهم لا محيصَ لهم؛ أي: مِن عذابِه، فحُذِف متعلِّقُ المحيصِ إبهامًا له تهويلًا للتهديد؛ لتَذهَبَ النفسُ كلَّ مذهبٍ ممكن، فيكون قوله: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ خبرًا مرادًا به الإنشاءُ والطلب؛ فهو في قوَّةِ: وليَعلَمَ الذين يجادِلون، أو اعلَموا يا مَن يجادلون، وليس خبَرًا عنهم؛ لأنَّهم لا يؤمنون بذلك حتىٰ يَعلَموه. وأمَّا قراءةُ النصب، فهي عند سيبويه وجمهورِ النحاة

(١) نظم الدرر (١٧/ ٣٢١).
(٢) نظم الدرر (١٧/ ٣٢٢-٣٢٣).

علىٰ العطفِ علىٰ فعلٍ مدخول لِلَام التعليل، وتضمَّن «أنْ» بعده؛ والتقديرُ: لينتقِمَ منهم، ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ إلخ[(١)].

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٖ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٞ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦﴾

ولمَّا عُلم أنَّ جميعَ النِّعَم مِن الغيثِ وآثاره، ومِن نشرِ الدوابِّ برًّا وبحرًا بمَعرِضٍ مِن الزوال، وهو عظيمُ التقلُّبات، هائلُ الأحوال؛ سبَّب عنه قولَه محقِّرًا لدنياهم وما فيها مِن الزَّهرة بسرعةِ الذُّبول والزوال، والأُفول والارتحال، وبأنَّها مع ما ذُكِر لا قدرةَ لهم علىٰ شيءٍ منها إلا بما يمُنُّ عليهم بها، وأمَّا هم فقومٌ ضعفاءُ لا قدرةَ لهم علىٰ شيءٍ، وليس لهم مِن أنفسهم إلا العَجْزُ، فلو عقَلوا لعَلِموا، ولو عَلِموا لعَمِلوا عمَلَ العبيدِ، وأطاعوا القويَّ الشديد؛ ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٖ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٞ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[(٢)].

تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ﴾ إلىٰ آخرِها؛ فإنَّها اقتضت وجودَ مُنعَمٍ عليه ومحروم، فذكَروا بأنَّ ما أُوتُوه مِن رزقٍ هو عرَضٌ زائل، وأنَّ الخيرَ في الثوابِ الذي ادَّخَره اللهُ للمؤمنين، مع المناسبةِ لِما سبَقه مِن قولِه: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٖ ٣٤﴾ مِن سلامةِ الناس مِن كثيرٍ مِن أهوالِ الأسفار البَحْرية؛ فإنَّ تلك السلامةَ نِعْمةٌ مِن نِعَمِ الدُّنيا، ففُرِّعتْ عليه الذكرىٰ بأنَّ تلك النِّعْمةَ الدُّنيوية نِعْمةٌ قصيرةُ الزمان، صائرةٌ إلىٰ الزوال؛ فلا يَجعَلْها الموفَّقُ غايةَ سعيِه، ولْيَسْعَ لعملِ الآخرة الذي يأتي بالنعيمِ العظيم الدائم، وهو النعيمُ الذي ادَّخره اللهُ عنده لعبادِه المؤمنين الصالحين[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٠٨).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٣٢٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٠٩).

لمَّا ذكَر دلائلَ التوحيد، أردَفها بالتنفيرِ عن الدُّنيا، وتحقيرِ شأنها؛ لأنَّ الذي يَمنَعُ مِن قَبول الدليل إنَّما هو الرغبةُ في الدُّنيا بسببِ الرِّياسة وطلبِ الجاه، فإذا صغُرتِ الدُّنيا في عينِ الرجُلِ لم يلتفت إليها، فحينئذٍ ينتفع بذِكْرِ الدلائل، فقال: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1].

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ولمَّا كان كلٌّ مِن الإيمانِ والتوكل أمرًا باطنًا، فكان لا بد مِن دلائِله مِن ظواهرِ الأعمال، وكانت تخلِّيات مِن الرذائل وتحلِّيات بالفضائل، وكانت التخلياتُ لكونِها دَرْءًا للمفاسد مقدَّمةً علىٰ التحلياتِ التي هي جلبٌ للمصالحِ؛ قال عاطفًا علىٰ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[2].

أُتبِع الموصولُ السابق بموصولاتٍ معطوفٍ بعضُها علىٰ بعضٍ، كما تُعطَف الصفاتُ للموصوفِ الواحد؛ فكذلك عطفُ هذه الصلاتِ، وموصولاتُها أصحابُها متَّحِدون، وهم الذين آمَنوا باللهِ وحده؛ والمقصود مِن ذلك: هو الاهتمامُ بالصلات، فيُكرَّر الاسمُ الموصول لتكونَ صِلتُه معتنًىٰ بها حتىٰ كأنَّ صاحبَها المتَّحِدَ منزَّلٌ منزلةَ ذواتٍ[3].

ثم بيَّن أنَّ هذه الخيريةَ إنَّما تحصُلُ لِمَن كان موصوفًا بصفاتٍ[4].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾

ولمَّا أتَمَّ ما منه التخلِّي، أتبَعه ما به التحلِّي، وذكَر أوصافًا أربعة، هي قواعدُ النصفة، ما انبنىٰ عليها قطُّ ريعُها إلا كان الفاعلون لها كالجسدِ الواحد، لا تأخذُهم نازلةٌ في

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٠٣).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٣٢٨-٣٢٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ١١٠).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٠٣).

الـدُّنيا ولا في الآخـرة، فقـال: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[(١)].

هذا موصولٌ آخَرُ وصلةٌ أخرىٰ، ومدلولهما مِن أعمالِ الذين آمنوا التي يَدْعوهم إليها إيمانُهم، والمقصودُ منها ابتداءً هم الأنصارُ[(٢)].

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

ولمَّا كان في العقوبة مصلحةٌ ومَفسَدة، فندَب سبحانه إلىٰ المغفرةِ تقديمًا لدرءِ المفسدة؛ لأنَّ الإنسانَ -لعدمِ علمه بالقلوب- لا يصحُّ له بوجهٍ أن يعاقِبَ بمجردِ الغضب؛ لأنَّه قد يخطئ فيعاقِب مَن أغضبه، وهو شريفُ الذات، كريمُ الطَّبع، عليُّ الهمة، أبيُّ النفس، ما وقَع منه الذَّنْبُ الذي أغضَب إلا خطأً معفوًّا عنه، أو كُذِب عليه فيه، فيربي في نفسه إحنة تُفسِد ذاتَ البَيْنِ فيجُرُّ إلىٰ خرابٍ كبير، وكانت إدامةُ الغَفْرِ جالبةً للفساد، مجرِّئة علىٰ العناد، وكان البغيُ والتمادي في السُّوء محقِّقًا لقصدِ الذَّنْبِ، مجوِّزًا للإقدامِ علىٰ الانتقام، وكان الانتصارُ مِن الفُجَّارِ ربما أحوَج مع قوَّةِ الجَنانِ إلىٰ إنفاقِ المال؛ عقَّب الإنفاقَ بمدحِ الانتصار بقولِه: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾[(٣)].

هذا موصولٌ رابع، وصِلتُه خُلُقٌ أراده اللهُ للمسلمين، والحظُّ الأول منه للمؤمنين الذين كانوا بمكَّةَ قبل أن يهاجِرون؛ فإنَّهم أصابهم بَغْيُ المشركين بأصنافِ الأذىٰ -مِن شَتْمٍ، وتحقير، ومصادَرة الأموال، وتعذيبِ الذوات- فصبَروا عليه[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٣٣١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ١١١).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٣٣٣-٣٣٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ١١٣).

ثم ذكر سبحانه الطائفةَ التي تنتصر ممَّن ظلَمها، فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾[(١)].

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾

ولمَّا كان الإذنُ في الانتصارِ في هذا السياقِ المادح مرغَّبًا فيه مع ما للنفسِ مِن الداعية إليه، زجَر عنه لِمَن كان له قلبٌ أولًا: بكفِّها عن الاسترسالِ فيه، وردِّها على حدِّ المماثَلة، وثانيًا: بتسميتِه سيئةً، وإن كان على طريقِ المشاكَلة، وثالثًا: بالنَّدْبِ إلى العفوِ، فصار المحمودُ منه إنَّما هو ما كان لإعلاءِ كلمة الله، لا شائبةَ فيه للنفسِ أصلًا؛ فقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[(٢)].

هذه جُمَلٌ ثلاث معترِضةٌ الواحدةُ تِلْوَ الأخرى بَيْنَ جملةِ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ وجملةِ ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾، وفائدةُ هذا الاعتراضِ تحديدُ الانتصار، والترغيبُ في العفوِ، ثم ذمُّ الظُّلْمِ والاعتداء، وهذا انتقالٌ مِن الإذنِ في الانتصار مِن أعداءِ الدِّين إلى تحديدِ إجرائه بَيْنَ الأُمَّة؛ بقرينةِ تفريعِ ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ على جملةِ ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾؛ إذ سُمِّيَ تركُ الانتصارِ عفوًا وإصلاحًا، ولا عَفْوَ ولا إصلاحَ مع أهل الشرك[(٣)].

لمَّا قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩)﴾، أردَفه بما يدلُّ على أنَّ ذلك الانتصارَ يجبُ أن يكونَ مقيَّدًا بالمثلِ؛ فإنَّ النقصانَ حَيْفٌ، والزيادةَ ظُلْمٌ، والتساويَ هو

---

(١) فتح القدير (٤/ ٦٢٠).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٣٣٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ١١٤).

العدلُ، وبه قامت السماواتُ والأرض؛ فلهذا السببِ قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

بيانٌ لوجهِ كونِ الانتصار مِن الخصال الحميدة مع كونه في نفسِه إساءةً إلىٰ الغير بالإشارةِ إلىٰ أنَّ البادئَ هو الذي فعَله لنفسه؛ فإنَّ الأفعالَ مستتبِعةٌ لأَجْزِيَتِها(٢) حتمًا؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ، وفيه تنبيهٌ علىٰ حرمة التعدي، وإطلاقُ السيئةِ علىٰ الثانية لأنَّها تسُوءُ مَن نزَلتْ به(٣).

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١﴾

ولمَّا كان هذا سادًّا لبابِ الانتصار -لِما يُشعِر به مِن أنَّه ظُلْمٌ علىٰ كلٍّ-، قال مؤكِّدًا نفيًا لهذا الإشعارِ: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾(٤).

يجوز أن تكونَ عطفًا علىٰ جملةِ ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾، فيكونَ عُذْرًا للَّذين لم يَعفُوا، ويجوز أنَّها عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾، وما بَيْنَ ذلك اعتراضٌ كما علِمتَ؛ فالجملة: إمَّا مرتبِطةٌ بغرضِ انتصار المسلِم علىٰ ظالمه مِن المسلمين تكملةً لجملةِ ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، وإمَّا مرتبطة بغرضِ انتصار المؤمنين مِن بَغْيِ المشركين عليهم، وهو الانتصارُ بالدفاع، سواءٌ كان دفاعَ جماعاتٍ، وهو الحرب، فيكون هذا تمهيدًا للإذنِ بالقتال الذي شُرِع مِن بعدُ، أم دفاعَ الآحادِ إن تمكَّنوا منه، فقد صار المسلمون بمكَّةَ يومئذٍ ذَوِي قوَّةٍ يستطيعون بها الدفعَ عن أنفسِهم آحادًا؛ كما قيل في عِزِّ الإسلامِ بإسلامِ عُمَرَ بنِ الخطَّاب(٥)(٦).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٠٤).

(٢) أي: جزاءاتها.

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ٣٤).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٣٣٧).

(٥) أخرجه الترمذي (٣٦٨١).

(٦) التحرير والتنوير (٢٥/ ١١٨).

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾

ولمَّا نفىٰ السبيلَ عنه بعد تشوُّفِ السامع إلىٰ موضعِ ما أشعَر به الكلامُ السابق مِن الظُّلم، بيَّن ذلك، فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

استئنافٌ بياني؛ فإنَّه لمَّا جرىٰ الكلامُ السابق كلُّه علىٰ الإذنِ لِلَّذين بُغِيَ عليهم أن يَنتصروا ممَّن بغَوْا عليهم، ثم عُقِّب بأنَّ أولئك ما عليهم مِن سبيل؛ كان ذلك مثارَ سؤالِ سائلٍ عن الجانب الذي يقع عليه السبيلُ المنفيُّ عن هؤلاء[2].

ولمَّا نفىٰ سبحانه السبيلَ علىٰ مَن انتصَر بعد ظُلْمِه، بيَّن مَن عليه السبيلُ، فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[3].

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

ولمَّا أفهَم سياقُ هذا الكلامِ وترتيبُه هكذا أنَّ التقديرَ: فلَمَنْ صبَر عن الانتصارِ أحسَنُ حالًا ممَّن انتصَر؛ لأنَّ الخطأَ في العفوِ أَوْلىٰ مِن الخطأ في الانتقام؛ عطَف عليه مؤكِّدًا لِما أفهمه السياقُ أيضًا مِن مدحِ المنتصِر: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[4].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾، وموقعُ هذه الجملةِ موقعُ الاعتراض بَيْنَ جملةِ ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ وجملة ﴿ وَمَن

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٢٠).

(٣) فتح القدير (٤/ ٦٢٠).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٣٣٩).

﴿يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾، وهذه الجملةُ تفيد بيانَ مزيَّةِ المؤمنين الذي تحمَّلوا الأذىٰ مِن المشركين وصبَروا عليه، ولم يؤاخِذوا به مَن آمَن ممَّن آذَوْهم؛ مثلُ أختِ عُمَرَ بنِ الخطَّاب قبل إسلامه، ومثل صِهْرِه سعيدِ بن زيد، فقد قال: «لقد رأَيْتُني وإنَّ عُمَرَ لَمُوثقي علىٰ الإسلامِ قبل أن يَسلِمَ عُمَرُ»(١)، فكان في صبرِ سعيدٍ خيرٌ دخَل به عُمَرُ في الإسلام، ومزيَّة المؤمنين الذين يَصبِرون علىٰ ظُلْمِ إخوانهم، ويَغفِرون لهم، فلا يَنتصفون منهم، ولا يَستَعْدُونَ(٢) عليهم(٣).

ثم رغَّب سبحانه في الصبرِ والعفوِ، فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾(٤).

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤﴾

ولمَّا بانَ في هذا الكلامِ: المقتصِر علىٰ الصبر، والجامع إليه الغفْر، والمقتضي بالنصر؛ أدرجَهم كلَّهم في دائرةِ الحق؛ أتبعَه مَن خرَج عن تلك الدائرةِ، فقال مُخبِرًا أنَّ ما شاءه كان، وما لم يَشأْهُ لم يكُنْ، عطفًا علىٰ نحوِ: فمَن يَهدي اللهُ للوقوف عند هذه الحدودِ فما له مِن مُضِلٍّ، مبيِّنًا بلفظِ الضَّلال أنَّ ما شرَعه مِن الطريقِ في غايةِ الوضوح، لا يَزيغُ عنه أحدٌ إلا بطردٍ عظيم: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٦٢).

(٢) أي: يطلبون النصرة.

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٢٢).

(٤) فتح القدير (٤/ ٦٢٠).

(٥) نظم الدرر (١٧/ ٣٤١).

بعد أن حكىٰ أصنافًا مِن كفرِ المشركين، وعنادِهم وتكذيبهم، ثم ذكَّرهم بالآياتِ الدالَّة علىٰ انفرادِ الله تعالىٰ بالإلهيَّة، وما في مَطاويها مِن النِّعَمِ، وحذَّرهم مِن الغرورِ بمتاعِ الدُّنيا الزائل؛ أعقبَه بقولِه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾، وهو معطوفٌ علىٰ قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾(١).

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾

ولمَّا أثبتَ رؤيتَهم العذابَ، أثبتَ دُنُوَّهم مِن محلِّه، وبيَّن حالَهم في ذلك الدُّنوِّ، فقال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾(٢).

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

ولمَّا كانت العادةُ جاريةً بأنَّ مَن وقَع في ورطةٍ وجَد في الأغلب وليًّا ينصُرُه، أو سبيلًا ينجيه؛ قال عاطفًا على ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾، أو ﴿أَلَآ إِنَّ﴾: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٢٣).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٣٤٢).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٣٤٥-٣٤٦).

عطفٌ على جملة ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾؛ أي: هم في عذابٍ دائم لا يجدون منه نصيرًا، وهو ردٌّ لمزاعمِهم أنَّ آلهتَهم تنفعُهم عند الله[1].

﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ٤٧﴾

ولمَّا كان هذا، أنتج قطعًا قولَه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾[2].

بعد أن قُطِع خطابُهم عقِب قوله: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بما تخلَّص به إلى الثناءِ على فِرَق المؤمنين، وما استتبَع ذلك مِن التسجيلِ على المشركين بالضَّلالة والعذاب، ووصفِ حالِهم الفظيع؛ عاد الكلامُ إلى خطابهم بالدعوةِ الجامعة لِما تقدم طلبًا لتدارُكِ أمرِهم قبل الفواتِ، فاستؤنِفَ الكلامُ استئنافًا فيه معنى النتيجة للمواعظِ المتقدِّمة؛ لأنَّ ما تقدَّم مِن الزواجرِ يهيِّئُ بعضَ النفوس لقَبول دعوة الإسلام[3].

لمَّا أطنَب في الوعدِ والوعيد، ذكَر بعده ما هو المقصود، فقال: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾[4].

لمَّا ذكَر تعالى ما يكون في يومِ القيامةِ مِن الأهوال والأمور العظام الهائلة، حذَّر منه، وأمَر بالاستعداد له، فقال: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٣٠).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٣٤٦-٣٤٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٣١).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٠٨).

(٥) تفسير ابن كثير (٧/ ٢١٥).

ثم أمَر سبحانه عبادَه بالاستجابةِ له وحذَّرهم، فقال: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾[1].

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولمَّا أنهىٰ ما قدَّمه في قولِه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾ نهايته، ودلَّ عليه وعلىٰ كلِّ ما قادته الحِكْمةُ في حيِّزِه حتىٰ لم يَبقَ لأحدٍ شُبْهةٌ في شيءٍ مِن الأشياء؛ كان ذلك سببًا لتهديدِهم علىٰ الإعراض عنه، وتسلية رسولهم ﷺ، فقال مُعرِضًا عن خطابهم إيذانًا بشديدِ الغضب: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾[2].

الفاءُ للتفريع علىٰ قوله: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم ﴾ الآية، وهو جامعٌ لِما تقدم كما عَلِمتَ؛ إذ أمَر اللهُ نبيَّه بدعوتِهم للإيمان مِن قولِه في أول السُّورة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾، ثم قوله: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ ﴾، وما تخلَّل ذلك واعترَضه مِن تضاعيفِ الأمرِ الصريح والضِّمني، إلىٰ قولِه: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم ﴾ الآية، ثم فُرِّع علىٰ ذلك كلِّه إعلامُ الرسول ﷺ بمقامِه وعملِه إن أعرض معرضون مِن الذين يَدْعوهم، وبمعذرته فيما قام به، وأنَّه غيرُ مقصِّرٍ، وهو تعريضٌ بتسليتِه علىٰ ما لاقَاه منهم[3].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٦٢٣).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٣٤٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٣٢).

تلوينٌ للكلام وصرفٌ له عن خطابِ الناس بعد أمرِهم بالاستجابةِ، وتوجيهٌ له إلىٰ الرسولِ ﷺ(١).

📖 ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ﴾ 📖

ولمَّا قدَّم سبحانه في هذه السُّورةِ أنَّ له التصرُّفَ التام في عالَمِ الخَلْقِ بالأجسام المرئية، وفي عالَم الأمر بالأرواح الحسية والمعنوية، القائمةِ بالأبدان والمدبِّرة للأديان، وغير ذلك مِن بديعِ الشأن، وختَم بتصرُّفه المطلَق في الإنسان مِن إنعامٍ وانتقام، وما له مِن الطَّبْعِ المُعوَجِّ مع ما وهَبه له مِن العقلِ المُقيِّمِ في أحسَنِ تقويم، فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ له التصرُّفَ التام مِلْكًا وملكوتًا، خَلْقًا وأمرًا؛ أتبعه الدليلَ علىٰ أنَّ تصرُّفَه ذلك علىٰ سبيلِ الملك والقهر إيجادًا وإعدامًا، إهانةً وإكرامًا، فقال صارفًا القولَ عن أسلوبِ العظَمةِ التي مِن حقِّها دوامُ الخضوع وإهلاكُ الجبابرة إلىٰ أعظَمَ منها بذِكْرِ الاسمِ الأعظم الجامعِ لمظهر العظَمة، ومقامِ اللُّطف والإحسان والرحمة، نتيجةً لكلِّ ما مضىٰ: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾(٢).

استئنافٌ بياني؛ لأنَّ ما سبَقه مِن عجيبِ خَلْقِ الإنسان الذي لم يهذِّبْهُ الهَدْيُ الإلهي يُثِيرُ في نفسِ السامع سؤالًا عن فَطْرِ الإنسان علىٰ هذينِ الخُلُقينِ اللَّذين يتلقَّىٰ بهما نعمةَ ربِّه وبلاءَه، وكيف لم يُفطَرْ علىٰ الخُلُقِ الأكمل ليَتلقَّىٰ النِّعْمةَ بالشكر، والضُّرَّ

(١) روح المعاني (١٣/ ٥٢).
(٢) نظم الدرر (١٧/ ٣٥١-٣٥٢-٣٥٣).

بالصبر والضَّراعة، وسؤالًا أيضًا عن سببِ إذاقةِ الإنسان النِّعْمةَ مَرَّةً، والبؤسَ مرة، فيَبطَرُ ويكفُرُ، وكيف لم يُجعَلْ حالُه كَفافًا، لا لذَّاتِ له ولا بلايا، كحالِ العَجْماواتِ؛ فكان جوابُه: أنَّ اللهَ المتصرِّف في السماوات والأرضِ يخلُقُ فيهما ما يشاء مِن الذوات وأحوالِها، وهو جوابٌ إجماليٌّ إقناعي، يناسِبُ حَضْرةَ الترفُّعِ عن الدخولِ في المجادَلة عن الشؤونِ الإلهيَّة(١).

لمَّا ذكَر اللهُ إذاقةَ الإنسانِ الرحمةَ، وإصابتَه بضدِّها؛ أتبَع ذلك بقوله: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والمقصودُ منه ألا يَغترَّ الإنسانُ بما ملَكه مِن المالِ والجاه، بل إذا عَلِم أنَّ الكلَّ مِلْكُ اللهِ ومُلْكُه، وأنَّه إنَّما حصَل ذلك القَدْرُ تحت يدِه؛ لأنَّ اللهَ أنعَم عليه به، فحينئذٍ يَصِيرُ ذلك حاملًا له علىٰ مزيدِ الطاعة والخدمة، وأمَّا إذا اعتقَد أنَّ تلك النِّعَمَ إنَّما تحصُلُ بسببِ عقله وجِدِّه واجتهاده، بَقِيَ مغرورًا بنفسه، مُعرِضًا عن طاعةِ الله تعالىٰ(٢).

ولمَّا ذكَر أنَّه يكفُرُ النِّعَمَ، أتبَع ذلك بأنَّ له مُلْكَ العالَمِ العُلْوي والسُّفْلي، وأنَّه يفعل ما يريد، ونبَّه علىٰ عظيمِ قُدْرتِه، وأنَّ الكائناتِ ناشئةٌ عن إرادته، فذكَر أنَّه يهَبُ لبعضٍ إناثًا، ولبعضٍ ذكورًا(٣).

ثم ذكَر سبحانه سَعةَ مُلْكِه، ونفاذَ تصرُّفِه، فقال: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٣٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٠٩).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٣٤٧-٣٤٨).

(٤) فتح القدير (٤/ ٦٢٣).

﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾

ولمَّا فرَغ مِن القسمينِ الأوَّلين، عطَف عليهما قسيمًا لهما، ودل على أنَّه قِسْمٌ بـ﴿ أَوْ ﴾، فقال: ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾[(١)].

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) ﴾

ولمَّا تمَّ القِسْمُ الأول ممَّا بُنِي على العلمِ والقدرة، والقدرةُ فيه أظهَرُ؛ وِفاقًا لِما خُتِمتْ به الآيةُ، وكان قد يكون خَلْقُه إيَّاه إبداعًا مِن غيرِ توسُّطِ سببٍ، وقد يكون بتوسيط سببٍ؛ أتبَعه القِسْمَ الآخَرَ الأعلى، الذي العلمُ فيه أظهَرُ؛ وهو الوحيُ الذي خُتِمتْ آيتُه أولَ السُّورة بالحِكْمةِ التي هي سرُّ العلم، وقسَّمه أيضًا إلى ما هو بواسطةٍ، وإلى ما هو بغيرِ واسطة، ولكن سر التقدير في القسمِ الأول الكلامُ، وهو الذي شُرِّف به، وكان لا يمكِنُ أحدًا أن يَتكلَّمَ إلا بتكليمِ الله له؛ قال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[(٢)].

عطفٌ على ما سبَق مِن حكايةِ تُرَّهاتِهم عَطْفَ القصَّة على القصَّة، وهو عَوْدٌ إلى إبطالِ شُبَهِ المشركين التي أشار إليها قولُه تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ﴾، وقوله تعالى: ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾، وقد أشَرْنا إلى تفصيلِ ذلك فيما تقدم، ويَزيدُه وضوحًا قولُه عقِبَه: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾، وهذه الآيةُ تُبطِل الشُّبْهةَ الثانية فيما عدَدْناه مِن شبهاتهم في كونِ القرآن وحيًا مِن الله إلى محمَّدٍ ﷺ؛ إذ زعَموا أنَّ محمَّدًا ﷺ لو كان مرسَلًا مِن الله،

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٣٥٥).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٣٥٧).

لكانت معه ملائكةٌ تصدِّقُ قولَه، أو لأُنزِلَ عليه كتابٌ جاهز مِن السماء يشاهِدون نزولَه، وإذ قد كان أهَمُّ غرضِ هذه السُّورةِ إثباتَ كونِ القرآن وحيًا مِن الله إلىٰ محمَّدٍ ﷺ كما أوحيَ مِن قبلِهِ للرسل، كان العَوْدُ إلىٰ ذلك مِن قبيلِ ردِّ العَجُزِ علىٰ الصدر، فبيَّن اللهُ للمكذِّبين أنَّ سُنَّةَ اللهِ في خطاب رُسُلِه لا تعدو ثلاثةَ أنحاءٍ مِن الخطاب؛ منها: ما جاء به القرآنُ، فلم يكُنْ ذلك بِدْعًا ممَّا جاءت به الرُّسُلُ الأولون(١).

لمَّا بيَّن كمالَ قُدْرتِه وعلمه وحِكْمتِه، أتبَعه ببيانِ أنَّه كيف يخُصُّ أنبياءَه بوحيِه وكلامه(٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾

ولمَّا كان الوحيُ رُوحًا مدبِّرًا للرُّوحِ، كما أنَّ الرُّوحَ مدبِّرٌ للبدَنِ؛ صرَّح به، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾(٣).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ الآيةَ، وهذا دليلٌ عليهم أنَّ القرآنَ أُنزِلَ مِن عندِ الله؛ أُعقِبَ به إبطالُ شُبْهتِهم التي تقدَّم لإبطالها قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ الآيةَ؛ أي: كان وحيُنا إليك مِثْلَ كلامِنا الذي كلَّمْنا به مَن قَبْلَك؛ والمقصودُ مِن هذا هو قولُه: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٤٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦١١).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٣٦١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٥٠).

﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣ ﴾

ثم أبدَل منه -تعظيمًا لشأنه- قولَه بدَلَ كلٍّ مِن كلٍّ، معرفةً مِن نكرةٍ، لافتًا القولَ مِن مظهرِ العظَمةِ إلىٰ أعظَمَ منه، إشارةً إلىٰ جلالةِ هذا الصراط بما فيه مِن مجامعِ الرحمة والنِّقْمةِ ترغيبًا وترهيبًا: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾[1].

بعد أن بيَّن أنَّه يَهدي إلىٰ صراطٍ مستقيم، بيَّن أنَّ ذلك الصراطَ هو ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾[2].

ثم بيَّن الصراطَ المستقيم بقولِه: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٣٧٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦١٥).

(٣) فتح القدير (٤/ ٦٢٥).

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾

لمَّا كانوا يُنكِرون أن يرجعوا به عمَّا هم فيه، وأن يكون مِن عندِ الله؛ أكَّد ما يُكذِّبهم من قولِه فيما مضىٰ آخِرَ الشورىٰ: إنَّه نورٌ وهدًىٰ ورُوحٌ، مُعبِّرًا بالجَعْل لذلك دون الإنزال؛ لأنَّه قد دلَّ عليه جميعُ السُّوَرِ الماضية، تارةً بلفظه وأخرىٰ بلفظ الوحي، فقال مُقسِمًا بالكتاب علىٰ عَظَمة الكتاب -قال السَّمينُ: ومِن البلاغة عندهم كونُ القَسَمِ والمُقسَمِ عليه من وادٍ واحدٍ، وهذا إن أُريد بالكتاب القرآنُ. فإنْ أُريد به أعمُّ منه؛ كان بعضُ القَسَم به، وصُرف القولُ إلىٰ مَظهَرِ العَظَمة تشريفًا للكتاب-: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1].

﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

لمَّا كانوا يُنكِرون تعظيمَه عنادًا، وإن كانوا يُقِرُّون بذلك في بعض الأوقات؛ قال مُؤكِّدًا لذلك، وتنبيهًا علىٰ أنَّه أهلٌ لأن يُقسَمَ به، ويُزادَ في تعظيمه؛ لأنَّه لا كلامَ يُشبِهُه، بل ولا يُدانيه بوجهٍ: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[2].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٣٧٨).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٣٨٠).

عطفٌ على جملةِ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾، فهو زيادةٌ في الثَّناء على هذا الكتابِ ثناءً ثانيًا؛ للتَّنويهِ بشأنِه رفعةً وإرشادًا[1].

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ ﴾

لمَّا أَفهَمَ تكريرُ هذا التَّأكيدِ أنَّهم يَطعُنون في عُلاه، ويقدحون في بديعِ حُلاه، فِعلَ مَن يكرهُه ويأباه، إرادةً للإقامة على ما لا يُحِبُّه اللهُ ولا يرضاه؛ قال مُنكِرًا عليهم: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾[2].

الفاءُ لتفريعِ الاستفهامِ الإنكاريِّ على جملةِ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ ﴾؛ أي: أَتحسَبون أنَّ إعراضَكم عمَّا نزل من هذا الكتاب يَبعَثُنا على أن نقطعَ عنكم تجدُّدَ التَّذكيرِ بإنزالِ شيءٍ آخَرَ من القرآن؟ فلمَّا أُرِيدتْ إعادةُ تذكيرهم، وكانوا قد قُدِّمَ إليهم من التَّذكير ما فيه هَدْيُهم لو تأمَّلوا وتدبَّروا، وكانت إعادةُ التَّذكير لهم موسومةً في نظرِهم بقِلَّةِ الجدوى؛ بيَّن لهم أنَّ استمرارَ إعراضِهم لا يكون سببًا في قطعِ الإرشاد عنهم؛ لأنَّ اللهَ رحيمٌ بهم، مُرِيدٌ لصلاحهم، لا يَصُدُّه إسرافُهم في الإنكارِ عن زيادةِ التَّقدُّمِ إليهم بالمواعظِ والهَدْيِ[3].

وبعد ما بيَّن سبحانه عُلُوَّ شأنِ القرآن العظيم، وحقَّق ﷻ أنَّ إنزالَه على لغتِهم ليعقلوه ويؤمنوا به ويعملوا بمُوجِبِه؛ عقَّب سبحانه ذلك بإنكارِ أن يكون الأمرُ بخلافِه، فقال -جلَّ شأنُه: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٦٢).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٣٨٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٦٣).

(٤) روح المعاني (١٣/ ٦٥).

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ ﴾

لمَّا كان المعنىٰ: أن لا نترككم هَمَلًا؛ كان كأنَّه قيل: هَيْهات منكم، فَلَنرفَعَنَّكم كما رفَعْنا بني إسحاقَ مِن إسرائيلَ وعيصو عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، فلقد أرسلنا إليكم -مع أنَّكم أعلىٰ النَّاسِ- رسولًا هو أشرفُكم نسبًا، وأزكاكم نفسًا، وأعلاكم هِمَّةً، وأرجحُكم عقلًا، وأوفاكم أمانةً، وأكرمُكم خُلُقًا، وأَوْجَهُكم عشيرةً، فعطَف قولَه تأنيسًا للنَّبيِّ ﷺ وتأْسِيةً وتعزيةً وتسليةً: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴾(1).

لمَّا ذكر إسرافَهم في الإعراضِ عن الإصغاءِ لدعوةِ القرآن، أَعقبَه بكلامٍ مُوجَّهٍ إلىٰ الرَّسول ﷺ تسليةً عمَّا يُلاقِيه منهم -في خلالِ الإعراضِ- من الأذىٰ والاستهزاء، بتذكيره بأنَّ حالَه في ذلك حالُ الرُّسُلِ مِن قبلِه، وسُنَّةُ اللهِ في الأُمَمِ، ووعد للرَّسولِ ﷺ بالنَّصرِ علىٰ قومِه، بتذكيره بسُنَّةِ اللهِ في الأُمَمِ المكذِّبةِ رُسُلَهم(2).

تقريرٌ لِما قبلَه ببيانِ أنَّ إسرافَ الأُمَمِ السَّالفة لم يمنعه تعالىٰ من إرسال الأنبياء إليهم، وتسليةٌ لرسول الله ﷺ عن استهزاءِ قومِه به(3).

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ ﴾

ثم حكىٰ حالَهم الماضيةَ؛ إشارةً إلىٰ استمرارِ حالِ الخلق علىٰ هذا، فقال: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾(4).

جملةُ ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ في موضعِ الحالِ مِن ﴿ الْأَوَّلِينَ ﴾، وهذا الحالُ هو المقصودُ من الإخبار(5).

---

(1) نظم الدرر (17/ 385-386).
(2) التحرير والتنوير (25/ 165).
(3) إرشاد العقل السليم (8/ 40).
(4) نظم الدرر (17/ 386).
(5) التحرير والتنوير (25/ 166).

﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾

لمَّا كان الاستهزاءُ برسولِ المَلِكِ استهزاءً به، وكانت المماليكُ إنَّما تُقامُ بالسِّياسةِ بالرَّغبةِ والرَّهبةِ وإيقاعِ الهَيْبةِ؛ حتَّىٰ يَتِمَّ الجلالُ وتَثبُتَ العَظَمةُ، فكان -لذلك- لا يجوزُ في عقلِ عاقلٍ أن يُقِرَّ مَلِكٌ علىٰ الاستهزاءِ به؛ سبَّب عن الاستهزاءِ بالرُّسُلِ الهلاكَ، فقال: ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾(١).

جملةُ ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ تفريعٌ وتَسبُّبٌ عن جملةِ ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴾(٢).

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

لمَّا كان التقديرُ: فلَئِنْ سألتَهم عمَّن سمعوا بخبره ممَّن ذكرناهم من الأوَّلين لَيعترِفُنَّ بما سمعوا من خبرهم؛ لأنَّا لم نجعل لهم علىٰ المُباهَتةِ فيه جرأةً، لِما طبَعْناهم عليه في أغلبِ أحوالِهم من الصِّدق؛ عطَف عليه قولَهم مُبيِّنًا لجهلِهم بوقوعِهم في التَّناقض، مُؤكِّدًا له لِما في اعترافهم به من العُجْبِ المُنافِي لحالِهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(٣).

لمَّا كان قولُه: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ مُوجَّهًا إلىٰ الرسولِ ﷺ للتَّسليةِ والوعدِ بالنَّصرِ؛ عطَف عليه خطابَ الرسولِ ﷺ صريحًا بقولِه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ... ﴾ الآيةَ؛ لقصدِ التَّعجيبِ من حالِ الذين كذَّبوه، فإنَّهم إنَّما كذَّبوه لأنَّه

(١) نظم الدرر (١٧/ ٣٨٦).
(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٦٦).
(٣) نظم الدرر (١٧/ ٣٨٧-٣٨٨).

دعاهم إلىٰ عبادةِ إلهٍ واحدٍ ونَبْذِ عبادةِ الأصنام، ورأَوْا ذلك عَجَبًا مع أنَّهم يُقِرُّون للهِ تعالىٰ بأنَّه خالقُ العوالمِ وما فيها، وهل يَستحِقُّ العبادةَ غيرُ خالقِ العابدين؟ ولأنَّ الأصنامَ من جملةِ ما خلَق اللهُ في الأرضِ من حجارةٍ، فلو سألهم الرسولُ ﷺ في مُحاجَّتِه إيَّاهم عن خالقِ الخلقِ؛ لَما استطاعوا غيرَ الإقرارِ بأنَّه اللهُ تعالىٰ، فجملةُ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عطفَ الغَرَضِ، وهو انتقالٌ إلىٰ الاحتجاج علىٰ بُطْلانِ الإشراكِ بإقرارِهم الضِّمْنيِّ أنَّ أصنامَهم خاليةٌ عن صفةِ استحقاقِ أن تُعبَدَ[1].

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾

لمَّا كان جوابُهم بغيرِ هاتينِ الصِّفتينِ، ودَلَّ بذكرِهما علىٰ أنَّهما لازمانِ لاعترافِهم؛ تنبيهًا لهم علىٰ موضعِ الحُجَّة؛ أَتبَعَهما من كلامِه -دلالةً علىٰ ذلك- قولَه -التفاتًا إلىٰ الخطاب؛ لأنَّه أمكنُ في التَّقريع والتَّوبيخ والتَّشنيع، وتذكيرًا لهم بالإحسانِ المُوجِبِ للإذعانِ، وتفصيلًا للقدرة-: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[2].

هذا كلامٌ مُوجَّهٌ من اللهِ تعالىٰ، هو تَخلُّصٌ من الاستدلال علىٰ تَفرُّدِه بالإلهيَّةِ بأنَّه المُنفرِدُ بخلقِ السَّماوات والأرض إلىٰ الاستدلال بأنَّه المُنفرِدُ بإسداءِ النِّعَمِ التي بها قِوامُ أَوَدِ حياةِ النَّاسِ. فالجملةُ استئنافٌ، حُذف منها المبتدأُ، والتقديرُ: هو الذي جعل لكم الأرضَ مِهادًا[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٦٧).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٣٨٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٦٨).

ثـم وصـف سبحانه نفسَـه بمـا يـدلُّ علىٰ عظيـمِ نعمتِـه علىٰ عبـادِه، وكمـالِ قدرتِـه في مخلوقاتِــه، فقــال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾

لمَّا كان إنزالُ الماءِ من العُلُوِّ في غايةِ العَجَب؛ لا سِيَّما إذا كـان في وقـتٍ دون وقـتٍ، وكان إنباتُ النَّبات به أعجبَ، وكان دالًّا علىٰ البعث ولا بدَّ، وكان مقصـودُ السُّـورة أنَّه لا بدَّ من رَدِّهم عـن عنادِهم بـأعظمِ الكُفْرانِ إلىٰ الإيمـانِ، والخضـوعِ لـه بغايـةِ الإذعانِ؛ قال دالًّا علىٰ كمالِ القدرةِ علىٰ ذلـك وغيـره بالتنبيـهِ علـىٰ كمـالِ الوصـفِ بـالعطفِ، وبإعـادةِ الموصـولِ الـدَّالِّ علـىٰ الفاعـلِ المُـذكِّرِ بعَظَمتِـه للتنبيـهِ علـىٰ أنَّ الإعادةَ التي هذا دليلُها هي سِرُّ الوجـودِ، فهـي أشـرفُ ممَّـا أُريـد مـن الآيـةِ الماضيـةِ بمَهْـدِ الأرضِ وسَـلْكِ السُّـبُلِ: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[2].

انتقل من الاستدلالِ والامتنانِ بخلقِ الأرض إلىٰ الاستدلالِ والامتنانِ بخلقِ وسائلِ العَيْش فيها؛ وهو ماءُ المطرِ الذي به تُنبِتُ الأرضُ ما يَصلُحُ لاقتياتِ النَّاس[3].

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾

لمَّا انتُهزت هذه الفرصةُ، وسوَّغ ذِكرَهـا مـا أثَّره سـوءُ اعتقـادِهم مـن عظيـم الغُصَّـة؛ شرَع في إكمالِ ما يقتضيه الحالُ من الأوصاف، فقال عائدًا إلىٰ أسلوب العِزَّةِ والعلمِ

---

(١) فتح القدير (٤/ ٦٢٧).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٣٩١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٧٠).

للإيماءِ إلىٰ الحثِّ علىٰ تأمُّلِ الدَّليل علىٰ بعثِ الأموات بانتشار المُوات[1]، مُعِيدًا للعاطف تنبيهًا علىٰ كمالِ ذلك الوصفِ المُوجِبِ لتحقيقِ مقصودِ السُّورة من القدرةِ علىٰ ردِّهم بعد صَدِّهم: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾[2].

هذا الانتقالُ من الاستدلالِ والامتنانِ بخلقِ وسائلِ الحياةِ إلىٰ الاستدلالِ بخلقِ وسائلِ الاكتسابِ لصلاحِ المعاش، وذكَر منها وسائلَ الإنتاج، وأَتبَعَها بوسائلِ الاكتسابِ بالأسفارِ للتِّجارة[3].

﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

لمَّا ذكر النِّعمةَ النَّاشئةَ عن مطلقِ الإيجاد؛ ذكَّر بنعمةِ الرَّاحة فيه، فقال مُعلِّلًا: ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾[4].

﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

لمَّا كان كلُّ راكبٍ شيئًا من هذينِ الصِّنفينِ مُستحضِرًا كلَّ حِينٍ أنَّه ينقلبُ بطنُ شُقة أسفارِه إلىٰ محلِّ قرارِه؛ ذكَّرهم سبحانه بذلك أنَّ ظهرَ هذه الأرضِ لهم مِثلُ ظهورِ السُّفُنِ والدَّوابِّ، يَسبَحون بها في لُجَجِ أمواجِ الزَّمانِ وتصاريفِ الحَدَثانِ[5]، هم علىٰ ظهرِها مسافرون، ولكنَّهم -لطولِ الإلفِ- عنه غافلون، وقليلًا ما يَذَّكَّرون،

(١) أي: الموت.

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٣٩٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٧٢).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٣٩٤).

(٥) أي: صروف الدهر ونوائبه.

وأنَّهم علىٰ خطرٍ فيما صاروا إليه من ظهورِ هذه الأشياءِ، يُوشِكُ أن يكون سببَ موتِهم، ومُثِيرَ هُلْكِهم وفَوْتِهم، فقال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فمِن ربِّنا كان ابتداؤنا لا نعلمُ شيئًا ولا نَقدِرُ علىٰ شيءٍ، والآنَ نحن متىٰ شئنا ساكنون، ومهما أردنا مُنتشِرون: ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾[(١)].

ختَم هذا الشُّكرَ والثَّناءَ بالاعترافِ بأنَّ مَرجِعَنا إلىٰ الله -أي: بعد الموتِ- بالبعثِ للحساب والجزاء، وهذا إدماجٌ لتلقينِهم الإقرارَ بالبعث[(٢)].

اعلم أنَّ وجهَ اتِّصالِ هذا الكلامِ بما قبلَه: أنَّ ركوبَ الفُلْك في خطرِ الهلاك؛ فإنَّه كثيرًا ما تنكسرُ السَّفينةُ ويَهلِكُ الإنسانُ، وراكبُ الدَّابَّة أيضًا كذلك؛ لأنَّ الدَّابَّةَ قد يتَّفِق لها اتِّفاقاتٌ تُوجِبُ هلاكَ الرَّاكب، وإذا كان كذلك فركوبُ الفُلْكِ والدَّابَّةِ يُوجِب تعريضَ النَّفس للهلاك، فوجب علىٰ الرَّاكب أن يتذكَّر أمرَ الموت، وأن يقطعَ أنَّه هالكٌ لا محالةَ، وأنَّه مُنقلِبٌ إلىٰ الله تعالىٰ وغيرُ مُنقلِبٍ من قضائه وقَدَرِه، حتىٰ لو اتَّفَقَ له ذلك المحذورُ كان قد وطَّن نفسَه علىٰ الموت[(٣)].

﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ١٥ ﴾

لمَّا عُلم بهذا الاعترافِ منه -وما تَبِعَه من التَّقريب- أنَّ العالمَ كلَّه مُتزاوِجٌ بتسخيرِ بعضِه لبعض، فثبت أنَّ خالقَه مُباينٌ له، لا يصحُّ أصلًا أن يكون مُحتاجًا بوجهٍ؛ لأنَّه لا مِثلَ له أصلًا؛ كان موضعُ التَّعجيبِ من نِسْبَتِهم الولدَ إليه سبحانه، فقال لافتًا القولَ عن خطابِهم للإعراضِ المُؤْذِنِ بالغضبِ: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٣٩٦).
(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٧٥).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٢٢).
(٤) نظم الدرر (١٧/ ٣٩٨-٣٩٩).

لمَّا تقدَّم أنَّهم مُعترِفون بأنَّه تعالىٰ هو خالقُ العالم؛ أنكر عليهم جَعْلَهم للهِ جزءًا، وقد اعترفوا بأنَّه هو الخالق، فكيف وصفوه بصفةِ المخلوق؟![(١)].

اعلم أنَّه تعالىٰ لَمَّا قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ بيَّن أنَّهم -مع إقرارهم بذلك- جعلوا له مِن عبادِه جزءًا، والمقصودُ منه: التنبيهُ علىٰ قِلَّةِ عقولِهم، وسخافةِ عقولِهم[(٢)].

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾

لمَّا كان كأنَّه قيل إنكارًا عليهم وتهكُّمًا بهم؛ حيث لم يَرْضَوْا بأن جعلوا لمن إليه الجَعْلُ من عبادِه جزءًا، حتىٰ جعلوه شرَّ الجزئينِ؛ الإناثَ، وهم أشدُّ النَّاسِ نُفْرةً مِنهُنَّ: أوَهَبَ له ذلك الجزءَ الذي جعلتموه إناثًا غيرُه قَسْرًا بحيث لم يَقدِرْ أن ينفكَّ عنه؟ كما قدَّم في السُّورة التي قبلَه عن نفسِه المقدَّسِ أنَّه يَهَبُ لمن يشاء إناثًا، ولا يقدرُ علىٰ التَّقصير عنهُنَّ بوجهٍ؛ عادَلَه بقولِه عائدًا إلىٰ الخطاب لأنَّه أقعدُ في التَّبكيت علىٰ اختيارِ الغَيِّ عن الصَّوابِ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾[(٣)].

﴿أَمِ﴾ للإضرابِ، وهو هنا انتقاليٌّ؛ لانتقالِ الكلام من إبطالِ مُعتقَدِهم بُنُوَّةَ الملائكةِ لله تعالىٰ بما لَزِمَه من انتقاضِ حقيقةِ الإلهيَّةِ، إلىٰ إبطالِه بما يقتضيه من انتقاصٍ يُنافِي الكمالَ الذي تقتضيه الإلهيَّةُ[(٤)].

اعلم أنَّه تعالىٰ رتَّب هذه المناظرةَ علىٰ أحسن الوجوه؛ وذلك لأنَّه تعالىٰ بيَّن أنَّ إثباتَ الولد لله مُحالٌ، وبتقديرِ أن يَثبُت الولدُ فجَعْلُه بنتًا أيضًا مُحالٌ[(٥)].

---

(١) البحر المحيط (٩/ ٣٦٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٢٣).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٣٩٩-٤٠٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٧٧).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٢٣).

انتقالٌ من بيانِ بطلانِ جعلِهم له تعالىٰ ولدًا علىٰ الإطلاق، إلىٰ بيانِ بطلانِ جعلِهم ذلك الولدَ من أخسِّ صِنْفَيْه[1].

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

لمَّا كانت نسبةُ الولد إليه سبحانه ممَّا لا ينبغي أن يَخطُرَ بالبال علىٰ حالٍ من الأحوال، وكانت نِسْبَتُه علىٰ سبيل الحقيقة أبعدَ منها علىٰ طريق المثالِ بأن يُقالَ: الملائكةُ عنده في العِزَّة بمنزلة البنات عند الأب؛ قال مُرشِدًا إلىٰ أنَّ ما قالوه -لو كان علىٰ قصدِ التَّمثيل- في غايةِ القَباحةِ، فضلًا عن أن يكون علىٰ التَّحقيق، عائدًا إلىٰ الإعراضِ المُـؤذِنِ بالمَقْتِ والإبعادِ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[2].

وبعد الإنكارِ عليهم غايةَ الإنكار، ذكَر تمامَ الإنكارِ فقال: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[3].

﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾

لمَّا كان المَلِكُ لا يأخذُ في جُنْدِه إلَّا مَن يَصلُحُ للجُنْدِيَّةِ بالمُجالَدةِ والمُجادَلةِ أو بإحداهما؛ نبَّه علىٰ إنكار آخر بأنَّ الإناثَ لا يَصلُحْنَ لشيءٍ من هذينِ الوصفينِ، فقال مُعبِّدًا لإنكار الثَّالث تنبيهًا علىٰ أنَّه بالَغ جدًّا في إثارةِ الغضب: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾[4].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ٤٢).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٠٠-٤٠١).

(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٢٢).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٤٠٢).

عطفُ إنكارٍ على إنكارٍ(١).

الأنثى ناقصةٌ في وصفِها، وفي مَنطِقِها وبيانِها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾(٢).

﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ١٩﴾

لمَّا كان ربما ظُنَّ أنَّ المحذورَ إنَّما هو جعلُهم عليهم السلام إناثًا بقَيْدِ النِّسبةِ إليه سبحانه؛ نبَّه على أنَّ ذلك قبيحٌ في نفسه مطلقًا؛ لدلالتِه على احتقارِهم وانتقاصِهم، فهو كفرٌ ثالثٌ إلى الكُفْرَينِ قبلَه: نسبةِ الولدِ إليه سبحانه، ثم جعلِ أخصِّ النَّوعينِ، فقال: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ﴾(٣).

عطفٌ على: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًا﴾، أُعيد ذلك مع تقدُّمِ ما يُغنِي عنه من قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ﴾ ليُبنَى عليه الإنكارُ عليهم بقوله: ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾ استقراءً لإبطالِ مقالِهم؛ إذ أُبطل ابتداءً بمخالفتِه لدليل العقل، وبمخالفتِه لِما يجب لله من الكمال، فكمُل هنا إبطالُه بأنَّه غيرُ مُستنِدٍ لدليلِ الحِسِّ(٤).

بيانٌ لتضمُّنِ كفرِهم المذكورِ لكفرٍ آخرَ، وتقريعٌ لهم بذلك؛ وهو جعلُهم أكملَ العبادِ وأكرمَهم على الله عليهم السلام أنقصَهم رأيًا وأخسَّهم صِنفًا(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٨٠).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٦٣-٧٦٤).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٤٠٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٨٢).

(٥) إرشاد العقل السليم (٨/ ٤٣).

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

لمَّا ذكر أنَّهم يُسأَلون بطريقِ الأَولىٰ عن العبادة؛ نبَّه علىٰ أنَّهم عبدوهم مع ادِّعاءِ الأنوثة فيهم، فقال مُعجِّبًا منهم في ذلك، وفي جعلِ قولِهم حُجَّةً دالَّةً علىٰ صحَّةِ مذهبهم وهو مِن أوهىٰ الشُّبَهِ: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾(١).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، فإنَّها استدلالٌ علىٰ وحدانيَّةِ الله تعالىٰ، وعلىٰ أنَّ معبوداتِهم غيرُ أهلٍ لأن تُعبَدَ، فحُكي هنا ما استظهروه من معاذيرِهم عند نهوضِ الحُجَّة عليهم يرومون بها إفحامَ النبيِّ ﷺ والمسلمين، فيقولون: لو شاء اللهُ ما عبَدْنا الأصنامَ؛ أي: لو أنَّ اللهَ لا يُحِبُّ أن نعبدَها لكان اللهُ صرَفَنا عن أنْ نعبدها. وتوهَّموا أنَّ هذا قاطعٌ لجدالِ النبيِّ ﷺ لهم؛ لأنَّهم سمعوا من دينِه أنَّ اللهَ هو المتصرِّفُ في الحوادث، فتأوَّلوه علىٰ غيرِ المرادِ منه(٢).

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

لمَّا كان الإيمانُ بالملائكة -الذين هم جُنْدُ المَلِكِ- من دعائمِ أصولِ الدِّين، وكان الإيمانُ بالشَّيء إن لم يكنْ علىٰ ما هو عليه الشَّيءُ ولو بأدنىٰ الوجوهِ كان مُختلًّا، وأخبر سبحانه أنَّهم وصفوهم بغيرِ ما هم عليه، ففرَّطوا بوصفِهم بالبناتِ حتىٰ أنزلوهم إلىٰ الحضيض، وأفرَطوا بالعبادةِ حتىٰ أعلَوْهم عن قَدْرِهم، فانسلَخوا في كلا الأمرينِ من صريحِ العقل بما أشار إليه ما مضىٰ؛ أَتبعَ ذلك أنَّهم عَرِيُّون أيضًا من

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٤٠٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٨٤).

صحيحِ النَّقل، فقال مُعادِلًا لقوله: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾؛ إنكارًا عليهم بعد إنكار، مُوجِبًا ذلك أعظمَ العارِ، لافتًا القولَ عن الوصفِ بالرَّحمة تنبيهًا بمَظهَرِ العَظَمة علىٰ أنَّ حُكْمَه تعالىٰ متىٰ برَز لم يَسَعْ سامعَه إلَّا الوقوفُ عنده والامتثالُ علىٰ كلِّ حالٍ، وإلَّا حَلَّ به أعظمُ النَّكالِ: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾[1].

إضرابٌ انتقاليٌّ، عُطف علىٰ جملةِ ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، فبعد أن نفىٰ أن يكون قولُهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ مُستنِدًا إلىٰ حُجَّةِ العقل؛ انتقل إلىٰ نفيِ أن يكون مُستنِدًا إلىٰ حُجَّةِ النَّقل عن إخبارِ العالِم بحقائقِ الأشياء التي هي من شؤونه[2].

﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

لمَّا كان الجوابُ قطعًا عن هذينِ الاستفهامينِ: ليس لهم ذلك علىٰ مُطلَقِ ما قالوا ولا مُقيَّدِه، من صريحِ عقلٍ، ولا صحيحِ نقلٍ إلىٰ مَن يَصِحُّ النَّقلُ عنه من أهل العلم بالأخبار الإلهيَّة؛ نسَق عليه قولَه إرشادًا إليه: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[3].

هذا إضرابُ إبطالٍ عن الكلامِ السَّابقِ من قولِه تعالىٰ: ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾، فهو إبطالٌ للمَنْفيِّ لا للنفي؛ أي: ليس لهم علمٌ فيما قالوه ولا نقلٌ. فكان هذا الكلامُ مَسُوقًا مساقَ الذَّمِّ لهم؛ إذ لم يُقارِنوا بين ما جاءهم به الرسولُ وبين ما تَلَقَّوْه من آبائهم، فإنَّ شأنَ العاقل أن يُميِّزَ ما يُلقَىٰ إليه من الاختلاف، ويَعرِضَه علىٰ مِعْيارِ الحقِّ[4].

(١) نظم الدرر (١٧/ ٤٠٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٨٦).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٤٠٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٨٧).

لمَّا بيَّن أنَّه لا دليلَ لهم على صحَّةِ ذلك القولِ البتَّةَ؛ بيَّن أنَّه ليس لهم حاملٌ يَحمِلُهم عليه إلَّا التَّقليدَ المَحْضَ[١].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

لمَّا كان تركُ المَدْعُوِّ للدَّليلِ واتِّباعُه للهوى غائظًا مُوجِعًا، ومُنكِئًا مُؤلِمًا؛ قال يُسلِّيه ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[٢].

جملةٌ مُعترِضةٌ لتسليةِ النبيِّ ﷺ على تمسُّكِ المشركين بدينِ آبائهم، والإشارةُ إلى المذكورِ من قولِهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾؛ أي: ومِثلَ قولِهم ذلك قال المُتْرَفون من أهلِ القرى المُرسَلِ إليهم الرُّسُلُ مِن قبلِك. والواوُ للعطف أو للاعتراض، والمقصودُ أنَّ هذه شِنْشِنةٌ[٣] أهلِ الضلالِ من السابقين واللاحقين، قد استَوَوْا فيه كما استَوَوْا في مَثارِه وهو النَّظرُ القاصرُ المخطئُ. ويتضمَّن هذا تسليةً للرَّسولِ ﷺ على ما لَقِيَه من قومِه، بأنَّ الرُّسُلَ مِن قبلِه لَقُوا مِثلَ ما لَقِيَ[٤].

ثم بيَّن أنَّ تمسُّكَ الجُهَّالِ بطريقة التَّقليد أمرٌ كان حاصلًا من قديم الدَّهر، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[٥].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٢٧).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤١٠-٤١١).

(٣) أي: طبيعة وعادة.

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٨٨).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٢٧).

ثم أخبر سبحانه أنَّ غيرَ هؤلاء من الكُفَّار قد سبقهم إلىٰ هذه المقالةِ وقال بها، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾(١).

﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

لمَّا كان كأنَّه قيل: فقال كلُّ نذيرٍ: فما أصنعُ؟ أجابَ بقوله: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾(٢).

حكايةٌ لِما جرىٰ بين المُنْذِرين وبين أُمَمِهم عند تعلُّلِهم بتقليدِ آبائهم(٣).

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

لمَّا عُلم بهذا أنَّ أمرَهم وصل إلىٰ العنادِ المُسْقِطِ للاحتجاج؛ سبَّب عنه قولَه -موعظةً لهذه الأُمَّةِ، وبيانًا لِما خصَّها به من الرَّحمة: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾(٤).

تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: انتقمنا منهم عَقِبَ تصريحِهم بتكذيب الرُّسُل، وهذا تهديدٌ بالانتقام من الذين شابهوهم في مقالِهم؛ وهم كُفَّارُ قريش(٥).

---

(١) فتح القدير (٤/ ٦٣٢).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤١٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ٤٤).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٤١٣-٤١٤).

(٥) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٩١).

فعندَ هذا لم يَبْقَ لهم عذرٌ ولا عِلَّةٌ؛ فلهذا قال تعالىٰ: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾[١].

﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

لمَّا ذكر لهم الأدلَّةَ، وحذَّرهم بالأخذِ، وتحرَّر أنَّهم مع التَّقليد لا يَنْفكُّون عنه؛ ذكَّرهم بأعظمِ آبائِهم، ومَحَطِّ فخرِهم، وأحقِّهم بالاتِّباعِ؛ للفوزِ باتِّباعِ الأب في تركِ التَّقليد، أو في تقليده إن كان لا بدَّ لهم من التَّقليد؛ لكونِه أعظمَ الآباء، ولكونِه مع الدَّليل، فقال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه -للإشارةِ إلىٰ تأمُّله، وإمعانِ النَّظرِ فيه-: اذكُرْ لهم ذلك: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴾[٢].

لمَّا ذكَّرهم اللهُ بالأُمَم الماضية، وشبَّه حالَهم بحالِهم؛ ساق لهم أمثالًا في ذلك من مواقف الرُّسُل مع أُمَمِهم، منها قصَّةُ إبراهيمَ عليه السلام مع قومه[٣].

اعلم أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن في الآيةِ المتقدِّمةِ أنَّه ليس لأولئك الكفارِ داعٍ يدعوهم إلىٰ تلك الأقاويلِ الباطلةِ إلَّا تقليدَ الآباءِ والأسلافِ، ثم بيَّن أنَّه طريق باطل ومنهج فاسد، وأنَّ الرُّجوعَ إلىٰ الدَّليل أَولىٰ من الاعتماد علىٰ التَّقليد؛ أَردفَه بهذه الآية، والمقصودُ منها: ذِكرُ وجهٍ آخرَ يدلُّ علىٰ فسادِ القول بالتَّقليد[٤].

﴿ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾

فآلَ ذلك إلىٰ: لا إلهَ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴾[٥].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٢٨).
(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤١٤).
(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٩١).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٢٨).
(٥) نظم الدرر (١٧/ ٤١٥).

ثم استثنىٰ خالقَه من البراءة، فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾[١].

﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

عطفٌ علىٰ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ ﴾؛ أي: أَعلَنَ تلك المقالةَ في قومِه مُعاصِريه، وجعَلَها كلمةً باقيةً في عَقِبه يَنقُلونها إلىٰ مُعاصِريهم من الأُمَم[٢].

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

لمَّا كان من المعلومِ أنَّ السَّامعَ يقول لمن أحاط علمُه بهم، ويعلمُ سِرَّهم وعَلَنَهم: يا ربِّ، بل رجعَوا؛ أُجِيبَ بقوله: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾[٣].

إضرابٌ عن قولِه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾، وهو إضرابُ إبطالٍ؛ أي: لم يَحصُلْ ما رجاه إبراهيمُ من رجوعِ بعضِ عَقِبه إلىٰ الكلمة التي أوصاهم برَعْيِها؛ فإنَّ أقدمَ أُمَّةٍ من عَقِبه لم يرجعوا إلىٰ كلمتِه، وهؤلاء هم العربُ الذين أشركوا وعبدوا الأصنامَ[٤].

إضرابٌ عن محذوفٍ ينساقُ إليه الكلامُ، كأنَّه قيل: جعلها كلمةً باقيةً في عَقِبه، بأنْ وصَّىٰ بها بَنِيهِ رجاءَ أن يرجع إليها مَن أشرك منهم، بدعاءِ المُوحِّدِ، فلم يَحصُلْ ما رجاه؛ بل متَّعتُ منهم هؤلاء المعاصرين للرَّسول ﷺ من أهل مكَّة[٥].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٦٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٩٣).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٤١٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٩٦).

(٥) إرشاد العقل السليم (٨/ ٤٥).

ثم ذكر سبحانه نعمتَه علىٰ قريش ومَن وافقهم من الكُفَّار المعاصرين لهم، فقال: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾[(١)].

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

لمَّا كان التقديرُ: فلم يَرُدَّهم التَّمتيعُ بإدرارِ النِّعَمِ عليهم، وإسراعِنا بها إليهم، مع وضوح الأمر لهم؛ بل كان الإنعامُ عليهم سببًا لبَطَرِهم، وكان البَطَرُ سببًا لتماديهم علىٰ الاستعانة بنعمتِنا علىٰ عصيانِ أمرِنا، وهم يَدَّعُون أنَّهم أتبعُ النَّاسِ للحقِّ وأكفُّهم عن الباطل؛ عطَف عليه قولَه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[(٢)].

جملةُ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾، تعجيبٌ من حالِ تغافلِهم؛ أي: قد كان لهم بعضُ العذرِ قبل مجيءِ الرسولِ ﷺ والقرآنِ؛ لأنَّ للغفلاتِ المتقادِمةِ غِشاوةً تُصيِّرُ الغفلةَ جهالةً، فكان الشَّأنُ أن يستيقظوا لمَّا جاءهم الحقُّ ورسولٌ مبينٌ فيتذكَّروا كلمةَ أبيهم إبراهيم، ولكنَّهم لمَّا جاءهم الحقُّ قالوا: هذا سحرٌ؛ أي: قالوا للرَّسول: هذا ساحرٌ، فازدادوا رَيْنًا علىٰ رَيْنٍ[(٣)(٤)].

ثم بيَّن سبحانه ما صنعوه عند مجيءِ الحقِّ، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٦٣٤).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤١٨).

(٣) أي: غِشاوةً علىٰ غِشاوة.

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٩٨).

(٥) فتح القدير (٤/ ٦٣٤).

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ ﴾

لمَّا أخبر عن طعنِهم في القرآن؛ أتبعه الإخبارَ عن طعنِهم فيمَن جاء به؛ تغطيةً لأمرِه، عملًا بإخبارهم -في ختام ما قبلها- عن أنفسهم بالكفر، زيادةً وإمعانًا فيما كانت النِّعَمُ أدَّتْهم إليه من البَطَرِ، فقال: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾[1].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾، فهو في حيِّزِ جوابِ «لمَّا» التَّوقيتيَّةِ، واقعٌ موقعَ التَّعجيب أيضًا؛ أي: بعد أن أخذوا يتعلَّلون بالعِلَل لإنكار الحقِّ، إذ قالوا للقرآن: هذا سحرٌ، وإذ كان قولُهم ذلك يقتضي أنَّ الذي جاء بالقرآن ساحرٌ؛ انتُقل إلىٰ ذِكْرِ طعنٍ آخَرَ منهم في الرَّسول ﷺ بأنَّه لم يكن من عُظَماءِ أهلِ القريتينِ[2].

ثم ابتدأ قِصَّتَهم عند مجيء الحقِّ، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ جاؤوا بما هو شرٌّ من غفلتِهم التي كانوا عليها؛ وهو أنْ ضَمُّوا إلىٰ شِرْكِهم: معاندةَ الحقِّ، ومكابرةَ الرَّسول ومعاداتَه، والاستخفافَ بكتاب الله وشرائعِه، والإصرارَ علىٰ أفعالِ الكفَرةِ، والاحتكامَ علىٰ حكمةِ الله في تخيُّرِ محمدٍ ﷺ من أهلِ زمانِه، بقولِهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾[3].

اعلم أنَّ هذا هو النَّوع الرَّابع من كُفْرِيَّاتِهم التي حكاها اللهُ تعالىٰ عنهم في هذه السُّورة، وهؤلاء المساكينُ قالوا: مَنصِبُ رسالةِ اللهِ مَنصِبٌ شريفٌ، فلا يليق إلَّا برجل شريف، وقد صدَقوا في ذلك؛ إلَّا أنَّهم ضمُّوا إليه مُقدِّمةً فاسدةً؛ وهي أنَّ الرَّجل الشَّريف هو الذي يكون كثيرَ المال والجاه، ومحمدٌ ليس كذلك، فلا تليق

(١) نظم الدرر (١٧/ ٤١٩-٤٢٠).
(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ١٩٩).
(٣) البحر المحيط (٩/ ٣٦٩).

رسالةُ الله به، وإنَّما يليق هذا المنصبُ برجلٍ عظيمِ الجاهِ كثيرِ المالِ في إحدىٰ القريتينِ، وهي مكَّة والطَّائف، والذي بمكَّة هو الوليدُ بنُ المُغِيرةِ، والذي بالطَّائف هو عُرْوةُ بنُ مسعودٍ الثَّقفيُّ(١).

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

لمَّا تضمَّن قولُهم إثباتَ عَظَمةٍ لأنفسهم بالاعتراض علىٰ المَلِكِ، قال مُنكِرًا عليهم، مُوبِّخًا لهم بما معناه أنَّه ليس الأمرُ مردودًا إليهم ولا موقوفًا عليهم، بل هو إلىٰ الله وحدَه: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(٢).

إنكارٌ عليهم قولَهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، فإنَّهم لمَّا نصَبوا أنفسَهم مَنصِبَ مَن يتخيَّر أصنافَ النَّاس للرِّسالة عن الله، فقد جعلوا لأنفسهم ذلك لا لله، فكان مِن مُقتضىٰ قولِهم أنَّ الاصطفاءَ للرِّسالة بيدِهم؛ فلذلك قُدِّمَ ضميرُ «هم» -المجعولُ مُسنَدًا إليه- علىٰ مُسنَدٍ فِعْليٍّ ليُفِيدَ معنىٰ الاختصاصِ، فسلَّط الإنكارَ علىٰ هذا الحصرِ إبطالًا لقولِهم، وتخطئةً لهم في تحكُّمِهم. ولمَّا كان الاصطفاءُ للرِّسالة رحمةً لمن يُصطفَىٰ لها، ورحمةً للنَّاسِ المُرسَلِ إليهم؛ جعل تحكُّمَهم في ذلك قسمةً منهم لرحمةِ الله، باختيارِهم مَن يُختارُ لها، وتعيينِ المتأهِّلِ لإبلاغها إلىٰ المرحومين. ووُجِّهَ الخطابُ إلىٰ النبيِّ ﷺ، وأُضيف لفظُ «الرَّبِّ» إلىٰ ضميره؛ إيماءً إلىٰ أنَّ اللهَ مُؤيِّدُه تأنيسًا له؛ لأنَّ قولَهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٣٠).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٢١).

قصدوا منه الاستخفافَ به، فرفع اللهُ شأنه بإبلاغ الإنكار عليهم بالإقبال عليه بالخطاب، وبإظهارِ أنَّ اللهَ ربُّه؛ أي: مُتولِّي أمرِه وتدبيرِه[1].

ثم أبطل اللهُ تعالىٰ هذه الشُّبهةَ من وجهينِ، فقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2].

ثم قال اللهُ ردًّا لاقتراحِهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[3].

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

لمَّا دلَّت صريحُ آيةِ التَّمتيعِ وتلويحُ ما بعدها أنَّ البَسْطَ في الرِّزقِ المُوجِبَ للعُلُوِّ - مع أنَّه خسيسُ المنزلة، ناقصُ المِقدار - مُقتَضٍ للخروج عن السَّواء، وكان التقديرُ: فنحن نَخُصُّ بهذا الخيرِ للأفرادِ في الأدوارِ الآحادَ من الأبرارِ؛ لنَستنقِذَ بهم مَن شئنا مِن الضَّلال، ونُعطِيَ الحُطامَ للعُتاةِ الطَّغامِ[4] الأرذالِ؛ ابتلاءً للعبادِ، ليَبينَ لهم أهلُ البغيِ من أهلِ الرَّشاد، ولولا ما اقتضَتْه حكمتُنا بترتيبِ هذا الوجودِ علىٰ الأسبابِ مِن المُفاوَتةِ بين النَّاسِ لقيامِ الوجودِ؛ لَساوَيْنا بينهم، وعطَف عليه قولَه مُذكِّرًا بلُطْفِه بالمؤمنين وبِرِّه لهم برفعِه ما يقتضي لهم شديدَ المجاهدة وعظيمَ

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٠٠).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٣٠).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٦٤).
(٤) أي: أوغاد الناس وأراذلهم.

المصابرة والمكابدة لحالٍ تَزِلُّ فيه الأقدامُ عن سَنَنِ الهُدَىٰ من المَيْلِ والإصغاءِ إلىٰ مظانِّ الغنىٰ والمُلْكِ وتمامِ المَكِنَةِ[1] والعَظَمةِ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾[2].

لمَّا تقرَّر أنَّ مِن خُلُقِهم تعظيمَ المالِ وأهلِ الثَّراءِ، وحُسْبانَهم ذلك أصلَ الفضائلِ، ولم يهتمُّوا بزكاءِ النُّفوس، وكان اللهُ قد أبطل جَعْلَهم المالَ سببَ الفضل بإبطالينِ، بقولِه: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾، وقولِه: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢﴾؛ أَعقبَ ذلك بتعريفهم أنَّ المالَ والغنىٰ لا حظَّ لهما عند الله تعالىٰ، فإنَّ اللهَ أعطىٰ كلَّ شيءٍ خَلْقَه، وجعل للأشياء حقائقَها ومقاديرَها، فكثيرًا ما يكون المالُ للكافرين ومَن لا خلاقَ لهم من الخير، فتعيَّن أنَّ المالَ قِسْمةٌ من الله علىٰ النَّاس، جعل له أسبابًا نظَمها في سِلْكِ النُّظُمِ الاجتماعيَّة، وجعل لها آثارًا مُناسِبةً لها، وشتَّانَ بينها وبين مواهبِ النُّفوسِ الزَّكِيَّةِ والسَّرائرِ الطَّيِّبةِ، فالمالُ -في الغالب- مصدرٌ لإرضاء الشَّهوات، ومَرصَدٌ للتَّفاخرِ والتَّطاولِ، وأمَّا مواهبُ النُّفوسِ الطَّيِّبةِ فمصادرُ لنفعِ أصحابها ونفعِ الأُمَّة، ففي أهل الشَّرِّ أغنياءُ وفقراءُ، وفي أهل الخير أمثالُ ذلك، فظهر التَّباينُ بين آثارِ كَسْبِ المال وآثارِ الفضائل النَّفْسانيَّة[3].

اعلم أنَّه تعالىٰ أجاب عن الشُّبهة التي ذكروها بناءً علىٰ تفضيلِ الغنيِّ علىٰ الفقير بوجهٍ ثالثٍ؛ وهو أنَّه تعالىٰ بيَّن أنَّ منافعَ الدنيا وطَيِّباتِها حقيرةٌ خسيسةٌ عند الله، وبيَّن حقارتَها بقولِه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾[4].

---

(١) أي: التمكُّن.

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٢٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٠٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٣١).

استئنافٌ مُبيِّنٌ لحقارةِ متاعِ الدنيا، ودناءةِ قَدْرِه عند الله ﷻ(١).

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ٣٤﴾

لمَّا ذكر سُقُفَ البيوتِ ومعارجَها، ذكر أبوابَها وسُرُرَها، فقال: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾.

﴿وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ٣٥﴾

ودَلَّ علىٰ ما لا يتناهىٰ من غيرِ ذلك بقولِه: ﴿وَزُخْرُفًا﴾(٢).

والزُّخْرُفُ: الزِّينةُ، فيكون هنا عطفًا علىٰ ﴿سُقُفًا﴾ جمعًا لعديد المحاسن، ويُطلَق علىٰ الذَّهب لأنَّ الذَّهب يُتزيَّنُ به، فيكون ﴿وَزُخْرُفًا﴾ عطفًا علىٰ ﴿سُقُفًا﴾ بتأويل: لَجعَلْنا لهم ذهبًا؛ أي: لكانت سُقُفُهم ومعارجُهم وأبوابُهم من فِضَّةٍ وذهبٍ مُنوَّعةً؛ لأنَّ ذلك أبهجُ في تلوينها. وابتُدئ بالفِضَّة لأنَّها أكثرُ في التَّحلِّياتِ وأجملُ في اللَّون، وأُخِّرَ الذَّهبُ لأنَّه أندرُ في الحُلِيِّ، ولأنَّ لفظَه أسعدُ بالوقف؛ لكونِ آخِرِه تنوينًا ينقلب في الوقف ألفًا، فيُناسِب امتدادَ الصَّوت، وهو أفصحُ في الوقف(٣).

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ٣٦﴾

لمَّا كان التقديرُ: ولكنَّا لم نجعلْ ذلك علمًا مِنَّا بأنَّ النَّاسَ كادوا يكونون أُمَّةً واحدةً، وإن كُنَّا نُقيِّضُ مَن جبَلْناه علىٰ الخيرِ علىٰ الإيمانِ لكنْ يَنقُصُه ما أُوتِيَ في الدنيا من خطرٍ في الآخرة؛ لأنَّ مَن وُسِّعَ عليه في دنياه اشتغل -في الأغلب- عن ذكرِ الله، فنفَرتْ منه الملائكةُ ولَزِمَتْه الشياطينُ، فساقه ذلك إلىٰ كلِّ سوء، ومَن يَتَّقِ اللهَ،

---

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ٤٦).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٢٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٠٦).

فيُدِيم ذِكرَه؛ يُؤيِّدْه بمَلَكٍ فهو له مُعِينٌ؛ عطَف عليه قولَه مُعبِّرًا عن غفلةِ البصيرةِ بالعَشَىٰ -الذي هو ضعفُ البصرِ- تصوُّرًا لمن ينسىٰ ذِكرَ اللهِ بأقبحِ صورةٍ؛ تنفيرًا عن ذلك: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[1].

ابتُدئت السُّورةُ بالتَّنويهِ بالقرآن، ووصفِه بأنَّه ذِكرٌ وبيانٌ للنَّاس، ووصفِ عنادِ المشركين في الصَّدِّ عنه والإعراضِ، وأُعلموا بأنَّ اللهَ لا يتركُ تذكيرَهم ومُحاجَّتَهم؛ لأنَّ اللهَ يدعو بالحقِّ ويَعِدُ به. وأَطنَبَ في وصفِ تناقضِ عقائدِهم لعلَّهم يستيقظون من غِشاوتِهم، وفي تنبيهِهم إلىٰ دلائلِ حَقِّيَّةِ ما يدعوهم إليه الرسولُ ﷺ بهذا القرآن، وفُضِحت شبهاتُهم بأنَّهم لا تعويلَ لهم إلَّا علىٰ ما كان عليه آباؤهم الأوَّلون الضَّالُّون، وأُنذروا باقترابِ انتهاءِ تمتيعِهم وإمهالِهم، وتقضَّىٰ ذلك بمزيدِ البيان، وأفضىٰ الكلامُ إلىٰ ما قالوه في القرآنِ ومَن جاء به بقولِه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ ...﴾ إلىٰ قوله: ﴿عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾، وما أُلحِقَ به من التَّكْمِلات، عاد الكلامُ هنا إلىٰ عواقبِ صرفِهم عقولَهم عن التَّدبُّرِ في الدَّعوةِ القرآنيَّةِ، فكان انصرافُهم سببًا لأن يُسخِّرَ اللهُ شياطينَ لهم تُلازِمُهم، فلا تزالُ تصرفُهم عن النَّظرِ في الحقِّ وأدلَّةِ الرُّشد. وهو تسخيرٌ اقتضاه نظامُ تولُّدِ الفروعِ من أصولِها، فلا يُتَعجَّبُ مِن عمىٰ بصائرِهم عن إدراكِ الحقِّ البيِّنِ، وهذا من سُنَّةِ الوجودِ في تولُّدِ الأشياءِ من عناصرِها، فالضَّلالُ يَنْمِي ويتولَّدُ في النُّفوس ويتمكَّنُ منها مرَّةً بعد مرَّةٍ حتىٰ يصيرَ طبعًا علىٰ القلبِ وأَكِنَّةً فيه وختمًا عليه، ولا يَضعُفُ عملُ الشَّيطانِ إلَّا بتكرُّرِ الدَّعوةِ إلىٰ الحقِّ وبالزَّجرِ والإنذارِ، فمِن زِنادِ التَّذكيرِ تنقدحُ شراراتُ نورٍ، فربما أضاءت فصادفت قُوَّةُ نورِ الحقِّ حالةَ وَهَنِ الشَّيطانِ، فتتغلَّبُ القُوَّةُ المَلَكيَّةُ علىٰ القُوَّةِ الشَّيطانيَّةِ، فيُفِيقُ صاحبُها من نومةِ ضلالِه[2].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٤٢٧-٤٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٠٧-٢٠٨).

والمرادُ منه: التنبيهُ علىٰ آفاتِ الدنيا؛ وذلك أنَّ مَن فاز بالمالِ والجاهِ صار كالأعشىٰ عن ذِكْرِ اللهِ، ومَن صار كذلك صار من جُلَساءِ الشَّياطينِ الضَّالِّين المُضِلِّين، فهذا وجهُ تعلُّقِ هذا الكلامِ بما قبلَه(١).

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

لمَّا كانت «مَن» عامَّةً، وكان القرينُ للجنسِ، وأفرده لأنَّه نصَّ علىٰ كلِّ فردٍ، فكان التقديرُ: فإنَّهم لَيَحمِلُونهم علىٰ أنواعِ الدَّنايا، ويفتحون لهم أبوابَ الرَّذائلِ والبلايا، ويُحسِّنون لهم ارتكابَ القبائحِ والرَّزايا؛ عطَف عليه قولَه مُؤكِّدًا لِما في أَنفُسِ الأغلبِ -كما أشار إليه آخر الآية- أنَّ الموسَّعَ عليه هو المهتدي، جامعًا دلالةً علىٰ كثرةِ الضَّالِّ: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾(٢).

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ في موضعِ الحالِ من الضَّميرِ في قولِه: ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾؛ أي: مُقارَنةَ صدٍّ عن السَّبيلِ(٣).

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ﴾

لمَّا كان مَن ضَلَّ عن الطَّريقِ ومَن ظنَّ أنَّه علىٰ صوابٍ، لا يكادُ يتمادىٰ، بل ينجلي له الحالُ عن قُرْبٍ؛ ضَمَّ إلىٰ العَجَبَينِ الماضيَيْنِ عجبًا ثالثًا؛ بيانًا له، علىٰ ما تقديرُه: ونُملِي لهذا العاشِي استدراجًا له وابتلاءً لغيرِه، ونَمُدُّ ذلك طولَ حياتِه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٣٢).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٢٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢١١).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٤٢٩-٤٣٠).

وأمَّا حالُه إذا جاء ربَّه في الآخِرة؛ فهو شرُّ الأحوالِ، وهو إظهارُ النَّدمِ، والتَّحسُّرِ، والحزنِ الذي لا يُجبرُ مُصابُه، والتَّبرِّي مِن قرينِه؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾[١].

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

لمَّا كان الإيلامُ قد يُؤذِي الجسدَ، وكان التقديرُ حتمًا بما هدىٰ إليه السِّياقُ، فيُقالُ لهم: فلن ينفعَكم ذلك اليومَ -يومَ جئتمونا- إذْ تمنَّيتم هذا التَّمنِّيَ حين عاينتم تلك الأهوالَ اشتراكُكم اليومَ في يومِ الدنيا في الظُّلمِ، وتمالُؤُكم عليه، ومُنافَرةُ بعضِكم لبعضٍ؛ عطَفَ عليه قولَه: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[٢].

الظَّاهرُ أنَّ هذه الجملةَ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾، وأنَّ قولًا محذوفًا دلَّ عليه فعلُ ﴿جَآءَنَا ﴾ الدَّالُّ علىٰ أنَّ الفريقينِ حضَرَا للحسابِ، وتلك الحضرةُ تُؤذِنُ بالمُقاوَلةِ[٣]؛ فإنَّ الفريقينِ لمَّا حضرا، وتبرَّأ أحدُهما من الآخر؛ قصَدًا للتَّفصِّي[٤] من المؤاخذةِ، كما تقدَّمت الإشارةُ إليه آنفًا، فيقول الله: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾. والخطابُ مُوجَّهٌ للذين عَشَوْا عن ذِكْرِ الرَّحمنِ ولشياطينِهم[٥].

حكايةٌ لِما سيُقالُ لهم حينئذ من جهةِ اللهِ ﷻ توبيخًا وتقريعًا[٦].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٦٦).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٣١).

(٣) أي: المجادَلة.

(٤) أي: التفلُّت.

(٥) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢١٤).

(٦) إرشاد العقل السليم (٨/ ٤٧).

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٤٠﴾

لمَّا كان ﷺ شديدَ الإرادةِ لإقبالِهم، يكادُ يقتلُ نفسَه أسفًا علىٰ إدبارِهم، وكان هذا الزَّجرُ الذي لا يسمعُه مَن له أدنىٰ عقلٍ إلَّا خُلع قلبُه، فرجع عن غيِّه وراجَع رُشْدَه، قد تلا عليهم فلم ينتفعوا به؛ فكان كأنَّه قيل: إنَّ هؤلاء لَصُمٌّ عُمْيٌ، مُحِيطٌ بهم الضَّلالُ إحاطةً لا يكادون ينفكُّون عنه من كلِّ جانبٍ، فلا وصولَ لأحدٍ إلىٰ إسماعِهم ولا تبصيرِهم ولا هدايتِهم؛ قال بانيًا عليه، مُسبِّبًا عنه -تخفيفًا علىٰ النبيِّ ﷺ فيما يُقاسِي من الكربِ في المبالغةِ في إبلاغِهم حرصًا علىٰ إقبالِهم، والغمِّ من إعراضِهم- بهمزةِ الإنكارِ الدَّالَّةِ علىٰ نفيِ ما سِيقَتْ له: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(١).

تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾؛ لأنَّ ذلك أفاد توغُّلَهم في الضَّلالةِ، وعُسْرَ انفكاكِهم عنها؛ لأنَّ مقارنةَ الشَّياطينِ لهم تقتضي ذلك، فانتقل منه إلىٰ التَّهوينِ علىٰ النبيِّ ﷺ ما يلاقيه من الكدِّ والتَّحرُّقِ عليهم في تصميمِهم علىٰ الكفرِ والغيِّ، وفيه إيماءٌ إلىٰ تأييسٍ مِن اهتداءِ أكثرِهم. والاستفهامُ لإنكارِ أن يكونَ حرصُ الرسولِ ﷺ علىٰ هداهم ناجعًا فيهم إذا كان اللهُ قدَّر ضلالَهم فأَوجَدَ أسبابَه. ولمَّا كان حالُ الرسولِ ﷺ في معاودةِ دعوتِهم كحالِ مَن يظنُّ أنَّه قادرٌ علىٰ إيصالِ التَّذكيرِ إلىٰ قلوبِهم؛ نُزِّلَ منزلةَ مَن يظنُّ ذلك، فخُوطب باستفهامِ الإنكارِ، وسُلِّطَ الاستفهامُ علىٰ كلامٍ فيه طريقُ قصرٍ بتقديمِ المُسنَدِ إليه علىٰ الخبرِ الفعليِّ مع إيلاءِ الضميرِ حرفَ الإنكارِ، وهو قصرٌ مُؤكَّدٌ وقصرُ قلبٍ؛ أي: أنت لا تُسمِعُهم ولا تهديهم، بل اللهُ يُسمِعُهم ويهديهم إن شاء(٢).

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٤٣٢-٤٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢١٦).

اعلم أنَّه تعالىٰ لمَّا وصفهم في الآية المتقدِّمةِ بالعَشَىٰ؛ وصفهم في هذه الآيةِ بالصَّمَمِ والعمىٰ، وما أَحسَنَ هذا التَّرتيبَ! وذلك لأنَّ الإنسانَ في أوَّلِ اشتغالِه بطلبِ الدنيا يكونُ كمَنْ حصل بعينِه رمدٌ ضعيفٌ، ثم كلَّما كان اشتغالُه بتلك الأعمالِ أكثرَ؛ كان مَيْلُه إلىٰ الجِسْمانيَّاتِ أشدَّ، وإعراضُه عن الرُّوحانيَّاتِ أكملَ؛ لِما ثبت في علومِ العقلِ أنَّ كثرةَ الأفعالِ تُوجِبُ حصولَ المَلَكاتِ الرَّاسخةِ، فينتقلُ الإنسانُ من الرَّمدِ إلىٰ أن يصيرَ أعشىٰ، فإذا واظب علىٰ تلك الحالةِ أيَّامًا أخرىٰ؛ انتقل من كونِه أعشىٰ إلىٰ كونِه أعمىٰ، فهذا ترتيبٌ حسنٌ مُوافِقٌ لِما ثبت بالبراهينِ اليقينيَّةِ[1].

ثم ذكر سبحانه أنَّها لا تنفعُ الدَّعوةُ والوعظُ مَن سبَقتْ له الشَّقاوةُ، فقال: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾

لمَّا كان هذا كالمُؤْيِسِ منهم، وكان اليأسُ من صلاحِ الخصمِ مُوجِبًا لتمنِّي الرَّاحةِ منه بموتِ أحدِهما؛ سبَّب عن التَّقديرينِ قولَه مُبيِّنًا أنَّ الإملاءَ لهم ليس لعجزٍ عنهم ولا لإخلافٍ في الوعد، مُؤكِّدًا بالنُّونِ و«ما» ثم «إنَّا» والاسميَّةِ لمن يظنُّ خلافَ ذلك، ولأنَّه ﷺ مُشرَّفٌ عنده سبحانه وتعالى، مُعظَّمٌ لديه، فذَهابُه به ممَّا يُستبعَدُ، ومِن حقِّه أن يُنكَرَ، وكذا إراءتُه ما توعَّدَهم به؛ لأنَّ المظنونَ إكرامُهم لأجلِه: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾[3].

تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ...﴾ إلىٰ آخِرِها، المتضمِّنةِ إيماءً إلىٰ التَّأييسِ من اهتدائِهم، والصَّريحةِ في تسليةِ النبيِّ ﷺ من شِدَّةِ الحرصِ في دعوتِهم، فجاء هنا

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٣٤).
(٢) فتح القدير (٤/ ٦٣٨).
(٣) نظم الدرر (١٧/ ٤٣٤).

تحقيقُ وعدٍ بالانتقامِ منهم، ومعناه: الوعدُ بإظهارِ الدِّينِ إن كان في حياةِ النبيِّ ﷺ أو بعد وفاتِه، ووعيدُهم بالعقابِ في الدنيا قبلَ عقابِ الآخرةِ، فلأجلِ الوفاءِ بهذينِ الغَرَضَينِ ذُكر في هذه الجملةِ أمرانِ: الانتقامُ منهم لا محالةَ، وكونُ ذلك واقعًا في حياةِ الرسولِ ﷺ أو بعد وفاتِه. والمُفرَّعُ هو: ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ وما ذُكر معه، فمرادٌ منه تحقُّقُ ذلك على كلِّ تقديرٍ[1].

لمَّا بيَّن تعالى أنَّ دعوتَه لا تُؤثِّرُ في قلوبِهم؛ قال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾[2].

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

بعد أن ذكر العذابَ الأخرويَّ، ذكر العذابَ الدُّنيويَّ، فقال: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾.

وبعد أن بيَّن أنَّه لا بدَّ أن ينتقمَ لأجلِه منهم بعد وفاتِه، بيَّن أنَّه لا بدَّ أن ينتقمَ منهم لأجلِه في حياته، فقال: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾.

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

لمَّا أوقف سبحانه السَّامعَ بهاتينِ الشَّرطيَّتَينِ بين الخوفِ والرَّجاءِ لبيانِ الاستبدادِ بعلمِ الغيبِ تغليبًا للخوف، وأفهَمَ السِّياقُ -وإن كان شرطًا- أنَّ الانتقامَ منهم أمرٌ لا بدَّ منه، وأنَّه لا قدرةَ لأحدٍ على ضَرِّهم ولا نفعِهم إلَّا اللهَ؛ سبَّب عنه قولَه: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢١٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٣٤).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٤٣٥).

لمَّا هوَّن اللهُ علىٰ رسولِه ﷺ ما يُلاقِيه من شِدَّةِ الحرصِ علىٰ إيمانِهم، ووعَده النَّصرَ عليهم؛ فرَّع علىٰ ذلك أنْ أَمَرَه بالثَّباتِ علىٰ دينِه وكتابِه، وأن لا يَخُورَ عزمُه في الدَّعوةِ ضجرًا من تَصلُّبِهم في كفرِهم ونفورِهم من الحقِّ[(١)].

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤ ﴾

لمَّا أَثبَتَ حُسْنَه في نفسِه المقتضِيَ للزومِه؛ عطَف عليه نفعَه لهم، وأكَّد لإنكارِهم، فقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾[(٢)].

ثم عُطف عليه تعليلٌ آخَرُ اشتمَل علىٰ ذِكْرِ حظِّ القرآنِ من المدحِ والنَّفعِ بقولِه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ ﴾، وتشريفِه به بقولِه: ﴿ لَّكَ ﴾، وأَتبَعَ بحظِّ التَّابعين له ولكتابِه من الاهتداءِ والانتفاعِ، بقولِه: ﴿ وَلِقَوۡمِكَ ﴾، ثم عرَّض بالمُعْرِضين عنه والمُجافِين له، بقولِه: ﴿ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾[(٣)].

لمَّا بيَّن تأثيرَ التَّمسُّكِ بهذا الدِّينِ في منافعِ الدِّينِ؛ بيَّن أيضًا تأثيرَه في منافعِ الدنيا، فقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾[(٤)].

﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ٤٥ ﴾

لمَّا أَبطَلَ سبحانه إلهيَّةَ غيرِه التي أدَّىٰ إليها الجهلُ، واستمرَّ إلىٰ أن ختَم بالعلمِ المُوجِبِ لمعرفةِ الحقِّ، فكان التقديرُ إبطالًا لشبهتِهم الوهميَّةِ القائلةِ: ﴿ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم ﴾: فاستَحضِرْ جميعَ ما أُوحِيَ إليك، وتأمَّلْه غايةَ التَّأمُّلِ، هل

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢١٩).
(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٣٥-٤٣٦).
(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٢٠).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٣٤).

ترىٰ فيه خفاءً في الإلهيَّةِ لشيءٍ دونَ اللهِ؟ عطَف عليه قولَه -نفيًا لدليلٍ سمعيٍّ، كما أُشير إليه بقولِه: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا ﴾-: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾(١).

اعلم أنَّ السَّببَ الأقوىٰ في إنكارِ الكفارِ لرسالةِ محمدٍ ﷺ ولبُغْضِهم له: أنَّه كان يُنكِرُ عبادةَ الأصنامِ، فبيَّن تعالىٰ أنَّ إنكارَ عبادةِ الأصنامِ ليس من خواصِّ دينِ محمدٍ ﷺ، بل كلُّ الأنبياءِ والرُّسلِ كانوا مُطْبِقين علىٰ إنكارِه، فقال: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾(٢).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

لمَّا كان التقديرُ: فلقد أرسَلْنا جميعَ رُسُلِنا -وهم أشرفُ الخلقِ- بالتَّوحيدِ الذي جئتَ به، وما كُنَّا في إرسالِنا إيَّاهم مُراعِينَ لِما يريدُه الأُمَمُ مِن جاهٍ أو مالٍ أو غيرِ ذلك، فلا وجهَ للاتِّكالِ عليك فيما أرسلناك به من التَّوحيدِ وغيرِه، ولا لمُعاداتِك فيه؛ عطَف عليه أوَّلَ مَن أَرشَدَ إلىٰ سؤالِ أتباعِهم، فقال مُؤكِّدًا لأجل ما يُعانِدون به من إنكارِ الرِّسالةِ، وأتىٰ بحرفِ التَّوقُّعِ لِما اقتضاه من الأمرِ بسؤالِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٣).

قد ذكَر اللهُ في أوَّلِ السورةِ قولَه: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾، وساق بعد ذلك تذكرةً بإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومِه، وما تفرَّع علىٰ ذلك من أحوالِ أهلِ الشِّركِ،

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٤٣٧).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٣٥).
(٣) نظم الدرر (١٧/ ٤٤٠).

فلمَّا تقضَّىٰ أُتبعَ بتنظيرِ حالِ الرسولِ ﷺ مع طُغاةِ قومِه، واستهزائِهم بحالِ موسىٰ مع فرعونَ ومَلَئِه؛ فإنَّ للمُثُلِ والنَّظائرِ شأنًا في إبرازِ الحقائقِ، وتصويرِ الحالينِ تصويرًا يُفضِي إلىٰ ترقُّبِ ما كان لإحدىٰ الحالتينِ من عواقبَ أن تلحقَ أهلَ الحالةِ الأخرىٰ، فإنَّ فرعونَ وملأَه تَلَقَّوْا موسىٰ بالإسرافِ في الكفرِ، وبالاستهزاءِ به، وباستضعافِه؛ إذ لم يكن ذا بذخةٍ ولا مُحلًّىٰ بحِلْيةِ الثراءِ، وكانت مناسبةُ قولِه: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ الآيةَ، هيَّأَتِ المقامَ لضربِ المَثَلِ بحالِ بعضِ الرُّسُلِ الذين جاؤوا بشريعةٍ عظمىٰ قبلَ الإسلامِ(١).

اعلم أَنَّ المقصودَ من إعادةِ قصَّةِ موسىٰ عليه السلام وفرعونَ في هذا المقامِ: تقريرُ الكلامِ الذي تقدَّم؛ وذلك لأنَّ كُفَّارَ قريشٍ طعنوا في نُبُوَّةِ محمدٍ ﷺ بسبب كونِه فقيرًا عديمَ المالِ والجاهِ، فبيَّن اللهُ تعالىٰ أنَّ موسىٰ عليه السلام -بعد أن أَورَدَ المعجزاتِ القاهرةَ الباهرةَ التي لا يَشُكُّ في صحَّتِها عاقلٌ- أَورَدَ فرعونُ عليه هذه الشُّبهةَ التي ذكرها كُفَّارُ قريشٍ، فقال: إنِّي غنيٌّ كثيرُ المالِ والجاهِ، أَلَا تَرَوْنَ أنَّه حصل لي مُلْكُ مصرَ، وهذه الأنهارُ تجري مِن تحتي؟ وأمَّا موسىٰ فإنَّه فقيرٌ مَهينٌ، وليس له بيانٌ ولسانٌ، والرَّجلُ الفقيرُ كيف يكون رسولًا من عندِ الله إلىٰ المَلِكِ الكبيرِ الغنيِّ؟ فثبَت أنَّ هذه الشُّبهةَ التي ذكرها كُفَّارُ مكَّةَ -وهي قولُهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾- قد أَورَدَها بعينِها فرعونُ علىٰ موسىٰ(٢).

إنَّه لمَّا قال: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا ... ﴾ الآيةَ، ذكر قصَّةَ موسىٰ وعيسىٰ، وهما أكبرُ أتباعًا ممَّن سبقهم من الأنبياء، وكلٌّ جاء بالدعاءِ إلىٰ الله وإفرادِه بالعبادة، فلم يكنْ فيما جاءا أبدًا إباحةُ اتِّخاذِ آلهةٍ من دونِ اللهِ كما اتَّخذتْ قريشٌ، فناسَب ذِكْرُ قصَّتِهما الآيةَ التي قبلَها(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٢٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٣٦).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٣٧٨).

لمَّا أَعلَمَ اللهُ سبحانه نبيَّه بأنَّه مُنتقِمٌ له من عَدُوِّه، وذكر اتِّفاقَ الأنبياءِ على التَّوحيدِ؛ أَتبعَه بذِكْرِ قصَّةِ موسى وفرعونَ، وبيانِ ما نزل بفرعونَ وقومِه من النِّقمةِ، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[(١)].

لمَّا قال تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾؛ بيَّن تعالى حالَ موسى ودعوتِه التي هي أشهرُ ما يكونُ من دعواتِ الرُّسُلِ، ولأنَّ اللهَ تعالى أَكثَرَ من ذِكْرِها في كتابِه، فذكَر حالَه مع فرعونَ، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[(٢)].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾

لمَّا كانوا قد فعلوا من الرَّدِّ لرسالتِه ﷺ والاستهزاءِ بها ما فعَلَتْه قريشٌ؛ قال مُسلِّيًا للنَّبيِّ ﷺ، ومُهدِّدًا لهم؛ تسبيبًا عمَّا تقديرُه: فقالوا له: ائْتِ بآيةٍ، فأتى بها على ما تقدَّم غيرَ مرَّةٍ بما هو كالشَّمسِ بيانًا وحُسْنًا: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾[(٣)].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا﴾، قبلَه كلامٌ محذوفٌ، تقديرُه: فطالَبوه بما يدلُّ على صحَّةِ دعواه الرِّسالةَ من اللهِ[(٤)].

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾

لمَّا كان ربما ظنَّ ظانٌّ أنَّ في الآياتِ ما يقبلُ شيئًا من ذلك؛ بيَّن حالَها سبحانه بقولِه: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[(٥)].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٦٣٩).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٦٧).
(٣) نظم الدرر (١٧/ ٤٤١).
(٤) البحر المحيط (٩/ ٣٧٨).
(٥) نظم الدرر (١٧/ ٤٤٢).

الأظهرُ أنَّ جملةَ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ في موضعِ الحالِ، وأنَّ الواوَ واوُ الحالِ، وأنَّ الاستثناءَ من أحوالٍ، وما بعد ﴿إِلَّا﴾ في موضعِ الحالِ، واستغنت عن الواوِ لأنَّ ﴿إِلَّا﴾ كافيةٌ في الرَّبطِ. والمعنىٰ: أنَّهم يَستخِفُّون بالآياتِ التي جاء بها موسىٰ في حالِ أنَّها آياتٌ كبيرةٌ عظيمةٌ، فإنَّما يَستخِفُّون بها لمكابرتِهم وعنادِهم(١).

ثم أشار إلىٰ أنَّ مُوجِبَ الهُزْءِ(٢) لم يكنْ إلَّا لعنادٍ، لا لقصورِها، بقوله: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٣).

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

لمَّا كان فرعونُ في كثيرٍ من الضَّرباتِ التي كان يضربُه بها سبحانه إذا صرَف اللهُ ذلك عنه، عادَ علىٰ ما كان عليه من الفجورِ، فكان فعلُه ذلك فعلَ مَن لا يعتقدُ أنَّ موسىٰ عليه السلام نبيٌّ حقيقةً، بل يعتقدُ أنَّه ساحرٌ، وأنَّ أفعالَه إنَّما هي خيالٌ؛ فكذلك عبَّر عن هذا المعنىٰ بقولِه عطفًا علىٰ ما تقديرُه: فلم يرجعوا: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾(٤).

عطفٌ علىٰ ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾، والمعنىٰ: ولمَّا أخذناهم بالعذابِ علىٰ يدِ موسىٰ؛ سألوه أن يدعوَ اللهَ بكشفِ العذابِ عنهم. ومُخاطَبتُهم موسىٰ بوصفِ السَّاحرِ مُخاطَبةُ تعظيمٍ؛ تزلُّفًا إليه؛ لأنَّ السَّاحرَ عندهم كان هو العالِمَ، وكانت علومُ علمائِهم سِحْرِيَّةً؛ أي: ذاتَ أسبابٍ خفيَّةٍ لا يعرفُها غيرُهم وغيرُ أتباعِهم(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٢٥).

(٢) أي: السُّخريَّة.

(٣) محاسن التأويل (٨/ ٣٩٣).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٤٤٣-٤٤٤).

(٥) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٢٧).

ولمَّا عايَنوا ما جاءهم به من الآياتِ البيِّناتِ، والدَّلالاتِ الواضحاتِ؛ ظنُّوا أنَّ ذلك من قَبيلِ السِّحرِ، ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾(١).

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

لمَّا كان العاقلُ لا يُخبِرُ عن نفسِه إلَّا بما هو صحيحٌ، فكيف إذا كان عظيمًا بين قومِه؟ فكيف إذا أكَّد ذلك بأنواعٍ من التَّأكيد؟ فكان السَّامعُ لهذا الكلامِ يقطعُ بصدقِه؛ بيَّن تعالىٰ ما يُصحِّحُ أنَّ حالَهم حالُ مَن يعتقدُ أنَّه ساحرٌ، بأنَّهم أَسرَعوا الخيانةَ بالكذبِ فيه من غيرِ استحياءٍ ولا خوفٍ، فقال مُعبِّرًا بالفاءِ دلالةً علىٰ ذلك: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾(٢).

تفرَّع علىٰ تضرُّعِهم ووعدِهم بالاهتداءِ إذا كُشف عنهم العذابُ أنَّهم نكَثوا الوعدَ(٣).

في الكلامِ حذفٌ؛ أي: فدعانا بكشفِ العذابِ، فكشَفْنا، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾(٤).

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾

لمَّا كُشف عنهم العذابُ بدعوةِ موسىٰ، وأَضمَرَ فرعونُ ومَلَؤُه نكْثَ الوعدِ الذي وعدوه موسىٰ بأنَّهم يهتدون؛ خَشِيَ فرعونُ أن يتَّبِعَ قومُه دعوةَ موسىٰ ويؤمنوا برسالتِه، فأعلن في قومِه تذكيرَهم بعظَمةِ نفسِه؛ ليُثبِّتَهم علىٰ طاعتِه، ولئلَّا يُنقَل إليهم

(١) فتح القدير (٤/ ٦٤٠).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٤٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٢٨).

(٤) روح المعاني (١٣/ ٨٨).

ما سأله من موسىٰ وما حصل من دعوتِه بكشفِ العذاب، وليَحسَبوا أنَّ ارتفاعَ العذابِ أمرٌ اتِّفاقيٌّ؛ إذ قومُه لم يطَّلِعوا علىٰ ما دار بينه وبين موسىٰ من سؤالِ كشفِ العذابِ[1].

ولمَّا رأىٰ فرعونُ تلك الآياتِ؛ خاف مَيْلَ القومِ إليه، فجمع قومَه، ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾

ولمَّا أَرشَدَ السِّياقُ إلىٰ أنَّ التقديرَ: أفهذا الذي جاء يَسلُبُنا عبيدَنا بني إسرائيلَ خيرٌ عندكم مِنِّي؟ نسَق عليه قولَه: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[2].

انتقل من تعظيمِ شأنِ نفسِه إلىٰ إظهارِ البَوْنِ بينه وبين موسىٰ الذي جاء يَحقِرُ دينَه وعبادةَ قومِه إيَّاه، فقال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[3].

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

ولمَّا كان عندَ فرعونَ -وعندَ مَن كان مِثلَه مطموسَ البصيرةِ، فاقدَ الفهمِ، وَقُوفًا مع الوهمِ- أنَّ القُرْبَ من الملوكِ، والغَلَبةَ علىٰ الأمورِ لا تكونُ إلَّا بكثرةِ الأعراضِ الدُّنيويَّة، والتَّحلِّي بحُلِيِّ الملوكِ؛ سبَّب عن ادِّعائه لرسالتِه عن مَلِكِ الملوكِ، اللَّازمةِ للقُرْبِ منه، قولَه: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٢٩).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٤٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٣٠-٢٣١).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٤٤٨-٤٤٩).

لَمَّا تضمَّن وصفُه موسىٰ بـ﴿مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أنَّه مُكذِّبٌ له دعواه الرِّسالةَ عن اللهِ؛ فرَّع عليه قولَه: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ ترقِّيًا في إحالةِ كونِه رسولًا من الله، وفرعونُ -لجهلِه أو تجاهلِه- يُخيِّلُ لقومِه أنَّ للرِّسالةِ شعارًا كشعارِ الملوكِ[1].

ثم قال فرعونُ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[2].

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾

ولمَّا كان كلامُه هذا واضعًا له -عندَ مَن تأمَّلَ- لا رافعًا، وكان قد مشىٰ علىٰ أتباعِه -لأنَّهم مع المَظِنَّةِ دونَ المئنَّةِ، فهم أذلُّ شيءٍ لمن ثبَتَتْ له رئاسة دنيويَّةٌ وإن صار ترابًا، وأعصىٰ شيءٍ علىٰ مَن لم يَنْقَدْ له النَّاسُ وإنْ فعَل الأفاعيلَ العِظامَ-؛ تشوَّف السَّامعُ إلىٰ ما يتأثَّرُ عنه، فقال: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[3].

فتفرَّع عن نداءِ فرعونَ قومَه أنْ أثَّر بتمويهِه في نفوسِ مَلَئِه، فعجَّلوا بطاعتِه بعد أن كانوا مُتهيِّئين لاتِّباعِ موسىٰ لمَّا رأَوُا الآياتِ. فالخِفَّةُ مُستعارةٌ للانتقالِ من حالةِ التَّأمُّلِ في خلعِ طاعةِ فرعونَ والتَّثاقلِ في اتِّباعِه، إلىٰ التَّعجيلِ بالامتثالِ له، كما يَخِفُّ الشَّيءُ بعد التَّثاقلِ. والمعنىٰ يرجعُ إلىٰ أنَّه استخَفَّ عقولَهم، فأسرَعوا إلىٰ التَّصديقِ بما قاله بعد أن صدَّقوا موسىٰ في نفوسِهم لَمَّا رأَوْا آياتِه نزولًا ورفعًا[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٣٢).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٦٧).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٤٥٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٣٣).

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ ﴾

وكأنَّ مُدَّةَ محاولةِ الكليمِ عليه السلام لهم كانت قريبةً؛ فلذلك عبَّر بالفاءِ في قولِه: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[(١)].

عُقب ما مضىٰ من القصَّةِ بالمقصودِ، وهو هذه الأمورُ الثَّلاثةُ المترتِّبةُ، المتفرِّعُ بعضُها علىٰ بعضٍ؛ وهي: الانتقامُ، فالإغراقُ، فالاعتبارُ بهم في الأُمَمِ بعدَهم[(٢)].

﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ۝٥٦ ﴾

ولمَّا كان إهلاكُهم بسببِ إغضابِهم للهِ، وبالكِبْرِ علىٰ رُسُلِه؛ كانوا سببًا لأن يتَّعِظَ بحالِهم مَن يأتي بعدهم؛ فلذلك قال تعالىٰ: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾[(٣)].

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ ﴾

لمَّا جعل اللهُ عيسىٰ عليه السلام مَثَلًا لتمامِ قدرتِه علىٰ اختراعِ الأشياءِ بأسبابٍ وبغيرِ أسبابٍ، وكان أَعْبَدَ أهلِ زمانِه وأعلمَهم وأزهدَهم، وأقربَهم إلىٰ الخيرِ، وأبعدَهم عن الشَّرِّ، فاقتدىٰ به مَن أراد اللهُ به الخيرَ في مِثْلِ ذلك فاهتدىٰ به، وضَلَّ به آخَرون وضربوا به لأنفسِهم أمثالَ الآلهةِ، وصاروا يفرحون بما لا يرضاه عاقلٌ ولا يراه، وضربه قومُك مَثَلًا لآلهتِهم لما أخبرنا أنَّهم معهم حَصَبُ جهنَّمَ، وسُرُّوا بذلك وطَرِبُوا، وظنُّوا أنَّهم فازوا وغلَبوا: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٤٥١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٣٤).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٤٥٢).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٤٥٥).

عطَف قصَّةً من أقاصيصِ كفرِهم وعنادِهم علىٰ ما مضىٰ من حكايةِ أقاويلِهم، جَرَتْ في مجادلةٍ منهم مع النبيِّ ﷺ. وهذا تصديرٌ وتمهيدٌ بين يدي قولِه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ...﴾ الآياتِ، الذي هو المقصودُ من عطفِ هذا الكلامِ علىٰ ذِكْرِ رسالةِ موسىٰ عليه السلام. واقترانُ الكلامِ بـ«لمَّا» المفيدةِ وجودَ جوابِها عندَ وجودِ شرطِها، أو تَوْقِيتَه، يقتضي أنَّ مضمونَ شرطِ «لمَّا» معلومُ الحصولِ ومعلومُ الزَّمانِ، فهو إشارةٌ إلىٰ حديثٍ جرىٰ بسببِ مَثَلٍ ضربه ضاربٌ لحالٍ من أحوالِ عيسىٰ، علىٰ أنَّ قولَهم: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يحتملُ أن يكونَ جرىٰ في أثناءِ المجادلةِ في شأنِ عيسىٰ، ويحتملُ أن يكونَ مجرَّدَ حكايةِ شبهةٍ أخرىٰ من شُبَهِ عقائدِهم، ففي هذه الآيةِ إجمالٌ يُبيِّنُه ما يعرفُه النبيُّ ﷺ والمؤمنون من جدلٍ جرىٰ مع المشركين[1].

لمَّا ذكر تعالىٰ طرفًا من قصَّةِ موسىٰ عليه السلام؛ ذكر طرفًا من قصَّةِ عيسىٰ عليه السلام[2].

لمَّا قال سبحانه: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾؛ تعلَّق المشركون بأمرِ عيسىٰ عليه السلام، وقالوا: ما يريدُ محمدٌ إلَّا أن نتَّخِذَه إلهًا كما اتَّخذتِ النصارىٰ عيسىٰ ابنَ مريمَ، فأنزل اللهُ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[3].

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾

وذلك أنَّ قريشًا قالوا -كما مضىٰ في «الأنبياءِ»-: «إنَّا وما نعبدُ في جهنَّمَ»، مُقتَضٍ أن يكونَ عيسىٰ كذلك، وأن نستويَ نحن وآلهتُنا به، فإنَّه ممَّا عُبد، ونحن راضون بمساواتِه لنا، إلىٰ آخِرِ ما قالوا، وما ردَّ عليهم سبحانه به من الآيةِ، من العامِّ الذي

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٣٦).
(٢) البحر المحيط (٩/ ٣٨٤).
(٣) فتح القدير (٤/ ٦٤٢).

أُريد به الخصوصُ، كما هو مقتضىٰ كلامِهم ولسانِهم في أنَّ الأصلَ في «ما» لِما لا يعقلُ، وذلك هو المرادُ من قولِه تعالىٰ حاكيًا عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾[(١)].

حكايةٌ لطَرَفٍ من المَثَلِ المضروبِ، قالوه تمهيدًا لِما بنَوْا عليه من الباطلِ المموَّهِ بما يغترُّ به السُّفهاءُ؛ أي: ظاهرٌ أنَّ عيسىٰ خيرٌ من آلهتِنا، فحيث كان هو في النَّارِ فلا بأسَ بكونِنا مع آلهتِنا فيها[(٢)].

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩﴾

ولمَّا تضمَّن هذا أنَّه غيرُ مُهانٍ؛ صرَّح به علىٰ وجهِ الحصرِ قصرَ قلبٍ لمن يدَّعِي أنَّه مقصورٌ علىٰ الإلهيَّة، فقال: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[(٣)].

لمَّا ذُكر ما يشيرُ إلىٰ قصَّةِ جدالِ ابنِ الزِّبَعْرَىٰ في قولِه تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، وكان سببُ جدالِه هو أنَّ عيسىٰ قد عُبد من دونِ اللهِ؛ لم يترُكِ الكلامَ ينقضي دون أن يُردِفَ بتقريرِ عبوديَّةِ عيسىٰ لهذه المناسبةِ؛ إظهارًا لخَطَلِ رأيِ الذين ادَّعَوْا إلهيَّتَه وعبَدوه -وهم النَّصارىٰ- حرصًا علىٰ الاستدلالِ للحقِّ[(٤)].

ثم جلَّىٰ شأنَ عيسىٰ عليه السلام، بما يرفعُ كلَّ لَبْسٍ، بقولِه سبحانه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٤٥٦).

(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ٥١).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٤٥٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٤٠).

(٥) محاسن التأويل (٨/ ٣٩٥).

ثم بيَّن سبحانه أنَّ عيسىٰ ليس بربٍّ، وإنَّما هو عبدٌ مِن عبادِه اختصَّه بنُبُوَّتِه، فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾(١).

وليس تفضيلُ عيسىٰ عليه السلام وكونُه مُقرَّبًا عندَ ربِّه ما يدلُّ علىٰ الفرقِ بينه وبينها في هذا الموضعِ، وإنَّما هو كما قال تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾(٢).

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فلو شئنا لجعلنا النَّاسَ كلَّهم من أنثىٰ بلا ذَكَرٍ، ولو شئنا لساوَيْناكم بهم في ذلك الذي ضرَبْناه عليهم من الذُّلِّ عندما جعلوا له مَثَلَ السَّوْءِ، فزِدْنا ما أنتم فيه من الذُّلِّ والحقارةِ عن سائرِ الأُمَمِ بأنْ سلَّطْناهم عليكم حتىٰ استباحوكم، ولو شئنا لمحَوْناكم أجمعين عن وجهِ الأرضِ فتركناها بياتًا لا أنيسَ بها؛ عطَفَ عليه قولَه: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾(٣).

لمَّا أشارت الآيةُ السَّابقةُ إلىٰ إبطالِ ضلالةِ الذين زعَموا عيسىٰ عليه السلام ابنًا للهِ تعالىٰ -مِن قصرِه علىٰ كونِه عبدًا للهِ أنعَمَ اللهُ عليه بالرِّسالةِ، وأنَّه عِبْرةٌ لبني إسرائيلَ-؛ عقَّب ذلك بإبطالِ ما يُماثِلُ تلك الضَّلالةَ، وهي ضلالةُ بعضِ المشركين في ادِّعاءِ بُنُوَّةِ الملائكةِ للهِ تعالىٰ، المتقدِّمُ حكايتُها في قولِه: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ... ﴾ الآياتِ(٤).

---

(١) فتح القدير (٤/ ٦٤٣).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٦٨).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٤٥٨-٤٥٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٤١).

تذييلٌ لوجهِ دلالتِه على القدرةِ، وأنَّ الافتتانَ مِن عدمِ التَّأمُّلِ، وتضمينٌ للإنكارِ على مَن اتَّخذ الملائكةَ آلهةً كما اتُّخِذَ عيسى عليه السلام[١].

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

ولمَّا ذكر سبحانه الإعدامَ والخلافةَ بسببِه فرضًا؛ ذكر أنَّ إنزالَه إلى الأرضِ آخِرَ الزَّمانِ أمارةٌ على إعدامِ النَّاسِ تحقيقًا، فقال مُؤكِّدًا لأجلِ إنكارِهم: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[٢].

الأظهرُ أنَّ هذا عطفٌ على جملةِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، ويكونُ ما بينهما مُستطرَداتٌ واعتراضًا اقتَضَتْه المناسبةُ. لمَّا أُشبِعَ مقامُ إبطالِ إلهيَّةِ غيرِ اللهِ بدلائلِ الوحدانيَّةِ؛ ثُني العِنانُ إلى إثباتِ أنَّ القرآنَ حقٌّ، عَوْدًا على بدءٍ. وهذا كلامٌ مُوجَّهٌ من جانبِ اللهِ تعالى إلى المنكِرين يومَ البعثِ، ويجوزُ أن يكونَ من كلامِ النبيِّ ﷺ[٣].

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾

ولمَّا حثَّهم على السُّلوكِ لصراطِ الوليِّ الحميدِ بدلالةِ الشَّفوقِ النَّصوحِ الرَّؤوفِ الرَّحيمِ؛ حذَّرهم من العَدُوِّ البعيدِ المحترقِ الطَّريدِ، فقال دالًّا على عظيمِ فتنتِه بما له من التَّزيينِ للمُشتهَى، والأخذِ من المأمنِ، والتَّلبيسِ للمُشكِلِ، والتَّغطيةِ للخوفِ بالتَّأكيدِ لما هم تابعون من ضِدِّه على وجهِ التَّقليدِ: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٤].

---

(١) روح المعاني (١٣/ ٩٢).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٦٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٤٢).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٤٦١).

لمَّا أُبلِغَتْ أسماعُهم أفانينَ المواعظِ والأوامرِ والنَّواهي، وجرى في خلالِ ذلك تحذيرُهم من الإصرارِ على الإعراضِ عن القرآنِ، وإعلامُهم بأنَّ ذلك يُفضِي بهم إلى مقارنةِ الشَّيطانِ، وأخذ ذلك حظَّه من البيانِ؛ انتقل الكلامُ إلى نهيِهم عن أن يَحصُلَ صدُّ الشَّيطانِ إيَّاهم عن هذا الدِّينِ والقرآنِ الذي دُعوا إلى اتِّباعه بقوله: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾؛ تنبيهًا على أنَّ الصُّدودَ عن هذا الدِّينِ من وسوسةِ الشَّيطانِ، وتذكيرًا بعداوةِ الشَّيطانِ للإنسانِ عداوةً قويَّةً لا يُفارِقُها الدَّفعُ بالنَّاسِ إلى مساوئِ الأعمالِ ليُوقِعَهم في العذابِ تشفِّيًا لعداوتِه(١).

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣﴾

ولمَّا قدَّم سبحانه أنَّه أنعَمَ على عيسى عليه السلام وجعله مَثَلًا لبني إسرائيلَ، ولوَّح إلى اختلافِهم وأنَّ بعضَهم نزَّل مِثلَه على غيرِ ما هو به، وحذَّر مَن اقتدى بهم في نحوِ ذلك الضَّلالِ، وأمر باتِّباعِ الهادي، ونهى عن اتِّباعِ المُضِلِّ؛ صرَّح بما كان من حالِهم حين أبرَزَه اللهُ لهم على تلك الحالةِ الغريبةِ، فقال عاطفًا على ما تقدَّم تقديرُه بعد قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا﴾: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦٤﴾

ولمَّا أمرهم بطاعتِه؛ علَّل ذلك بما أزال تُهَمَتَه ما يُطاعُ فيه، فقال مُؤكِّدًا لِما في أعمالِهم من المجاملةِ المُؤْذِنةِ بالتَّكذيب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٤٤).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٦٢).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٤٦٤).

جملةُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ تعليلٌ لجملةِ ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ ﴾؛ لأنَّه إذا ثبت تفرُّدُه بالرُّبوبيَّةِ؛ توجَّهَ الأمرُ بعبادتِه، إذ لا يخافُ اللهَ إلَّا مَن اعترف بربوبيَّتِه وانفرادِه بها[1].

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾

ولمَّا كان الطريقُ الواضحُ القديمُ مُوجِبًا للاجتماعِ عليه، والوِفاقِ عند سلوكِه؛ بيَّن أنَّهم سبَّبوا عنه بهذا الوعظِ غيرَ ما يليقُ بهما بقولِه: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾[2].

ثم أشار إلىٰ وعيدِ مَن خالَف الحقَّ بعد وضوحِه، بقولِه تعالىٰ: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾[3].

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

ولمَّا عمَّ الظَّالمين بالوعيدِ بذلك اليومِ، فدخل فيه قريشٌ وغيرُهم؛ أَتبَعه ما هو كالتَّعليل، مُبرزًا له في سياق الاستفهام؛ لأنَّه أَهْوَلُ، فقال: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[4].

استئنافٌ بيانيٌّ بتنزيلِ سامعِ قولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ منزلةَ مَن يطلبُ البيانَ فيسأَلُ: متىٰ يَحِلُّ هذا اليومُ الأليمُ؟ وما هو هذا الويلُ؟

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٤٨).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٧٤).

(٣) محاسن التأويل (٨/ ٣٩٧).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٤٧٥).

فورَدتْ جملةُ ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ جوابًا عن الشِّقِّ الأولِ من السُّؤال، وسيجيءُ الجوابُ عن الشِّقِّ الثاني في قوله: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ ...﴾ الآياتِ. وقد جرىٰ الجوابُ علىٰ طريقةِ الأسلوبِ الحكيمِ، والمعنىٰ: أنَّ هذا العذابَ واقعٌ لا محالةَ، سواءٌ قرُب زمانُ وقوعِه أم بعُد، فلا يَريبُكم عدمُ تعجيلِه، وقد أَشعَرَ بهذا المعنىٰ تقييدُ إتيانِ السَّاعةِ بقَيْدِ ﴿بَغْتَةً﴾، فإنَّ الشَّيءَ الذي لا تسبقُه أمارةٌ، لا يُدرَىٰ وقتُ حلولِه[1].

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ولمَّا كانت السَّاعةُ تُطلَقُ علىٰ الحبسِ بالموتِ، وعلىٰ النَّشرِ بالحياةِ؛ بيَّن ما يكونُ في الثاني -الذي هم له مُنكِرون- من أحوالِ المبعوثين علىٰ طريقِ الاستئنافِ في جوابِ مَن يقولُ: هل يقومون علىٰ ما هم عليه الآنَ؟ فقال: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

استئنافٌ يفيدُ أمرينِ؛ أحدهما: بيانُ بعضِ الأهوالِ التي أشار إليها إجمالُ التَّهديدِ في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾، وثانيهما: موعظةُ المشركين بما يَحصُل يومَ القيامةِ من الأهوالِ لأمثالِهم والحَبْرةِ[3] للمؤمنين. وقد أُوثِرَ بالذِّكرِ هنا من الأهوالِ ما له مزيدُ تناسبٍ لحالِ المشركين في تألُّبِهم علىٰ مُناوَأةِ الرسولِ ﷺ ودينِ الإسلامِ، فإنَّهم ما ألَّبهم إلَّا تَناصُرُهم وتَوادُّهم في الكفرِ والتَّباهي بذلك بينَهم في نواديهم وأسمارِهم، وتلك شِنْشِنَةُ أهلِ الشِّركِ مِن قبلُ[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٥١).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٧٦).

(٣) أي: النعمة وسَعة العيش.

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٥٢).

اعلم أنَّه تعالىٰ لمَّا قال: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾، ذكر عَقِيبَه بعضَ ما يتعلَّقُ بأحوالِ القيامةِ، فقال: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(١).

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ولمَّا أَفهَمَ هذا أنَّهم لا عداوةَ بينهم، بل يكونون في التَّوادِّ علىٰ أضعافِ ما كانوا عليه في الدنيا؛ لِما ظهر لهم من توادِّهم فيها وتناصرِهم، هو أفضىٰ بهم إلىٰ الفوزِ الدَّائمِ برضوانِ الله؛ وصَل به حالًا بيَّن فيها ما يتلقَّاهم به من توادٍّ فيه سبحانه تشريفًا لهم وتسكينًا لِما يقتضيه ذلك المقامُ من الأهوالِ: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾(٢).

حكايةٌ لِما يُنادَىٰ به المتقون المتحابُّون في الله يومئذ؛ تشريفًا لهم، وتطييبًا لقلوبِهم(٣).

ثم ذكر ثوابَ المتقين، وأنَّ الله تعالىٰ يناديهم يومَ القيامةِ بما يَسُرُّ قلوبَهم، ويُذهِب عنهم كلَّ آفةٍ وشَرٍّ، فيقولُ: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾(٤).

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

ولمَّا ناداهم بما يطمعُ فيه سائرُ أهلِ الموقفِ -لأنَّ كلَّ حزبٍ يقولون: نحن عبادُه-؛ خصَّ المُرادِين بما يُؤيِسُ غيرَهم، ولئلَّا يكونَ الوصفُ بالتقوىٰ مُوقِفًا لمن سمعه اليومَ من الكفارِ عن الدُّخولِ في الدِّينِ ظنًّا منهم أنَّ الدُّخولَ في الرُّسوخِ في التَّقوىٰ

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٤١).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٧٦).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ٥٤).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٧٦٩).

شرطٌ فيه حين الدُّخولِ، وكانوا لا يستطيعون ذلك، فوصف سبحانه المتقين بما يُهوِّنُ الوصولَ إلىٰ درجتِهم علىٰ غيرِهم، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾(١).

﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ ﴾

ولمَّا ذكَر ما لهم -بشارةً لهم، وترغيبًا لغيرِهم في اللَّحاقِ بهم- علىٰ وجهٍ فيه إجمالٌ؛ شرَح ذلك بقولِه: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴾(٢).

﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١ ﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا سائقًا إلىٰ حالِهم، سابقًا لمن كان واقفًا عنهم إلىٰ وصالِهم؛ أَقبَلَ علىٰ مَن لعلَّه يُوقِفُه الاشتغالُ بلَهْوٍ أو مالٍ، مُحرِّكًا لِما جهِلَ منه، ومُنبِّهًا علىٰ ما غفَل عنه، فقال عائدًا إلىٰ الغَيْبةِ ترغيبًا في التَّقوىٰ: ﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(٣).

﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: الجنَّةُ التي لمِثْلِها يعملُ العاملون؛ عطَف عليه قولَه مُشِيرًا إلىٰ فخامتِها بأداةِ البُعْدِ: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٤٧٧).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٧٧).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٤٧٨).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٤٧٩).

﴿ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣ ﴾

ولمَّا كان الأكلُ أعمَّ الحاجاتِ وأعمَّ الطَّلِباتِ[(١)]؛ قال تعالىٰ مُبيِّنًا أنَّ جميعَ أكلِهم تَفكُّهٌ ليس فيه شيءٌ تقوُّتًا؛ لأنَّه لا فناءَ فيها لقُوَّةٍ ولا غيرِها لتُحفظَ بالأكلِ، ولا ضَعْفَ: ﴿ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾[(٢)].

جملةُ ﴿ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ ﴾ صفةٌ ثانيةٌ للجنَّةِ[(٣)].

ولمَّا ذكر الطَّعامَ والشَّرابَ فيما تقدَّم؛ ذكر ها هنا حالَ الفاكهةِ، فقال: ﴿ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾[(٤)].

﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ ﴾

ولمَّا ذكَر ما للقسمِ الثَّاني من الأَخِلَّاءِ -وهم المتقون- ترغيبًا لهم في التَّقوىٰ؛ أَتبَعه ما لأضدادِهم -أهلِ القسمِ الأوَّلِ- تحذيرًا من مِثْلِ أعمالِهم، فقال استئنافًا مُؤكَّدًا في مقابلةِ إنكارِهم: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾[(٥)].

لهذه الجملةِ موقعانِ؛ أحدُهما: إتمامُ التَّفصيلِ لِما أَجمَلَه الوعيدُ الذي في قوله تعالىٰ: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥ ﴾ عَقِبَ تفصيلِ بعضِه بقوله: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ... ﴾ إلخ، وبقوله: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ ﴾؛ حيث قطَع إتمامَ تفصيلِه بالاعتناءِ بذِكْرِ وعدِ المؤمنين المتقين، فهي في هذا

---

(١) أي: المطلوبات.

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٨٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٥٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٤٢).

(٥) نظم الدرر (١٧/ ٤٨٠-٤٨١).

الموقعِ بيانٌ لجملةِ الوعيدِ وتفصيلٌ لإجمالِها. الموقعُ الثَّاني: أنَّها كالاستئنافِ البيانيِّ يُثيرُه ما يُسمَعُ من وصفِ أحوالِ المؤمنين المتقين من التَّساؤلِ: كيف يكونُ حالُ أضدادِهم المشركين الظَّالمين(١).

اعلم أنَّه تعالىٰ لمَّا ذكر الوعدَ، أردَفَه بالوعيدِ، علىٰ التَّرتيبِ المستمِرِّ في القرآنِ(٢).

لمَّا ذكر تعالىٰ حالَ أهلِ الجنَّةِ، وما يُقالُ لهم من لذائذِ البشارةِ؛ أعقَبَ ذلك بذِكْرِ حالِ الكَفَرةِ، وما يُجاوَبون به عندَ سؤالِهم(٣).

﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن إحاطتَه بهم إحاطةَ الظَّرفِ بمظروفِه، وكان من المعلومِ أنَّ النَّارَ لا تُفَتَّرُ عمَّن لابَسَتْه إلَّا بمُفتِّرٍ يمنعُها -بماءٍ يَصُبُّه عليها، أو تقليلٍ من وَقُودِها، أو غيرِ ذلك خرقًا للعادةِ-؛ بيَّن أنَّه لا يعتريها نقصانٌ أصلًا كما يُعهَدُ في عذابِ الدنيا؛ لأنَّهم هم وَقُودُها، فقال تعالىٰ: ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾(٤).

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

ولمَّا كان ربما ظنَّ مَن لا بصيرةَ له أنَّ هذا العذابَ أكبرُ وأكثرُ ممَّا يَستحِقُّونه؛ أجاب سبحانه بقولِه ليزيدَ عذابَهم برجوعِهم باللَّائمةِ علىٰ نفوسِهم، ووقوعِهم في مُنادماتِ(٥) النَّداماتِ: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٥٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٤٣).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٣٨٨).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٤٨١).

(٥) أي: مُصاحبات.

(٦) نظم الدرر (١٧/ ٤٨٢).

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ جملةٌ مُعترضةٌ في حكايةِ أحوالِ المجرمين، قُصد منها نفيُ استعظامِ ما جُوزُوا به من الخلودِ في العذابِ، ونفيُ الرِّقَّةِ لحالِهم المَحْكيَّةِ بقولِه: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾[(١)].

﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾

ولمَّا كان من مفهومِ الإبلاسِ السُّكوتُ؛ أَعلَمَ بأنَّ سكوتَهم ليس دائمًا؛ لأنَّ الإنسانَ إذا وطَّن نفسَه علىٰ حالةٍ واحدةٍ، ربما خفَّ عنه بعدُ الألمُ، فقال مُبيِّنًا أنَّهم من البُعْدِ بمحلٍّ كبيرٍ لا يطمعون معه في خطابِ المَلِكِ، وأنَّهم -مع علمِهم باليأسِ- يُعلِّقون آمالَهم بالخلاصِ كما يقع للمُتمنِّين للمُحالاتِ في الدنيا ليكونَ ذلك زيادةً في ألمِهم: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾[(٢)].

﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

ولمَّا ذكر سبحانه السَّاعةَ عند ذِكْرِ عيسىٰ عليه السلام، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾، وأكَّد أمرَها، وشرح بعضَ أحوالِها، إلىٰ أن ختَم بما دلَّ علىٰ انحلالِ عزائمِهم ولينِ شكائمِهم، وكانوا غيرَ مُقرِّين بذلك؛ قال -مُؤكِّدًا- جوابًا لمن يُبصِرُ بعضَ البصرِ فيقولُ: أحقٌّ هذا؟ ويتوقَّعُ الجوابَ: ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾[(٣)].

جملةُ ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ ... ﴾ إلىٰ آخرِها، في موضعِ العِلَّةِ لجملةِ ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ باعتبارِ تمامِ الجملةِ، وهو الاستدراكُ بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٥٨).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٨٢).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٤٨٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٦٠).

ولمَّا بيَّن تعالىٰ أنَّ مالكًا لمَّا أجابهم بقولِه: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾، ذكَر بعدَه ما هو كالعِلَّةِ لذلك الجوابِ، فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾(١).

خطابُ توبيخٍ وتقريعٍ من جهةِ اللهِ تعالىٰ، مُقرِّرٌ لجوابِ مالكٍ، ومُبيِّنٌ لسببِ مُكْثِهم(٢).

ثم وبَّخهم بما فعلوا، فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾(٣).

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

ولمَّا كان هذا خبرًا لا جوابَ فيه -لظهورِ الدَّلائلِ وتَعالِي العَظَمةِ- إلَّا الرُّجوعُ، وكان مَن لا يرجعُ إنَّما يريدُ محاربةَ الإلهِ الأعظمِ؛ قال؛ عادلًا عن الخطابِ إنزالًا لهم بالغَيْبةِ منزلةَ البعيدِ الذي لا يُلتفَتُ إليه، مُعادِلًا لِما تقديرُه: أَرَجَعُوا لِما ظهر لهم من الحقِّ الظَّاهرِ: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾(٤).

﴿أَمْ﴾ مُنقطِعةٌ للإضرابِ الانتقاليِّ من حديثٍ إلىٰ حديثٍ مع اتِّحادِ الغرضِ. انتقل من حديثِ ما أعدَّ لهم من العذابِ يومَ القيامةِ إلىٰ ما أعدَّ لهم من الخزيِ في الدنيا(٥).

لمَّا ذكر اللهُ تعالىٰ كيفيَّةَ عذابِهم في الآخرة؛ ذكَر بعدَه كيفيَّةَ مكرِهم وفسادِ باطنِهم في الدنيا، فقال: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾(٦).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٤٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ٥٥).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٧٠).

(٤) نظم الدرر (١٧/ ٤٨٤-٤٨٥).

(٥) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٦١).

(٦) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٤٤).

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ولمَّا كان إصرارُهم بين العزمِ على مجاهرةِ القديرِ بالمعاداةِ وبين معاملتِه وهو عليمٌ بالمُساتَرةِ والمُماكَرةِ في المعاداةِ والمُباكَرةِ والمُسالَمةِ والمُناكَرةِ؛ قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[1].

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

ولمَّا تقدَّم أوَّلَ السورةِ تبكيتُهم، والتَّعجيبُ منهم في ادِّعائِهم للهِ ولدًا من الملائكةِ، وهدَّدهم بقوله: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾، وذكر شُبَهَهم في قولِهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾، وجهلَهم فيها بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، ونفى أن يكونَ لهم على ذلك دليلٌ سمعيٌّ بقولِه مُنكِرًا مُوبِّخًا: ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾، ومَرَّ في تَوْهِيَةِ أمرِهم في ذلك وغيرِه بما لاحَمَ بعضُه بعضًا على ما تقدَّم إلى أن تمَّم نفيَ الدَّليلِ السَّمعيِّ على طريقِ النَّشرِ المُشوَّشِ بقولِه تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾، ونظَم به ما أتى به رسولُه أهلَ الكتابِ ممَّا يُصدِّقُ ما أتى به كتابُنا من التَّوحيدِ، وما هدَّد به مَن أعرَضَ عنه، إلى أن أخبَرَ أنَّه الحقُّ الذي لا زوالَ أصلًا لشيءٍ منه، وأنَّ رُسُلَه سبحانه تكتبُ جميعَ أعمالِهم من شهادتِهم في الملائكةِ وغيرِها؛ أعادَ الكلامَ في إبطالِ شبهتِهم في أنَّ عبادتَهم لهم لو كانت ممنوعةً لم يَشَأْها الذي له عمومُ الرَّحمةِ؛ لأنَّ عمومَ رحمتِه يمنعُ -على زعمِهم- مشيئةَ ما هو مُحرَّمٌ، فقال -بعد أن نفى قولُه: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ أن يكونَ لهم دليلٌ سمعيٌّ على أحدٍ من رُسُلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ-: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾[2].

(١) نظم الدرر (١٧/ ٤٨٥).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٨٧-٤٨٨).

لمَّا جرىٰ ذِكرُ الذين ظلموا بادِّعاءِ بُنُوَّةِ الملائكةِ في قولـه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ عقِبَ قولِـه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾، وعقِبَ قولِـه قبلَـه: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا﴾، وأعقَبَ بما ينتظرُهم من أهوالِ القيامةِ وما أُعِدَّ للذين انخلعوا عن الإشراكِ بالإيمانِ؛ أمر اللهُ رسولَه أن ينتقلَ من مقامِ التَّحذيرِ والتَّهديدِ إلىٰ مقامِ الاحتجاجِ علىٰ انتفاءِ أن يكون للهِ ولدٌ؛ جمعًا بين الرَّدِّ علىٰ بعضِ المشركين الذين عبدوا الملائكةَ، والذين زعَموا أنَّ بعضَ أصنامِهم بناتُ اللهِ مِثلَ اللَّاتِ والعُزَّىٰ، فأَمَرَه بقوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾(١).

ثم أمر اللهُ سبحانه رسولَه ﷺ أن يقولَ للكُفَّارِ قولًا يُلزِمُهم به الحُجَّةَ، ويقطعُ ما يُورِدُونه من الشُّبهةِ، فقال: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾(٢).

ثم أشار إلىٰ ردِّ إفكِهم في أنَّ الملائكةَ بناتُ الله تعالىٰ، ختمًا للسورةِ ممَّا بُدئت به، المسمَّىٰ عند البديعيِّين «ردَّ العَجُزِ علىٰ الصَّدرِ»، فقال سبحانه: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾(٣).

﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾

ولمَّا بطَلَتِ الشُّبهةُ علىٰ تقديرٍ ببرهانٍ، وعلىٰ آخرَ بشبهةٍ أقوىٰ منها، وظهر الأمرُ، واتَّضَحَ الحقُّ في أنَّه سبحانه يشاءُ لشخصٍ فعلَ شيءٍ ولآخَرَ عدمَ فعلِ ذلك الشَّيءِ وفعلَ ضِدِّه أو نقيضِه، ومن المعلومِ قطعًا أنَّه لا يكونُ فعلُ النَّقيضين ولا الضِّدَّينِ في آنٍ واحدٍ حقًّا من وجهٍ واحدٍ، فعُرف بذلك أنَّ العِبرةَ في الحلالِ والحرامِ بأمرِه ونهيِه لا بإرادتِه، وأنَّه لولا ذلك لَما عُلم أنَّه فاعلٌ بالاختيارِ، يَخُصُّ مَن يشاءُ من عبادِه بما

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٦٣).

(٢) فتح القدير (٤/ ٦٤٨).

(٣) محاسن التأويل (٨/ ٤٠٢).

يشاءُ بعد أن عمَّهم بما شاء؛ كان موضعُ التَّنزيهِ عمَّا نسبوه إليه من الباطلِ، فقال مُنزِّهًا على وجهٍ مُظهرٍ أنَّه لا يصحُّ أن يُنسَبَ إليه ولدٌ أصلًا: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(١).

جملةُ ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، يجوزُ أن تكونَ تكملةً لِما أُمر الرسولُ ﷺ بأن يقولَه، فيكونَ لهذه الجملةِ حكمُ التَّالي في جُزْأَيِ القياسِ الشَّرطيِّ الاستثنائيِّ، ويجوزُ أن تكونَ كلامًا مُستأنَفًا من جانبِ اللهِ تعالى لإنشاءِ تنزيهِه عمَّا يقولون، فتكونَ مُعترِضةً بين جملةِ ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ﴾ وجملةِ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ ﴾. ولهذه الجملةِ معنى التَّذييلِ؛ لأنَّها نزَّهتِ اللهَ عن جميعِ ما يصفونه به من نسبةِ الولدِ وغيرِ ذلك(٢).

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

ولمَّا حَصْحَصَ الحقُّ، ولَمَعتْ في الموجودِ كلِّه أعلامُ الصِّدقِ، بعد بطلانِ شبهتِهم وبيانِ أُغْلُوطَتِهم؛ عُرف أنَّهم فاعلون بوضعِ الأشياءِ في غيرِ مواضعِها فعلَ الخائضِ اللَّاعبِ، فقال مُسبِّبًا عن ذلك: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾(٣).

اعتراضٌ بتفريعٍ عن تنزيهِ اللهِ عمَّا يَنسُبونه إليه من الولدِ والشُّركاءِ، وهذا تأييسٌ من إجداءِ الحُجَّةِ فيهم، وأنَّ الأَولى به مُتاركتُهم في ضلالِهم إلى أن يَحِينَ يومٌ يَلْقَوْنَ فيه العذابَ الموعودَ. وهذا مُتحقِّقٌ في أئمَّةِ الكفرِ الذين ماتوا عليه، وهم الذين كانوا مُتَصَدِّين لمُحاجَّةِ النبيِّ ﷺ ومُجادَلتِه والتَّشغيبِ عليه؛ مِثلَ: أبي جهلٍ، وأُميَّةَ بنِ

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٤٨٩-٤٩٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٦٥).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٤٩٠).

خلفٍ، وشَيْبَةَ بنِ ربيعةَ، وعُتْبَةَ بنِ ربيعةَ، والوليدِ بنِ عُتْبَةَ، والوليدِ بنِ المغيرةِ، والنَّضرِ بنِ عبدِ الدَّارِ، ممَّن قُتلوا يومَ بدرٍ[١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾

ولمَّا نزَّهه سبحانه عن الولدِ، ودَلَّ علىٰ ذلك بأنَّه مالكُ كلِّ شيءٍ ومَلِكُه، وكان ذلك غيرَ مُلازمٍ للألوهيَّة؛ دلَّ علىٰ أنَّه -مع ذلك- هو الإلهُ لا غيرُه في الكونينِ، بدليلٍ بديهيٍّ يشتركُ في علمِه النَّاسُ كلُّهم، وقدَّم السَّماءَ ليكونَ أصلًا في ذلك يُتَّبَعُ؛ لأنَّ الأرضَ تَبَعٌ لها في غالبِ الأمورِ، فقال دالًّا علىٰ أنَّ نسبةَ الوجودِ كلِّه إليه علىٰ حدٍّ سواءٍ؛ لأنَّه مُنزَّهٌ عن الاحتياجِ إلىٰ مكانٍ أو زمانٍ، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: تنزَّه عمَّا نسبوه إليه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٢].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾، والجملتانِ اللَّتانِ بينهما اعتراضانِ، قصَد من العطفِ إفادةَ نفيِ الشَّريكِ في الإلهيَّةِ مطلقًا بعد نفيِ الشَّريكِ فيها بالبُنُوَّةِ، وقصَد بذكرِ السَّماءِ والأرضِ الإحاطةَ بعوالمِ التَّدبيرِ والخلقِ؛ لأنَّ المشركين جعلوا للهِ شركاءَ في الأرضِ -وهم أصنامُهم المنصوبةُ-، وجعلوا له شركاءَ في السَّماءِ -وهم الملائكةُ؛ إذ جعلوهم بناتِ اللهِ تعالىٰ-، فكان قولُه: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ إبطالًا للفريقينِ ممَّا زُعِمتْ إلهيَّتُهم[٣].

فإنْ قيل: وأيُّ تعلُّقٍ لهذا الكلامِ بنفيِ الولدِ عن اللهِ تعالىٰ؟ قلنا: تَعلُّقُه به أنَّه تعالىٰ خلَق عيسىٰ بمَحْضِ «كُنْ فيكونُ» من غيرِ واسطةِ النُّطْفةِ والأبِ، فكأنَّه قيل: إنَّ هذا

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٦٦).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٩١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٦٧).

القدرَ لا يُوجِبُ كونَ عيسىٰ ولدًا للهِ سبحانه؛ لأنَّ هذا المعنىٰ حاصلٌ في تخليقِ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما مع انتفاءِ حصولِ الولديَّةِ هناك(١).

﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

ولمَّا نزَّه ذاتَه الأقدسَ، وأثبَتَ لنفسِه استحقاقَ الإلهيَّةِ بالإجماعِ من خلقِه -بما ركَزه في فِطَرِهم، وهداهم إليه بعقولِهم-؛ أَتبَعَ ذلك أدلَّةً أخرىٰ بإثباتِ كلِّ كمالٍ بما تَسَعُه العقولُ وبما لا تَسَعُه، مُصرِّحًا بالمُلْكِ، فقال: ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٢).

عطفٌ علىٰ ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، قُصد منه إتباعُ إنشاءِ التَّنزيهِ بإنشاءِ الثَّناءِ والتَّمجيدِ. وقد ذكر مع التَّنزيهِ أنَّه ربُّ السَّماواتِ والأرضِ؛ لاقتضاءِ الرُّبوبيَّةِ التَّنزيهَ عن الولدِ المَسُوقِ الكلامُ لنفيِه، وعن الشَّريكِ المشمولِ لقولِه: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، وذُكر مع التَّبريكِ والتَّعظيمِ أنَّ له مُلْكَ السَّماواتِ والأرضِ؛ لمناسبةِ المُلْكِ للعَظَمةِ وفَيْضِ الخيرِ(٣).

﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ولمَّا أرشد السِّياقُ قطعًا إلىٰ التقديرِ: فلا شريكَ له في شيءٍ من ذلك ولا ولدَ له، ولا يقدرُ أحدٌ منهم علىٰ التَّخلُّفِ عن الرُّجوعِ إليه كما أنَّه لا يقدرُ أحدٌ علىٰ مدافعةِ

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٤٨).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٤٩٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٦٩).

قضائِه وقدرِه؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

لمَّا أنبأهم أنَّ للهِ مُلْكَ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما، وعندَه علمَ السَّاعةِ؛ أعلَمَهم أنَّ ما يعبدونه من دونِ اللهِ لا يقدرُ على أن يشفعَ لهم في الدنيا؛ إبطالًا لزعمِهم أنَّهم شفعاؤهم عند الله[2].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ لتقريرِ وجودِ إلهيَّتِه في الأرضِ بالاجتماعِ: فلَئِنْ سألتَهم: مَن يُنجيهم في وقتِ كروبِهم؟ لَيَقُولُنَّ: اللهُ، ليس لمن ندعوه من دونِه هناك فعلٌ، فقال عطفًا عليه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[3].

بعد أن أمعَنَ في إبطالِ أن يكونَ إلهٌ غيرُ اللهِ بما سِيقَ من التَّفصيلاتِ، جاء هنا بكلمةٍ جامعةٍ لإبطالِ زعمِهم إلهيَّةَ غيرِ اللهِ، بقولِه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[4].

﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

ولمَّا كان اشتدادُهم في تكذيبِهم ومباعدتِهم وعنادِهم لا يزدادُ بمرورِ الزَّمانِ إلَّا قُوَّةً؛ أَوقَعَ في نفسِ الرسولِ ﷺ أسفًا ورِقَّةً وشَفَقةً عليهم وعطفًا، وصار يشكو أمرَهم إلى ربِّه شكوى المضطرِّ سرًّا وعلنًا؛ إرادةَ التَّيسيرِ في أمرِهم والتَّهوينِ لشأنِهم، فاختِيرَ

---

(١) نظم الدرر (١٧/ ٤٩٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٧٠).

(٣) نظم الدرر (١٧/ ٤٩٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٧٠).

للتَّعبيرِ عن هذا المعنىٰ مصدرُ «قال» المشتركُ لفظُه مع لفظِ الماضي المبنيِّ للمجهولِ؛ إشارةً إلىٰ أنَّ شكواه بذلك كأنَّها صارت أمرًا ضروريًّا له، لا اختيارَ له في قولِه، فكأنَّه صار قولًا من غيرِ قائلٍ أو من غيرِ قصدٍ؛ لأنَّه صار حالًا من الأحوال، ووصَل به الضَّميرَ من غيرِ تقدُّمِ ذِكْرٍ؛ إشارةً إلىٰ أنَّ ضميرَه قد امتلأ بتلك الشَّفَقةِ عليهم والرَّحمةِ لهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

ولمَّا كان هذا قولًا دالًّا علىٰ غايةِ ما يكونُ من بلوغِ الجَهْدِ؛ تسبَّب عنه ما يَسُرُّه بإيمانِهم وبلوغِهم الرُّتَبَ العاليةَ التي هي نتيجةُ ما كان مُترجًّىٰ لهم أوَّلَ السورةِ، وذلك كلُّه ببركتِه ﷺ، في سياقٍ ظاهرُه التَّهديدُ، وباطنُه -بالنِّسبةِ إلىٰ علمِه- البشارةُ بالتَّشديدِ، فقال: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[2].

(١) نظم الدرر (١٧/ ٤٩٨-٥٠٠).

(٢) نظم الدرر (١٧/ ٥٠١).

سُورَةُ الدُّخَانِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) ﴾

ثم ذكر وقتَ نزولِه، فقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾.

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) ﴾

ولمَّا وصف ليلةَ إنزالِ هذا القرآنِ بالبركةِ، وأَعلَمَ أنَّ من أعظمِ بركتِها النِّذارةَ، وكانت النِّذارةُ -مع أنَّها فرَقتْ من البشارةِ أمرًا عظيمًا مُوجِبًا لفرقانِ ما بينَ المحاسنِ والمساوئِ من الأعمالِ- قائدةً إلىٰ كلِّ خيرٍ بدليلِ أنَّ أتباعَ ذوي البركةِ من العلماءِ، وإذا تَعارَضَ عندَهم أمرُ العالِم والظَّالمِ؛ قدَّموا أمرَ الظَّالمِ لِما يخافون من نذارتِه، وأهملوا أمرَ العالِم وإنْ عظُم الرَّجاءُ لبشارتِه؛ قال مُعلِّلًا لبركتِها بعد تعليلِ الإنزالِ فيها، ومُعمِّمًا لِما يَحصُل فيها من بركاتِ التَّفضيل: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾(1).

جملةُ ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن تنكيرِ ﴿لَيْلَةٍ﴾، ووصفها بـ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾، فدلَّ علىٰ عِظَمِ شأنِ هاتِه اللَّيلةِ عندَ اللهِ تعالىٰ، فإنَّها ظهر فيها إنزالُ القرآنِ، وفيها يُفرَقُ عندَ اللهِ كلُّ أمرٍ حكيمٍ(2).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٧٩).

استئنافٌ كما قبلَه، فإنَّ كونَها مَفرِقَ الأمورِ المُحْكَمةِ أو المُلْتَبِسةِ بالحكمةِ الموافِقةِ لها، يستدعي أن يُنزَلَ فيها القرآنُ الذي هو من عظائمِها[١].

ومِن جملةِ بركتِها ما ذكره اللهُ سبحانه ها هنا بقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[٢].

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾

ولـمَّا كان هذا مُفهِمًا لأمورٍ لا حصرَ لها؛ بيَّن أنَّه لا كُلْفةَ عليه سبحانه فيه، ولا تجدُّدَ عنده في وقتٍ من الأوقاتِ لشيءٍ لم يكنْ قبلُ إلَّا تعليقَ القدرةِ بالمقدورِ على وَفْقِ الإرادةِ، فقال مُؤكِّدًا لفخامةِ ما تضمَّنه وصفُه بأنَّه حكيمٌ: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[٣].

انتصَب ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ على الحالِ مِن ﴿أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، وإعادةُ كلمةِ ﴿أَمْرًا﴾ لتفخيمِ شأنِه[٤].

نُصب على الاختصاصِ؛ وذلك لأنَّه تعالى بيَّن شرفَ تلك الأقضيةِ والأحكامِ بسببِ أنْ وَصفَها بكونِها حكيمةً، ثم زاد في بيانِ شرفِها بأنْ قال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[٥].

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾

ثم بيَّن سبحانه حالَ الرِّسالاتِ بقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٦].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ٥٨).
(٢) فتح القدير (٤/ ٦٥٣).
(٣) نظم الدرر (١٨/ ٦).
(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٨٠).
(٥) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٥٥).
(٦) نظم الدرر (١٨/ ٧-٨).

ثم بيَّن أنَّ ذلك الإرسالَ إنَّما كان لأجلِ تكميلِ الرَّحمةِ، وهو قولُه: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾[(١)].

ثم ذكر عِلَّةَ إنزالِه، فقال: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧﴾

ولمَّا ذكر إنزالَ الكتابِ علىٰ تلك الحالِ العظيمةِ البركةِ لأجلِ الإرسالِ، وبيَّن أنَّ معظمَ ثمرةِ الإرسالِ الإنذارُ؛ لِما للمُرسَلِ إليهم من أنفسِهم من التوارد؛ دلَّ علىٰ ذلك من التَّدبيرِ المُحكَمِ الذي اقتَضَتْه حكمةُ التَّربيةِ، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[(٢)].

هذا عَوْدٌ إلىٰ مواجهةِ المشركين بالتَّذكيرِ علىٰ نحوِ ما ابتُدئت به السُّورةُ، وهو تخلُّصٌ للاستدلالِ علىٰ تفرُّدِ اللهِ بالإلهيَّةِ؛ إلزامًا لهم بما يُقِرُّون به من أنَّه ربُّ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما، ويُقِرُّون بأنَّ الأصنامَ لا تخلقُ شيئًا، غيرَ أنَّهم مُعرِضون عن نتيجةِ الدَّليلِ ببطلانِ إلهيَّةِ الأصنامِ؛ ولأجلِ ذلك ذكَر الرُّبوبيَّةَ إجمالًا في قولِه: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾، ثم تفصيلًا بذِكْرِ صفةِ عمومِ العلمِ -التي هي صفةُ المعبودِ بحقٍّ- بصيغةِ قصرِ القلبِ المشيرِ إلىٰ أنَّ الأصنامَ لا تسمعُ ولا تعلمُ، وبذِكْرِ صفةِ التَّكوينِ المختصَّةِ به تعالىٰ بإقرارِهم ارتقاءً في الاستدلالِ، فلمَّا لم يكنْ مجالٌ للرَّيبِ في أنَّه تعالىٰ هو الإلهُ الحقُّ؛ أَعقَبَ هذا الاستدلالَ بجملةِ ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بطريقةِ إثارةِ التَّيقُّظِ لعقولِهم؛ إذ نزَّلهم منزلةَ المشكوكِ إيقانُهم لعدمِ جَرْيِهم علىٰ مُوجِبِ الإيقانِ للهِ بالخالِقيَّةِ حينَ عبدوا غيرَه[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٥٤).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٨-٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٨٣).

ثم وصف سبحانه نفسَه بما يدلُّ علىٰ عظيمِ قدرتِه الباهرةِ، فقال: ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾(١).

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ٨ ﴾

ولمَّا ثبَت بهذا النَّظرِ الصَّافي ربوبيَّتُه، وبعدمِ اختلالِ التَّدبيرِ علىٰ طولِ الزَّمانِ وحدانيَّتُه، وبعدمِ الجَرْيِ علىٰ نظامٍ واحدٍ من كلِّ وجهٍ فعلُه بالاختيارِ وقدرتُه؛ صرَّح بذلك مُنبِّهًا لهم علىٰ أنَّ النَّظرَ الصَّحيحَ أَنتجَ ذلك ولا بدَّ، فقال تعالىٰ: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾(٢).

جملةُ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ نتيجةٌ للدَّليلِ المتقدِّمِ؛ لأنَّ انفرادَه بربوبيَّةِ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما دليلٌ علىٰ انفرادِه بالإلهيَّةِ؛ أي: علىٰ بطلانِ إلهيَّةِ أصنامِهم، فكانت هذه الجملةُ نتيجةً لذلك؛ فلذلك فُصلت لشِدَّةِ اقتضاءِ الجملةِ التي قبلَها إيَّاها(٣).

﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ٩ ﴾

ولمَّا كان أكثرُهم مُنكِرًا لِما لَزِمَه القطعُ به بهذا البرهانِ الزَّاهرِ والسُّلطانِ الظَّاهرِ القاهرِ عنادًا ولَددًا(٤)، وإنْ كان باطنُه علىٰ غيرِ ذلك، فكان فعلُه فعلَ الشَّاكِّ اللَّاعبِ؛ كان التقديرُ لأجلِ ما يظهرُ من حالِهم: لكنَّكم غيرُ مُوقِنين بعلمٍ من العلومِ؛ بنىٰ عليه قولَه مع الصَّرفِ إلىٰ الغَيْبةِ إعراضًا عنهم إيذانًا بالغضبِ، وأنَّهم أهلٌ للمُعاجَلةِ بالعَطَبِ: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾(٥).

(١) فتح القدير (٤/ ٦٥٤).
(٢) نظم الدرر (١٨/ ١٠).
(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٨٤).
(٤) أي: شِدَّة خصومة.
(٥) نظم الدرر (١٨/ ١١-١٢).

﴿ بَلْ ﴾ للإضرابِ الإبطاليِّ، رَدَّ به أن يكونوا مُوقِنين ومُقِرِّين بأنَّه ربُّ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما، فإنَّ إقرارَهم غيرُ صادرٍ عن علمٍ ويقينٍ ثابتٍ، بل هو كالعدمِ؛ لأنَّهم خلَطوه بالشَّكِّ واللَّعِبِ، فارتفعت عنه خاصِّيَّةُ اليقينِ والإقرارِ التي هي الجَرْيُ علىٰ مُوجَبِ العلمِ، فإنَّ العلمَ إذا لم يَجْرِ صاحبُه علىٰ العملِ به وتجديدِ ملاحظتِه، تطرَّق إليه الذُّهولُ ثم النِّسيانُ، فضعُف حتىٰ صار شكًّا؛ لانحجابِ الأدلَّةِ التي يَرسَخُ بها في النَّفسِ؛ أي: هم شاكُّون في وحدانيَّةِ اللهِ تعالىٰ(١).

فلمَّا قرَّر تعالىٰ ربوبيَّتَه وألوهيَّتَه بما يُوجِبُ العلمَ التَّامَّ ويدفعُ الشَّكَّ؛ أَخبَرَ عن الكافرين بقولِه: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾(٢).

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا موضعَ أن يقولَ الرسولُ ﷺ المفهومَ من السِّياقِ: فماذا صنع فيهم بعد هذا البيانِ، الذي لم يَدَعْ لبسًا لإنسانٍ؟ سبَّب عن ذلك قولَه تسليةً له وتهديدًا لهم: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾(٣).

تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ قُصد منه وعدُ الرسولِ ﷺ بانتقامِ اللهِ من مُكذِّبيه، ووعيدُ المشركين علىٰ جحودِهم بدلائلِ الوحدانيَّةِ وصدقِ الرسولِ، وعكوفِهم علىٰ اللَّعِبِ -أي: الاستهزاءِ بالقرآنِ والرسولِ-، وذُكر له مُخوِّفات للمشركين لإعدادِهم للإيمانِ وبطشة انتقامٍ من أئمَّتِهم تستأصلُهم(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٨٤).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٧٢).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ١٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٨٥).

﴿ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١ ﴾

ثم وصف الدُّخانَ بصفةٍ أخرىٰ، فقال: ﴿ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾.

﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢ ﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: فما قالوا حين تحقَّقوا ذلك؟ قيل: قالوا وقد انحلَّتْ عُرَىٰ تلك العزائمِ، ووَهَتْ تلك القوىٰ من كلِّ عازمٍ، وسَفَلَتْ بعد العُلُوِّ تلك الشَّوامخُ من الهِمَمِ، مُدَّعِينَ أنَّهم لغايةِ الإذعانِ من أهلِ القُرْبِ والرِّضوانِ: ﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴾[1].

حكايةُ قولِ الذين يغشاهم العذابُ بتقديرِ: يقولون: ﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ ﴾؛ أي: هو وعدٌ صادرٌ من النَّاسِ الذين يغشاهم العذابُ بأنَّهم يؤمنون إن كشَف عنهم العذابَ[2].

﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣ ﴾

ولمَّا كان كشفُ الآياتِ وإظهارُ العذابِ لا يفيدُ في الدَّلالةِ علىٰ الحقِّ أكثرَ ممَّا أفاده الرسولُ ﷺ بما أقامه من المعجزاتِ، بل إفادةُ الرسولِ أعظمُ؛ أُجِيبَ مَن كأنَّه سأل عن حالِهم عندَ ذلك بقولِه مُعرِضًا عن خطابِهم؛ إيذانًا بدوامِ مُصابِهم، لئلَّا يُظَنَّ أنَّه ما كشَف عنهم العذابَ إلَّا لظنٍّ أنَّهم صادقون: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٨٩).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ١٥).

هـذه الجملـةُ جعلهـا جميـعُ المفسِّـرين جوابًـا عـن قـولِ القـائلين: ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ تكـذيبًا لوعـدِهم؛ أي: هـم لا يتـذكَّرون، وكيـف يتـذكَّرون وقـد جاءهم ما هو أقوىٰ دلالةً من العذابِ؛ وهي دلائلُ صدقِ الرسولِ ﷺ[1].

ردٌّ لكلامِهـم واستدعائِهم الكشفَ، وتكـذيبٌ لهـم في الوعـدِ بالإيمـانِ المُنْبِـئِ عـن التَّذكُّرِ والاتِّعاظِ بما اعتراهم من الدَّاهيةِ[2].

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ ﴾

ولـمَّا كان الإعراضُ عنه -مع ما له من العَظَمةِ بالبيانِ- استخفافًا بـه وبمَـنْ جـاء مِـن بعدِه؛ أشار إلىٰ ذلك بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾[3].

﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ ﴾

ولـمَّا لفَت سبحانه الخطابَ عنهم إهانةً لهم؛ بيَّن أنَّ سببَه أنَّ داءَهم عُضالٌ، فليس له أبـدًا زوالٌ، فقـال مُؤكِّـدًا لاستبعادِهم زوالَ مـا هـم فيـه: ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾[4].

جـوابٌ مِـن جهتِـه تعـالىٰ عـن قـولِهم: ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ بطريـقِ الالتفاتِ؛ لمزيدِ التَّوبيخِ والتَّهديدِ، وما بينَهما اعتراضٌ[5].

ثم لـمَّا دَعَوُا اللهَ بأن يكشفَ عنهم العذابَ، وأنَّه إذا كشفه عنهم آمنوا؛ أجاب سبحانه عليهم بقولِه: ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾[6].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٩١).
(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ٦٠).
(٣) نظم الدرر (١٨/ ١٦).
(٤) نظم الدرر (١٨/ ١٧).
(٥) إرشاد العقل السليم (٨/ ٦١).
(٦) فتح القدير (٤/ ٦٥٥).

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

ولمَّا كان اليومُ قد يُرادُ به الزَّمنُ المجتمعُ في حكمٍ من الأحكام، وكان زمانُ الدُّخانِ -إنْ كان المرادُ به القحطَ الذي كان قبلَ يومِ بدرٍ، أو ما يَقرُبُ من السَّاعةِ- يُسمَّىٰ يومًا واحدًا لاتِّحادِ ذلك الحكمِ؛ أَبدَلَ من يومِ الدُّخانِ قولَه تهديدًا يشقُّ الأكبادَ: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾(١).

الجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن قولِه: ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾، فإنَّ السَّامعَ يُثارُ في نفسِه سؤالٌ عن جزائِهم حيث يعودون إلىٰ التَّولِّي والطَّعنِ، فأُجيبَ بأنَّ الانتقامَ منهم هو البطشةُ الكبرىٰ، وهي الانتقامُ التَّامُّ؛ ولأجل هذا التَّطلُّعِ والتَّساؤلِ أُكِّدَا بخبرٍ بحرفِ التَّأكيدِ دفعًا للتَّردُّدِ(٢).

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فلقد فتنَّاهم بإرسالِك إليهم ليكشفَ ذلك لمن لا يعلمُ الشَّيءَ إلَّا بعد وقوعِه عمَّا نعلمُه في الأَزَلِ، وفيما لا يزالُ ولم يزلْ، من بواطنِ أمورِهم، فتقوم الحُجَّةُ علىٰ مَن خالَفَنا علىٰ مقتضىٰ عاداتِكم؛ عطَف عليه -مُحذِّرًا لقريشٍ، ومُسلِّيًا للنَّبيِّ ﷺ- قولَه: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾(٣).

جعل اللهُ قصَّةَ قومِ فرعونَ مع موسىٰ عليه السلام وبني إسرائيلَ مَثَلًا لحالِ المشركين مع النبيِّ ﷺ والمؤمنين به، وجعل ما حَلَّ بهم إنذارًا بما سيَحِلُّ بالمشركين من القحطِ والبطشةِ، مع تقريبِ حصولِ ذلك وإمكانِه ويُسْرِه، وإن كانوا في حالةِ قُوَّةٍ، فإنَّ اللهَ

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٨).
(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٩٣).
(٣) نظم الدرر (١٨/ ١٨-١٩).

قادرٌ عليهم، فذِكْرُها هنا تأييدٌ للنَّبيِّ ﷺ ووعدٌ له بالنَّصرِ وحُسْنِ العاقبةِ، وتهديدٌ للمشركين[(١)].

اعلم أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ كُفَّارَ مكَّةَ مُصِرُّون علىٰ كفرِهم، بيَّن أنَّ كثيرًا من المتقدِّمين أيضًا كانوا كذلك، فبيَّن حصولَ هذه الصِّفةِ في أكثرِ قومِ فرعونَ[(٢)].

لمَّا ذكر تعالىٰ تكذيبَ مَن كذَّب الرسولَ محمدًا ﷺ؛ ذكر أنَّ لهم سلفًا من المكذِّبين، فذكر قِصَّتَهم مع موسىٰ، وما أَحَلَّ اللهُ بهم؛ ليرتدعَ هؤلاء المكذِّبون عمَّا هم عليه، فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾[(٣)].

﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا أَخبَرَ بمجيئِه إليهم بالرِّسالةِ التي لا تكونُ إلَّا بالقولِ؛ فسَّر ما بلَّغَهم منها بقولِه: ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[(٤)].

﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ تفسيرٌ لِما تضمَّنه وصفُ ﴿رَسُولٌ﴾ وفعلُ «جاءهم» من معنىٰ الرِّسالةِ والتَّبليغِ، ففيهما معنىٰ القولِ[(٥)].

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا كان استعبادُ عبدِ الغيرِ بغيرِ حقٍّ، في صورةِ العُلُوِّ علىٰ مالكِ العبدِ؛ قال: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[(٦)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٩٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٥٩).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٧٣).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٢٠).

(٥) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٩٥).

(٦) نظم الدرر (١٨/ ٢١-٢٢).

عطفٌ علىٰ طلبِ تسليمِ بني إسرائيلَ نهيًا عن الاستكبارِ عن إجابةِ أمرِ اللهِ أَنَفةً من الحظِّ من عَظَمتِه في أنظارِ قومِهم، فقال: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تَعْلُوا علىٰ أمرِه أو علىٰ رسولِه، فلمَّا كان الاعتلاءُ علىٰ أمرِ اللهِ وأمرِ رسولِه ترفيعًا لأنفسِهم علىٰ واجبِ امتثالِ ربِّهم؛ جُعلوا في ذلك كأنَّهم يَتعالَوْنَ علىٰ اللهِ(١).

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠﴾

ولمَّا كان من العجائبِ أن يقتلَ منهم نفسًا، ثم يخرجَ فارًّا منهم، ثم يأتيَ إليهم؛ لا سِيَّما إتيانًا يُقاهِرُهم فيه في أمرٍ عظيمٍ من غيرِ أن يقعَ بينهم وبينه ما يمحو ما تقدَّم منه؛ نبَّهَهم علىٰ إتيانِه هذا علىٰ هذا الحالِ آيةً أخرىٰ دالَّةً علىٰ السُّلطانِ، فقال -مُؤكِّدًا- تكذيبًا لظنِّهم أنَّه في قبضتِهم: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾(٢).

جملةُ ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿أَدُّوٓا۟ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ مضمونَ هذه الجملةِ ممَّا شَمِلَه كلامُه حينَ تبليغِ رسالتِه(٣).

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ۝٢١﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فإنْ آمنتم بذلك وسلَّمْتم لي أفلَحْتم؛ عطَف عليه قولَه: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِي فَٱعْتَزِلُونِ﴾(٤).

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ۝٢٢﴾

ولمَّا كان التقديرُ: لم يؤمنوا به ولا لأجلِه، ولم يعتزلوه، بل بَغَوْا له الغوائلَ(٥)،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٩٦).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٢٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٩٧).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٢٣).

(٥) أي: طلبوا له المصائبَ والدَّواهيَ.

وراموا أن يُواقِعوا به الدَّواهيَ والقواصمَ، فلم يقدروا علىٰ ذلك، وآذَوْا قومَه، وطالَ البلاءُ؛ سبَّب عنه قولَه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴾(1).

التَّعقيبُ المُفادُ بالفاءِ تعقيبٌ علىٰ محذوفٍ يقتضي هذا الدعاءَ؛ إذ ليس في المذكورِ قبلَ الفاءِ ما يُناسِبُه التَّعقيبُ بهذا الدعاءِ؛ إذ المذكورُ قبلَه كلامٌ من موسىٰ إليهم، فالتقديرُ: فلم يستجيبوا له فيما أمرهم، أو فأَصَرُّوا علىٰ أذاه وعدمِ مُتارَكَتِه، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ ﴾(2).

﴿ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ ﴾

ولمَّا كان ممَّن يستجيبُ دعاءَه ويُكرِمُ نداءَه؛ سبَّب عن ذلك قولَه: ﴿ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾(3).

تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴾، والمفرَّعُ قولٌ محذوفٌ دلَّتْ عليه صيغةُ الكلامِ؛ أي: فدعا، فقلنا: أَسْرِ بعبادي(4).

﴿ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ۝٢٤ ﴾

ولمَّا أمره بالإسراءِ، وعلَّلَه؛ أمره بما يفعلُ فيه، وعلَّله، فقال: ﴿ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴾(5).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا ﴾، فيجوزُ أن تكونَ الجملتانِ صَدَرَتا مُتَّصِلتَينِ بأنْ أَعلَمَ اللهُ موسىٰ -حينَ أمره بالإسراءِ- بأنَّه يضربُ البحرَ بعصاه، فينفلقُ عن

---

(1) نظم الدرر (١٨/ ٢٤).

(2) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٩٨-٢٩٩).

(3) نظم الدرر (١٨/ ٢٤).

(4) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٩٩).

(5) نظم الدرر (١٨/ ٢٦).

قَعْرِه اليابسِ حتىٰ يَمُرَّ منه بنو إسرائيلَ، كما ورد في آياتٍ أخرىٰ مِثلَ آيةِ سورةِ الشُّعراءِ. ولمَّا أمره بذلك؛ طمَّنه بأن لا يخشىٰ بقاءَه مُنفلِقًا فيتوقَّعَ أن يلحقَ به فرعونُ، بل يجتازَ البحرَ ويتركَه فإنَّه سيطغىٰ علىٰ فرعونَ وجُنْدِه فيغرقون، ففي الكلامِ إيجازٌ تقديرُه: فإذا سَرَيتَ بعبادي فسنفتحُ لكم البحرَ فتسلكونه، فإذا سلكتَه فلا تَخْشَ أن يلحقَكم فرعونُ وجُنْدُه، واترُكْه فإنَّهم مُغرَقون فيه. ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ الثَّانيةُ صدَرتْ وقتَ دخولِ موسىٰ ومَن معه في طرائقِ البحرِ، فيُقدَّرُ قولٌ محذوفٌ؛ أي: وقلنا له: اترُكِ البحرَ رَهْوًا -أي: سيدخلُه فرعونُ وجُنْدُه ولا يخرجون منه-؛ لأنَّ في بقائِه مفروقًا حكمةً أخرىٰ، وهي دخولُ فرعونَ وجُنْدِه في طرائقِه طمعًا منهم أن يلحقوا موسىٰ وقومَه، حتىٰ إذا توسَّطوه انضَمَّ عليهم، فتَحصُلُ فائدةُ إنجاءِ بني إسرائيلَ وفائدةُ إهلاكِ عَدُوِّهم، فتكونُ الواوُ عاطفةً قولًا محذوفًا علىٰ القولِ المحذوفِ قبلَه[(١)].

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥﴾

ولمَّا أَرشَدَ السِّياقُ -ولا بدَّ- إلىٰ تقديرِ: فأَسرَىٰ موسىٰ بعبادِ اللهِ كما أمره اللهُ، فتَبِعَهم آلُ فرعونَ كما أخبر سبحانه، ففتح اللهُ البحرَ بباهرِ قدرتِه، وأَمسَكَ ماءَه كالجدرانِ بقاهرِ عَظَمتِه، وترَكَه بعد طلوعِهم منه علىٰ حالتِه، فتَبِعَهم عبادُ الشَّيطانِ بما فاضَ عليهم من شقاوتِه، فأغرقهم اللهُ بعِزَّتِه، لم يُفلِتْ منهم أحدٌ؛ عبَّر سبحانه عن هذا كلِّه بقولِه علىٰ طريقِ الاستئنافِ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[(٢)].

استئنافٌ ابتدائيٌّ مَسُوقٌ للعِبرةِ بعواقبِ الظَّالمين المغرورين بما هم فيه من النِّعمةِ والقُوَّةِ، غرورًا أنساهم مراقبةَ اللهِ فيما يُرضِيه، فموقعُ هذا الاستئنافِ موقعُ النَّتيجةِ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٠٠).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٢٧).

من الدَّليلِ، أو البيانِ من الإجمالِ؛ لِما في قولِه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ من التَّنظيرِ الإجماليِّ[(١)].

﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

ثم ذكر ما يَنتُجُ عن العيونِ، فقال: ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾.

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾

ولمَّا كان ذلك قد يكونُ بتعبِ صاحبِه فيه؛ دلَّ على أنَّه كان بكَدِّ غيرِهم وهم في غايةِ التَّرفِ، وهذا هو الذي حملهم على اتِّباعِ مَن كان يكفيهم ذلك حتى أدَّاهم إلى الغرقِ؛ قال: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾[(٢)].

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا عظيمًا، لا يكادُ يُصدَّقُ أن يكونَ لأحدٍ؛ دلَّ على عِظَمِه وحصولِه لهم بقولِه: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾[(٣)].

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

ولمَّا كان الإهلاكُ يُوجِبُ أسفًا على المُهْلَكِين ولو من بعضِ النَّاسِ؛ ولا سِيَّما إذا كانوا جمعًا، فكيف إذا كانوا أهلَ مملكةٍ؛ ولا سِيَّما إذا كانوا في نهايةِ الرِّئاسةِ؟ أَخبَر بأنَّهم كانوا -لهوانِهم عندَه سُبحانَه وتعالى- على خلافِ ذلك، فسبَّب عمَّا مضى قولَه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٠١).
(٢) نظم الدرر (١٨/ ٢٨).
(٣) نظم الدرر (١٨/ ٢٨).
(٤) نظم الدرر (١٨/ ٢٩).

تفريعٌ على قولِه: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ ...﴾ إلى قولِه: ﴿قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨﴾، فإنَّ ذلك كلَّه يتضمَّنُ أنَّهم هلكوا وانقرضوا؛ أي: فما كان مُهْلكُهم إلَّا كمُهْلكِ غيرِهم، ولم يكنْ حدثًا عظيمًا كما كانوا يَحسَبون ويَحسَب قومُهم، وكان من كلامِ العربِ إذا هلك عظيمٌ أن يُهوِّلوا أمرَ موتِه بنحوِ: «بَكَتْ عليه السَّماءُ»، و«بَكَتْه الرِّيحُ»، و«تزَلْزَلَتِ الجبالُ»، والكلامُ مَسُوقٌ مساقَ التَّحقيرِ لهم[1].

﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ٣٠﴾

ولمَّا كان إنقاذُ بني إسرائيلَ من القِبْطِ أمرًا باهرًا لا يكادُ يُصدَّقُ، فضلًا عن أن يكونَ بإهلاكِ أعدائِهم؛ أكَّد سبحانه الإخبارَ بذلك إشارةً إلى ما يَحِقُّ له من العَظَمةِ؛ تنبيهًا على أنَّه قادرٌ أن يفعلَ بهذا النبيِّ ﷺ وأتباعِه كذلك، وإن كانت قريشٌ يرون ذلك مُحالًا وأنَّهم في قبضتِهم، فقال: ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾[2].

اعلم أنَّه تعالى لمَّا بيَّن كيفيَّةَ إهلاكِ فرعونَ وقومِه، بيَّن كيفيَّةَ إحسانِه إلى موسى وقومِه، واعلم أنَّ دفعَ الضَّررِ مُقدَّمٌ على إيصالِ النَّفعِ، فبدأ تعالى ببيانِ دفعِ الضَّررِ عنهم، فقال: ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾؛ يعني: قتلَ الأبناءِ، واستخدامَ النِّساءِ، والإتعابَ في الأعمالِ الشَّاقَّةِ[3].

ثم امتَنَّ تعالى على بني إسرائيلَ، فقال: ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾[4].

﴿مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾

ولمَّا تشوَّف السَّامعُ إلى صاحبِ ذلك العذابِ؛ قال مُبدِلًا ممَّا قبلَه إفهامًا لأنَّ فرعونَ نفسَه كان عذابًا لإفراطِه في أذاهم: ﴿مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٠٣).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٣١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٦١).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٧٧٣).

(٥) نظم الدرر (١٨/ ٣٢).

﴿ مِن فِرْعَوْنَ ﴾، وفيه وجهانِ؛ الأول: أن يكونَ التقديرُ: من العذابِ المُهِينِ الصَّادرِ من فرعونَ. الثَّاني: أن يكونَ «فرعونُ» بدلًا من «العذابِ المُهِينِ»، كأنَّه في نفسِه كان عذابًا مُهِينًا؛ لإفراطِه في تعذيبِهم وإهانتِهم[(١)].

﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ولمَّا كانت قريشٌ تفتخرُ بظواهرِ الأمورِ من الزِّينةِ والغرورِ، ويَعُدُّونه تعظيمًا من اللهِ، ويَعُدُّون ضعفَ الحالِ في الدنيا شقاءً وبُعْدًا من اللهِ؛ ردَّ عليهم قولَهم بما آتىٰ بني إسرائيلَ علىٰ ما كانوا فيه من الضَّعفِ وسوءِ الحالِ، بعد إهلاكِ آلِ فرعونَ بعذابِ الاستئصالِ، فقال مُؤكِّدًا لاستبعادِ قريشٍ أن يختارَ مَن قَلَّ حظُّه من الدنيا: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[(٢)].

لمَّا بيَّن اللهُ تعالىٰ أنَّه كيف دفع الضَّررَ عن بني إسرائيلَ؛ بيَّن كيف أوصل إليهم الخيراتِ، فقال: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[(٣)].

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

ولمَّا أعلَمَ باختيارِهم؛ بيَّن آثارَ الاختيارِ، فقال: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴾[(٤)].

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

ولمَّا ثبت بما مضىٰ أنَّه سبحانه مُتَّصِفٌ بالإحياءِ والإماتةِ، وكان إنكارُ ذلك عنادًا لا يستطيعُ أحدٌ يُثبتُ الإلهَ أن يُنكِرَه، وكان الإقرارُ بذلك في بعضٍ وإنكارُه في بعضٍ

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٦١).
(٢) نظم الدرر (١٨/ ٣٢).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٦١).
(٤) نظم الدرر (١٨/ ٣٣).

تحكُّمًا ومُخالِفًا لحاكمِ العقلِ وصارمِ النَّقلِ، وكان من الآياتِ التي أُوتُوها إحياؤهم بعدَ إماتتِهم حين طلبوا الرُّؤيةَ فأخذتهم الصَّاعقةُ، وحين خرجوا من ديارِهم وهم ألوفٌ حَذَرَ الموتِ، وكان ذلك هو البعثَ بعينِه، وكان العربُ يُنكِرونه ويُبالِغون في إنكارِهم له ولا يسألونهم عنه؛ قال مُوبِّخًا لهم، مُشيرًا بالتَّأكيدِ إلىٰ أنَّه لا يكادُ يُصدَّقُ أنَّ أحدًا يُنكِرُ ذلك؛ لِما له من الأدلَّةِ: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴾[(١)].

لمَّا هدَّدهم بعذابِ الدُّخانِ ثم بالبطشةِ الكبرىٰ، وضرب لهم المَثَلَ بقومِ فرعونَ؛ أَعقَبَ ذلك بالإشارةِ إلىٰ أنَّ إنكارَ البعثِ هو الذي صرَفَهم عن توقُّعِ جزاءِ السُّوءِ علىٰ إعراضِهم[(٢)].

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

ولمَّا كان قد تقدَّم قولُه تعالىٰ: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ وهم يعلمون أنَّ المرادَ به أن يتكرَّرَ منه الإحياءُ للشَّخصِ الواحدِ، فما كان منهم إلَّا أن قالوا: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾[(٣)].

ثم حكىٰ قولَهم: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾.

﴿ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا كانوا يزعمون أنَّ دعوىٰ الإحياءِ لا يصحُّ إلَّا إذا شاهدوا أحدًا من الأمواتِ الذين يعرفونه حيًّا بعدَ أن تمزَّق جِلْدُه وعِظامُه؛ سبَّبوا عن إنكارِهم مُخاطِبينَ للنَّبيِّ ﷺ ومَن تَبِعَه: ﴿ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٣٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٠٧).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٣٤-٣٥).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٣٦).

جعلوا قولَهم: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ حُجَّةً على نفي البعثِ بأنَّ الأمواتَ السَّابقين لم يرجعْ أحدٌ منهم إلى الحياةِ، وهو سَفْسَطةٌ؛ لأنَّ البعثَ الموعودَ به لا يَحصُلُ في الحياةِ الدنيا، وهذا من توركهم(١) واستهزائهم(٢).

ثم قالوا -مُتجرِّئين على ربِّهم، مُعجِزين له-: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٣).

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧)﴾

ولمَّا اجترأوا على هذه العَظيمةِ تنطُّعًا -لأنَّها لو وقَعتْ، لم يكنْ بأدلَّ على ثبوتِ النُّبُوَّةِ المستلزِمةِ لتصديقِ كلِّ ما يقولُ لهم الرسولُ ﷺ وما يأتيهم به من الآياتِ- غيرَ خائفين من اللهِ وهم يعلمون قُدْرَتَه وإهلاكَه للماضين لأجلِ تكذيبِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، كانوا كأنَّهم يَدَّعُون خصوصيَّتَه في مكنةٍ من عينٍ أو معنًى يَنْجُونَ بها من مساواةِ مَن قبلَهم في ذلك، فقال تعالى مُنكِرًا عليهم: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾(٤).

بعدَ أن ضرب لهم المَثَلَ بمُهْلَكِ قومِ فرعونَ؛ زادهم مَثَلًا آخَرَ هو أقربُ إلى اعتبارِهم به؛ وهو مُهْلَكُ قومٍ أقربَ إلى بلادِهم من قومِ فرعونَ، وأولئك قومُ تُبَّعٍ؛ فإنَّ العربَ يتسامعون بعَظَمةِ مُلْكِ تُبَّعٍ وقومِه أهلِ اليمنِ، وكثيرٌ من العربِ شاهدوا آثارَ قُوَّتِهم وعَظَمتِهم في مراحلِ أسفارِهم، وتَحادَثوا بما أصابهم من الهُلْكِ بسَيْلِ العَرِمِ(٥).

ثم أنذَرَهم تعالى بأسَه الذي لا يُرَدُّ، كما حَلَّ بأشباهِهم من المشركين، بقولِه سبحانه: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾(٦).

---

(١) أي: إنكارهم.
(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٠٨).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٧٤).
(٤) نظم الدرر (١٨/ ٣٦-٣٧).
(٥) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٠٨).
(٦) محاسن التأويل (٨/ ٤١٩).

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨﴾

ولمَّا كان التقديرُ للاستدلالِ على الجزاءِ الذي جامعُه التَّكفُّلُ بجميعِ أنحائه يومَ القيامة: فإنَّا ما خلقْنا النَّاسَ عبثًا، يَبغِي بعضُهم على بعضٍ ثم لا يُؤاخَذون؛ عطَف عليه ما هو أكبرُ في الظَّاهرِ منه، فقال: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[1].

ثم إنَّه تعالى ذكر الدَّليلَ القاطعَ على القولِ بالبعثِ والقيامةِ، فقال: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾، ولو لم يَحصُلِ البعثُ لكان هذا الخَلْقُ لَعِبًا وعبثًا[2].

﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾

ولمَّا نفى أن يكونَ خلَق ذلك اللَّعِبَ -الذي هو باطلٌ-؛ أَثبَتَ ما خَلَقَه له، ولم يُصرِّحْ بما في البَيْنِ؛ لأنَّه تابعٌ، وقد نبَّه عليه ما مضى، فقال مُستأنِفًا: ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[3].

﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٠﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: إنَّا نرى أكثرَ المظلومين يموتون بمريرِ غُصَصِهم مقهورين، وأكثرَ الظالمين يذهبون ظافرين بمطالبِهم مسرورين؛ فمتى يكونُ هذا الحقُّ؟ قال جوابًا لذلك، مُؤكِّدًا لأجلِ تكذيبِهم: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٣٨).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٦٢).
(٣) نظم الدرر (١٨/ ٣٩-٤٠).
(٤) نظم الدرر (١٨/ ٤٠-٤١).

هذه الجملةُ تتنزَّلُ من التي قبلَها منزلةَ النَّتيجةِ من الاستدلالِ؛ ولذلك لم تُعطَفْ، والمعنىٰ: فيومُ الفصلِ ميقاتُهم إعلامًا لهم بأنَّ يومَ القضاءِ هو أَجَلُ الجزاءِ، فهذا وعيدٌ لهم، وتأكيدُ الخبرِ لردِّ إنكارِهم (١).

اعلم أنَّ المقصودَ من قولِه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ إثباتُ القولِ بالبعثِ والقيامةِ، فلا جَرَمَ ذكَر عَقِيبه قولَه: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢).

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾

ولمَّا ذكَر هذا اليومَ -الذي دلَّ علىٰ عَظَمتِه- بهذه العبارةِ إفرادًا وتركيبًا؛ ذكَر مِن وصفِه ما يحملُ علىٰ الخوفِ والرَّجاءِ، فقال مُبدِلًا منه: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٣).

ثم وصف ذلك اليومَ، فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤).

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

ولمَّا نفىٰ الإغناءَ؛ استثنىٰ منه، فقال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (٥).

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾

ولمَّا كان السِّياقُ للانتقامِ؛ أَخبَرَ عن حالِ الفُجَّارِ علىٰ سبيلِ الاستئنافِ، فقال مُؤكِّدًا لِما يُكذِّبون به: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ (٦).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣١١).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٦٣).
(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤١).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٦٣).
(٥) نظم الدرر (١٨/ ٤٢).
(٦) نظم الدرر (١٨/ ٤٣).

لمَّا ذكَر اللهُ فريقًا مرحومين علىٰ وجهِ الإجمالِ؛ قابَلَه هنا بفريقٍ مُعذَّبين وهم المشركون، ووصف بعضَ أصنافِ عذابِهم وهو مأكلُهم وإهانتُهم وتحريقُهم، فكان مقتضىٰ الظَّاهرِ أن يُبتدَأ الكلامُ بالإخبارِ عنهم بأنَّهم يأكلون شجرةَ الزَّقُّومِ، فعدَل عن ذلك إلىٰ الإخبارِ عن شجرةِ الزَّقُّومِ بأنَّها طعامُ الأثيمِ؛ اهتمامًا بالإعلامِ بحالِ هذه الشَّجرةِ[1].

اعلم أنَّه تعالىٰ لمَّا أقام الدَّلالةَ علىٰ أنَّ القولَ بالقيامةِ حقٌّ، ثم أردفه بوصفِ ذلك اليومِ؛ ذكَر عَقِيبَه وعيدَ الكفارِ[2].

﴿طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ٤٤﴾

ثم ذكر آكلَها، فقال: ﴿طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ﴾.

﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ٤٥﴾

وبعدَ أن ذكر آكلَها، ذكر حالَ ثمرِها بعدَ أكلِها، فقال: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ﴾.

﴿كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٦﴾

ولمَّا كان للتَّذكيرِ بما يُعرَفُ شأنٌ عظيمٌ من الإقبالِ أو التَّنفيرِ، وإن كان دون ما شبَّه به؛ قال: ﴿كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣١٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٦٣).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٤).

﴿ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: ما للأثيمِ يأكلُ هذا الطَّعامَ، وما الحاملُ له عليه وعلىٰ مقاربةِ مكانِه؟ أُجيبَ بأنَّه مقهورٌ عليه، يقتضيه صفةُ العِزَّةِ فيه والرحمة لإعادته، بأنْ يُقال للزَّبانيةِ: ﴿ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾[(١)].

جملةُ ﴿ خُذُوهُ ... ﴾ إلخ، مَقُولٌ لقولٍ محذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ؛ أي: يُقالُ لملائكةِ العذابِ: ﴿ خُذُوهُ ﴾، والضَّميرُ المفردُ عائدٌ إلىٰ ﴿ ٱلۡأَثِيمِ ﴾ باعتبارِ آحادِ جنسِه[(٢)].

﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولمَّا أَفهَمَ هذا أنَّه صار في موضعٍ يُحيطُ به العذابُ فيه من جميعِ الجوانبِ؛ بيَّن أنَّ له نوعًا آخرَ من النَّكدِ رُتْبَتُه في العَظَمةِ ممَّا يَستحِقُّ العطفَ بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴾[(٣)].

﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

ولمَّا عُلم بهذا أنَّه لا يملكُ من أمرِ نفسِه شيئًا، بل وصل إلىٰ غايةِ الهوانِ؛ دلَّ عليه بالتَّهكُّمِ بما كان يظنُّ في نفسِه من العَظَمةِ التي كانت يترفَّعُ بها في الدنيا علىٰ أوامرِ اللهِ، فقيل بناءً علىٰ ما تقديرُه: يفعلُ به ذلك مَقُولًا له: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣١٥).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٥).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٤٦).

ثم يُقالُ للمُعذَّبِ: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ (١).

﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠ ﴾

ولمَّا دلَّ على أنَّه يُقالُ هذا لكلٍّ من الأثَماءِ، ويُفعَلُ به على حِدَتِه؛ دلَّ على ما يَعْمَوْنَ به، فقال -مُؤكِّدًا- ردًّا لتكذيبِهم، سائقًا لهم على وجهٍ مُفهِمٍ أنَّه عِلَّةُ ما ذكر من عذابِهم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ (٢).

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ ﴾

ولمَّا وصف سبحانه ما للمُبالِغِ في المساوِئ، وأَفرَدَه أوَّلًا إشارةً إلى قليلٍ في قومِ هذا النبيِّ الكريمِ الذي تَدارَكَهم اللهُ بدعوتِه تشريفًا له وإعلاءً لمقدارِه، وجمَع آخِرًا ذاكرًا من آثارِ ما استَحَقَّ به ذلك من مشاركةٍ في أوزارِه، ففُهِم أنَّ وصفَه انقضى، ومَرَّ ومضى، فتاقتِ النَّفسُ إلى تعرُّفِ ما لأضدادِه الذين خالفوه في مبدئِه ومعادِه؛ قال مُؤكِّدًا لِما لهم من التَّصديقِ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ (٣).

استئنافٌ ابتدائيٌّ انتقل به الكلامُ من وصفِ عذابِ الأثيمِ إلى وصفِ نعيمِ المتقين لمناسبةِ التَّضادِّ، على عادةِ القرآنِ في تعقيبِ الوعيدِ بالوعدِ، والعكسِ (٤).

اعلم أنَّه تعالى لمَّا ذكر الوعيدَ في الآياتِ المتقدِّمةِ، ذكر الوعدَ في هذه الآياتِ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ (٥).

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٧٤).
(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤٧).
(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٧).
(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣١٦).
(٥) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٦٥).

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٢﴾

ولمَّا كان الوصفُ بعدَ الوصفِ شديدَ التَّرغيبِ في الشَّيءِ؛ قال مُبدِلًا من ﴿مَقَامٍ﴾: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾[1].

﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٥٣﴾

ولمَّا كان قد أشار إلىٰ وصفِ ما للباطنِ من لذَّةِ النَّظرِ ولِباسِ الأكلِ والشُّربِ؛ أتبَعَه كِسْوةَ الظَّاهرِ وما لكُلٍّ من القُرْبِ، فقال: ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[2].

ثم ذكر القسمَ الثَّانيَ من تنعُّماتِهم من الملبوساتِ، فقال: ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[3].

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٥٤﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا يُبهِرُ العقلَ، فلا يكادُ يتصوَّرُه؛ قال مُؤكِّدًا له: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾[4].

ثم ذكر أزواجَهم بعدَ لباسِهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾.

وبعدَ ذِكْرِ اللِّباسِ الظَّاهرِ يأتي ذِكرُ اللِّباسِ الباطنِ، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٨).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٦٥).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٤٩).

﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ٥٥﴾

ولمَّا كان الإنسانُ في الدنيا يخشىٰ كُلْفةَ النَّفقاتِ؛ وصَف ما هنالك من سَعةِ الخيراتِ، فقال: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾[(١)].

ثم ذكَر أكلَهم بعدَ نكاحِهم، فقال: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٥٦﴾

ولمَّا ذكر الأمانَ، وكان أخوفُ ما يخافُ أهلُ الدنيا الموتَ؛ قال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾[(٢)].

جملةُ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ حالٌ أخرىٰ، وهذه بشارةٌ بخلودِ النَّعمةِ؛ لأنَّ الموتَ يقطعُ ما كان في الحياةِ من النَّعيمِ لأصحابِ النَّعيمِ، كما كان الإعلامُ بأنَّ أهلَ الشِّركِ لا يموتون نذارةً بدوامِ العذابِ[(٣)].

ولمَّا وصف اللهُ تعالىٰ أنواعَ ما هم فيه من الخيراتِ والرَّاحاتِ؛ بيَّن أنَّ حياتَهم دائمةٌ، فقال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾[(٤)].

﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٥٧﴾

ولمَّا كان السِّياقُ للمتقين، فكان ربما ظُنَّ أنَّ هذا الذي فعَل بهم حقٌّ لهم لا بدَّ ولا مَحِيدَ عنه؛ بيَّن أنَّ الأمرَ علىٰ غيرِ ذلك، وأنَّه سبحانه لو واخَذَهم ولم يُعامِلْهم بفضلِه وعفوِه لَهلَكوا، فقال: ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٩).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٥٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣١٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٦٦).

(٥) نظم الدرر (١٨/ ٥٤).

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾

ولمَّا قدَّم سبحانه في هذه السورةِ ما للقرآنِ من البركةِ -بما اشتمَل عليه من البشارةِ والنِّذارةِ، والجمعِ والفرقِ-، وذكَّرهم بما يُقِرُّون به من أنَّه مُبدِعُ هذا الكونِ -ممَّا يستلزمُ إقرارَهم بتوحيدِه المُسْتلزِمِ لأنَّه يفعلُ ما يشاءُ؛ من إرسالٍ، وإنزالٍ، وتنبيهٍ، وبعثٍ، وغيرِ ذلك-، وهدَّدهم بما لا يقدرُ عليه غيرُه من الدُّخانِ والبطشةِ، وفعَل بعضَ ذلك، وذكَّرهم بما يعرفون من أخبارِ مَن مضىٰ من قُرُومِ[١] القرونِ، وأنَّهم مع ذلك كلِّه أنكروا البعثَ، ثم ذكر ما يقتضي التَّحذيرَ والتَّبشيرَ؛ كلُّ ذلك في أساليبَ فاتت كلَّ المدىٰ، فأعجَزتْ جميعَ القوىٰ، مع ما لها من المعاني الباهرةِ، والبدائعِ الزَّاهرةِ القاهرةِ؛ سبَّب عن قولِه فَذْلكةً للسورةِ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٢].

الفاءُ للتَّفريعِ إشارةً إلىٰ أنَّ ما بعدَها مُتفرِّعٌ عمَّا قبلَها؛ حيث كان المذكورُ بعدَ الفاءِ فَذْلكةً للسورةِ؛ أي: إجمالٌ لأغراضِها بعدَ تفصيلِها فيما مضىٰ؛ إحضارًا لتلك الأغراضِ، وضبطًا لترتُّبِ عِلَّتِها[٣].

ولمَّا بيَّن اللهُ تعالىٰ الدَّلائلَ، وشرح الوعدَ والوعيدَ؛ قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، والمعنىٰ: أنَّه تعالىٰ وصف القرآنَ في أوَّلِ هذه السورةِ بكونِه كتابًا مبينًا؛ أي: كثيرَ البيانِ والفائدةِ، وذكَر في خاتمتِها ما يُؤكِّدُ ذلك فقال: إنَّ ذلك الكتابَ المبينَ الكثيرَ الفائدةِ إنَّما يسَّرْناه بلسانِك؛ أي: إنَّما أنزَلْناه عربيًّا بلُغَتِك؛ لعلَّهم يتذكَّرون[٤].

---

(١) قروم: جمع قَرْم، وهو السيد المعظم.

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٥٤-٥٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٢٠).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٦٧).

﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ۝٥٩ ﴾

فإذا تذكَّروا ذلك -مع ما يعرفون من قدرةِ المَلِكِ وكبريائِه وحكمتِه-؛ عَلِمُوا قطعًا أنَّه لا بدَّ من البعثِ؛ للتَّمييزِ بين أهلِ الصَّلاحِ والفسادِ، والفصلِ بينَ جميعِ العبادِ، فتسبَّب عن ذلك قولُه: ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾[1].

وباعتبارِ هذه المعاني المتوافرةِ، حسُن أن يُفرِّعَ علىٰ هذه الجملةِ تأييدَ النبيِّ ﷺ وتهديدَ مُعانِديه بقولِه: ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾؛ أي: فارتقِبِ النَّصرَ الذي سألته بأن تُعانَ عليهم بسِنِينَ كسِنِي يوسفَ؛ فإنَّهم مُرتقِبون ذلك وأشدَّ منه؛ وهو البطشةُ الكبرىٰ. وفي هذه الخاتمةِ ردُّ العَجُزِ علىٰ الصَّدرِ؛ إذ كان صدرُ السورةِ فيه ذِكرُ إنزالِ الكتابِ المبينِ، وأنَّه رحمةٌ من اللهِ، بواسطةِ رسالةِ محمدٍ ﷺ، وكان في صدرِها الإنذارُ بارتقابِ يومِ تأتي السَّماءُ بدخانٍ مبينٍ، وذِكْرُ البطشةِ الكبرىٰ؛ فكانت خاتمةُ هذه السورةِ خاتمةً عزيزةَ المنالِ، اشتملت علىٰ حُسْنِ براعةِ المقطعِ وبديعِ الإيجازِ[2].

(١) نظم الدرر (١٨/ ٥٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٢٢).

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾

ولمَّا كان كتابُه عزيزًا حكيمًا، لا كما تقولُ الكَفَرةُ من أنَّه شِعرٌ أو كذبٌ أو كِهانةٌ؛ لأنَّه لا حكمةَ لذلك ولا عِزَّةَ بحيث يلتبسُ أمرُه بأمرِ هذا الكتابِ المحيطِ بدائرةِ الحكمةِ والصَّوابِ، ودَلَّ بشواهدِ القدرةِ وآثارِ الصَّنعةِ من نسخةِ هذا الكتابِ على الصِّفتينِ، وعلى وحدانيَّتِه فيهما اللازمِ منه تفرُّدُه المطلقُ، فقال مُؤكِّدًا لأجلِ مَن يُنكِرُ ذلك ولو بالعملِ، وترغيبًا في تدقيقِ النَّظرِ بتأمُّلِ آياتِ الوجودِ التي هذا الكتابُ شرحٌ لمُغْلَقِها وتفصيلٌ لمُجْمَلِها، وإيماءً إلى أنَّها أهلٌ لصرفِ الأفكارِ إلى تأمُّلِها: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

موقعُ هذا الكلامِ موقعُ تفصيلِ المُجمَلِ لِما جمَعَتْه جملةُ ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ باعتبارِ أنَّ آياتِ السَّماواتِ والأرضِ وما عُطف عليها إنَّما كانت آياتٍ للمؤمنين المُوقِنين، وللذين حصَل لهم العلمُ بسببِ ما ذكَّرهم به القرآنُ[2].

ثم أَخبَرَ سبحانه بما يدلُّ على قدرتِه الباهرةِ، فقال: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٢٦).

(٣) فتح القدير (٥/ ٥).

ثم أيَّد ذلك بما ذكره من الآياتِ الأُفُقِيَّةِ والنَّفسيَّةِ من خلقِ السَّماواتِ والأرضِ، فقال: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾

ولمَّا نبَّه بخلقِ السَّماواتِ والأرضِ؛ أَتبعَ بذِكْرِ ما بثَّ في الأرضِ، فقال: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[2].

ولمَّا ذكَّر سبحانه بالنَّظرِ في آياتِ الآفاقِ؛ أَتبعَها آياتِ الأنفُسِ، فقال: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[3].

عطفُ جملةِ ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ ...﴾ إلخ على جملةِ ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفُ خاصٍّ على عامٍّ؛ لِما في هذا الخاصِّ من التَّذكيرِ بنعمةِ إيجادِ النَّوعِ استدعاءً للشُّكرِ عليه[4].

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾

ولمَّا ذكَر الظَّرفَ وما خلَق لأجلِه من النَّاسِ، وضَمَّ إليهم بعضَ ما خلقه لأجلِهم لشرفِه بالحياةِ؛ أَتبعَه ما أَودعَ الظَّرفَ من المرافقِ لأجلِ الحيوانِ، فقال: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[5].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٧٥).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٦٤).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٦٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٢٧).

(٥) نظم الدرر (١٨/ ٦٥).

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

ولمَّا ذكر هذه الآياتِ العظيماتِ، وكانت كلُّها مُشتركةً في العِظَمِ، بعدَ ما أشار إلىٰ تباينِ رُتَبِها في الخفاءِ والجلاءِ بفواصلِها؛ قال مُشيرًا إلىٰ عُلُوِّ رُتَبِها بأداةِ البُعْدِ: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١).

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾

ولمَّا كان لا يبقىٰ علىٰ الكفرِ نوعَ بقاءٍ -فضلًا عن الإصرارِ- بعدَ هذا البيانِ إلَّا مَن يَستحِقُّ النَّكالَ لمجاهرتِه بالعنادِ؛ قال علىٰ وجهِ الاستنتاجِ مُهدِّدًا: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ (٢).

أَعقبَ ذِكرَ المؤمنين المُوقِنين العاقلين، المنتفِعين بدلالةِ آياتِ اللهِ وما يفيدُه مفهومُ تلك الصِّفاتِ التي أُجرِيَتْ عليهم من تعريضٍ بالذين لم ينتفعوا بها، بصريحِ ذِكرِ أولئك الذين لم يؤمنوا ولم يعقلوها، كما وصَف لذلك قولُه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (٣).

اعلم أنَّه تعالىٰ لمَّا بيَّن الآياتِ للكُفَّارِ، وبيَّن أنَّهم بأيِّ حديثٍ بعدَه يؤمنون إذا لم يؤمنوا بها مع ظهورِها؛ أَتبعَه بوعيدٍ عظيمٍ لهم، فقال: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ (٤).

﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾

ثم فسَّر هذا بقولِه: ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٥).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٦٨).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٦٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٣١).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٧٢).

(٥) نظم الدرر (١٨/ ٦٩).

وجُعِلتْ حالتُه أنَّه يسمعُ آياتِ اللهِ ثم يُصِرُّ مُستكبِرًا؛ لأنَّ تلك الحالةَ -وهي حالةُ تكرُّرِ سماعِه آياتِ اللهِ، وتكرُّرِ إصرارِه مُستكبِرًا عنها- تحملُه على تكريرِ تكذيبِ الرسولِ ﷺ وتكريرِ الإثمِ، فلا جَرَمَ أن يكونَ أفَّاكًا أثيمًا؛ بَلْهَ ما تلبَّس به من الشِّركِ الذي كلُّه كذبٌ وإثمٌ[1].

ثم وصَف الأفَّاكَ الأثيمَ بقولِه: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾

ولمَّا بيَّن تعالىٰ كفرَه بما يسمعُ من الآياتِ؛ أتبعَه ما هو أعمُّ منه، فقال: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[2].

واعلم أنَّ هذا الأثيمَ له مقامانِ؛ المقامُ الأوَّلُ: أن يبقىٰ مُصِرًّا علىٰ الإنكارِ والاستكبارِ، فقال تعالىٰ: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾، والمقامُ الثَّاني: أن ينتقلَ من مقامِ الإصرارِ والاستكبارِ إلىٰ مقامِ الاستهزاءِ، فقال: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3].

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠﴾

ثم قال مُبيِّنًا للعذابِ: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٣١).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٧١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٧٢).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٧١).

جملةُ ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ﴾ بيانٌ لجملةِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وفي قولِه: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ﴾ تحقيقٌ لحصولِ العذابِ، وكونُه قريبًا منهم، وأنَّهم غافلون عن اقترابه كغفلةِ المرءِ عن عَدُوٍّ يتبعُه من ورائِه ليأخذَه، فإذا نظر إلىٰ أمامِه حَسِبَ نفسَه آمنًا(١).

ثم فسَّر العذابَ الحاصلَ له يومَ معادِه، فقال: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

﴿هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

ولـمَّا أَخبَرَ عمَّا لمن أَعرَضَ عن الآياتِ بما هو أجلُّ موعظة وأَردَعُ زاجر عن الضَّلالِ؛ قال مُشيرًا إلىٰ ما افتتَح به الكلامَ من المتلوِّ الذي هذا منه: ﴿هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾(٣).

جملةُ ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ انتُقل به من وصفِ القرآنِ في ذاتِه بأنَّه مُنزَّل من اللهِ وأنَّه من آياتِ اللهِ، إلىٰ وصفِه بأفضلِ صفاتِه بأنَّه هُدًىٰ(٤).

فلمَّا بيَّن آياتِه القرآنيَّةَ والعِيانيَّةَ، وأنَّ النَّاسَ فيها علىٰ قسمينِ؛ أَخبَرَ أنَّ القرآنَ المُشتمِلَ علىٰ هذه المطالبِ العاليةِ؛ أنَّه هُدًىٰ، فقال: ﴿هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾(٥).

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

ولـمَّا ذكَر ﷻ صفةَ الرُّبوبيَّةِ؛ ذكَر بعضَ آثارِها وما فيها من آياتِه، فقال مُستأنِفًا دالًّا

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٣٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٦٥).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٧٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٣٤).

(٥) تفسير السعدي (ص: ٧٧٥).

علىٰ عَظَمَتِها بالاسمِ الأعظمِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

استئنافٌ ابتدائيٌّ للانتقالِ من التَّذكيرِ بما خلَق اللهُ من العوالمِ وتصاريفِ أحوالِها من حيث إنَّها دلالاتٌ علىٰ الوحدانيَّةِ، إلىٰ التَّذكيرِ بما سخَّر اللهُ للنَّاسِ من المخلوقاتِ وتصاريفِها من حيث كانت منافعُ النَّاسِ تقتضي أن يشكروا مُقدِّرَها فجَحَدُوا بها إذ توجَّهوا بالعبادةِ إلىٰ غيرِ المنعِمِ عليهم(٢).

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

ولمَّا ذكَر آيةَ البحرِ لعظَمَتِها؛ عمَّ بمنافعِ الخافقينِ(٣) دلالةً علىٰ أنَّه ما خلَق ذلك كلَّه -علىٰ عِظَمِه- إلَّا لنا؛ تنبيهًا علىٰ أنَّ الأمرَ عظيمٌ، فقال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٤).

هذا تعميمٌ بعدَ تخصيصٍ، اقتضاه الاهتمامُ أوَّلًا ثم التَّعميمُ ثانيًا. و﴿مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عامٌّ مخصوصٌ بما تَحصَّلَ للنَّاسِ فائدةٌ من وجودِه؛ كالشَّمسِ للضِّياءِ، والمطرِ للشَّرابِ، أو من بعضِ أحوالِه؛ كالكواكبِ للاهتداءِ بها في ظلماتِ البرِّ والبحرِ، والشَّجرِ للاستظلالِ، والأنعامِ للرُّكوبِ والحرثِ، ونحوِ ذلك. وأمَّا ما في السَّماواتِ والأرضِ ممَّا لا يفيدُ النَّاسَ؛ فغيرُ مرادٍ؛ مِثلَ الملائكةِ في السَّماءِ، والأَهْوِيَةِ المُنحبِسةِ في باطنِ الأرضِ التي يأتي منها الزِّلزالُ(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٧٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٣٥).

(٣) أي: السَّماء والأرض.

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٧٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٣٧).

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

ولمَّا عُلِمتْ دلائلُ التَّوحيدِ علىٰ وجهٍ عُلم منه أنَّه قد بسَط نِعَمَه علىٰ جميعِ خلقِه طائعِهم وعاصيهم، فعُلِمَتْ بواسطةِ ذلك الأخلاقُ الفاضلةُ والأفعالُ الحميدةُ، وكان علىٰ المُقْبِلِ عليه المُحِبِّ له التَّخلُّقُ بأوصافِه؛ أنتجَ قولَه -مُخاطِبًا لأفهمِ خلقِه عنه وأطوعِهم له-: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(١).

مناسبةُ وقعِها هنا أنَّ قولَه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾ إلىٰ قولِه: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ يُثيرُ غضبَ المسلمين علىٰ المستهزئين بالقرآنِ. وقد أخذ المسلمون يَعتزُّون بكثرتِهم، فكان ما ذُكر -من استهزاءِ المشركين بالقرآنِ، واستكبارِهم عن سماعِه- يُتوقَّعُ منه أن يبطشَ بعضُ المسلمين ببعضِ المشركين، ويحتملُ أن يكونَ بدَر من بعضِ المسلمين غضبٌ أو توعُّدٌ، وأنَّ اللهَ عَلِمَ ذلك من بعضِهم(٢).

اعلم أنَّه تعالىٰ لمَّا علَّم عبادَه دلائلَ التَّوحيدِ والقدرةِ والحكمةِ؛ أَتبعَ ذلك بتعليمِ الأخلاقِ الفاضلةِ والأفعالِ الحميدةِ، بقولِه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(٣).

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

ولمَّا رغَّب سبحانه ورهَّب، وتقرَّر أنَّه لا بدَّ من الجزاءِ؛ زاد في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ بأنَّ النَّفعَ والضَّرَّ لا يَعدُوهم، فقال شارحًا للجزاء: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٧٧-٧٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٣٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٧٣).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٨٢).

تفصيلٌ للإجمالِ الذي في قولِه: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ ولذلك فُصلت الجملةُ ولم تُعطَفْ علىٰ سابقتِها(١).

ثم ذكر المؤمنين وأعمالَهم، والمشركين وأعمالَهم، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾(٢).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

ولمَّا عُلم بهذه الحِكَمِ ما افتُتِحَتْ به السُّورةُ من أنَّ مُنزِلَ هذا الكتابِ عزيزٌ حكيمٌ، فكان التقديرُ فَذْلَكةً لذلك: فلقد آتيناك الكتابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ، وفضَّلْناك وأُمَّتَك علىٰ العالمين، وأرسَلْناك لتُنبِّهَ النَّاسَ علىٰ ما أمامَهم، وكان قومُه -بعدَ ائتلافِهم علىٰ الضَّلالِ- قد اختلفوا بهذا الكتابِ الذي كان ينبغي لهم أن يشتدَّ اجتماعُهم به واستنصارُهم من أجلِه؛ عطف عليه -مُسلِّيًا- قولَه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(٣).

اعلم أنَّه تعالىٰ بيَّن أنَّه أَنعَمَ بنِعَمٍ كثيرةٍ علىٰ بني إسرائيلَ، مع أنَّه حصل بينهم الاختلافُ علىٰ سبيلِ البَغْيِ والحسدِ، والمقصودُ أن يُبيِّنَ أنَّ طريقةَ قومِه كطريقةِ مَن تقدَّم(٤).

﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

ثم ذكَر لهم تفضيلًا آخَرَ بإعطائِهم دلائلَ ظاهرةً في أمرِ دينِهم ومُعجِزاتٍ قاهرةً، فقال: ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٤٢).

(٢) فتح القدير (٥/ ٨).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٨٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٧٤).

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

ولمَّا كان معنىٰ هذا: أنَّه ﷻ جعل بني إسرائيلَ علىٰ شريعةٍ، وهدَّدهم علىٰ الخلافِ فيها، فكان تهديدُهم تهديدًا لنا؛ قال مُصرِّحًا بما اقتضاه سَوْقُ الكلامِ وغيرُه من تهديدِنا، مُنبِّهًا علىٰ عُلُوِّ شريعتِنا: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١).

﴿ ثُمَّ ﴾ للتَّراخي الرُّتْبيِّ، كما هو شأنُها في عطفِ الجُمَلِ، ولولا إرادةُ التَّراخي الرُّتْبيِّ لكانت الجملةُ معطوفةً بالواوِ، وهذا التَّراخي يفيدُ أنَّ مضمونَ الجملةِ المعطوفةِ بحرفِ ﴿ ثُمَّ ﴾ أهمُّ من مضمونِ الجملةِ المعطوفِ عليها أهمِّيَّةَ الغرضِ علىٰ المقدِّمةِ، والنَّتيجةِ علىٰ الدَّليلِ. وفي هذا التَّراخي تنويهٌ بهذا الجعلِ، وإشارةٌ إلىٰ أنَّه أفضلُ من إيتاءِ بني إسرائيلَ الكتابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ والبيِّناتِ من الأمرِ، فنُبُوَّةُ محمدٍ ﷺ وكتابُه وحُكْمُه وبيِّناتُه أفضلُ وأهدىٰ ممَّا أُوتِيَهُ بنو إسرائيلَ من مِثْلِ ذلك(٢).

لمَّا ذكَر تعالىٰ إنعامَه علىٰ بني إسرائيلَ، واختلافَهم بعدَ ذلك؛ ذكَر حالَ نبيِّه عليه الصلاة والسلام وما مَنَّ به عليه من اصطفائِه، فقال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٣).

ولمَّا بيَّن تعالىٰ أنَّهم أَعرَضوا عن الحقِّ لأجلِ البغيِ والحسدِ؛ أمر رسولَه ﷺ بأن يعدلَ عن تلك الطَّريقةِ، وأن يتمسَّكَ بالحقِّ، وأن لا يكونَ له غرضٌ سوىٰ إظهارِ الحقِّ وتقريرِ الصِّدقِ، فقال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٨٦-٨٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٤٧).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٤١٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٧٥).

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾

ثم علَّل هذا النَّهيَ مُهدِّدًا بقولِه مُؤكِّدًا تنبيهًا علىٰ أنَّ مَن خالَف أمرَ اللهِ لأجلِ أحدٍ كان عملُه عملَ مَن يظنُّ أنَّه يحميه: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾[1].

جملةُ ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ تعليلٌ للنَّهيِ عن اتِّباعِ أهواءِ الذين لا يعلمون، ويتضمَّنُ تعليلَ الأمرِ باتِّباعِ شريعةِ اللهِ، فإنَّ كونَهم لا يُغْنُونَ عنه من اللهِ شيئًا يستلزمُ أنَّ في مخالفةِ ما أمر اللهُ من اتِّباعِ شريعتِه ما يُوقِعُ في غضبِ اللهِ وعقابِه، فلا يُغني عنه اتِّباعُ أهوائِهم من عقابِه[2].

﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

ولمَّا أَوصَلَ -سبحانه- إلىٰ هذا الحدِّ من البيانِ، الفائتِ لقوىٰ الإنسانِ؛ قال مُترجِمًا عنه: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[3].

إن كانت الإشارةُ إلىٰ الكلامِ المتقدِّمِ، وما فيه من ضربِ المثلِ بموسىٰ وقومِه، ومن تفضيلِ شريعةِ محمدٍ ﷺ علىٰ شريعةِ موسىٰ عليه السلام، والأمرِ بملازمةِ اتِّباعِها، والتَّحذيرِ من اتِّباعِ رغائبِ الذين لا يعلمون؛ فهذه الجملةُ بمنزلةِ التَّذييلِ لِما قبلَها، والتَّهيئةِ لأغراضِها؛ تنبيهًا لِما في طَيِّها من عواصمَ عن الشَّكِّ والباطلِ. وإن كانت الإشارةُ إلىٰ القرآنِ -إذ هو حاضرٌ في الأذهانِ-؛ كانت الجملةُ استئنافًا أُعِيدَ بها التَّنويهُ بشأنِ القرآنِ ومُتَّبِعيه، والتَّعريضُ بتحميقِ الذين أَعرَضوا عنه، وتكونُ مفيدةً

(١) نظم الدرر (١٨/ ٨٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٤٧).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٨٩).

تأكيدَ قولِه آنفًا: ﴿ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾، وتكونُ الجملةُ المتقدِّمةُ صريحةً في وعيدِ الذين كفروا بآياتِه، وهذه تعريضًا بأنَّهم لم يَحْظَوْا بهذه البصائرِ. وكلا الاحتمالينِ رشيقٌ، وكلٌّ بأن يكونَ مقصودًا حَقِيقٌ[1].

ولمَّا بيَّن اللهُ تعالىٰ هذه البيِّناتِ الباقيةَ النَّافعةَ؛ قال: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[2].

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ -بعدَ هذا البيانِ الذي لم يَدَعْ لبسًا في أمرِ الحسابِ، بما حَدَّه من المُلْكِ الذي يُوجِبُ ما له من العَظَمةِ والحكمةِ، أن يُحاسِبَ عبيدَه لثوابِ المحسنِ وعقابِ المُسِيءِ-: أُعلِمَ هؤلاء المُخاطَبون -لأنَّهم لا يَعْدُون أن يكونوا من النَّاسِ، أو من الذين يُوقِنون بهذه البصائرِ؛ لِما لهم من حُسْنِ الغرائزِ المُعْلِيةِ لهم عن حضيضِ الحيوانِ إلىٰ أَوْجِ الإنسانِ- أنَّا نُفرِّقُ بين المُسِيئين الذين بعضُهم أولياءُ بعضٍ، وبينَ المحسِنين الذين نحن أولياؤهم؛ عطَف عليه ﷻ قولَه: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[3].

انتقالٌ من وصفِ تكذيبِهم بالآياتِ واستهزائِهم بها، ثم من أمرِ المؤمنين بالصَّفْحِ عنهم وإيكالِ جزاءِ صنائعِهم إلىٰ اللهِ، ثم من التَّثبيتِ علىٰ ملازمةِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ، إلىٰ وصفِ صِنْفٍ آخَرَ من ضلالِهم واستهزائِهم بالوعدِ والوعيدِ،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٥٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٧٥).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٨٩-٩٠).

وإحالتِهم الحياةَ بعدَ الموتِ والجزاءَ على الأعمالِ، وتخييلِهم للنَّاسِ أنَّهم يصيرون في الآخرةِ على الحالِ التي كانوا عليها في الدنيا، عظيمُهم في الدنيا عظيمُهم في الآخرةِ، وضعيفُهم في الدنيا ضعيفُهم في الآخرةِ، وهذا الانتقالُ رجوعٌ إلى بيانِ قولِه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[1].

ولمَّا بيَّن اللهُ تعالى الفرقَ بين الظَّالمين وبين المتقين من الوجهِ الذي تقدَّم؛ بيَّن الفرقَ بينَهما من وجهٍ آخرَ، فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[2].

استئنافٌ مَسُوقٌ لبيانِ تباينِ حالَيِ المُسِيئين والمحسِنين إثرَ بيانِ تباينِ حالَيِ الظَّالمين والمتقين[3].

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا أنكرَ التَّسويةَ، وذمَّهم على الحكمِ بها؛ أتبعَ ذلك الدَّليلَ القطعيَّ على أنَّ الفريقينِ لا يستويانِ، وإلَّا لَما كان الخالقُ لهذا الوجودِ عزيزًا ولا حكيمًا، فقال دالًّا على إنكارِ التَّسويةِ وسوءِ حكمِهم بها، عاطفًا على ما تقديرُه: فقد خلق اللهُ النَّاسَ كلَّهم بالحقِّ، وهو الأمرُ الثَّابتُ الذي يُطابِقُه الواقعُ، وهو ثباتُ أعمالِ المحسِنين وبطلانُ أفعالِ المُسِيئين؛ عطفَ عليه قولَه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[4].

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٥١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٧٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ٧٢).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٩١).

جملةٌ مُعترِضةٌ، كالدَّليلِ علىٰ انتفاءِ أن يكونَ الذين اجترَحوا السَّيِّئاتِ، الذين هم في بُحْبُوحةِ عيشٍ مُدَّةَ حياتِهم، أن يكونوا في نعيمٍ بعدَ مماتِهم كالذين آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ مُدَّةَ حياتِهم فكان جزاؤهم النَّعيمَ بعدَ مماتِهم؛ أي: بعدَ حياتِهم الثَّانيةِ بأنَّ خلقَ السَّماواتِ والأرضِ بالعدلِ يستدعي التَّفاوتَ بينَ المُسِيءِ والمُحسِنِ، والانتصافَ للمُعتدَىٰ عليه من المُعتدِي. ووجهُ الاستدلالِ: أنَّ خلقَ السَّماواتِ والأرضِ تبيَّن كونُه في تمامِ الإتقانِ والنِّظامِ، بحيثُ إنَّ دلائلَ إرادةِ العدلِ في تصاريفِها قائمةٌ، وما أَودَعَه الخالقُ في المخلوقاتِ من القوىٰ مُناسِبٌ لتحصيلِ ذلك النِّظامِ الذي فيه صلاحُهم، فإذا استعملوها في الإفسادِ والإساءةِ كان من إتمامِ إقامةِ النِّظامِ أن يُعاقَبوا علىٰ تلك الإساءةِ، والمُشاهَدُ أنَّ المُسِيءَ كثيرًا ما عكف علىٰ إساءتِه حتىٰ المماتِ، فلو لم يكنِ الجزاءُ بعدَ الموتِ؛ حصَل اختلالٌ في نظامِ خلقِ المخلوقاتِ، وخلقِ القوىٰ الصَّادرِ عنها الإحسانُ والإساءةُ، وهذا المعنىٰ تكرَّر في آياتٍ كثيرةٍ، وكُلَّما ذُكر شيءٌ منه أُتبِعَ بذِكرِ الجزاءِ[(١)].

اعلم أنَّه تعالىٰ لمَّا أفتىٰ بأنَّ المؤمنَ لا يساوي الكافرَ في درجاتِ السَّعاداتِ، أَتبَعَه بالدَّلالةِ الظَّاهرةِ علىٰ صحَّةِ هذه الفتوىٰ، فقال: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[(٢)].

استئنافٌ مُقرِّرٌ لِما سبق من الحكمِ، فإنَّ خلقَ اللهِ تعالىٰ لهما ولِما فيهما بالحقِّ المقتضِي للعدلِ يستدعي لا محالةَ تفضيلَ المُحسِنِ علىٰ المُسِيءِ في المحيا والمماتِ، وانتصارَ المظلومِ من الظَّالمِ، وإذا لم يطَّرِدْ ذلك في المحيا فهو بعدَ المماتِ حتمًا[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٥٥-٣٥٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٧٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ٧٢).

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا بيَّن غايةَ البيانِ أنَّه الإلهُ وحدَه بما له من الإحاطةِ بجميعِ صفاتِ الكمالِ، وأنَّه لا بدَّ من جمعِه الخلائقَ ليومِ الفصلِ للحكمِ بينَهم بما له من الحكمةِ والقدرةِ، وحقَّر الهوىٰ ونهىٰ عن اتِّباعِه، وكانوا هم قد عظَّموه بحيث جعلوه معبودًا، فلَزِمَ من ذلك تحقيرُهم الإلهَ، ولم يرجعوا عن ضلالِهم؛ تسبَّب عن ذلك التَّعجيبُ ممَّن يظنُّ أنَّه يقدرُ علىٰ ردِّ أحدٍ منهم عن غيِّه بشيءٍ من الأشياءِ، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

لمَّا كان الذين حَسِبوا أن يكونوا في الآخرةِ في نعمةٍ وعِزَّةٍ كما كانوا في الدنيا قالوا ذلك عن غيرِ دليلٍ ولا نظرٍ، ولكنْ عن اتِّباعِ ما يشتهون لأنفسِهم من دوامِ الحالِ الحسنِ؛ تفرَّع علىٰ حُسْبانِهم التَّعجيبُ من حالِهم، فعُطف بالفاءِ الاستفهامُ المستعمَلُ في التَّعجيبِ، وجُعل استفهامًا عن رؤيةِ حالِهم، للإشارةِ إلىٰ بلوغِ حالِهم من الظُّهورِ إلىٰ حدٍّ أن تكونَ مرئيَّةً[2].

ثم عاد تعالىٰ إلىٰ شرحِ أحوالِ الكفارِ وقبائحِ طرائقِهم، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٩٣-٩٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٥٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٧٧).

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) ﴾

ولمَّا كان التقديرُ للدَّلالةِ على الختمِ على مشاعرِهم، فقد قالوا مع اعترافِهم بتفرُّدِه تعالى بخلقِهم ورزقِهم وخلقِ جميعِ الموجوداتِ في إنكارِ الوحدانيَّةِ: إنَّ له شركاءَ؛ عطف عليه قولَه: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[1].

هذا عطفٌ على جملةِ ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾؛ أي: بعدَ أن جادَلوا المسلمين بأنَّه إنْ كان يبعثُ بعدَ الموتِ فستكونُ عُقْباهم خيرًا من عُقْبَى المسلمين، يقولون ذلك لقصدِ التورك[2] وهم لا يُوقِنون بالبعثِ والجزاءِ، بل ضربوه جدلًا، وإنَّما يقينُهم قولُهم: ﴿ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾[3].

واعلم أنَّه تعالى حكى عنهم بعدَ ذلك شُبْهَتَهم في إنكارِ القيامةِ وفي إنكارِ الإلهِ القادرِ، أمَّا شبهتُهم في إنكارِ القيامةِ فهي قولُه تعالى: ﴿ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾، وأمَّا شبهتُهم في إنكارِ الإلهِ القادرِ فهو قولُهم: ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾[4].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥) ﴾

ولمَّا كان هذا من قولِهم عَجَبًا؛ زاده عَجَبًا بحالِهم عندَ سماعِهم للبراهينِ القطعيَّةِ، فقال: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٩٨).
(٢) أي: الإنكار.
(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٦١).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٧٨).
(٥) نظم الدرر (١٨/ ١٠٠).

عطفٌ على ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: عقدوا على عقيدةِ أن لا حياةَ بعدَ المماتِ؛ استنادًا للأوهامِ والأَقْيِسَةِ الخياليَّةِ، وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُ القرآنِ الواضحةُ الدَّلالةِ على إمكانِ البعثِ وعلى لزومِه؛ لم يُعارِضوها بما يُبطِلُها، بل يهرعون إلى المباهَتةِ فيقولون: إن كان البعثُ حقًّا فَأْتُوا بآبائِنا إنْ صدَقْتم. فالمرادُ بالآياتِ: آياتُ القرآنِ المتعلِّقةُ بالبعثِ، بدليلِ ما قبلَ الكلامِ وما بعدَه[1].

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

ولمَّا كان ﷻ إنَّما يقبلُ الإيمانَ عندَ إمكانِ تصوُّرِه، وذلك إذا كان بالغيبِ؛ لم يُجِبْهم إلى إحياءِ آبائِهم إكرامًا لهذه الأُمَّةِ؛ لشرفِ نبيِّها عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ؛ لأنَّ سُنَّتَه الإلهيَّةَ جَرَتْ بأنَّ مَن لم يؤمنْ بعدَ كشفِ الأمرِ بإيجادِ الآياتِ المقترَحاتِ، أَهلَكَه كما فعل بالأممِ الماضيةِ، فرفَعهم عن الحِسِّ إلى التَّدريبِ على الحُجَجِ العقليَّةِ، فقال آمرًا له ﷺ بالجوابِ بقولِه تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

تلقينٌ لإبطالِ قولِهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ يتضمَّنُ إبطالَ قولِهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، والمقصودُ منه قولُه: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، وإنَّما قدَّم عليه ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ توطئةً له؛ أي: كما هو أَوجَدَكم هو يُمِيتُكم لا الدَّهرُ[3].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ولمَّا دَلَّ على قدرتِه على الإعادةِ بهذا الدَّليلِ الخاصِّ الذي تقديرُه: فاللهُ الذي ابتدأ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٦٣).
(٢) نظم الدرر (١٨/ ١٠١).
(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٦٥).

خَلْقَكم من الأرضِ علىٰ هذا الوجهِ قادرٌ علىٰ إعادتِكم؛ عطَف عليه دليلًا آخرَ جامعًا، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾(١).

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ اعتراضُ تذييلٍ لقولِه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾؛ أي: للهِ لا لغيرِه مُلْكُ السَّماواتِ والأرضِ؛ أي: فهو المُتصرِّفُ في أحوالِ ما حَوَتْه السَّماواتُ والأرضُ من إحياءٍ وإماتةٍ وغيرِ ذلك، بما أَوجَدَ من أصولِها، وما قدَّر من أسبابِها ووسائلِها، فليس للدَّهرِ تصرُّفٌ ولا لِما سوىٰ اللهِ تعالىٰ(٢).

اعلم أنَّه تعالىٰ لمَّا احتجَّ بكونِه قادرًا علىٰ الإحياءِ في المرَّةِ الأولىٰ، وعلىٰ كونِه قادرًا علىٰ الإحياءِ في المرَّةِ الثَّانيةِ، في الآياتِ المتقدِّمةِ؛ عمَّم الدَّليلَ، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: للهِ القدرةُ علىٰ جميعِ المُمْكِناتِ، سواءٌ كانت من السَّماواتِ أو من الأرضِ، وإذا ثبَت كونُه تعالىٰ قادرًا علىٰ كلِّ المُمْكِناتِ، وثبَت أنَّ حصولَ الحياةِ في هذه الذَّاتِ مُمكِنٌ، إذ لو لم يكنْ مُمكِنًا لَما حصَل في المرَّةِ الأولىٰ، فيَلزَمُ من هاتينِ المقدِّمتينِ كونُه تعالىٰ قادرًا علىٰ الإحياءِ في المرَّةِ الثَّانيةِ(٣).

بيانٌ لاختصاصِ المُلْكِ المطلقِ والتَّصرُّفِ الكُلِّيِّ فيهما وفيما بينَهما باللهِ ﷻ إثرَ بيانِ تصرُّفِه تعالىٰ في النَّاسِ بالإحياءِ والإماتةِ والبعثِ والجمعِ للمجازاةِ(٤).

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

ولمَّا كان ذلك من شأنِ اليومِ مهولًا؛ عَمَّ في الهَوْلِ بقولِه مُصوِّرًا لحالِه: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٠٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٦٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٨٠).

(٤) إرشاد العقل السليم (٨/ ٧٤).

(٥) نظم الدرر (١٨/ ١٠٤).

ولمَّا بيَّن تعالىٰ إمكانَ القولِ بالحشرِ والنَّشرِ بهذينِ الطَّريقينِ؛ ذكر تفاصيلَ أحوالِ القيامةِ، فأوَّلُها قولُه تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، وثانيها قولُه تعالىٰ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾[(١)].

ثم وصَف تعالىٰ شِدَّةَ يومِ القيامةِ وهَوْلَه -ليَحذَره العبادُ، ويَستعِدَّ له العُبَّادُ- فقال: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٢)].

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

ولمَّا أَخبَرَ بالجزاءِ؛ بيَّن كيفيَّةَ ما به يُطبَّقُ بينَ كتابِ الإنزالِ وكتابِ الأعمالِ، فما حكَم به كتابُ الإنزالِ أنفَذَه الكبيرُ المتعالِ، فقال مُشِيرًا إلىٰ كتابِ الإنزالِ بأداةِ القريبِ -لقُرْبِه وسهولةِ فهمِه-: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٣)].

جملةُ ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ من مَقُولِ القولِ المقدَّرِ، وهي مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا لتوقُّعِ سؤالِ مَن يقولُ منهم: ما هو طريقُ ثبوتِ أعمالِها؟[(٤)].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾

ولمَّا صرَّح بالمُبْطِلين حسَبَ ما اقتضاه الحالُ كما تقدَّم، وأشار إلىٰ المُحِقِّين؛ صرَّح بما لوَّح إليه من أمرِ المُحِقِّين، وعطَف عليهم أضدادَهم، فقال بادئًا بهم علىٰ طريقِ

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٨٠).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٧٨).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ١٠٥).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٦٨).

النَّشرِ المشوَّشِ مُفصَّلًا: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦٓۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾(١).

الفاءُ لعطفِ المفصَّلِ علىٰ المجمَلِ، وهو تفصيلٌ لِما أُجمِلَ في قولِه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾، وما بينَهما اعتراضٌ، وابتُدِئ في التَّفصيلِ بوصفِ حالِ المؤمنين -مع أنَّ المقامَ للحديثِ عن المُبْطِلين في قولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾- تنويهًا بالمؤمنين، وتعجيلًا لمَسَرَّتِهم، وتعجيلًا لمَساءةِ المُبْطِلين؛ لأنَّ وصفَ حالِ المؤمنين يُؤذِنُ بمخالفةِ حالِ الآخرين لحالِهم(٢).

تفصيلٌ لِما يُفعَلُ بالأممِ بعدَ بيانِ ما خُوطِبوا به من الكلامِ المنطوي علىٰ الوعدِ والوعيدِ(٣).

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) ﴾

ثم ذكر حالَ الكافرين بعدَ حالِ المؤمنين، فقال: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) ﴾

القومُ كانوا في مسألةِ البعثِ علىٰ قولينِ: منهم مَن كان قاطعًا بنفيِ البعثِ والقيامةِ، وهم الذين ذكَرَهم اللهُ في الآيةِ المتقدِّمةِ بقولِه: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾، ومنهم مَن كان شاكًّا مُتحيِّرًا فيه؛ لأنَّهم -لكثرةِ ما سمعوه من الرسولِ ﷺ، ولكثرةِ ما سمعوه من دلائلِ القولِ بصِحَّتِه- صاروا شاكِّين فيه، وهم

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٠٦-١٠٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٧٠).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ٧٥).

الذين أرادهم بهذه الآيةِ، والذي يدلُّ عليه أنَّه تعالىٰ حكىٰ مذهبَ أولئك القاطعين، ثم أَتبعَه بحكايةِ قولِ هؤلاء؛ فوجب كونُ هؤلاء مُغايِرين للفريقِ الأوَّلِ[(١)].

ويُوبَّخون أيضًا بقولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[(٢)].

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣)﴾

ولمَّا وصلوا إلىٰ حدٍّ عظيمٍ من العنادِ؛ التفتَ إلىٰ أسلوبِ الغَيْبةِ إعراضًا عنهم إيذانًا بشديدِ الغضبِ، فقال تعالىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[(٣)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ باعتبارِ تقديرِ: فيُقالُ لهم؛ أي: فيُقال لهم ذلك ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾؛ أي: جمع لهم بينَ التَّوبيخِ والإزعاجِ، فوُبِّخُوا بقولِه: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ...﴾ إلىٰ آخرِه، وأُزعِجُوا بظهورِ سيِّئاتِ أعمالِهم؛ أي: ظهورِ جزاءِ سيِّئاتِهم حين رأَوْا دارَ العذابِ وآلاتِه رؤيةَ مَن يُوقِنُ بأنَّها مُعَدَّةٌ له، وذلك بعلمٍ يَحصُلُ لهم عندَ رؤيةِ الأهوالِ[(٤)].

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٣٤)﴾

ولمَّا أُودِعُوا جهنَّمَ، وأحاطت بهم؛ نُودُوا: ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ تأييسًا لهم من العفوِ عنهم[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٦٨٢).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٧٨).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ١١١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٧٠).

(٥) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٧٤).

﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

ولمَّا ذكر جزاءَهم علىٰ ما هو الحقُّ المُساوِي لأعمالِهم طِبْقَ الفعلِ بالفعلِ؛ علَّله بما لَزِمَ علىٰ أعمالِهم، فقال: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾[1].

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا أَثبَتَ سبحانه بعدَه بإثباتِ الآياتِ المرئيَّةِ والمسموعةِ، وإعزازِ أوليائِه وإذلالِ أعدائِه، من غيرِ مُبالاةٍ بشيءٍ ولا عجزٍ عن شيءٍ، مع الإحاطةِ التَّامَّةِ بكُلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا؛ تسبَّب عن ذلك حتمًا قولُه تعالىٰ: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

الفاءُ لتفريعِ التَّحميدِ والثَّناءِ علىٰ اللهِ تفريعًا علىٰ ما احتَوَتْ عليه السُّورةُ من ألطافِ اللهِ فيما خلَق وأَرشَدَ وسخَّر وأقام من نُظُمِ العدالةِ، والإنعامِ علىٰ المسلمين في الدنيا والآخرةِ، ومن وعيدٍ للمُعرِضين واحتجاجٍ عليهم، فلمَّا كان ذلك كلُّه من اللهِ كان دالًّا علىٰ اتِّصافِه بصفاتِ العَظَمةِ والجلالِ، وعلىٰ إفضالِه علىٰ النَّاسِ بدينِ الإسلامِ؛ كان حقيقًا بإنشاءِ قصرِ الحمدِ عليه، فيجوزُ أن يكونَ هذا الكلامُ مرادًا منه ظاهرُ الإخبارِ، ويجوزُ أن يكونَ مع ذلك مُستعمَلًا في معناه الكِنائيِّ؛ وهو أمرُ النَّاسِ بأن يَقصُروا الحمدَ عليه[3].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ١١٣).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ١١٤-١١٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٧٧).

ثـم لمَّـا ذكـر حكمَـه في المـؤمنين والكـافرين؛ قـال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

ولمَّا أفاد ذلك غِناه الغِنىٰ المطلقَ، وسيادتَه، وأنَّه لا كُفْءَ له؛ عطَف عليه بعضَ اللَّوازمِ لذلك؛ تنبيهًا علىٰ مزيدِ الاعتناءِ به لدفعِ ما يتوهَّمونه من ادِّعاءِ الشَّرِكةِ التي لا يَرْضَوْنها لأنفسِهم، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٢).

عقَّب ذلك بجملةِ ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للإشارةِ إلىٰ أنَّ استدعاءَه خلقَه لحمدِه إنَّما هو لنفعِهم وتزكيةِ نفوسِهم؛ فإنَّه غنيٌّ عنهم(٣).

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٧٣).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ١١٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٧٨).

سُورَةُ الأَحْقَافِ

﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ولمَّا ثبت في «الجاثيةِ» مضمونُ قولِه تعالىٰ في الدُّخانِ: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ بما ذكر فيهما من الآياتِ والمنافعِ والحِكَمِ؛ أثبت هنا مضمونَ ما بعدَ ذلك بزيادةِ الأجلِ، فقال دالًّا علىٰ عِزَّتِه وحكمتِه: ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴾[1].

لمَّا كان من أهمِّ ما جاء به القرآنُ: إثباتُ وحدانيَّةِ اللهِ تعالىٰ، وإثباتُ البعثِ والجزاءِ -لتوقُّفِ حصولِ فائدةِ الإنذارِ علىٰ إثباتِهما-؛ جُعل قولُه: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ تمهيدًا للاستدلالِ علىٰ إثباتِ الوحدانيَّةِ والبعثِ والجزاءِ، فجُعل خلقُ السَّماواتِ والأرضِ محلَّ اتِّفاقٍ، ورُتِّبَ عليه أنَّه ما كان ذلك الخلقُ إلَّا مُلابِسًا للحقِّ، وتقتضي ملابستُه للحقِّ أنَّه لا يكونُ خلقًا عبثًا، بل هو دالٌّ علىٰ أنَّه يَعقُبُه جزاءٌ علىٰ ما يفعلُه المخلوقون[2].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٧).

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾

ولمَّا قرَّر سبحانه الأصلَ الدَّالَّ علىٰ التَّوحيدِ وإثباتِ العدلِ والرَّحمةِ بالبعثِ للفصلِ، وكانوا يقولون: إنَّهم أعقلُ النَّاسِ، وكان العاقلُ لا يأمنُ غوائلَ الإنذارِ إلَّا إنْ أَعَدَّ لها ما يتحقَّقُ دفعَه لها، وكان لا يقدرُ علىٰ دفعِ المُتوعَّدِ إلَّا مَن يساويه أو يزيدُ عليه بشركةٍ أو غيرِها، وكانوا يدَّعون في أصنامِهم أنَّها شركاءُ؛ بنىٰ علىٰ ذلك الأصلِ تفاريعَه، وبدأ بإبطالِ مُتمسَّكِهم، فقال ﷻ آمرًا له ﷺ بأن يُنبِّهَهم علىٰ سَفَهِهم بأنَّهم أعرضوا عمَّا قد يَضُرُّهم من غيرِ احترازٍ منه، دالًّا علىٰ عدمِ إلهيَّةِ ما دَعَوْه آلهةً بعدمِ الدَّليلِ علىٰ إلهيَّتِها من عقلٍ أو نقلٍ؛ لأنَّ منصبَ الإلهيَّةِ لا يمكنُ أن يَثبُتَ -وله من الشَّرفِ ما هو معلومٌ- بغيرِ دليلٍ قاطعٍ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[(١)].

انتقَل إلىٰ الاستدلالِ علىٰ بطلانِ صفةِ الإلهيَّةِ عن أصنامِهم، فجملةُ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ ﴾ أمرٌ بإلقاءِ الدَّليلِ علىٰ إبطالِ الإشراكِ، وهو أصلُ ضلالِهم. وجاء هذا الاستدلالُ بأسلوبِ المناظرةِ، فجُعل النبيُّ ﷺ مُواجِهًا لهم بالاحتجاجِ ليكونَ إلجاءً لهم إلىٰ الاعترافِ بالعجزِ عن معارضةِ حُجَّتِه، وكذلك جرىٰ الاحتجاجُ بعدَه ثلاثَ مرَّاتٍ بطريقةِ أمرِ التَّعجيزِ بقولِه: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ...﴾ الآيةَ[(٢)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٢٣-١٢٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٩).

اعلم أنَّه تعالىٰ لمَّا قرَّر هذا الأصلَ الدَّالَّ علىٰ إثباتِ الإلهِ، وعلىٰ إثباتِ كونِه عادلًا رحيمًا، وعلىٰ إثباتِ البعثِ والقيامةِ؛ بنىٰ عليه التَّفاريعَ، فالفرعُ الأوَّلُ: الرَّدُّ علىٰ عَبَدةِ الأصنامِ، فقال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[(١)].

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

ولمَّا أَبطَلَ ﷻ قولَهم في الأصنامِ، بعدمِ قدرتِها علىٰ إتيانِ شيءٍ من ذلك؛ لأنَّها من جملةِ مخلوقاتٍ في الأصلِ؛ أَتبَعَه إبطالَه بعدمِ علمِها ليُعلَمَ قطعًا أنَّهم أضلُّ النَّاسِ، حيث ارتبطوا في أجلِّ الأشياءِ -وهو أصولُ الدِّينِ- بما لا دليلَ عليه أصلًا، فقال تعالىٰ مُنكِرًا أن يكونَ أحدٌ أضلَّ منهم، عاطفًا علىٰ ما هدىٰ السِّياقُ حتمًا إلىٰ تقديرِه؛ وهو: فمَن أضلُّ ممَّن يدَّعي شيئًا من الأشياءِ وإن قلَّ بلا دليل: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾[(٢)].

اعتراضٌ في أثناءِ تلقينِ الاحتجاجِ، فلمَّا أمر اللهُ تعالىٰ رسولَه ﷺ بأن يُحاجَّهم بالدَّليلِ؛ وجَّه الخطابَ إليه تعجيبًا من حالِهم وضلالِهم[(٣)].

اعلم أنَّه تعالىٰ بيَّن فيما سبق أنَّ القولَ بعبادةِ الأصنامِ قولٌ باطلٌ، من حيث إنَّها لا قدرةَ لها البتَّةَ علىٰ الخلقِ والفعلِ، والإيجادِ والإعدامِ، والنَّفعِ والضَّرِّ، فأردفه بدليلٍ آخرَ يدلُّ علىٰ بطلانِ ذلك المذهبِ؛ وهي أنَّها جماداتٌ فلا تسمعُ دعاءَ الدَّاعينِ، ولا تعلمُ حاجاتِ المحتاجين[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٦).
(٢) نظم الدرر (١٨/ ١٢٦).
(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١١).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٧).

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾

ولـمَّا غيَّىٰ سبحانه بيومِ القيامةِ، فأَفهَمَ أنَّهم يستجيبون لهم فيه؛ بيَّن ما يُحاوِرونهم به إذ ذاك، فقال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾[(١)].

عطفُ جملةِ ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ علىٰ ما قبلَها لمناسبةِ ذِكْرِ يومِ القيامةِ[(٢)].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

ولـمَّا بيَّن أنَّهم في غايةِ السَّفَهِ في عبادةِ ما لا دليلَ بوجهٍ علىٰ عبادتِه؛ أَتبَعَه بيانَ أنَّهم في غايةِ الغباوةِ بإنكارِ ما لا شيءَ أَبْيَنُ منه، فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[(٣)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾، وقد علمتَ أنَّ هذا مَسُوقٌ مساقَ العدِّ لوجوهِ فَرْطِ ضلالِهم، فإنَّ آياتِ القرآنِ تُتلَىٰ عليهم صباحَ مساءَ تُبيِّنُ لهم دلائلَ خُلُوِّ الأصنام عن مُقوِّماتِ الإلهيَّةِ، فلا يتدبَّرونها وتَحدُو بهم إلىٰ الحقِّ، فيُغالِطون أنفسَهم بأنَّ ما فَهِمُوه منها تأثُّرٌ سِحْريٌّ، وأنَّها سِحْرٌ، ولم يكتفوا بذلك، بل زادوا بهتانًا فزعَموا أنَّه مُبِينٌ؛ أي: واضحٌ كونُه سحرًا، وهذا انتقالٌ إلىٰ إبطالِ ضلالٍ آخَرَ من ضلالِهم؛ وهو ضلالُ التَّكذيبِ بالقرآنِ[(٤)].

واعلم أنَّه تعالىٰ لـمَّا تكلَّم في تقريرِ التَّوحيدِ ونفيِ الأضدادِ والأندادِ؛ تكلَّم في النُّبُوَّةِ، وبيَّن أنَّ محمدًا ﷺ كُلَّما عرَض عليهم نوعًا من أنواعِ المعجزاتِ زعَموا أنَّه سحرٌ، فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٢٨).
(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٢).
(٣) نظم الدرر (١٨/ ١٢٩).
(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٣).
(٥) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٨).

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾

ولمَّا دلَّتْ هذه الآياتُ -بعظيمِ حُجَجِها، وزخَّارِ ما أَغرَقَ من لُجَجِها- علىٰ أنَّ ما يَدِينون به أوهىٰ من الخيالِ، وأنَّ هذا الكتابَ -في صدقِه وكلِّ شيءٍ من أمرِه- أثبتُ من الجبالِ، فكانوا أجدرَ الخلقِ بأن يقولوا: رجَعْنا عمَّا كُنَّا فيه وآمَنَّا؛ كان موضعَ أن يُقالَ: هل أقرُّوا بأنَّك صادقٌ في نسبةِ هذا الكتابِ إلىٰ اللهِ، فعادَلَه بقولِه دليلًا عليه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(١).

إضرابُ انتقالٍ إلىٰ نوعٍ آخَرَ من ضلالِ أقوالِهم، وسلَك في الانتقالِ مسلكَ الإضرابِ دونَ أن يكونَ بالعطفِ بالواوِ؛ لأنَّ الإضرابَ يفيدُ أنَّ الغرضَ الذي سينتقلُ إليه له مزيدُ اتِّصالٍ بما قبلَه، وأنَّ المعنىٰ: دَعْ قولَهم: ﴿ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، واستَمِعْ لِما هو أعجبُ وهو قولُهم: ﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾؛ أي: افترىٰ نِسْبَتَه إلىٰ اللهِ، ولم يُرِدْ به السِّحرَ(٢).

إضرابٌ وانتقالٌ من حكايةِ شناعتِهم السَّابقةِ إلىٰ حكايةِ ما هو أشنعُ منها(٣).

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾

ولمَّا كان من أعظمِ الضَّلالِ أن يُنسَبَ الإنسانُ إلىٰ الكذبِ من غيرِ دليلٍ في شيءٍ لم يَبتدِعْه، بل تقدَّمه بمِثْلِه ناسٌ قد ثبَت صدقُهم في مِثْلِ ذلك، ومَضَتْ عليه الأزمانُ،

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٣٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ٧٩).

وتقرَّر غايةَ التَّقرُّرِ في القلوبِ والأذهانِ؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(١).

هذا جوابٌ عمَّا تَضمَّنَه قولُهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ من إحالتِهم صِدْقَه فيما جاء به من الرِّسالةِ عن اللهِ إحالةً دَعَتْهم إلىٰ نسبةِ الرسولِ ﷺ إلىٰ الافتراءِ علىٰ اللهِ، وإنَّما لم يعطفْ علىٰ جملةِ ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾؛ لأنَّ المقصودَ الارتقاءُ في الرَّدِّ عليهم من ردٍّ إلىٰ أقوىٰ منه، فكان هذا كالتَّعدُّدِ والتَّكريرِ(٢).

اعلم أنَّه تعالىٰ لمَّا حكىٰ عنهم أنَّهم شكُّوا في كونِ القرآنِ مُعجِزًا -بأنْ قالوا: إنَّه يختلقُه من عندِ نفسِه، ثم يَنسُبُه إلىٰ أنَّه كلامُ اللهِ علىٰ سبيلِ الفِرْيةِ-؛ حكىٰ عنهم نوعًا آخرَ من الشُّبهاتِ؛ وهو أنَّهم كانوا يقترحون منه مُعجِزاتٍ عجيبةً قاهرةً، ويُطالِبونه بأن يُخبِرَهم عن المُغيَّباتِ، فأجاب اللهُ تعالىٰ عنه بأن قال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(٣).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

ولمَّا أثبت أنَّه من عندِ اللهِ، بشهادةِ اللهِ نفسِه بعجزِهم عن المعارضةِ؛ قبَّح عليهم إصرارَهم علىٰ التَّكذيبِ علىٰ تقديرِ شهادةِ أحدٍ ممَّن يَثِقُونَ بهم يسألونهم عنه من أهلِ الكتابِ، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٩).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ١٣٧).

أُعِيدَ الأمرُ بأن يقولَ لهم حُجَّةً أخرىٰ لعلَّها تَرُدُّهم إلىٰ الحقِّ بعدَ ما تقدَّم من قولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ الآيةَ، وقولِه: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، وقولِه: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ...﴾ الآيةَ، وهذا استدراجٌ لهم للوصولِ إلىٰ الحقِّ في درجاتِ النَّظرِ، فقد بادأهم بأنَّ ما أحالوه من أن يكونَ رسولًا من عندِ اللهِ ليس بمُحالٍ؛ إذ لم يكنْ أوَّلَ النَّاسِ جاء برسالةٍ من اللهِ، ثم أَعقبَه بأنَّ القرآنَ إذا فرَضْنا أنَّه من عندِ اللهِ وقد كفرتم بذلك، كيف يكونُ حالُكم عندَ اللهِ تعالىٰ؟ وأَقحَمَ في هذا أنَّه لو شَهِدَ شاهدٌ من أهلِ الكتابِ بوقوعِ الرِّسالاتِ ونزولِ الكتبِ علىٰ الرُّسُلِ، وآمَنَ برسالتي، كيف يكونُ انحطاطُكم عن درجتِه، وقد جاءكم كتابٌ فأعرضتم عنه؟ وهذا تحريكٌ للهِمَمِ، فإنَّ المشركين كانت لهم مخالطةٌ مع بعضِ اليهودِ في مكَّةَ، ولهم صلةٌ بكثيرٍ منهم في التِّجارةِ بالمدينةِ وخَيْبَرَ، فلمَّا ظهرت دعوةُ النبيِّ ﷺ كانوا يسألون مَن لَقُوه من اليهودِ عن أمرِ الأديانِ والرُّسُلِ، فكان اليهودُ لا محالةَ يُخبِرون المشركين ببعضِ الأخبارِ عن رسالةِ موسىٰ عليه السلام وكتابِه، وكيف أظهره اللهُ علىٰ فرعونَ، فاليهودُ وإنْ كانوا لا يُقِرُّون برسالةِ محمدٍ ﷺ فهم يتحدَّثون عن رسالةِ موسىٰ عليه السلام بما هو مُماثِلٌ لحالِ النبيِّ ﷺ مع قومِه، وفيه ما يكفي لدفعِ إنكارِهم رسالتَه[(١)].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾

ولمَّا دَلَّ علىٰ أنَّ تركَهم للإيمانِ إنَّما هو تعمُّدٌ للظُّلمِ استكبارًا؛ عطَف علىٰ قولِهم: «إنَّه سحرٌ» ما دلَّ علىٰ الاستكبارِ، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[(٢)].

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٨).
(٢) نظم الدرر (١٨/ ١٣٩).

هـذا حكايـةُ خطـأٍ آخَـرَ مـن أخطـاءِ حُجَـجِ المشـركين الباطلـةِ، وهـو خطـأٌ مَنْشَـؤُه الإعجابُ بأنفسِـهم، وغـرورُهم بـدينِهم، فاستَدَلُّوا علىٰ أن لا خيـرَ في الإسـلامِ بـأنَّ الذين ابتدَرُوا الأخذَ به ضعفاءُ القومِ وهم يَعُدُّونهم مُنحَطِّين عنهم، ومناسبتُه لِما قبلَه أنَّه من آثارِ استكبارِهم، فناسَب قولَه: ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾[1].

حكايةٌ لبعضٍ آخَرَ من أقاويلِهم الباطلةِ في حقِّ القرآنِ العظيمِ والمؤمنين به[2].

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

ولمَّا كان هذا الكلامُ ساقطًا في نفسِه -لِما قام من الأدلَّةِ الباهرةِ علىٰ صدقِ القرآنِ-، وكان الوقوفُ مع المحسوساتِ غالبًا عليهم لعدمِ نفوذِهم في المعقولاتِ؛ دلَّ علىٰ بطلانِه لموافقةِ القرآنِ لأعظمِ الكتبِ القديمةِ «التَّوراةِ» التي اشتهَر أنَّها من عندِ اللهِ، وأنَّ الآتيَ بها كُلِّمَ، وقد صدَّقه اللهُ في الإتيانِ بها بما لم يأتِ به قبلَه من المعجزاتِ والآياتِ البيِّناتِ وهم يستفتون أهلَها، فقال علىٰ وجهِ التَّبكيتِ لهم والتَّوبيخِ: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾[3].

أَتبَعَ إبطالَ تُرَّهاتِهم -الطاعنةِ في القرآنِ- بهذا الكلامِ المفيدِ زيادةَ الإبطالِ لمزاعمِهم، بالتَّذكيرِ بنظيرِ القرآنِ ومثيلٍ له من كتبِ اللهِ تعالىٰ هو مشهورٌ عندَهم -وهو التَّوراةُ-، مع التَّنويهِ بالقرآنِ ومَزِيَّتِه، والنَّعيِ عليهم إذ حرَموا أنفسَهم الانتفاعَ بها، فعُطِفتْ هذه الآيةُ علىٰ التي قبلَها؛ لارتباطِها بها في إبطالِ مزاعمِهم، وفي أنَّها ناظرةٌ إلىٰ قولِه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ كما تقدَّم[4].

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢١).
(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ٨١).
(٣) نظم الدرر (١٨/ ١٤٠-١٤١).
(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٤).

ووجهُ تَعلُّقِ هذا الكلامِ بما قبلَه: أنَّ القومَ طعنوا في صحَّةِ القرآنِ، وقالوا: لو كان خيرًا ما سبقَنا إليه هؤلاء الصَّعاليكُ، وكأنَّه تعالىٰ قال: الذي يدلُّ علىٰ صحَّةِ القرآنِ أنَّكم لا تُنازِعون في أنَّ اللهَ تعالىٰ أنزل التَّوراةَ علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجعل هذا الكتابَ إمامًا يُقتدَىٰ به، ثم إنَّ التَّوراةَ مُشتمِلةٌ علىٰ البشارةِ بمَقدَمِ محمدٍ ﷺ، فإذا سلَّمْتم كونَ التَّوراةِ إمامًا يُقتدَىٰ به؛ فاقبَلُوا حكمَه في كونِ محمدٍ ﷺ حقًّا من اللهِ[1].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن حالةَ المُحسِنين؛ شرَح أمرَهم، فقال مُستأنِفًا في جوابِ مَن سأل عنهم وعن بُشْراهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2].

استئنافٌ بيانيٌّ أُوثِر بصريحِه جانبُ المؤمنين من المستمعين للقرآنِ؛ لأنَّهم لمَّا سمعوا البشرىٰ تطلَّعوا إلىٰ صفةِ البشرىٰ وتعيينِ المُحسِنين ليضعوا أنفسَهم في حقِّ مواضعها، فأُجيبوا بأنَّ البشرىٰ هي نفيُ الخوفِ والحزنِ عنهم، وأنَّهم أصحابُ الجنَّةِ، وأنَّ المُحسِنين هم الذين قالوا: ربُّنا اللهُ، ثم استقاموا في أعمالِهم[3].

اعلم أنَّه تعالىٰ لمَّا قرَّر دلائلَ التَّوحيدِ والنُّبُوَّةِ، وذكر شبهاتِ المُنكِرين وأجاب عنها؛ ذكَر بعدَ ذلك طريقةَ المُحِقِّين والمُحقِّقين، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[4].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا نفىٰ عنهم المحذورَ؛ مدَّهم بإيثارِ السُّرورِ، فقال تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[5].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٣).
(٢) نظم الدرر (١٨/ ١٤٣).
(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٦).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٣).
(٥) نظم الدرر (١٨/ ١٤٤).

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾

ولمَّا تفضَّل ﷻ علىٰ الإنسانِ -بعدَ الأعمالِ التي هيَّأه لها، وأَقدَرَه عليها، ووفَّقه لها أسبابًا-؛ قرَن بالوصيَّةِ بطاعتِه -لكونِه المُبدِعَ- الوصيَّةَ بالوالدينِ -لكونِه تعالىٰ جعله سببَ الإيجادِ-، فقال في هذا السِّياقِ الذي عدَّ فيه الأعمالَ؛ لكونِه سياقَ الإحسانِ التي أفضلُها الصَّلاةُ علىٰ ميقاتِها، وثانيها في الرُّتبةِ برُّ الوالدينِ كما في «الصَّحيح»[1]، وفي «التِّرمذيِّ»: «رِضَىٰ اللهِ فِي رِضَىٰ الْوَالِدَيْنِ، وَسَخَطُهُ فِي سَخَطِهِمَا»[2]، وعلىٰ هذا المنوالِ جَرَتْ عادةُ القرآنِ، يُوصِي بطاعةِ الوالدينِ بعدَ الأمرِ بعبادتِه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[3].

تطلَّب بعضُ المفسِّرين وجهَ مناسبةِ وقوعِ هذه الآيةِ عَقِبَ التي قبلَها، وذكر القرطبيُّ عن القُشَيريِّ: أنَّ وجهَ اتِّصالِ الكلامِ بعضِه ببعضٍ أنَّ المقصودَ بيانُ أنَّه لا يَبعُدُ أن يستجيبَ بعضُ النَّاسِ للنَّبيِّ ﷺ ويكفرَ به بعضُهم، كما اختلف حالُ النَّاسِ مع الوالدينِ. وقال ابنُ عساكرَ: لمَّا ذكر اللهُ التَّوحيدَ والاستقامةَ؛ عطَف الوصيَّةَ بالوالدينِ كما هو مقرونٌ في غيرِ ما آيةٍ من القرآنِ. وكلا هذينِ القولينِ غيرُ مُقنِعٍ في وجهِ الاتِّصالِ. ووجهُ الاتِّصالِ عندي: أنَّ هذا الانتقالَ إلىٰ قولٍ آخَرَ من أقوالِ المشركين؛ وهو كلامُهم في إنكارِ البعثِ وجدالُهم فيه، فإنَّ ذلك من أصولِ كفرِهم

(١) أخرجه البخاري (٥٢٧).

(٢) أخرجه الترمذي (١٨٩٩).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ١٤٤-١٤٥).

بمحلِّ القصدِ، من هذه الآياتِ قولُه: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ...﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾[(١)].

ولمَّا ذكر: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾؛ قال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾؛ إذ كان برُّ الوالدينِ ثانيًا أفضلَ الأعمالِ[(٢)].

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

ولمَّا وصف هذا المؤمنَ بادئًا به لكونِه في سياقِ الإحسانِ، وكان المرادُ بالإنسانِ الجنسَ؛ قال مادحًا له بصيغةِ الجمعِ، مُنبِّهًا على أنَّ قبولَ الطَّاعاتِ مشروطٌ ببِرِّ الوالدينِ؛ لأنَّ ما ظهر دليلُ ما بطَن، ومَن لا يَشكُرْ مَن كان مِن جنسِه -لا سِيَّما وهو أقربُ النَّاسِ إليه، لا سِيَّما وهو السَّببُ في إيجادِه-؛ لم يَشكُرِ اللهَ؛ كما في الحديثِ: «لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ»[(٣)]، ومَن صلَح ما بينَه وبينَ اللهِ صلَح ما بينَه وبينَ النَّاسِ عامَّةً، لا سِيَّما الأقاربِ نسبًا أو مكانًا، لا سِيَّما الوالدينِ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾[(٤)].

الجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ ما قبلَها من الوصفِ والحثِّ يُحدِثُ ترقُّبَ السَّامعِ لمعرفةِ فائدةِ ذلك، فكان قولُه: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ ...﴾ إلى آخره جوابًا لترقيةٍ[(٥)].

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٨).
(٢) البحر المحيط (٩/ ٤٣٩).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤).
(٤) نظم الدرر (١٨/ ١٥٠).
(٥) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٥).

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه هذا المُحسِنَ بادئًا به -لكونِ المقامِ للإحسانِ-؛ أَتبعَه المُسِيءَ المناسبَ لمقصودِ السورةِ، المذكورَ صريحًا في مطلعِها، فقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[١].

هذا الفريقُ المقصودُ من هذه الآياتِ المبدوءةِ بقولِه تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، وهذا الفريقُ الذي كفَر بربِّه وأساءَ إلىٰ والديه، وقد عُلم أنَّ والدَيْه كانا مؤمنينِ من قولِه: ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي ...﴾ الآيةَ، فجملةُ ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ ﴾ الأحسنُ أن تكونَ معطوفةً علىٰ جملةِ ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ ...﴾ إلخ، انتقالٌ إلىٰ مقالةٍ أخرىٰ من أصولِ شركِهم؛ وهي مقالةُ إنكارِ البعثِ[٢].

لمَّا ذكر الإنسانَ البارَّ بوالدَيْه وما آلَ إليه من الخيرِ؛ ذكر العاقَّ بوالدَيْه وما آلَ إليه من الشَّرِّ[٣].

ثم بيَّن تعالىٰ نعتَ مَن عصىٰ ما وصَّىٰ به من الإحسانِ لوالدَيْه، من كلِّ ولدٍ عاقٍّ كافرٍ، وما له في مآلِه، بقولِه سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٥٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٦).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٤٤١).

(٤) محاسن التأويل (٨/ ٤٤٦).

لمَّا ذكَر تعالىٰ حالَ الصَّالحِ البارِّ لوالدَيْه؛ ذكَر حالةَ العاقِّ وأنَّها شرُّ الحالاتِ، فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾(١).

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا كان هذا الكلامُ، مع بلوغِ النِّهايةِ في حسنِ الانتظامِ، قد حصَر الإنسانَ في هذينِ القسمينِ مثلًا بليغًا لكُفَّارِ العربِ ومُؤمِنِيهم؛ فالأوَّلُ للمؤمنين التَّابعين لمِلَّةِ إبراهيمَ عليه السلام، الآتي بها أعظمُ أنبيائِه الكرامِ، محمدٌ عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامُ، والثَّاني للكُفَّارِ المُنابِذين لأعظمِ آبائِهم، إبراهيمَ عليه السلام، الذي يعرفون منه نقلًا يتوارثونه من آبائِهم، وقرآنًا مُعجِزًا كأنَّهم سمعوه من خالقِهم، أنَّه مُوحِّدٌ للهِ، مُقِرٌّ بالبعثِ، مُحذِّرٌ من غوائلِه، وكان قد ابتدأ سبحانه الحديثَ عنهم بما ذكر ممَّا كفروا فيه المُنعَّمِين، واستحقُّوا كلتا السَّوْأتينِ: خِزْيَ الدنيا، وعذابَ الآخرةِ؛ أَخبرَ عنهم بما أَنتجَه تكذيبُهم بموعودِ ربِّهم وعقوقُهم لوالديهم حقيقةً أو تعليمًا، بقولِه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾(٢).

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا قسَّمهم في الأعمالِ؛ جمَعَهم في العدلِ والإفضالِ، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(٣).

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٨١).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ١٥٦).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ١٥٧).

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

ولـمَّا كان الظَّاهرُ في هذه السورةِ الإنذارَ، كما يشهدُ به مطلعُها؛ قال ذاكرًا بعضَ ما يُبكِّتُ به المجرمون يومَ البعثِ -الذي كانوا به يُكذِّبون، ويكونُ فيه توْفِيَةُ جزاءِ الأعمالِ-، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: اذكُرْ لهم هذا لعلَّهم يأنفون أن يكونوا المُسيئين، فيكونوا من المُحسِنين: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾[(١)].

انتقالٌ إلىٰ وعيدِ الكافرين علىٰ الكفرِ بحذافرِه، وذلك زائدٌ علىٰ الوعيدِ المتقدِّمِ المتعلِّقِ بإنكارِهم البعثَ مع عقوقِهم الوالدينِ المسلمينِ، فالجملةُ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ... ﴾ الآياتِ[(٢)].

لـمَّا بيَّن اللهُ تعالىٰ أنَّه يُوصِلُ حقَّ كلِّ أحدٍ إليه؛ بيَّن أحوالَ أهلِ العقابِ أوَّلًا، فقال: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾[(٣)].

﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾

ولـمَّا هدَّدهم سبحانه بالأمورِ الأخرويَّةِ، وستَر الأمرَ بالتَّذكيرِ بها لكونِها مستورةً وهم بها يُكذِّبون في قولِه: ﴿ وَيَوْمَ ﴾، وختَم بالعذابِ علىٰ الاستكبارِ المذمومِ والفسقِ؛ عطَف عليه تهديدَهم بالأمورِ المحسوسةِ لأنَّهم مُتقيِّدون بها مُصرِّحًا بالأمرِ

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٥٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٤٢).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٣).

بالـذِّكرِ، فقـال تعـالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾[1].

سِيقَتْ قِصَّةُ هـودٍ وقومِه مَسـاقَ الموعظـةِ للمشـركين الـذين كـذَّبوا بـالقرآنِ، كمـا أَخبرَ اللهُ عنهم من أوَّلِ هذه السـورةِ في قولِـه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾، مـع ما أُعقِبَتْ به من الحُجَجِ المتقدِّمـةِ مـن قولِـه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الـذي يُقابِلُـه قـولُ هـودٍ: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ثـم قولِـه: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الـذي يُقابِلُه قولُه: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾، ذلك كلُّه بالموعظـةِ بحـالِ هـودٍ مع قومِه. وسِيقَتْ أيضًا مَساقَ الحُجَّةِ علىٰ رسالةِ محمدٍ ﷺ وعلىٰ عنادِ قومِـه بـذِكْرِ مثالٍ لحالِهم مع رسولِهم بحالِ عادٍ مع رسولِهم. ولها أيضًا موقـعُ التَّسـليةِ للرَّسـولِ ﷺ علىٰ ما تلقَّاه به قومُه من العنادِ والبهتانِ؛ لتكـونَ موعظـةً وتسـليةً معًـا يأخـذُ كـلٌّ منها ما يليقُ به[2].

اعلم أنَّه تعالىٰ لمَّا أَوردَ أنـواعَ الـدَّلائلِ في إثبـاتِ التَّوحيـدِ والنُّبُـوَّةِ، وكـان أهـلُ مكَّـةَ -بسببِ استغراقِهم في لذَّاتِ الدنيا، واشتغالِهم بطلبِها- أَعرَضُوا عنها، ولـم يلتفتـوا إليهـا؛ ولهـذا السَّـببِ قـال تعـالىٰ في حقِّهـم: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾، فلمَّا كـان الأمـرُ كـذلك؛ بيَّن أنَّ قـومَ عـادٍ كـانوا أكثـرَ أمـوالًا وقُـوَّةً وجاهًا منهم، ثم إنَّ اللهَ تعالىٰ سلَّط العذابَ عليهم بسببِ شُؤْمِ كفرِهم، فـذكَر هـذه القصَّةَ ها هنا ليعتبرَ بها أهلُ مكَّةَ، فيتركـوا الاغـترارَ بمـا وجَـدوه مـن الـدنيا، ويُقبِلـوا علىٰ طلبِ الدِّينِ؛ فلهذا المعنىٰ ذكَـر اللهُ تعـالىٰ هـذه القصَّـةَ في هـذا الموضـعِ، وهـو مناسبٌ لِما تقدَّم[3].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٦١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٤٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٤).

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

ولمَّا تشوَّف السَّامعُ إلىٰ جوابِهم عن هذه الحكمةِ؛ أُجِيبَ بقولِه تعالىٰ: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾(١).

جوابٌ عن قولِه: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ ولذلك جاء فعلُ ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ مفصولًا علىٰ طريقِ المحاورةِ(٢).

﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا تضمَّن قولُهم هذا نسبةَ داعِيهم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ ما لا دلالةَ لكلامِه عليه بوجهٍ -وهو ادِّعاءُ العلمِ بعذابِهم، والقدرةِ عليه- وتكذيبَه في كلٍّ منهما اللازمِ منه أمنُهم اللازمُ منه ادِّعاؤُهم العلمَ بأنَّهم لا يُعذَّبون، وكانوا كاذبين في جميعِ ذلك؛ كان كأنَّه قيل: بِمَ أجابَهم؟ فقيل: ﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾(٣).

فعندَ هذا قال هودٌ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وإنَّما صلَح هذا الكلامُ جوابًا لقولِهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾؛ لأنَّ قولَهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ استعجالٌ منهم لذلك العذابِ، فقال لهم هودٌ: لا علمَ عندي بالوقتِ الذي يَحصُلُ فيه ذلك العذابُ، إنَّما علمُ ذلك عندَ اللهِ تعالىٰ(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٤٦).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ١٦٥-١٦٦).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٤).

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾

ولمَّا تسبَّب عن قولِهم هذا إتيانُ العذابِ، فأتاهم في سحابٍ أسودَ؛ استمَرُّوا على جهلِهم وعادتِهم في الأمنِ وعدمِ تجويزِ الانتقامِ، وكأنَّ إتيانَه كان قريبًا من استعجالِهم به؛ فلذلك أتى بالفاءِ في قولِه، مُسبَّبًا عن تكذيبِهم، مُبيِّنًا لعظيمِ جهلِهم بجهلِهم في المحسوساتِ، مُفصِّلًا لِما كان من حالِهم عندَ رؤيةِ البأسِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

الفاءُ لتفريعِ بقيَّةِ القصَّةِ على ما ذُكر منها؛ أي: فلمَّا أراد اللهُ إصابتَهم بالعذابِ، ورأَوْه عارضًا؛ ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ ...﴾ إلى آخِره، ففي الكلامِ تقديرٌ يدلُّ عليه السِّياقُ، ويُسمَّى التَّفريعُ فيه فصيحةً، وقد طُوِيَ ذِكرُ ما حدَث بينَ تكذيبِهم هودًا وبينَ نزولِ العذابِ بهم[٢].

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ولمَّا اشتدَّ تشوُّفُ السَّامعِ إلى معرفتِه؛ قال: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[٣].

ثم وصَف تلك الرِّيحَ، فقال: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٦٧-١٦٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٤٩).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ١٦٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٥).

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا محلًّا يُتوقَّعُ فيه الإخبارُ عن حالِ مَكِنتِهم[١]؛ ليُعلَمَ: هل تركوا الدَّفعَ لمانعٍ فيهم، أو لأنَّ ما أتاهم بحيثُ لا يمكنُ لأحدٍ دفاعُه؟ قال ذاكرًا حرفَ التَّوقُّعِ، مُخوِّفًا للعربِ، مُقسِمًا لأنَّ قريشًا قد قال قائلُهم: إنَّهم يدفعون العذابَ بدفعِ الزَّبانيةِ ونحوها: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[٢].

هذا استخلاصٌ لموعظةِ المشركين بمِثْلِ عادٍ؛ ليعلموا أنَّ الذي قدَر علىٰ إهلاكِ عادٍ قادرٌ علىٰ إهلاكِ مَن هم دونَهم في القُوَّةِ والعددِ، وليعلموا أنَّ القومَ كانوا مِثلَهم مُستجمِعين قوىٰ العقلِ والحِسِّ، وأنَّهم أَهمَلُوا الانتفاعَ بقُواهم، فجحَدوا بآياتِ اللهِ، واستَهزَؤُوا بها وبوعيدِه، فحاقَ بهم ما كانوا يستهزئون به، وقريشٌ يعلمون أنَّ حالَهم مِثلُ الحالِ المَحْكيَّةِ عن أولئك، فَلْيَتَهيَّؤوا لِما سيَحِلُّ بهم. ولإفادةِ هذا الاستخلاصِ غيَّر أسلوبَ الكلامِ إلىٰ خطابِ المشركين من أهلِ مكَّةَ[٣].

ثم إنَّه تعالىٰ خوَّف كُفَّارَ مكَّةَ، وذكَر فضلَ عادٍ بالقُوَّةِ والجسمِ عليهم، فقال: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[٤].

---

(١) أي: تمكنهم.

(٢) نظم الدرر (١٨/ ١٧١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٥٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٦).

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

ولمَّا تَمَّ المرادُ من الإخبارِ بهلاكِهم على ما لهم من المَكِنةِ العظيمةِ ليَتَّعِظَ بهم مَن سمع أمرَهم؛ أَتبعَهم مَن كان مُشارِكًا لهم في التَّكذيبِ فشارَكَهم في الهلاكِ، فقال مُكرِّرًا لتخويفِهم، دالًّا على إحاطةِ قدرتِه بإحاطةِ علمِه: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(١).

أَتبَعَ ضربَ المثلِ بحالِ عادٍ مع رسولِهم، بأنَّ ذلك المثَلَ ليس وحيدًا في بابِه؛ فقد أهلك اللهُ أقوامًا آخرين من مُجاوِرِيهم تُماثِلُ أحوالُهم أحوالَ المشركين، وذكَّرهم بأنَّ قُراهم قريبةٌ منهم، يعرفُها مَن يعرفونها، ويسمعُ عنها الذين لم يَرَوْها؛ وهي قرى ثمودَ وقومِ لوطٍ وأصحابِ الأَيْكةِ وسبأٍ وقومِ تُبَّعٍ(٢).

﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

ولمَّا كانوا قد جعلوا محطَّ حالِهم في الشُّركاءِ أنَّهم سببُ التَّواصلِ بينَهم والتَّفاوتِ، وادَّعَوْا أنَّهم يشفعون فيهم فيُقرِّبونهم إلى اللهِ زُلْفى، ويمنعونهم من العذابِ في الآخرة، وكان أدنى الأمورِ التَّسويةَ بينَه وبينَ عذابِ الدنيا؛ سبَّب عن إخبارِه عن إهلاكِ الأممِ الماضيةِ قولَه -مُقدِّمًا للعِلَّةِ التي جعلها محطَّ نظرِهم، مُنكِرًا عليهم، مُوبِّخًا لهم-: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٥٤).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ١٧٥-١٧٦).

تفريعٌ علىٰ ما تقدَّم من الموعظةِ بعذابِ عادٍ المُفصَّلِ، وبعذابِ أهلِ القرىٰ المُجمَلِ، فُرِّعَ عليه توبيخٌ مُوجَّهٌ إلىٰ آلهتِهم إذْ قعَدوا عن نصرِهم وتخليصِهم قدرةَ اللهِ عليهم، والمقصودُ توجيهُ التَّوبيخِ إلىٰ الأممِ المُهلَكةِ علىٰ طريقةِ توجيهِ النَّهيِ ونحوِه لغيرِ المنهيِّ ليجتنبَ المنهيُّ أسبابَ المنهيِّ عنه، كقولهم: لا أَعرِفَنَّكَ تفعلُ كذا، ولا أَرَيَنَّكَ هنا. والمقصودُ بهذا التَّوبيخِ تخطئةُ الأممِ الذين اتَّخذوا الأصنامَ للنَّصرِ والدَّفعِ، وذلك مُستعمَلٌ تعريضًا بالسامعين المماثلين لهم في عبادةِ آلهةٍ من دونِ اللهِ استتمامًا للموعظةِ والتَّوبيخِ بطريقِ التَّنظيرِ وقياسِ التَّمثيلِ؛ ولذلك عقَّب بقولِه: ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾؛ لأنَّ التَّوبيخَ آلَ إلىٰ معنىٰ نفيِ النَّصرِ [1].

ثم ذكَر سبحانه أنَّه لم ينصرْهم من عذابِ اللهِ ناصرٌ، فقال: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [2].

فلمَّا لم يؤمنوا؛ أخذهم اللهُ أخذَ عزيزٍ مُقتدِرٍ، ولم تنفعْهم آلهتُهم التي يدعون من دونِ اللهِ من شيءٍ؛ ولهذا قال هنا: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [3].

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩)﴾

ولمَّا كان ما ذُكر -من البعدِ من الإيمانِ، مع تصريفِ العِظاتِ والعِبَرِ والآياتِ- يكادُ أن يُؤْيِسَ السَّامعَ من إيمانِ هؤلاءِ المَدْعُوِّين؛ قرَّبه -دلالةً علىٰ عِزَّتِه وحكمتِه- بالتَّذكيرِ بالإيمانِ مَن هم أعلىٰ منهم عُتُوًّا، وأشدُّ نُفْرةً، وأبعدُ إجابةً،

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٥٥).
(٢) فتح القدير (٥/ ٢٩).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٨٣).

وأخفى شخصًا، فقال جوابًا عمَّا وقع له ﷺ في عرضِ نفسِه الشَّريفةِ على القبائلِ وإبعادِهم عنه لا سِيَّما أهلِ الطَّائفِ، دالًّا على تمامِ القدرةِ -بشارةً للمُنزَلِ عليه ﷺ، وتوبيخًا لِما تأخَّر عن إجابتِه من قومِه-، عاطفًا على ما تقديرُه: اذكُرْ هذه الأخبارَ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾(١).

هذا تأييدٌ للنَّبيِّ ﷺ، بأنْ سخَّر اللهُ الجِنَّ للإيمانِ به وبالقرآنِ، فكان رسولُ اللهِ ﷺ مُصدَّقًا عندَ الثَّقَلَينِ، ومُعظَّمًا في العالمين، وذلك ما لم يَحصُلْ لرسولٍ قبلَه. والمقصودُ من نزولِ القرآنِ بخبرِ الجِنِّ: توبيخُ المشركين بأنَّ الجِنَّ -وهم من عالمٍ آخَرَ- علموا القرآنَ وأيقنوا بأنَّه من عندِ اللهِ، والمشركون -وهم من عالمِ الإنسِ، ومن جنسِ الرسولِ ﷺ المبعوثِ بالقرآنِ، وممَّن يتكلَّمُ بلغةِ القرآنِ- لم يزالوا في رَيْبٍ منه وتكذيبٍ وإصرارٍ، فهذا موعظةٌ للمشركين بطريقِ المُضادَّةِ لأحوالِهم، بعدَ أن جَرَتْ موعظتُهم بحالِ مُماثِليهم في الكفرِ من جنسِهم. ومناسبةُ ذِكْرِ إيمانِ الجِنِّ ما تقدَّم من قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾، فالجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ عطفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ(٢).

اعلم أنَّه تعالى لمَّا بيَّن أنَّ في الإنسِ مَن آمَن وفيهم مَن كفَر؛ بيَّن أيضًا أنَّ الجِنَّ فيهم مَن آمَن وفيهم مَن كفَر، وأنَّ مؤمنَهم مُعرَّضٌ للثَّوابِ، وكافرَهم مُعرَّضٌ للعقابِ(٣).

مناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلَها: أنَّه لمَّا بيَّن أنَّ الإنسيَّ مؤمنٌ وكافرٌ، وذكر أنَّ الجِنَّ فيهم مؤمنٌ وكافرٌ، وكان ذلك بأثرِ قِصَّةِ هودٍ وقومِه، لِما كان عليه قومُه من الشِّدَّةِ والقُوَّةِ،

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٥٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٧).

والجِنُّ تُوصَفُ أيضًا بذلك، وإنَّ ما أُهلِكَ به قومُ هودٍ هو الرِّيحُ، وهو من العالَمِ الذي لا يُشاهَدُ، وإنَّما يُحَسُّ بهُبُوبه، والجِنُّ أيضًا من العالَمِ الذي لا يُشاهَدُ، وإنَّ هودًا عليه السلام كان من العربِ، ورسولُ اللهِ ﷺ من العربِ؛ فهذه تجوزُ أن تكونَ مناسبةً لهذه الآيةِ بما قبلَها[(١)].

﴿ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠ ﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: ما قالوا لهم في إنذارِهم؟ قيل: ﴿ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[(٢)].

﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٣١ ﴾

ولمَّا أَخبَروهم بالكتابِ، وبيَّنوا أنَّه من عندِ اللهِ، وأنَّه أقربُ مُوصِلٍ إليه، فكان قومُهم جديرين بأن يقولوا: فما الذي ينبغي أن نفعلَ؟ أجابوهم بقولِه: ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾[(٣)].

ثم وصَفوه بالدَّعوةِ إلىٰ اللهِ تعالىٰ، بعدَما وصَفوه بالهدايةِ إلىٰ الحقِّ والصِّراطِ المستقيمِ؛ لتلازمِهما، دَعَوْهم إلىٰ ذلك بعدَ بيانِ حَقِّيَّتِه واستقامتِه ترغيبًا لهم في الإجابة، ثم أكَّدوه بقولِهم[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (٩/ ٤٤٩).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ١٨٠).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ١٨٢).

(٤) إرشاد العقل السليم (٨/ ٨٩).

فلمَّا مدَحوا القرآنَ، وبيَّنوا محلَّه ومرتبتَه؛ دَعَوْهم إلى الإيمانِ به، فقالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

ولمَّا فرَغوا من التَّعريفِ بالحقِّ، والدَّلالةِ عليه، والدعاءِ إليه، والإنذارِ بالرِّفقِ بما أَفهَمَ كلامُهم من أنَّهم إن لم يُجِيبوا انتقَم منهم بالعذابِ الأليمِ؛ أَتبعُوه ما هو أغلظُ إنذارًا منه، فقالوا: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].

اعلم أنَّ ذلك الجِنِّيَّ لمَّا أمر قومَه بإجابةِ الرسولِ والإيمانِ به، حذَّرهم من تركِ تلك الإجابةِ، فقال: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[3].

إيجابٌ للإجابةِ بطريقِ التَّرهيبِ إثرَ إيجابِها بطريقِ التَّرغيبِ[4].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

ولمَّا أتمَّ تعالى ما اقتضاه مقصودُ هذه السورةِ من أصولِ الدِّينِ وفروعِه، والتَّحذيرِ من سطواتِه بذكرِ بعضِ مَثُلاتِه، وختم بضلالِ مَن لم يُجِبِ الدَّاعيَ؛ نبَّه على أنَّ أوضحَ الأدلَّةِ على إحاطتِه بالجلالِ والجمالِ، وقدرتِه على الأجلِ المسمَّى الذي خلق

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٨٣).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ١٨٣-١٨٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٩).

(٤) إرشاد العقل السليم (٨/ ٨٩).

الخلقَ لأجلِه: ما جلَّىٰ به مطلعَ السورةِ من إبداعِ الخافقينِ، وما فيهما من الآياتِ الظَّاهرةِ للأذنِ والعينِ، فقال مُبكِّتًا لهم علىٰ ضلالِهم عن إجابةِ الدَّاعي، ومُنكِرًا عليهم، ومُوبِّخًا لهم، مُرشِدًا بالعطفِ علىٰ غيرِ مذكورٍ إلىٰ أنَّ التقديرَ: أَلَمْ يَرَ هؤلاء الضُّلَّالُ ما نصَبْنا في هذه السورةِ من أعلامِ الدَّلائلِ وواضحِ الرَّسائلِ في المقاصدِ والوسائلِ؟ عاطفًا عليه قولَه تعالىٰ ردًّا لمقطعِ السورةِ بتقريرِ المعادِ علىٰ مطلعِها المقرِّرِ للبدءِ بخلقِ الكونينِ بالحقِّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

عَوْدٌ إلىٰ الاستدلالِ علىٰ إمكانِ البعثِ، فهو انتقالٌ من الموعظةِ بمصيرِ أمثالِهم من الأممِ، إلىٰ الاستدلالِ علىٰ إبطالِ ضلالِهم في شركِهم، وهو الضَّلالُ الذي جرَّأَهم علىٰ إحالةِ البعثِ، بعدَ أن أُطِيلَ في إبطالِ تعدُّدِ الآلهةِ، وفي إبطالِ تكذيبِهم بالقرآنِ وتكذيبِهم النبيَّ ﷺ(٢).

ثم ذكر سبحانه دليلًا علىٰ البعثِ، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣).

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

ولمَّا ثبت البعثُ بما قام من الدَّلائلِ؛ ذكَّر ببعضِ ما يَحصُلُ في يومِه من الأهوالِ تحذيرًا منه، فقال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: اذكُرْ لهم هذا القياسَ النَّاطقَ بالمرادِ، وما

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٨٥-١٨٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٦٣).

(٣) فتح القدير (٥/ ٣٢).

مضىٰ في هذه السورةِ من الزَّواجرِ: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾(١).

موقعُ هذا الكلامِ أنَّ عرضَ المشركين علىٰ النَّارِ من آثارِ الجزاءِ الواقعِ بعدَ البعثِ، فلمَّا ذكر في الآيةِ التي قبلَها الاستدلالَ علىٰ إمكانِ البعثِ؛ أَعقبَ بما يَحصُلُ لهم يومَ البعثِ؛ جمعًا بينَ الاستدلالِ والإنذارِ، وذكَر من ذلك ما يُقالُ لهم ممَّا لا مندوحةَ لهم عن الاعترافِ بخطئِهم؛ جمعًا بينَ ما ردَّ به في الدنيا من قولِه: ﴿قَالُواْ﴾، وما يَرُدُّون في علمِ أنفسِهم يومَ الجزاءِ بقولِهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾(٢).

اعلم أنَّه تعالىٰ لمَّا أقام الدَّلالةَ علىٰ صحَّةِ القولِ بالحشرِ والنَّشرِ، ذكر بعضَ أحوالِ الكفارِ، فقال: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾(٣).

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾

ولمَّا عُلم -بما قام من الأدلَّةِ، وانتصَب من القواطعِ- أنَّ هذا مآلُهم؛ سبَّب عنه قولَه -ردًّا علىٰ ما بعدَ خلقِ الخافِقَينِ في مطلعِها من أمرِ الرسولِ ﷺ، ونسبتِهم له إلىٰ الافتراءِ وما بعدَه-: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٨٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٦٦).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٧).
(٤) نظم الدرر (١٨/ ١٨٧-١٨٨).

تفريعٌ علىٰ ما سبَق في هذه السورةِ من تكذيبِ المشركين رسالةَ محمدٍ ﷺ؛ بجعلِهم القرآنَ مُفترًىٰ، واستهزائِهم به وبما جاء به من البعثِ، ابتداءً من قولِه: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، وما اتَّصلَ به من ضربِ المثلِ لهم بعادٍ، فأمر الرسولَ ﷺ بالصَّبرِ علىٰ ما لَقِيَه منهم من أذًىٰ، وضرَب له المثلَ بالرُّسُلِ أُولِي العزمِ[١].

اعلم أنَّه تعالىٰ لمَّا قرَّر المطالبَ الثَّلاثةَ -وهي التَّوحيدُ والنُّبُوَّةُ والمعادُ-، وأجاب عن الشُّبهاتِ؛ أَردَفَه بما يجري مجرىٰ الوعظِ والنَّصيحةِ للرَّسولِ ﷺ؛ وذلك لأنَّ الكفارَ كانوا يُؤذُونه ويُوجِسون صدرَه، فقال تعالىٰ: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[٢].

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٦٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٣٠).

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾

ولمَّا ذكَر أهلَ الكفر مُعبِّرًا عنهم بأدنىٰ طبقاتِهم ليشملَ مَن فوقَهم؛ ذكَر أضدادَهم كذلك ليَعُمَّ مَن كان منهم مِن جميعِ الفِرَقِ، فقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾(١).

هذا مُقابِلُ فريقِ الذين كفروا، وهو فريقُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ، وإيرادُ الموصولِ وصِلَتِه للإيماءِ إلىٰ وجهِ بناءِ الخبرِ وعِلَّتِه؛ أي: لأجلِ إيمانِهم ... إلخ ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، وقد جاء في مقابلةِ الأوصافِ الثَّلاثةِ التي أُثبِتَتْ للذين كفروا بثلاثةِ أوصافٍ ضِدِّها للمسلمين؛ وهي: الإيمانُ مُقابِلَ الكفرِ، والإيمانُ بما نُزِّلَ علىٰ محمدٍ ﷺ مُقابِلَ الصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ، وعملُ الصَّالحاتِ مُقابِلَ بعضِ ما تَضمَّنَه ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، و﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ مُقابِلَ بعضٍ آخرَ ممَّا تضمَّنه ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ مُقابِلَ بقيَّةِ ما تضمَّنه ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾. وزِيدَ في جانبِ المؤمنين التَّنويهُ بشأنِ القرآنِ بالجملةِ المعترضةِ قولِه: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، وهو نظيرٌ لوصفِه بـ«سبيلِ اللهِ» في قولِه: ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾(٢).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ١٩٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٧٤).

ولمَّا ذكَر فريقَ الكافرين؛ أَتبعَهم بذِكْرِ فريقِ المؤمنين، قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴾ (١).

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ٣ ﴾

ولمَّا كان الجزاءُ من جنسِ العملِ؛ علَّل ما تقدَّم من فعلِه بالفريقينِ بقولِه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ﴾ (٢).

هذا تبيينٌ للسَّببِ الأصيلِ في إضلالِ أعمالِ الكافرين وإصلاحِ بالِ المؤمنين (٣).

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٤ ﴾

ولمَّا تحرَّر أنَّ الكفارَ أحقُّ الخلقِ بالعدمِ؛ لأنَّ الباطلَ مَثلُهم وحقيقةُ حالِهم؛ سبَّب عنه قولَه: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ (٤).

الفاءُ لتفريعِ هذا الكلامِ على ما قبلَه من إثارةِ نفوسِ المسلمين بتشنيعِ حالِ المشركين وظهورِ خَيْبةِ أعمالِهم، وتنويهِ حالِ المسلمين وتوفيقِ آرائِهم. والمقصودُ: تهوينُ

(١) فتح القدير (٥/ ٣٦).
(٢) نظم الدرر (١٨/ ١٩٩).
(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٧٦).
(٤) نظم الدرر (١٨/ ٢٠١).

شأنِهم في قلوبِ المسلمين، وإغراؤُهم بقطعِ دابرِهم ليكونَ الدِّينُ كلُّه للهِ؛ لأنَّ ذلك أعظمُ من منافعِ فداءِ أسراهم بالمالِ ليعبدَ المسلمون ربَّهم آمِنِينَ(١).

الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ يستدعي مُتعلَّقًا يتعلَّقُ به ويترتَّبُ عليه، فما وجهُ التَّعلُّقِ بما قبلَه؟ نقولُ: هو من وجوهٍ؛ الأوَّلُ: لمَّا بيَّن أنَّ الذين كفروا أضلَّ اللهُ أعمالَهم، واعتبارُ الإنسانِ بالعملِ، ومَن لم يكنْ له عملٌ فهو هَمَجٌ، فإنْ صار مع ذلك يُؤذِي حسُن إعدامُه، فإذا لَقِيتُم بعدَ ظهورِ أنْ لا حُرْمةَ لهم وبعدَ إبطالِ أعمالِهم؛ فاضربوا أعناقَهم. الثَّاني: إذا تبيَّن تباينُ الفريقينِ وتباعدُ الطَّريقينِ، وأنَّ أحدَهما يتَّبِعُ الباطلَ وهو حزبُ الشَّيطانُ، والآخَرَ يتَّبِعُ الحقَّ وهو حزبُ الرَّحمنِ؛ حَقَّ القتالُ عندَ التَّحزُّبِ، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم. الثَّالثُ: أنَّ مِن النَّاسِ مَن يقولُ -لضعفِ قلبِه وقصورِ نظرِه-: إيلامُ الحيوانِ من الظُّلمِ والطُّغيانِ؛ ولا سِيَّما القتلُ الذي هو تخريبُ بنيانٍ، فيُقال ردًّا عليهم: لمَّا كان اعتبارُ الأعمالِ باتِّباعِ الحقِّ والباطلِ، فمَن يقتلْ في سبيلِ اللهِ لتعظيمِ أمرِ اللهِ، لهم من الأجرِ ما للمُصلِّي والصَّائمِ، فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذْكم بهم رأفةٌ، فإنَّ ذلك اتِّباعٌ للحقِّ، والاعتبارُ به لا بصورةِ الفعلِ(٢).

الفاءُ لترتيبِ ما في حيِّزِها من الأمرِ على ما قبلَها، فإنَّ ضلالَ أعمالِ الكَفَرةِ وخَيْبَتَهم، وصلاحَ أحوالِ المؤمنين وفلاحَهم؛ ممَّا يُوجِبُ أن يُرتَّبَ على كلٍّ من الجانبينِ ما يليقُ من الأحكامِ(٣).

لمَّا بيَّن سبحانه حالَ الفريقينِ؛ أمر بجهادِ الكفارِ(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٧٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٣٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ٩٢).

(٤) فتح القدير (٥/ ٣٦).

﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ ﴾

جملةُ ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ وما عُطف عليها بيانٌ لجملةِ ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾[(١)].

ثم ذكَر سبحانه ما لهم عندَه من جزيلِ الثَّوابِ، فقال: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾[(٢)].

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ ﴾

ولمَّا كان هذا ثوابًا عظيمًا، ونوالًا جسيمًا؛ أَتبعَه ثوابًا أعظمَ منه، فقال تعالىٰ: ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾[(٣)].

وكأنَّ اللهَ تعالىٰ عندَ حشرِهم يهديهم إلىٰ طريقِ الجنَّةِ، ويُلبِسُهم في الطَّريقِ خِلَعَ[(٤)] الكرامةِ؛ وهو إصلاحُ البالِ، ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ﴾، فهو علىٰ ترتيبِ الوقوعِ[(٥)].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾

ولمَّا ذكَر القتالَ؛ تشوَّف السَّامعُ إلىٰ حالِ المُقاتِلِ من النَّصرِ والخذلانِ، فأجاب بما يُعرَفُ بشرطِ النَّصرِ، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[(٦)].

لمَّا ذكر أنَّه لو شاء اللهُ لانتصَر منهم؛ عُلم منه أنَّ ما أمر به المسلمين من قتالِ الكفارِ إنَّما أراد منه نصرَ الدِّينِ بخَضْدِ[(٧)] شَوْكةِ أعدائِه الذين يَصُدُّون النَّاسَ عنه؛ أَتبعَه بالتَّرغيبِ في نصرِ اللهِ، والوعدِ بتكفُّلِ اللهِ لهم بالنَّصرِ إنْ نصَروه، وبأنَّه خاذلُ الذين كفروا بسببِ كراهيتِهم ما شرَعه من الدِّينِ. فالجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ لهاتِه المناسبةِ،

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٨٣).
(٢) فتح القدير (٥/ ٣٨).
(٣) نظم الدرر (١٨/ ٢٠٧).
(٤) جمعُ خِلْعةٍ؛ وهي ما يُعطِيه الإنسانُ غيرَه مِنحةً.
(٥) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٤١).
(٦) نظم الدرر (١٨/ ٢٠٧-٢٠٨).
(٧) أي: كَسْر.

وافتتح التَّرغيبَ بندائِهم بصلةِ الإيمانِ؛ اهتمامًا بالكلامِ، وإيماءً إلىٰ أنَّ الإيمانَ يقتضي منهم ذلك، والمقصودُ تحريضُهم علىٰ الجهادِ في المستقبلِ بعدَ أن اجتَنَوْا فائدتَه مشاهدةً يومَ بدرٍ[1].

لمَّا بيَّن ما علىٰ القتالِ من الثَّوابِ والأجرِ؛ وعَدَهم بالنَّصرِ في الدنيا زيادةً في الحثِّ ليزدادَ منهم الإقدامُ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾[2].

ثم وعَدَهم سبحانه علىٰ نصرِ دينِه بقولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾[3].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨ ﴾

ولمَّا ذكر أهلَ الإيمانِ؛ بيَّن ما لأهلِ الكفرانِ، فقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾[4].

لمَّا قال: ﴿ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾؛ جاز أن يُتوهَّمَ أنَّ الكافرَ أيضًا يصبرُ ويَثبُتُ للقتالِ، فيدومُ القتالُ والحِرابُ والطِّعانُ والضِّرابُ، وفيه المشقَّةُ العظيمةُ، فقال تعالىٰ: لكم الثَّباتُ، ولهم الزَّوالُ والتَّغيُّرُ والهلاكُ، فلا يكونُ الثَّباتُ[5].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩ ﴾

ولمَّا بيَّن ما صنَع بهم ليجترئَ به حزبُه عليهم؛ بيَّن سببَه ليُجتنَبَ، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾[6].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٨٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٤٢).

(٣) فتح القدير (٥/ ٣٨).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٢١٠).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٤٢).

(٦) نظم الدرر (١٨/ ٢٠٩).

ثم بيَّن اللهُ تعالىٰ سببَ ما اختلفوا فيه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[(١)].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾

ولمَّا كان لا يستهينُ بهذه القضايا ويجترئُ مِثلَ هذه البلايا إلَّا مَن أَمِنَ العقوبةَ، ولا يأمنُ العقوبةَ إلَّا مَن أَعرَضَ عن اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكان يكفي في الصَّدِّ عن الأمرينِ وقائعُه تعالىٰ بالأممِ الخاليةِ لأجلِ تكذيبِ رُسُلِه ومُناصَبةِ أوليائِه والاعتداءِ علىٰ حدودِه؛ قال مُنكِرًا عليهم ومُوبِّخًا لهم، تقدُّمًا إليهم بالتَّحذيرِ من بطشِه وسَطْوَتِه، وشديدِ أخذِه وعقوبتِه، مُسبِّبًا عن كراهيتِهم المذكورةِ وما تأثَّر عنها من العداوةِ لأهلِ اللهِ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾[(٢)].

ثم خوَّف سبحانه الكفارَ، وأَرشَدَهم إلىٰ الاعتبارِ بحالِ مَن قبلَهم، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾[(٣)].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾

ولمَّا بيَّن أن يُعلِيَ أولياءَه ويُذِلَّ أعداءَه؛ بيَّن عِلَّتَه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[(٤)].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

ولمَّا تشوَّف السَّامعُ إلىٰ تعرُّفِ تمامِ آثارِ الولايةِ؛ قال شافيًا لعِيِّ سؤالِهم، مُؤكِّدًا

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٤٣).
(٢) نظم الدرر (١٨/ ٢١١-٢١٢).
(٣) فتح القدير (٥/ ٣٩).
(٤) نظم الدرر (١٨/ ٢١٣).

لأجلِ كثرةِ المكذِّبين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾(١).

استئنافٌ بيانيٌّ جوابُ سؤالٍ يخطرُ ببالِ سامعِ قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ عن حالِ المؤمنين في الآخرةِ، وعن رزقِ الكافرين في الدنيا، فبيَّن اللهُ أنَّ مِن ولايتِه المؤمنين أن يُعطِيَهم النَّعيمَ الخالدَ بعدَ النَّصرِ في الدنيا، وأنَّ ما أعطاه الكافرين في الدنيا لا عِبرةَ به؛ لأنَّهم مسلوبون من فهمِ الإيمانِ، فحَظُّهم من الدنيا أكلٌ وتمتُّعٌ كحظِّ الأنعامِ، وعاقِبَتُهم في عالمِ الخلودِ العذابُ(٢).

لمَّا بيَّن اللهُ تعالىٰ حالَ المؤمنين والكافرين في الدنيا؛ بيَّن حالَهم في الآخرةِ، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾(٣).

بيانٌ لحكمِ ولايتِه تعالىٰ لهم، وثمرتِها الأخرويَّةِ(٤).

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

ولمَّا وعَد سبحانه أنَّه ينصرُ مَن ينصرُه -لأنَّه مولاه- ويُدخِلُه دارَ نعمتِه، ويخذُلُ مَن يُعانِدُه -لأنَّه عاداه- إلىٰ أن يُدخِلَه دارَ شِقْوَتِه؛ كان التقديرُ دليلًا علىٰ ذلك: فكَأَيِّنْ مِن قومٍ هم أضعفُ من الذين اتَّبَعُوك نصَرْناهم علىٰ مَن كذَّبهم، فلا خاذلَ لهم، فعطَف عليه قولَه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٢١٣-٢١٤).
(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٨٩).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٤٤).
(٤) إرشاد العقل السليم (٨/ ٩٤).
(٥) نظم الدرر (١٨/ ٢١٦).

لمَّا ضرب اللهُ تعالىٰ لهم مثلًا بقولِه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ولم ينفعْهم، مع ما تقدَّم من الدَّلائلِ؛ ضرَب للنَّبيِّ ﷺ مثلًا تسليةً له، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾(١).

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

ولمَّا كان هذا دليلًا شهوديًّا -بعدَ الأدلَّةِ العقليَّةِ- علىٰ ما تقدَّم الوعدُ به؛ سبَّب عنه الإنكارَ عليهم، فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾(٢).

تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ لتحقيقِ أنَّهم لا ناصرَ لهم تحقيقًا يرجعُ إلىٰ ما في الكلامِ من المعنىٰ التَّعريضيِّ، فهو شبيهٌ بالاستئنافِ البيانيِّ جاء بأسلوبِ التَّفريعِ، والمقصودُ من إنكارِ المشابهةِ بينَ هؤلاء وهؤلاء هو تفضيلُ الفريقِ الأوَّلِ، وإنكارُ زعمِ المشركين أنَّهم خيرٌ من المؤمنين، كما ظهر ذلك عليهم في مواطنَ كثيرةٍ(٣).

اعلم أنَّ هذا إشارةٌ إلىٰ الفرقِ بينَ النبيِّ ﷺ والكفارِ؛ ليُعلَمَ أنَّ إهلاكَ الكفارِ ونُصْرةَ النبيِّ ﷺ في الدنيا مُحقَّقٌ، وأنَّ الحالَ يُناسِبُ تعذيبَ الكافرِ وإثابةَ المؤمنِ(٤).

تقريرٌ لتباينِ حالَيْ فريقَيِ المؤمنين والكافرين، وكونِ الأوَّلِين في أعلىٰ عِلِّيينَ والآخرين في أسفلَ سافِلِينَ، وبيانٌ لعِلَّةِ ما لكُلٍّ منهما من الحالِ(٥).

ثم ذكَر سبحانه الفرقَ بينَ حالِ المؤمنِ وحالِ الكافرِ، فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾(٦).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٤٥).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٢١٦-٢١٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٩٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٤٥).

(٥) إرشاد العقل السليم (٨/ ٩٥).

(٦) فتح القدير (٥/ ٤١).

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

ولمَّا تكرَّر ذِكرُ الجنَّةِ والنَّارِ في هذه السورةِ، إلىٰ أن ختَم بهذه الآيةِ التي قسَّم النَّاسَ فيها إلىٰ أولياءَ مُهْتَدِين وأعداءَ ضالِّين مُعتَدِين، فهدىٰ سياقُها إلىٰ أنَّ التقديرَ: أفمَنْ كان علىٰ بيِّنةٍ من ربِّه أحياه الحياةَ الطَّيِّبةَ في الدَّارينِ، ومَن تَبِعَ هواه أرداه فيها؛ أَتبعَه وصفَ الجنَّةِ التي هي دارُ أوليائِه قادهم إليها الهدىٰ، والنَّارِ التي هي دارُ أعدائِه ساقهم إليها الضَّلالُ المُحتِّمُ للرَّدىٰ، فقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[1].

استئنافٌ بيانيٌّ لأنَّ ما جرىٰ من ذِكرِ الجنَّةِ في قولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ممَّا يستشرفُ السَّامعُ إلىٰ تفصيلِ بعضِ صفاتِها، وإذْ قد ذكَر أنَّها تجري من تحتِها الأنهارُ مُوهِمَ السَّامعِ أنَّها أنهارُ المياهِ؛ لأنَّ جَرْيَ الأنهارِ أكملُ محاسنِ الجنَّاتِ المرغوبِ فيها، فلمَّا فُرغ من توصيفِ حالِ فريقَيِ الإيمانِ والكفرِ، وممَّا أعدَّ لكليهما، ومن إعلانِ تباينِ حالَيْهما؛ ثُني العِنانُ إلىٰ بيانِ ما في الجنَّةِ التي وُعد المتقون، وخصَّ من ذلك بيانَ أنواعِ الأنهارِ[2].

لمَّا بيَّن الفرقَ بينَ الفريقينِ في الاهتداءِ والضَّلالِ؛ بيَّن الفرقَ بينَهما في مَرجِعِهما ومآلِهما[3].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٢١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٩٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٤٦).

استئنافٌ مَسُوقٌ لشرحِ محاسنِ الجنَّةِ الموعودةِ آنفًا للمؤمنين، وبيانِ كيفيَّةِ أنهارِها التي أُشِيرَ إلىٰ جريانِها من تحتِها[(١)].

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ بعدَ هذا التَّمثيلِ والوصفِ والتَّشويقِ الذي يُبهِرُ العقولَ: فمِنَ النَّاسِ مَن يسمعُ منك بغايةِ المحبَّةِ والإنصافِ، فيُعلِيه اللهُ بفهمِ ما يتلوه واعتقادِه، والعملِ به واعتمادِه؛ وهم المتقون الذين وُعدوا الجنَّةَ؛ عطَف عليه قولَه تعالىٰ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[(٢)].

لمَّا بيَّن اللهُ تعالىٰ حالَ الكافرِ؛ ذكَر حالَ المنافقِ بأنَّه من الكفارِ[(٣)].

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر ما هم عليه، وشنَّع عليهم أقبحَ الذِّكرِ؛ ذكَر الذين آتاهم العلمَ، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾[(٤)].

جملةٌ مُعترِضةٌ بينَ جملةِ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ وما فُهم عنها من قولِه: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾، والواوُ اعتراضيَّةٌ، والمقصودُ من هذا الاعتراضِ: مقابلةُ فريقِ الضَّلالةِ بفريقِ الهدايةِ علىٰ الأسلوبِ الذي أُقِيمَتْ عليه هذه السُّورةُ كما تقدَّم في أوَّلِها، فهذا أسلوبٌ مُستمِرٌّ وإنِ اختلَفتْ مواقعُ جُمَلِه[(٥)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ٩٥).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٢٢٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٤٩).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٢٢٧).

(٥) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٠٢).

لمَّا بيَّن اللهُ تعالىٰ أنَّ المنافقَ يستمعُ ولا ينتفعُ، ويستعيدُ ولا يستفيدُ؛ بيَّن أنَّ حالَ المؤمنِ المهتدي بخلافِه، فإنَّه يستمعُ فيفهمُ، ويعملُ بما يعلمُ، والمنافقُ يستعيدُ، والمهتدي يُفسِّرُ ويُعِيدُ(١).

ثم بيَّن حالَ المهتدين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾(٢).

﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ١٨﴾

ولمَّا كان أشدُّ ما يُتَّقَىٰ القيامةَ التي هم بها مُكذِّبون؛ سبَّب عن اتِّباعِهم الهوىٰ قولَه تعالىٰ: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾(٣).

تفريعٌ علىٰ ما مضىٰ من وصفِ أحوالِ الكافرين من قولِه: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ إلىٰ قولِه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٦﴾ الشَّاملةِ لأحوالِ الفريقين، ففرَّع عليها أنَّ كلا الفريقينِ ينتظرون حلولَ السَّاعةِ لينالوا جزاءَهم علىٰ سوءِ كفرِهم(٤).

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾

ولمَّا عُلم بذلك أنَّ الذِّكرىٰ غيرُ نافعةٍ إذا انقضَتْ هذه الدَّارُ التي جُعلت للعملِ، أو جاءت الأشراطُ المحقَّقةُ الكاشفةُ لها؛ سبَّب عنه أمرَ أعظمِ الخلقِ وأشرفِهم،

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٥٠).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٨٧).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٢٢٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٠٢).

وأرقاهم وأجملِهم ﷺ تكوينًا ليكونَ لغيرِه تكليفًا، فقال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾[1].

فرَّع علىٰ جميعِ ما ذُكر -من حالِ المؤمنين وحالِ الكافرين، ومن عواقبِ ذلك ووعدِه أو وعيدِه- أنْ أَمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ بالثَّباتِ علىٰ ما له من العلمِ بوحدانيَّةِ اللهِ، وعلىٰ ما هو دَأْبُه من التَّواضعِ للهِ بالاستغفارِ لذنبِه، ومن الحرصِ علىٰ نجاةِ المؤمنين بالاستغفارِ لهم؛ لأنَّ في ذلك العلمِ وذلك الدَّأْبِ استمطارَ الخيراتِ له ولأُمَّتِه[2].

لبيانِ المناسبةِ وجوهٌ؛ الأوَّلُ: هو أنَّه تعالىٰ لمَّا قال: ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَا﴾؛ قال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يأتي بالسَّاعةِ. وثانيها: ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَا﴾، وهي آتيةٌ، فكأنَّ قائلًا قال: متىٰ هذا؟ فقال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فلا تَشتغِلْ به، واشتَغِلْ بما عليك من الاستغفارِ، وكُنْ في أيِّ وقتٍ مُستعِدًّا للقائِها[3].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠﴾

ولمَّا كان أدلُّ دليلٍ علىٰ إحاطةِ العلمِ علمَ ما أَبطَنَه الإنسانُ؛ ولا سِيَّما إن كان مُخالِفًا لِما أَظهَرَه؛ قال دالًّا علىٰ إحاطةِ علمِه بإظهارِ أسرارِ المنافقين، عاطفًا علىٰ ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٢٣٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٠٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٥٢).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٢٣٦).

قد ذكَرْنا أنَّ هذه السُّورةَ أُنزِلَتْ بالمدينةِ، وقد بَدَتْ قرونُ نفاقِ المنافقين، فلمَّا جرىٰ في هذه السورةِ وصفُ حالِ المنافقين؛ أَعقَبَ ذلك بوصفِ أجلىٰ مظاهرِ نفاقِهم، وذلك حينَ يُدعَىٰ المسلمون إلىٰ الجهادِ، فقد يضيقُ الأمرُ بالمنافقين؛ إذ كان تظاهرُهم بالإسلامِ سيُلجِئُهم إلىٰ الخروجِ للقتالِ مع المسلمين، وذلك أمرٌ ليس بالهيِّنِ؛ لأنَّه تعرُّضٌ لإتلافِهم النُّفوسَ دونَ أن يرجوا منه نفعًا في الحياةِ الأبديَّةِ، إذ هم لا يُصدِّقون بها، فيُصبِحوا في حَيْرةٍ، وكان حالُهم هذا مُخالِفًا لحالِ الذين آمنوا، الذي تَمَنَّوْا أن ينزِلَ القرآنُ بالدَّعوةِ إلىٰ القتالِ ليُلاقُوا المشركين فيَشفُوا منهم غليلَهم، فبهذه المناسبةِ حُكي تمنِّي المؤمنين نزولَ حكمِ القتالِ؛ لأنَّه يَلُوحُ به تمييزُ حالِ المنافقين، ويبدو منه الفرقُ بينَ حالِ الفريقينِ، وقد بيَّن كُرْهَ القتالِ لديهم في سورةِ «براءةَ»[(١)].

لمَّا بيَّن اللهُ حالَ المنافقِ والكافرِ والمهتدي المؤمنِ عندَ استماعِ الآياتِ العلميَّةِ من التَّوحيدِ والحشرِ وغيرِهما؛ بيَّن حالَهم في الآياتِ العمليَّةِ[(٢)].

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾

ولمَّا عُلم بما ذُكر من التَّسبُّبِ أنَّ هذا الدعاءَ عليهم -لِما تقدَّم من سوءِ أدبِهم في مقالِهم، وقُبْحِ ما ظهر من فِعالِهم-؛ حصَل التَّشوُّفُ إلىٰ ما ينبغي لهم، فقال تعالىٰ علىٰ طريقِ النَّشرِ المشوَّشِ: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٠٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٥٣).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٢٣٨-٢٣٩).

تفريعٌ علىٰ وصفِ حالِ المنافقين من الهلعِ عندَ سماعِ ذِكْرِ القتالِ، فإنَّه إذا جَدَّ أمرُ القتالِ -أي: حانَ أن يُندَبَ المسلمون إلىٰ القتالِ- سيضطربُ أمرُ المنافقين، ويَتسلَّلون لِواذًا من حضورِ الجهادِ، وأنَّ الأَولىٰ لهم حينَئذٍ أن يُخلِصوا الإيمانَ ويُجاهِدوا كما يُجاهِدُ المسلمون الخُلَّصُ، وإلَّا فإنَّهم لا مَحِيصَ لهم من أحدِ أمرينِ: إمَّا حضورُ القتالِ بدونِ نيَّةٍ، فتكونَ عليهم الهزيمةُ، ويخسروا أنفسَهم باطلًا، وإمَّا أن ينخذلوا عن القتالِ كما فعل ابنُ أُبَيٍّ وأتباعُه يومَ أُحُدٍ(١).

ثم ندبَهم تعالىٰ إلىٰ ما هو الأليقُ بحالِهم، فقال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾(٢).

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾

ولمَّا كان هذا تبكيتًا لهم من أجلِ فتورِهم عن أمرِ اللهِ؛ سبَّب عن ذلك الفتورِ بيانَ ما يَحصُلُ منه من عظيمِ الفسادِ، ويتأثَّرُ به من خرابِ البلادِ وشتاتِ العبادِ، في مَعرِضِ سؤالٍ في أسلوبِ الخطابِ بعدَ التَّبكيتِ والتَّهديدِ في أسلوبِ الغَيْبةِ؛ تنبيهًا علىٰ تناهي الغضبِ وبلوغِه الغايةَ، فقال تعالىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾(٣).

مقتضىٰ تناسقِ النَّظمِ أنَّ هذا مُفرَّعٌ علىٰ قولِه: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾؛ لأنَّه يُفهَمُ منه أنَّه إذا عزَم الأمرُ، تَوَلَّوْا عن القتالِ، وانكشَف نفاقُهم، فتكونُ إتمامًا لِما في الآيةِ السَّابقةِ من الإنباءِ بما سيكونُ من المنافقين يومَ أُحُدٍ(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١١٠).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٨٨).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٢٣٩-٢٤٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ١١١).

ثم ذكَر تعالىٰ حالَ المُتولِّي عن طاعةِ ربِّه، وأنَّه لا يتولَّىٰ إلىٰ خيرٍ، بل إلىٰ شرٍّ، فقال: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴾(١).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن لهم ما يكونُ ممَّن تَثاقَلَ عن أمرِ اللهِ؛ لأنَّ المَلِكَ لا يطرقُ احتمالًا في شيءٍ إلَّا وهو واقعٌ فرقًا بينَ كلامِه وكلامِ غيرِه، فكيف بمَلِكِ الملوكِ المحيطِ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا؟ بيَّن حالَهم الذي أنتجَ لهم ذلك، فقال مُلتفِتًا عنهم إيذانًا بالغضبِ، مُخاطِبًا لمن جُبل علىٰ الشَّفَقةِ علىٰ خلقِ اللهِ والرَّحمةِ لهم، إعلامًا له بأنَّ هؤلاء قد تحتمَّ شقاؤُهم، فليسوا بأهلٍ للشَّفاعةِ فيهم ولا للأسىٰ عليهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴾(٢).

إشارةٌ لمن سبَق ذِكرُهم من المنافقين، أبعَدَهم اللهُ عنه أو عن الخيرِ، فأَصَمَّهم فلا يسمعون الكلامَ المُسْتَبِينَ، وأعماهم فلا يتَّبِعون الصِّراطَ المستقيمَ، وفيه ترتيبٌ حسنٌ، وذلك من حيثُ إنَّهم استمَعوا الكلامَ العلميَّ ولم يفهموه، فهم بالنِّسبةِ إليه صُمٌّ أَصَمَّهم اللهُ، وعندَ الأمرِ بالعملِ ترَكوه، وعلَّلوا بكونِه إفسادًا وقطعًا للرَّحِمِ، وهم كانوا يَتعاطَوْنه عندَ النَّهيِ عنه، فلم يَرَوْا حالَهم عليه، وتركوا اتِّباعَ النبيِّ ﷺ الذي يأمرُهم بالإصلاحِ وصلةِ الأرحامِ، ولو دعاهم مَن يأمرُ بالإفسادِ وقطيعةِ الرَّحِمِ لاتَّبَعوه، فهم عُمْيٌ أعماهم اللهُ(٣).

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا أَخبرَ بذلك، فكان ربما سأل مَن لا يَعِي الكلامَ حقَّ وَعْيِه عن السَّببِ المُوجِبِ للَّعنِ المسبِّب للصمم والعمىٰ؛ أجابه بقولِه مُنكِرًا مُوبِّخًا، مُظهِرًا لتاءِ التَّفعُّلِ إشارةً

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٨٨).
(٢) نظم الدرر (١٨/ ٢٤٢).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٥٣).

إلىٰ أنَّ المأمورَ به صرف جميعَ الهِمَّةِ إلىٰ التَّأمُّلِ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[١].

تفريعٌ علىٰ قولِه: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾؛ أي: هَلَّا تدبَّروا القرآنَ عِوَضَ شُغْلِ بالِهم في مجلسِك بتَتبُّعِ أحوالِ المؤمنين، أو تفريعٌ علىٰ قولِه: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾، والمعنىٰ: أنَّ اللهَ خلَقَهم بعقولٍ غيرِ مُنفعِلةٍ بمعاني الخيرِ والصَّلاحِ، فلا يتدبَّرون القرآنَ مع فهمِه، أو لا يفهمونه عندَ تلقِّيه، وكلا الأمرينِ عجيبٌ[٢].

هذه الآيةُ مُحقِّقةٌ للآيةِ المتقدِّمةِ، ومُهيِّجةٌ لهم علىٰ تركِ ما هم فيه من الكفرِ الذي استحَقُّوا بسببِه اللَّعنةَ، أو كالتَّبكيتِ لهم علىٰ إصرارِهم علىٰ الكفرِ[٣].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾

ولمَّا أخبرَ سبحانه وتعالى بأقفالِ قلوبِهم؛ بيَّن منشأَ ذلك، فقال مُؤكِّدًا تنبيهًا لمن لا يهتمُّ به علىٰ أنَّه ممَّا ينبغي الاهتمامُ بالنَّظرِ فيه ليُخلِّصَ الإنسانُ نفسَه منه، وتكذيبًا لمن قال: إنَّ ذلك حسنٌ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾[٤].

لم يَزَلِ الكلامُ علىٰ المنافقين، فالذين ارتَدُّوا علىٰ أدبارِهم منافقون، فيجوزُ أن يكونَ مرادًا به قومٌ من أهلِ النِّفاقِ كانوا قد آمنوا حقًّا، ثم رجَعوا إلىٰ الكفرِ؛ لأنَّهم كانوا ضعفاءَ الإيمانِ قليلي الاطمئنانِ. ويجوزُ أن يكونَ مرادًا به جميعُ المنافقين، عبَّر عن

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٢٤٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١١٣).

(٣) فتح البيان (١٣/ ٧١).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٢٤٥).

تصميمِهم علىٰ الكفرِ بعدَ مشاركتِهم المسلمين في أحوالِهم في مجلسِ النبيِّ ﷺ، والصَّلاةِ معَه، وسماعِ القرآنِ والمواعظِ، بالارتدادِ؛ لأنَّه مُفارَقةٌ لتلك الأحوالِ الطَّيِّبةِ؛ أي: رجَعوا إلىٰ أقوالِ الكفرِ وأعمالِه، وذلك إذا خَلَوْا إلىٰ شياطينِهم. وتَبيُّنُ الهدىٰ علىٰ هذا الوجهِ: كونُه بيِّنًا في نفسِه، وهو بيِّنٌ لهم؛ لوضوحِ أدِلَّتِه، ولا غبارَ عليه. ويجوز أن يكونَ المرادُ به قومًا من المنافقين لم يُقاتِلوا مع المسلمين بعدَ أن علموا أنَّ القتالَ حقٌّ[1].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦﴾

ولمَّا بيَّن تسليطَه الشَّيطانَ عليهم؛ بيَّن سببَه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾[2].

استئنافٌ بيانيٌّ؛ إذِ التقديرُ أن يسألَ سائلٌ عن مظهرِ تسويلِ الشَّيطانِ لهم الارتدادَ بعدَ أن تبيَّن لهم الهدىٰ، فأُجيبَ بأنَّ الشَّيطانَ استدرجهم إلىٰ الضَّلالِ عندَما تبيَّن لهم الهدىٰ، فسوَّل لهم أن يُوافِقوا أهلَ الشِّركِ والكفرِ في بعضِ الأمورِ مُسوِّلًا أنَّ تلك الموافقةَ في بعضِ الأمرِ لا تَنقُضُ اهتداءَهم، فلمَّا وافقوهم وجَدوا حلاوةَ ما أَلِفوه من الكفرِ فيما وافَقوا فيه أهلَ الكفرِ، فأخذوا يعودون إلىٰ الكفرِ المألوفِ حتَّىٰ ارتدُّوا علىٰ أدبارِهم. وهذا شأنُ النَّفسِ في معاودةِ ما تُحِبُّه بعدَ الانقطاعِ عنه إن كان الانقطاعُ قريبَ العهدِ[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١١٥).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٢٤٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١١٦).

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن تعالىٰ إحاطةَ علمِه بهم؛ أَتبَعَه إحاطةَ قدرتِه، فقال تعالىٰ مُسبِّبًا عن خيانتِهم وهم في القبضةِ بما لا يخفىٰ ممَّا يريدون به صيانةَ أنفسِهم عن القتلِ، مُعبِّرًا بالاستفهامِ تنبيهًا علىٰ أنَّ حالَهم ممَّا يُجازُون به علىٰ هذا الاستحقاقِ له من البشاعةِ والقباحةِ والفظاعةِ ما يَحِقُّ السُّؤالُ عنه لأجلِه، فقال: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾[(١)].

الفاءُ يجوزُ أن تكونَ للتَّفريعِ علىٰ جملةِ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم ... ﴾ الآيةَ، وما بينَهما مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ بناءً علىٰ المحملِ الأوَّلِ للارتدادِ، فيكونُ التَّفريعُ لبيانِ ما سيَلحَقُهم من العذابِ عندَ الموتِ، وهو استهلالٌ لِما يتواصلُ من عذابِهم عن مبدأِ الموتِ إلىٰ استقرارِهم في العذابِ الخالدِ، ويجوزُ علىٰ المحملِ الثَّاني، وهو أنَّ المرادَ الارتدادُ عن القتالِ، وتكونُ الفاءُ فصيحةً، فيُفِيدُ: إذا كانوا فرُّوا من القتالِ هلعًا وخوفًا؛ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾؛ أي: كيف هَلَعُهم ووَجَلُهم الذي ارتدُّوا بهما عن القتالِ؟ وهذا يقتضي شيئينِ: أوَّلُهما أنَّهم ميِّتون لا محالةَ، وثانيهما أنَّ مَوْتَتَهم يَصحَبُها تعذيبٌ. فالأوَّلُ مأخوذٌ بدلالةِ الالتزامِ، والثَّاني هو صريحُ الكلامِ، وهو وعيدٌ لتعذيبٍ في الدنيا عندَ الموتِ، والمقصودُ: وعيدُهم بأنَّهم سيُعجَّلُ لهم العذابُ من أوَّلِ منازلِ الآخرةِ، وهو حالةُ الموتِ[(٢)].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾

ولمَّا كان كفرانُ النَّعيمِ يُوجِبُ مع إحلالِ النِّعَمِ إبطالَ ما تقدَّم من الخِدَمِ؛ قال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٢٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١١٨).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٢٥٠).

الإشـارةُ بـذلك إلـىٰ المـوتِ الفظيـعِ الـذي دلَّ عليـه قولُـه: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾. والجمعُ بينَ الإخبارِ عنهم باتِّباعِهم مـا أَسخَطَ اللهَ وكراهتِهم رضوانَه مع إمكـانِ الاجتزاءِ بأحدِهما عن الآخرِ؛ للإيماءِ إلىٰ أنَّ ضربَ الملائكةِ وجوهَ هؤلاء مُناسِبٌ لإقبالِهم علىٰ ما أَسخَطَ اللهَ، وأنَّ ضربَهم أدبارَهم مُناسِبٌ لكراهتِهم رضوانَه؛ لأنَّ الكراهةَ تستلزمُ الإعراضَ والإدبارَ، ففي الكلامِ أيضًا مُحسِّنُ اللَّفِّ والنَّشرِ المرتَّبِ، فكان ذلك التَّعذيبُ مناسبًا لحالَيْ تَوَقِّيهم في الفرارِ من القتالِ، وللسَّببينِ الباعثينِ علىٰ ذلك التَّوقِّي[1].

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾

ولمَّا صوَّر سبحانه ما أثَّرَتْه خيانتُهم بأقبحِ صورةٍ، فبانَ به أنَّه ما حمَلَهم علىٰ ما فعلوه إلَّا جهلُهم وسفاهتُهم، فأَنتَجَ إهانتَهم بالتَّبكيتِ، فقال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: أَعَلِمُوا حينَ قالوا ما يُسخِطُنا أنَّا نعلمُ سِرَّهم ونجواهم، وأنَّ قدرتَنا مُحِيطةٌ بهم ليكونوا قد وطَّنوا أنفسَهم علىٰ أنَّا نُظهِرُ للنَّاسِ ما يكتمونه، ونأخذُهم أخذًا وبيلًا، فيكونوا أجهلَ الجهلةِ: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾[2].

انتقالٌ من التَّهديدِ والوعيدِ إلىٰ الإنذارِ بأنَّ اللهَ مُطْلِعٌ رسولَه ﷺ علىٰ ما يُضمِرُه المنافقون من الكفرِ والمكرِ والكيدِ؛ ليعلموا أنَّ أسرارَهم غيرُ خافيةٍ، فيُوقِنوا أنَّهم يَكِدُّون عقولَهم في ترتيبِ المكائدِ بلا طائلٍ، وذلك خيبةٌ لآمالِهم[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١١٩).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٢٥١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٢٠).

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠﴾

ولمَّا عُلم من ذلك إحاطةُ علمِه ﷻ، وشمولُ قدرتِه؛ عُلم ما له سبحانه من باهرِ العَظَمةِ وقاهرِ العِزَّةِ، فنقَل الكلامَ إلىٰ أسلوبِها تنبيهًا علىٰ ذلك، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: خابَتْ ظنونُهم، وفالَتْ آراؤُهم، فَلَنُخرِجَنَّ ما يُبالِغون في ستره حتَّىٰ لا ندعَ منه شيئًا يريدون إخفاءَه إلَّا كشَفْناه، وأَبدَيْناه للنَّاسِ وأَوضَحْناه، فإنَّا نعلمُهم ونعلمُ ذلك منهم من قبلِ أن نخلقَهم، فلو نشاءُ لَفَضَحْناهم حتَّىٰ يعرفَهم النَّاسُ أجمعون، فلا يخفىٰ منهم أحدٌ علىٰ أحدٍ منهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[(١)].

كان مرضُ قلوبِهم خَفِيًّا؛ لأنَّهم يُبالِغون في كتمانِه وتمويهِه بالتَّظاهرِ بالإيمانِ، فذكر اللهُ لنبيِّه ﷺ أنَّه لو شاء لَأَطلَعَه عليهم واحدًا واحدًا، فيعرفُ ذواتِهم بعلاماتِهم[(٢)].

لمَّا كان مفهومُ قولِه: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ﴾ أنَّ اللهَ يُظهِرُ ضمائرَهم ويُبرِزُ سرائرَهم؛ كأنَّ قائلًا قال: فلِمَ لم يُظهِرْ؟ فقال: أخَّرْناه لمحضِ المشيئةِ، لا لخوفٍ منهم كما لا تُفشَىٰ أسرارُ الأكابرِ خوفًا منهم: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[(٣)].

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾

ولمَّا أَخبرَ سبحانه أنَّه يُعرِّفُهم لنبيِّه ﷺ؛ أَتبعَه الإخبارَ بأنَّه يُعرِّفُهم لكافَّةِ المؤمنين أيضًا، فقال مُؤكِّدًا لأجلِ ظنِّهم أنَّ عندَهم من المَلَكةِ الشَّديدةِ والعقلِ الرَّصينِ ما يُخفُون به أمورَهم: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٢٥٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٢١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٥٩).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٢٥٦).

عطفٌ على قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، ومعناه معنى الاحتراسِ ممَّا قد يتوهَّمُ السَّامعون من قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ من الاستغناءِ عن التَّكليفِ(١).

ثم ذكَر أعظمَ امتحانٍ يمتحنُ به عبادَه؛ وهو الجهادُ في سبيلِ اللهِ، فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾(٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾

ولمَّا جَرَتِ العادةُ بأنَّ الإنسانَ لا يُعذِّبُ ولا يُهدِّدُ إلَّا مَن ضَرَّه، كما تقدَّم من الإخبارِ بنكالِهم وقبيحِ أعمالِهم، مُهيِّئًا للسُّؤالِ عن ذلك، فاستأنَفَ قولَه مُؤكِّدًا لظنِّهم أنَّهم هم الغالبون لحزبِ اللهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾(٣).

الظَّاهرُ أنَّ المَعْنِيَّ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هنا: الذين كفروا المذكورون في أوَّلِ هذه السورةِ وفيما بعدُ من الآياتِ التي جرى فيها ذِكرُ الكافرين؛ أي: الكفارُ الصُّرَحاءُ، عاد الكلامُ إليهم بعدَ الفراغِ من ذِكْرِ المنافقين الذين يُخفُون الكفرَ، عَوْدًا على بدءٍ لتهوينِ حالِهم في نفوسِ المسلمين، فبعدَ أن أخبَرَ اللهُ أنَّه أَضَلَّ أعمالَهم، وأنَّهم اتَّبَعوا الباطلَ، وأمَر بضربِ رقابِهم، وأنَّ التَّعْسَ(٤) لهم، وحقَّرهم بأنَّهم يتمتَّعون ويأكلون كما تأكلُ الأنعامُ، وأنَّ اللهَ أهلَكَ قُرًى هي أشدُّ منهم قُوَّةً، ثم جرى ذِكرُ المنافقين، بعدَ ذلك ثُني عِنانُ الكلامِ إلى الذين كفروا أيضًا ليُعرِّفَ اللهُ المسلمين

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٢٣).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٨٩).
(٣) نظم الدرر (١٨/ ٢٥٨).
(٤) أي: الخسران والهلاك.

بأنَّهم في هذه المآزِقِ التي بينَهم وبينَ المشركين لا يَلحَقُهم منهم أدنىٰ ضُرٍّ، وليزيدَ وصفَ الذين كفروا بأنَّهم شاقُّوا الرسولَ ﷺ[(١)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾﴾

ولمَّا حدا ما تقدَّم كلُّه من ترغيبِ المخلصِ وترهيبِ المتردِّدِ والمُبطِلِ إلىٰ الإخلاصِ، ودعا إلىٰ ذلك مع بيانِ أنَّه لا غرضَ أصلًا، وإنَّما هو رحمةٌ ولُطْفٌ وإحسانٌ ومَنٌّ؛ أَنتَجَ قولَه مُنادِيًا مَن احتاجَ إلىٰ النداءِ من نوعِ بُعْدٍ لاحتياجِه إلىٰ ذلك وعدمِ مبادرتِه قبلَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[(٢)].

اعتراضٌ بينَ جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وبينَ جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾، وجِّه به الخطابَ إلىٰ المؤمنين بالأمرِ بطاعةِ اللهِ ورسولِه ﷺ، وتجنُّبِ ما يُبطِلُ الأعمالَ الصَّالحةَ اعتبارًا بما حُكي من حالِ المشركين في الصَّدِّ عن سبيلِ الله ومُشاقَّةِ الرسولِ ﷺ، فوصَف الإيمانَ في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مُقابِلَ وصفِ الكفرِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وطاعةَ اللهِ مُقابِلَ الصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ، وطاعةَ الرسولِ ضِدَّ مُشاقَّةِ الرسولِ ﷺ، والنَّهيَ عن إبطالِ الأعمالِ ضِدَّ بطلانِ أعمالِ الذين كفروا[(٣)].

ثم أمَر سبحانه عبادَه المؤمنين بطاعتِه وطاعةِ رسولِه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٢٥).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٢٥٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٢٧).

(٤) فتح القدير (٥/ ٤٩).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٞ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ ﴾

ولمَّا دلَّ ما أَخبرَ به أوَّلًا عن المُشاقِقين علىٰ أنَّهم مغلوبون في الدنيا خاسرون في الآخرةِ، وكانت الخسارةُ في الآخرةِ مشروطةً بشرطٍ؛ علَّل ما أُمر به المؤمنون هنا من الطَّاعةِ ونُهُوا عنه من إبطالِ الأعمالِ بالمعصيةِ، زيادةً في حَثِّهم علىٰ ما أمَر به، بعِلَّتينِ كلٌّ منهما مُستقِلٌّ بامتثالِ أمرِه واجتنابِ نهيِه: إحداهما عدمُ المغفرةِ، والثَّانيةُ بطلانُ الأعمالِ والأموالِ بكونِ الدنيا لا حقيقةَ لها، وقدَّم الأولىٰ لأنَّ الثَّانيةَ -وهي أنَّ الدنيا لَعِبٌ- كالعِلَّةِ الحاصلةِ علىٰ ما أَوجَبَها، ومِن حُسْنِ التَّعليمِ بيانُ الحكمِ ثم تعليلُه بأقربِ ما يَحمِلُ عليه أو يَصُدُّ عنه، فكأنَّه قيل: لا تُبطِلوها بالصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ الحاملِ عليه الإقبالُ علىٰ الدنيا التي هي عينُ الباطلِ، فإنَّكم إن فعلتم ذلك فاتَتْكم المغفرةُ، وذلك من معنىٰ قولِه تعالىٰ مُؤكِّدًا لإنكارِهم مضمونَه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٞ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾[1].

هذه الآيةُ تكملةٌ لآيةِ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ ... ﴾ إلخ؛ لأنَّ تلك مَسُوقةٌ لعدمِ الاكتراثِ بمشاقَّتهم، ولبيانِ أنَّ اللهَ مُبطِلٌ صنائعَهم، وهذه مَسُوقةٌ لبيانِ عدمِ انتفاعِهم لمغفرةِ اللهِ؛ إذْ ماتوا علىٰ ما هم عليه من الكفرِ، فهي مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا[2].

ثم بيَّن سبحانه أنَّه لا يغفرُ للمُصِرِّين علىٰ الكفرِ والصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٞ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٢٦١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٢٩).

(٣) فتح القدير (٥/ ٤٩).

﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾

ولمَّا قدَّم سبحانه ذَمَّ الكَفَرةِ، وأنَّه عليهم، وأنَّه يُبطِلُ أعمالَهم في الدنيا في الحربِ وغيرِها، وختَم بأنَّ عداوتَه لهم مُتحتِّمةٌ لا انفكاكَ لها، وكان ذلك مُوجِبًا للاجتراءِ عليهم؛ سبَّب عنه قولَه مُرغِّبًا لهم في لزومِ الجهادِ، مُحذِّرًا من تركِه: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾(١).

الفاءُ للتَّفريعِ علىٰ ما تقرَّر في نفوسِ المؤمنين من خَذْلِ اللهِ تعالىٰ المشركين، بما أَخبَرَ به مِن أنَّه أَضَلَّ أعمالَهم وقدَّر لهم التَّعْسَ، وبما ضرَب لهم من مصائرِ أمثالِهم من الذين مِن قبلِهم دمَّرَهم اللهُ وأَهلَكَهم ولم يجدوا ناصرًا، وما وعَد به المؤمنين من النَّصرِ عليهم وما أَمَرَهم به من قتالِهم، وبتكفُّلِه للمؤمنين بالوَلايةِ، وما وعَدَهم من الجزاءِ في دارِ الخُلْدِ، وبما أَتبَعَ ذلك من وصفِ كَيْدِ فريقِ المنافقين للمؤمنين وتَعهُّدِهم بإعانةِ المشركين، وذلك ممَّا يُوجِسُ منه المؤمنون خِيفةً؛ إذْ يعلمون أنَّ أعداءً لهم مُنبَثُّون بينَ ظَهْرَانَيْهم، فعلىٰ ذلك كلِّه فرَّع نَهْيَهم عن الوَهَنِ وعن المَيْلِ إلىٰ الدَّعةِ، ووعَدَهم بأنَّهم المنتصِرون وأنَّ اللهَ مُؤيِّدُهم. ويجوزُ أن يُجعَلَ التَّفريعُ علىٰ أقربِ الأخبارِ المتقدِّمةِ؛ وهو قولُه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(٢).

ثم نهىٰ سبحانه المؤمنين عن الوَهَنِ والضَّعْفِ، فقال: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٢٦٢-٢٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٢٩).

(٣) فتح القدير (٥/ ٤٩).

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا أتمَّ العِلَّةَ الأولىٰ؛ أقبَلَ علىٰ الثَّانيةِ الصَّادَّةِ عن الطَّاعةِ، القائدةِ إلىٰ المعصيةِ، الملائمةِ للشَّهوةِ، المُبْطِلةِ للأعمالِ، الموجِبةِ للتَّهاونِ المؤدِّي إلىٰ عدمِ المغفرةِ، فقال مُرغِّبًا في طاعتِه الموجِبةِ للفوزِ الدَّائمِ، ببيانِ قِصَرِ أيَّامِ المحنةِ، وتَجرُّعِ مراراتِ المشقَّةِ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾[(١)].

تعليلٌ لمضمونِ قولِه: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ ﴾، وهذا تحذيرٌ من أن يحملَهم حُبُّ لذائذِ العيشِ علىٰ الزَّهادةِ في مُقابَلةِ العدوِّ، ويتلو إلىٰ مُسالَمتِه؛ فإنَّ ذلك يُغري العدوَّ بهم[(٢)].

﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾

ولمَّا كان الإنسانُ -لِما جُبل عليه من النُّقصان- قد يُهلِكُ جميعَ أموالِه لهوًا ولَعِبًا بالمُقامَرةِ ونحوِها، ولا ينهاه ذلك بل لا يَزيدُه إلَّا إقبالًا رجاءَ أن يظفرَ، ولو سُئل جميعَ مالِه في الطَّاعةِ لبَخِلَ؛ قال تعالىٰ ذاكرًا لهم ذلك تنبيهًا عليه، وإيماءً إلىٰ حِلْمِه تعالىٰ عنهم وتَحبُّبه إليه، مُعلِّلًا ما قبلَه: ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٢٦٣-٢٦٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٣٢).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٢٦٧).

الأَشبَهُ أنَّ هذا عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ تذكيرًا بأنَّ امتثالَ هذا النَّهيِ هو التَّقوىٰ المحمودةُ، ولأنَّ الدعاءَ إلىٰ السَّلْمِ قد يكونُ الباعثُ عليه حُبَّ إبقاءِ المالِ الذي يُنفَقُ في الغزوِ، فذُكِّروا هنا بالإيمانِ والتَّقوىٰ ليخلعوا عن أنفسِهم الوَهَنَ؛ لأنَّهم نُهُوا عنه وعن الدعاءِ إلىٰ السَّلْمِ، فكان الكَفُّ عن ذلك من التَّقوىٰ(١).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ حكمتِه ورحمتِه في عدمِ سؤالِه إنفاقَ أموالِهم كلِّها، بقولِه: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾(٢).

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

ولمَّا أَخبرَ ببُخْلِهم لو سُئلوا جميعَ أموالِهم أو أكثرَها؛ دَلَّ عليه بمَنْ يبخلُ منهم عمَّا سأله منهم وهو جزءٌ يسيرٌ جدًّا من أموالِهم، فقال مُنبِّهًا لهم علىٰ حُسْنِ تدبيرِه لهم، وعَفْوِه عنهم عندَ مَن جعَل «ها» للتنبيهِ، ومَن جعَل الهاءَ بدلًا من همزةِ استفهامٍ، جعَلَها للتَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ لأنَّ مِن حقِّ مَن دعاه مولاه أن يُبادِرَ للإجابةِ مسرورًا، فضلًا أن يبخلَ، وفي هاءِ التنبيهِ -ولا سِيَّما عندَ مَن يرىٰ تكرُّرَها- تأكيدٌ لأجلِ استبعادِهم أنَّ أحدًا يبخلُ عمَّا يأمرُ اللهُ به سبحانه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾، وحقَّر أمرَهم، أو أحضره في الذِّهنِ وصوَّره بقولِه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ﴾(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٣٣).

(٢) محاسن التأويل (٨/ ٤٧٩).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٢٦٨).

بَقِيَ علينا قولُه: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ ...﴾ إلخ، كيف موقعُه بعدَ قولِه: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾؛ فإنَّ الدَّعوةَ للإنفاقِ عينُ سؤالِ الأموالِ؛ فكيف يُجمَعُ بينَ ما هنا وبينَ قولِه آنفًا: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾؟ فيجوزُ أن يكونَ المعنىٰ: تُدْعَوْنَ لتُنفِقوا في سبيلِ اللهِ لتدفعوا أعداءَكم عنكم، وليس ذلك لينتفعَ به اللهُ، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾، ونَظْمُ الكلامِ يقتضي أنَّ هذه دعوةٌ للإنفاقِ في الحالِ، وليس إعلامًا لهم بأنَّهم سيُدْعَوْنَ للإنفاقِ، فهو طلبٌ حاصلٌ، ويُحمَلُ ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾ علىٰ معنىٰ: تُؤمَرون؛ أي: أمرَ إيجابٍ. ويجوزُ أن يُحمَلَ ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾ علىٰ دعوةِ التَّرغيبِ، فتكونَ الآيةُ تمهيدًا للآياتِ المقتضِيةِ إيجابَ الإنفاقِ في المستقبلِ؛ مِثلَ آيةِ ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ونحوِها، ويجوزُ أن يكونَ إعلامًا بأنَّهم سيُدْعَوْنَ إلىٰ الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ فيما بعدَ هذا الوقتِ، فيكونَ المضارعُ مُستعمَلًا في زمنِ الاستقبالِ، والمضارعُ يحتملُه في أصلِ وضعِه[1].

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٣٦).

سورة الفتح

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ ﴾

ولمَّا أخبَر سبحانه بالفتحِ عَقِبَ سورةِ «محمدٍ»؛ بشارةً بظهورِ أهلِ هذا الدينِ وإدبارِ الكافرين -كما سيأتي في إيلاءِ سورةِ «النصرِ» بسورةِ «الكافرين»-؛ لذلك علَّل الفتحَ بالمغفرةِ وما بعدها رمزًا إلىٰ وفاةِ النبيِّ ﷺ -برُوحِي هو وأبي وأُمِّي-، وإيماءً إلىٰ أنَّ المرادَ من إخراجِه إلىٰ دارِ الفناءِ إنَّما هو إظهارُ الدينِ القيِّم، وإزهاقُ الباطلِ؛ لتعلوَ درجتُه وتَعظُمَ رِفْعَتُه، فعند حصولِ الفتحِ ثم المرادِ كما كانت سورةُ «النصرِ» الواليةُ «للكافرين» رامزةً إلىٰ ذلك، كما هو مشهور، ومذكورٌ ومسطور، فالفتحُ الذي هو أحدُ العلاماتِ الثلاثِ المذكورةِ كما في سورةِ «النصرِ» علىٰ جميعِ المُناوِين، الذي هو السببُ الأعظمُ في ظهورِ دينِه علىٰ الدينِ كلِّه، الذي هو العلامةُ العظمىٰ علىٰ اقترابِ أجلِه -نفسي فداؤه، وإنسانُ عيني من كلِّ سوءٍ وِقاؤُه-، فقال تعالىٰ: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[1].

قولُه: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ بدلُ اشتمالٍ من ضميرِ ﴿لَكَ﴾، والتقديرُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ لأجلِك لغفرانِ اللهِ لك، وإتمامِ نعمتِه عليك، وهدايتِك صراطًا مستقيمًا، ونصرِك نصرًا عزيزًا. وجُعِلَتْ مغفرةُ اللهِ للنبيِّ ﷺ عِلَّةً للفتحِ؛ لأنَّها من جملةِ ما أراد اللهُ

(١) نظم الدرر (١٨/ ٢٨٠-٢٨١).

حصولَه بسببِ الفتحِ، وليست لامُ التعليلِ مُقتضِيةً حصرَ الغرضِ من الفعلِ المعلَّلِ في تلك العِلَّةِ، فإنَّ كثيرًا من الأشياءِ تكونُ لها أسبابٌ كثيرةٌ، فيُذكَرُ بعضُها ممَّا يقتضيه المقامُ، وإذْ قد كان الفتحُ لكرامةِ النبيِّ ﷺ على ربِّه تعالى؛ كان من عِلَّتِه أن يغفرَ اللهُ لنبيِّه ﷺ مغفرةً عامَّةً إتمامًا للكرامة، فهذه مغفرةٌ خاصَّةٌ بالنبيِّ ﷺ هي غيرُ المغفرةِ الحاصلةِ للمجاهدين بسببِ الجهادِ والفتحِ(١).

ثم رتَّب اللهُ على هذا الفتحِ عدَّةَ أمورٍ، فقال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾(٢).

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾

ولمَّا كانت المغفرةُ من أسبابِ النصرِ؛ ناسَب أن يذكرَها هنا، فقال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾

ولمَّا كان ﷺ قد أخبَر المؤمنين برُؤْياه أنَّه يطوفُ بالكعبةِ الشريفةِ، وعزَم على العمرةِ عامَ الحُدَيْبِيَةِ، وخرج ﷺ وخرج معه خلاصةُ أصحابِه ألفٌ وخمسُمئةٍ، فكانوا مُوقِنين أنَّهم يعتمرون في وجهِهم ذلك، وقَرَّ ذلك في صدورِهم، وأُشْرِبَتْه قلوبُهم، فصار نزعُه منها أشقَّ شيءٍ يكونُ؛ قصَدَهم المشركون بعدَ أن برَكتْ ناقتُه، وصالَحَهم ﷺ على أن يرجعَ عنهم في ذلك العامِ ويعتمرَ في مِثْلِ ذلك الوقتِ من القابلِ، وكان ذلك -بل أدنى منه- مُزَلزِلًا للاعتقادِ، مُطرِقًا لشيطانِ الوسوسةِ في الدينِ، وقد كان مِثلُه في الإسراءِ، ولم يكنْ ﷺ أخبر بما يوهمُ في أمرِه، فارتدَّ ناسٌ كثيرٌ بسببِه، قال تعالى دالًّا على النصرِ بتثبيتِ المؤمنين في هذا المحلِّ الضَّنْكِ؛

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٤٦).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧٩١).

إظهارًا لتمام قدرتِه ولطيفِ حكمتِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(١).

هذه الجملةُ بدلُ اشتمالٍ من مضمونِ جملةِ ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾، وحصَل منها الانتقالُ إلىٰ ذِكْرِ حظِّ المسلمين من هذا الفتحِ؛ فإنَّ المؤمنين هم جنودُ اللهِ الذين قد نصر النبيَّ ﷺ بهم، فكان في ذِكْرِ عنايةِ اللهِ بإصلاحِ نفوسِهم، وإذهابِ خواطرِ الشيطانِ عنهم، وإلهامِهم إلىٰ الحقِّ في ثباتِ عَزْمِهم وقرارةِ إيمانِهم؛ تكوينٌ لأسبابِ نصرِ النبيِّ ﷺ، والفتحِ الموعودِ به؛ ليندفعوا حينَ يستنفرُهم إلىٰ العدوِّ بقلوبٍ ثابتةٍ(٢).

لمَّا قال تعالىٰ: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾؛ بيَّن وجهَ النصرِ، وذلك لأنَّ اللهَ تعالىٰ قد ينصرُ رُسُلَه بصَيْحَةٍ يُهلِكُ بها أعداءَهم، أو رَجْفةٍ تحكمُ عليهم بالفناءِ، أو جُنْدٍ يُرسِلُه من السماءِ، أو نصرٍ وقوةٍ وثباتِ قلبٍ يرزقُ المؤمنين به؛ ليكونَ لهم بذلك الثوابُ الجزيلُ، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(٣).

ثم ذكَر آثارَ هذا الفتحِ علىٰ المؤمنين، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(٤).

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾

ولمَّا دلَّ علىٰ الفتحِ بالنصرِ وما معه، وعلَّل الدينَ بالسكينةِ؛ علَّل عِلَّةَ الدليلِ وهي ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾، وعلَّل ما دلَّ عليه ملكُ الجنودِ من تدبيرِهم وتدبيرِ الأكوانِ بهم،

(١) نظم الدرر (١٨/ ٢٨٣-٢٨٤).
(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٤٩).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٦٧).
(٤) تفسير السعدي (ص: ٧٩١).

بقولِه تعالىٰ زيادةً في السكينةِ: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[(١)].

اللَّامُ للتعليلِ متعلِّقةٌ بفعلِ ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾، فما بعد اللَّامِ عِلَّةٌ لعِلَّةِ إنزالِ السكينةِ، فتكونُ عِلَّةً لإنزالِ السكينةِ أيضًا بواسطةِ أنَّه عِلَّةُ العِلَّةِ[(٢)].

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾

ولمَّا كان من أعظمِ الفوزِ إقرارُ العينِ بالانتقامِ من العدوِّ، وكان العدوُّ المُكاتِمُ أشدَّ من العدوِّ المُجاهِرِ المُراغِمِ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[(٣)].

الحديثُ عن جنودِ اللهِ في مَعرِضِ ذِكْرِ نصرِ اللهِ يقتضي -لا محالةَ- فريقًا مهزومًا بتلك الجنودِ؛ وهم العدوُّ، فإذا كان النصرُ الذي قدَّره اللهُ معلولًا بما بشَّر به المؤمنين؛ فلا جَرَمَ اقتضىٰ أنَّه معلولٌ بما يَسُوءُ العدوَّ وحِزْبَه، فذكَر اللهُ من عِلَّةِ ذلك النصرِ أنَّه يعذِّبُ بسببِه المنافقين حزبَ العدوِّ، والمشركين صميمَ العدوِّ، فكان قولُه: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ معطوفًا علىٰ ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾، والابتداءُ بذِكْرِ المنافقين في التعذيبِ قبل المشركين لتنبيهِ المسلمين بأنَّ كفرَ المنافقين خَفِيٌّ، فربما غفَل المسلمون عن هذا الفريقِ أو نسوه[(٤)].

(١) نظم الدرر (١٨/ ٢٨٦-٢٨٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٥١).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٢٨٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٥٢).

ثم لمَّا فرَغ ممَّا وعد به صالِحِي عبادِه؛ ذكَر ما يَستحِقُّه غيرُهم، فقال: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[١].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

ولمَّا كان هذا مُعْلِمًا بأنَّ الكفارَ -معَ ما يُشاهَدُ منهم من الكثرةِ الظاهرةِ والقوةِ المُتضافِرةِ المُتَوافِرةِ- لا اعتبارَ لهم؛ لأنَّ البلاءَ مُحِيطٌ بهم في الدارينِ، وكان ذلك أمرًا يُوجِبُ تشعُّبَ الفِكْرِ في المؤثِّرِ فيهم ذلك؛ عطَف على ما تقديرُه -إعلامًا بأنَّ التدبيرَ على هذا الوجهِ لحِكَمٍ ومصالحَ يَكِلُّ عنها الوصفُ، ودفعًا لِما قد يتوهَّمُه مَن لم يَرسَخْ إيمانُه ممَّا يجبُ التنزيهُ عنه-: فلِلَّهِ القوةُ جميعًا، يفعلُ ما يشاءُ فيمَن يشاءُ مِن غيرِ سببٍ تَرَوْنَه: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٢].

هذا نظيرُ ما تقدَّم آنفًا، إلَّا أنَّ هذا أُوثِرَ بصفةِ «عَزِيزٍ» دونَ «عَلِيمٍ»؛ لأنَّ المقصودَ مِن ذِكْرِ الجنودِ هنا الإنذارُ والوعيدُ بهزائمَ تَحُلُّ بالمنافقين والمشركين، فكما ذكَر ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيما تقدَّم للإشارةِ إلى أنَّ نصرَ النبيِّ ﷺ يكونُ بجنودِ المؤمنين وغيرِهما؛ ذكَر ما هنا للوعيدِ بالهزيمةِ، فمناسبةُ صفةِ «عزيزٍ»؛ أي: لا يَغلِبُه غالبٌ[٣].

ثم قال مؤكِّدًا لقدرتِه على الانتقامِ من الأعداءِ -أعداءِ الإسلامِ من الكفَرةِ والمنافقين-: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٤].

---

(١) فتح القدير (٥/ ٥٤).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٢٩٠-٢٩١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٥٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٢٩).

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨﴾

ولمَّا تبيَّن أنَّه ليس لغيرِه مدخلٌ في إيجادِ النصرِ، وكانت السورةُ من أولِها حضرةَ مخاطبةٍ وإقبالٍ، فلم يَدْعُ أمرٌ إلىٰ نداءٍ بياءٍ ولا غيرِها، وكان كأنَّه قيل: فما فائدةُ الرسالةِ إلىٰ الناسِ؟ أُجيبَ بقولِه تقريرًا لِما ختم به من صفتَي العِزَّةِ والحكمةِ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[(١)].

لمَّا أُريد الانتقالُ من الوعدِ بالفتحِ والنصرِ، وما اقتضاه ذلك ممَّا اتَّصل به ذِكرُه، إلىٰ تبيينِ ما جرىٰ في حادثةِ الحُدَيْبِيةِ، وإبلاغِ كلِّ ذي حظٍّ من تلك القضيَّةِ نصيبَه المُستحَقَّ ثناءً أو غيرَه؛ صدَّر ذلك بذِكرِ مرادِ اللهِ من إرسالِ رسولِه ﷺ ليكونَ ذلك كالمقدِّمةِ للقِصَّةِ، وذُكرت حكمةُ الله تعالىٰ في إرسالِه ما له مزيدُ اختصاصٍ بالواقعةِ المتحدَّثِ عنها[(٢)].

﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾

ولمَّا ذكَر حالَ الرسالةِ، ذكَر عِلَّتَها، فقال: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[(٣)].

ثم بيَّن فائدةَ الإرسالِ علىٰ الوجهِ الذي ذكره، فقال: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٢٩١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٥٥).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٢٩٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٧٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

ولمَّا ذكَر الرسولَ ﷺ وما أرسَلَه له، وختم الآيةَ بأنَّه لا يرضىٰ من ذِكْرِه وذِكْرِ رسولِه إلَّا بالمداومةِ بالفعلِ أو بالقوةِ، مع توحيدِه الضميرَ إشارةً إلىٰ وحدةِ الإرادةِ والمحبَّةِ من الرسولِ والمُرسِلِ؛ أوضَح المرادَ بتوحيدِ الضميرِ بقولِه مُرغِّبًا في اتِّباعِه، ومُرهِّبًا لأتباعِه عن أدنىٰ فترةٍ أو توانٍ فيما دخلوا فيه من الإيمانِ، الذي هو عِلَّةُ الرسالةِ، وما ذكَره معه في جوابِ مَن يسألُ: ما سببُ توحيدِ الضميرِ والمذكورُ اثنانِ؟ مؤكِّدًا لأجلِ ما غلَب علىٰ الطِّباعِ البشريَّةِ من التقيُّدِ بالوهمِ، والنُّكوصِ عمَّا غاب ولا مُرشِدَ إليه سوىٰ العقل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[(١)].

لمَّا بيَّن أنَّه مُرسَلٌ، ذكَر أنَّ مَن بايَعه فقد بايَع اللهَ[(٢)].

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾

ولمَّا ذكَر ﷻ أهلَ بيعةِ الرِّضوانِ، وأضافَهم إلىٰ حضرةِ الرحمنِ؛ تشوَّف السامعُ إلىٰ الخبرِ عمَّن غاب عن ذلك الجنابِ، وأبطَأ عن حضرةِ تلك العمرةِ، فاستُؤنِفَ الإخبارُ عمَّا يُنافِقون به بقولِه تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٢٩٤-٢٩٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٧٣).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٢٩٩).

لمَّا حذَّر من النَّكْثِ، ورغَّب في الوفاءِ؛ أتبَع ذلك بذِكْرِ التخلُّفِ عن الانضمامِ إلىٰ جيشِ النبيِّ ﷺ حينَ الخروجِ إلىٰ عمرةِ الحُدَيبيةِ، فالجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا لمناسبةِ ذِكْرِ الإيفاءِ والنَّكْثِ، فكمل بذِكْرِ مَن تخلَّفوا عن الداعي للعهدِ(١).

لمَّا بيَّن حالَ المنافقين، ذكَر حالَ المتخلِّفين(٢).

﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾

ولمَّا أضرب عن ظنِّهم أنَّ كذبَهم يخفىٰ عليه بأمرٍ عامٍّ، وقدَّمه لأنَّه أعمُّ نفعًا بما فيه من الشمولِ؛ أتبَعه الإضرابَ عن مضمونِ كلامِهم، فقال: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾(٣).

هذه الجملةُ بدلُ اشتمالٍ من جملةِ ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ ﴾؛ أي: خبيرًا بما علمتم، ومنه ظنُّكم ﴿ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(٤).

ثم ختَم ﷻ بمكنونِ ضمائرِهم، ومخزونِ ما أعدَّ لهم عنده تعالىٰ، بقولِه سبحانه: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٧٤).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٣٠٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٤).

(٥) روح المعاني (١٣/ ٢٥٣).

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: ذلك لأنَّكم لم تؤمنوا، فمَن آمن منكم ومِن غيرِكم وأخلَص، أَبحْناه جنَّةً وحريرًا؛ عطَف عليه قولَه معمِّمًا: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾[1].

جملةٌ معترِضةٌ بين أجزاءِ القولِ المأمورِ به في قولِه: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ الآياتِ، وقولِه: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، وهذا الاعتراضُ للتحذيرِ من استدراجِهم أنفسَهم في مدارجِ الشكِّ في إصابةِ أعمالِ الرسولِ ﷺ أن يُفضِيَ بهم إلىٰ دَرَكاتِ الكفرِ بعد الإيمان؛ إذ كان تخلُّفُهم عن الخروجِ معه، وما علَّلوا به تثاقلَهم في نفوسِهم، وإظهارُ عذرٍ مكذوبٍ أضمَروا خلافَه؛ كُلُّ ذلك حَوْمًا حولَ حِمىٰ الشكِّ يُوشِكون أن يقعوا فيه[2].

كلامٌ مُبتدَأٌ من جهتِه تعالىٰ، غيرُ داخلٍ في الكلامِ الملقَّنِ، مقرِّرٌ لبوارِهم ومبيِّنٌ لكيفيَّتِه[3].

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا انقضىٰ حديثُ الجنودِ عامَّةً ثم خاصَّةً من المنتدبين والمخلصين، وخُتم بعذابِ الكافرين، وكان المتصرِّفُ في الجنودِ ربما كان بعضَ خواصِّ المَلِكِ، فلا يكونُ تصرُّفُه فيهم تامًّا، وكان الملكُ قد لا يقدرُ علىٰ عذابِ مَن أراد من جنودِه،

(١) نظم الدرر (١٨/ ٣٠٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٠٨).

وكان إذا قدَر قد لا يقدرُ على العذابِ بكُلِّ ما يريدُه من السعيرِ الموصوفِ وغيره؛ لعدمِ عمومِ ملكِه؛ قال تعالى عاطفًا على آيةِ الجنودِ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(١).

عطفٌ على جملةِ ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، فهو من أجزاءِ القولِ، وهذا انتقالٌ من التخويفِ الذي أوهمه ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إلى إطماعِهم بالمغفرةِ التي سألوها؛ ولذلك قُدِّمَ الضَّرُّ على النفعِ في الآيةِ الأولى، فقيل: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾؛ ليكونَ احتمالُ إرادةِ الضَّرِّ بهم أسبقَ في نفوسِهم، وقُدِّمَتِ المغفرةُ هنا بقولِه: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ ليتقرَّرَ معنى الإطماعِ في نفوسِهم، فيبتدِروا إلى استدراكِ ما فاتهم(٢).

بعد ما ذكَر مَن له أجرٌ عظيمٌ من المُبايِعين، ومَن له عذابٌ أليمٌ من الظانِّين الضالِّين؛ أشار إلى أنَّه يغفرُ للأوَّلين بمشيئتِه، ويعذِّبُ الآخرين بمشيئتِه، وغفرانُه ورحمتُه أعمُّ وأشملُ، وأتمُّ وأكملُ(٣).

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

ولمَّا ذمَّ المخلَّفِين بما منه -أي: من الذمِّ- أنَّهم هالِكون بعد أن قدَّم أنَّه لعنَهم، وكان قد وعَد سبحانه أهلَ الحُدَيبيةِ فتحَ خيبرَ؛ جبرًا لهم بما منعهم من الاستيلاءِ على مكَّةَ المشرَّفةِ؛ لِما له في ذلك من الحِكَمِ البالغةِ الدقيقةِ، وختَم بأنَّه نافذُ الأمرِ، وكان

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٣٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٧٥).

ذلك مُستلزِمًا لإحاطةِ العلمِ؛ دلَّ علىٰ كلا الأمرينِ بقولِه استئنافًا، جوابًا لمن كأنَّه قال: هل يغفرُ للمُخلَّفِين حتىٰ يكونوا كأنَّهم ما تخلَّفوا؟ ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(١)].

وهو أيضًا إعلامٌ للنبيِّ ﷺ بما سيقولُه المخلَّفون عن الحُدَيبيةِ، يتعلَّقُ بتخلُّفِهم عن الحُدَيبيةِ وعُذْرِهم الكاذبِ، وأنَّهم سيندمون علىٰ تخلُّفِهم حينَ يَرَوْنَ اجتناءَ أهلِ الحُدَيبيةِ ثمرةَ غَزْوِهم، ويتضمَّنُ تأكيدَ تكذيبِهم في اعتذارِهم عن التخلُّفِ بأنَّهم حينَ يعلمون أنَّ هنالك مغانمَ من قتالٍ غيرِ شديدٍ، يحرصون علىٰ الخروجِ، ولا تَشغَلُهم أموالُهم ولا أهاليهم، فلو كان عذرُهم حقًّا لَما حرَصوا علىٰ الخروجِ إذا توقَّعوا المغانمَ، ولَأَقبَلوا علىٰ الاشتغالِ بأموالِهم وأهليهم، ولكونِ هذه المقالةِ صدَرتْ منهم عن قريحةٍ ورغبةٍ، لم يُؤْتَ معها بمجرورِ «لك» كما أُتِيَ به في قولِه: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ آنفًا؛ لأنَّ هذا قولُ راغبٍ صادقٍ، غيرِ مُزوِّرٍ لأجلِ الترويجِ علىٰ النبيِّ ﷺ كما علمتَ ذلك فيما تقدَّم، واستُغنِيَ عن وصفِهم بأنَّهم من الأعرابِ لأنَّ تعريفَ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ تعريفُ العهدِ؛ أي: المخلَّفون المذكورون[(٢)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ المخلَّفين وذمَّهم، ذكَر أنَّ من عقوبتِهم الدنيويةِ أنَّ رسولَ الله ﷺ وأصحابَه إذا انطلَقوا إلىٰ غنائمَ لا قتالَ فيها ليأخذوها، طلبوا منهم الصُّحبةَ والمشاركة، ويقولون: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٣٠٦-٣٠٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٧).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٩٣).

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

ولمَّا كان ذلك يُوقِعُ في نفسِ السامعِ السؤالَ عن هذا الطَّرْدِ: هل يستمرُّ؟ أُجِيبَ بأنَّهم سيُمتَحنون بأمرٍ شاقٍّ يُحدِثُه اللهُ للتمييزِ بين الخُلَّصِ وغيرِهم، فقال مكرِّرًا لوصفِهم بالتخلُّفِ، إعلامًا بأنَّهم في الحقيقةِ ما تخلَّفوا، بل مُنعوا طردًا لهم وإبعادًا، معذِّبًا لهم بما خلَّفهم عن اتِّباعِ النبيِّ ﷺ في هذه العمرةِ من الخوفِ من قتالِ قريشٍ لشِدَّةِ بأسِهم، كما أثاب المُحِبِّين له ﷺ بضِدِّ ما عزموا عليه من القتالِ إلىٰ النصرِ أو الموتِ من كفِّ أيديهم عنهم بما جعله اللهُ سببًا للفتحِ الأعظمِ، والتفرُّغِ لفتحِ خيبرَ، وأخذِ غنائمِها الكثيرةِ من غيرِ كبيرِ كُلْفةٍ: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].

انتقالٌ إلىٰ طَمْأَنةِ المخلَّفين بأنَّهم سينالون مغانمَ في غزواتٍ آتيةٍ؛ ليعلموا أنَّ حرمانَهم من الخروجِ إلىٰ خيبرَ مع جيشِ الإسلامِ ليس لانسلاخِ الإسلامِ عنهم، ولكنَّه لحكمةِ نَوْطِ المسبَّباتِ بأسبابِها، علىٰ طريقةِ حكمةِ الشريعةِ، فهو حرمانٌ خاصٌّ بوقعةٍ معيَّنةٍ كما تقدَّم آنفًا، وأنَّهم سيُدعَون بعد ذلك إلىٰ قتالِ قومٍ كافرين كما تُدعَىٰ طوائفُ المسلمين، فذِكْرُ هذا في هذا المقامِ إدخالٌ للمَسَرَّةِ بعد الحزنِ؛ ليُزيلَ عنهم انكسارَ خواطرِهم من جرَّاءِ الحرمانِ، وفي هذه البشارةِ فرصةٌ لهم ليستدركوا ما جَنَوْه من التخلُّفِ عن الحُدَيبيةِ، وكلُّ ذلك دالٌّ علىٰ أنَّهم لم ينسلخوا عن الإيمانِ[2].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٣١٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٧٠).

لمَّا ذكَر تعالىٰ أنَّ المُخلَّفِين من الأعرابِ يتخلَّفون عن الجهادِ في سبيلِه، ويعتذرون بغيرِ عذرٍ، وأنَّهم يطلبون الخروجَ معهم إذا لم يكنْ شوكةٌ ولا قتالٌ، بل لمجرَّدِ الغنيمةِ؛ قال تعالىٰ ممتحِنًا لهم: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

ولمَّا توعَّد المُتخلِّفين بتخلُّفِهم عن رسولِ الله ﷺ، ثم توعَّدهم في التقاعدِ عن هذا الإمامِ القائمِ بعده بالحقِّ، وكان أهلُ الأعذارِ لا يتيسَّرُ لهم ما أُرِيدَ بهذا الدعاء، وكان الدينُ مبنيًّا علىٰ الحنيفيَّةِ السَّمْحةِ؛ استأنف قولَه تعالىٰ مسكِّنًا لِما استثاره الوعيدُ من رَوْعِهم: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[2].

جملةٌ معترضةٌ بين جملةِ ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ وبين جملةِ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآيةَ، قُصِد منها نفيُ الوعيدِ عن أصحابِ الضَّرارةِ تنصيصًا علىٰ العذرِ؛ للعنايةِ بحكمِ التولِّي والتحذيرِ منه[3].

ثم خصَّ من هذا الوعيدِ أصحابَ الأعذارِ، وإنْ حدثت بعد التخلُّفِ الأولِ، بقولِه سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[4].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٩٣).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٣١٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٧٢).

(٤) محاسن التأويل (٨/ ٤٩٦).

ثم ذكَر الأعذارَ التي يُعذَرُ بها العبدُ عن الخروجِ إلىٰ الجهادِ، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١).

﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا وعَد المُطِيعَ وأوعَد العاصيَ، وكانت النفوسُ إلىٰ الوعدِ أشدَّ التفاتًا؛ دلَّ عليه بثوابٍ عظيمٍ منه أمرٌ محسوسٌ يَعظُمُ جذبُه للنفوسِ القاصرةِ عن النُّفوذِ في عالمِ الغيبِ، فقال مؤكِّدًا لأنَّ أعظمَ المرادِ به المُذَبْذَبون، مفتتِحًا بـ«قد» لأنَّ السِّياقَ موجِبٌ للتوقُّعِ؛ لِما جرىٰ من السُّنَّةِ الإلهيَّةِ أنَّها إذا شوَّقتْ إلىٰ شيءٍ، دلَّتْ عليه بمشهودٍ يُقرِّبُ الغائبَ الموعودَ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (٢).

عَوْدٌ إلىٰ تفصيلِ ما جازىٰ اللهُ به أصحابَ بيعةِ الرضوانِ، المتقدِّمِ إجمالُه في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، فإنَّ كونَ بيعتِهم الرسولَ ﷺ تُعتبَرُ بيعةً للهِ تعالىٰ، أومأ إلىٰ أنَّ لهم بتلك المُبايَعةِ مكانةً رفيعةً من خيرِ الدنيا والآخرةِ، فلمَّا قطع الاسترسالَ في ذلك بما كان تحذيرًا من النَّكْثِ وترغيبًا في الوفاءِ، بمناسبةِ التضادِّ، وذكر ما هو وسطٌ بينَ الحالينِ وهو حالُ المُخلَّفِين، وإبطالِ اعتذارِهم، وكشفِ طَوِيَّتِهم، وإقصائِهم عن الخيرِ الذي أعدَّه اللهُ للمُبايِعين، وإرجائِهم إلىٰ خيرٍ يسنحُ مِن بعدُ إنْ هم صدَقوا التوبةَ وأخلَصوا النِّيَّةَ، فقد أنالَ اللهُ المُبايِعين رضوانَه، وهو

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٩٣).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٣١٥).

أعظمُ خيرٍ في الدنيا والآخرةِ، والشهادة لهم بإخلاصِ النِّيَّةِ، وإنزاله السَّكينةَ قلوبَهم، ووعدهم بثوابِ فتحٍ قريبٍ ومغانمَ كثيرةٍ[(١)].

لمَّا ذكَر تعالىٰ حالَ مَن تخلَّف عن السفرِ مع الرسولِ ﷺ، ذكَر حالَ المؤمنين الخُلَّصِ الذين سافروا معه[(٢)].

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر الفتحَ، ذكَر بعضَ ثمرتِه، فقال: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[(٣)].

﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾

ولمَّا قرُب ذلك وتأكَّد، وتحرَّر وتقرَّر، أقبَل ﷻ عليهم بالخطابِ تأكيدًا لمسامعِهم، فقال مزيلًا لكُلِّ احتمالٍ يتردَّدُ في خواطرِ المُخلَّفين: ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[(٤)].

هذه الجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا نشأ عن قولِه: ﴿ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾؛ إذ عُلم أنَّه فتحُ خيبرَ، فحقَّ لهم ولغيرِهم أن يخطرَ ببالِهم أن يترقَّبوا مغانمَ أخرىٰ، فكان هذا الكلامُ جوابًا لهم؛ أي: لكم مغانمُ أخرىٰ لا يُحرَم منها مَن تخلَّفوا عن الحُدَيبيةِ، وهي المغانمُ التي حصلت في الفتوحِ المستقبَلة[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٧٣).
(٢) البحر المحيط (٩/ ٤٩١).
(٣) نظم الدرر (١٨/ ٣١٧).
(٤) نظم الدرر (١٨/ ٣١٨).
(٥) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٧٧).

﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

ولمَّا سرَّهم سبحانه بما بشَّرهم به من كونِ القضيَّةِ فتحًا، ومن غنائمِ خيبرَ؛ أتبَع ذلك البشارةَ دالًّا على أنَّها لا مَطمَعَ لهم في حَوْزِه ولا علاجِه لولا معونتُه، فقال: ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾[(١)].

عطفٌ على جملةِ ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً ﴾، فلفظُ ﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ دلَّ عليه ﴿ وَمَغَانِمَ ﴾ الذي في الجملةِ قبلها؛ أي: هي نوعٌ آخرُ من المغانمِ صعبةُ المنالِ[(٢)].

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ ﴾

ولمَّا قدَّم سبحانه أنَّه كَفَّ أيديَ الناسِ عنكم أجمعين، ذكَر حكمَهم لو وقع قتالٌ، فقال مقرِّرًا لقدرتِه، عاطفًا على نحوِ: فلو أراد لَمكَّنكم من الاعتمارِ، مؤكِّدًا لأجلِ استبعادِ مَن يستبعدُ ذلك من الأعرابِ وغيرِهم: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[(٣)].

هذا عطفٌ على قولِه: ﴿ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ على أنَّ بعضَه متعلِّقٌ بالمعطوفِ عليه، وبعضَه معطوفٌ على المعطوفِ عليه، فما بينهما ليس من الاعتراضِ، والمقصودُ من هذا العطفِ التنبيهُ على أنَّ كَفَّ أيدي الناسِ عنهم نعمةٌ على المسلمين باستبقاءِ قُوَّتِهم وعُدَّتِهم ونشاطِهم، وليس الكَفُّ لدفعِ غَلَبَةِ المشركين إيَّاهم؛ لأنَّ اللهَ قدَّر للمسلمين عاقبةَ النصرِ، فلو قاتَلَهم الذين كفروا لَهَزَمَهم المسلمون ولم يجدوا نصيرًا؛ أي: لم ينتصروا بجمعِهم ولا بمن يُعِينُهم[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٣١٩-٣٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٨٠).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٣٢٠-٣٢١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٨١).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ تبشيرِ أهلِ بيعةِ الرضوانِ بالظَّفَرِ والنصرِ المستمرِّ؛ لصدقِ إيمانِهم، وإخلاصِهم في ثباتِهم، وإيثارِهم مَرْضاةَ اللهِ ورسولِه علىٰ كلِّ محبوبٍ، بقولِه: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[(١)].

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا كانت هذه عادةً جاريةً قديمةً مع أولياءِ اللهِ تعالىٰ حيثما كانوا، من الرُّسلِ وأتباعِهم، ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾؛ قال تعالىٰ: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[(٢)].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا تقرَّر أنَّ الكفارَ مغلوبون وإنْ قاتلوا، وكان ذلك من خوارقِ العاداتِ، مع كثرتِهم دائمًا وقِلَّةِ المؤمنين، حتىٰ يأتيَ أمرُ اللهِ مُوقِعًا للعلمِ القطعيِّ بأنَّه ما دبَّره إلَّا الواحدُ القهَّارُ؛ عطَف عليه عَجَبًا آخرَ؛ وهو عدمُ تغيُّرِ أهلِ مكَّةَ في هذه العمرةِ للقتالِ بعد تعاهدِهم وتعاقدِهم عليه، مع ما لهم من قوةِ العزائمِ وشِدَّةِ الشكائمِ، فقال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: هو الذي سَنَّ هذه السُّنَّةَ العامَّةَ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[(٣)].

تبيينًا لِما تقدَّم من قولِه: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ﴾؛ أي: هو بتقديرِ اللهِ؛ لأنَّه كَفَّ أيديَهم عنكم بالفرار، وأيديَكم عنهم بالرجوع عنهم وتركِهم[(٤)].

---

(١) محاسن التأويل (٨/ ٥٠٠).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٣٢١).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٣٢٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٨١).

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾

ولمَّا كان ما مضىٰ من وصفِهم علىٰ وجهٍ يشملُ غيرَهم من جميعِ الكفارِ، عيَّنَهم مبيِّنًا لسببِ كَفِّهم عنهم مع استحقاقِهم في ذلك الوقتِ للبوار، والنَّكالِ والدَّمار، فقال: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[(١)].

استئنافٌ انتقل به من مقامِ الثناءِ علىٰ المؤمنين الذين بايعوا رسولَ الله ﷺ، وما اكتسَبوا بتلك البيعةِ من رضا اللهِ تعالىٰ، وجزائِه ثوابَ الآخرةِ، وخيرِ الدنيا عاجلِه وآجلِه، وضمانِ النصرِ لهم في قتالِ المشركين، وما هيَّأ لهم من أسبابِ النصرِ، إلىٰ تعييرِ المشركين بالمَذَمَّةِ التي أَتَوْا بها؛ وهي صَدُّ المسلمين عن المسجدِ الحرامِ، وصَدُّ الهَدْيِ عن أن يُبلَغَ به إلىٰ أهلِه؛ فإنَّها سُبَّةٌ لهم بين العربِ، وهم أولىٰ الناسِ بالحفاوةِ بمن يعتمرون، وهم يزعمون أنَّهم أهلُ حرمِ اللهِ زُوَّارِه ومُعظِّمِيه، وقد كان من عادتِهم قبولُ كلِّ زائرٍ للكعبةِ من جميعِ أهلِ الأديانِ، فلا عذرَ لهم في منعِ المسلمين، ولكنَّهم حَمَلَتْهم عليه الحَمِيَّةُ[(٢)].

ثم ذكَر تعالىٰ الأمورَ المهيِّجةَ علىٰ قتالِ المشركين، فقال: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٣٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٨٧).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٧٩٤).

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

ولمَّا بيَّن شرطَ استحقاقِهم للعذابِ، بيَّن وقتَه، وفيه بيانٌ لعِلَّتِه، فقال: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾(١).

ظرفٌ متعلِّقٌ بفعلِ «صَدُّوكم»؛ أي: صَدُّوكم صدًّا لا عذرَ لهم فيه، ولا داعيَ إليه إلَّا حَمِيَّةُ الجاهليَّةِ، وإلَّا فإنَّ المؤمنين جاؤوا مسالِمين، معظِّمين حُرْمةَ الكعبة، سائقين الهدايا لنفعِ أهلِ الحرم، فليس من الرُّشدِ أن يُمنَعوا عن العمرة، ولكنْ حَمِيَّةُ الجاهليَّةِ غطَّتْ علىٰ عقولِهم فصمَّموا علىٰ منعِ المسلمين، ثم آلَ النِّزاعُ بين الطائفتينِ إلىٰ المصالحةِ علىٰ أن يرجعَ المسلمون هذا العامَ وعلىٰ أنَّ المشركين يمكِّنونهم من العمرةِ في القابل، وأنَّ العامينِ سواءٌ عندهم، ولكنَّهم أرادوا التشفِّي لِما في قلوبِهم من الإِحَنِ(٢) علىٰ المسلمين، فكان تعليقُ هذا الظرفِ بفعلِ ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ مشعِرًا بتعليلِ الصَّدِّ بكونِه حَمِيَّةَ الجاهليَّةِ؛ ليفيدَ أنَّ الحَمِيَّةَ متمكِّنةٌ منهم، تظهرُ منها آثارُها، فمنها الصَّدُّ عن المسجدِ الحرام(٣).

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾

ولمَّا قرَّر ﷻ علمَه بالعواقبِ لإحاطةِ علمِه، ووجَّه أسبابَ كفِّه أيديَ الفريقينِ، وبيَّن ما فيه من المصالح، وما في التسليطِ من المفاسد؛ مِن قتلِ مَن حُكم بإيمانِه من

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٣٢٩).

(٢) جمع (إحْنة)، وهي العداوة.

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٩٣).

المشركين، وإصابةِ مَن لا يُعلَمُ من المؤمنين، وغيرِ ذلك، إلىٰ ختمٍ بإحاطةِ علمِه المُستلزِمِ لشمولِ قدرتِه؛ أنتَج ذلك قولَه لمن توقَّع الإخبارَ عن الرُّؤيا -التي أَقلَقَهم أمرُها، وكاد بعضُهم أن يُزَلزِلَه ذِكرُها- علىٰ سبيلِ التأكيدِ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[(١)].

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ودَحْضُ ما خامَر نفوسَ فريقٍ من الفشلِ أو الشكِّ أو التحيُّرِ، وتبيينُ ما أنعم اللهُ به علىٰ أهلِ بيعةِ الرضوانِ من ثوابِ الدنيا والآخرة، إلىٰ كشفِ شبهةٍ عرَضتْ للقوم في رؤيا رآها رسولُ الله ﷺ؛ ذلك «أنَّ رسولَ الله ﷺ رأىٰ رؤيا قبل خروجِه إلىٰ الحُدَيبيةِ -أو وهو في الحُدَيبيةِ- كأنَّه وأصحابَه قد دخلوا مكَّةَ آمنين، وحلَّقوا وقصَّروا»[(٢)]، هكذا كانت الرُّؤيا مُجمَلةً ليس فيها وقوعُ حجٍّ ولا عمرةٍ، والحِلاقُ والتقصيرُ مناسبٌ لكليهما، وقصَّ رسولُ اللهِ ﷺ رؤياه علىٰ أصحابِه، فاستبشَروا بها، وعبَّروها أنَّهم داخلون إلىٰ مكَّةَ بعمرتِهم التي خرجوا لأجلِها، فلمَّا جرىٰ الصُّلحُ، وتأهَّب الناسُ إلىٰ القفولِ؛ أثارَ بعضُ المنافقين ذِكرَ الرُّؤيا فقالوا: فأين الرُّؤيا؟! فواللهِ ما دخلنا المسجدَ الحرامَ، ولا حلَّقْنا وقصَّرْنا؟ فقال لهم أبو بكرٍ رضي الله عنه: إنَّ المنامَ لم يكن مُوقَّتًا بوقتٍ، وإنَّه سيدخلُ، وأنزل اللهُ تعالىٰ هذه الآيةَ[(٣)]، والمعنىٰ: أنَّ رؤيا رسولِ الله ﷺ حقٌّ، وأنَّ اللهَ أوحىٰ إليه بها، وأنَّها وإنْ لم تقعْ في تلك القضيَّةِ فستُحقَّقُ بعد ذلك، وكأنَّ الحكمةَ في إراءةِ اللهِ رسولَه ﷺ تلك الرُّؤيا أيَّامَئذٍ، وفي إخبارِ الرسولِ ﷺ أصحابَه بها: أنَّ اللهَ أدخل بذلك علىٰ قلوبِهم الثِّقةَ بقُوَّتِهم، وتربيةَ الجراءةِ علىٰ المشركين في ديارِهم، فتَسلَمُ قلوبُهم من ماءِ الجُبْنِ؛

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٣٣٣).

(٢) أخرجه الطبري في "التفسير" (٢١/ ٣١٦) بنحوه.

(٣) أورده القرطبي في "تفسيره" (١٦/ ٢٩٠).

فإنَّ الأمراضَ النفسيَّةَ إذا اعترَتِ النفوسَ، لا تَلبَثُ أن تتركَ فيها بقايا الداءِ زمانًا، كما تبقىٰ آثارُ المرضِ في العضوِ المريضِ بعد النَّقاهةِ زمانًا، حتىٰ ترجعَ إلىٰ العضوِ قُوَّتُه الأولىٰ بعد مُدَّةٍ مناسبةٍ(١).

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾

ولمَّا أخبَر بهذه الأمورِ الجليلةِ الدقيقةِ، المبنيَّةِ علىٰ إحاطةِ العلمِ، علَّلها سبحانه، وبيَّن الصدقَ فيها بقولِه تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾(٢).

زيادةُ تحقيقٍ لصدقِ الرُّؤيا بأنَّ الذي أرسل رسولَه ﷺ بهذا الدينِ، ما كان ليُريَه إلَّا رؤيا صادقةً، فهذه الجملةُ تأكيدٌ للتحقيقِ المستفادِ من حرفِ «قد» ولامِ القَسَمِ في قولِه: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ﴾(٣).

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾

ولمَّا ختَم سبحانه بإحاطةِ العلمِ بالخفايا والظواهرِ في الإخبارِ بالرسالةِ، عيَّنَها في قولِه جوابًا لمن يقولُ: مَن الرسولُ المُنوَّهُ باسمِه؟ ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٩٧).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٣٣٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٠١).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٣٣٧).

لمَّا بيَّن صدقَ الرسولِ ﷺ في رؤياه، واطمَأَنَّتْ نفوسُ المؤمنين؛ أعقَب ذلك بتنويهِ شأنِ الرسولِ ﷺ، والثناءِ على المؤمنين الذين معه[1].

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٠٢).

سورة الحجرات

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾

ولمَّا ثبَت إعظامُ الرسولِ ﷺ بأن لا يُفْتاتَ عليه بأن يتأهَّبَ ما هو وظيفتُه من التقدُّمِ في الأمورِ وقطعِ المُهِمَّاتِ، فلا يُكلَّمُ إلَّا جوابًا، أو سؤالًا في أمرٍ ضروريٍّ لا يمكنُ تأخيرُه، وكان مَن يكلِّمُه لذلك ربما رفع صوتَه رفعًا الأَولىٰ به غيرُه ممَّا هو دونَه، وكان من جملةِ أحوالِه أن يُوحَىٰ إليه بالأمورِ العظيمة، وكان رفعُ الصوتِ إذ ذاك من المشوِّشاتِ في حُسْنِ التلقِّي للوحي، مع ما فيه من قِلَّةِ الاحترام، والإخلالِ بالإجلالِ والإعظام؛ قال ذاكرًا لثاني الأقسام -وهو ما كان النظرُ فيه إلىٰ مقامِه ﷺ بالقصدِ الأول-، مستنتِجًا ممَّا مضىٰ من وصفِه بالرسالة الدالَّةِ علىٰ النُّبُوَّة أمرًا بحفظِ حُرْمَتِه، ومُراعاةِ الأدبِ في خدمتِه وصُحْبتِه، بتبجيلِه وتفخيمِه، وإعزازِه وتعظيمِه، مكرِّرًا لندائِهم بما ألزموا أنفسَهم به من طاعتِه بتصديقِه، واستدعاءً لتجديدِ الاستنصارِ وتطريةِ النَّدبِ إلىٰ الإنصاتِ، وإشارةً إلىٰ أنَّ المُناديٰ له أمرٌ يستحقُّ أن يُفرَدَ بالنداءِ ويَستقِلَّ بالتَّوصيةِ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[1].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٣٥٥-٣٥٦).

شروعٌ في النهيِ عن التجاوزِ في كيفيَّةِ القولِ عندَ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بعد النهيِ عن التجاوزِ في نفسِ القولِ والفعلِ، وإعادةُ النداءِ -مع قُرْبِ العهدِ به- للمبالغةِ في الإيقاظِ، والتنبيهِ والإشعارِ باستقلالِ كلٍّ من الكلامينِ باستدعاءِ الاعتناءِ بشأنِه[١].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

ولمَّا تقدَّم سبحانه في الإخلالِ بشيءٍ من حرمتِه ﷺ، ونهىٰ عن رفعِ الصَّوتِ والجهرِ الموصوفِ؛ أنتَج المخافةَ عندَه علىٰ سبيلِ الإجلالِ، فبيَّن ما لمن حافظ علىٰ ذلك الأدبِ العظيمِ، فقال مؤكِّدًا لأنَّ في المنافقين وغيرِهم مَن يكذِّبُ بذلك، وتنبيهًا علىٰ أنَّه -لمحبَّةِ اللهِ له، ورضاه به- أهلٌ لِأَنْ يُؤكَّدَ أمرُه، ويُواظَبَ علىٰ فعلِه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[٢].

هذه الجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ التحذيرَ الذي في قولِه: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ يثيرُ في النفسِ أن يسألَ سائلٌ عن ضِدِّ حالِ الذي يرفعُ صوتَه. وافتتاحُ الكلام بحرفِ التأكيدِ؛ للاهتمامِ بمضمونِه من الثناءِ عليهم وجزاءِ عملِهم، وتفيدُ الجملةُ تعليلَ النهيينِ بذِكْرِ الجزاءِ عن ضِدِّ المنهيِّ عنهما[٣].

ثم رغَّب سبحانه في امتثالِ ما أمر به، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[٤].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١١٧).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٣٥٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٢٢).

(٤) فتح القدير (٥/ ٧٠).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

ولمَّا نهىٰ سبحانه عن الإخلالِ بالأدب، وأمر بالمحافظة علىٰ التعظيمِ، وذكَر وصفَ المُطِيعِ؛ أتبَع ذلك علىٰ سبيلِ النتيجةِ وصفَ مَن أخلَّ به، فقال مؤكِّدًا لأجلِ أنَّ حالَهم كان حالَ مَن يدعُ عقلًا تامًّا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾[1].

هذه الجملةُ بيانٌ لجملةِ ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ بيانًا بالمثالِ، وهو سببُ النزولِ، فهذا شروعٌ في الغرض، والذي نشأ عنه ما أوجب نزولَ صدرِ السورةِ فافتُتِحَ به؛ لأنَّ التحذيرَ والوعدَ اللَّذينِ جُعلا لأجلِه صالحانِ لأن يكونا مقدِّمةً للمقصود، فحصل بذلك نسجٌ بديعٌ، وإيجازٌ جليلٌ، وإن خالَف ترتيبُ ذِكْرِه ترتيبَ حصولِه في الخارج، وقد صادَف هذا الترتيبُ المَحَزَّ أيضًا؛ إذ كان نداؤهم من وراءِ الحُجُراتِ من قَبِيلِ الجهرِ للرسولِ ﷺ بالقولِ كجهرِ بعضِهم لبعضٍ، فكان النهيُ عن الجهرِ له بالقولِ تخلُّصًا لذِكْرِ ندائِه من وراءِ الحُجُراتِ. والمرادُ بالذين يُنادُون النبيَّ ﷺ من وراءِ الحُجُراتِ: جماعةٌ من وفدِ بني تميمٍ، جاؤوا المدينةَ في سنةِ تسعٍ -وهي سنةُ الوُفُودِ-، وكانوا سبعين رجلًا أو أكثرَ[2].

بيانًا لحالِ مَن كان في مقابلةِ مَن تقدَّم، فإنَّ الأولَ غضَّ صوتَه، والآخرَ رفَعَه[3].

مناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلها ظاهرةٌ، وذلك أنَّ المُناداةَ من وراءِ الحُجُراتِ فيها رفعُ الصوتِ وإساءةُ الأدب، واللهُ قد أمر بتوقيرِ رسولِه ﷺ وتعظيمِه[4].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٣٥٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٢٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٩٦).

(٤) البحر المحيط (٩/ ٥١٠).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

ولمَّا ذمَّهم بسوءِ عملِهم، أرشَدهم إلىٰ ما يُمدَحون به من حُسْنِه، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١).

ثم أرشَد إلىٰ الأدبِ في ذلك، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦﴾

ولمَّا أنهىٰ سبحانه ما أرادَ من النهيِ عن أذىٰ الرسولِ ﷺ في نفسِه، وكان من ذلك أذاه في أُمَّتِه، فإنَّه عزيزٌ عليه ما عَنِتُوا، وكان مَن آذاه فيهم فاسقًا، وكان أعظمُ الأذىٰ فيهم ما أورَث كربًا فأثار حربًا، وكان ربما اتَّخذَ أهلُ الأغراضِ هذه الآدابَ ذريعةً إلىٰ أذىٰ بعضِ المسلمين، فقذَفوهم بالإخلالِ بشيءٍ منها، فوقَعوا هم فيما قذَفوا به غيرَهم؛ من الإخلال بحقِّه، والتقيُّدِ بولائِه ورقِّه، وكان لرسولِ الله ﷺ من الأخلاقِ الطاهرةِ والمعالي الظاهرةِ ما يُؤمَنُ معه أن يُوقِعَ شيئًا في غيرِ محلِّه، أو يأمرَ بأمرٍ من غيرِ حِلِّه، هذا مع ما له من العصمة؛ قال منبِّهًا علىٰ ما في القسمِ الثالثِ من مكارمِ الأخلاق، من تركِ العجزِ بالاعتماد علىٰ أخبارِ الفَسَقة، تخاطبًا لكُلِّ مَن أقرَّ بالإيمان علىٰ طريقِ الاستنتاج ممَّا مضىٰ، نادبًا إلىٰ الاسترشاد بالعقل الذي نفاه عن أهلِ الآيةِ السالفة، والعفوِ عن المُذنِب، والرحمةِ لعبادِ الله، مُنادِيًا بأداةِ البُعْدِ إشارةً إلىٰ أنَّ مَن احتاجَ إلىٰ التصريحِ بمثلِ هذا التنبيه -غيرَ مُكْتَفٍ بما أفاده من قواعدِ الشرعِ- وضَع نفسَه في محلٍّ بعيدٍ، وتنبيهًا علىٰ أنَّ ما في حَيِّزها كلامٌ له خَطْبٌ عظيمٌ

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٣٦١).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٨).

ووقْعٌ جسيمٌ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[1].

هذا نداءٌ ثالثٌ ابتُدِئَ به غرضٌ آخرُ؛ وهو آدابُ جماعاتِ المؤمنين بعضِهم مع بعضٍ، وَلْنَشتغِلِ الآنَ ببيانِ وجهِ المناسبةِ لموقعِ هذه الآيةِ عَقِبَ التي قبلَها، فإنَّ الانتقالَ منها إلىٰ هذه يقتضي مناسبةً بينهما، فالقِصَّتانِ متشابهتانِ، إذ كان وفدُ بني تميمٍ النازلةُ فيهم الآيةُ السابقةُ جاؤوا مُعتذِرين عن ردِّهم ساعيَ رسولِ الله ﷺ لقبضِ صَدَقاتِ بني كعبِ بنِ العنبرِ من تميمٍ، وبنو المُصطلِقِ تبرَّؤوا من أنَّهم يمنعون الزكاةَ، إلَّا أنَّ هذا يُناكِدُه بُعْدُ ما بينَ الوقتينِ، إلَّا أن يكونَ في تعيينِ سنةِ وفدِ بني تميمٍ وهمٌ[2].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾

ولمَّا كان إقدامُهم علىٰ كثيرٍ من الأمورِ من غيرِ مُشاوَرةٍ لمن أرسله اللهُ رحمةً لعبادِه ليعلِّمَهم ما يأتون وما يَذَرُون، عملَ مَن لا يعلمُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قريبٌ منه، وكان الإعراضُ عنه حيًّا، وعن بذلِ الجهدِ في استخراجِ الأمورِ من شريعتِه بعد موتِه؛ أمرًا مُفسِدًا للبَيْنِ إنْ لم يُعتبَرْ ويُتنبَّهْ له غايةَ التنبُّهِ؛ أخبرَهم به منزِّلًا لهم منزلةَ مَن لا يعلمُ أنَّه موجودٌ معه، مشيرًا بكلمةِ التنبيهِ إلىٰ أنَّ مَن أخلَّ بمراعاةِ ذلك في عدادِ الغافلين، فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٣٦٣-٣٦٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٢٩).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٣٦٦).

عطفٌ على جملةِ ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ عطفَ تشريعٍ على تشريعٍ، وليس مضمونُها تكملةً لمضمونِ جملةِ ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ إلخ، بل هي جملةٌ مُستقِلَّةٌ»[1].

ثم وعَظهم اللهُ سبحانه، فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[2].

﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾

ولمَّا ذكَر التحبيبَ والتزيينَ والتكريهَ، وما أنتَجه من الرشادِ؛ ذكَر عِلَّتَه إعلامًا بأنَّه تعالىٰ لا يجبُ عليه شيءٌ؛ حثًّا على الشكرِ، فقال: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[3].

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾

ولمَّا كانت النميمةُ، ونقلُ الأخبارِ الباطلةِ الذميمةِ، ربما جرَّتْ فِتَنًا، وأوصلت إلىٰ القتالِ، وكان العليمُ الحكيمُ لا يَنصِبُ سببًا إلَّا ذكَر مُسبَّبَه وأشارَ إلىٰ دوائِه، وكان لا ينهىٰ عن الشيءِ إلَّا مَن كان متهيِّئًا له لِما في جِبِلَّتِه من الداعي إليه، فكان قد يُواقِعُه ولو في وقتٍ؛ قال تعالىٰ مُعلِّمًا لنا طريقَ الحكمةِ في دفعِ ما جرَّتْ إليه الأخبارُ الباطلةُ من القتالِ، معبِّرًا بأداةِ الشكِّ إشارةً إلىٰ أنَّ ما في حَيِّزِها لا ينبغي أن يقعَ بينهم، ولا أن

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٣٤).

(٢) فتح القدير (٥/ ٧١).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٣٦٩).

يذكروه إلَّا على سبيل الفرض: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[(١)].

لمَّا جرىٰ قولُه: ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ الآيةَ، كان ممَّا يَصدُقُ عليه إصابةُ قومٍ أن تقعَ الإصابةُ بين طائفتينِ من المؤمنين؛ لأنَّ مِن الأخبارِ الكاذبةِ أخبارَ النميمةِ بين القبائلِ، وخطرُها أكبرُ ممَّا يجري بين الأفرادِ، والتبيينُ فيها أعسرُ، وقد لا يَحصُلُ التبيينُ إلَّا بعد أن تَستعِرَ نارُ الفتنةِ، ولا تُجدِي الندامةُ[(٢)].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

ولمَّا أمر بما قد يُفضِي إلىٰ القتالِ، وكان الباغي ربما كان أقربَ إلىٰ الصُّلحِ من جهةِ النَّسَبِ من المَبْغِيِّ عليه فرُوعِيَ، وكان القتالُ أمرًا شاقًّا ربما حمَل علىٰ الإحجامِ عن الإصلاحِ؛ علَّل ذلك سبحانه بما قدَّم فيه قرابةَ الدينِ علىٰ قرابةِ النَّسَبِ، وكشف كشفًا تامًّا عن أنَّه لا يسوغُ له تركُه؛ لِما يؤدِّي إليه من تفريقِ الشَّملِ، المؤدِّي إلىٰ وَهْنِ الإسلامِ وأهلِه، المؤدِّي إلىٰ ظهورِ الباطلِ، المؤدِّي إلىٰ الفسادِ الأعظمِ الذي لا تَدارُكَ له، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[(٣)].

تعليلٌ لإقامةِ الإصلاحِ بين المؤمنين إذا استشرىٰ الحالُ بينهم، فالجملةُ موقعُها موقعُ العِلَّةِ، وقد بُنِيَ هذا التعليلُ علىٰ اعتبارِ حالِ المسلمين بعضِهم مع بعضٍ كحالِ الإخوةِ[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٣٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٣٨).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٣٧٢-٣٧٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٤٣).

استئنافٌ مقرِّرٌ لِما قبلَه من الأمرِ بالإصلاحِ (١).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ ﴾

ولمَّا نهىٰ عن الإسراعِ بالإيقاعِ بمجرَّدِ سماعِ ما يُوجِبُ النِّزاعَ، وختم بما تُرجَىٰ به الرحمةُ، وكان ربما كان الخبرُ الذي أمر سبحانه بتبيُّنِه صريحًا؛ نهىٰ عن مُوجباتِ الشرِّ التي يُخبَرُ بها فتكونُ سببًا للضغائنِ التي يتسبَّبُ عنها الشرُّ الذي هو سببٌ للنِّقمةِ؛ رحمةً لعبادِ اللهِ، وتوقُّعًا للرحمةِ منه، فقال علىٰ سبيلِ النتيجةِ من ذلك، ذاكرًا ما في القسمِ الرابعِ من الآدابِ والمنافعِ؛ من وجوبِ تركِ أذىٰ المؤمنين في حضورِهم، والإزراءِ بحالِهم المُذهِبِ لسرورِهم، الجالبِ لشرورِهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٢).

لمَّا اقتضَتِ الأُخُوَّةُ أن تَحسُنَ المعاملةُ بين الأخوينِ، كان ما تقرَّر من إيجابِ معاملةِ الإخوةِ بين المسلمين يقتضي حُسْنَ المعاملةِ بين آحادِهم، فجاءت هذه الآياتُ منبِّهةً علىٰ أمورٍ من حُسْنِ المعاملةِ قد تقعُ الغفلةُ عن مراعاتِها لكثرةِ تفشِّيها في الجاهليَّةِ لهذه المناسبةِ، وهذا نداءٌ رابعٌ أُرِيدَ بما بعده أمرُ المسلمين بواجبِ بعضِ المجاملةِ بين أفرادِهم (٣).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٢٠).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٣٧٤-٣٧٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٤٦).

قد بيَّنَّا أنَّ السورةَ للإرشادِ بعد إرشادٍ، فبعد الإرشادِ إلىٰ ما ينبغي أن يكونَ عليه المؤمنُ مع اللهِ تعالىٰ، ومع النبيِّ ﷺ، ومع مَن يُخالِفُهما ويعصيهما وهو الفاسقُ؛ بيَّن ما ينبغي أن يكونَ عليه المؤمنُ مع المؤمنِ، وقد ذكَرْنا أنَّ المؤمنَ إمَّا أن يكونَ حاضرًا وإمَّا أن يكونَ غائبًا، فإن كان حاضرًا فلا ينبغي أن يُسخَرَ منه، ولا يُلتفَتَ إليه بما يُنافِي التعظيمَ. وفي الآيةِ إشارةٌ إلىٰ أمورٍ ثلاثةٍ مرتَّبةٍ بعضُها دونَ بعضٍ؛ وهي: السُّخرِيَّةُ واللَّمزُ والنَّبزُ، فالسُّخْرِيَّةُ هي أن لا ينظرَ الإنسانُ إلىٰ أخيه بعينِ الإجلالِ، ولا يلتفتَ إليه، ويُسقِطَه عن درجتِه، وحينَئذٍ لا يذكرُ ما فيه من المعايبِ. الثاني هو اللَّمزُ؛ وهو ذِكرُ ما في الرجلِ من العيبِ في غَيْبتِه، وهذا دونَ الأولِ؛ لأنَّ في الأولِ لم يلتفتْ إليه، ولم يَرْضَ بأن يذكرَه أحدٌ، وإنَّما جعله مِثلَ المسخرةِ الذي لا يغضبُ له ولا عليه. الثالثُ: هو النَّبزُ، وهو دونَ الثاني؛ لأنَّ في هذه المرتبةِ يضيفُ إليه وصفًا ثابتًا فيه يُوجِبُ بُغْضَه وحَطَّ منزلتِه، وأمَّا النَّبزُ فهو مجرَّدُ التسميةِ وإنْ لم يكنْ فيه[(١)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾

ولـمَّا كان الإنسانُ ربما دعا صاحبَه بلقبٍ له شيءٌ غيرَ قاصدٍ به عَيْبَه، أو فعل فعلًا يتنزَّلُ علىٰ الهُزْءِ غيرَ قاصدٍ به الهُزْءَ؛ نهىٰ تعالىٰ عن المبادرةِ إلىٰ الظَّنِّ من غيرِ تثبُّتٍ؛ لأنَّ ذلك من وضعِ الأشياءِ في غيرِ مواضعِها، الذي هو معنىٰ الظُّلمِ، فقال خاتمًا بالقسمِ الخامسِ، منبِّهًا علىٰ ما فيه من المعالي والنفائسِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾[(٢)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٠٨).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٣٧٧-٣٧٨).

أُعِيدَ النداءُ خامسَ مرَّةٍ لاختلافِ الغرضِ والاهتمامِ به، وذلك أنَّ المَنْهِيَّاتِ المذكورةَ بعد هذا النداءِ من جنسِ المعاملاتِ السَّيِّئةِ الخَفِيَّةِ التي لا يتفطَّنُ لها مَن عُومِلَ بها فلا يدفعُها، فما يُزِيلُها من نفسِ مَن عامَلَه بها[(١)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه الأُخُوَّةَ الدينيةَ تذكيرًا بالعاطفِ الموجِبِ للإكرام، المانعِ من الانتقام، ونهىٰ عن أمورٍ يجرُّ إليها الإعجابُ بالنفسِ من جهةِ التعظيمِ بالآباءِ والعَراقةِ في النَّسَبِ العالي؛ أسقَط ذلك مبيِّنًا أن لا نَسَبَ إلَّا ما يُثمِرُه الإيمانُ الذي بدأ به من التقوىٰ، وعبَّر بما يدلُّ علىٰ الذَّبْذَبةِ والاضطرابِ إشارةً إلىٰ سُفُولِ رتبةِ مَن افتخَر بالنَّسَبِ، وإلىٰ أنَّ مَن لم يتَّعِظْ بما مضىٰ فيعلو عن رتبةِ الذين آمنوا فقد سفل سُفُولًا عظيمًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[(٢)].

انتقالٌ من واجباتِ المعاملاتِ إلىٰ ما يجبُ أن يُراعِيَه المرءُ في نفسِه، وأُعِيدَ النداءُ للاهتمامِ بهذا الغرضِ؛ إذ كان إعجابُ كلِّ قبيلةٍ بفضائلِها، وتفضيلُ قومِها علىٰ غيرِهم فاشيًا في الجاهليَّةِ، كما ترىٰ بقيَّتَه في شِعْرِ الفرزدقِ وجريرٍ، وكانوا يَحقِرون بعضَ القبائلِ، فكان ذلك يَجُرُّ إلىٰ الإِحَنِ والتقاتلِ، وتتفرَّعَ عليه السُّخْرِيَّةُ، واللَّمْزُ، والنَّبْزُ، والظَّنُّ، والتجسُّسُ، والاغتيابُ، الواردةُ فيها الآياتُ السابقةُ، فجاءت هذه الآيةُ لتأديبِ المؤمنين علىٰ اجتنابِ ما كان في الجاهليَّةِ لاقتلاعِ جذورِه الباقيةِ في

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٥٠).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٣٨١).

النفوسِ بسببِ اختلاطِ طبقاتِ المؤمنين بعد سنةِ الوفودِ، إذ كثُر الداخلون في الإسلامِ[(١)].

ثم نبَّه تعالىٰ -بعد نهيه عن الغِيبةِ، واحتقارِ الناسِ بعضِهم لبعضٍ- علىٰ تَساوِيهم في البشريَّةِ، بقولِه سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[(٢)].

﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

ولمَّا أمر سبحانه بإجلالِ رسولِه ﷺ وإعظامِه، ونهىٰ عن أذاه في نفسِه أو في أُمَّتِه، ونهىٰ عن التفاخرِ الذي هو سببُ التقاطعِ والتداحُرِ، وختَم بصفةِ الخبرِ؛ دلَّ عليها بقولِه مشيرًا إلىٰ أنَّه لا يعتدُّ بشيءٍ ممَّا أمر به أو نهىٰ عنه إلَّا مع الإخلاصِ، فقال: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[(٣)].

ولمَّا كانت طليعةُ السورةِ في الحديثِ عن جُفاةِ الأعرابِ، والإنكارِ علىٰ مساوئِ أخلاقِهم، ثم تأثُّرِها من المناهي عن المنكراتِ التي تكثُرُ فيه، ما كانوا فيها هم المقصودَ أولًا وبالذَّاتِ، ثم غيرُهم ثانيًا وبالعَرَضِ؛ ختَمَها بتعريفِ أنَّ مَن كان علىٰ شاكلتِهم في ارتكابِ تلك المناهي، فهو ممَّن لم يُخامِرْ فؤادَه الإيمانُ، ثم بيانِ مَن المؤمنُ حقًّا؛ ليفقهوا أنَّ الأمرَ ليس كما يزعمون، فقال ﷻ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٥٨).

(٢) محاسن التأويل (٨/ ٥٣٨).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٣٨٥).

تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾

ولمَّا نفى عنهم الإيمانَ، وكان ربما غلط شخصٌ في نفسِه فظَنَّ أنَّه مؤمنٌ، وليس كذلك؛ أخبَر بالمؤمنِ على سبيلِ الحصرِ، ذاكرًا أمارتَه الظاهرةَ الباطنةَ، وهي أُمَّهاتُ الفضائلِ: العلمُ، والعِفَّةُ، والشجاعةُ، فقال جوابًا لمن قال: فمَن الذي آمَن؟ عادلًا عن جوابِه إلى وصفِ الراسخِ ترغيبًا في الاتِّصافِ بوصفِه، وإيذانًا بأنَّ المخبِرَ عن نفسِه بآيةِ إيمانِه لا يريدُ إلَّا أنَّه راسخٌ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ (٢).

هذا تعليلٌ لقولِه: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ إلى قولِه: ﴿فِي قُلُوبِكُمۡ﴾، وهو من جملةِ ما أُمر الرسولُ ﷺ بأن يقولَه للأعراب؛ أي: ليس المؤمنون إلَّا الذين آمنوا ولم يُخالِطْ إيمانَهم ارتيابٌ أو تشكُّكٌ (٣).

ثم بيَّن تعالى الإيمانَ، وما به يكونُ المؤمنُ مؤمنًا، بقولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ (٤).

---

(١) محاسن التأويل (٨/ ٥٤١).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٣٨٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٦٧).

(٤) محاسن التأويل (٨/ ٥٤٣).

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾

ولمَّا كانوا كأنَّهم يقولون: نحن كذلك؛ أمره ﷺ بالإنكارِ عليهم، والتوبيخِ لهم؛ دلالةً على ما أشار إليه ختامُ الآيةِ من إحاطةِ علمِه الذي تميَّز به الصادقُ من غيرِه من جميعِ الخلقِ، فقال: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1].

ثم أمر اللهُ سبحانه رسولَه ﷺ أن يقولَ لأولئك الأعرابِ وأمثالِهم قولًا آخرَ، لمَّا ادَّعَوْا أنَّهم مؤمنون، فقال: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2].

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا كان قولُهم هذا صورتُه صورةُ المِنَّةِ، قال مُترجِمًا له، مبكِّتًا لهم عليه، معبِّرًا بالمضارعِ تصويرًا لحالِه في شناعتِه: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3].

ثم أشار إلى نوعٍ آخرَ من جفائِهم، مختومًا بتوعُّدِهم، بقولِه تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٣٩٠-٣٩١).

(٢) فتح القدير (٥/ ٨٠).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٣٩١).

(٤) محاسن التأويل (٨/ ٥٤٥).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾

ولمَّا نفىٰ عنهم ما هو باطنٌ، وختم جدالَهم سبحانه بهذه الشَّرْطيَّةِ، فكان ربما توهَّم قاصرُ النظرِ جامدُ الفِكْرِ عدمَ العلمِ بما هو عليه؛ أزال ذلك علىٰ وجهٍ عامٍّ، وأكَّده لذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ (١).

ذيَّل تقويمَهم علىٰ الحقِّ بهذا التذييلِ؛ ليعلموا أنَّ اللهَ لا يكتمُ، وأنَّه لا يكذبُ؛ لأنَّه يعلمُ كلَّ غائبةٍ في السماءِ والأرضِ، فإنَّهم كانوا في الجاهليَّةِ لا تخطرُ ببالِ كثيرٍ منهم أصولُ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ (٢).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٣٩٣-٣٩٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٧١).

سورة ق

﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ ﴾

ولمَّا كان هذا ظاهرًا، على ما هدىٰ إليه السِّياقُ؛ بنىٰ عليه قولَه -دلالةً أخرىٰ علىٰ شمولِ علمِه-: ﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴾[(١)].

الإضرابُ الانتقاليُّ يقتضي كلامًا منتقَلًا منه، والقَسَمُ بدونِ جوابٍ لا يُعتبَرُ كلامًا تامًّا، فتعيَّن أن يقدِّرَ السامعُ جوابًا تتمُّ به الفائدةُ يدلُّ عليه الكلامُ، وهذا من إيجازِ الحذفِ، وحسَّنَه أنَّ الانتقالَ مشعِرٌ بأهميةِ المنتقَلِ إليه؛ أي: عَدِّ عمَّا تريدُ تقديرَه من جوابٍ، وانتقِلْ إلىٰ بيانِ سببِ إنكارِهم الذي حدا بنا إلىٰ القَسَمِ[(٢)].

﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ ﴾

ولمَّا كان المتعجَّبُ منه مجمَلًا، أوضَحه بقولِه حكايةً عنهم مبالِغين في الإنكارِ، بافتتاحِ إنكارِهم باستفهامٍ إنكاريٍّ: ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴾[(٣)].

لمَّا أظهَروا العَجَبَ من رسالتِه، أظهَروا استبعادَ كلامِه[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٠٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٧٩).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٠٥).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٢٤).

ثم ذكر وجه تعجُّبِهم، فقال: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٞ﴾[1].

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤﴾

ولمَّا كان السِّياقُ لإحاطةِ العلمِ بما نعلمُ وما لا نعلمُ، توقَّع السامعُ الجوابَ عن هذا الجهلِ، فقال مزيلًا لسببِه، مفتتِحًا بحرفِ التوقُّعِ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾[2].

ردٌّ لقولِهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٞ﴾، فإنَّ إحالتَهم البعثَ ناشئةٌ عن عِدَّةِ شُبَهٍ؛ منها: أنَّ تفرُّقَ أجزاءِ الأجسادِ في مناحي الأرضِ ومَهابِّ الرياحِ لا تُبقِي أملًا في إمكانِ جمعِها، إذ لا يحيطُ بها مُحِيطٌ، وأنَّها لو عُلِمَتْ مواقعُها لَتعذَّرَ التقاطُها وجمعُها، ولو جُمعت كيف تعودُ إلىٰ صورِها التي كانت مشكَّلةً بها، وأنَّها لو عادت كيف تعودُ إليها؟ فاقتصر في إقلاعِ شُبَهِهم علىٰ إقلاعِ أصلِها؛ وهو عدمُ العلمِ بمواقعِ تلك الأجزاءِ وذرَّاتِها. وفُصِلتِ الجملةُ بدونِ عطفٍ؛ لأنَّها ابتداءُ كلامٍ لردِّ كلامِهم، وهذا هو الأليقُ بنظمِ الكلامِ[3].

ثم ردَّ سبحانه ما قالوه، فقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾[4].

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِيٓ أَمْرٖ مَّرِيجٍ ٥﴾

ولمَّا كان التقديرُ: وهم لا ينكرون ذلك من عَظَمتِنا؛ لأنَّهم معترفون بأنَّا خلَقْنا السماواتِ والأرضَ، وخلَقْناهم من ترابٍ، وإنَّا نحن نُنزِلُ الماءَ فيَنبُتُ النباتُ؛ أضرَب عنه بقولِه: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِيٓ أَمْرٖ مَّرِيجٍ﴾[5].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٨٠٣).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤٠٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٨٠).

(٤) فتح القدير (٥/ ٨٥).

(٥) نظم الدرر (١٨/ ٤٠٦).

إضرابٌ ثانٍ تابعٌ للإضرابِ الذي في قولِه: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ على طريقةِ تكريرِ الجملةِ في مقامِ التنديدِ والإبطالِ، أو بدلٌ من جملةِ ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾؛ لأنَّ ذلك العَجَبَ مشتملٌ على التكذيبِ، وكلا الاعتبارينِ يقتضيانِ فصلَ هذه الجملةِ بدونِ عاطفٍ، والمقصدُ من هذه الجملةِ: أنَّهم أَتَوْا بأفظعَ من إحالتِهم البعثَ، وذلك هو التكذيبُ بالحقِّ[١].

ثم أضرَب سبحانه عن كلامِهم الأولِ، وانتقل إلى ما هو أشنعُ منه، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾[٢].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾

ولمَّا أخبرَهم أنَّهم قالوا عن غيرِ تأمُّلٍ، أنكر عليهم ذلك موبِّخًا لهم، دالًّا على صحَّةِ ما أنكَروه وفسادِ إنكارِهم، بقولِه -مسبِّبًا عن عَجَلَتِهم إلى الباطلِ-: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[٣].

تفريعٌ على قولِه: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾ إلى قولِه: ﴿أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾؛ لأنَّ أهمَّ ما ذُكر من تكذيبِهم أنَّهم كذَّبوا بالبعث، وخلقُ السماواتِ والنجومِ والأرضِ دالٌّ على أنَّ إعادةَ الإنسانِ بعد العدمِ في حيِّزِ الإمكانِ، فتلك العوالمُ وُجِدَتْ عن عدمٍ[٤].

إشارةٌ إلى الدليلِ الذي يدفعُ قولَهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٨٤).

(٢) فتح القدير (٥/ ٨٥).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٠٧).

(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٨٥).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٢٧).

لمَّا ذكَر تعالىٰ حالةَ المكذِّبين، وما ذمَّهم به؛ دعاهم إلىٰ النظرِ في آياتِه الأُفُقيَّةِ كي يعتبروا، ويستدلُّوا بها علىٰ ما جُعِلَتْ أدلَّةً عليه، فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[1].

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ ﴾

ولمَّا دلَّ سبحانه علىٰ تمامِ قدرتِه، وكمالِ علمِه، وغيرِ ذلك من صفاتِ الكمالِ، بآيةِ السماءِ؛ أتبَع ذلك الدلالةَ علىٰ آيةِ الأرضِ، وأخَّرها لأنَّ السماءَ أدلُّ علىٰ المجدِ الذي هذا سياقُه؛ لأنَّها أعجبُ صنعةً، وأعلىٰ عُلُوًّا، وأجلُّ مِقدارًا، وأعظمُ أثرًا، وأنَّ الأرضَ -لكثرةِ الملابسةِ لها، والاجتناءِ من ثمارِها- يَغفُلُ الإنسانُ عن دلالتِها، بما له في ذلك من الصنائعِ والمنافعِ، فقال: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[2].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ ﴾ عطفَ الخبرِ علىٰ الاستفهامِ الإنكاريِّ، وهو في معنىٰ الإخبارِ، ولمَّا كانت أحوالُ الأرضِ نُصْبَ أَعيُنِ الناسِ، وهي أقربُ إليهم من أحوالِ السماءِ؛ لأنَّها تَلُوحُ للأنظارِ دونَ تكلُّفٍ؛ لم يُؤْتَ في لفتِ أنظارِهم إلىٰ دلالتِها باستفهامٍ إنكاريٍّ؛ تنزيلًا لهم منزلةَ مَن نظر في أحوالِ الأرضِ، فلم يكونوا بحاجةٍ إلىٰ إعادةِ الأخبارِ بأحوالِ الأرضِ تذكيرًا لهم[3].

إشارةٌ إلىٰ دليلٍ آخرَ، ووجهُ دلالةِ الأرضِ هو أنَّهم قالوا: الإنسانُ إذا مات وفارَقَتْه القوةُ الغاذيةُ والناميةُ، لا تعودُ إليه تلك القوةُ، فنقولُ: الأرضُ أشدُّ جمودًا وأكثرُ خمودًا، واللهُ تعالىٰ يُنبِتُ فيها أنواعَ النباتِ وينمو ويزيدُ، فكذلك الإنسانُ تعودُ إليه الحياةُ[4].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٨٠٤).
(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤١٠).
(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٨٧).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٢٨).

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾

ولمَّا ذكَر هذه الصنائعَ الباهرةَ، علَّلَها بقولِه: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[١].

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ ﴾

ولمَّا كان إنزالُ الماءِ أبهرَ الآياتِ وأدلَّها، فبه يكونُ النباتُ وحصولُ الأقواتِ، وبه حياةُ كلِّ شيءٍ؛ أفرَده تنبيهًا على ذلك، فقال: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾[٢].

بعد التنظير والتذكيرِ والتبصيرِ في صُنْعِ السماواتِ وصُنْعِ الأرضِ، وما فيهما من وقتِ نشأتِهما، نُقل الكلامُ إلىٰ التذكيرِ بإيجادِ آثارٍ من آثارِ تلك المصنوعاتِ، تتجدَّدُ علىٰ مرورِ الدهرِ حيَّةً، ثم تموتُ، ثم تحيا دأبًا، وقد غيَّر أسلوبَ الكلامِ لهذا الانتقالِ من أسلوبِ الاستفهامِ إلىٰ أسلوبِ الإخبارِ؛ إيذانًا بتبديلِ المرادِ؛ ليكونَ منه تخلُّصٌ إلىٰ الدلالةِ علىٰ إمكانِ البعثِ[٣].

إشارةٌ إلىٰ دليلٍ آخرَ؛ وهو ما بين السماءِ والأرضِ، فيكونُ الاستدلالُ بالسماءِ والأرضِ وما بينهما، وذلك إنزالُ الماءِ من السماءِ من فوقُ، وإخراجُ النباتِ من تحتُ[٤].

شروعٌ في بيانِ كيفيَّةِ إنباتِ ما ذُكر من كلِّ زوجٍ بهيجٍ[٥].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤١٠).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤١١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٩١).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٢٩).

(٥) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٢٧).

﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠﴾

ولمَّا كان النخلُ من أَعجَبِه ما يتكوَّنُ منه، مع ما له من المنافعِ التي لا يُساوِيه فيها شجرٌ، والطِّباق للزرعِ بالطُّولِ والقِصَرِ، والاتِّساقِ بالاقتياتِ للآدميِّين والبهائم؛ قال: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾(1).

عطفٌ علىٰ ﴿جَنَّٰتٖ﴾، وتخصيصُها بالذِّكرِ مع اندراجِها في الجنَّاتِ لبيانِ فضلِها علىٰ سائرِ الأشجارِ، وتوسيطُ الحبِّ بينهما لتأكيدِ استقلالِها وامتيازِها عن البقيَّةِ، مع ما فيها من مُراعاةِ الفواصلِ(2).

﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه بعضَ ما له في الماءِ من العَظَمةِ، ذكَر له عِلَّةً هي غايةٌ في المِنَّةِ علىٰ الخلقِ، فقال: ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾(3).

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢﴾

ولمَّا وصَل الأمرُ إلىٰ حدٍّ لا خفاءَ معه، فصَحَّ أنَّهم يعلمون ذلك، ولم يَحمِلْهم علىٰ التصريحِ بالتكذيبِ به إلَّا المبادرةُ إلىٰ ذلك بغَلَبةِ الهوىٰ من غيرِ تأمُّلٍ لعاقبتِه، فصار من بابِ لزومِ الغلطِ، وكان السِّياقُ لإنكارِ البعثِ الذي جاء به منذِرٌ من القومِ المنذَرين؛ كان كأنَّه قيل: إنَّ إنكارَ هؤلاء أعجبُ، فهل وقع هذا لأحدٍ قطُّ؟ فقال تعالىٰ مسلِّيًا لهذا النبيِّ الكريمِ؛ لأنَّ المصيبةَ إذا عمَّتْ هانت، مبيِّنًا لمجدِ القرآنِ

(1) نظم الدرر (١٨/ ٤١٢).

(2) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٢٧).

(3) نظم الدرر (١٨/ ٤١٣).

ولمجدِ آياتِه؛ تحقيقًا للإنذارِ وتحذيرًا به، لا للنصيحةِ: ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾(١).

استئنافٌ ابتدائيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ ﴾، فعُقِّبَ بأنَّهم ليسوا ببِدْعٍ في الضلالِ، فقد كذَّبتْ قبلَهم أُمَمٌ، وذكَر منهم أشهرَهم في العالمِ وأشهرَهم بين العربِ، فقومُ نوحٍ أولُ قومٍ كذَّبوا رسولَهم، وفرعونُ كذَّب موسىٰ، وقومُ لوطٍ كذَّبوه؛ وهؤلاء معروفون عندَ أهلِ الكتابِ، وأمَّا أصحابُ الرَّسِّ وعادٌ وثمودُ وأصحابُ الأَيْكةِ وقومُ تُبَّعٍ؛ فهم من العربِ، وذُكروا هنا عَقِبَ قومِ نوحٍ للجامعِ الخياليِّ بينَ القومينِ، وهو جامعُ التضادِّ؛ لأنَّ عذابَهم كان ضِدَّ عذابِ قومِ نوحٍ، إذ كان عذابُهم بالخسفِ وعذابُ قومِ نوحٍ بالغرقِ، ثم ذكَر ثمودَ لشَبَهِ عذابِهم بعذابِ أصحابِ الرَّسِّ، إذ كان عذابُهم برَجْفةِ الأرضِ وصواعقِ السماءِ، ولأنَّ أصحابَ الرَّسِّ من بقايا ثمودَ، ثم ذُكرت عادٌ لأنَّ عذابَها كان بحادثٍ في الجوِّ وهو الرِّيحُ، ثم ذُكر فرعونُ وقومُه لأنَّهم كذَّبوا أشهرَ الرُّسلِ قبلَ الإسلامِ، وأصحابُ الأَيْكةِ هم قومُ شُعَيبٍ، وهم من خُلَطاءِ بني إسرائيلَ. وعُبِّرَ عن قومِ لوطٍ بـ«إخوان لوطٍ»، ولم يكونوا من قبيلِه، فالمرادُ بـ«إخوان»: أنَّهم ملازِمون، وهم أهلُ سَدُومَ وعَمُورةَ وقُراهما، وكان لوطٌ ساكنًا في سَدُومَ، ولم يكنْ من أهلِ نَسَبِهم؛ لأنَّ أهلَ سَدُومَ كَنْعانِيُّون ولوطًا عِبْرانيٌّ، وهذه الأُمَمُ أصابها عذابٌ شديدٌ في الدنيا عقابًا علىٰ تكذيبِهم الرُّسلَ، والمقصودُ تسليةُ رسولِ الله ﷺ، والتعريضُ بالتهديدِ لقومِه المكذِّبين أن يحلَّ بهم ما حَلَّ بأولئك(٢).

استئنافٌ واردٌ لتقريرِ حَقِّيَّةِ البعثِ ببيانِ كافَّةِ الرُّسلِ عليهم السلام عليها، وتعذيبِ منكِريها(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤١٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٩٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٢٧).

ثم ذكَر سبحانه الأُمَمَ المكذِّبةَ، فقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾ (١).

﴿ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا اتَّفَقَ قومُ هودٍ والقِبْطُ بالإهلاكِ بالرِّيحِ التي أثَّرتْ بها صَيْحةُ ثمودَ؛ أولئك مع الحجارةِ والرملِ، وهؤلاء بالماءِ الذي فرَّقه اللهُ بالرِّيحِ عندَ ضربِ العِصِيِّ، وكان لكُلٍّ منهما من ضخامةِ المُلْكِ وعِزِّ السُّلْطانِ ما هو مشهورٌ؛ قُدِّمَ أشدُّهما أبدانًا، وأوسعُهما مُلْكًا؛ لأنَّ إهلاكَهم كان أدلَّ دليلٍ على القدرةِ، وأقربَ شَبَهًا بهلاكِ ثمودَ، فقال: ﴿ وَعَادٌ ﴾، وعطَف عليه أقربَ الطائفتينِ شَبَهًا بالهلاكِ بقومِ نوحٍ وأصحابِ الرَّسِّ، فقال: ﴿ وَفِرْعَوْنُ ﴾، ولمَّا كان هلاكُ المُؤْتَفِكاتِ جامعًا في الشَّبَهِ بهلاكِ جميعِ مَن تقدَّم بالخسفِ، وغَمْرةِ الماءِ، بعدَ القلبِ في الهواءِ؛ أتبَعهم بهم معبِّرًا عنهم بأخصرَ من تسميةِ قبائلِهم أو مُدُنِهم؛ لأنَّها عِدَّةُ مُدُنٍ، وعبَّر بالأخوةِ دونَ القومِ لأنَّ السِّياقَ لتكذيبِ مَن هو منهم؛ لأنَّه أدخَلُ في التسليةِ، فقال: ﴿ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴾ (٢).

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا كان الشجرُ مَظِنَّةَ الهواءِ البارِدِ والرَّوحِ، وكان أصحابُه قد عُذِّبوا بضِدِّ ذلك؛ قال: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ ﴾ (٣).

﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه التسليةَ بتكذيبِ هذه الأحزابِ بعدَ ذِكْرِ تكذيبِ قريشٍ، وإقامةِ الأدلَّةِ القاطعةِ على ما كذَّبوا به، وبطلانِ تكذيبِهم، وختَم بحقوقِ الوعيدِ الذي

---

(١) فتح القدير (٥/ ٨٦).
(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤١٥).
(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤١٦).

شُوهِدَتْ أوائلُه بإهلاكِهم، فثبَت صدقُ الرُّسلِ، وثبَتتِ القدرةُ على كلِّ ما يريدُ سبحانه بهذا الخلقِ من الإيجادِ والإعدامِ؛ أنكَر عليهم التكذيبَ، ووبَّخهم عليه؛ تقريرًا لحقوقِ الوعيدِ، فقال مسبِّبًا عن تكذيبِهم بعدَ ما ذكَر أنَّه خلَق جميعَ الوجودِ: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[١].

تشيرُ فاءُ التفريعِ إلى أنَّ هذا الكلامَ مفرَّعٌ على ما قبلَه؛ وهو جملةُ ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ﴾، وقولُه: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ ﴾ المعرِّضُ بأنَّهم لم يتبصَّروا به ولم يتذكَّروا، وقولُه: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ ﴾، وقولُه: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾، ويجوزُ أن يُجعَلَ تفريعًا على قولِه: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾[٢].

الجملةُ مستأنَفةٌ لتقريرِ أمرِ البعثِ الذي أنكرَتْه الأُمَمُ[٣].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾

ولمَّا ذكَر خلقَ الخافقينِ، أتبعَه خلقَ ما هو جامعٌ لجميعِ ما هو فيها، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[٤].

هذا تفصيلٌ لبعضِ الخلقِ الأولِ بذِكْرِ خلقِ الإنسانِ[٥].

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

ولمَّا كان سبحانه قد وكَّل بنا حَفَظةً تحفظُ أعمالَنا، وتضبطُ أقوالَنا وأحوالَنا، فكان المعروفُ لنا أنَّ سببَ الاستحفاظِ خوفُ الغفلةِ والنسيانِ، قدَّم سبحانه الإخبارَ

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤١٧-٤١٨).
(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٩٧).
(٣) فتح القدير (٥/ ٨٧).
(٤) نظم الدرر (١٨/ ٤١٩).
(٥) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٩٩).

بكمالِ علمِه فأُمن ذلك المحذورُ؛ علَّق بـ﴿أَقْرَبُ﴾ أو «نعلمُ» قولَه -تأكيدًا لِما عُلم من إحاطةِ علمِه من عدمِ حاجتِه، وتخويفًا بما هو أقربُ إلىٰ مألوفاتِنا-: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[1].

ثم ذكَر سبحانه أنَّه مع علمِه به، وكَّل به مَلَكينِ يكتبانِ ويحفظانِ عليه عملَه؛ إلزامًا للحُجَّةِ، فقال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[2].

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾

ولمَّا كانت الأفعالُ اللسانيَّةُ والقلبيَّةُ والبدنيَّةُ ناشئةً عن كلامِ النفسِ، فكان الكلامُ جامعًا؛ قال مبيِّنًا لإحاطةِ علمِه بإحاطةِ مَن أقامه لحفظِ هذا الخلقِ الجامعِ، في جوابِ مَن كأنَّه قال: ما يفعلُ المُتلقِّيانِ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[3].

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾

ولمَّا كان مثَّل إرسالَ الخافقينِ ثم الموتِ ثم النفخِ، بإرسالِ المَلِكِ في الدنيا إلىٰ الناسِ لعرضِهم، فيصيرُ الإنسانُ منهم ساعيًا في التزيُّنِ للمَلِكِ بما يُعجِبُه في مقصودِ ذلك العرضِ، في الأَجَلِ الذي ضرَبه لهم، فإذا جاء ذلك الوقتُ الذي هو كالموتِ؛ أخذته الرُّسُلُ فباؤوا به كما يُفعَلُ حالَ الموتِ بالميِّتِ، ومَن أحضروه منهم حبَسوه علىٰ بابِ المَلِكِ لتكاملِ المعروضين، فإذا كمل جمعُهم، وأمر بقيامِهم للعرضِ؛ زعَق لهم المُنادِي بالبوقِ الذي يُسمَّىٰ النَّفِيرَ -وهو كالصُّورِ-؛ فلهذا قال تعالىٰ مبيِّنًا لإحاطةِ قدرتِه بجميعِ خلقِه، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فاضطرَب ذلك الإنسانُ الموكَّلُ

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٢٠-٤٢١).

(٢) فتح القدير (٥/ ٨٨).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٢١).

به في الوقتِ المأمورِ بالتردُّدِ فيه بما يُرضِي اللهَ بالقولِ والفعلِ على حَسَبِ إرادتِه سبحانه، سواءٌ كان موافقًا للأمرِ أو مخالفًا، إلى أن آنَ أوانُ الرحيلِ، معبِّرًا بالماضي تنبيهًا على أنَّ الموتَ -مع أنَّه لا بدَّ منه- قريبٌ جدًّا: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[1].

عطفٌ على جملةِ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾؛ لاشتراكِهما في التنبيهِ على الجزاءِ على الأعمالِ، فهذا تنقُّلٌ في مراحلِ الأمورِ العارضةِ للإنسانِ التي تُسلِمُه من حالٍ إلى آخرَ، حتى يقعَ في الجزاءِ على أعمالِه التي قد أحصاها الحفيظانِ. وإنَّما خُولفَ التعبيرُ في المعطوفِ بصيغةِ الماضي دونَ صيغةِ المضارعِ التي صِيغَ بها المعطوفُ عليه؛ لأنَّه لقُرْبِه صار بمنزلةِ ما حصل، قصدًا لإدخالِ الرَّوْعِ في نفوسِ المشركين[2].

بعدما ذكَر استبعادَهم للبعثِ والجزاء، وأُزيحَ ذلك بتحقيقِ قدرتِه تعالى وعلمِه، وبيَّن أنَّ جميعَ أعمالِهم محفوظةٌ مكتوبةٌ عليهم؛ أتبَع ذلك ببيانِ ما يُلاقُونه لا محالةَ؛ من الموتِ، والبعثِ، وما يتفرَّعُ عليه من الأحوالِ والأهوالِ، وقد عبَّر عن وقوعِ كلٍّ منها بصيغةِ الماضي؛ إيذانًا بتحقيقِها، وغايةِ اقترابِها. وسكرةُ الموتِ: شِدَّتُه الذاهبةُ بالعقل[3].

ولمَّا ذكَر استبعادَهم للبعثِ، وأزاحَ ذلك بتحقيقِ قدرتِه وعلمِه؛ أعلَمَهم بأنَّهم يُلاقُون ذلك عن قريبٍ، ونبَّه على اقترابِه بلفظِ الماضي، فقال سبحانه: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٢٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٠٥).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٢٩).

(٤) محاسن التأويل (٩/ ١٨).

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠)﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فأُخذ ذلك الإنسانُ بالقهرِ من بينِ الأهلِ والإخوان، والعشائرِ والجيران، وضُمَّ إلى عسكرِ الموتى، وهم بالبرزخِ نُزُولٌ، ولانتظارِ بقيَّتِهم حُلُولٌ، ولم يزالوا كذلك حتى تكامَلَ القادمون عليهم، الواصلون إليهم؛ عطَفَ عليه قولَه مبيِّنًا لإحاطة من عالمِ المَلَكوتِ، والعِزِّ والجبَرُوتِ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾[1].

عطفٌ على قولِه: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾، والمرادُ منه إمَّا النَّفخةُ الأولى، فيكونُ بيانًا لِما يكونُ عندَ مجيءِ سكرةِ الموتِ، أو النَّفخةُ الثانيةُ، وهو أظهرُ[2].

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١)﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فكان من تلك النَّفخةِ صَيْحةٌ هائلةٌ ورَجَّةٌ شاملةٌ، فقام الناسُ عامَّةً من قبورِهم، وحُصِّلَ ما في صدورِهم؛ عطَفَ عليه قولَه بيانًا لإحاطةِ العرضِ: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[3].

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)﴾

ويُقالُ حينَئذٍ للمفرِّطِ في الأعمال، في أسلوبِ التأكيد، جريًا على ما كان يستحقُّه إنكارُه في الدنيا، وتنبيهًا على أنَّه لعِظَمِه ممَّا يَحِقُّ تأكيدُه: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٢٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٣٥).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٢٤).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٤٢٤).

استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ نشأ ممَّا قبلَه، كأنَّه قيل: فماذا يفعلُ بها؟ فقيل: يُقالُ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(١).

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ۝٢٣﴾

ولمَّا أخبَر تعالىٰ بما تقولُه له الملائكةُ، أو مَن أراد من جنودِه، وكان قد أخبَر أنَّ معبوداتِهم من الأصنامِ والشياطينِ وغيرِها تكونُ عليهم يومَ القيامة ضِدًّا؛ أخبَر بما يقولُ القرينُ من السائقِ والشهيدِ، والشيطانِ الذي تقدَّم حديثُه في «الزُّخْرُفِ»، فقال عاطفًا علىٰ القولِ المقدَّرِ قبلَ ﴿لَّقَدْ﴾، معبِّرًا بصيغةِ المُضِيِّ تأكيدًا لمضمونِه وتحقيقًا: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾(٢).

الواوُ واوُ الحالِ، والجملةُ حالٌ من تاءِ الخطابِ في قولِه: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾؛ أي: يُوبَّخُ عندَ مشاهدةِ العذاب بكلمةِ ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾، في حالِ قولِ قرينِه: ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾(٣).

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤﴾

ولمَّا كانت العادةُ جاريةً بأنَّ مَن أُحضِرَ إليه شيءٌ، تبادَر إلىٰ أمرِه بقولٍ أو فعلٍ؛ وصَل بذلك ما هو نتيجتُه، وبدأ بالعاصي لأنَّ المقامَ له، فقال ما يدلُّ علىٰ أنَّه لا وزنَ له، فلا وقفةَ في عذابِه بحسابِه ولا غيرِه، مؤكِّدًا خطابًا للمؤكَّدِ بالإلقاء، أو خطابًا للسائقِ والشهيدِ، أو السائقِ وحدَه، مُثنِّيًا لضميرِه تثنيةً للأمرِ، كأنَّه قال: أَلْقِ أَلْقِ؛ تأكيدًا له وتهويلًا: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾(٤).

---

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٣٠).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤٢٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٠٩).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٤٢٦).

انتقالٌ من خطابِ النفسِ إلىٰ خطابِ المَلَكينِ المُوكَّلَينِ السائقِ والشهيدِ، والجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتقالٌ من خطابِ فريقٍ إلىٰ خطابِ فريقٍ آخرَ(١).

ثم يُقالُ لمن استحَقَّ النارَ: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ﴾(٢).

﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ٢٥﴾

ثم زاد علىٰ العنادِ بوصفِ: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ﴾(٣).

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ٢٦﴾

ثم أبدَل من ﴿كُلَّ﴾ قولَه بيانًا لمبالغتِه في الكفرِ الذي أوجب له كلَّ شرٍّ: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾(٤).

ثم بيَّن كفرَه بقولِه: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾.

﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٢٧﴾

ولمَّا كان القرينُ قد قال ما تقدَّم مُرِيدًا به -جهلًا منه- الخلاصَ من العذابِ، بإظهارِ أنَّه ليس بأوصافِ هذه النَّفسِ، بل من كبارِ المؤمنين، فأُجِيبَ مقالُه بإلقاءِ تلك النَّفسِ، مُعلِّلًا للأمرِ بإلقائِها بما شَمِلَ هذا القرينَ، فتَشوَّفَ السَّامعُ إلىٰ ما يكونُ من حالِه، وكانت العادةُ جاريةً أنَّ مَن تكلَّم في شخصٍ بما فيه مِثلُه؛ ولا سِيَّما إنْ كان هو السَّببَ فيه، أو كان قد تكلَّم ذلك الشَّخصُ فيه، فكان قياسُ ذلك يقتضي ولا بدَّ أن تقولَ تلك النَّفسُ القولَ فيها، وهذا عندَ الأمرِ بإلقائِها: ربَّنا هو أَطْغَاني؛ أجابَ تعالىٰ عندَ هذا التَّشوُّفِ بقولِه: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣١١).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٨٠٦).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ٢٢).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٤٢٧).

(٥) نظم الدرر (١٨/ ٤٢٨).

هذه الجملةُ مستأنَفةٌ لبيانِ ما يقولُه القرينُ، والمرادُ بالقرينِ هنا: الشَّيطانُ الذي قُيِّضَ لهذا الكافرِ[١].

﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: بِمَ يُجابُ عن هذا؟ وهل يُقبَلُ منه؟ قيل: لا، ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴾[٢].

استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ ممَّا قبلَه، كأنَّه قيل: فماذا قال اللهُ تعالى؟ فقيل: ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴾[٣].

﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾

ولمَّا كانت الأوقاتُ كلُّها عندَه سبحانه حاضرةً، عبَّر سبحانه في تعليلِ ذلك بـ«ما» التي للحاضرِ، دونَ «لا» التي للمستقبلِ، فقال: ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[٤].

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا التَّقاوُلُ ممَّا يَهُولُ أمرُه، ويقلعُ القلوبَ ذِكرُه؛ صوَّر وقتَه بصورةٍ تزيدُ في ذلك الهَوْلِ، وينقطعُ دونَ وصفِها القولُ، ولا يُطمَعُ في الخلاصِ منها بقُوَّةٍ ولا حَوْلٍ، فقال ما معناه: يكونُ هذا كلُّه ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[٥].

ظرفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾، والتقديرُ: قال لهم في ذلك القولِ ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ ﴾، ومناسبةُ تعليقِه به: أنَّ هذا القولَ لجهنَّمَ مقصودٌ به ترويعُ المدفوعين

---

(١) فتح القدير (٥/ ٩١).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤٢٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٣١).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٤٢٩).

(٥) نظم الدرر (١٨/ ٤٣٠).

إلىٰ جهنَّمَ أن لا يطمعوا في أنَّ كثرتَهم يضيقُ بها سَعةُ جهنَّمَ، فيطمعُ بعضُهم أن يكونَ ممَّن لا يوجدُ له مكانٌ فيها، فحكاه اللهُ في القرآنِ عِبْرةً لِمَنْ يسمعُه من المشركين، وتعليمًا لأهلِ القرآنِ المؤمنين(١).

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر النَّارَ، وقدَّمها لأنَّ المقامَ للإنذارِ؛ أتبعَها دارَ الأبرارِ، فقال سارًّا لهم بإسقاطِ مُؤْنةِ السَّيرِ، وطَيِّ شُقَّةِ البُعْدِ: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾(٢).

عُطف ﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾ علىٰ ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾، فالتقديرُ: يومَ أُزلِفتِ الجنَّةُ للمتقين، وهو رجوعٌ إلىٰ مُقابِلِ حالةِ الضَّالِّين يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ، فهذه الجملةُ مُتَّصِلةٌ في المعنىٰ بجملةِ ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾، ولو اعتُبِرَتْ معطوفةً عليها لَصَحَّ ذلك، إلَّا أنَّ عطفَها علىٰ جملةِ ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾ غنيَّةٌ عن ذلك، ولا سِيَّما مع طولِ الكلامِ(٣).

شروعٌ في بيانِ حالِ المؤمنين بعدَ النَّفخِ ومجيءِ النُّفوسِ إلىٰ موقفِ الحسابِ(٤).

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّقريبُ قد لا يدري النَّاظرُ ما سببُه، قال سارًّا لهم: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾(٥).

ثم يُقالُ لهم علىٰ وجهِ التَّهنئةِ: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣١٧).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤٣١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣١٨).

(٤) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٣٢).

(٥) نظم الدرر (١٨/ ٤٣٢).

(٦) تفسير السعدي (ص: ٨٠٦).

﴿ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

ثم أبدل من «كُلِّ» تتميمًا لبيانِ المتقين قولَه: ﴿ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴾[(١)].

﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾

ولمَّا كان الإخبارُ بكونِها لهم، وإنْ كان أمرًا سارًّا، لا يقتضي دخولَها في ذلك الوقتِ؛ زاد سرورَهم بالإذنِ بقولِه مُعبِّرًا بضميرِ الجميعِ بيانًا لأنَّ المرادَ مِن ﴿ مَّنۡ ﴾ جميعُ المتقين: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴾[(٢)].

محلُّ هذه الجملةِ من التي قبلَها: الاستئنافُ البيانيُّ؛ لأنَّ ما قبلَها يُثِيرُ ترقُّبَ المُخاطَبين للإذنِ بإنجازِ ما وُعدوا به[(٣)].

ثم يُقالُ لهؤلاء الأتقياءِ الأبرارِ: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴾[(٤)].

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴿٣٥﴾ ﴾

ثم وصَل به قولَه جوابًا لِمَنْ كأنَّه قال: على أيِّ وجهٍ خلودُهم؟ ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴾[(٥)].

هذه الجملةُ يجوزُ أن تكونَ من بقيَّةِ ما يُقالُ للمتقين، ويجوزُ أن تكونَ ممَّا خُوطِبَ به الفريقانِ في الدنيا، وعلى الاحتمالينِ فهي مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، وجاء ترتيبُ

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٣٢).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤٣٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٢١).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٨٠٧).

(٥) نظم الدرر (١٨/ ٤٣٣).

الآياتِ في منتهىٰ الدِّقَّةِ، فبدأت بذِكْرِ إكرامِهم، ثم بذِكْرِ أنَّ الجنَّةَ جزاؤهم الذي وُعدوا به فهي حقٌّ لهم، ثم أومَأَتْ إلىٰ أنَّ ذلك لأجلِ أعمالِهم، ثم ذكَرتِ المبالغةَ في إكرامِهم بعد ذلك كلِّه، ثم طَمْأَنَهم بأنَّ ذلك نعيمٌ خالدٌ، وزِيدَ في إكرامِهم بأنَّ لهم ما يشاؤون مما لم يَرَوْه حينَ الدُّخولِ، وبأنَّ اللهَ وعَدهم بالمزيدِ مِن لَدُنْهُ[1].

لمَّا بيَّن أنَّهم فيها خالدون، قال: لا تخافوا انقطاعَ أرزاقِكم، وبقاءَكم في حاجةٍ، كما كنتم في الدنيا مَن كان يُعمَّرُ يُنكَّسُ ويحتاجُ؛ بل لكم الخلودُ، ولا يَنفَدُ ما تتمتَّعون به، فلكم ما تشاؤون في أيِّ وقتٍ تشاؤون، وإلىٰ اللهِ المنتهىٰ، وعندَ الوصولِ إليه، والمُثُولِ بينَ يديه، فلا يُوصَفُ ما لديه، ولا يطَّلِعُ أحدٌ عليه، وعَظَمةُ مَن عندَه تَدُلُّك علىٰ فضيلةِ ما عندَه[2].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾

ولمَّا ذكَر سبحانه أوَّلَ السورةِ تكذيبَهم بالقدرةِ علىٰ اعترافِهم بما يُكذِّبُهم في ذلك التَّكذيبِ، ثم سلَّىٰ وهدَّد بتكذيبِ الأُمَمِ السَّابقةِ، وذكَر قدرتَه عليهم، وأتبعه الدَّلالةَ علىٰ كمالِ قدرتِه، إلىٰ أن ختَم بالإشارةِ إلىٰ أنَّ قدرتَه لا نهايةَ لها، ولا تُحصَرُ بحَدٍّ، ولا تُحصَىٰ بعَدٍّ؛ ردًّا علىٰ أهلِ العنادِ وبدعةِ الاتِّحادِ في قولِهم: «ليس في الإمكانِ أبدعُ ممَّا كان»؛ عطَف علىٰ ما قدَّرتُه بعدَ ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ من إهلاكِ تلك الأُمَمِ ممَّا هو أعمُّ منه بشمولِه جميعَ الزَّمانِ الماضي، وأدلُّ علىٰ شمولِ القدرةِ، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾[3].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٢١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٤٩).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٣٤).

انتقالٌ من الاستدلالِ إلى التَّهديدِ، وهو معطوفٌ على ما قبلَه، وهذا العطفُ انتقالٌ إلى الموعظةِ بما حَلَّ بالأُمَمِ المُكذِّبةِ، بعدَ الاستدلالِ على إمكانِ البعثِ بقولِه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، وما فُرِّعَ عليه من قولِه: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾، وفي هذا العطفِ الوعيدُ الذي أُجمِلَ في قولِه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ إلى قولِه: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾، فالوعيدُ الذي حقَّ عليهم هو الاستئصالُ في الدنيا، وهو مضمونُ قولِه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾[1].

لمَّا أَنذَرَهم بما بينَ أيديهم من اليومِ العظيمِ، والعذابِ الأليمِ؛ أَنذَرَهم بما يُعجِّلُ لهم من العذابِ المُهلِكِ، والإهلاكِ المُدرِكِ، وبيَّن لهم حالَ مَن تَقدَّمَهم[2].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾

ولمَّا ذكَرْنا هنا من المواعظِ ما أَرقَصَ الجمادَ، فكيف بمَن يدَّعِي أنَّه من رؤوسِ النُّقَّادِ؛ أَنتَجَ قولَه مُؤكِّدًا لأجلِ إنكارِ الجاحدِ وعنادِ المُعانِدِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[3].

قولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ إلى آخِرِها، يجوزُ أن تكونَ الإشارةُ بذلك إلى إهلاكِ القرونِ الأشدِّ بطشًا، ويجوزُ أن يكونَ إلى جميعِ ما تقدَّم من استدلالٍ وتهديدٍ وتحذيرٍ من يومِ الجزاءِ[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٢٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٤٩).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٣٥-٤٣٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٢٣).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

ولمَّا دَلَّ علىٰ تمامِ علمِه وشمولِ قدرتِه، بخلقِ الإنسانِ، إثرَ ما ذكَره من جميعِ الأكوانِ، ثم بإعدامِه لأصنافِ الإنسانِ في كلِّ زمانٍ؛ ذكَّر بخلقِ ما هو أكبرُ منه في المقدارِ، والإنسانُ بعضُه علىٰ وجهٍ آخرَ، فقال عاطفًا علىٰ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، وأكَّد تنبيهًا لمُنكِري البعثِ وتبكيتًا، وافتتَحه بحرفِ التَّوقُّعِ لأنَّ مَن ذكَّر بخلقِ شيءٍ توقَّع الإخبارَ عمَّا هو أكبرُ منه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾(1).

تكملةٌ لِما وُصف من خلقِ السَّماواتِ في قولِه: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾(2).

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾

ولمَّا دَلَّ سبحانه علىٰ شمولِ العلمِ وإحاطةِ القدرةِ، وكشَف فيهما الأمرَ أتمَّ كشفٍ؛ كان علمُ الحبيبِ القادرِ بما يفعلُ العدوُّ أعظمَ نذارةً للعدوِّ وبشارةً للوليِّ؛ سبَّب عن ذلك قولَه: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾(3).

مناسبةُ وقعِه هذا الموقعَ ما تَضمَّنَه قولُه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ الآيةَ، من التَّعريضِ بتسليةِ النبيِّ ﷺ(4).

---

(1) نظم الدرر (١٨/ ٤٣٧).
(2) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٢٥).
(3) نظم الدرر (١٨/ ٤٣٨).
(4) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٢٦).

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠ ﴾

ولمَّا ذكَر ما هو أدلُّ على الحبِّ في المعبودِ؛ لأنَّه وقتُ الانتشارِ إلى الأمورِ الضَّروريَّةِ، التي بها القِوامُ والرُّجوعُ لقصدِ الرَّاحةِ الجسديَّةِ بالأكلِ والشُّربِ، واللَّعِبِ، والاجتماعِ بعدَ الانتشارِ والانضمامِ، مع ما في الوقتينِ من الدَّلالةِ الظَّاهرةِ على طَيِّ الخلقِ ثم نَشْرِهم؛ أَتبعَه ما يكونُ وقتَ السُّكونِ المرادِ به الرَّاحةُ بلذيذِ الاضطجاعِ والمنامِ، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾(١).

﴿ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ۝٤١ ﴾

ولمَّا سلَّاه سبحانه عمَّا يسمعُ منهم من التَّكذيبِ وغيرِه من الأذى، بالإقبالِ على عبادتِه، والانتظارِ لنُصْرَتِه؛ أَتبعَه تعزيةً الإشارةُ فيها أظهرُ بما صوَّرَه يومَ مُصِيبتِهم، وقرَّبه حتى إنَّه يسمعُ في وقتِ نزولِ هذه الآيةِ ما فيه لهم من المَثُلاتِ وقوارعِ المُصِيباتِ؛ تحذيرًا لهم، وبشرى لأوليائِه بتمامِ تأييدِه عليهم، ونصرِه لهم في الدنيا والآخرةِ، فقال: ﴿ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴾(٢).

لا محالةَ أنَّ جملةَ ﴿ وَٱسۡتَمِعۡ ﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾، فالأمرُ بالاستماعِ مُفرَّعٌ بالفاءِ التي فُرِّعَ بها الأمرُ بالصَّبرِ ﴿ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾، فهو لاحقٌ بتسليةِ النبيِّ ﷺ، فلا يكونُ المسموعُ إلَّا من نوعِ ما فيه عنايةٌ به وعقوبةٌ لمُكذِّبيه(٣).

إشارةٌ إلى بيانِ غايةِ التَّسبيحِ؛ يعني: اشتغِلْ بتنزيهِ اللهِ، وانتظِرِ المُناديَ(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٣٨-٤٣٩).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤٤٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٢٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٥٤).

﴿ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ۝٤٢ ﴾

ولمَّا عظَّم هذا المقامَ بما كساه من ثوبِ الإجمالِ، أَبدَلَ منه إيضاحًا وزيادةً في التَّعظيمِ قولَه: ﴿ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴾[(١)].

هذا تحقيقُ ما بيَّنَّا من الفائدةِ في قولِه: ﴿ وَٱسۡتَمِعۡ ﴾؛ أي: لا تكنْ من الغافلين؛ حتىٰ لا تُصعَقَ يومَ الصَّيْحةِ[(٢)].

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ۝٤٣ ﴾

ولمَّا بُنيت دعائمُ القدرةِ، ودقَّتْ بشائرُ النُّصْرةِ، وختم بما يَصدُقُ علىٰ البعثِ الذي هو الإحياءُ الأعظمُ، دالًّا بما هو مُشاهَدٌ من أفعالِه، أكَّده لإنكارِهم البعثَ، فقال: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴾[(٣)].

﴿ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ۝٤٤ ﴾

ولمَّا تحقَّق بذلك أمرُ البعثِ غايةَ التَّحقُّقِ، صوَّر خروجَهم فيه، فقال مُعلِّقًا بما ختَم به الابتداءَ ممَّا قبلَه زيادةً في تفخيمِه وتعظيمِه وتبجيلِه: ﴿ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴾[(٤)].

أفادت هذه الآيةُ بيانًا لجملةِ ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴾، أو بدلَ اشتمالٍ منها، مع ما في المُعادِ منها من تأكيدٍ لمُرادِفِه، أو أفادت هذه الجملةُ استئنافًا؛ استدلالًا علىٰ إمكانِ الحشرِ ووصفِ حالٍ من أحوالِه؛ وهو تَشقُّقُ الأرضِ عنهم[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٤٠-٤٤١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٥٥).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٤١).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٤٤٢).

(٥) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٣٢).

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾

ولمَّا أقامَ سبحانه الأدلَّةَ على تمامِ قدرتِه وشمولِ علمِه، وختَم بسهولتِه عليه واختصاصِه به؛ وصَل تسليةً للنَّبيِّ ﷺ بتهديدِهم على تكذيبِهم بالعلمِ الذي هو أعظمُ التَّهديدِ، فقال: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[1].

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾، فهو إيغالٌ في تسليةِ النبيِّ ﷺ، وتعريضٌ بوعيدِهم، فالخبرُ مُستعمَلٌ في وعدِ الرسولِ ﷺ بأنَّ اللهَ سيُعاقِبُ أعداءَه[2].

ثم عزَّى اللهُ سبحانه نبيَّه ﷺ، فقال: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٤٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٣٣).

(٣) فتح القدير (٥/ ٩٦).

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

﴿ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ ﴾

ولمَّا كانت غايةُ الذَّرْوِ التَّهيئةَ للحملِ، قال مُسبِّبًا ومُعقِّبًا: ﴿ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴾[1].

عطفُ تلك الصِّفاتِ بالفاءِ يقتضي تناسبَها وتجانسَها، فيجوزُ أن تكونَ صفاتٍ لجنسٍ واحدٍ وهو الغالبُ في عطفِ الصِّفاتِ بالفاءِ، ويجوزُ أن تكونَ «الحاملاتُ»: الأَسْحِبةَ التي مُلِئَتْ ببُخارِ الماءِ الذي يصيرُ مطرًا، عُطفت بالفاءِ علىٰ «الذَّارياتِ» بمعنىٰ: الرِّياحِ؛ لأنَّها ناشئةٌ عنها، فكأنَّها هي[2].

﴿ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ ﴾

ولمَّا كان الحملُ إنَّما هو الوضعُ في الأماكنِ التي يُرادُ ضُرُّها أو نفعُها، وكان سَيرُ الغَمامِ بعدَ الحملِ في ساحةِ الجوِّ وباحةِ الأُفُقِ من غيرِ مُمسِكٍ يُرَىٰ أدلَّ علىٰ القدرةِ؛ ولا سِيَّما إذا كان مع الجريِ الذي يُضرَبُ به لسرعتِه المثلُ، وكذا جريُ السُّفنِ في باحةِ البحرِ بعدَ ثِقَلِها بالوسقِ؛ قال: ﴿ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٤٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٣٢).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٤٦-٤٤٧).

﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤﴾

ولمَّا كان في غايةِ الدَّلالةِ علىٰ تمامِ القدرةِ بغريقِ محمولِها في الأراضي المجتاحةِ؛ ولا سِيَّما إن تباعدت أماكنُ صَبِّه ومواطنُ سَكْبِه، وكان ذلك التَّفريقُ هو غايةَ الجري المترتِّبِ علىٰ الحملِ المترتِّبِ علىٰ الذَّرْوِ؛ قال مُسبِّبًا مُعقِّبًا مُشيرًا بالتَّفعيلِ إلىٰ غرابةِ فصلِها لقطراتِها، وبداعةِ تفريقِها لرحمتِها من عذابِها، وغيرِ ذلك من أحوالِ الجارياتِ وتصريفِ السَّارياتِ: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾(١).

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥﴾

ولمَّا كانوا يُكذِّبون بالوعيدِ، أكَّد الجوابَ بعدَ التَّأكيدِ بنفسِ القَسَمِ، فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾(٢).

﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ٦﴾

ولمَّا كان أَجَلُ وعيدِهم وما يتعلَّقُ بالجزاءِ يومَ القيامةِ، وكانوا يُنكِرونه؛ قال: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾(٣).

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ٧﴾

ولمَّا أخبر سبحانه عن ثباتِ خبرِه، أَتبَعَه الإخبارَ عن وَهْيِ كلامِهم، فقال مُقسِمًا عليه؛ لمبالغتِهم في تأكيدِ مَضامينِه مع التَّناقضِ بفعلِه الجميلِ، وصُنْعِه الجليلِ؛ إشارةً إلىٰ أنَّهم لم يتخلَّقوا من أخلاقِه الحسنىٰ بقولٍ ولا فعلٍ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٤٧).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤٤٨).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٤٨).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٤٥١).

هذا قَسَمٌ أيضًا لتحقيقِ اضطرابِ أقوالِهم في الطَّعنِ في الدِّينِ، وهو كالتَّذييلِ للذي قبلَه؛ لأنَّ ما قبلَه خاصٌّ بإثباتِ الجزاءِ(١).

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾

مناسبةُ هذا القَسَمِ للمُقسَمِ عليه في وصفِ السَّماءِ بأنَّها ذاتُ حُبُكٍ -أي: طرائقَ- لأنَّ المُقسَمَ عليه: إنَّ قولَهم مُختلِفٌ طرائقَ قِدَدًا؛ ولذلك وُصف المُقسَمُ به ليكونَ إيماءً إلىٰ نوعِ جوابِ القَسَمِ(٢).

هذا جوابُ القَسَمِ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾(٣).

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾

ولمَّا كان هذا الاختلافُ ممَّا لا يكادُ يُصدَّقُ؛ لأنَّه لا يقعُ فيه عاقلٌ، بيَّن سببَه بأنَّهم مغلوبون عليه بقهرِ القدرةِ، فقال: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾(٤).

جملةُ ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يجوزُ أن تكونَ في محلِّ صفةٍ ثانيةٍ لـ﴿قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾، ويجوزُ أن تكونَ مُستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن قولِه: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾، فتكونَ جملةُ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ مُعترِضةً بينَ الجملةِ البيانيَّةِ والجملةِ المُبيَّنِ عنها(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٤٠).

(٣) فتح القدير (٥/ ٩٩).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٤٥٢).

(٥) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٤٢).

﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ١٠ ﴾

ولمَّا كان الكذبُ: الإخبارَ بما لا حقيقةَ له وتَعمُّدَ الافتراءِ، وكان الخَرْصُ: الكذبَ والافتراءَ والاختلافَ وكلَّ قولٍ بالظَّنِّ؛ قال مُعلِمًا بما لهم علىٰ قولِهم هذا: قُتلوا أو قُتلتم، هكذا كان الأصلُ، ولكنَّه أظهر الوصفَ الذي استَحَقُّوه بقولِهم: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾(١).

دعاء بالهلاكِ علىٰ أصحابِ ذلك القولِ المُختلِفِ؛ لأنَّ المقصودَ بقتلِهم أنَّ اللهَ يُهلِكُهم، ولذلك يَكثُرُ أن يُقالَ: قاتَلَه اللهُ، ثم أُجرِيَ مجرىٰ اللَّعنِ والتَّحقيرِ والتَّعجيبِ من سوءِ أحوالِ المدعو عليه بمِثْلِ هذا، وجملةُ الدعاءِ لا تُعطَفُ؛ لأنَّها شديدةُ الاتِّصالِ بما قبلَها، ممَّا أَوجَبَ ذلك الوصفَ لدخولِهم في هذا الدعاءِ، كما كان تعقيبُ الجملِ التي قبلَها بها إيماءً إلىٰ أنَّ ما قبلَها سببٌ للدُّعاءِ عليهم، وهذا من بديعِ الإيجازِ(٢).

ثم أشار أنَّهم لم يُؤفكوا لاتِّباعِهم الدَّلائلَ، بل لأخذِهم بالخَرْصِ والتَّخمينِ، بقولِه تعالىٰ: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾(٣).

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ١١ ﴾

ثم وصَفَهم، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٥٢).
(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٤٣).
(٣) محاسن التأويل (٩/ ٣٦).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٦٣).

﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٢﴾

ولمَّا حكَم بسَهْوِهم، دَلَّ عليه بقولِه: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ (١).

هذه الجملةُ يجوزُ أن تكونَ حالًا من ضميرِ ﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾، وأن تكونَ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن جملةِ ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾؛ لأنَّ جملةَ ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ أفادت تعجيبًا من سوءِ عقولِهم وأحوالِهم، فهو مثارُ سؤالٍ في نفسِ السَّامعِ يتطلَّبُ البيانَ، فأُجِيبَ بأنَّهم يسألون عن يومِ الدِّينِ سؤالَ مُتهكِّمِين، يَعْنُونَ أنَّه لا وقوعَ ليومِ الدِّينِ (٢).

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ١٣﴾

ولمَّا تقرَّر أمرُ القيامةِ بالتعبيرِ بـ﴿سَاهُونَ﴾، قال: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (٣).

جملةُ ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ جوابٌ لسؤالِهم، جرىٰ علىٰ الأسلوبِ الحكيمِ من تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ، إذ هم حينَ قالوا: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، أرادوا التَّهكُّمَ والإحالةَ، فتُلُقِّيَ كلامُهم بغيرِ مرادِهم؛ لأنَّ في الجوابِ ما يشفي وقعَ تهكُّمِهم (٤).

ثم أخبر سبحانه عن ذلك اليومِ، فقال: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (٥).

﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ١٤﴾

مَقُولًا لهم علىٰ سبيلِ القرعِ والتَّوبيخِ: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٦).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٥٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٤٤).
(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٥٤).
(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٤٥).
(٥) فتح القدير (٥/ ١٠٠).
(٦) نظم الدرر (١٨/ ٤٥٤).

جملةُ ﴿ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ ﴾ مَقُولُ قولٍ محذوفٍ دَلَّ عليه الخطابُ؛ أي: يُقالُ لهم حينَئذٍ، أو مَقُولًا لهم: ذُوقُوا فِتنتكم[1].

﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ﴾

اعتراضٌ قابَل به حالَ المؤمنين في يومِ الدِّينِ، جرىٰ علىٰ عادةِ القرآنِ في اتِّباعِ النِّذارةِ بالبشارةِ، والتَّرهيبِ بالتَّرغيبِ[2].

بعدَ بيانِ حالِ المُغترِّين المجرمين، بيَّن حالَ المُحِقِّ المُتَّقِي[3].

لمَّا ذكَر حالَ الكفارِ، ذكَر حالَ المؤمنين[4].

﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦ ﴾

ثم ذكَر الاستحقاقَ وسِرَّه، فقال: ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴾.

ثم ذكَر حالَهم في الجنَّةِ، فقال: ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴾.

﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ ﴾

ثم فسَّر إحسانَهم، مُعبِّرًا عنه بما هو في غايةِ المبالغةِ، بقولِه: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾[5].

ثم ذكَر حالَهم في الدنيا بعدَ حالِهم التي ذكَر في الآخرةِ، فقال: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٤٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٦٥).

(٤) البحر المحيط (٩/ ٥٥١).

(٥) نظم الدرر (١٨/ ٤٥٥).

﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾

ولمَّا كان المُحسِنُ لا يرىٰ نفسَه إلَّا مُقصِّرًا، قال دالًّا علىٰ ذلك، وعلىٰ أنَّ تهجُّدَهم يتَّصِلُ بآخِرِ اللَّيلِ، مُؤكِّدًا بالإسنادِ مرَّتينِ أيضًا: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾[(١)].

أَتبَعَ ذلك بأنَّهم يستغفرون في السَّحَرِ؛ أي: فإذا آذَنَ اللَّيلُ بالانصرامِ، سألوا اللهَ أن يغفرَ لهم بعدَ أن قدَّموا من التَّهجُّدِ ما يَرْجُونَ أن يُزلِفَهم إلىٰ رضا اللهِ تعالىٰ[(٢)].

فيه ظهورٌ علىٰ أنَّ تهجُّدَهم يتَّصِلُ بالأسحارِ، فيأخذون في الاستغفارِ ممَّا يمكنُ أن يقعَ فيه تقصيرٌ، وكأنَّهم أجرَموا في تلك اللَّيالي، والأسحارُ مَظِنَّةُ الاستغفارِ[(٣)].

﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾

ولمَّا ذكَر معاملتَهم للخالقِ، أَتبعَه المعاملةَ للخلائقِ؛ تكميلًا لحقيقةِ الإحسانِ، فقال: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾[(٤)].

قد ذكَرْنا مِرارًا أنَّ اللهَ تعالىٰ بعدَ ذِكْرِ تعظيمِ نفسِه يذكرُ الشَّفَقةَ علىٰ خلقِه، ولا شكَّ أنَّ قليلَ الهُجُوعِ، المُستغفِرَ في وجوهِ الأسحارِ، وُجد منه التَّعظيمُ العظيمُ، فأشارَ بقولِه: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾[(٥)].

ثم ذكَر سبحانه صدقاتِهم، فقال: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾[(٦)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٥٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٥٠).

(٣) البحر المحيط (٩/ ٥٥٢).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٤٥٦).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٦٩).

(٦) فتح القدير (٥/ ١٠١).

﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ ﴾

ولمَّا دَلَّ إقسامُه بالسَّماءِ وما قبلَها من الذَّارياتِ علىٰ ما له في العُلْويَّاتِ من الآياتِ، إلىٰ أن ختَم بالأموالِ التي تُنبِتُها الأرضُ، فكان التقديرُ: ففي السَّماواتِ آياتٌ للمؤمنين دالَّاتٌ علىٰ عَظمَتِه واستحقاقِه للعبادةِ بغايةِ الخضوعِ رَغَبًا ورَهَبًا؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴾[(١)].

بعدَ أنْ حقَّق وقوعَ البعثِ بتأكيدِه بالقَسَمِ، انتقَل إلىٰ تقريبِه بالدَّليلِ لإبطالِ إحالتِهم إيَّاه، واعلَمْ أنَّ الآياتِ المرموقةَ من أحوالِ الأرضِ صالحةٌ للدَّلالةِ أيضًا علىٰ تفرُّدِه تعالىٰ بالإلهيَّةِ في كيفيَّةِ خلقِها ودَحْوِها للحيوانِ والإنسانِ، وكيف قُسمت إلىٰ سَهْلٍ وجبالٍ وبحرٍ، ونظامِ إنباتِها الزَّرعَ والشَّجرَ، وما يخرجُ من ذلك من منافعَ للنَّاسِ؛ ولهذا حُذف تقييدُ ﴿ ءَايَٰتٞ ﴾ بمُتعلِّقٍ ليَعُمَّ كلَّ ما تَصلُحُ الآياتُ التي في الأرضِ أن تَدُلَّ عليه[(٢)].

ثم أشارَ تعالىٰ إلىٰ أنَّه لا حاجةَ إلىٰ الخَرْصِ والتَّخمينِ في بابِ الاعتقاداتِ؛ لكثرةِ الآياتِ الواضحةِ، بقولِه سبحانه: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴾[(٣)].

ثم ذكَر سبحانه ما نصَبَه من الدَّلائلِ الدَّالَّةِ علىٰ توحيدِه، وصدقِ وعدِه ووعيدِه، فقال: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴾[(٤)].

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١ ﴾

ولمَّا أشارَ إلىٰ آياتِ الآفاقِ، أَتبعَها آياتِ الأنفُسِ، فقال: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٥٦-٤٥٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٥٢).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ٣٩).

(٤) فتح القدير (٥/ ١٠١).

(٥) نظم الدرر (١٨/ ٤٥٧).

📖 ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ 📖

ولمَّا بانَ بما قدَّمتُه في ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤﴾ ما في جهةِ العُلُوِّ من الأسبابِ المُوجِبةِ للنِّعمةِ والعذابِ، قال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (١).

بعدَ أن ذكَر دلائلَ الأرضِ، ودلائلَ الأنفُسِ التي هم من علائقِ الأرضِ، عطَف ذِكرَ السَّماءِ للمناسبةِ، وتمهيدًا للقَسَمِ الذي بعدَه، بقولِه: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ (٢).

📖 ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ 📖

ولمَّا أَقسَمَ بما له من المقدوراتِ، لِمَنْ وقَف مع المحسوساتِ المشهوراتِ، فترَقَّوْا بذلك إلىٰ أعلىٰ الدَّرجاتِ، وانكشَف ما له من الكمالِ انكشافًا تامًّا، وعُلم أنَّ في خزائنِه سبحانه كلَّ ما أَخبرَتْ عنه به الرُّسلُ من وعدٍ ووعيدٍ؛ سبَّب عنه قولَه مُقسِمًا بنفسِه الأقدسِ لكنْ بصفةٍ مألوفةٍ، فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ (٣).

فلمَّا بيَّن الآياتِ، ونبَّه عليها تنبيهًا ينتبهُ به الذَّكيُّ اللَّبيبُ؛ أَقسَمَ تعالىٰ علىٰ أنَّ وعدَه وجزاءَه حقٌّ، وشبَّه ذلك بأظهرِ الأشياءِ لنا وهو النُّطقُ، فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ (٤).

📖 ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾ 📖

ولمَّا بيَّن بما مضىٰ من القَسَمِ وما أَتبعَه من أنَّه أَودَعَ في السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما أسبابًا صالحةً للإتيانِ بما وُعِدْناه من الخيرِ، وما تُوعِّدْنا به من الشَّرِّ، وإنْ كُنَّا

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٥٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٥٤).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٥٩).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٨٠٩).

لم نَرَها، وهو قادرٌ مختارٌ، فصار ذلك كالمُشاهَدِ، ولا وجهَ للتَّكذيبِ بوعدٍ ولا وعيدٍ؛ دلَّ عليه وصوَّره بما شُوهِدَ من أحوالِ الأُمَمِ، وبدأ -لأنَّ السِّياقَ للمُحسِنين- برأسِ المُحسِنين من أهلِ هذه الأنباءِ الذي أَخبَرَتْه الملائكةُ عليه السلام بما سبَّبه معَه وإن كان علىٰ غيرِ العادةِ، فتَعجُّبِ زوجتِه من ذلك مع كونِها أعلىٰ نساءِ ذلك الزَّمانِ، وأَتبَعَ قِصَّتَه قصَّةَ لوطٍ ابنِ أخيه عليهما السلام؛ لاتِّصالِ ما بينَ قِصَّتَيْهما في الزَّمانِ، ولمناسبةِ عذابِهم لِما أَقسَمَ به في أوَّلِ السورةِ؛ فإنَّه سبحانه أمر الذَّارياتِ فاقتَلَعَتْهم بقُراهم، وحَمَلَتْها كما تحملُ السَّحابَ، ثم كبَّتْهم فرَجَمَتْهم، والأرضَ فخُسِفَتْ بهم، والملائكةَ المُوكَّلةَ بمِثْلِ ذلك ففعلوا جميعَ ما أُمِروا به، ورأَوْهم في قريتِهم، وقصَدُوهم بالمكرِ لأنَّهم خَفِيَ عليهم أمرُهم، وأَتَوُا الخليلَ عليه السلام وهو أعلىٰ ذلك الزَّمانِ وهم في ذلك ولم يعلمْ أوَّلَ الأمرِ بشيءٍ من حالِهم، ولا ظَنَّهم إلَّا آدميِّين، فقال مُفخِّمًا لأمرِ القصَّةِ بتخصيصِ الخطابِ لأعلىٰ الخلقِ وأنفذِهم فهمًا؛ إشارةً إلىٰ أنَّه لا يفهمُ هذا حقَّ فهمِه سواه، علىٰ طريقِ الاستفهامِ، علىٰ عادةِ العربِ في الإعلامِ بالأمورِ الماضيةِ، وإنْ كان المُخبِرُ عالمًا بأنَّ المُخاطَبَ لا علمَ له بذلك؛ لأنَّ المقصودَ ليس إلَّا التنبيهُ علىٰ أنَّ ذلك الأمرَ ممَّا ينبغي الاهتمامُ به والبحثُ فيه؛ ليُعرَفَ ما فيه من الأمورِ الجليلةِ -قال أبو حيَّان: تقريرٌ لتجتمعَ نفسُ المُخاطَبِ، كما تبدأُ المرءَ -إذا أردتَ أن تُحدِّثَه بعجيبٍ- فتُقرِّرُه: هل سمعتَ ذلك أم لا؟ فكأنَّك تقتضي بأن يقولَ: لا، ويستطعمُك الحديثَ. انتهىٰ-: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾[1].

انتقالٌ من الإنذارِ والموعظةِ والاستدلالِ إلىٰ الاعتبارِ بأحوالِ الأممِ الماضيةِ المُماثِلةِ للمُخاطَبين المشركين في الكفرِ وتكذيبِ الرُّسلِ[2].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٦٠-٤٦١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٥٦).

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ثم ذكَر حديثَهم، فقال: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾

ولمَّا أشار إلىٰ أنَّه -حينَ إنكارِه لهم- لم يعرفْ مِن أيِّ نوعٍ هم، ولا خصوصَ ما هم فيه؛ رتَّب علىٰ ردِّه لسلامِهم أنَّه أَسرَعَ غايةَ الإسراعِ في إحضارِ ما ينبغي للضَّيفِ، علىٰ ظنِّ أنَّهم آدميُّون، فقال: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾[1].

﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

فأنتَجَ عن المجيءِ به قولَه: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: فلم يأكلوا، سبَّب عنه قولَه: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾[2].

الفاءُ في ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فصيحةٌ؛ لإفصاحِها عن جملةٍ مُقدَّرةٍ يقتضيها ربطُ المعنىٰ؛ أي: فلم يأكلوا، ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾[3].

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

ولمَّا كانا بعيدينِ عن قبولِ الولدِ، تسبَّب عن ذلك قولُه، دالًّا علىٰ أنَّ الولدَ إسحاقُ، مع الدَّلالةِ علىٰ أنَّ خفاءَ الأسبابِ لا يُؤثِّرُ في وجودِ المُسبَّباتِ: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٦٢).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤٦٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٦٠).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٤٦٣-٤٦٤).

﴿ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠ ﴾

ولمَّا كان في هذا أشدُّ تَشوُّفٍ إلى الجوابِ، استأنف تعالى الجوابَ بقولِه: ﴿ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾(١).

﴿ ۞قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣١ ﴾

ولمَّا كان الخليلُ عليه السلام أعلمَ أهلِ زمانِه بالأمورِ الإلهيَّةِ، عَلِمَ أنَّ اجتماعَ الملائكةِ على تلك الهيئةِ التي يراهم فيها ليس لهذه البشارةِ فقطْ؛ فلذلك استأنف تعالى الجوابَ لِمَنْ كان كأنَّه قال: ما كان مِن حالِه وحالِهم بعدَ هذا؟ بقولِه: ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾(٢).

لمَّا عَلِمَ إبراهيمُ عليه السلام أنَّهم ملائكةٌ، وأنَّهم لا ينزلون إلَّا بإذنِ اللهِ تعالى رُسُلًا؛ ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾(٣).

جملةُ ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ مستأنفةٌ، جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنَّه قيل: فماذا قال إبراهيمُ بعدَ هذا القولِ من الملائكةِ(٤).

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢ ﴾

فأجابوه ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴾.

﴿ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣ ﴾

ثم ذكَروا نوعَ عذابِ القومِ المجرمين، فقالوا: ﴿ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٦٤).
(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤٦٥).
(٣) البحر المحيط (٩/ ٥٥٧).
(٤) فتح القدير (٥/ ١٠٦).

﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

ثم وصَفوه بقولِه: ﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾.

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

ولمَّا كان من المعلومِ أنَّ القومَ يكونون تارةً في مَدَرٍ وتارةً في شعرٍ، وعُلم من الآياتِ السَّالفةِ أنَّ العذابَ مُختَصٌّ بذوي الإسرافِ؛ سبَّب عن ذلك مُفصِّلًا لخبرِهم قولَه تعالىٰ مُعلِمًا أنَّهم في مَدَرٍ: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[(١)].

هذه الجملةُ ليست من حكايةِ كلامِ الملائكةِ، بل هي تذييلٌ لقصَّةِ مُحاوَرةِ الملائكةِ مع إبراهيمَ عليه السلام، والفاءُ في ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ فصيحةٌ؛ لأنَّها تُفصِحُ عن كلامٍ مُقدَّرٍ هو ما ذُكر في سورةِ «هودٍ» من مجيءِ الملائكةِ إلىٰ لوطٍ، وما حدَث بينَه وبينَ قومِه، فالتقديرُ: فحَلُّوا بقريةِ لوطٍ، فأمَرْناهم بإخراجِ مَن كان فيها من المؤمنين، فأخرَجُوهم[(٢)].

حكايةٌ من جهتِه تعالىٰ لِما جرىٰ علىٰ قومِ لوطٍ عليه السلام بطريقِ الإجمالِ، بعدَ حكايةِ ما جرىٰ بينَ الملائكةِ وبينَ إبراهيمَ عليه السلام من الكلامِ[(٣)].

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

وسبَّب عن التَّعبُّسِ، والسَّترِ، والتَّعرُّضِ للظَّواهرِ والبواطنِ قولَه: ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٦٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٤١).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٤٦٦).

﴿ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ (٣٧) ﴾

ولمَّا كان إبقاءُ آثارِ المُهلَكِينَ أدلَّ على قدرةِ مَن أهلكَهم، قال: ﴿ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾(١).

﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ (٣٨) ﴾

ولمَّا قدَّم سبحانه أحقَّ القصصِ الدَّالَّةِ على قَسَمِه وما أَقسَمَ عليه، بما فيها من خفاءِ الأسبابِ مع وجودِها، ثم ما فيها من إنزالِ ما به الوعيدُ من السَّماءِ بالنَّارِ والماءِ الذي أُشِيرَ إليه بالمُقسَماتِ، مع الفُرْقةِ بينَ المسلمِ والمجرمِ؛ أَتبعَها قصَّةَ مَن أيَّدَه بحاملاتٍ فيها مطرٌ وبردٌ ونارٌ مُضطَرِمةٌ، كما مضى بيانُه في «الأعرافِ»، ثم بعدَ ذلك بريحٍ فرَّقتِ البحرَ، ونشَّفَتْ أرضَه، ودخله فرعونُ والقِبْطُ، وهو واضحُ الأمرِ في أنَّه سببٌ لهلاكِهم وهم لا يشعرون به، فقال عاطفًا على ﴿ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾(٢).

قولُه: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ ﴾ عطفٌ على قولِه: ﴿فِيهَآ ءَايَةٗ ﴾، والتقديرُ: وترَكْنا في موسى آيةً، فهذا العطفُ من عطفِ جملةٍ على جملةٍ لتقديرِ فعلِ «ترَكْنا» بعدَ واوِ العطفِ، والكلامُ على حذفِ مُضافٍ؛ أي: في قصَّةِ موسى حينَ أَرسَلْناه إلى فرعونَ بسلطانٍ مُبينٍ فتَولَّى ... إلخ، فيكونُ التَّركُ المُقدَّرُ في حرفِ العطفِ مرادًا به جعلُ الدَّلالةِ باقيةً، فكأنَّها متروكةٌ في الموضعِ لا تُنقَلُ منه، وأَعقَبَ قصَّةَ قومِ لوطٍ بقصَّةِ موسى وفرعونَ؛ لشُهْرةِ أمرِ موسى وشريعتِه(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٦٧).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤٦٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٩).

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ٣٩ ﴾

فكان فيها دلالةٌ واضحةٌ علىٰ صدقِ وعيدِه، ومعَ ذلك فلم ينفعْهم علمُها؛ ولذلك سبَّب عنه وعقَّب به قولَه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾[1].

فأنتجَ عن إرسالِه قولَه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾.

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ٤٠ ﴾

ولمَّا وقَعتِ التَّسليةُ بهذا للأولياءِ، قال تعالىٰ مُحذِّرًا للأعداءِ: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾[2].

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ٤١ ﴾

ولمَّا أتمَّ قصَّةَ مَن جمَع له السَّحابَ والماءَ والنَّارَ والرِّيحَ، أَتبَعَها قصَّةَ مَن أتاهم بريحٍ ذاريةٍ لم يوجدْ قطُّ مِثلُها، وكان أصلُها موجودًا بينَ ظَهْرانَيْهِم وهم لا يشعرون، بل قارَبتِ الوصولَ إليهم وهم يَظُنُّونها ممَّا ينفعُهم: ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾[3].

انتقَل إلىٰ العِبْرةِ بأُمَّةٍ من الأُمَمِ العربيَّةِ؛ وهم عادٌ، وهم أشهرُ العربِ البائدةِ[4].

ذكر أنَّ المقصودَ ها هنا تسليةُ قلبِ النبيِّ ﷺ، وتذكيرُه بحالِ الأنبياءِ، ولم يذكرْ في عادٍ وثمودَ أنبياءَهم، كما ذكر إبراهيمَ وموسىٰ عليهما السلام، نقولُ: في ذِكْرِ الآياتِ سِتُّ حكاياتٍ: حكايةُ إبراهيمَ عليه السلام وبشارتُه، وحكايةُ قومِ لوطٍ ونجاةُ مَن كان فيها من

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٦٨-٤٦٩).
(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤٦٩).
(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٧٠).
(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ١١).

المؤمنين، وحكايةُ موسىٰ عليه السلام، وفي هذه الحكاياتِ الثَّلاثِ ذِكرُ الرُّسلِ والمؤمنين؛ لأنَّ النَّاجِينَ فيهم كانوا كثيرين، أمَّا في حقِّ إبراهيمَ وموسىٰ عليهما السلام فظاهرٌ، وأمَّا في قومِ لوطٍ فلأنَّ النَّاجِينَ وإنْ كانوا أهلَ بيتٍ واحدٍ، ولكنَّ المُهلَكِينَ كانوا أيضًا أهلَ بقعةٍ واحدةٍ، وأمَّا عادٌ وثمودُ وقومُ نوحٍ فكان عددُ المُهلَكِينَ بالنِّسبةِ إلىٰ النَّاجِينَ أضعافَ ما كان عددُ المُهلَكِينَ بالنِّسبةِ إلىٰ النَّاجِينَ من قومِ لوطٍ، فذكر الحكاياتِ الثَّلاثَ الأُوَلَ للتَّسليةِ بالنَّجاةِ، وذكر الثَّلاثَ المتأخِّرةَ للتَّسليةِ بإهلاكِ العدوِّ، والكُلُّ مذكورٌ للتَّسليةِ[(١)].

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾

ثم بيَّن عُقْمَها وإعقامَها بقولِه: ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾[(٢)].

جملةُ ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ صفةٌ ثانيةٌ، أو حالٌ، فهو ارتقاءٌ في مَضَرَّةِ هذا الرِّيحِ، فإنَّه لا ينفعُ، وإنَّه يَضُرُّ أضرارًا عظيمةً[(٣)].

ثم وصَف سبحانه هذه الرِّيحَ، فقال: ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾[(٤)].

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ ﴾

ولمَّا تمَّ ما اقتضاه سياقُ السورةِ من قصَّةِ أهلِ الرِّيحِ الذَّاريةِ، أَتبعَها قصَّةَ مَن أُهلِكوا بما يحملُه السَّحابُ من الرِّيحِ، وما تحملُه الرِّيحُ من صوتِ الصَّيحةِ الرَّاجفةِ الماحقةِ، فقال: ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[(٥)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٨٣).
(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤٧١).
(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ١١).
(٤) فتح القدير (٥/ ١٠٨).
(٥) نظم الدرر (١٨/ ٤٧١).

أُتبِعَتْ قصَّةُ عادٍ بقصَّةِ ثمودَ؛ لتقارنِهما غالبًا في القرآنِ، من أجلِ أنَّ ثمودَ عاصَرتْ عادًا وخلَفَتْها في عَظَمةِ الأُمَمِ، ولاشتهارِهما بينَ العربِ(١).

﴿ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

فتسبَّب عن ذلك قولُه: ﴿ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾.

﴿ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

فتسبَّب عن أخذِهم بالصَّاعقةِ قولُه: ﴿ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾.

﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

ولمَّا أتمَّ قصَّةَ مَن أُهلِكوا بما من شأنِه الإهلاكُ؛ وهو الصَّاعقةُ، أَتبعَهم قصَّةَ مَن أُهلِكوا بما من شأنِه الإحياءُ؛ وهو الماءُ، وقد كان موجودًا في الأرضِ والسَّماءِ، وأسبابُه مُهيَّأةٌ، وهم لا يُحِسُّون بشيءٍ من ذلك، وأمَّا عبادُنا المؤمنون فهيَّأْنا لهم أسبابَ النَّجاةِ من السَّفينةِ وغيرِها، وأعلَمْناهم بها، فكان كلُّ ما أَرَدْنا، فقال مُغيِّرًا للأسلوبِ تنبيهًا على العَظَمةِ بنفسِ الإهلاكِ؛ لكونِه بما من شأنِه الإحياءُ والإبقاءُ والتَّصرُّفُ في الأسبابِ: ﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾(٢).

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولمَّا كان إهلاكُهم بالماءِ الذي نزل من السَّماءِ، وطلع من الأرضِ بغيرِ حسابٍ، كان ربما ظنَّ ظانٌّ أنَّ ذلك لخللٍ كان فيهما ثم أُصلِحَ بعدَ ذلك، كما يقعُ لبعضِ مَن

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٢).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤٧٢-٤٧٣).

يصنعُ من الملوكِ صنعًا يُبالِغُ في إتقانِه فيَختَلُّ؛ قال دالًّا على وحدانيَّته لتمامِ القدرةِ الدَّالَّةِ على ما تقدَّم من أمرِ البعثِ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[(١)].

لمَّا كانت شبهةُ نُفاةِ البعثِ قائمةً على توهُّمِ استحالةِ إعادةِ الأجسامِ بعدَ فنائِها، أَعقَبَ تهديدَهم بما يُقوِّضُ توهُّمَهم، فوجَّه إليه الخطابَ يُذكِّرُهم بأنَّ اللهَ خلق أعظمَ المخلوقاتِ ولم تكنْ شيئًا، فلا تُعَدُّ إعادةُ الأشياءِ الفانيةِ بالنِّسبةِ إليها إلَّا شيئًا يسيرًا، وابتُدِئ بخلقِ السَّماءِ لأنَّ السَّماءَ أعظمُ مخلوقٍ يشاهدُه النَّاسُ[(٢)].

بيانٌ للوحدانيَّةِ، وما تقدَّم كان بيانًا للحشرِ[(٣)].

﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ٤٨﴾

وعطَف على خلقِ السَّماءِ خلقَ الأرضِ عطفَ الشَّيءِ على مُخالِفِه؛ لاقترانِ المُتخالِفَينِ في الجامعِ الخياليِّ[(٤)].

وبعدَ أنْ ذكَر السَّماءَ، ذكَر الأرضَ، فقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾.

﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾

ولمَّا كان الأشياءُ المُتضادَّةُ من الشَّيءِ الواحدِ أدلَّ على القدرةِ من هذا الوجهِ، قال: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[(٥)].

وعطَف على خلقِ الأرضِ خلقَ أجناسِ الحيوانِ؛ لأنَّها قريبةٌ للأنظارِ، لا يُكلِّفُ النَّظرُ فيها والتَّدبُّرُ في أحوالِها ما يُرهِقُ الأذهانَ، وهذا الاستدلالُ عليهم بخلقِ

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٧٣-٤٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٦٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٥).

(٥) نظم الدرر (١٨/ ٤٧٥).

يُشاهِدون كيفيَّاتِه وأطوارَه كُلَّما لفَتوا أبصارَهم، وقدَحوا أفكارَهم، وهو خلقُ الذَّكرِ والأنثىٰ ليكونَ منهما إنشاءُ خلقٍ جديدٍ يَخلُفُ ما سَلَفَه، وذلك أقربُ تمثيلٍ لإنشاءِ الخلقِ بعدَ الفناءِ، وهو البعثُ الذي أنكَروه؛ لأنَّ الأشياءَ تَقرُبُ بما هو واضحٌ من أحوالِ أمثالِها(١).

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ ﴾

ولمَّا كان كلُّ شيءٍ ممَّا سواه لا بدَّ له من ضِدٍّ يُضادُّه، أو قرينٍ يَسُدُّ مَسَدَّه، وأمَّا سبحانه فلا مِثلَ له؛ لأنَّه لو كان له مِثلٌ لنازَعَه، فلم يَقدِرْ علىٰ كلِّ ما يريدُ، ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾، وثبت أنَّه أهلك القرونَ الأولىٰ بمخالفةِ الرُّسلِ عليهم الصلاة والسلام، فثبت أنَّ وراءَ المكلَّفِين عذابًا يَحِقُّ لهم الفرارُ منه، وثبت أنَّ كلَّ شيءٍ غيرَه مُحتاجٌ إلىٰ زَوْجِه يثبتُ حاجةَ الكُلِّ إليه، وأنَّه لا كفايةَ عندَ شيءٍ في كلِّ ما يُرامُ منه؛ وجب أن لا يُفزَعَ إلَّا إلىٰ الواحدِ الغنيِّ، فسبَّب عن ذلك قولَه: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾(٢).

بعدَ أنْ بيَّن ضلالَ هؤلاءِ في تكذيبِهم بالبعثِ بيانًا بالبرهانِ السَّاطعِ، ومثَّل حالَهم بحالِ الأُمَمِ الذين سلَفوهم في التَّكذيبِ بالرُّسلِ وما جاؤوا به؛ جمعًا بينَ الموعظةِ للضَّالِّين وتسليةِ الرسولِ ﷺ والمؤمنين، وكانت فيما مضىٰ من الاستدلالِ دلالةٌ علىٰ أنَّ اللهَ مُتفرِّدٌ بخلقِ العالمِ، وفي ذلك إبطالُ إشراكِهم مع اللهِ آلهةً أخرىٰ؛ أقبَلَ علىٰ تلقينِ الرسولِ ﷺ ما يَستخلِصُه لهم عَقِبَ ذلك بأن يدعوَهم إلىٰ الرُّجوعِ إلىٰ الحقِّ(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٨).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤٧٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٩).

فلمَّا دعا العبادَ إلىٰ النَّظرِ إلىٰ آياتِه المُوجِبةِ لخشيتِه والإنابةِ إليه، أمَر بما هو المقصودُ من ذلك، فقال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[1].

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١﴾

ولمَّا ثبت أنَّه لا ملجأَ إلَّا إلىٰ اللهِ الواحدِ المُنزَّهِ عن الزَّوجِ، وذلك هو اللهُ الذي له الكمالُ كلُّه، وكان ربما وقع في وهمٍ أنَّ في الوجودِ من غيرِ الزَّوجينِ المعروفينِ مَن نفزعُ إليه كما نفزعُ إلىٰ وزيرِ الملكِ وبوَّابِه ونحوِ ذلك ممَّا يُوصِلُ إليه؛ قال مُحذِّرًا مِن سطواتِه: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[2].

عطفُ ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ علىٰ ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ نهيٌ عن نسبةِ الإلهيَّةِ إلىٰ أحدٍ غيرِ اللهِ، فجمع بينَ الأمرِ والنَّهيِ مبالغةً في التَّأكيدِ بنفيِ الضِّدِّ لإثباتِ ضِدِّه[3].

ثم نهاهم عن الشِّركِ به، بعدَ أنْ أمَرهم بالفرارِ إليه، فقال: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢﴾

ولمَّا ذكر قولَهم المختلِفَ، الذي منه تكذيبُ الرسولِ ﷺ، ونِسْبَتُه إلىٰ السِّحرِ والجنونِ وغيرِ ذلك من الفنونِ، ومنه الإشراكُ مع اعترافِهم بأنَّه لا خالقَ إلَّا اللهُ، ولا كاشفَ ضُرٍّ غيرُه، إلىٰ غيرِ ذلك من أنواعِ الاضطرابِ، وأخبر بهلاكتِهم علىٰ ذلك، وحذَّرهم منه، ودَلَّ عليه، إلىٰ أن ختَم بإنذارِ مَن اتَّخَذَ إلهًا غيرَه؛ قال مُسلِّيًا: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾[4].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٨١٢).

(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤٧٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٠).

(٤) نظم الدرر (١٨/ ٤٧٨).

كلمةُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فصلُ خطابٍ تدلُّ على إنهاءِ حديثٍ والشُّروعِ في غيرِه، أو الرُّجوعِ إلى حديثٍ قبلَه أتى عليه الحديثُ الأخيرُ، والتقديرُ: الأمرُ كذلك، والإشارةُ إلى ما مضى من الحديثِ، ثم يُورَدُ بعدَه حديثٌ آخَرُ، والسَّامعُ يَرُدُّ كلًّا إلى ما يُناسِبُه، فيكونُ ما بعدَ اسمِ الإشارةِ مُتَّصِلًا بأخبارِ الأُمَمِ التي تقدَّم ذِكرُها من قومِ لوطٍ ومَن عُطف عليهم؛ أَعقَبَ تهديدَ المشركين بأنْ يَحُلَّ بهم ما حَلَّ بأُمَمِ المكذِّبين برسلِ اللهِ من قبلِهم، بتنظيرِهم بهم في مقالِهم[(١)].

لمَّا أراد سبحانه أن يستأنفَ قصَّةَ قولِهم المختلِفِ في الرسولِ ﷺ بعدَ أن تَقدَّمتْ عمومًا، وكان قد توسَّط ما توسَّط؛ قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[(٢)].

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾

ثم عجَّب منهم بقولِه: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[(٣)].

الاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ من تواطئِهم على هذا القولِ على طريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، والجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ تَماثُلَ هؤلاء الأُمَمِ في مقالةِ التَّكذيبِ يُثيرُ سؤالَ سائلٍ عن منشأِ هذا التَّشابهِ[(٤)].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾

ولمَّا كان ﷺ يكادُ يُتلِفُ نفسَه الشَّريفةَ -بأبي هو وأُمِّي- غمًّا عليهم وأَسَفًا لتخلُّصِهم عن الإسلامِ، وخوفًا أن لا يكونَ وفَّى بما عليه من التنبيهِ والإعلامِ؛ سبَّب تعالى عن حالِهم قولَه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٠).
(٢) روح المعاني (١٤/ ١٩).
(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٧٩).
(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٢).
(٥) نظم الدرر (١٨/ ٤٨٠).

ثم أمر اللهُ سبحانه رسولَه ﷺ بالإعراضِ عنهم، فقال: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾[(١)].

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

ثم لمَّا أمره بالإعراضِ عنهم، أمره بأن لا يتركَ التَّذكيرَ والموعظةَ بالتي هي أحسنُ، فقال: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[(٢)].

فلمَّا أمره بالإعراضِ عن المشركين، ناسَب أمرَه بالإقبالِ على المؤمنين، فقال: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا ربما أَوهَمَ أنَّ سواهم غيرُ مقدورٍ عليهم، قال مُؤكِّدًا بالحصرِ، دالًّا على أنَّه هو الذي قسَّم النَّاسَ إلى طاغين ومؤمنين بالعطفِ على ما تقديرُه: فما حكَم عليهم بذلك الضَّلالِ والهدى غيري، وما أُرسِلَتِ الرُّسلُ وأُنزِلَتِ الكتبُ إلَّا لاستخلاصِ المؤمنين، وإقامةِ الحُجَّةِ على الضَّالِّين: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[(٣)].

الأظهرُ أنَّ هذا معطوفٌ على جملةِ ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ ﴾ عطفَ الغرضِ على الغرضِ لوجودِ المناسبةِ، فبعدَ أن نظَّر حالَهم بحالِ الأُمَمِ التي صمَّمتْ على التَّكذيبِ من قبلِهم، أَعقبَه بذِكْرِ شنيعِ حالِهم من الانحرافِ عمَّا خُلقوا لأجلِه وغُرِزَ فيهم[(٤)].

(١) فتح القدير (٥/ ١١٠).

(٢) فتح القدير (٥/ ١١٠).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٨٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٥).

أَمَّا تعلُّقُها بما قبلَها فلوجوهٍ؛ أحدُها: أنَّه تعالىٰ لمَّا قال: ﴿وَذَكِّرْ﴾ يعني أقصىٰ غايةِ التَّذكيرِ، وهو أنَّ الخلقَ ليس إلَّا للعبادةِ، فالمقصودُ من إيجادِ الإنسانِ العبادةُ، فذكَّرَهم به، وأَعلَمَهم أنَّ كلَّ ما عداه تضييعٌ للزَّمانِ. الثَّاني: هو أنَّا ذكَرْنا مِرارًا أنَّ شُغلَ الأنبياءِ مُنحصِرٌ في أمرينِ: عبادةِ اللهِ، وهدايةِ الخلقِ، فلمَّا قال تعالىٰ: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ٥٤﴾، بيَّن أنَّ الهدايةَ قد تسقطُ عندَ اليأسِ وعدمِ المهتدي، وأمَّا العبادةُ فهي لازمةٌ. الثَّالثُ: هو أنَّه لمَّا بيَّن حالَ مَن قبلَه من التَّكذيبِ، ذكر هذه الآيةَ ليُبيِّنَ سوءَ صنيعِهم حيث تركوا عبادةَ اللهِ، فما كان خلقهم إلَّا للعبادةِ[1].

استئنافٌ مُؤكِّدٌ للأمرِ، مُقرِّرٌ لمضمونِ تعليلِه، فإنَّ كونَ خلقِهم مُغيًا بعبادتِه تعالىٰ، ممَّا يدعوه عليه الصلاة والسلام إلىٰ تذكيرِهم، ويُوجِبُ عليهم التَّذكُّرَ والاتِّعاظَ[2].

﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧﴾

ولمَّا حصَر سبحانه خلقَهم في إرادةِ العبادةِ، صرَّح بهذا المفهومِ بقولِه: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾[3].

قال تعالىٰ: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧﴾، وفيه جوابُ سؤالٍ؛ وهو أنَّ الخلقَ للغرضِ يُنبِئُ عن الحاجةِ، فقال: ما خلَقتُهم ليُطعِمونِ، والنَّفعُ فيه لهم لا لي؛ وذلك لأنَّ منفعةَ العبدِ في حقِّ السَّيِّدِ أن يكتسبَ له؛ إمَّا بتحصيلِ المالِ له، أو بحفظِ المالِ عليه؛ وذلك لأنَّ العبدَ إنْ كان للكسبِ فغرضُ التَّحصيلِ فيه ظاهرٌ، وإنْ كان للشُّغلِ فلولا العبدُ لَاحتاجَ السَّيِّدُ إلىٰ استئجارِ مَن يفعلُ الشُّغلَ له، فيحتاجُ إلىٰ إخراجِ مالٍ، والعبدُ يحفظُ مالَه عليه، ويُغنيه عن الإخراجِ، فهو نوعُ كسبٍ، فقال

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٩٢).
(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٤٤).
(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٨١).

تعـالىٰ: ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ ﴾؛ أي: لسـتُ كالسَّـادةِ في طلـبِ العبادةِ، بل هم الرَّابحون في عبادتِهم[١].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨ ﴾

ولمَّا كان الاهتمامُ بأمرِ الرِّزقِ -وقد ضَمِنَه سبحانه- شاغلًا عن كثيرٍ من العبادةِ، وكان الإنسانُ يَظُنُّ أنَّ الذي حصَّل له ما حواه من الرِّزقِ سَعْيُه؛ قال حاصرًا ذلك، مُؤكِّدًا، إزالةً لتلك الظُّنونِ، مُعلِّلًا، لافتًا الكلامَ إلىٰ سياقِ الاسمِ الأعظمِ الذي لم يتَّسِمْ به غيرُه، نصًّا علىٰ المرادِ، وبالغًا من الإرشادِ أقصىٰ المرادِ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾[٢].

تعليلًا لِما تقدَّم من الأمرينِ، فقولُه: ﴿ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ تعليلٌ لعدمِ طلبِ الرِّزقِ، وقولُه تعالىٰ: ﴿ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ﴾ تعليلٌ لعدمِ طلبِ العملِ؛ لأنَّ مَن يطلبُ رزقًا يكونُ فقيرًا محتاجًا، ومَن يطلبُ عملًا من غيرِه يكونُ عاجزًا لا قُوَّةَ له، فصار كأنَّه يقولُ: ما أريدُ منهم من رزقٍ فإنِّي أنا الرَّزَّاقُ، ولا عملٍ فإنِّي قويٌّ[٣].

ثم بيَّن سبحانه أنَّه هو الرَّزَّاقُ لا غيرُه، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾[٤].

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ۝٥٩ ﴾

ولمَّا أَقسَمَ سبحانه علىٰ الصِّدقِ في وعيدِهم، ودَلَّ علىٰ ذلك حتىٰ بجميعِ قصدِ أحوالِهم علىٰ إرادتِه، وختم بقُوَّتِه التي لا حدَّ لها؛ سبَّب عن ذلك إيقاعَه

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٩٤).
(٢) نظم الدرر (١٨/ ٤٨١).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٩٥).
(٤) فتح القدير (٥/ ١١١).

بالمُتوعَّدِين، فقال مُؤكِّدًا لأجلِ إنكارِهم: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾[1].

تفريعٌ على جملةِ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ باعتبارِ أنَّ المقصودَ من سياقِه إبطالُ عبادتِهم غيرَ اللهِ؛ أي: فإذا لم يُفرِدْني المشركون بالعبادةِ، فإنَّ لهم ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أصحابِهم، وهو يُلمِحُ إلى ما تقدَّم من ذِكْرِ ما عُوقِبَتْ به الأُمَمُ السَّالفةُ[2].

مناسبٌ لِما قبلَه؛ وذلك لأنَّه تعالى بيَّن أنَّ مَن يضعْ نفسَه في موضعِ عبادةِ غيرِ اللهِ يكنْ وضَع الشَّيءَ في غيرِ موضعِه، فيكونُ ظالمًا، فقال إذا ثبت أنَّ الإنسَ مخلوقون للعبادةِ، فإنَّ الذين ظلَموا بعبادةِ الغيرِ لهم هلاكٌ مِثلُ هلاكِ مَن تقدَّم[3].

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

فيا له من تهديدٍ ما أفظَعَه! ووعيدٍ ما أعظَمَه وأوجَعَه! أمرًا لا يدفعُه دافعٌ، ولا يمنعُ من وقوعِه مانعٌ؛ ولذلك سبَّب عنه قولَه: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾[4].

فُرِّعَ على وعيدِهم إنذارٌ آخرُ بالويلِ، أو إنشاءُ زجرٍ[5].

ثم هدَّدهم بالعذابِ الأُخْرَويِّ بعدَ العذابِ الدُّنيويِّ، فقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٨/ ٤٨٢).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٠).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٩٧).
(٤) نظم الدرر (١٨/ ٤٨٣).
(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣١).

سورة الطور

﴿ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ ﴾

ولمَّا كانت الأرضُ لوحَ السَّماءِ التي منها الوعيدُ، وكانت الجبالُ أشدَّها، فذكَر أعظمَها آيةً، وكان الكتابُ لوحَ الكاتبِ، وكانت الكتبُ الإلهيَّةُ أثبتَ الكتبِ، وكان طورُ سِينا قد نزل فيه كتابٌ إلهيٌّ؛ قال: ﴿ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ﴾[1].

﴿ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ٣ ﴾

ثم ذكَر أمتنَ ما يُكتَبُ فيه وأشدَّه وأتقنَه، فقال: ﴿ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ﴾[2].

﴿ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤ ﴾

﴿ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ﴾، عن الحسنِ: أنَّه الكعبةُ. وهذا الأنسبُ بعطفِه علىٰ «الطُّورِ»، ووصَفه بـ﴿ ٱلۡمَعۡمُورِ ﴾؛ لأنَّه لا يخلو من طائفٍ به، وعمرانُ الكعبةِ هو عمرانُها بالطَّائفين، ومناسبةُ القَسَمِ سَبْقُ القَسَمِ بكتابِ التَّوراةِ، فعُقِّبَ ذلك بالقَسَمِ بمَواطِنِ نزولِ القرآنِ، فإنَّ ما نزل به من القرآنِ أُنزِلَ بمكَّةَ وما حولَها مِثلَ جبلِ حِراءٍ، وكان نزولُه شريعةً ناسخةً لشريعةِ التَّوراةِ، علىٰ أنَّ الوحيَ كان ينزلُ حولَ الكعبةِ، فيكونُ توسيطُ القَسَمِ بالكعبةِ في أثناءِ ما قسم به من شؤونِ شريعةِ موسىٰ عليه السلام إدماجًا[3].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٣).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٩).

﴿ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ٥ ﴾

ولمَّا كان البيتُ لا بدَّ في مُسمَّاه من السَّقفِ، قال: ﴿ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴾ [١].

﴿ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴾ ففسَّروه بالسَّماءِ، فالرَّفعُ حقيقيٌّ، ومناسبةُ القَسَمِ بها أنَّها مصدرُ الوحيِ كلِّه؛ التَّوراةِ والقرآنِ [٢].

﴿ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ٦ ﴾

ولمَّا كان الماءُ أقوىٰ من كلِّ ما تقدَّم، ختم به، فقال: ﴿ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴾ [٣].

ومناسبةُ القَسَمِ به أنَّه أهلك به فرعونَ وقومَه حينَ دخله موسىٰ وبنو إسرائيلَ، فلَحِقَ بهم فرعونُ [٤].

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ٧ ﴾

ولمَّا أَقسَمَ بما يدلُّ علىٰ نُبُوَّةِ موسىٰ عليه السلام، وثلَّث بما أشارَ إلىٰ نُبُوَّةِ محمدٍ ﷺ، وثنَّىٰ بما هو مُشتَرَكٌ بينَهما، وكان الأوَّلُ مع ذلك دالًّا علىٰ استقرارِ الأرضِ، والثَّالثُ علىٰ صلاحيتِها للسُّكنَىٰ، والثَّاني علىٰ الحافظِ في ذلك، وربَّع بما كمَّل المنافعَ، وحذَّر من السُّقوطِ كما خوَّف بالأوَّلِ من الخسفِ، وخمَّس بما دلَّ علىٰ ما أُرِيدَ بالأوَّلِ من الاستقرارِ؛ لأنَّه لو كان مَيْلٌ لَانطلَق البحرُ إلىٰ جهتِه؛ أجاب القَسَمَ بقولِه: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ﴾ [٥].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٩).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٥-٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٩).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ٦).

مناسبةُ الأمورِ المُقسَمِ بها للمُقسَمِ عليه: أنَّ هذه الأشياءَ المُقسَمَ بها من شؤونِ بعثةِ موسىٰ عليه السلام إلىٰ فرعونَ، وكان هلاكُ فرعونَ ومَن معَه من جرَّاءِ تكذيبِهم موسىٰ عليه السلام (١).

﴿ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨ ﴾

أَتبعَ قولَه: ﴿لَوَٰقِعٞ﴾ بقولِه: ﴿ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴾، وهو خبرٌ ثانٍ عن ﴿عَذَابَ﴾، أو حالٌ منه؛ أي: ما للعذابِ دافعٌ يدفعُه عنهم (٢).

ثم وصَف العذابَ بقولِه: ﴿ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴾.

﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩ ﴾

ولمَّا أثبت وقوعَ العذابِ، تَشوَّفتْ نفسُ المُوقِنِ إلىٰ وقتِه، قال مُستأنِفًا لبيانِ أنَّه واقعٌ علىٰ تلك الصِّفةِ: ﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴾ (٣).

﴿ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠ ﴾

ولمَّا كانت الجبالُ تنتقلُ من أَمكِنَتِها انتقالَ السَّحابِ، ناسَب ذِكرَها بعدَ السَّماءِ.

﴿ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١ ﴾

ولمَّا حقَّق العذابَ وبيَّن يومَه، بيَّن أهلَه بقولِه مُسبِّبًا عن ذلك: ﴿ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ (٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٦).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٤٠).
(٣) نظم الدرر (١٩/ ٩-١٠).
(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٠).

إذا عُلم أنَّ عذابَ اللهِ واقعٌ، وأنَّه ليس له دافعٌ؛ فوَيْلٌ إذَنْ للمكذِّبين، فالفاءُ لاتِّصالِ المعنى، وهو الإيذانُ بأمانِ أهلِ الإيمانِ؛ وذلك لأنَّه لمَّا قال: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾، لم يُبيِّنْ بأنَّ موقعَه بمَنْ، فلمَّا قال: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾، عُلم المخصوصُ به وهو المكذِّبُ[١].

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّكذيبُ قد يكونُ في محلِّه، بيَّن أنَّ المرادَ تكذيبُ ما محلُّه الصِّدقُ، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾[٢].

ثم ذكَر وصفَ المكذِّبين الذين استحَقُّوا به الويلَ، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾[٣].

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا صوَّر تكذيبَهم بأشنعِ صورةٍ، بيَّن وَيْلَهم ببيانِ ظرفِه وما يفعلُ فيه، فقال: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾[٤].

﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

مَقُولًا لهم تبكيتًا وتوبيخًا: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾[٥].

ويُقالُ لهم توبيخًا ولَوْمًا: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾[٦].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٠٣).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٠).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٨١٤).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٠).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ١١).

(٦) تفسير السعدي (ص: ٨١٤).

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٥﴾

ولمَّا كانوا يقولون عنادًا: إنَّ القرآنَ بما فيه من الوعيدِ سِحْرٌ، سبَّب عن ذلك الوعيدِ قولَه مُبكِّتًا مُوبِّخًا مُتهكِّمًا: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾(١).

ثم وبَّخهم سبحانه، أو أمر ملائكتَه بتوبيخِهم، فقال: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾(٢).

﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦﴾

جملةُ ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ مستأنفةٌ، هي بمنزلةِ النَّتيجةِ المُترقَّبةِ من التَّوبيخِ والتَّغليظِ السَّابقينِ(٣).

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ١٧﴾

ولمَّا ذكر ما للمكذِّبين من العذابِ المُشارِ إليه بكلماتِ القَسَمِ، أَتبعَه ما لأضدادِهم من الثَّوابِ المُنبَّهِ عليه أيضًا بتلك الكلماتِ ليتمَّ الخبرُ ترغيبًا وترهيبًا، فقال جوابًا لمن كأنَّه قال: فما لمن عاداهم فيك؟ مُؤكِّدًا لِما للكُفَّارِ من التَّكذيبِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾(٤).

استئنافٌ بيانيٌّ بعدَ أنْ ذكَر حالَ المكذِّبين وما يُقالُ لهم، فمِن شأنِ السَّامعِ أن يتساءَلَ عن حالِ أضدادِهم؛ وهم الفريقُ الذين صدَّقوا الرسولَ ﷺ فيما جاء به القرآنُ، وخاصَّةً إذ كان السَّامعون المؤمنين، وعادةُ القرآنِ تعقيبُ الإنذارِ بالتَّبشيرِ وعكسُه(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١١).
(٢) فتح القدير (٥/ ١١٥).
(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٤٤).
(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٢).
(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٤٥).

شروعٌ في ذِكْرِ حالِ المؤمنين بعدَ ذِكْرِ حالِ الكافرين، كما هو عادةُ القرآنِ الجليلِ في التَّرهيبِ والتَّرغيبِ(١).

﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ ﴾

وزادَ في تحقيقِ التَّنعُّمِ بقولِه: ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾(٢).

﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

ولمَّا كان مَن باشَر النِّعمةَ وجانَب النِّقمةَ في هناءٍ عظيمٍ، قال مُترجِمًا لذلك على تقديرِ القولِ: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٣).

جملةُ ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ ﴾ إلى آخرِها، مَقُولُ قولٍ محذوفٍ في موضعِ الحالِ أيضًا، تقديرُه: يُقالُ لهم، أو مَقُولًا لهم، وهذا القولُ مُقابِلُ ما يُقالُ للمكذِّبين: ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٤).

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

ولمَّا كان النَّعيمُ لا يتمُّ إلَّا بأنْ يكونَ الإنسانُ مخدومًا، نبَّه عليه بقولِه: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾(٥).

فيه بيانُ أسبابِ التَّنعيمِ على التَّرتيبِ، فأوَّلُ ما يكونُ المَسكَنُ وهو الجنَّاتُ، ثم الأكلُ والشُّربُ، ثم الفُرُشُ والبُسُطُ، ثم الأزواجُ، فهذه أمورٌ أربعةٌ ذكَرها اللهُ على التَّرتيبِ(٦).

---

(١) روح المعاني (١٤/ ٣١).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٣).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٤٧).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ١٣).

(٦) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٠٦).

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١ ﴾

ولمَّا وصَف حالَ المتقين من أعداءِ المكذِّبين، وبدأ بهم لشرفِهم، أَتبعَهم مَن هو أدنىٰ منهم حالًا لتكونَ النِّعمةُ تامَّةً، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾[(١)].

كلامٌ مُستأنَفٌ مَسُوقٌ لبيانِ حالِ طائفةٍ من أهلِ الجنَّةِ إثْرَ بيانِ حالِ الكُلِّ، وهم الذين شارَكَتْهم ذُرِّيَّتُهم في الإيمانِ[(٢)].

لمَّا فرَغ سبحانه من ذِكْرِ أهلِ الجنَّةِ علىٰ العمومِ، ذكَر حالَ طائفةٍ منهم علىٰ الخصوصِ، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾[(٣)].

﴿ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢ ﴾

ولمَّا جمَعَهم في إلحاقِ الذُّرِّيَّةِ بهم؛ لأنَّه من أعظمِ النَّعيمِ، وأمَّنَهم ممَّا قد يخشىٰ من نقصِهم بنقصِه غيرُهم، وعلَّل ذلك ليكونَ أرسخَ في النَّفسِ؛ أَتبَعَه بما يُشاكِلُه، فقال: ﴿ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴾[(٤)].

لمَّا قال: ﴿ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾، بيَّن الزِّيادةَ ليكونَ ذلك جاريًا علىٰ عادةِ الملوكِ في الدنيا، إذا زادوا في حقِّ عبدٍ من عبيدِهم، يزيدون في أقدارِ أخبازِهم وإقطاعِهم، واختارَ من المأكولِ أرفعَ الأنواعِ وهو الفاكهةُ واللَّحمُ، فإنَّهما طعامُ المُتنعِّمِين،

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٤).
(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٤٨).
(٣) فتح القدير (٥/ ١١٧).
(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٧).

وجمَع أوصافًا حسنةً في قولِه: ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ لأنَّه لو ذكر نوعًا فربما يكونُ ذلك النَّوعُ غيرَ مُشتهًى عندَ بعضِ النَّاسِ، فقال: كلُّ أحدٍ يُعطَىٰ ما يشتهي(١).

ثم ذكر سبحانه ما أَمَدَّهم به من الخيرِ، فقال: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾(٢).

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

ولمَّا كان هذا النَّعيمُ العظيمُ المُقِيمُ يدعو إلىٰ المعاشرةِ، بالقرينةِ العاطرةِ، بيَّن أنَّ ذلك حالُهم اللَّازمةُ الظَّاهرةُ، من الخصالِ اللَّائقةِ الطَّاهرةِ، فقال: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾(٣).

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾

ولمَّا كانت المُعاطاةُ لا يَكمُلُ بَسْطُها ولا يَعظُمُ إلَّا بخَدَمٍ وسُقاةٍ، قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾(٤).

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾، فهو من تمامِه، وواقعٌ موقعَ الحالِ مِثلَه، وجِيءَ به في صيغةِ المضارعِ للدَّلالةِ علىٰ التَّجدُّدِ والتَّكرُّرِ.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ولمَّا كان ألذُّ ما إلىٰ الحبيبِ وأعظمُ ما يكونُ من أَرَبِه ذِكرَ محبوبِه والثَّناءَ عليه بما مَنَّ به، قال تعالىٰ شارحًا لذلك، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: فأقبَلوا علىٰ تعاطي ما ذُكر من النِّعَمِ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾(٥).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢١٠).

(٢) فتح القدير (٥/ ١١٨).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٧).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٨).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ١٨).

ولمَّا كان إلحاقُ ذُرِّيَّاتِهم بهم مُقتضِيًا مُشارَكتَهم إيَّاهم في النَّعيمِ، كما تقدَّم آنفًا عندَ قولِه: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ كان هذا التَّساؤلُ جاريًا بينَ الجميعِ من الأصولِ والذُّرِّيَّاتِ سائلين ومسؤولين[1].

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

ثم استأنَف شرحَ ذلك بقولِه: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾[2].

جملةٌ مستأنَفةٌ جوابُ سؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنَّه قيل: ماذا قال بعضُهم لبعضٍ عندَ التَّساؤلِ؟ فقيل: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾[3].

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

ولمَّا حكىٰ عنهم سبحانه أنَّهم أثبَتوا لأنفسِهم عملًا تدريبًا لِمَنْ أُرِيدَتْ سعادتُه، فكان بحيثُ يظنُّ أنَّهم رأَوْه هو السَّببَ لِما وصَلوا إليه؛ قالوا نافِينَ لهذا الظَّنِّ، مُبيِّنين أنَّ ما هم فيه إنَّما هو ابتداءُ تفضُّلٍ من اللهِ تعالىٰ؛ لأنَّ إشفاقَهم منه سبحانه؛ لكيلا يعتمدَ الإنسانُ علىٰ شيءٍ من عملِه، فلا يزالُ مُعظِّمًا لربِّه، خائفًا منه: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾[4].

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

ولمَّا ذكَروا إشفاقَهم، بيَّنوه مُؤكِّدين أيضًا لمِثْلِ ذلك بقولِهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٥٦).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٨).

(٣) فتح القدير (٥/ ١١٨).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٩-٢٠).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ٢٠).

جملـةُ ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ تعليـلُ لمِنَّـةِ اللهِ علـيهم، وثنـاءٌ علـىٰ اللهِ بأنَّـه استجابَ لهم(١).

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا مع تشويقِه إلىٰ الجنَّةِ والأعمالِ المُوصِلةِ إليها وعظًا يُرقِّقُ القلوبَ ويُجلِي الكُرُوبَ، سبَّب عنه قولَه: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾(٢).

تفريعٌ علىٰ ما تقدَّم كلِّه من قولِه: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾؛ لأنَّه تضمَّن تسليةَ الرسولِ ﷺ علىٰ تكذيبِ المكذِّبين والافتراءِ عليه، وعقَّب بهذا لأنَّ مِن النَّاسِ مؤمنين به مُتيقِّنين أنَّ اللهَ أَرسَلَه مع ما أَعَدَّ لكلا الفريقينِ، فكان ما تَضمَّنَه ذلك يقتضي أنَّ في استمرارِ التَّذكيرِ حكمةً أرادها اللهُ، وهي ارعواءُ بعضِ المكذِّبين عن تكذيبِهم، وازديادُ المُصدِّقين تَوغُّلًا في إيمانِهم، ففرَّع علىٰ ذلك أنْ أمر اللهُ رسولَه ﷺ بالدَّوامِ علىٰ التَّذكيرِ(٣).

تَعلُّقُ الآيةِ بما قبلَها ظاهرٌ؛ لأنَّه تعالىٰ بيَّن أنَّ في الوجودِ قومًا يخافون اللهَ ويُشفِقون في أهلِيهم، والنبيُّ ﷺ مأمورٌ بتذكيرِ مَن يخافُ اللهَ تعالىٰ بقولِه: ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾، فحقَّق مَن يذكرُه، فوجَب التَّذكيرُ، وأمَّا الرسولُ ﷺ فليس له إلَّا الإتيانُ بما أُمر به(٤).

لمَّا تقدَّم إقسامُ اللهِ تعالىٰ علىٰ وقوعِ العذابِ، وذِكرُ أشياءَ من أحوالِ المُعذَّبين والنَّاجين؛ أمره بالتَّذكيرِ؛ إنذارًا للكافرِ، وتبشيرًا للمؤمنِ، ودعاءً إلىٰ اللهِ تعالىٰ بنشرِ

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٥٧).
(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢١).
(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٥٨).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢١٢).

رسالتِه، ثم نفىٰ عنه ما كان الكفارُ يَنسُبونه إليه من الكهانةِ والجنونِ، إذ كانا طريقينِ إلىٰ الإخبارِ ببعضِ المُغيَّباتِ، وكان للجِنِّ بهما مُلابَسةٌ للإنسِ[1].

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾

ولمَّا كانت نِسْبَتُه ﷺ فيما أتاهم به من هذا القرآنِ الآمرِ بالحكمةِ، إلىٰ أنَّه أتىٰ به عن الجِنِّ، الذين طبعُهم الفسادُ، ممَّا لا ينبغي أن يَتخيَّلَه أحدٌ، فضلًا أن يقولَه له ﷺ، ولا يكادُ يُصدَّقُ أنَّ أحدًا يرميه به، فكان في طَيِّه سؤالُ تقريعٍ وتوبيخٍ؛ نبَّه علىٰ ذلك بالعطفِ علىٰ ما تقديرُه: أيقولون هذا القولَ البعيدَ من أقوالِ أهلِ العقولِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾[2].

مناسبةُ هذا الانتقالِ عن أمرِ النبيِّ ﷺ بالدَّوامِ علىٰ التَّذكيرِ يشيرُ إلىٰ مقالاتِهم التي يَرُدُّون بها دعوتَه، فلمَّا أُشيرَ إلىٰ بعضِها بقولِه تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾، انتقل إلىٰ إبطالِ صفةٍ أخرىٰ يُثلِّثون بها الصِّفتينِ المذكورتينِ قبلَها، وهي صفةُ «شاعرٍ»[3].

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل لهم: إنَّهم ليقولون ذلك، قال مُعلِمًا جوابَهم: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾[4].

ثم أمره سبحانه أن يُجِيبَ عنهم، فقال: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾[5].

---

(١) البحر المحيط (٩/ ٥٧٣).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٢٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٦١).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٢٣).

(٥) فتح القدير (٥/ ١١٩).

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢)﴾

ولمَّا كان قولُهم هذا ممَّا لا يُقالُ أصلًا، وإنْ قيل علىٰ بُعْدِه كان قولُه كأنَّه علىٰ جهةِ سَبْقِ اللِّسانِ أو نحوِ ذلك؛ نبَّه عليه بمعادلةِ ما تقديرُه: أقالوا ذلك ذُهولًا: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[1].

إضرابُ انتقالٍ دعا إليه ما في الاستفهامِ الإنكاريِّ المُقدَّرِ بعدَ ﴿أَمْ﴾ من معنىٰ التَّعجُّبِ من حالِهم كيف يقولون مِثلَ ذلك القولِ السَّابقِ، ويَستقِرُّ ذلك في إدراكِهم، وهم يدَّعون أنَّهم أهلُ عقولٍ لا تلتبسُ عليهم أحوالُ النَّاسِ؟! فهم لا يجهلون أنَّ محمدًا ﷺ ليس بحالِ الكُهَّانِ ولا المجانينِ ولا الشُّعراءِ، وقد أبىٰ عليهم الوليدُ بنُ المغيرةِ أن يقولَ مِثلَ ذلك، في قصَّةٍ معروفةٍ[2].

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣)﴾

انتقالٌ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾، وهذا حكايةٌ لإنكارِهم أن يكونَ القرآنُ وحيًا من اللهِ، فزعَموا أنَّه تقَوَّلَه النبيُّ ﷺ علىٰ اللهِ، فالاستفهامُ إنكارٌ لقولِهم، وهم قد أكثَروا من الطَّعنِ، وتَمالَؤوا عليه؛ ولذلك جِيءَ في حكايتِه عنهم بصيغةِ ﴿يَقُولُونَ﴾ المفيدةِ للتَّجدُّدِ.

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ (٣٤)﴾

ولمَّا كان هذا القولُ أظهرَ بطلانًا من كلِّ ما قالوه؛ لأنَّ تكذيبَهم لهم -علىٰ تقديرِ كذبِه، علىٰ زعمِهم- غيرُ موقوفٍ علىٰ شيءٍ خارجٍ عن القُوَّةِ؛ طالَبَهم بالمُعارَضةِ؛ لأنَّهم إذا عارَضوه بمِثْلِه انفصَل النِّزاعُ، ولذلك سبَّب عمَّا مضىٰ قولَه تكذيبًا لهم في

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٦٣).

قولِهم هذا الذي أظهَروه بألسنتِهم يُوقِفون به غيرَهم عن الخيرِ: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾(١).

ولمَّا كانت مقالتُهم هذه طعنًا في القرآنِ -وهو المعجزةُ القائمةُ علىٰ صدقِ رسالةِ محمدٍ ﷺ-، وكانت دَعْواهم أنَّه تقوَّل علىٰ الله من تِلْقاءِ نفسِه قد تَرُوجُ علىٰ الدَّهْماءِ؛ تصدَّىٰ القرآنُ لبيانِ إبطالِها بأنْ تحدَّاهم بأن يأتوا بمِثْلِ هذا القرآن، بقولِه: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾. ووجهُ المُلازمةِ: أنَّ محمدًا ﷺ أحدُ العربِ، وهو ينطقُ بلسانِهم، فالمساواةُ بينه وبينهم في المقدرةِ علىٰ نظمِ الكلامِ ثابتةٌ، فلو كان القرآنُ قد قاله محمدٌ ﷺ، لَكان بعضُ خاصَّةِ العربِ البُلَغاءِ قادرًا علىٰ تأليفِ مثلِه، فلمَّا تحدَّاهم اللهُ بأنْ يأتوا بمِثْلِ القرآنِ -وفيهم بُلَغاؤُهم وشُعَراؤُهم وكلُّهم واحدٌ في الكفرِ- كان عجزُهم عن الإتيانِ بمِثْلِ القرآنِ دالًّا علىٰ عجزِ البشرِ عن الإتيانِ بالقرآن(٢).

ثم قال لبطلانِ جميعِ الأقسامِ: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾؛ أي: إنْ كان هو شاعرًا، ففيكم الشُّعراءُ البُلَغاءُ، والكَهَنةُ الأذكياءُ، ومَن يَرتجِلُ الخُطَبَ والقصائدَ، ويَقُصُّ القصصَ، ولا يختلفُ الناقص والزائد؛ فَلْيَأْتوا بمِثْلِ ما أتىٰ به(٣).

ثم تَحدَّاهم سبحانه وأَلزَمَهم الحُجَّةَ، فقال: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾(٤).

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

ولمَّا مَضَتْ فضيحتُهم بالتَّحدِّي، وكانت عندَهم فضيحةُ التَّناقضِ دونَ فضيحةِ المُعارَضةِ، فكانوا يُقدِّمونها عليها، فلم يُحدِّثْ أحدٌ منهم يومًا من الأيَّامِ بشيءٍ ممَّا

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٥).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٦٥-٦٦).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢١٤).
(٤) فتح القدير (٥/ ١٢٠).

يُعارِضُه به؛ علمًا منهم بأنَّهم يصيرون بذلك إلىٰ خِزْيٍ لا يمكنُ أن يُغسَلَ عارُه كما صار مُسَيْلِمةُ؛ لأنَّهم كانوا أعقلَ العربِ، وكان التقديرُ كما هدىٰ إليه السِّياقُ: فإنَّك مُسْتَوٍ معَهم بالنِّسبةِ إلىٰ إيجادِ اللهِ لكم، هو سبحانه خالقُهم كما أنَّه خالقُك، ولا خصوصيَّةَ لك منه علىٰ زعمِهم: أهو خالقُهم كما هو خالقُك، فيلزمُهم أن يأتوا بمِثْلِ ما تأتي به، وكان ذلك علىٰ تقديرِ إقرارِهم باللهِ وادِّعائِهم لكذبِه ﷺ؛ عادَلَه سبحانه -تبكيتًا لهم، وإظهارًا لفضائحَ هي أشنعُ ممَّا فرُّوا منه من المُعارَضةِ- بقولِه علىٰ تقديرِ أن يكونوا مُنكِرين للإلهِ، أو مُدَّعِينَ لأنْ يكونوا آلهةً: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[(١)].

إضرابٌ انتقاليٌّ إلىٰ إبطالِ ضربٍ آخرَ من شبهتِهم في إنكارِهم البعثَ، وقد علمتَ في أوَّلِ السورةِ أنَّ من أغراضِها إثباتَ البعثِ والجزاءِ، علىٰ أنَّ ما جاء بعدَه من وصفِ يومِ الجزاءِ وحالِ أهلِه قد اقتَضَتْه مناسباتٌ نشأت عنها تلك التَّفاصيلُ، فإذْ وُفِّيَ حقُّ ما اقتَضَتْه تلك المناسباتُ، ثُنِيَ عِنانُ الكلامِ إلىٰ الاستدلالِ علىٰ إمكانِ البعثِ وإبطالِ شبهتِهم التي تَعلَّلوا بها، فكان قولُه تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ الآياتِ، أدلَّةً علىٰ أنَّ ما خلقه اللهُ من بدءِ الخلقِ أعظمُ من إعادةِ خلقِ الإنسانِ[(٢)].

لمَّا كذَّبوا النبيَّ ﷺ، ونسَبوه إلىٰ الكهانةِ والجنونِ والشِّعرِ، وبرَّأه اللهُ من ذلك، وذكَر الدَّليلَ علىٰ صدقِه إبطالًا لتكذيبِهم، وبدأ بأنفسِهم، كأنَّه يقولُ: كيف يُكذِّبونه وفي أنفسِهم دليلُ صدقِه؟ لأنَّ قولَه في ثلاثةِ أشياءَ: في التَّوحيدِ، والحشرِ، والرِّسالةِ، ففي أنفسِهم ما يُعلَمُ به صدقُه، وبيانُه هو أنَّهم خُلقوا، وذلك دليلُ التَّوحيدِ؛ لِما بيَّنَّا أنَّ في كلِّ شيءٍ له آيةً تدلُّ علىٰ أنَّه واحدٌ، وقد بيَّنَّا وجهَه مِرارًا فلا نُعيدُه[(٣)].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٦٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢١٥).

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾

إضرابُ إبطالٍ علىٰ مضمونِ الجملتينِ اللَّتينِ قبلَه؛ أي: لم يُخلَقوا من غيرِ شيءٍ، ولا خلَقوا السَّماواتِ والأرضَ؛ فإنَّ ذلك بيِّنٌ لهم، فما إنكارُهم البعثَ إلَّا ناشئٌ عن عدمِ إيقانِهم في مظانِّ الإيقانِ، وهي الدَّلائلُ الدَّالَّةُ علىٰ إمكانِ البعثِ، وأنَّه ليس أغربَ من إيجادِ المخلوقاتِ العظيمةِ، فما كان إنكارُهم إيَّاه إلَّا عن مكابرةٍ وتصميمٍ علىٰ كفرٍ[1].

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧﴾

انتقالٌ بالعودةِ إلىٰ ردِّ جحودِهم رسالةَ محمدٍ ﷺ؛ ولذلك غُيِّر أسلوبُ الإخبارِ فيه إلىٰ مخاطبةِ النبيِّ ﷺ، وكان الأصلُ الذي ركَّزوا عليه جحودَهم توهُّمَ أنَّ اللهَ لو أرسل رسولًا من البشرِ لكان الأحقُّ بالرِّسالةِ رجلًا عظيمًا من عُظَماءِ قومِهم. فالاستفهامُ إنكاريٌّ بتنزيلِهم في إبطالِ النُّبوءةِ عمَّنْ لا يَرْضَوْنَه منزلةَ مَن عندَهم خزائنُ اللهِ، يخلعون الخِلَعَ منها علىٰ مَن يشاؤون، ويمنعون مَن يشاؤون[2].

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾

لمَّا نفىٰ أن يكونَ لهم تَصرُّفٌ قويٌّ أو ضعيفٌ في مواهبِ اللهِ تعالىٰ علىٰ عبادِه، أَعقَبَه بنفيِ أن يكونَ لهم اطِّلاعٌ علىٰ ما قدَّره اللهُ لعبادِه اطِّلاعًا يُخوِّلُهم إنكارَ أن يُرسِلَ اللهُ بشرًا، أو يُوحِيَ إليه؛ وذلك لإبطالِ قولِهم: ﴿تَقَوَّلَهُ﴾. وسلَكَ في نفيِ علمِهم بالغيبِ طريقَ التَّهكُّمِ بهم، بإنكارِ أن يكونَ لهم سُلَّمٌ يَرْتَقُونَ به إلىٰ السَّماءِ؛ ليستمعوا ما يجري في العالمِ العُلْويِّ من أمرٍ تتلقَّاه الملائكةُ، أو أهلُ الملإِ الأعلىٰ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٧٠).

بعضُهم مع بعضٍ، فيَسْتَرِقوا بعضَ العلمِ ممَّا هو محجوبٌ عن النَّاسِ، إذْ من المعلومِ أنَّه لا سُلَّمَ يصلُ أهلَ الأرضِ بالسَّماءِ، وهم يعلمون ذلك، ويعلمُه كلُّ أحدٍ(١).

ثم قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾، وهو أيضًا تتميمٌ للدَّليلِ، فإنَّ مَن لا يكونُ خازنًا ولا كاتبًا، قد يطَّلِعُ علىٰ الأمرِ بالسَّماعِ من الخازنِ أو الكاتبِ، فقال: أنتم لستم بخَزَنةٍ ولا كَتَبةٍ، ولا اجتمَعْتم بهم؛ لأنَّهم ملائكةٌ، ولا صعودَ لكم إليهم(٢).

﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

ولمَّا كان ما مضىٰ علىٰ تقديرِ وجودِ الإلهِ مع الشَّرِكةِ، وكان ادِّعاؤُهم الولدَ عظيمًا جدًّا؛ لدلالتِه علىٰ حاجتِه وضعفِه، وكان جعلُه بناتٍ أعظمَ؛ لأنَّه دالٌّ مع ضعفِه علىٰ سَفَهِه؛ دلَّ علىٰ استعظامِه بالالتفاتِ إلىٰ خطابِهم بعذابِهم، فقال: ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾(٣).

لمَّا جرىٰ نفيُ أن تكونَ لهم مُطالَعةُ الغيبِ من الملإِ الأعلىٰ إبطالًا لمقالاتِهم في شؤونِ الرُّبوبيَّةِ، أَعقبَ ذلك بإبطالِ نِسْبَتِهم للهِ بناتٍ استقصاءً لإبطالِ أوهامِهم في المُغيَّباتِ من العالمِ العُلْويِّ(٤).

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

ولمَّا كان المكذِّبُ بشيءٍ قد يكونُ مُعترفًا بأنَّه من عندِ إلهِه، وأنَّ إلهَه مُتَّصِفٌ بجميعِ صفاتِ الكمالِ فلا شريكَ له، وإنَّما تكذيبُه لقادحٍ لا يقدرُ عليه، وكربٍ رمىٰ بجميعِ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٧٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢١٨).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٢٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٧٤).

أنكادِه إليه؛ أَعرَض عنهم التفاتًا إلىٰ الأسلوبِ الأوَّلِ، فقال مُخاطِبًا له ﷺ؛ تنويهًا بذِكْرِه، ورفعًا لعظيمِ قدرِه، وتسليةً لِما يعلمُ من نفسِه الشَّريفةِ البراءةَ منه: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾[١].

هذا مُرتبِطٌ بقولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾، وقولِه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾؛ إذْ كلُّ ذلك إبطالٌ للأسبابِ التي تَحمِلُهم علىٰ زعمِ انتفاءِ النُّبوَّةِ عن محمدٍ ﷺ، فبعدَ أن أبطل وسائلَ اكتسابِ العلمِ بما زعَموه، عادَ إلىٰ إبطالِ الدَّواعي التي تَحمِلُهم علىٰ الإعراضِ عن دعوةِ الرسولِ ﷺ، ولأجلِ ذلك جاء هذا الكلامُ علىٰ أسلوبِ الكلامِ الذي اتَّصَلَ هو به، وهو أسلوبُ خطابِ الرسولِ ﷺ، فقال هنا: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾، وقال هنالك: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾[٢].

ثم رجَع سبحانه إلىٰ خطابِ رسولِه ﷺ، فقال: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾[٣].

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾

ولمَّا كان مَن يدَّعِي الانفرادَ بشيءٍ يَحسُدُ مَن يدَّعِي مُشارَكتَه فيه، قال: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾[٤].

بعدَ أنْ ردَّ عليهم إنكارَهم الإسلامَ بأنَّهم كالذين سألهم النبيُّ ﷺ أجرًا علىٰ تبليغِها، أَعقبَه بردٍّ آخرَ بأنَّهم كالذين اطَّلَعوا علىٰ أنَّ عندَ اللهِ ما يُخالِفُ ما ادَّعىٰ الرسولُ ﷺ إبلاغَه عن اللهِ، فهم يكتبون ما اطَّلَعوا عليه فيجدونه مُخالِفًا لِما جاء به الرسولُ ﷺ[٥].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٩-٣٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٧٥).

(٣) فتح القدير (٥/ ١٢٢).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٣٠).

(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٧٧).

ثم قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ ﴾، وهو علىٰ التَّرتيبِ الذي ذكَرْناه كأنَّه تعالىٰ قال لهم: بِمَ اطَّرَحْتم الشَّرعَ ومحاسنَه، وقلتم ما قلتم بناءً علىٰ اتِّباعِكم الأوهامَ الفاسدةَ التي تُسمُّونها المعقولاتِ، والنبيُّ ﷺ لا يطلبُ منكم أجرًا، وأنتم لا تعلمون، فلا عذرَ لكم؛ لأنَّ العذرَ إمَّا في الغرامةِ، وإمَّا في عدمِ الحاجةِ إلىٰ ما جاء به، ولا غرامةَ عليكم فيه، ولا غنىٰ لكم عنه(١).

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

انتقالٌ من نقضِ أقوالِهم وإبطالِ مزاعمِهم إلىٰ إبطالِ نواياهم وعزائمِهم من التَّبييتِ للرَّسولِ ﷺ وللمؤمنين ولدعوةِ الإسلامِ من الإضرارِ والإخفاقِ، وفي هذا كشفٌ لسرائرِهم، وتنبيهٌ للمؤمنين للحذرِ من كيدِهم(٢).

﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: أكذلك الأمرُ؟ عادَلَه بقولِه: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٣).

هذا آخِرُ سهمٍ في كِنانةِ الرَّدِّ عليهم، وأشدُّ رميٍ لشَبَحِ كفرِهم؛ وهو شبحُ الإشراكِ، وهو أجمعُ ضلالٍ تنضوي تحتَه الضَّلالاتُ؛ وهو إشراكُهم مع اللهِ آلهةً أخرىٰ. فلمَّا كان ما نُعِيَ عليهم من أوَّلِ السورةِ ناقضًا لأقوالِهم ونواياهم، وكان ما هم فيه من الشِّركِ أعظمَ؛ لم يتركْ عَدَّ ذلك عليهم مع اشتهارِه بعدَ استيفاءِ الغرضِ المَسُوقِ له الكلامُ لهذه المناسبةِ؛ ولذلك كان هذا المُنتقَلُ إليه بمنزلةِ التَّذييلِ لِما قبلَه؛ لأنَّه ارتقاءٌ إلىٰ الأهمِّ في نوعِه، والأهمُّ يُشبِهُ الأعمَّ، فكان كالتَّذييلِ(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٧٧).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٣١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٧٨).

﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴿٤٤﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ -تسكينًا لقلبِ مَن يريدُ إجابتَهم إلى الآياتِ المُقترَحاتِ، طمعًا في إيمانِهم-: فلقد تَلَوْنا عليهم في هذه السورةِ وغيرِها من الآياتِ، وخلونا من المعجزاتِ البيِّناتِ، وأتينا من تناقضِهم في هذه التَّقسيماتِ بما يَهُدُّ الجبالَ الشَّامخاتِ، وبيَّنَّا من فضائحِهم -بحُسْنِ سَوْقِها وحلاوةِ ذَوْقِها، وصِحَّةِ معانيها وإحكامِ مبانيها- ما يُزَلزِلُ الرَّاسياتِ، ويَحُلُّ العَزَماتِ، ويُفرِّجُ الأزماتِ، ويَصُدُّ ذوي المُرُوَّاتِ عن أمثالِ هذه النَّقائصِ الفاضحاتِ؛ لِما لها من الأدلَّةِ الواضحاتِ، ولكنَّهم لما أَلزَمْناهم به من العكسِ لا يؤمنون، وكِدْناهم بما أَعمَيْنا من بصائرِهم فهم لا يعلمون أنَّهم المَكيدون؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴾[1].

عطفٌ على جملةِ ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ ﴾ وما بعدَها من الجملِ الحاليَّةِ لأقوالِهم بمناسبةِ اشتراكِ معانيها مع ما في هذه الجملةِ في تصويرِ بهتانِهم ومكابرتِهم الدَّالَّةِ على أنَّهم أهلُ البهتانِ، فلو أُرُوا كِسْفًا ساقطًا من السَّماءِ، وقيل لهم: هذا كِسْفٌ نازلٌ؛ كابَروا وقالوا: هو سحابٌ مركومٌ[2].

وجهُ التَّرتيبِ فيه هو أنَّه تعالى لمَّا بيَّن فسادَ أقوالِهم وسقوطَها عن درجةِ الاعتبارِ، أشارَ إلى أنَّه لم يَبْقَ لهم شيءٌ من وجهِ الاعتذارِ، فإنَّ الآياتِ ظهرتْ والحُجَجَ تَميَّزتْ ولم يؤمنوا، وبعدَ ذلك إنْ ﴿ يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴾[3].

ثم ذكَر سبحانه بعضَ جهالاتِهم، فقال: ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٣٤).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٧٩).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٢٣).
(٤) فتح القدير (٥/ ١٢٢).

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

ولذلك سبَّب عن هذا الحالِ الدَّالِّ على أنَّهم وصَلوا في عمى البصائرِ إلى أنَّه لو جاءتهم كلُّ آيةٍ لا يؤمنون، قولَه لنبيِّه ﷺ ومَن تبِعَه: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾[1].

ولكونِ المقصودِ أنَّ العنادَ شِيمَتُهم، فرَّع عليه أنْ أمر اللهُ رسولَه ﷺ بأن يتركَهم؛ أي: يتركَ عرضَ الآياتِ عليهم؛ أي: أن لا يسألَ اللهَ إظهارَ ما اقترَحوه من الآياتِ؛ لأنَّهم لا يقترحون ذلك طلبًا للحُجَّةِ، ولكنَّهم يُكابِرون[2].

ثم أمر اللهُ سبحانه رسولَه ﷺ أن يتركَهم، فقال: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾[3].

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

لمَّا قال: ﴿ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ﴾، وكلُّ برٍّ وفاجرٍ يُلاقِي يومَه؛ أعادَ صفةَ يومِهم، وذكَر ما يتميَّزُ به يومُهم عن يومِ المؤمنين، فقال: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[4].

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولمَّا أَفهَمَ هذا الكلامُ السَّابقُ أنَّ التقديرَ: فإنَّ لكلِّ ظالمٍ في ذلك اليومِ عذابًا لا يُحيطُ به الوصفُ، فإنَّ الإصعاقَ من أشدِّ ما يكونُ من العذابِ؛ عطَف عليه قولَه مُؤكِّدًا لِما لهم من الإنكارِ أن يُنصَرَ عليهم المؤمنون، وهم من الكثرةِ والقُوَّةِ بحيثُ لا مَطمَعَ

(١) نظم الدرر (١٩/ ٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٨٠).

(٣) فتح القدير (٥/ ١٢٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٢٦).

فيهم لأحدٍ؛ لا سِيَّما لمن هم مَثَلٌ في الضَّعفِ والقِلَّةِ: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١].

في اتِّصالِ الكلامِ وجهانِ؛ أحدُهما: مُتَّصِلٌ بقولِه تعالىٰ: ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾؛ وذلك لأنَّه يدلُّ علىٰ عدمِ جوازِ القتالِ، وقد قيل: إنَّه نازلٌ قبلَ شرعِ القتالِ، وحينَئذٍ كأنَّه قال: ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾، ولا تَذَرْهم مطلقًا من غيرِ قتالٍ، بل لهم قبلَ يومِ القيامةِ عذابٌ يومَ بدرٍ حيثُ تُؤمَرُ بقتالِهم، فيكونُ بيانًا ووعدًا بنسخِ ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ بالعذابِ يومَ بدرٍ. ثانيهما: هو مُتَّصِلٌ بقولِه تعالىٰ: ﴿لَا يُغْنِى﴾؛ وذلك لأنَّه لمَّا بيَّن أنَّ كيدَهم لا يُغنِي عنهم، قال: ولا يقتصرُ علىٰ عدمِ الإغناءِ، بل لهم مع أنَّ كيدَهم لا يُغنِي ويلٌ آخَرُ؛ وهو العذابُ المُعَدُّ لهم، ولو قال: لا يُغنِي عنهم كيدُهم؛ كان يُوهِمُ أنَّه لا ينفعُ ولكنْ لا يَضُرُّ، ولمَّا قال مع ذلك: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا ﴾، زالَ ذلك[٢].

لمَّا ذكَر اللهُ عذابَ الظَّالمين في القيامةِ، أَخبَر أنَّ لهم عذابًا دونَ عذابِ يومِ القيامةِ، وذلك شاملٌ لعذابِ الدنيا، بالقتلِ والسَّبْيِ والإخراجِ من الدِّيارِ، ولعذابِ البرزخِ والقبرِ[٣].

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولمَّا كان العلمُ المحيطُ من الملكِ القاهرِ أعظمَ مُسَلٍّ للوليِّ، وأكبرَ مُخِيفٍ للعدوِّ؛ قال عاطفًا علىٰ ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾، أو علىٰ ما تقديرُه: فكُنْ أنت مِن العلماءِ بذلك؛ ليكونَ فيه لك أعظمُ تسليةٍ: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾[٤].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٣٥-٣٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٢٧).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٨١٨).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٣٧).

لمَّا بيَّن أنَّهم يَكِيدونه، كان ذلك ممَّا يقتضي في العُرْفِ المبادرةَ إلىٰ إهلاكِهم لئلَّا يتمَّ كيدُهم، فقال: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[1].

ولمَّا بيَّن تعالىٰ الحُجَجَ والبراهينَ علىٰ بطلانِ أقوالِ المكذِّبين، أمر رسولَه ﷺ أن لا يعبأَ بهم شيئًا، وأن يصبرَ لحكمِ ربِّه القدريِّ والشَّرعيِّ بلزومِه والاستقامةِ عليه، ووعَده اللهُ بالكفايةِ[2].

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩ ﴾

ولمَّا ذكَر ما هو أدلُّ علىٰ الحُبِّ في المعبودِ؛ لأنَّه وقتُ الانتشارِ إلىٰ الأمورِ الضَّروريَّةِ التي بها القِوامُ والرُّجوعُ لقصدِ الرَّاحةِ الجسديَّةِ بالأكلِ والشُّربِ واللَّعبِ والاجتماعِ بعدَ الانتشارِ والانضمامِ مع ما في الوقتينِ من الدَّلالةِ الظَّاهرةِ علىٰ طيِّ الخلقِ ثم نشرِهم؛ أَتبَعَه ما يكونُ وقتَ السُّكونِ المرادِ به الرَّاحةُ بلذيذِ الاضطجاعِ والمنامِ، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾[3].

ثم خَصَّ اللَّيلَ بالتَّسبيحِ؛ لِما أنَّ العبادةَ فيه أشقُّ علىٰ النَّفسِ، وأبعدُ عن الرِّياءِ، فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾.

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٢٩).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٨١٨).

(٣) نظم الدرر (١٨/ ٤٣٨-٤٣٩).

سورة النجم

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ ﴾

ولمَّا أَقسَمَ بهذا القَسَمِ الجليلِ، أجابه بقولِه مُعبرًا بالماضي؛ نفيًا لِما كانوا رَمَوْه به، وليَسهُلَ ما قبلَ النُّبوَّةِ، فيكونَ ما بعدَها بطريقِ الأَولىٰ: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾[1].

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ ﴾

ولمَّا كان قد يكونُ مع الهدىٰ مصادفةٌ، قال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾[2].

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾

ولمَّا أكَّد سبحانه في نفسِه ذلك عندَ التَّأكيدِ تنزيهًا له عمَّا نُسب إليه، فكان ذلك مَظِنَّةَ السُّؤالِ عن أصلِ ما تقولُه؛ أجاب بالحصرِ، والآيةُ أصرحُ وأدفعُ لإنكارِهم البالغِ، فقال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[3].

استئنافٌ بيانيٌّ لجملةِ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٤٢).
(٢) نظم الدرر (١٩/ ٤٢-٤٣).
(٣) نظم الدرر (١٩/ ٤٣).
(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٩٤).

لمَّا قال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ ﴾، كأنَّ قائلًا قال: فبماذا ينطقُ: أعن الدَّليلِ أو الاجتهادِ؟ فقال: لا، وإنَّما ينطقُ عن اللهِ بالوحيِ [1].

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾

ولمَّا كان الوحيُ ظاهرًا فيما بواسطةِ الملكِ، تشوَّف السَّامعُ إلىٰ بيانِ ذلك، فقال مُبيِّنًا له بأوصافِه؛ لأنَّ ذلك أضخمُ في حقِّه، وأعلىٰ لمقدارِه: ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ [2].

جملةُ ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا لبيانِ كيفيَّةِ الوحيِ [3].

ثم ذكَر المُعلِّمَ للرَّسولِ ﷺ؛ وهو جبريلُ عليه السلام، أفضلُ الملائكةِ الكرامِ وأقواهم وأكملُهم، فقال: ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ [4].

﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾

ثم زادَ في وصفِه بقولِه: ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴾.

﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ﴾

ثم ذكَر مكانَه بعدَ استوائِه، فقال: ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴾.

فاستواءُ جبريلَ عليه السلام هو مبدأُ التَّهيُّؤِ لقبولِ الرِّسالةِ من عندِ اللهِ؛ ولذلك قُيِّدَ هذا الاستواءُ بجملةِ الحالِ في قولِه: ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴾ [5].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٣٥).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٤٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٩٥).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٨١٨).

(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٩٦).

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ ﴾

ولمَّا كان الدُّنُوُّ من الحضرةِ الإلهيَّةِ -التي هي مُهيِّئةٌ لتلقِّي الوحيِ- من العلوِّ والعَظَمةِ بحيثُ لا يُوصَفُ، أشارَ إلىٰ ذلك بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾(١).

﴿ ثُمَّ ﴾ عاطفةٌ علىٰ جملةِ ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾، والتَّراخي الذي تُفيدُه ﴿ ثُمَّ ﴾ تراخٍ رُتْبيٌّ؛ لأنَّ الدُّنُوَّ إلىٰ حيثُ يبلغُ الوحيُ هو الأهمُّ في هذا المقامِ(٢).

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ ﴾

ثم ذكَر المسافةَ فيما بينَهما، فقال: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾.

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ ﴾

فتَسبَّب عن زيادةِ تقريبِه حتَّىٰ كان قابَ قوسينِ أو أدنىٰ قولُه: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾.

تفريعُ ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ ﴾ علىٰ قولِه: ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ المُفرَّعِ علىٰ المُفرَّعِ علىٰ قولِه: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ﴾، وهذا التَّفريعُ هو المقصودُ من البيانِ، وما قبلَه تمهيدٌ له، وتمثيلٌ لأحوالٍ عجيبةٍ بأقربِ ما يَفهَمُه النَّاسُ لقصدِ بيانِ إمكانِ تلقِّي الوحيِ عن اللهِ تعالىٰ، إذ كان المشركون يُحِيلونه، فبيَّن لهم إمكانَ الوحيِ بوصفِ طريقِ الوحيِ إجمالًا، وهذه كيفيَّةٌ من صُوَرِ الوحيِ(٣).

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ ﴾

ولمَّا أَثبتَ هذا الكلامُ ما أَثبتَ من القُرْبِ من النبيِّ ﷺ ممَّن أوحىٰ إليه علىٰ كلا التَّقديرينِ، قرَّره علىٰ وجهٍ أفادَ الرُّؤيةَ، فقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٤٥).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٩٦).
(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٩٨).
(٤) نظم الدرر (١٩/ ٥٠).

الأظهرُ أنَّ هذا ردٌّ لتكذيبٍ من المشركين فيما بلَغهم من الخبرِ عن رؤيةِ النبيِّ ﷺ المَلَكَ جبريلَ عليه السلام[١].

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾

ولمَّا تقرَّر ذلك غايةَ التَّقرُّرِ، وكان موضعَ الإنكارِ عليهم؛ قال مُسبِّبًا عن ذلك: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾[٢].

تفريعُ ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ ﴾ على جملةِ ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾[٣].

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا كان الشَّيءُ أقوى ما يكونُ إذا حسر البصر، فإذا وافَقه كونُ القلبِ في غايةِ الحضورِ كان أَمكَنَ، فإذا تكرَّر انقطَعتِ الأطماعُ عن التَّعلُّقِ بالمجادلةِ منه؛ قال مُؤكِّدًا لأجلِ إنكارِهم: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾[٤].

﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾

وعيَّن الوقتَ بتعيُّنِ المكانِ، فقال: ﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[٥].

قولُه: ﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿رَءَاهُ﴾، وخُصَّتْ بالذِّكرِ رؤيتُه عندَ سِدْرةِ المنتهى لعظيمِ شرفِ المكانِ بما حصل عندَه من آياتِ ربِّه الكبرى، ولأنَّها منتهى العُرُوجِ في مراتبِ الكرامةِ[٦].

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٩٨).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٥٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٩٩).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٥٢).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ٥٢-٥٣).

(٦) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٠٠).

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ١٥﴾

وعظَّمَها بقولِه: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾(١).

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ١٦﴾

وزادَ في تعظيمِها بقولِه: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾(٢).

قولُـه: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ١٦﴾ ظـرفٌ مُسـتقِرٌّ في موضـعِ الحـالِ مـن ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ١٤﴾، أُرِيدَ بـه التَّنويـهُ بمـا حفَّ بهـذا المكـانِ المسـمَّىٰ سِـدْرةَ المنتهـىٰ مـن الجلالِ والجمالِ(٣).

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾

وأكَّد الرُّؤيةَ وقرَّرها مُستأنِفًا بقولِه: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾(٤).

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨﴾

ولمَّا كانوا قد أنكَروا الإسراءَ إنكـارًا لـم يقـعْ لهـم في غيـرِه مِثلُـه، زاد في تأكيـدِه علـىٰ وجهٍ يعمُّ غيرَه، فقال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾(٥).

جملةُ ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨﴾ تذييلٌ؛ أي: رأىٰ آيـاتٍ غيـرَ سـدرةِ المنتهـىٰ، وجنَّةِ المأوىٰ، وما غَشِيَ السِّدرةَ من البهجةِ والجلالِ، رأىٰ من آياتِ اللهِ الكبرىٰ(٦).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٥٣).
(٢) نظم الدرر (١٩/ ٥٣).
(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٠١).
(٤) نظم الدرر (١٩/ ٥٣).
(٥) نظم الدرر (١٩/ ٥٤).
(٦) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٠٢).

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ ﴾

ولمَّا أخبر سبحانه من استقامةِ طريقِ نبيِّه ﷺ ممَّا ثبَتَتْ رسالتُه بما أُوحِيَ إليه، وما أراه من آياتِه التي ظهر بها استحقاقُه سبحانه الإلهيَّةَ مُتفرِّدًا بها؛ سبَّب عنه الإنكارَ عليهم في عبادةِ معبوداتِهم على وجهٍ دالٍّ على أنَّها لا تَصلُحُ لصالحةٍ، فقال: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾(١).

لمَّا جرى في صفةِ الوحيِ، ومشاهدةِ رسولِ ﷺ جبريلَ عليه السلام، وما دلَّ على شؤونٍ جليلةٍ من عَظَمةِ اللهِ تعالى، وشرفِ رسولِه ﷺ، وشرفِ جبريلَ عليه السلام؛ إذ وُصف بصفاتِ الكمالِ ومنازلِ العِزَّة كما وُصف النبيُّ ﷺ بالعروجِ في المنازلِ العليا؛ كان ذلك ممَّا يُثيرُ موازنةَ هذه الأحوالِ الرَّفيعةِ بحالِ أعظمِ آلهتِهم الثَّلاثِ في زعمِهم؛ وهي: اللَّاتُ، والعُزَّى، ومناةُ؛ التي هي أحجارٌ مقرُّها الأرضُ، لا تملكُ تصرُّفًا، ولا يُعرَجُ بها إلى رفعةٍ، فكان هذا التَّضادُّ جامعًا خياليًّا يقتضي تعقيبَ ذِكْرِ تلك الأحوالِ بذِكْرِ أحوالِ هاتِه، فانتقل الكلامُ من غرضِ إثباتِ أنَّ النبيَّ ﷺ مُوحًى إليه بالقرآنِ، إلى إبطالِ عبادةِ الأصنامِ(٢).

لمَّا قرَّر الرِّسالةَ، ذكَر ما ينبغي أن يبتدئَ به الرسولُ؛ وهو التَّوحيدُ، ومنعُ الخلقِ عن الإشراكِ، فقولُه تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ﴾ إشارةٌ إلى إبطالِ قولِهم بنفسِ القولِ، كما أنَّ ضعيفًا إذا ادَّعى المُلْكَ، ثم رآه العقلاءُ في غايةِ البُعْدِ عمَّا يدَّعيه، يقولون: انظروا إلى هذا الذي يدَّعِي المُلْكَ، مُنكِرينَ عليه، غيرَ مُستدِلِّين بدليلٍ لظهورِ أمرِه؛ فلذلك قال: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾؛ أي: كما هما فكيف تُشركونهما باللهِ؟!(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٥٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٠٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٤٧).

ثم قال تعالىٰ مُنكِرًا علىٰ المشركين عبادتَهم الأوثانَ، واتِّخاذَهم لها البيوتَ، مُضاهاةً للكعبةِ التي بناها خليلُ الرَّحمنِ لعبادتِه تعالىٰ وحدَه، بقولِه: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾[1].

لمَّا قصَّ اللهُ سبحانه هذه الأقاصيصَ، قال للمشركين مُوبِّخًا لهم ومُقرِّعًا: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾[2].

﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾

ثم ذكر ثالثَ الأصنامِ في العَظَمةِ عندَ العربِ، فقال: ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾.

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ بما أفهمه السِّياقُ: كيف ادَّعَيتُم أنَّها آلهةٌ؟ أهي كذلك مع أنَّ عادتكم احتقارُ الإناثِ من أن تكونَ لكم أولادًا؛ فكيف رَضِيتم أن تكونَ لكم آلهةً، وتكونوا لها عُبَّادًا، مع أنَّها لم تُنزِلْ لكم وحيًا، ولا أَرسَلَتْ لكم رسولًا، ولا فعَلتْ مع أحدٍ منكم شيئًا ممَّا كرَّمْنا به عبدَنا محمدًا ﷺ، ولا أَرَتْكم قطُّ آيةً، ولا هي مُتأهِّلةٌ لشيءٍ من ذلك؛ بل لا تملكُ ضَرًّا ولا نفعًا، وادَّعَيتم أنَّها بناتُه، واستوطَنَها جِنِّيَّاتٌ هي بناتُه، وادَّعَيتم مع ادِّعاءِ مُطلَقِ الوَلَديَّةِ لمن لا يُلِمُّ به حاجةٌ ولا شَبَهَ له أنَّ له أردأَ الصِّنفينِ؛ فكان ذلك نقصًا مضمومًا إلىٰ نقصٍ، وعلا سبحانه تعالىٰ عن صاحبةٍ أو ولدٍ، فاستَحقَقْتم بذلك الإنكارَ الشَّديدَ، وعُلم بهذا التقديرِ الذي هدىٰ إليه السِّياقُ بطلانُ حديثِ الغَرانيقِ؛ ولا سِيَّما مع تعقيبِه بقولِه: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾[3].

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٧٠).

(٢) فتح القدير (٥/ ١٢٩).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٥٩).

جملةُ ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ ارتقاءٌ في الإبطالِ والتَّهكُّمِ والتَّسفيهِ كما تقدَّم، وهي مُجاراةٌ لاعتقادِهم أنَّ تلك الأصنامَ الثَّلاثةَ بناتُ اللهِ، وأنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ؛ أي: أَجَعَلتُم للهِ بناتٍ خاصَّةً، وأنتم تعلمون أنَّ لكم أولادًا ذكورًا وإناثًا، وأنَّكم تُفضِّلون الذُّكورَ وتكرهون الإناثَ، وقد خَصَصْتم اللهَ بالإناثِ دونَ الذُّكورِ، واللهُ أَولىٰ بالفضلِ والكمالِ لو كنتم تعلمون؛ فكان في هذا زيادةُ تشنيعٍ لكفرِهم، إذ كان كفرًا وسخافةَ عقلٍ[1].

ثم كرَّر سبحانه توبيخَهم وتقريعَهم بمقالةٍ شنعاءَ قالوها، فقال: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾[2].

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾

ولمَّا كان الاستفهامُ إنكاريًّا، ردَّ الإنكارَ بقولِه فَذْلَكةً لفعلِهم: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾[3].

جملةُ ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾ تعليلٌ للإنكارِ والتَّهكُّمِ المُفادِ من الاستفهامِ في ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾؛ أي: قد جُرْتُمْ في القِسْمةِ، وما عَدَلْتُم، فأنتم أَحِقَّاءُ بالإنكارِ[4].

لمَّا نسَبوا إلىٰ اللهِ البناتِ، حصَل من تلك النِّسبةِ قِسْمةٌ جائرةٌ[5].

ثم ذكَر سبحانه أنَّ هذه التَّسميةَ والقِسْمةَ المفهومةَ من الاستفهامِ قِسْمةٌ جائرةٌ، فقال: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾[6].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٠٣).

(٢) فتح القدير (٥/ ١٣١).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٥٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٠٦).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٤٩).

(٦) فتح القدير (٥/ ١٣١).

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا أَفهَمَ هذا الإنكارُ بطلانَ قولِهم هذا، حصَر القولَ الحقَّ فيها، فقال مُستأنِفًا: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[(١)].

جملةُ ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ استئنافٌ يَكرُّ بالإبطالِ علىٰ مُعتقَدِهم من أصلِه، بعدَ إبطالِه بما هو من لوازمِه علىٰ مُجاراتِهم فيه لإظهارِ اختلالِ مُعتقَدِهم، وفي هذه الجملةِ احتراسٌ لئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ إنكارَ نسبتِهم البناتِ للهِ أنَّه إنكارٌ لتخصيصِهم اللهَ بالبناتِ، وأنَّ له أولادًا ذكورًا وإناثًا، أو أنَّ مَصَبَّ الإنكارِ علىٰ زعمِهم أنَّها بناتٌ وليست ببناتٍ، فيكونُ كالإنكارِ عليهم في زعمِهم الملائكةَ بناتٍ، والضَّميرُ ﴿هِيَ﴾ عائدٌ إلىٰ اللَّاتِ والعُزَّىٰ ومناةَ[(٢)].

ثم ردَّ سبحانه عليهم بقولِه: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[(٣)].

﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: أعليهم أن يتركوا أَهْوِيَتَهم، ويهتدوا بهدىٰ ربِّهم الذي لا مُلْكَ لهم معَه، ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾؟[(٤)].

إضرابٌ انتقاليٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾، والاستفهامُ المقدَّرُ بعدَ ﴿ أَمْ ﴾ إنكاريٌّ، قُصد به إبطالُ نوالِ الإنسانِ ما يتمنَّاه، وأن يجعلَ ما يتمنَّاه باعثًا عن

(١) نظم الدرر (١٩/ ٥٩-٦٠).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٠٧).
(٣) فتح القدير (٥/ ١٣١).
(٤) نظم الدرر (١٩/ ٦١).

أعمالِه ومعتقداتِه، بل عليه أن يتطلَّبَ الحقَّ من دلائلِه وعلاماتِه وإن خالَف ما يتمنَّاه، وهذا تأديبٌ وترويضٌ للنُّفوسِ علىٰ تحمُّلِ ما يُخالِفُ أهواءَها إذا كان الحقُّ مُخالِفًا للهوىٰ، وليحملَ نفسَه عليه حتىٰ تتخلَّقَ به(١).

ولهذا أنكر تعالىٰ علىٰ مَن زعَم أنَّه يحصلُ له ما تمنَّىٰ وهو كاذبٌ في ذلك، فقال: ﴿أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾(٢).

﴿فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾

ولمَّا كان الاستفهامُ إنكاريًّا، كان المعنىٰ: ليس له ما تمنَّىٰ، وكان ذلك دليلًا قطعيًّا علىٰ أنَّه مربوبٌ مقهورٌ ممَّن له الأمرُ كلُّه، فسبَّب عنه قولَه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾(٣).

وفرَّع علىٰ الإنكارِ أنَّ اللهَ مالكُ الآخرةِ والأولىٰ؛ أي: فهو يتصرَّفُ في أحوالِ أهلِهما بحسَبِ إرادتِه لا بحسَبِ تمنِّي الإنسانِ، وهذا إبطالٌ لمعتقداتِ المشركين التي منها يقينُهم بشفاعةِ أصنامِهم(٤).

لمَّا بيَّن أنَّ اتِّخاذَ اللَّاتِ والعُزَّىٰ باتِّباعِ الظَّنِّ وهوىٰ الأَنفُسِ، كأنَّه قرَّره وقال: إن لم تعلموا هذا فللهِ الآخرةُ والأولىٰ، وهذه الأصنامُ ليس لها من الأمرِ شيءٌ؛ فكيف يجوزُ الإشراكُ؟(٥).

ثم علَّل انتفاءَ أن يكونَ للإنسانِ ما تمنَّىٰ، بقولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١١١).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٨٢٠).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٦٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ١١١).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٥٣).

(٦) فتح القدير (٥/ ١٣٢).

﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦ ﴾

ولـمَّا كان التقديرُ: فكم من شخصٍ تَرَوْنَه في الأرضِ مع أنَّه في غايةِ المكنةِ فيما يظهرُ لكم لا يصلُ إلىٰ رُبُعِ ما يتمنَّاه، عطَف عليه قولَه، مُظهِرًا لضخامةِ مُلْكِه وأنَّه لا يُبالِي بأحـدٍ، دالًّا علـىٰ الكثـرةِ: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾[1].

لـمَّا بيَّن اللهُ أنَّ أمورَ الدَّارينِ بيدِ اللهِ تعالىٰ، وأنْ ليس للإنسانِ ما تمنَّىٰ؛ ضرَب لذلك مثـالًا مـن الأمـانيِّ التـي هـي أعظـمُ أمـانيِّ المشـركين؛ وهـي قـولُهم في الأصـنامِ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، وقولُهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، فبيَّن إبطالَ قولِهم بطريقِ فَحْوَىٰ الخطابِ؛ وهو أنَّ الملائكةَ الذين لهم شرفُ المنزلةِ؛ لأنَّ الملائكةَ من سُكَّانِ السَّماواتِ، فهم لا يستطيعون إنكارَ أنَّهم أشرفُ من الأصنامِ، لا يملكون الشَّفاعةَ إلَّا إذا أَذِنَ اللهُ أن يشفعَ إذا شاء أن يقبلَ الشَّفاعةَ في المشفوعِ لـه، فكيف يكـونُ للمشـركين مـا تَمنَّـوْا مـن شـفاعةِ الأصـنامِ للمشـركين الـذين يقولـون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وهي حجارةٌ في الأرضِ وليست ملائكةً في السَّماواتِ، فثبـت أن لا شـفاعةَ إلَّا لمـن شـاء اللهُ، وقـد نفـىٰ اللهُ شـفاعةَ الأصـنامِ فبطَـل اعتقـادُ المشركين أنَّهم شفعاؤهم، فهذه مناسبةُ عطفِ هذه الجملةِ علىٰ جملةِ ﴿ أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ٢٤ ﴾، وليس هذا الانتقالُ اقتضابًا لبيانِ عِظَمِ أمرِ الشَّفاعةِ[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ٢٧﴾

ولـمَّـا أَخبَـرَ باتِّبـاعِهم للهـوىٰ، ونفـىٰ أن يكـونَ لهـم مـن ذلـك مـا يَتمنَّوْنَـه؛ دلَّ علىٰ اتِّباعِهم للهوىٰ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٦٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١١٣).
(٣) نظم الدرر (١٩/ ٦٣).

اعتراضٌ واستطرادٌ لمناسبةِ ذِكْرِ الملائكةِ وتبَعًا لِما ذكر آنفًا من جعلِ المشركين اللَّاتَ والعُزَّىٰ ومناةَ بناتٍ للهِ، ثُني إليهم عنانُ الرَّدِّ والإبطالِ لزعمِهم أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ؛ جمعًا بينَ ردِّ باطلينِ مُتشابِهينِ (١).

ثم أشار إلىٰ طغيانٍ آخَرَ للمشركين، بقولِه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ (٢).

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾

جملةُ ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ حالٌ من ضميرِ «يُسَمُّونَ»؛ أي: يُثبِتون للملائكةِ صفاتِ الأنثىٰ في حالِ انتفاءِ علمٍ منهم بذلك، وإنَّما هو تخيُّلٌ وتوهُّمٌ؛ إذ العلمُ لا يكونُ إلَّا عن دليلٍ لهم، فنَفْيُ العلمِ مرادٌ به نفيُه ونفيُ الدَّليلِ علىٰ طريقةِ الكنايةِ.

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ هذه الجملةُ في محلِّ نصبٍ علىٰ الحالِ؛ أي: يُسَمُّونهم هذه التَّسميةَ والحالُ أنَّهم غيرُ عالِمين بما يقولون، فإنَّهم لم يعرفوهم، ولا شاهَدوهم، ولا بلَغ إليهم ذلك من طريقٍ من الطُّرقِ التي يُخبِر المُخبِرون عنها، بل قالوا ذلك جهلًا وضلالةً وجرأةً (٣).

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾

ولمَّا كانوا بعدَ مجيءِ الهدىٰ قد أَصَرُّوا علىٰ الهوىٰ، وكانت هذه السُّورةُ في أوائلِ ما نزل، والمؤمنون قليلٌ؛ سبَّب عن ذلك: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ (٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١١٤).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ٧٧).

(٣) فتح القدير (٥/ ١٣٤).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٦٤).

بعدَ أنْ وصَف مداركَهم الباطلةَ وضلالَهم؛ فرَّع عليه أمرَ نبيِّه ﷺ بالإعراضِ عنهم؛ ذلك لأنَّ ما تقدَّم من وصفِ ضلالِهم كان نتيجةَ إعراضِهم عن ذِكْرِ اللهِ؛ وهو التَّولِّي عن الذِّكرِ، فحقَّ أن يكونَ جزاؤهم عن ذلك الإعراضِ إعراضًا عنهم[(١)].

ولمَّا كان هذا دَأبَ هؤلاء المذكورين أنَّهم لا غرضَ لهم في اتِّباعِ الحقِّ، وإنَّما غرضُهم ومقصودُهم ما تهواه نفوسُهم؛ أمر اللهُ رسولَه بالإعراضِ عمَّن تولَّىٰ عن ذِكْرِه، الذي هو الذِّكرُ الحكيمُ، والقرآنُ العظيمُ، والنَّبأُ الكريمُ[(٢)].

﴿ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾

ثم تَرجَمَ جملتَيِ الإعراضِ والإرادةِ بقولِه: ﴿ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾[(٣)].

جملةُ ﴿ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ اعتراضٌ، وهو استئنافٌ بيانيٌّ بيَّن به سببَ جهلِهم بوجودِ الحياةِ الآخرةِ؛ لأنَّه لغرابتِه ممَّا يسألُ عنه السَّائلُ، وفيه تحقيرٌ لهم وازدراءٌ بهم بقصورِ معلوماتِهم[(٤)].

ثم صغَّر سبحانه شأنَهم، وحقَّر أمرَهم، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١١٦).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٨٢٠).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٦٥).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ١١٨).

(٥) فتح القدير (٥/ ١٣٤).

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا ربما أوهَم أنَّ مَن ضلَّ علىٰ هذه الحالةِ ليس في قبضته، قال نافيًا لهذا الإيهامِ، مُبيِّنًا أنَّ له الأسماءَ الحسنىٰ ومقتضياتها في العالمِ، موضع «والحالُ أنَّه له»، أو عطفًا علىٰ ما تقديرُه: فللهِ مَن في السماوات ومَن في الأرض: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾[1].

عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ إلخ، فبعدَ أنْ ذكَر أنَّ للهِ أمورَ الدَّارينِ بقولِه: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ﴾، انتقل إلىٰ أهمِّ ما يجري في الدَّارينِ من أحوالِ النَّاسِ الذين هم أشرفُ ما علىٰ الأرضِ بمناسبةِ قولِه: ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾، المرادِ به الإشارةُ إلىٰ الجزاءِ، وهو إثباتٌ لوقوعِ البعثِ والجزاءِ، فالمقصودُ الأصليُّ من هذا الكلامِ هو قولُه: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾؛ لأنَّ المُهِمَّ ما في الأرضِ، إذ هم مُتعلَّقُ الجزاءِ، وإنَّما ذكَر معَه ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ علىٰ وجهِ التَّتميمِ للإعلامِ بإحاطةِ مُلْكِ اللهِ لِما احتوَتْ عليه العوالمُ كلُّها، ونُكْتةُ الابتداءِ بالتَّتميمِ دونَ تأخيرِه الذي هو مقتضىٰ ظاهرٌ في التَّتميماتِ هي الاهتمامُ بالعالمِ العُلْويِّ؛ لأنَّه أوسعُ وأشرفُ، وليكونَ المقصودُ -وهو قولُه: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ الآيةَ- مُقترنًا بما يُناسِبُه من ذِكْرِ ما في الأرضِ؛ لأنَّ المَجْزِيِّينَ هم أهلُ الأرضِ، فهذه نُكْتةُ مُخالَفةِ مقتضىٰ الظَّاهرِ[2].

ثم أخبَرَ سبحانه عن سَعةِ قدرتِه وعظيمِ مُلْكِه، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٦٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١١٩).

(٣) فتح القدير (٥/ ١٣٥).

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢ ﴾

ولمَّا وعد الذين وقع منهم الإحسانُ، وصفهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾(١).

ثم بيَّن صفاتِ هؤلاء المُحسِنين، بقوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾(٢).

﴿ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ٣٣ ﴾

ولمَّا أمره سبحانه بالإعراضِ عمَّن تولَّىٰ عن التَّشرُّفِ بذِكْرِ الملكِ الأعظمِ واللَّجاءِ إليه، ونهىٰ عن التَّزكيةِ للجهلِ بالعواقبِ، وكان قد ارتدَّ ناسٌ عن الإسلامِ، كان سببُ ارتدادِهم إخبارَه ﷺ عن بعضِ ما رأىٰ من الآياتِ الكبرىٰ ليلةَ الإسراءِ، وكان لمَّا نزَلتْ عليه ﷺ سجدةُ «النَّجمِ» وسجَد فيها ﷺ، سجَد معه -كما في «البخاريِّ»- المسلمون والمشركون والجِنُّ والإنسُ، ولم يكنْ في ظنِّ أحدٍ من الخلقِ انقلابُهم علىٰ أدبارِهم بعدُ حتىٰ ولا في ظنِّ المُرْتَدِّين؛ سبَّب عن ذلك قولَه: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴾(٣).

الفاءُ لتفريعِ الاستفهامِ التَّعجيبيِّ علىٰ قولِه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ٣١﴾؛ إذ كان حالُ هذا الذي تولَّىٰ وأعطىٰ قليلًا وأكدىٰ جهلًا بأنَّ

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٦٧).

(٢) فتح القدير (٥/ ١٣٥).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٧٠).

للإنسانِ ما سعىٰ، وقد حصل في وقتِ نزولِ الآيةِ المتقدِّمةِ أو قبلَها حادثٌ أنبأ عن سوءِ الفهمِ لمرادِ اللهِ من عبادِه مع أنَّه واضحٌ لمن صرَف حقَّ فهمِه، ففُرِّعَ علىٰ ذلك كلِّه تعجيبٌ من انحرافِ أفهامِهم[(١)].

أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا بيَّن أنَّ الجزاءَ لا بدَّ من وقوعِه علىٰ الإساءةِ والإحسانِ، وأنَّ المُحسِنَ هو الذي يجتنبُ كبائرَ الإثمِ، فلم يكنِ الإنسانُ مُستغنِيًا عن سماعِ كلامِ النبيِّ ﷺ واتِّباعِه، فبعدَ هذا مَن تَولَّىٰ لا يكونُ تولِّيه إلَّا بعدَ غايةِ الحاجةِ ونهايةِ الافتقارِ[(٢)].

ثم لمَّا بيَّن سبحانه جهالةَ المشركين علىٰ العمومِ، خَصَّ بالذَّمِّ بعضَهم، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾[(٣)].

﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾

ثم وصَفه بالبخلِ، فقال: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾.

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾

ولمَّا كان هذا -وقد وقع في خطرٍ عظيمٍ من إفسادِ العملِ في الماضي، وتركِه في المستقبلِ، فصار علىٰ خطأٍ عظيمٍ في أحدِهما- يتعلَّقُ بأصلِ الدِّينِ: الكفرِ والإيمانِ، وكان مِثلُ هذا لا يفعلُه عاقلٌ بنفسِه إلَّا عن بصيرةٍ؛ قال تعالىٰ مُوبِّخًا له مُقرِّعًا: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٢٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٢٧٣).

(٣) فتح القدير (٥/ ١٣٧).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٧١).

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا كان الغبيُّ قد يظنُّ أنَّ عملَ غيرِه ينفعُه، عبَّر عنه جامعًا للوعظِ والتَّهويلِ بقولِه: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾[(١)].

﴿ أَمْ ﴾ لإضرابِ الانتقالِ إلى مُتعجَّبٍ منه، وإنكارٌ عليه آخَرُ؛ وهو جهلُه بما عليه أن يعلمَه الذين يَخْشَوْنَ اللهَ تعالى من علمِ ما جاء على ألسنةِ الرُّسُلِ الأوَّلِين، فإنْ كان هو لا يُؤمِنُ بمحمدٍ ﷺ، فهَلَّا تَطلَّبَ ما أَخبَرَتْ به رُسُلٌ مِن قبلُ، طالما ذكَر هو وقومُه أسماءَهم وشرائعَهم في الجملةِ، وطالما سأل هو وقومُه أهلَ الكتابِ عن أخبارِ موسى؛ فهَلَّا سأل عمَّا جاء عنهم في هذا الغرضِ الذي يسعى إليه؛ وهو طلبُ النَّجاةِ من عذابِ اللهِ فيُنبِّئُه العاملون، فإنَّ مآثرَ شريعةِ إبراهيمَ مأثورٌ بعضُها عندَ العربِ، وشريعةَ موسى معلومةٌ عندَ اليهودِ[(٢)].

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾

ولمَّا قدَّم كتابَ موسى عليه السلام لكونِه أعظمَ كتابٍ بعدَ القرآنِ، مع أنَّه موجودٌ بينَ النَّاسِ يمكنُ مراجعتُه؛ قال: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾[(٣)].

﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾

ثم فسَّر الذي في الصُّحُفِ، أو استأنَف بقولِه: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[(٤)].

ثم بيَّن سبحانه ما في صُحُفِهما، فقال: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٧١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٢٩).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٧١).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٧٢).

(٥) فتح القدير (٥/ ١٣٧).

وفي تلك الصُّحُفِ أحكامٌ كثيرةٌ، من أهمِّها ما ذكره الله بقولِه: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾(١).

📖 ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ 📖

ولمَّا نفى أن يَضُرَّه إثمُ غيرِه، نفى أن ينفعَه سعيُ غيرِه، فقال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾(٢).

لمَّا بيَّن له أنَّ سيِّئتَه لا يَتحمَّلُها عنه أحدٌ، بيَّن له أنَّ حسنةَ الغيرِ لا تُجدِي نفعًا، ومَن لم يعملْ صالحًا، لا ينالُ خيرًا، فيكمل بها ويظهر أنَّ المُسِيءَ لا يجدُ بسببِ حسنةِ الغيرِ ثوابًا، ولا يتحمَّلُ عنه أحدٌ عقابًا(٣).

بيانٌ لعدمِ انتفاعِ الإنسانِ بعملِ غيرِه من حيثُ جلبُ النَّفعِ إليه إثرَ بيانِ عدمِ انتفاعِه به من حيثُ دفعُ الضَّررِ عنه(٤).

📖 ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ 📖

ولمَّا ثبت أنَّه ليس له ولا عليه إلَّا ما عمل، وكان في الدنيا قد يفعلُ الشَّيءَ من الخيرِ والشَّرِّ ولا يراه مَن فعله لأجلِه ولا غيرُه؛ نفى أن يكونَ الآخرةُ كذلك بقولِه: ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾(٥).

يجوزُ أن تكونَ عطفًا على جملةِ ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾، فهي من تمامِ تفسيرِ ما في صُحُفِ موسى وإبراهيمَ، فيكون تغييرُ الأسلوبِ إذ جِيءَ في هذه الآيةِ بحرفِ «أنَّ»

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٨٢٢).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٧٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٢٧٦).

(٤) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٦٣).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ٧٢).

المشدَّدةِ لاقتضاءِ المقامِ أن يقعَ الإخبارُ عن سعيِ الإنسانِ بأنَّه يُعلِنُ به يومَ القيامةِ، وذلك من توابعِ أن ليس له إلَّا ما سعىٰ، فلمَّا كان لفظُ ﴿سَعۡيَهُۥ﴾ صالحًا للوقوعِ اسمًا لحرفِ «أنَّ»، زال مقتضىٰ اجتلابِ ضميرِ الشَّأنِ، فزال مقتضىٰ «أن» المخفَّفةِ[1].

﴿ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١﴾

ولمَّا كان المَخُوفُ منه المجازاةُ مطلقًا لا مِن مُجازٍ مُعيَّنٍ، قال: ﴿ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾[2].

قولُه: ﴿ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾، وهو المقصودُ من الجملةِ، و﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ حصولَ الجزاءِ أهمُّ من إظهارِه أو إظهارِ المَجْزِيِّ عنه[3].

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ٤٢﴾

ولمَّا كانت رؤيةُ الأعمالِ لا تقطعُ برؤيةِ المُتوكِّلين بها من الملائكةِ أو غيرِها ممَّن أقامه اللهُ لذلك، وكان الرَّائي كُلَّما كان أكثرَ كان الأمرُ أَهْوَلَ، وكان رؤيةُ المَلَكِ الأعظمِ أخوفَ؛ قال عاطفًا علىٰ ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ مُبيِّنًا بحروفِ الغايةِ أنَّ الرَّائينَ للأعمالِ كثيرٌ لكثرةِ جنودِه سبحانه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾[4].

يجوزُ أن تكونَ هذه الجملةُ معطوفةً علىٰ جملةِ ﴿وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ﴾، فتكونَ تَتِمَّةً لِما في صُحُفِ موسىٰ وإبراهيمَ، ويكون الخطابُ في قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ التفاتًا من الغيبةِ إلىٰ الخطابِ والمُخاطَبُ غيرُ مُعيَّنٍ، فكأنَّه قيل: وأنَّ إلىٰ ربِّه المنتهىٰ،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٣٩).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٧٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٤٠).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٧٣).

ويجوزُ أنَّها ليست ممَّا اشتمَلتْ عليه صُحُفُ موسىٰ وإبراهيمَ، ويكونُ عطفُها عطفَ مفردٍ علىٰ مفردٍ، فيكونُ المصدرُ المُنسبِكُ من «أن» ومعمولِها مدخولًا للباءِ؛ أي: لم يُنبَّأْ بأنَّ إلىٰ ربِّك المنتهىٰ، والخطابُ للنَّبيِّ ﷺ[1].

لمَّا قال: ﴿ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ﴾، كأنَّ قائلًا قال: لا ترىٰ الجزاءَ، ومتىٰ يكونُ، فقال: إنَّ المَرجِعَ إلىٰ اللهِ، وعندَ ذلك يُجازِي الشُّكورَ ويَجزِي الكَفُورَ[2].

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر تعالىٰ الأمورَ الاختياريَّةَ، وقدَّمها لأنَّها محطٌّ للبلاءِ، وسلَب علمَها عن أصحابِها، وحذَّر من عاقبتِها بإحاطتِه بكُلِّ شيءٍ، وكان معنىٰ ذلك أنَّه القادرُ علىٰ غيرِه والعالمُ لا غيرُه؛ عطَف عليه قولَه ذاكرًا للأمورِ الاضطراريَّةِ التي هي في غايةِ التَّنافي إكمالًا للدَّليلِ علىٰ أنَّه يعلمُ ما في النُّفوسِ دونَ أصحابِها وغيرِهم، وأنَّه إليه المنتهىٰ إعادةً وإبداءً، يُوقِفُ ما يشاءُ علىٰ ما يريدُ من الأسبابِ التي تُفعَلُ بإذنِه؛ من الضَّحِكِ أو البكاءِ وغيرِهما من الأمورِ المُنافِيةِ التي لولا الإلفُ لها لقضىٰ الإنسانُ أنَّ المُتلبِّسَ بأحدِهما لا يَتلبَّسُ بضِدِّه أصلًا من غيرِها، ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴾[3].

انتقالٌ من الاعتبارِ بأحوالِ الآخرةِ إلىٰ الاعتبارِ بأحوالِ الدنيا، وضميرُ ﴿هُوَ﴾ عائدٌ إلىٰ ﴿رَبِّكَ﴾ من قولِه: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾[4].

ثم أشار إلىٰ بعضِ آياتِه الدَّالَّةِ علىٰ انفرادِه بالألوهيَّةِ، بقولِه تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴾[5].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٤٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٢٧٨).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٧٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٤٢).

(٥) محاسن التأويل (٩/ ٨٣).

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤﴾

ولمَّا كانت الإماتةُ والإحياءُ أعظمَ تنافيًا بما مضىٰ، فكانت القدرةُ علىٰ إيجادِها في الشَّخصِ الواحدِ أعظمَ ما يكونُ، وكان ربما نسب إلىٰ مَن قتل أو داوىٰ من مرضٍ أو أطلق مَن وجَب قتلُه؛ أكَّد فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾[(١)].

انتقل من الاعتبارِ بانفرادِ اللهِ بالقدرةِ علىٰ إيجادِ أسبابِ المَسَرَّةِ والحزنِ؛ وهما حالتانِ لا تخلو عن إحداهما نفسُ الإنسانِ، إلىٰ العِبْرةِ بانفرادِه تعالىٰ بالقدرةِ علىٰ الإحياءِ والإماتةِ؛ وهما حالتانِ لا يخلو الإنسانُ عن إحداهما، فإنَّ الإنسانَ أوَّلُ وجودِه نُطْفةٌ ميِّتةٌ، ثم عَلَقةٌ، ثم مُضْغةٌ -قطعةٌ ميِّتةٌ وإن كانت فيها مادَّةُ الحياةِ إلَّا أنَّها لم تَبرُزْ مظاهرُ الحياةِ فيها-، ثم يُنفَخُ فيه الرُّوحُ، ثم يصيرُ إلىٰ حياةٍ، وذلك بتدبيرِ اللهِ تعالىٰ وقدرتِه[(٢)].

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥﴾

ولمَّا كان ذِكرُ الإحياءِ، وكان تصنيفُ الولدِ إلىٰ نوعَيْه ظاهرًا في اختصاصِه، بل وهو في غايةِ التَّعذُّرِ علىٰ مَن سواه؛ أعراه عن مِثْلِ التَّأكيدِ في الذي قبلَه، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾[(٣)].

مناسبةُ الانتقالِ إلىٰ هذه الجملةِ أنَّ فيها كيفيَّةَ ابتداءِ الحياةِ[(٤)].

﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦﴾

ثم ذكَر ما يظهرُ ولا بدَّ أنَّه من صُنْعِه، فتَسبَّب أنَّ مادَّةَ الاثنينِ واحدةٌ؛ وهو الماءُ الذي هو أشدُّ الأشياءِ امتزاجًا، فقال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٤٤).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٧٥).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٤٥).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ٧٥).

الإشارةُ إلىٰ أنَّ لكلا الزَّوجينِ حظًّا من النُّطفةِ التي منها يُخلَقُ الإنسانُ، فكانت للذَّكرِ نُطْفةٌ وللمرأةِ نُطْفةٌ[(١)].

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾

ولمَّا ساق هذه الأشياءَ دليلًا علىٰ إحاطةِ علمِه، فلَزِمَها أنْ دَلَّتْ علىٰ تمامِ قدرتِه، وختَمها بالنَّشأةِ الأولىٰ، فلَزِمَ من ذلك الإقرارُ حتمًا بأنَّه قادرٌ علىٰ البعثِ؛ عبَّر بما يقتضي أنَّه لمَّا تقدَّم به وعدُه علىٰ جميعِ ألسنةِ رسلِه، صار واجبًا عليه؛ بمعنىٰ: أنَّه لا بدَّ من كونِه -لأنَّه لا يُبدَّلُ القولُ لديه- لا غيرُ ذلك، فعبَّر بحرفِ الاستعلاءِ تأكيدًا له ردًّا لإنكارِهم إيَّاه، فقال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾[(٢)].

واستدلَّ بالبداءةِ علىٰ الإعادةِ، فقال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾[(٣)].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾

ولمَّا كان الغنىٰ والفقرُ من الأمورِ المتوسِّطةِ بينَ الاختياريَّةِ والاضطراريَّةِ له بكلِ الأمرينِ لسببٍ، وكان مقسومًا بينَ الإناثِ والذُّكورِ بحكمةٍ ربَّانيَّةٍ لا ينفعُ الذَّكرُ فيها قُوَّتُه ولا يَضُرُّ الأنثىٰ ضعفُها، وكان ذِكرُ النَّشأةِ الآخرةِ كالمُعترضِ إنَّما أَوجَبَ ذِكرَ النَّشأةِ الأولىٰ؛ تَعقَّب ذِكرَهما به وكان ذِكرُ الغنىٰ مع أنَّه يدلُّ علىٰ الفقرِ أَلْيَقَ بالامتنانِ، والنِّسبةِ إلىٰ الرَّبِّ، وكان الغنىٰ الحقيقيُّ إنَّما يكونُ في تلك الدَّارِ؛ أخَّر ذِكرَه، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٤٥).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٧٥).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٢٢).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ٧٦).

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ۝٤٩﴾

ولمَّا كانت الشِّعرىٰ -لأنَّها تقطعُ السَّماءَ عرضًا- أدلَّ النُّجومِ بعدَ تمامِ القدرةِ علىٰ الفعلِ بالاختيارِ، مع أنَّها ممَّا دخل تحتَ ذلك الجنسِ المُقسَمِ به أوَّلَ السورةِ، وهي لمرورِها في سَيْرِها عرضًا علىٰ جميعِ المنازلِ التي كانت العربُ تَستمطِرُ بها وتَنسُبُ بالإتيانِ بالحدِّ المُوجِبِ للغنىٰ إليها، كانت قد عبَدَها من دونِ اللهِ أبو كَبْشةَ الخُزاعيُّ لكونِها عندَه أجلَّ الكواكبِ؛ قال تعالىٰ دالًّا بالتَّأكيدِ علىٰ سفاهةِ مَن عبَدها: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾[١].

وتخصيصُ ﴿ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ بالذِّكرِ في هاتِه السورةِ أنَّه تقدَّم ذِكرُ اللَّاتِ والعُزَّىٰ ومناةَ، وهي معبوداتٌ وهميَّةٌ لا مُسمَّيات لها؛ أَعقبَها بإبطالِ إلهيَّةِ الملائكةِ، وهي من الموجوداتِ المُجرَّداتِ الخَفِيَّةِ؛ أَعقبَ ذلك بإبطالِ عبادةِ الكواكبِ، وخُزاعةُ أجوارٌ لأهلِ مكَّةَ، فلمَّا عبَدوا الشِّعرىٰ، ظهَرتْ عبادةُ الكواكبِ في الحجازِ، وإثباتُ أنَّها مخلوقةٌ للهِ تعالىٰ دليلٌ علىٰ إبطالِ إلهيَّتِها؛ لأنَّ المخلوقَ لا يكونُ إلهًا، مع ما في لفظِ ﴿ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ من مناسبةِ فواصلِ هذه السورةِ[٢].

إشارةٌ إلىٰ فسادِ قولِ قومٍ آخرين؛ وذلك لأنَّ بعضَ النَّاسِ يذهبُ إلىٰ أنَّ الفقرَ والغنىٰ بكسبِ الإنسانِ واجتهادِه، فمَن كسَب استغنىٰ، ومَن كسل افتقر، وبعضُهم يذهبُ إلىٰ أنَّ ذلك بالبَخْتِ، وذلك بالنُّجومِ، فقال: ﴿هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ۝٤٨﴾، وإنَّ قائلَ الغنىٰ بالنُّجومِ غالطٌ، فنقولُ: هو ربُّ النُّجومِ وهو مُحرِّكُها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾[٣].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٧٦-٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٥٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٢٨٣).

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠﴾

ولمَّا دلَّ سبحانه علىٰ كمالِ علمِه، وشمولِ قدرتِه بأمورِ الخافِقَين: العُلْويِّ والسُّفليِّ، فكان ذلك داعيًا إلىٰ الإقبالِ علىٰ ما يُرضِيه، وناهيًا عن الإلمامِ بما يُسخِطُه؛ شرع في التَّهديدِ لمن وقف عن ذلك بما وقع في مَصارِعِ الأوَّلِينَ من عجائبِ قدرتِه، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾[1].

لمَّا استوفىٰ ما يَستحِقُّه مقامُ النداءِ علىٰ باطلِ أهلِ الشِّركِ من تكذيبِهم النبيَّ ﷺ وطعنِهم في القرآنِ، ومن عبادةِ الأصنامِ، وقولِهم في الملائكةِ، وفاسدِ مُعتقَدِهم في أمورِ الآخرةِ، وفي المُتصرِّفِ في الدنيا، وكان معظمُ شأنِهم في هذه الضَّلالاتِ شبيهًا بشأنِ أُمَمِ الشِّركِ البائدةِ؛ نقل الكلامَ إلىٰ تهديدِهم بخوفِ أن يَحِلَّ بهم ما حَلَّ بتلك الأُمَمِ البائدةِ، فذكَر من تلك الأُمَمِ أشهرَها عندَ العربِ؛ وهم: عادٌ، وثمودُ، وقومُ نوحٍ، وقومُ لوطٍ[2].

لمَّا ذكر أنَّه ﴿أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ۝٤٨﴾، وكان ذلك بفضلِ اللهِ لا بعطاءِ الشِّعرىٰ؛ وجَب الشُّكرُ لمن قد أهلك، وكفىٰ لهم دليلًا حالُ عادٍ وثمودَ وغيرِهم[3].

﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١﴾

وعطَف عليهم قولَه: ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾[4].

ثم ذكر مَن جاء بعدَ عادٍ من الأُمَمِ، فقال: ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾.

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٧٧).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٥٢).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٢٨٣).
(٤) نظم الدرر (١٩/ ٧٨).

﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢﴾

ولمَّا قدَّم مَن كان إهلاكُهم بنفسِ الرِّيحِ التي هي مبدأُ الأمطارِ الآتيةِ لهم في السَّحابِ، وأَتبعَهم من إهلاكِهم بها بحملِها للصَّيحةِ إرجافها بهم؛ أَتبعَهم مَن كان إهلاكُهم بالماءِ الذي هو غايةُ السَّحابِ، فقال: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾(١).

﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣﴾

ولمَّا ذكر الهلاك بالرِّيحِ العاصفةِ النَّاشئةِ عنها، ثم بالماءِ النَّاشئِ عن السَّحابِ النَّاشئِ عن الرِّيحِ؛ ذكر الإهلاكَ بالرِّيحِ والنَّارِ والماءِ إعلامًا بأنَّه الفاعلُ وحدَه بما أرادَ من العذابِ من العناصرِ التي سببُ الحياةِ مُجتمِعةً ومنفردةً، فقال مُقدِّمًا عن العاملِ إعلامًا بالتَّخصيصِ بما ذكر من العذابِ إفادةً بأنَّه تعالىٰ قادرٌ علىٰ كلِّ شيءٍ فلم يُعذِّب فرقةً بما عذَّب به الأخرىٰ: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾(٢).

ولمَّا أنَّ عادًا وثمودَ وقومَ نوحٍ كان أمرُهم مُتقدِّمًا، وأماكنُهم كانت قد دُثِرَتْ؛ ذكر قومَ لوطٍ التي كانت مساكنُهم وآثارُ الانقلابِ فيها ظاهرةً، فقال: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾.

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾

وأشارَ إلىٰ الحجارةِ والماءِ بقولِه، مُسبِّبًا عن الإهواءِ، ومُعقِّبًا له: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٧٩).
(٢) نظم الدرر (١٩/ ٧٩-٨٠).
(٣) نظم الدرر (١٩/ ٨٠).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

ولمَّا أَهلَكَ كلَّ واحدةٍ من هذه الفِرْقةِ فلم يَبْقَ من فُجَّارِها أحدٌ، وأنجىٰ مَن أطاعه منهم فلم يَهلِكْ منهم أحدٌ، وكان إهلاكُه لكُلٍّ منها بشيءٍ غيرِ ما هلَك به الفريقُ الآخرُ، فدَلَّ كلٌّ من ذلك علىٰ تمامِ علمِه وكمالِ قدرتِه، وكان كمل ما تقدَّم في هذه السورةِ من النِّعَمِ والنِّقَمِ لكونِه كان أتمَّ أَوجُهِ الحكمِ نعمةً علىٰ كلِّ مؤمنٍ لِما فيها من التَّرغيبِ في ثوابِه والتَّرهيبِ من عقابِه؛ خاطَب سبحانه رأسَ المؤمنين لأنَّ خطابَه له أشدُّ في تذكيرِ غيرَه، فقال مُسبِّبًا عمَّا مضىٰ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾(١).

تفريعٌ فَذْلكةٌ لِما ذُكر من أوَّلِ السورة ممَّا يختصُّ بالنبيِّ ﷺ من ذلك، كقولِه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ إلىٰ قولِه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾، وممَّا يشملُه ويشملُ غيرَه من قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ إلىٰ قولِه: ﴿هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾، فإنَّ ذلك خليطٌ من نِعَمٍ وضِدِّها علىٰ نوعِ الإنسانِ، وفي مجموعِها نعمةُ تعليمِ الرسولِ ﷺ وأُمَّتِه بمنافعِ الاعتبارِ بصُنْعِ اللهِ، ثم مِن قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ إلىٰ هنا، فتلك نِقَمٌ من الضَّالِّين والظَّالمين لنصرِ رُسُلِ اللهِ، وذلك نعمةٌ علىٰ جميعِ الرُّسلِ ونعمةٌ خاصَّةٌ بالرسولِ ﷺ، وهي بشارتُه بأنَّ اللهَ سينصرُه، فجميعُ ما عدَّد من النِّعَمِ علىٰ أقوامٍ والنِّقَمِ عن آخرين هو نِعَمٌ مَحْضةٌ للرَّسولِ ﷺ وللمؤمنين(٢).

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾

ولمَّا تَمَّ الكلامُ علىٰ هذا المنهاجِ البديعِ والنَّمطِ الرَّفيعِ في حسانِ البيانِ للمواعظِ والشَّرعِ والقصصِ القديمةِ والإنذارِ العظيمِ التَّامِّ علىٰ وجهٍ مُعجِزٍ من وجوهٍ شتَّىٰ،

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٨٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٥٥).

أَنتَجَ قولَه مُرغِّبًا مُرهِّبًا خاتمًا السُّورةَ بما بدأ هنا به مِن ذِكْرِه ﷺ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾(١).

استئنافٌ ابتدائيٌّ أو فَذْلَكةٌ لِما تقدَّم علىٰ اختلافِ الاعتبارينِ في مرجعِ اسمِ الإشارةِ، فإنْ جعلتَ اسمَ الإشارةِ راجعًا إلىٰ القرآنِ فإنَّه لحضورِه في الأذهانِ ينزلُ منزلةَ شيءٍ محسوسٍ حاضرٍ بحيثُ يُشارُ إليه، فالكلامُ انتقالٌ اقتضابيٌّ تَنْهِيَةً لِما قبلَه وابتداءً لِما بعدُ، والكلامُ مُوجَّهٌ إلىٰ المخاطَبين بمعظمِ ما في هذه السورةِ؛ فلذلك اقتصر علىٰ وصفِ الكلامِ بأنَّه نذيرٌ(٢).

﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾

ولـمَّا كان كلُّ آتٍ قريبًا، وكانت السَّاعةُ -وهي ما أنذر به من القيامةِ وممَّا دونَها- لا بدَّ من إتيانِها لِما وقع من الوعدِ الصَّادقِ به المتحف بالدَّلائلِ التي لا تقبلُ شكًّا بوجهٍ من الوجوهِ، فكان باعتبارِ ذلك لا شيءَ أقربُ منها؛ قال دالًّا علىٰ ذلك بصيغةِ الماضي الذي قد تحقَّق وقوعُه وباشتقاقِ الواقعِ الفاعلِ ممَّا منه الفعلُ: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾(٣).

تتنزَّلُ هذه الجملةُ من التي قبلَها منزلةَ البيانِ للإنذارِ الذي تَضمَّنَه قولُه: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾(٤).

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾

ولـمَّا ضاقَ الخِناقُ من ذِكْرِها علىٰ هذا الوجهِ، تشوَّف السَّامعُ إلىٰ دفعِها، فاستأنف قولَه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٨١).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٥٧).
(٣) نظم الدرر (١٩/ ٨١).
(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٥٨).
(٥) نظم الدرر (١٩/ ٨٢).

جملةُ ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ مستأنفةٌ بيانيَّةٌ، أو صفةٌ لـ﴿ٱلۡأٓزِفَةُ﴾[(١)].

﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ۝٥٩﴾

ولمَّا أَفهَمَ هذا أنَّ اللهَ يكشفُها؛ أي: يكشفُ كَرْبَها ممَّن يريدُ من عبادِه ويُثقِّلُه على مَن يشاءُ، ويكشفُ علمَها بإقامتِها، ولا حِيلةَ لغيرِه في شيءٍ من ذلك بوجهٍ؛ سبَّب عنه وعمَّا تَقدَّمه من الإنذارِ قولَه مُنكِرًا مُوبِّخًا: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ﴾[(٢)].

ثم وبَّخهم اللهُ سبحانه، فقال: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ﴾[(٣)].

ثم تَوعَّد المُنكِرين لرسالةِ الرسولِ محمدٍ ﷺ، المكذِّبين لِما جاء به من القرآنِ الكريمِ، فقال: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ﴾[(٤)].

﴿وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ۝٦٠﴾

ولمَّا كان المُعجَبُ قد يُمسِكُ نفسَه عن الضَّحكِ، بيَّن أنَّهم ليسوا كذلك، فقال: ﴿وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ﴾[(٥)].

﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾

ولمَّا كان البكاءُ قد يكونُ على التَّقصيرِ في العملِ، بيَّن أنَّ الأمرَ أخطرُ من ذلك، فقال: ﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ﴾[(٦)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٥٩).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٨٢).

(٣) فتح القدير (٥/ ١٤٢).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٨٢٣).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ٨٢).

(٦) نظم الدرر (١٩/ ٨٣).

﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾

ولمَّا حثَّ على السُّمُودِ، فسَّره مُسبِّبًا عن الاستفهامِ ومدخولِه قولَه: ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾(١).

تفريعٌ على الإنكارِ والتَّوبيخِ المُفرَّعَينِ على الإنذارِ بالوعيدِ، فرَّع عليه أمرَهم بالسُّجودِ للهِ؛ لأنَّ ذلك التَّوبيخَ من شأنِه أن يعمقَ في قلوبِهم فيَكُفَّهم عمَّا هم فيه من البَطَرِ والاستخفافِ بالدَّاعي إلى اللهِ، ومقتضى تناسقِ الضَّمائرِ أنَّ الخطابَ في قولِه: ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾(٢).

لمَّا وبَّخ سبحانه المشركين على الاستهزاءِ بالقرآنِ والضَّحكِ منه والسُّخريَّةِ به وعدمِ الانتفاعِ بمواعظِه وزواجرِه؛ أمر عبادَه المؤمنين بالسُّجودِ للهِ والعبادةِ له(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٦١).

(٣) فتح القدير (٥/ ١٤٢).

سُورَةُ القَمَرِ

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فأَعرَضَ الكفارُ عن آيةِ انشقاقِه، وقالوا: سِحرٌ، مع علمِهم بأنَّه دالٌّ قطعًا علىٰ صدقِ مَن انشَقَّ لتصديقِه؛ عطَف عليه الإعلامَ بحالِهم في المستقبلِ، فطمًا لمن يطلبُ من المؤمنين إجابةَ مُقترَحٍ من مُقترَحاتِهم رجاءَ إيمانِهم، فقال: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[1].

يجوزُ أن يكونَ تذييلًا للإخبارِ بانشقاقِ القمرِ، ويجوزُ أن يكونَ كلامًا مُستأنَفًا من ذِكْرِ أحوالِ تكذيبِهم ومُكابرَتِهم، وعلىٰ كلا الوجهينِ فإنَّ وقوعَ ﴿ءَايَةً﴾ وهو نكرةٌ في سياقِ الشَّرطِ يفيدُ العمومَ[2].

﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾

ولمَّا فطم عن التَّشوُّفِ إلىٰ إجابتِهم في المقترحاتِ علىٰ ما قدَّرتُه، تسبَّب منهم عن الانشقاقِ بقولِه: ﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾[3].

هذا إخبارٌ عن حالِهم فيما مضىٰ، بعدَ أن أَخبَرَ عن حالِهم في المستقبلِ بالشَّرطِ الذي في قولِه: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ ﴾، ومقابلةُ ذلك بهذا فيه شِبهُ احتباكٍ، كأنَّه قيل:

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٩٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٧١).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٩٦).

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ ﴾، وقد رأَوُا الآياتِ وأعرضوا وقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾، وسيكذبون ويتَّبِعون أهواءَهم[(١)].

ثم ذكَر سبحانه تكذيبَهم، فقال: ﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾[(٢)].

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ ﴾

ولـمَّا حذَّر وبشَّر، قال مُعلِمًا أنَّه مُحِيطُ العلمِ بأمرِهم من قبلِ الإجابةِ إلىٰ شقِّ القمرِ، وأنَّه ما شَقَّه لطمعٍ في إيمانِهم، بل للإعلامِ بخذلانِهم، مُؤكِّدًا لمن يتعلَّقُ رجاؤه بأنَّ تَواتُرَ الآياتِ ربما أَوجَبَ لهم التَّصديقَ المتضمِّن لأنَّ ما جاءهم ليس فيه كفايةٌ: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾[(٣)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾؛ أي: جاءهم في القرآنِ من أنباءِ الأُمَمِ ما فيه مُزدَجرٌ لهؤلاء، أو أُرِيدَ بـ﴿ٱلْأَنۢبَآءِ﴾: الحُجَجُ الواردةُ في القرآنِ؛ أي: جاءهم ما هو أشدُّ في الحُجَّةِ من انشقاقِ القمرِ[(٤)].

﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ ﴾

ولـمَّا كان ما فيه ذلك قد لا يكونُ مُحكَمًا، بيَّنه بقولِه: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٧٢).

(٢) فتح القدير (٥/ ١٤٦).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ٩٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٧٤).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ٩٨).

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾

ولمَّا كان ﷺ شديدَ التَّعلُّقِ بطلبِ نجاتِهم، فهو لذلك ربما اشتهى إجابتَهم إلى مُقترَحاتِهم؛ سبَّب عن ذلك قولَه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾(1).

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ﴾ تفريعٌ على ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾؛ أي: أَعرِضْ عن مُجادَلتِهم، فإنَّهم لا تُفِيدُهم النُّذُرُ، وهذه تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ، وتطمينٌ له بأنَّه ما قصَّر في أداءِ الرِّسالةِ(2).

ثم أمره سبحانه بالإعراضِ عنهم، فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾(3).

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾

ولمَّا بيَّن دعاءَه بما هالَ أمرَه، بيَّن حالَ المَدعُوِّين زيادةً في الهَوْلِ، فقال: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾(4).

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾

ولمَّا كان الانتشارُ قد يكونُ وجهَ المهلِ والوقارِ، قال مُبيِّنًا أنَّ الأمرَ على خلافِ ذلك؛ زيادةً في هَوْلِ ذلك اليومِ، وتقريرًا لِما تقدَّم من وصفِه: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾(5).

---

(1) نظم الدرر (١٩/ ٩٩).

(2) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٧٦).

(3) فتح القدير (٥/ ١٤٦).

(4) نظم الدرر (١٩/ ١٠٠).

(5) نظم الدرر (١٩/ ١٠١).

﴿ ۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩ ﴾

ولمَّا تقدَّم أمرُه سبحانه لنبيِّه ﷺ بالتَّولِّي عنهم تهديدًا لهم، وصرَّح بما أراد من أمرِ السَّاعةِ لما دعا إلىٰ ذلك من تقدم ذكرها، ولأنَّها أشدُّ هَوْلٍ يُهدَّدون به، وبيانًا أنَّ الخلقَ ما خُلق إلَّا لأجلِها؛ لأنَّها محطُّ الحكمةِ، وختَم بعُسْرِها علىٰ الكافرين؛ تمَّم ذلك التَّهديدَ بعذابِ الدنيا؛ ردعًا لأهلِ الغِلْظةِ المُوكَّلين بالمحسوساتِ، فذكَر عُسْرَ يومٍ كان علىٰ الكافرين فيها، فقال مُهدِّدًا لقريشٍ بجعلِ القِصَّةِ مَثَلًا لهم في إهلاكِهم وفي أمرِ السَّاعةِ من حيثُ إنَّه كما أَهلَكَ أهلَ الأرضِ في آنٍ واحدٍ بما أَرسَلَه من الماءِ فهو قادرٌ علىٰ أن يُهلِكَهم في آنٍ واحدٍ بالصَّيحةِ، وكما صرَّف هذا التَّصريفَ الذي ما سُمع بمِثْلِه في الإهلاكِ فهو قادرٌ علىٰ أن يُصرِّفَه في الإحياءِ عندَ البعثِ علىٰ وجهٍ ما عُهد مِثْلُه تَنبُتُ فيه الأجسادُ وتحيا فيه العبادُ، جوابًا لمن كأنَّه قال: هذا ما يُوعَدونه بعدَ الموتِ، فهل لهم عذابٌ قبلَه دالٌّ علىٰ كمالِ القدرةِ: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾[1].

استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ﴾، فإنَّ من أشهرِها تكذيبَ قومِ نوحٍ رسولَهم، وسبق الإنباء به في القرآنِ في السُّورِ النَّازلةِ قبلَ هذه السورةِ، فالمقصودُ النَّعيُ عليهم عدمَ ازدجارِهم بما جاءهم من الأنباءِ بتَعْدادِ بعضِ المُهِمِّ من تلك الأنباءِ[2].

شُرُوعٌ في تَعْدادِ بعضِ ما ذُكر من الأنباءِ المُوجِبةِ للازدجارِ، ونوعُ تفصيلٍ لها، وبيانٌ لعدمِ تأثُّرِهم بها تقريرًا لفحوىٰ قولِه تعالىٰ: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ٥﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٠١-١٠٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٧٩).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٦٩).

ثم ذكَر سبحانه تفصيلَ بعضٍ ما تقدَّم من الأنباءِ المُجمَلةِ، فقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾(١).

لمَّا ذكَر تبارك وتعالىٰ حالَ المكذِّبين لرسولِه، وأنَّ الآياتِ لا تنفعُ فيهم، ولا تُجدِي عليهم شيئًا؛ أنذَرهم وخوَّفَهم بعقوباتِ الأُمَمِ الماضيةِ المُكذِّبةِ للرُّسلِ، وكيف أهلَكَهم اللهُ وأَحَلَّ بهم عقابَه، فذكر قومَ نوحٍ، أوَّلِ رسولٍ بعثه اللهُ إلىٰ قومٍ يعبدون الأصنامَ، فدعاهم إلىٰ توحيدِ اللهِ وعبادتِه وحدَه لا شريكَ له، فامتنَعوا من تركِ الشِّركِ(٢).

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾

ولمَّا طال ذلك منهم، ومضَتْ عليه أجيالُهم جيلًا بعدَ جيلٍ حتىٰ مضىٰ له من إنذارِهم أكثرُ ممَّا مضىٰ من الزَّمانِ لأُمَّةِ هذا النبيِّ الخاتمِ إلىٰ يومِنا هذا، وأَخبَره اللهُ أنَّه لن يؤمنَ منهم إلَّا مَن قد آمن معَه؛ تسبَّب عن ذلك الدعاءُ بالرَّاحةِ منهم؛ فلذلك قال صارفًا وجهَ الخطابِ إلىٰ صفةِ الإحسانِ والرُّبوبيَّةِ والامتنانِ إيذانًا بأنَّه أجابَ دعاءَه ولبَّىٰ نداءَه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾(٣).

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ ترتيبًا في غايةِ الحُسْنِ؛ لأنَّهم لمَّا زجَروه، وانزجَر هو عن دعائِهم؛ دعا ربَّه أنِّي مغلوبٌ(٤).

لمَّا أَيِسَ من إجابتِهم، وعلم تمرُّدَهم وعُتُوَّهم وإصرارَهم علىٰ ضلالتِهم؛ طلب من ربِّه سبحانه النُّصرةَ عليهم، فقال: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾(٥).

---

(١) فتح القدير (٥/ ١٤٧).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٨٢٥).
(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٠٣-١٠٤).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٢٩٥).
(٥) فتح القدير (٥/ ١٤٨).

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ١١ ﴾

ولمَّا استجاب له سبحانه، سبَّب عن دعائِه قولَه، عائدًا إلىٰ مظهرِ العَظَمةِ إعلامًا بمزيدِ الغضبِ المُوجِبِ دائمًا للاستيعابِ بالغضبِ: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾[(١)].

ثم أشار إلىٰ استجابتِه تعالىٰ دعاءَه، بالطُّوفانِ الذي هلكوا فيه، بقولِه سبحانه: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾[(٢)].

فأجابَ اللهُ سؤالَه، وانتصَر له من قومِه، قال تعالىٰ: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾[(٣)].

﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ١٢ ﴾

ثم أشار إلىٰ تفجُّرِ الأرضِ بعدَ فتحِ السَّماءِ، فقال: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾.

﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ١٣ ﴾

ولمَّا ذكَر ما عُلم منه بقرينةِ ما ذُكر من خرقِه للعادةِ، وأنَّ إجابتَه لدعوتِه عليه السلام؛ ذكر تمامَ الانتصارِ بنجاتِهنَّ، فقال: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾[(٤)].

﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ ﴾

ولمَّا كان ذلك خارقًا للعادةِ، فكان يمكنُ أن يكونَ في السَّفينةِ خارقٌ آخرُ بإسكانِها علىٰ ظهرِ الماءِ من غيرِ حركةٍ؛ بيَّن أنَّ الأمرَ ليس كذلك، فقال مُظهِرًا خارقًا آخرَ في جريِها: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٠٤).
(٢) محاسن التأويل (٩/ ٩١).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٢٥).
(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٠٥).
(٥) نظم الدرر (١٩/ ١٠٦).

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾

ولمَّا تَمَّ الخبرُ عن نجاتِه بحملِه فيها، نبَّه عن آثارِها بقولِه: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾(١).

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾

ولمَّا قدَّم تعالىٰ قولَه: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾، وأَتبعَه ذِكرَ إهلاكِه المكذِّبين، وكان ما ذكره من شأنِهم أمرَهم في الجلالةِ والعَظَمةِ بحيث يَحِقُّ للسَّامعِ أن يسألَ عنه ويتعرَّفَ أحوالَه ليهتديَ بها علىٰ ذلك، بقوله مُسبِّبًا عن التَّذكيرِ باستفهامِ الإنكارِ والتَّوبيخِ: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾(٢).

تفريعٌ علىٰ القصَّةِ بما تَضمَّنَتْه من قولِه: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ إلىٰ آخِره، وكيف للاستفهامِ عن حالةِ العذابِ، وهو عذابُ قومِ نوحٍ بالطُّوفانِ، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ من شِدَّةِ هذا العذابِ الموصوفِ، والجملةُ في معنىٰ التَّذييلِ، وهو تعريضٌ بتهديدِ المشركين أن يُصِيبَهم عذابٌ جزاءَ تكذيبِهم الرسولَ ﷺ وإعراضِهم وأذاهم كما أصابَ قومَ نوحٍ(٣).

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا التَّفصيلُ ممَّا أُنزِلَ أوَّلَ القرآنِ تيسيرًا علىٰ الأُمَّةِ، نبَّه علىٰ ذلك بقولِه: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٠٦).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٠٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٨٧).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٠٧-١٠٨).

لمَّا كانت هذه النِّذارةُ بلغت بالقرآنِ والمشركون مُعرِضون عن استماعِه، حارِمينَ أنفسَهم من فوائدِه؛ ذيَّل خبرَها بتنويهِ شأنِ القرآنِ بأنَّه من عندِ اللهِ، وأنَّ اللهَ يسَّره وسهَّله لتذكر الخلق بما يحتاجونه من التَّذكيرِ ممَّا هو هدًىٰ وإرشادٌ، وهذا التَّيسيرُ يُنبِئُ بعنايةِ اللهِ به، تبصرةً للمسلمين ليزدادوا إقبالًا علىٰ مدارستِه، وتعريضًا بالمشركين عسىٰ أن يَرْعَوُوا عن صدودِهم عنه(١).

أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا ذُكِّرَ بحالِ نوحٍ عليه السلام، وكان له معجزةٌ؛ قيل له: إنَّ معجزتَك القرآنُ، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(٢).

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٨﴾

ولمَّا انقضَتْ قصَّةُ نوحٍ عليه السلام علىٰ هذا الهَوْلِ العظيمِ، كان ذلك مُوجِبًا للسَّامعِ أن يَظُنَّ أنَّه لا يُقصِّرْ أحدٌ بعدَهم وإنْ لم يرسلْ برسولٍ فكيف إذا أرسل؟ فتشوَّف إلىٰ علمِ ما كان بعدَه هل كان كما ظنَّ أم رجع النَّاسُ إلىٰ طباعِهم؟ وكانت قصَّةُ عادٍ أعظمَ قصَّةٍ جَرَتْ بعدَ قومِ نوحٍ عليه السلام فيما يعرفُه العربُ، فيَصلُحُ أن يكونَ واعظًا لهم، وكان عذابُهم بالرِّيحِ التي أَهلَكَتْهم ونسَفتْ جبالَهم التي كانت في محالِّهم من الرِّمالِ المتراكمةِ، فنقلها إلىٰ أَمكِنَةٍ أخرىٰ أقرب دليلٍ إلىٰ أنَّه تعالىٰ يُسيِّرُ الجبالَ يومَ الدِّينِ، هذا إلىٰ ما في وصفِها الخارجِ عن العوائدِ من تصويرِ النَّفخِ في الصُّورِ تارةً للقيامةِ وتارةً للأحياءِ، فأُجيبَ بقولِه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾(٣).

شروعٌ في قصَّةٍ أخرىٰ، ولم تُعطَفْ -وكذا ما بعدَها من القصصِ- إشارةً إلىٰ أنَّ كلَّ قصَّةٍ مُستقِلَّةٌ في القصدِ والاتِّعاظِ، ولمَّا لم يكنْ لقومِ نوحٍ اسمٌ عَلَمٌ، ذُكروا بعنوانِ الإضافةِ، ولمَّا كان لقومِ هودٍ عَلَمٌ -وهو عادٌ-، ذُكروا به لأنَّه أبلغُ في التَّعريفِ(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٨٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٠٠).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١١٣-١١٤).

(٤) روح المعاني (١٤/ ٨٣).

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر تكذيبَهم، وأَعقبَه تعذيبَهم؛ علم السَّامعُ أنَّه شديدُ العَظَمةِ، فاستمطَر أن يعرفَه، فاستأنف قولَه، مُؤكِّدًا تنبيهًا علىٰ أنَّ قريشًا أفعالُهم في التَّكذيبِ كأفعالِهم كأنَّهم يُكذِّبون بعذابِهم: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾[1].

جملةُ ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ إلخ، بيانٌ للإجمالِ الذي في قولِه: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾، وهو في صورةِ جوابِ الاستفهامِ الصُّوريِّ، وكلتا الجملتينِ يفيدُ تعريضًا بتهديدِ المشركين بعذابٍ علىٰ تكذيبِهم[2].

هذه الجملةُ مُبيِّنةٌ لِما أَجمَلَه سابقًا من العذابِ[3].

﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

ولمَّا عُلم وصفُها في ذاتِها، أَتبعَه وصفَها بما يفعلُ فيه، فقال: ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾[4].

ثم ذكر ما فعلت بهم هذه الرِّيحُ الصَّرصَرُ، فقال: ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ ﴾

ولمَّا طابَق ما أَخبَرَ به من عذابِهم ما هوَّلَه به أوَّلًا، أكَّد ذلك لِما تَقدَّم من سِرِّه، فقال مُسبِّبًا عنه مُشيرًا إلىٰ أنَّه لشِدَّةِ هَوْلِه ممَّا يجبُ السُّؤالُ عنه: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾[5].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١١٤).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٩٢).
(٣) فتح القدير (٥/ ١٥٠).
(٤) نظم الدرر (١٩/ ١١٥).
(٥) نظم الدرر (١٩/ ١١٦).

تكريرٌ لنظيرِه السَّابقِ عَقِبَ قصَّةِ قومِ نوحٍ؛ لأنَّ مقامَ التَّهويلِ والتَّهديدِ يقتضي تكريرَ ما يُفِيدُهما(١).

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

ولمَّا أتمَّ سبحانه تحذيرَه من مِثْلِ حالِهم بأمرِ ناظرٍ أتمَّ نظرٍ إلىٰ تدبيرِ ما في سورةِ «الذَّارياتِ»، أَتبَعَ ذلك التنبيهَ علىٰ أنَّه ينبغي للسَّامعِ أن يتوقَّعَ الحثَّ علىٰ ذلك، فقال مُؤكِّدًا لِما لأكثرِ السَّامعين من التَّكذيبِ بالقالِ أو بالحالِ، مُعلِمًا أنَّه سهَّل طريقَ الفرارِ من مِثْلِ هذه الفِتَنِ الكبارِ إليه، وسوىٰ من الاعتمادِ عليه، عائدًا إلىٰ مظهرِ العَظَمةِ إيذانًا بأنَّ تيسيرَ القرآنِ لِما ذُكر من إعجازِه لا يكونُ إلَّا لعَظَمةٍ تفوتُ قوىٰ البشرِ، وتَعجِزُ عنها القدرةُ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾(٢).

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا موضعَ الإقبالِ علىٰ تدبُّرِ مواعظِ القرآنِ، وكان ثمودُ أعظمَ وعظٍ كان بعدَ عادٍ؛ لِما في صَيْحَتِهم الخارجةِ عن العهودِ من تصويرِ السَّاعةِ بنفختَيْها المُميتةِ ثم المُحيِيةِ، وقال مُؤنِّثًا فعلَهم إشارةً إلىٰ سفولِ هِمَمِهم وسفولِ فعلِهم، مُعلِمًا أنَّ مَن كذَّب هلَك -علىٰ طريقِ الجوابِ لِمَنْ لعلَّه يقولُ استبعادًا لتكذيبٍ بعدَ ما جرىٰ في القِصَّتينِ الماضيتينِ من التَّعذيبِ: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴾(٣).

ثم لمَّا ذكَر سبحانه تكذيبَ عادٍ، أَتبعَه بتكذيبِ ثمودَ، فقال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٩٥).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ١١٦).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١١٧).

(٤) فتح القدير (٥/ ١٥١).

﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤ ﴾

ثم علَّل ذلك وعقَّبه بقولِه، مُعلِمًا بالضَّميرِ أنَّ المُباشِرَ بهذا الكفرِ رجالُهم لئلَّا يُظَنَّ أنَّهم نساءٌ فقط: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴾[(١)].

هذا قولٌ قالوه لرسولِهم لمَّا أنذَرَهم بالنُّذُرِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿ كَذَّبَتۡ ﴾ يومَئذٍ بمخبر إذ التَّكذيبُ يقتضي وجودَ مخبرٍ، وهو كلامٌ شافَهوا به صالحًا، وهو الذي عَنَوْه بقولِهم: ﴿ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴾، وفصَّل تكذيبَ ثمودَ وأَجمَلَ تكذيبَ عادٍ لقصدِ بيانِ المشابهةِ بينَ تكذيبِهم ثمودَ وتكذيبِ قريشٍ إذ تَشابَهَتْ أقوالُهم[(٢)].

فكذَّبوه واستكبَروا عليه، ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴾[(٣)].

﴿ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ٢٥ ﴾

ولمَّا كان فيما قالوه أعظمُ تكذيبٍ مدلولٍ على صِحَّتِه في زعمِهم بما أَومَؤُوا إليه من كونِه آدميًّا مِثلَهم، وهو مع ذلك واحدٌ من آحادِهم، فليس هو بأَمْثَلِهم، وهو منفردٌ فلم يتأيَّدْ فِكرُه بفِكرِ غيرِه حتىٰ يكونَ موضعَ الوثوقِ به؛ دلُّوا عليه بأمرٍ آخرَ ساقوه أيضًا مساقَ الإنكارِ، وأَومَؤُوا بالإلقاءِ إلىٰ أنَّه في إسراعِه كأنَّه سقط من علوٍ، فقالوا: ﴿ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴾[(٤)].

ثم كرَّروا الإنكارَ والاستبعادَ، فقالوا: ﴿ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴾[(٥)].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١١٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٩٦).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٢٦).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ١١٨).

(٥) فتح القدير (٥/ ١٥١).

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا غايةَ الذَّمِّ لمن يَستحِقُّ منهم غايةَ المدحِ، أجابَ تعالىٰ عنه؛ موعظةً لعبادِه لئلَّا يتقوَّلوا ما يعلمون بطلانَه، أو يقولوا ما لا يعلمون صِحَّتَه، بقولِه: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾[(١)].

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ مَقُولُ قولٍ محذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ، تقديرُه: قلنا لنذيرِهم الذي دلَّ عليه قولُه: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ﴾، فإنَّ النُّذُرَ تقتضي نذيرًا بها، وهو المُناسِبُ لقولِه بعدَه: ﴿ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾، وذلك مبنيٌّ علىٰ أنَّ قولَه آنفًا: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ ﴾ كلامٌ أجابوا به نذارةَ صالحٍ إيَّاهم المقدَّرةَ من قولِه تعالىٰ: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ﴾، وبذلك انتظم الكلامُ أتمَّ انتظامٍ[(٢)].

ثم أجابَ سبحانه عليهم بقولِه: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾[(٣)].

﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾

ولمَّا عُلم من هذا أنَّه سبحانه فصَّل الأمرَ بينَهم، تشوَّف السَّامعُ إلىٰ علمِ ذلك، فقال تعالىٰ مُستأنِفًا دالًّا بأنَّهم طالَبوه بآيةٍ دالَّةٍ علىٰ صدقِه: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴾[(٤)].

هذه الجملةُ بيانٌ لجملةِ ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ باعتبارِ ما تَضمَّنَتْه الجملةُ المُبيَّنَةِ (بفتحِ الياءِ) من الوعيدِ وتقريبِ زمانِه، وإنَّ فيه تصديقَ الرسولِ الذي كذَّبوه،

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١١٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٩٨).

(٣) فتح القدير (٥/ ١٥٢).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٢٠).

وإرسال النَّاقةِ إشارة إلىٰ قصَّةِ معجزةِ صالحٍ أنَّه أخرج لهم ناقةً من صخرةٍ، وكانت تلك المعجزةُ مُقدِّمةَ الأسبابِ التي عُجِّلَ لهم العذابُ لأجلِها، فذكر هذه القِصَّةِ في جملةِ البيانِ توطئةً وتمهيدًا(١).

استئنافٌ مَسُوقٌ لبيانِ مبادي الموعودِ حتمًا(٢).

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾

جملةُ ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ معطوفةٌ علىٰ جملةِ ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ باعتبارِ أنَّ الوعدَ بخلقِ آيةِ النَّاقةِ يقتضي كلامًا محذوفًا، تقديرُه: فأَرسَلْنا لهم النَّاقةَ، وقلنا: نبِّئْهم ﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾(٣).

ثم أمره تعالىٰ أن يُخبِرَ ثمودَ بأنَّ الماءَ قِسْمةٌ بينَهم يتساوون في اليومِ الذي لا تَرِدُه النَّاقةُ فيه، وذلك أنَّ النَّاقةَ كانت تَرِدُ البئرَ غِبًّا، وتحتاجُ جميعَ مائِه يومَها، فنهاهم اللهُ تعالىٰ عن أن يستأثرَ أهلُ اليومِ الذي لا تَرِدُ النَّاقةُ فيه بيومِهم، وأمرهم بالتَّساوي مع الذين تَرِدُ النَّاقةُ في يومِهم(٤).

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فكان الأمرُ كما ذكَرْنا، واستَمَرَّ الأَمَدُ الذي ضرَبْنا، فافتتنوا كما أَخبَرْنا، فسبَّب عن ذلك قولَه: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٩٩).

(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٧٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٠٠).

(٤) المحرر الوجيز (٥/ ٢١٨).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ١٢١).

ثم أشار تعالىٰ إلىٰ عُتُوِّهم عن أمرِ ربِّهم بقولِه: ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾[(١)].

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ ﴾

ولمَّا وقع كذبُهم علىٰ هذا الوجهِ العظيمِ المبنيِّ علىٰ غايةِ الأَشَرِ، حقَّق اللهُ تعالىٰ صدقَه في توعُّدِهم علىٰ تقديرِ وقوعِ ذلك، فأوقع عذابَهم سبحانه علىٰ وجهٍ هو من عِظَمِه أهلٌ لأن يتساءلَ عنه، فنبَّه سبحانه علىٰ عَظَمةٍ بإيرادِه في أسلوبِ الاستفهامِ مُسبِّبًا عن فعلِ الأشقىٰ، فقال: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾[(٢)].

القولُ فيه كالقولِ في نظيرِه الواقعِ في قصَّةِ قومِ نوحٍ، فليس هو تكريرًا، ولكنَّه خاصٌّ بهذه القصَّةِ[(٣)].

هذه الآيةُ ذكَرها في ثلاثةِ مواضعَ: ذكَرها في حكايةِ نوحٍ بعدَ بيانِ العذابِ، وذكَرها ها هنا قبلَ بيانِ العذابِ، وذكَرها في حكايةِ عادٍ قبلَ بيانِه، فحيثُ ذكر قبلَ بيانِ العذابِ ذكَرها للبيانِ[(٤)].

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾

ولمَّا عُلم تفرُّغُ ذِهْنِ السَّائلِ الواعي، استأنف قولَه مُؤكِّدًا إشارةً إلىٰ أنَّ عذابَهم ممَّا يستلذُّ وينجحُ به، وإرغامًا لمن يستبعدُ الصَّيحةَ الواحدةَ بفعلِ مِثْلِ ذلك، وإعلامًا بأنَّ القدرةَ علىٰ عذابِ مَن كذَّب من غيرِهم كهي علىٰ عذابِهم، فلا معنىٰ للتَّكذيبِ: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾[(٥)].

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٩٣).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٢٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٠٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣١١).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ١٢٢).

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ جـواب قولـه: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾(١).

ثـم بـيَّن مـا أجملَـه مـن العـذابِ، فقـال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾(٢).

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٣٢﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فلقد أَبلَغْنا في الموعظةِ لكلِّ مَن يسمعُ هذه القصَّةَ، عطَف عليه قولَه مُؤكِّدًا لأجلِ مَن يُعرِضُ عن هذا القرآنِ ويُعلِّلُ إعراضَه عنه بصعوبتِه: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾(٣).

تكريرٌ ثانٍ بعدَ نظيرَيْهِ السَّالفينِ في قصَّةِ قومِ نوحٍ وقصَّةِ عادٍ تذييلًا لهذه القصَّةِ كما ذُيِّلَتْ بنظيرَيْهِ القصَّتانِ السَّالفتانِ، اقتضىٰ التَّكريرَ مقامُ الامتنانِ والحثِّ علىٰ التَّدبُّرِ بالقرآنِ؛ لأنَّ التَّدبُّرَ فيه يأتي بتجنُّبِ الضَّلالِ، ويُرشِدُ إلىٰ مسالكِ الاهتداءِ(٤).

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣﴾

ولمَّا كان النَّذيرُ: كأنَّه قال المنذرين لم يتَّعِظوا به، فزادَ في وعظِهم، وكانت قصَّةُ لوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومِه أعظمَ ما كان بعدَ ثمودَ ممَّا تعرفُه العربُ بالأخبارِ ورؤيةِ الآثارِ، ومعَ ما في قصَّتِهم من تصويرِ السَّاعةِ من تبديلِ الأرضِ غيرَ الأرضِ؛ استأنف قولَه: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ﴾(٥).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٠٢).
(٢) فتح القدير (٥/ ١٥٣).
(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٢٣).
(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٠٣).
(٥) نظم الدرر (١٩/ ١٢٣).

ولم يُحْكَ هنا ما تلقَّىٰ به قومُ لوطٍ دعوةَ لوطٍ كما حُكي في القصصِ الثَّلاثِ قبلَ هذه، وقد حُكي ذلك في سورةِ «الأعرافِ» وفي سورةِ «هودٍ» وفي سورةِ «الحِجْرِ»؛ لأنَّ سورةَ «القمر» بُنِيَتْ علىٰ تهديدِ المشركين عن إعراضِهم عن الاتِّعاظِ بآياتِ اللهِ التي شاهَدوها وآثار آياتِه علىٰ الأُمَمِ الماضيةِ التي علموا أخبارَها وشهدوا آثارَها، فلم يكنْ ثمَّةَ مُقتَضٍ لتفصيلِ أقوالِ تلك الأُمَمِ إلَّا ما كان منها مُشابِهًا لأقوالِ المشركين في تفصيلِه، ولم تكنْ أقوالُ قومِ لوطٍ بتلك المثابةِ؛ فلذلك اقتصر فيها علىٰ حكايةِ ما هو مُشتركٌ بينَهم وبينَ المشركين؛ وهو تكذيبُ رسولِهم، وإعراضُهم عن نُذُرِه[1].

ثم بيَّن حالَ قومٍ آخرين؛ وهم قومُ لوطٍ، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ﴾[2].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾

ودَلَّ علىٰ تَناهِي القباحةِ في مرتكبِهم بتقديمِ الإخبارِ عن عذابِهم، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾[3].

ثم بيَّن عذابَهم وإهلاكَهم، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾[4].

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾

ولمَّا كان المرادُ من الموعظين الطَّاعةَ التي هي سببُ النَّجاةِ؛ فلذا قال ذاكرًا للإنعامِ، مُعبرًا عنه بغايةِ المقصودِ منه، مُعرِّفًا أنَّ انتقامَه عدلٌ ومُعافاتَه فضلٌ؛ لأنَّ أحدًا لا

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٠٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣١٢).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٢٤).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣١٢).

يقـدرُ أن يُكـافِئَ نِعَمَـه ولا نعمـةً منهـا، مُعلِّـلًا للنَّجـاةِ: ﴿ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴾(١).

﴿ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ٣٦ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ دفعًا لعناد ... استشراف السَّامعِ إلىٰ ما كـان مـن حالِـه ﷺ معَهـم قبلَ العذابِ: لقد بالَغ في شُكْرِنا بوعظِهم ونُصْحِهم ودعائِهم إلينا صرفًا لِما أَنعَمْنا به عليه من الرِّسالةِ في أتمِّ مواضعِه؛ عطَف عليه إيماءً إليه قولَه مُؤكِّدًا لأنَّ تمادِيَ المحذورِ من العذابِ علىٰ الإقامةِ في مُوجِبه يكادُ أن لا يُصدَّقَ: ﴿ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴾(٢).

فيه تبرئةُ لوطٍ ﷺ، وبيانُ أنَّه أتىٰ بما عليه فإنَّه تعالىٰ لمَّا رتَّب التَّعذيبَ علىٰ التَّكذيبِ، وكان من الرَّحمةِ أن يُؤخِّرَه ويُقدِّمَ عليه الإنذاراتِ البالغةَ بينَ ذلك، فقال: أَهلَكْناهم وكان قد أَنذَرَهم من قبلُ(٣).

﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧ ﴾

ولمَّا كان تركُ الاحتياطِ في إعمالِ الحِيلةِ في وجهِ الخلاصِ من إنذارِ النَّذيرِ عظيمَ العراقةِ في السَّفَهِ؛ دَلَّ علىٰ أنَّهم تَجاوَزوا ذلك إلىٰ انتهاكِ حُرْمةِ النَّذيرِ، فقال مُقسِمًا لأنَّ مِثلَ ذلك لا يكادُ يقعُ فلا يُصدَّقُ مَن حكاه: ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾(٤).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٢٤-١٢٥).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٢٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣١٥).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٢٦).

﴿ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ٣٨ ﴾

ولمَّا كان بقاؤُهم بعدَ هذا على حالِ كفرِهم عجبًا؛ إذ العادةُ قاضيةٌ بأنَّ مَن أخذ ارعوَى ولو كان أفجرَ الخلقِ، وسأل العفوَ عنه صدقًا أو كذبًا، خداعًا ومكرًا ليخلصَ ممَّا هو فيه ... بثباتِهم على تكذيبِهم حتى عُذِّبوا على قُرْبِ العهدِ، فقال مُقسِمًا: ﴿ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ﴾[1].

﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٩ ﴾

ثم قال لهم لسانُ الحالِ إنْ لم ينطلقْ لسانُ القالِ: ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾[2].

حكايةٌ لِما قيل حينئذٍ من جهتِه تعالى تشديدًا للعذابِ[3].

﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٤٠ ﴾

ولمَّا كرَّر هذا التَّكريرَ، عُلم منه أنَّ سببَ العذابِ التَّكذيبُ بالإنذارِ لأيِّ رسولٍ كان، وكان استئنافُ كلِّ قصَّةٍ مُنبِّهًا على أنَّها أهلٌ على حِدَتِها لأنْ يَتَّعِظَ بها؛ عُلم أنَّ التقديرَ: فلقد بلَغتْ هذه المواعظُ النِّهايةَ لمن كان له قلبٌ، فعطف عليه قولَه مُذكِّرًا بالنِّعمةِ التي لا عدلَ لها: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾[4].

تكريرٌ ثالثٌ تنويهًا بشأنِ القرآنِ للخصوصيَّةِ التي تَقدَّمتْ في المواضعِ التي كُرِّرَ فيها نظيرُه وما يُقارِبُه؛ وخاصَّةً في نظيرِه المُوالِي هو له، ولم يُذكَرْ هنا ﴿ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ اكتفاءً بحكايةِ التَّنكيلِ لقومِ لوطٍ في التَّعريضِ بتهديدِ المشركين[5].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٢٧).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٢٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٧٣).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٢٨).

(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٠٧).

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١﴾

ولمَّا كان الآخرُ ينبغي له أن يحذرَ ما وقع للأوَّلِ، وكان قومُ فرعونَ قد جاء بعدَ قومِ لوطٍ، فكان ربما ظُنَّ أنَّهم لم يُنذَروا؛ لأنَّ مَن علم أنَّ العادةَ جرَتْ أنَّ مَن كذَّب الرُّسُلَ هلَك، أنكر أن يَحصُلَ ممَّن تَبِعَ ذلك تكذيبٌ؛ قال مُقسِمًا: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾[(١)].

لمَّا كانت دعوةُ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ غيرَ مُوجَّهةٍ إلىٰ أُمَّةِ القِبْطِ، وغيرَ مُرادٍ منها التَّشريعُ لهم، ولكنَّها مُوجَّهةٌ إلىٰ فرعونَ وأهلِ دولتِه الذين بأيديهم تسير أمور المملكةِ الفرعونيَّةِ، ليسمحوا بإطلاقِ بني إسرائيلَ من الاستعبادِ، ويُمكِّنوهم من الخروجِ مع موسىٰ؛ خصَّ بالنُّذُرِ هنا آل فرعونَ، ولذلك لم يكنْ أسلوبُ الإخبارِ عن فرعونَ ومَن معَه مُماثِلًا لأسلوبِ الإخبارِ عن قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ، إذ صُدِّرَ الإخبارُ عن أولئك بجملةِ ﴿كَذَّبَتْ﴾، وخُولِفَ في الإخبارِ عن فرعونَ فصُدِّرَ بجملةِ ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾، وإن كان مآلُ هذه الأخبارِ الخمسةِ مُتماثِلًا[(٢)].

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: فما فعلوا عندَ مجيءِ ذلك إليهم؟ قال: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[(٣)].

جملةُ ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ بدلُ اشتمالٍ من جملةِ ﴿جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١﴾؛ لأنَّ مجيءَ النُّذُرِ إليهم مُلابسٌ للآياتِ، وظهورَ الآياتِ مُقارِنٌ لتكذيبِهم بها؛ فمجيءُ النُّذُرِ مُشتمِلٌ علىٰ التَّكذيبِ لأنَّه مُقارِنٌ مُقارِنِه[(٤)].

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٠٨).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٢٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٠٨).

استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤالٍ نشأ من حكايةِ مجيءِ النُّذُرِ، كأنَّه قيل: فماذا فعلوا حينئذٍ؟ فقيل: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[1].

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾

ولمَّا بلَغتْ هذه المواعظُ الانتهاءَ، وعَلَتْ أقدامُها علىٰ رتبةِ السُّها، ولم يبن ذلك كُفَّار قريشٍ عن شرادِهم، ولا فتر من جحودِهم وعنادِهم؛ كان لسانُ حالِهم قائلًا: إنَّا لا نخافُ شيئًا من هذا، فكان الحالُ مُقتضِيًا لأن يُقالَ لهم إلزامًا بالحُجَّةِ: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾[2].

هذه الجملةُ كالنَّتيجةِ لحاصلِ القصصِ عن الأُمَمِ التي كذَّبتِ الرُّسُلَ من قومِ نوحٍ فمَن ذُكر بعدَهم؛ ولذلك فُصِلَتْ ولم تُعطَفْ، وقد غُيِّرَ أسلوبُ الكلامِ من كونِه مُوجَّهًا للرَّسولِ ﷺ إلىٰ توجيهِه للمشركين؛ لينتقلَ عن التَّعريضِ إلىٰ التَّصريحِ اعتناءً بمقامِ الإنذارِ والإبلاغِ[3].

ثم خوَّف سبحانه كُفَّارَ مكَّةَ، فقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾[4].

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾

ولمَّا بلَغوا إلىٰ هذا الحدِّ من التَّمادي في الكفرِ، مع المواعظِ البالغةِ والاستعطافِ المَكِينِ؛ استحَقُّوا أعظمَ الغضبِ، فأَعرَضَ عنهم الخطابُ إيذانًا بذلك، وإهانةً لهم واحتقارًا، وإقبالًا علىٰ النبيِّ ﷺ تسليةً، فقال عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: أَيَدَّعُون جهلًا ومُكابَرةً شيئًا من هذينِ الأمرينِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾[5].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٧٣).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٢٩-١٣٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٠٩).

(٤) فتح القدير (٥/ ١٥٤).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ١٣٠).

إضرابٌ من التَّبكيتِ والالتفاتِ للإيذانِ باقتضاءِ حالِهم للإعراضِ عنهم، وإسقاطِهم عن رتبةِ الخطابِ، وحكايةِ قبائحِهم لغيرِهم [(١)].

ثم أضرب عن هذا التَّبكيتِ، وانتقل إلىٰ التَّبكيتِ لهم بوجهٍ آخرَ، فقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ [(٢)].

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

ولمَّا كان لسانُ الحالِ ناطقًا بأنَّهم يقولون هذا كلَّه، فأيُّ الفريقينِ خيرٌ مقامًا وأحسنُ نَدِيًّا ونحوَها، وقال بعضُهم: لئن بُعِثْنا لأُوتِينا مالًا وولدًا، ولا شكَّ أنَّهم كانوا في غايةِ الاستحالةِ لغَلَبةِ المؤمنين لهم علىٰ قِلَّتِهم وضعفِهم؛ استأنف الجوابَ بقولِه: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [(٣)].

قولُه: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ جوابٌ عن قولِهم: ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾؛ فلذلك لم تُعطَفِ الجملةُ علىٰ التي قبلَها، وهذا بشارةٌ لرسولِه ﷺ بذلك، وهو يعلمُ أنَّ اللهَ مُنجِزُ وعدِه، ولا يزيدُ ذلك الكافرين إلَّا غرورًا، فلا يُعِيرُوه جانبَ اهتمامِهم وأخذِ العُدَّةِ لمقاومتِه، والآيةُ إخبارٌ بالغيبِ، فإنَّ المشركين هُزموا يومَ بدرٍ، ووَلَّوا الأدبارَ يومئذ، ووَلَّوا الأدبارَ في جمعٍ آخرَ؛ وهو جمعُ الأحزابِ في غزوةِ الخندقِ، ففرُّوا بليلٍ، كما مضىٰ في سورةِ «الأحزابِ»، وقد ثبت في الصَّحيحِ أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا خرج لصفِّ القتالِ يومَ بدرٍ، تلا هذه الآيةَ قبلَ القتالِ؛ إيماءً إلىٰ تحقيقِ وعدِ اللهِ بعذابِهم في الدنيا [(٤)].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٧٤).

(٢) فتح القدير (٥/ ١٥٥).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٣١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢١٣).

فرَدَّ اللهُ سبحانه عليهم بقولِه: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[1].

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾

ولمَّا وقع هذا في الدنيا، وكان في يومِ بدرٍ، وكان ذلك من أعلامِ النُّبُوَّةِ، وكان ربما ظنَّ ظانٌّ أنَّ ذلك هو النِّهايةُ؛ كان كأنَّه قيل: ليس ذلك الموعدَ الأعظمَ، ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[2].

﴿ بَلِ ﴾ للإضرابِ الانتقاليِّ، وهو انتقالٌ من الوعيدِ بعذابِ الدنيا كما حلَّ بالأُمَمِ قبلَهم، إلىٰ الوعيدِ بعذابِ الآخرةِ[3].

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولمَّا أخبر عن السَّاعةِ بهذا الإخبارِ الهائلِ، علَّله مُقسِمًا لأهلِها، مُجمِلًا بعضَ ما لهم عندَ قيامِها بقولِه مُؤكِّدًا لِما أظهَروا من التَّكذيبِ: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾[4].

هذا الكلامُ بيانٌ لقولِه: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾، واقترانُ الكلامِ بحرفِ ﴿ إِنَّ ﴾ لفائدتينِ؛ إحداهما: الاهتمامُ بصريحِه الإخباريِّ، وثانيهما: تأكيدُ ما تَضمَّنَه من التَّعريضِ بالمشركين؛ لأنَّ الكلامَ وإنْ كان مُوجَّهًا للنَّبيِّ ﷺ وهو لا يُشَكُّ في ذلك، فإنَّ المشركين يبلغُهم ويشيعُ بينَهم، وهم لا يؤمنون بعذابِ الآخرةِ، فكانوا جديرين بتأكيدِ الخبرِ في جانبِ التَّعريضِ، فتكونُ ﴿ إِنَّ ﴾ مُستعمَلةً في غرضَيْها من التَّوكيدِ والاهتمامِ[5].

---

(١) فتح القدير (٥/ ١٥٥).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٣١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢١٤).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٣٢).

(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢١٥).

﴿ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ٤٨ ﴾

ثم ذكر حالَهم في سُعُرٍ، فقال: ﴿ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾.

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ ٤٩ ﴾

ولمَّا أخبر بقيامِ السَّاعةِ وما يتَّفِقُ لهم فيها جزاءً لأعمالِهم التي قدَّرها عليهم وهي ستر فرضوا بها لاتِّباعِ الشَّهواتِ واحتَجُّوا علىٰ رِضاه بها، وكان ربما ظنَّ ظانٌّ أنَّ تَماديَهم علىٰ الكفرِ لم يكنْ بإرادتِه سبحانه؛ علَّل ذلك مُنبِّهًا علىٰ أنَّ الكُلَّ فعله، وإنَّما نِسْبَتُه إلىٰ العبادِ بأمورٍ ظاهريَّةٍ، تقومُ عليهم بها الحُجَّةُ في مجاري عاداتِهم، فقال: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[(١)].

استئنافٌ وقع تذييلًا لِما قبلَه من الوعيدِ والإنذارِ والاعتبارِ بما حَلَّ بالمكذِّبين، وهو أيضًا توطئةٌ لقولِه: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ ﴾ إلخ[(٢)].

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ ﴾

ولمَّا بيَّن أنَّ كلَّ شيءٍ بفعلِه، بيَّن يُسْرَ ذلك وسهولتَه عليه، فقال: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾[(٣)].

عطفٌ علىٰ قولِه: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾، فهو داخلٌ في التَّذييلِ؛ أي: خلَقْنا كلَّ شيءٍ بعلمٍ، فالمقصودُ منه: وما يَصلُحُ له معلومٌ لنا، فإذا جاء وقتُه الذي أَعدَدْناه، حصَل دفعةً واحدةً، لا يسبقُه اختبارٌ ولا نظرٌ ولا بداءٌ، والغرضُ من هذا: تحذيرُهم من أن يأخذَهم العذابُ بغتةً في الدنيا عندَ وجودِ ميقاتِه، وسبقِ إيجادِ أسبابِه ومُقوِّماتِه التي لا يتفطَّنون لوجودِها، وفي الآخرةِ بحلولِ الموتِ ثم بقيامِ السَّاعةِ[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢١٦).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٣٣).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٢٠).

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ ﴾

ولمَّا أخبر بتمامِ قدرتِه، وكان إهلاكُ مَن ذُكر من الكفارِ وإنجاءُ مَن ذُكر من الأبرارِ في هذه السورةِ نحوًا ممَّا ذُكر من أمرِ السَّاعةِ في السُّهولةِ والسُّرعةِ؛ دلَّ علىٰ ذلك بإنجاءِ أوليائِه وإهلاكِ أعدائِه، فذكر بهم جملة وبما كان من أحوالِهم بأيسرِ أمرٍ؛ لأنَّ ذلك أَوعَظُ للنُّفوسِ وأَزجَرُ للعقولِ، فقال مُقسِمًا تنبيهًا علىٰ عادتِهم في الكفرِ مع هذا الوعظِ فعل المكذِّبِ بهلاكِهم لأجلِ تكذيبِهم، عاطفًا علىٰ ما تقديرُه: ولقد أَنجَيْنا رُسُلَنا وأشياعَهم من كلِّ شيءٍ خطرٍ: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾(١).

التفَت من طريقِ الغَيْبةِ إلىٰ الخطابِ، ومرجعُ الخطابِ هم المشركون؛ لظهورِ أنَّهم المقصودُ بالتَّهديدِ، وهو تصريحٌ بما تَضمَّنه قولُه: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰئِكُمْ ﴾، فهو بمنزلةِ النَّتيجةِ لقولِه: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ إلىٰ كلمةِ ﴿ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝٥٠ ﴾، وهذا الخبرُ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ بالإهلاكِ، وبأنَّه يُفاجِئُهم قياسًا علىٰ إهلاكِ الأُمَمِ السَّابقةِ، وهذا المقصدُ هو الذي لأجلِه أُكِّدَ الخبرُ بلامِ القَسَمِ وحرفِ «قد»(٢).

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ ﴾

ولمَّا تمَّتِ الدَّلالةُ علىٰ إحاطةِ القدرةِ بما شُوهِدَ من الأفعالِ الهائلةِ التي لا تَسَعُها قدرةُ غيرِه سبحانه، وكانوا يَظُنُّون أنَّ أحوالَه غيرُ مضبوطةٍ؛ لأنَّه لا يمكنُ ضبطُها، ولا يَسَعُها علمُ عالمٍ؛ ولا سِيَّما إذا ادَّعىٰ أنَّه واحدٌ؛ شرع في إتمامِ الإخبارِ بعَظَمةِ القدرةِ بالإخبارِ بأنَّ أفعالَهم كلَّها مكتوبةٌ، فضلًا عن كونِها محفوظةً، فقال: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٣٣-١٣٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٢٢).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٣٤-١٣٥).

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

ولمَّا خصَّهم، عمَّ بقولِه واعظًا ومُخوِّفًا ومُحذِّرًا بأنَّ كلَّ شيءٍ محفوظٌ، فمكتوبٌ، فمعروضٌ على الإنسانِ يومَ الجمعِ: ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾[1].

هذا كالتَّذييلِ لقولِه: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾، فكُلُّ صغيرٍ وكبيرٍ أعمُّ من كلِّ شيءٍ فعلوه[2].

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

ولمَّا أخبر عن أحوالِ الكَفَرةِ في الدنيا والآخرةِ واعظًا بها، وإعلامًا بعَظَمتِه، وعَلِيِّ صفاتِه، وسَعةِ مملكتِه، وشاملِ علمِه وقدرتِه؛ ختم بأحوالِ القسمِ الآخرِ من أهلِ السَّاعةِ -وهم أهلُ طاعتِه- تتميمًا لذلك، وإشارةً وبشارةً للسَّالكِ في أحسنِ المسالكِ، فقال مُؤكِّدًا ردًّا على المُنكِرِ: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾[3].

استئنافٌ بيانيٌّ لأنَّه لمَّا ذكر أنَّ كلَّ صغيرٍ وكبيرٍ مُستطَرٌ على إرادةِ أنَّه معلومٌ ومُجازًى عليه، وقد عُلم جزاءُ المُجرمين من قولِه: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾؛ كانت نفسُ السَّامعِ بحيثُ تتشوَّفُ إلى مُقابِلِ ذلك من جزاءِ المتقين، وجريًا على عادةِ القرآنِ من تعقيبِ النِّذارةِ بالبشارةِ والعكسِ[4].

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾

ولمَّا كانت البساتينُ لا تُسكَنُ في الدنيا؛ لأنَّه ليس فيها جميعُ ما يحتاجُه الإنسانُ؛ بيَّن أنَّ حالَ تلك غيرُ حالِ هذه، فقال مُبدِلًا ممَّا قبلَه: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[5].

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٣٥).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٢٤).
(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٣٥).
(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٢٤).
(٥) نظم الدرر (١٩/ ١٣٦).

سورة الرحمن

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾

ولمَّا كان لا شيءَ من الرَّحمةِ أبلغُ ولا أدلُّ على القدرةِ من إيصالِ بعضِ صفاتِ الخالقِ إلى المخلوقِ نوعَ إيصالٍ؛ ليتخلَّقوا به بحسَبِ ما يُمكِنُهم منه، فيحصلوا على الحياةِ الأبديَّةِ والسَّعادةِ السَّرمديَّةِ؛ قال: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[1].

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: كيف علَّمَه وهو صفةٌ من صفاتِه، ولِمَنْ علَّمَه؟ قال مُستأنِفًا أو مُعلِّلًا: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾[2].

لمَّا ذُكر تعليمُ القرآنِ ولم يُذكَرِ المعلِّمُ؛ ذكَره بعدُ في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ليُعلَمَ أنَّه المقصودُ بالتَّعليمِ[3].

ثم أَتبَعَ سبحانه نعمةَ تعليمِ القرآنِ بخلقِ الإنسانِ، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٤١).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٤٣).

(٣) البحر المحيط (١٠/ ٥٤).

(٤) روح المعاني (١٤/ ٩٨).

﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾

ولمَّا كان كأنَّه قيل: فكان ماذا بخلقِه له؛ قال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[(١)].

﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ خبرٌ ثالثٌ تضمَّن الاعتبارَ بنعمةِ الإبانةِ عن المرادِ والامتنان بها بعدَ الامتنانِ بنعمةِ الإيجادِ؛ أي: علَّم جنسَ الإنسانِ أن يُبِينَ عمَّا في نفسِه ليفيدَه غيرَه ويستفيدَ هو[(٢)].

ثم ذكر تعالىٰ الوصفَ الذي يتميَّزُ به الإنسانُ من المنطقِ المُفصِحِ عن الضَّميرِ، والذي به يمكنُ قبولُ التَّعليمِ، وهو البيانُ[(٣)].

لمَّا كان النُّطقُ أشرفَ ما خُصَّ به الإنسانُ، فإنَّ صورتَه المعقولةَ التي بها بايَن سائرَ الحيوانِ؛ قال ﷻ: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[(٤)].

ثم امتنَّ ثالثًا بتعليمِه البيانَ الذي يكونُ به التَّفاهمُ، ويدورُ عليه التَّخاطبُ، وتتوقَّفُ عليه مصالحُ المعاشِ والمعادِ؛ لأنَّه لا يمكنُ إبرازُ ما في الضَّمائرِ ولا إظهارُ ما يدورُ في الخَلَدِ إلَّا به[(٥)].

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه النِّعمةَ في تعليمِ القرآنِ الذي هو حياةُ الأرواحِ، وبيَّن الطَّريقَ فيها؛ دلَّ علىٰ البيانِ بذِكرِ البيِّناتِ التي يجمعُها أمرٌ ويُفرِّقُها آخرُ، ولها مدخلٌ في حياةِ الأشباحِ، وعدَّدها علىٰ سبيلِ الامتنانِ بيانًا لأنَّها من أكبرِ النِّعَمِ، فقال في جوابِ مَن قال: ما بيانُه؟ بادئًا بالكوكبِ الأعظمِ -الذي هو أعظمُ نورًا، وأكبرُ جِرْمًا، وأعمُّ

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٣٣).

(٣) البحر المحيط (١٠/ ٥٤).

(٤) محاسن التأويل (٩/ ١٠٠).

(٥) فتح القدير (٥/ ١٥٨).

نفعًا- ليكونَ خضوعُه لقبولِ الآثارِ أدلَّ علىٰ خضوعِ غيرِه، بيانًا لحكمتِه في تدبيرِه وقُوَّتِه في تقديرِه: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾[1].

جملة هي خبرٌ رابعٌ عن «الرَّحمن»، وإلَّا كان ذِكرُه هنا بدونِ مناسبةٍ فينقلبُ اعتراضًا، ورابطُ الجملةِ بالمبتدأِ تقديرُه: بحُسْبَانِه؛ أي: حُسْبانِ الرَّحمنِ وضبطِه، وهذا استدلالٌ علىٰ التَّفرُّدِ بخلقِ كوكبِ الشَّمسِ وكُرَةِ القمرِ، وامتنانٌ بما أَودَعَ فيهما من منافعَ للنَّاسِ، ونظام سَيْرِهما الذي به تدقيقُ نظامِ معاملاتِ النَّاسِ واستعدادهم لِما يحتاجون إليه عندَ تغيُّراتِ أجوائِهم وأرزاقِهم، ويتضمَّنُ الامتنانَ بما في ذلك من منافعِهم، وفي كونِ هذا الخبرِ جاريًا علىٰ أسلوبِ التَّعديدِ ما قد علمتَ آنفًا من التَّبكيتِ، ووجهُه أنَّهم غفَلوا عمَّا في نظامِ الشَّمسِ والقمرِ من الحكمةِ، وما يدلُّ عليه ذلك النِّظامُ من تفرُّدِ اللهِ بتقديرِه، فاشتغل بعضُهم بعبادةِ الشمسِ وبعضُهم بعبادةِ القمرِ[2].

أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا ثبت كونُه رَحِمَنا، وأشار إلىٰ ما هو شفاءٌ ورحمةٌ -وهو القرآنُ-؛ ذكَر نِعَمَه، وبدأ بخلقِ الإنسانِ، فإنَّه نعمةٌ جميعُ النِّعَمِ به تَتِمُّ، ولولا وجودُه لَما انتفع بشيءٍ، ثم بيَّن نعمةَ الإدراكِ بقولِه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾، وهو كالوجودِ، إذ لولاه لَما حصل النَّفعُ والانتفاعُ، ثم ذكر من المعلوماتِ نعمتينِ ظاهرتينِ هما أظهرُ أنواعِ النِّعَمِ السَّماويَّةِ؛ وهما الشَّمسُ والقمرُ، ولولا الشَّمسُ لَما زالَتِ الظُّلْمةُ، ولولا القمرُ لَفاتَ كثيرٌ من النِّعَمِ الظَّاهرةِ، بخلافِ غيرِهما من الكواكبِ، فإنَّ نِعَمَها لا تظهرُ لكُلِّ أحدٍ مِثلَ ما تظهرُ نعمتُهما، ثم بيَّن كمالَ نفعِهما في حركتِهما بحسابٍ لا يتغيَّرُ، ولو كانت الشَّمسُ ثابتةً في موضعٍ لَما انتفع بها أحدٌ، ولو كان سَيْرُها غيرَ معلومٍ للخلقِ لَما انتفَعوا بالزِّراعاتِ في أوقاتِها، وبناءُ الأمرِ علىٰ الفصولِ[3].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٤٤-١٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٣٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٣٩).

لمَّا ذكَر تعالىٰ ما أنعم به علىٰ الإنسانِ من تعليمِه البيانَ، ذكر ما امتَنَّ به من وجودِ الشَّمسِ والقمرِ، وما فيهما من المنافعِ العظيمةِ للإنسانِ، إذ هما يجريانِ علىٰ حسابٍ معلومٍ وتقديرٍ سَوِيٍّ في بروجِهما ومنازِلِهما[(١)].

﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ ﴾

ولمَّا كان سيرُهما علىٰ هذا المنهاجِ مع ما لهما فيه من الدُّؤوبِ فيه بالتَّغيُّرِ والتَّنقُّلِ طاعةً منهما لمُدبِّرِهما ومُبدِعِهما ومُسيِّرِهما، وكان خضوعُهما -وهما النَّيِّرانِ الأعظمانِ- دالًّا علىٰ خضوعِ ما دونَهما من الكواكبِ بطريقِ الأَولىٰ؛ كان ذِكرُهما مُغنِيًا عن ذِكْرِ ما عداهما بخصوصِه، فأَتبَعَهما حضورَ ما هو للأرضِ كالكواكبِ للسَّماءِ في الزِّينةِ والنَّفعِ والضُّرِّ والصِّغَرِ والكِبَرِ والكثرةِ والقِلَّةِ من النَّباتِ مُقدِّمًا صِغارَه لعمومِ نفعِه وعظيمِ وقعِه بأنَّ منه أكثرَ الأقواتِ لجميعِ الحيوانِ والملابسِ من القطنِ والكتَّانِ وغيرِ ذلك من عجيبِ الشَّأنِ، مُعبِّرًا بما يصلحُ لبقيَّةِ الكواكبِ، فقال: ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾[(٢)].

عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ ﴾ عطفَ الخبرِ علىٰ الخبرِ للوجهِ الذي تقدَّم؛ لأنَّ سجودَ الشَّمسِ والقمرِ للهِ تعالىٰ وهو انتقالٌ من الامتنانِ بما في السَّماءِ من المنافعِ إلىٰ الامتنانِ بما في الأرضِ[(٣)].

لمَّا ذكر تعالىٰ ما أَنعَمَ به من منفعةِ الشَّمسِ والقمرِ، وكان ذلك من الآياتِ العُلْويَّةِ، ذكر في مقابلتِهما من الآثارِ السُّفليَّةِ النَّجمَ والشَّجرَ، إذ كانا رزقًا للإنسانِ[(٤)].

---

(١) البحر المحيط (١٠/ ٥٥).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٤٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٣٥).

(٤) البحر المحيط (١٠/ ٥٥).

والتَّناسبُ الذي بينَ هاتينِ الجملتينِ ظاهرٌ؛ لأنَّ الشَّمسَ والقمرَ عُلْويَّانِ، والنَّجمَ والشَّجرَ سُفْلِيَّانِ(١).

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ ﴾

ولمَّا كان تغيُّرُ ما تقدَّم من الشَّمسِ والقمرِ والنَّجمِ والشَّجرِ يدلُّ دلالةً واضحةً علىٰ أنَّه سبحانه هو المُؤثِّرُ فيه، وكانت السَّماءُ والأرضُ ثابتتينِ علىٰ حالةٍ واحدةٍ، فكان ربما أَشكَلَ أمرُهما كما ضَلَّ فيهما خلقٌ من أهلِ الوحدةِ أهلِ الجمودِ والاغترارِ والوقوفِ مع الشَّاهدِ وغيرِهم، وكان إذا ثبت أنَّه تعالىٰ المُؤثِّرُ فيهما؛ فلذلك قال مُسنِدًا التَّأثيرَ فيهما إليه، بعدَ أن أعرىٰ ما قبلَهما من مِثْلِه لما أغنىٰ عنه من الدَّلالةِ بالتَّغيُّرِ والسَّيرِ والتَّنقُّلِ عطفًا علىٰ ما تقديرُه: وهو الذي دبَّر ذلك: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾(٢).

اطَّرَدَ في هذه الآيةِ أسلوبُ المقابلةِ بينَ ما يُشبِهُ الضِّدَّينِ بعدَ مقابلةِ ذِكْرِ الشَّمسِ والقمرِ بذِكْرِ النَّجمِ والشَّجرِ، فجيءَ بذِكْرِ خلقِ السَّماءِ والأرضِ(٣).

﴿ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ ﴾

ولمَّا ذكر أوَّلًا القرآنَ الذي هو ميزانُ المعلوماتِ، ودَلَّ علىٰ رحمانيَّتِه بأنواعٍ من البيانِ، الذي رقي به الإنسان، فصار أهلًا للفهمِ، وذكَّره نعمةَ الميزانِ للمحسوساتِ؛ أقبل بالخطابِ عليه، لافتًا له عن أسلوبِ الغَيْبةِ؛ تنشيطًا له إلىٰ ارتقاءِ مراتبِ الكمالِ بحُسْنِ الامتثالِ، مُعلِّلًا، فقال: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾(٤).

---

(١) البحر المحيط (١٠/ ٥٦).
(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٤٧).
(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٣٧).
(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٤٨).

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾

ولمَّا كان التقديرُ: فاقتدُوا بأفعالي، وتَخلَّقوا بكُلِّ ما آمُرُ به من أقوالي؛ عطَف عليه قولَه: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾(١).

قولُه تعالىٰ: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾ علىٰ احتمالِ كونِ المعطوفِ عليها تفسيريَّةً، وعلىٰ جملةِ ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ علىٰ احتمالِ كونِ المعطوفِ عليها تعليلًا(٢).

قولُه: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ ﴾ كالبيانِ لقولِه: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾، وهو الخروجُ عن إقامتِه بالعدلِ(٣).

ثم أمر سبحانه بإقامةِ العدلِ بعدَ إخبارِه للعبادِ بأنَّه وضَعه لهم، فقال: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾(٤).

﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾

ولمَّا ذكر إنعامَه الدَّالَّ علىٰ اقتدارِه برفعِ السَّماءِ، ذكَر علىٰ ذلك الوجهِ مُقابِلَها بعدَ أن وسَّطَ بينَهما ما قامتا به من العدلِ؛ تنبيهًا علىٰ شِدَّةِ العنايةِ والاهتمامِ به، فقال: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٣٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٤٣).

(٤) فتح القدير (٥/ ١٥٩).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ١٤٩).

عطفٌ علىٰ ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا ﴾، وهو مُقابِلُه في المزاوجةِ، والوضعُ يُقابِلُ الرَّفعَ، فحصَل مُحسِّنُ الطِّباقِ مرَّتينِ[(١)].

لمَّا ذكر السَّماءَ، ذكر مُقابِلَتَها، فقال: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾[(٢)].

ثم لمَّا ذكر سبحانه أنَّه رفع السَّماءَ، ذكر أنَّه وضع الأرضَ، فقال: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾[(٣)].

﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ ﴾

ولمَّا كان في سياقِ بيانِ الرَّحمةِ بمزيدِ الإنعامِ، وكان إقامةُ البيِّنةِ أعظمَ نعمةٍ، وكانت الفواكهُ ألذَّ ما يكونُ، وكانت برِقَّتِها وشِدَّةِ لطافتِها مُنافِيةً للأرضِ في يُبْسِها وكثافتِها، فكان كونُها فيها عجبًا دالًّا علىٰ عظيمِ قدرتِه، وكان ذِكرُها يدلُّ علىٰ ما تقدَّمها من النِّعَمِ من جميعِ الأقواتِ؛ بدأ بها ليصيرَ ما يتقدَّمُها كالمذكورِ مرَّتينِ، فقال مُستأنِفًا وصفَها بما هو أعمُّ: ﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴾[(٤)].

جملةُ ﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾ إلىٰ آخرِها، مُبيِّنةٌ لجملةِ ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾[(٥)].

استئنافٌ مَسُوقٌ لتقريرِ ما أفادَتْه الجملةُ السَّابقةُ من كونِ الأرضِ موضوعةً لمنافعِ الأنامِ وتفصيل المنافعِ العائدةِ إلىٰ البشرِ[(٦)].

ثم ذكَر ما فيها من الأقواتِ الضَّروريَّةِ، فقال: ﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴾[(٧)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٤١).

(٢) البحر المحيط (١٠/ ٥٧).

(٣) فتح القدير (٥/ ١٥٩).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٤٩-١٥٠).

(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٤١).

(٦) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٧٨).

(٧) تفسير السعدي (ص: ٨٢٩).

﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ ﴾

ولمَّا ذكَر ما يُقْتاتُ من الفواكهِ وهو في غايةِ الطُّولِ، أَتبَعَه الأصلَ في الاقتياتِ للنَّاسِ والبهائمِ وهو بمكانٍ من القصرِ، فقال ذاكرًا ثمرتَه لأنَّها المقصودةُ بالذَّاتِ: ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾(١).

ولمَّا اقتصر من الأشجارِ على النَّخلِ لأنَّها أعظمُها، دخل في الحَبِّ القمحِ والشَّعيرِ وكُلِّ حَبٍّ يُقْتاتُ به خبزًا أو يُؤدَمُ به، وأخَّره في الذِّكرِ على سبيلِ الارتقاءِ درجةً فدرجةً، فالحبوبُ أنفعُ من النَّخلِ، وأعمُّ وجودًا في الأماكنِ(٢).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾

ولمَّا كان مَن كفَر به سبحانه بإنكارِه أو إنكارِ شيءٍ من صفاتِه، أو كذَّب بأحدٍ من رُسُلِه قد أَنكَرَ نِعَمَه أو نعمةً منها، فلَزِمَه بإنكارِه لتلك النِّعمةِ إنكارُ جميعِ النِّعَمِ؛ لأنَّ الرُّسلَ داعيةٌ إلى اللهِ بالتَّذكيرِ بنِعَمِه، وكان ما مضى من هذه السورةِ إلى هنا اثنتَيْ عشْرةَ آيةً؛ عدَّد فيها أصولَ نِعَمِه سبحانه على وجهٍ دَلَّ بغايةِ البيانِ على أنَّ له كلَّ كمالٍ، وكان قد مضى ذِكرُ الثَّقلَينِ الجِنِّ والإنسِ في قولِه: ﴿لِلْأَنَامِ﴾؛ قال تعالى إشارةً إلى أنَّهم المقصودون بالوعظِ، مُنكِرًا مُوبِّخًا مُبكِّتًا لِمَنْ أنكر شيئًا من نِعَمِه، أو قال قولًا أو فعل فعلًا يلزمُ منه إنكارُ شيءٍ منها، مُسبِّبًا عمَّا مضى من تَعْدادِ هذه النِّعَمِ المتزايدةِ التي لا يَسُوغُ إنكارُها ولا إنكارُ شيءٍ منها، فيجبُ شُكْرُها: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾(٣).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٥٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٤٦).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٥١).

الفاءُ للتَّفريعِ علىٰ ما تقدَّم من المِنَنِ المُدمَجةِ من دلائلِ صدقِ الرسولِ ﷺ وحَقِّيَّةِ وحيِ القرآنِ، ودلائل عَظَمةِ اللهِ تعالىٰ وحكمتِه باستفهامٍ عن تعيينِ نعمةٍ من نِعَمِ اللهِ يأتي لهم إنكارُها، وهو تذييلٌ لِما قبلَه(١).

لمَّا عدَّد تعالىٰ نِعَمَه، خاطَب الثَّقَلينِ بقولِه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾(٢).

ولمَّا ذكَر جملةً كثيرةً من نِعَمِه التي تُشاهَدُ بالأبصارِ والبصائرِ، وكان الخطابُ للثَّقَلينِ الإنسِ والجِنِّ؛ قرَّرهم تعالىٰ بنِعَمِه، فقال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾(٣).

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

ولمَّا كان قد تقدَّم في إشارةِ الخطابِ الامتنانُ بخلقِ الإنسانِ، ثم ذكر أصول النِّعَمِ عليه علىٰ وجهٍ بديعِ الشَّأنِ، إلىٰ أنْ ذكَر غذاءَ رُوحِه: الرَّيحانَ؛ أَتبَعَ ذلك تفصيلًا لِما أجمل، فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾(٤).

لمَّا ذكَر العالمَ الأكبرَ من السَّماءِ والأرضِ وما أَوجَدَ فيها من النِّعَمِ، ذكر مبدأَ مَن خُلِقَتْ له هذه النِّعَمُ، والإنسانُ هو آدمُ عليه السلام(٥).

لمَّا ذكر سبحانه خلقَ العالمِ الكبيرِ من السَّماءِ والأرضِ، وما فيهما من الدَّلالاتِ علىٰ وحدانيَّتِه وقدرتِه؛ ذكر خلقَ العالمِ الصَّغيرِ، فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾(٦).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٤٣).
(٢) البحر المحيط (١٠/ ٥٨).
(٣) تفسير السعدي (ص: ٨٢٩).
(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٥٥).
(٥) البحر المحيط (١٠/ ٥٨).
(٦) تفسير القرطبي (١٧/ ١٦٠).

﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ ﴾

ولمَّا كان الجانُّ الذي شَمِلَه أيضًا اسمُ «الأنامِ» مخلوقًا من العناصرِ الأربعةِ، وأغلبُها في جِبِلَّتِه النَّارُ؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾(١).

ثم ذكر خلقَ الجانِّ مع أنَّه مُتقدِّمٌ علىٰ خلقِ الإنسانِ إظهارًا لكمالِ النِّعمةِ في خلقِ الإنسانِ من مادَّةٍ ليِّنةٍ قابلًا للتَّهذيبِ والكمالِ وصدور الرِّفقِ بالموجوداتِ التي معَه علىٰ وجهِ الأرضِ، وفيه إيماءٌ إلىٰ تفضيلِ الإنسانِ علىٰ الجانِّ إذ أمر اللهُ الجانَّ بالسُّجودِ للإنسانِ، وما ينطوي من ذلك من وفرةِ مصالحِ الإنسانِ علىٰ مصالحِ الجانِّ، ومِن تأهُّلِه لعمرانِ العالمِ لكونِه مخلوقًا من طينتِه، إذ الفضيلةُ تَحصُلُ من مجموعِ أوصافٍ لا من خصوصيَّاتٍ مُفرَدةٍ(٢).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ ﴾

ولمَّا كان خلقُ هذينِ القبيلينِ علىٰ هذينِ الوجهينِ اللَّذينِ هما في غايةِ التَّنافي مستورًا أحدُهما عن الآخرِ مع منعِ كلٍّ من التَّسلُّطِ علىٰ الآخرِ إلَّا نادرًا؛ إظهارًا لعظيمِ قدرتِه وباهرِ حكمتِه من أعظمِ النِّعَمِ؛ قال مُسبِّبًا عنه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾(٣).

هذا توبيخٌ علىٰ عدمِ الاعترافِ بنِعَمِ اللهِ تعالىٰ، جِيءَ فيه بمِثْلِ ما جِيءَ به في نظيرِه الذي سبقه؛ ليكونَ التَّوبيخُ بكلامٍ مِثْلِ سابقِه، وذلك تكريرٌ من أسلوبِ التوبيخِ ونحوه أن يكونَ بمِثْلِ الكلامِ السابقِ، فحَقُّ هذا أن يُسمَّىٰ بالتَّعْدادِ لا بالتَّكرارِ؛ لأنَّه ليس تكريرًا لمجرَّدِ التأكيدِ، فالفاءُ في قولِه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ هنا تفريعٌ علىٰ قولِه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾؛ لأنَّ ربوبيَّتَه تقتضي الاعترافَ له بنعمةِ الإيجادِ

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٤٥).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٥٧).

والإمدادِ، وتَحصُلُ من تَماثُلِ الجملِ المكرَّرةِ فائدةُ التأكيدِ والتقريرِ أيضًا، فيكونُ للتكريرِ غرضانِ. وفائدةُ التكريرِ توكيدُ التقريرِ بما للهِ تعالىٰ من نِعَمٍ علىٰ المخاطَبين، وتعريضٌ توبيخِهم علىٰ الإشراكِ باللهِ أصنامًا لا نعمةَ لها علىٰ أحدٍ، وكلُّها دلائلُ علىٰ تفرُّدِ الإلهيَّةِ. وعن ابنِ قُتَيبةَ: أنَّ اللهَ عدَّد في هذه السورةِ نعماءَه، وذكَّر خلقَه آلاءَه، ثم أتبع كلَّ خَلَّةٍ وصَفَها ونعمةٍ وضَعَها بهذه، وجعلها فاصلةً بين كلِّ نعمتينِ ليُنبِّهَهم علىٰ النِّعَمِ ويُقرِّرَهم بها. وقال الحسينُ بنُ الفضلِ: التكريرُ طردٌ للغفلةِ، وتأكيدٌ للحُجَّةِ[1].

ولمَّا بيَّن خلقَ الثَّقَلينِ، ومادَّةَ ذلك، وكان ذلك مِنَّةً منه تعالىٰ علىٰ عبادِه؛ قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[2].

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾

ولمَّا ذكر سبحانه هذينِ الجنسينِ اللَّذينِ أحدُهما ظاهرٌ والآخرُ مُستتِرٌ؛ إرشادًا إلىٰ التَّأمُّلِ فيما فيهما من الدَّلالةِ علىٰ كمالِ قدرتِه، فكانا مُحتاجينِ إلىٰ ما هما فيه من المحلِّ، وكان صلاحُه ممَّا دبَّر سبحانه فيه من منازلِ الشُّروقِ الذي هو سببُ الأنوارِ والظُّهورِ، والغروبِ الذي هو منشأُ الظُّلْمةِ والخفاءِ؛ أَتبَعَه قولَه مُنبِّهًا علىٰ النَّظرِ في بديعِ صُنْعِه الدَّالِّ علىٰ توحيدِه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾[3].

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ فيه بيانٌ لجملةِ ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾[4].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٤٦).
(٢) تفسير السعدي (ص: ٨٢٩).
(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٥٧).
(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٤٧).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾

ولمَّا كان في هذا من النِّعَمِ ما لا يُحصَىٰ، قال مُسبِّبًا: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[(١)].

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ ﴾

ولمَّا كانت باحةُ البحرِ لجري المراكبِ كساحةِ السَّماءِ لسيرِ الكواكبِ، مع ما اقتضىٰ ذِكرُه من تضمُّنِ ذِكْرِ المشارقِ والمغاربِ للشِّتاءِ الحاصلِ فيه من الأمطارِ ما لو جرىٰ علىٰ القياسِ لأفاض البحارَ، فأغرقت البراريَّ والقِفارَ، وعلَتْ علىٰ الأمصارِ وجميعِ الأقطارِ، فقال: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾[(٢)].

خبرٌ آخرُ عن «الرَّحمن»، قُصد منه العِبرةُ بخلقِ البحارِ والأنهارِ، وذلك خلقٌ عجيبٌ دالٌّ علىٰ عَظَمةِ قدرةِ اللهِ وعلمِه وحكمتِه، ومناسبةُ ذِكْرِه عَقِبَ ما قبلَه: أنَّه لمَّا ذكر أنَّه سبحانه ربُّ المشرقينِ وربُّ المغربينِ، وكانت الأبحرُ والأنهارُ في جهاتِ الأرضِ؛ ناسَب الانتقالُ إلىٰ الاعتبارِ بخلقِهما وبالامتنان بما أَودَعها من منافعِ النَّاسِ[(٣)].

لمَّا ذكر تعالىٰ المشرقَ والمغربَ -وهما حركتانِ في الفَلَكِ-، ناسَب ذلك ذِكرَ البحرينِ؛ لأنَّ الشَّمسَ والقمرَ يجريانِ في الفَلَكِ كما يجري الإنسانُ في البحرِ، فذكر البحرينِ عَقِيبَ المشرقينِ والمغربينِ، ولأنَّ المشرقينِ والمغربينِ فيهما إشارةٌ إلىٰ البحرِ لانحصارِ البرِّ والبحرِ بينَ المشرقِ والمغربِ، لكنَّ البرَّ كان مذكورًا بقولِه تعالىٰ: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا ﴾، فذكر ها هنا ما لم يكنْ مذكورًا[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٥٩).
(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٥٩).
(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٤٨).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٥٠).

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ ﴾

ولمَّا كان التقاءُ المايعينِ؛ ولا سِيَّما مع الاضطرابِ الدَّائمِ الاختلاطِ، فيُحِيلُ ما لأحدِهما -أو لكُلٍّ منهما- من الصِّفاتِ إلىٰ الصِّفاتِ الأخرىٰ، فتَشوَّفَتِ النَّفسُ إلىٰ المانعِ من مِثْلِ ذلك في البحرينِ؛ قال مُستأنِفًا: ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾[(١)].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ ﴾

ولمَّا كان هذا أمرًا باهرًا، دالًّا دلالةً ظاهرةً علىٰ تمامِ قدرتِه؛ لا سِيَّما علىٰ الآخرةِ؛ قال مُسبِّبًا عنه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[(٢)].

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢ ﴾

ولمَّا ذكر المِنَّةَ بالبحرِ، ذكر النِّعمةَ بما يَنبُتُ فيه كما فعل بالبرِّ، فقال مُعبِّرًا بالمبنيِّ للمفعولِ؛ لأنَّ كلًّا من وجودِه فيه والتَّسليط علىٰ إخراجِه منه خارقٌ من غيرِ نظرٍ إلىٰ مخرجٍ مُعيَّنٍ، والنِّعمةُ نفسُ الخروجِ؛ ولذلك بالبناءِ للفاعلِ من الخروجِ: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾[(٣)].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣ ﴾

ولمَّا كان ذلك من جليلِ النِّعَمِ، سبَّب عنه قولَه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٦٠).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٦١).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٦١).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٦٢).

﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولمَّا كان قد ذكر سبحانه الخارجَ منه بماءِ السَّماءِ، ذكر السَّائرَ عليه بالهواءِ، وأشار بتقديمِ الجارِّ إلىٰ أنَّ السَّائرَ في الفَلَكِ لا تصريفَ له، وإنْ ظهر له تصريفٌ فهو لضعفِه كلا تصريفٍ، فقال: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾[(١)].

الجملةُ عطفٌ علىٰ جملةِ ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ لأنَّ هذا من أحوالِ البحرينِ، وقد أغنَتْ إعادةُ لفظِ «البحر» عن ذِكْرِ ضميرِ «البحرينِ»، الرَّابطِ لجملةِ الحالِ بصاحبِها[(٢)].

﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾

ولمَّا كان ما فيها من المنافعِ بالتَّكسُّبِ من البحرِ بالصَّيدِ وغيرِه والتَّوصُّل إلىٰ البلادِ الشَّاسعةِ للفوائدِ الهائلةِ، وكانت أعمالُهم في البحرِ الإخلاصَ الذي يلزمُ منها الإخلاصُ في البرِّ؛ لأنَّهما بالنِّسبةِ إلىٰ إبداعِه لهما وقدرتِه علىٰ التَّصرُّفِ فيهما بكُلِّ ما يريدُه علىٰ حدٍّ سواءٍ؛ سبَّب عن ذلك قولَه: ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[(٣)].

ولمَّا كانت من أعظمِ الأسبابِ للمتاجرِ والمكاسبِ المنقولةِ من قُطْرٍ إلىٰ قُطْرٍ، وإقليمٍ إلىٰ إقليمٍ ممَّا فيه صلاحٌ للنَّاسِ في جلبِ ما يحتاجون إليه من سائرِ أنواعِ البضائعِ؛ قال تعالىٰ: ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[(٤)].

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾

ولمَّا أخبر تعالىٰ أنَّه خلق السَّماواتِ والأرضَ وما بثَّ فيهما من المنافعِ من الأعيانِ والمعاني، واستوفىٰ الأرضَ بقِسْمَيْها برًّا وبحرًا، مُضمِّنًا ذلك العناصرَ الأربعةَ التي

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٥١).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٦٤).

(٤) محاسن التأويل (٩/ ١٠٥).

أسَّس عليها المركباتِ، وكان أعجبُ ما للمخلوقِ من الصَّنائعِ ما في البحرِ، وكان راكبُه في حكمِ العدمِ؛ دلَّ على أنَّه المتفرِّدُ بجميعِ ذلك بهلاكِ الخلقِ، فقال مُستأنِفًا مُعبِّرًا بالاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ، وبـ﴿مَنْ﴾ للدَّلالةِ على التَّصريحِ؛ تهويلًا بفناءِ العاقلِ على فناءِ غيرِ العاقلِ بطريقِ الأَولى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[1].

لمَّا كان قولُه: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ مُؤذِنًا بنعمةِ إيجادِ أسبابِ النَّجاةِ من الهلاكِ وأسباب السَّعيِ لتحصيلِ ما به إقامةُ العيشِ، إذ يسَّر للنَّاسِ السُّفُنَ عونًا للنَّاسِ على الأسفارِ، وقضاءِ الأوطارِ، مع السَّلامةِ من طغيانِ ماءِ البحارِ، وكان وصفُ السُّفُنِ بأنَّها كالأعلامِ توسِعةً في هذه النِّعمةِ؛ أَتبَعَه بالموعظةِ بأنَّ هذا لا يَحُولُ بينَ النَّاسِ وبينَ ما قدَّره اللهُ لهم من الفناءِ، على عادةِ القرآنِ في الفرصِ للموعظةِ والتَّذكيرِ، وفائدةُ هذا أن لا ينسوا الاستعدادَ للحياةِ الباقيةِ بفعلِ الصَّالحاتِ، وأن يتفكَّروا في عظيمِ قدرةِ اللهِ تعالى، ويُقبِلوا على توحيدِه وطلبِ مَرْضاتِه. ووقوعُ هذه الجملةِ عَقِبَ ما عدَّد من النِّعَمِ فيه إيماءٌ إلى أنَّ مصيرَ نِعَمِ الدنيا إلى الفناءِ[2].

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾

ولمَّا كان الوجهُ أشرفَ ما في الوجودِ، وكان يُعبَّرُ به عمَّا أُرِيدَ به صاحبُ الوجهِ مع أنَّه لا يُتَصوَّرُ بقاءُ الوجهِ بدونِ صاحبِه، فكان التعبيرُ به عن حقيقةِ ذلك الشَّيءِ أعظمَ وأدلَّ على الكمالِ، وكان من المقرَّرِ عندَ أهلِ الشَّرعِ أنَّه سبحانه ليس كمِثْله شيءٌ فلا يتوهَّم أحدٌ منهم من التعبيرِ به نقصًا؛ قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[3].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٥٢).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٦٥-١٦٦).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) ﴾

ولمَّا كان الموتُ نفسُه فيه نِعَمٌ لا تُنكَرُ، وكان موتُ ناسٍ نعمةً علىٰ ناسٍ، مع ما ختَم به الآيةَ من وصفِه بالإنعامِ؛ قال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾(١).

وتفريعُ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إنَّما هو تفريعٌ علىٰ جملةِ ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ كما علمتَ من أنَّه يتضمَّنُ معاملةَ خلقِه معاملةَ العظيمِ الذي لا تَصدُرُ عنه السَّفاسفُ، الكريمِ الذي لا يقطعُ إنعامَه، وذلك من الآلاءِ العظيمةِ(٢).

ولمَّا كان فناءُ الخلقِ سببًا لبعثِهم للنَّشأةِ الأخرىٰ التي يظهرُ بها المُحِقُّ من المُبطِلِ، وينقلبُ الأوَّلُ بالثَّوابِ، ويَبُوءُ الآخرُ بالعقابِ، وذلك من أعظمِ النِّعَمِ التي يشملُ فيها العدلُ الإلهيُّ المكلَّفِينَ؛ قال سبحانه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾(٣).

﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ (٢٩) ﴾

ولمَّا كان أدلُّ دليلٍ علىٰ العدمِ الحاجةَ، وعلىٰ دوامِ الوجودِ الغنىٰ؛ قال دليلًا علىٰ ما قبلَه: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾(٤).

﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ استئنافٌ، والمعنىٰ أنَّ النَّاسَ تنقرضُ منهم أجيالٌ وتبقىٰ أجيالٌ، وكلُّ باقٍ مُحتاجٌ إلىٰ أسبابِ بقائِه وصلاحِ أحوالِه، فهم في حاجةٍ إلىٰ الذي لا يفنىٰ وهو غيرُ مُحتاجٍ إليهم. ولمَّا أفضىٰ الإخبارُ إلىٰ حاجةِ النَّاسِ إليه تعالىٰ، أُتبعَ بأنَّ الاحتياجَ عامٌّ أهلَ الأرضِ وأهلَ السَّماءِ، فالجميعُ يسألونه، فسؤالُ أهلِ السَّماواتِ -وهم الملائكةُ-: يُسبِّحون بحمدِ ربِّهم، ويستغفرون لمن في الأرضِ، ويسألون رضىٰ اللهِ تعالىٰ، ومَن في الأرضِ -وهم البشرُ-: يسألونه نِعَمَ الحياةِ، والنَّجاةَ في الآخرةِ، ورفعَ الدَّرجاتِ في الآخرةِ(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٦٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٥٤).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ١٠٦).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٦٧).

(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٥٤).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾

ولمَّا كان كلُّ شيءٍ قانت له، خاضع لديه، ساجد لعظمته، شاهد لقدرته، دال على صفات الكمال له وصفات النَّقصِ للمُتغيِّراتِ، وأنَّها عَدَمٌ في نفسِها، ولأنَّها نِعَمٌ قال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾(١).

ولمَّا كان اختلافُ شؤونِه سبحانه في تدبيرِ عبادِه نعمةً لا يمكنُ جحدُها، ولا يتيسَّرُ لمكذِّبٍ تكذيبُها؛ عقَّب ذلك بقولِه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾(٢).

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾

ولمَّا انقضى عدُّ النِّعَمِ العِظامِ على وجهٍ هو في غايةِ الإمكانِ من البيانِ، وكان تغيُّرُ سائرِ المُمكِناتِ من النَّباتِ والجمادِ والملائكةِ والسَّماواتِ والأرضِ وما حَوَتا ممَّا عدا الثَّقَلينِ على نظامٍ واحدٍ لا تفاوتَ فيه، وأمَّا الثَّقَلانِ فأحوالُهما لأجلِ تنازعِ العقلِ والشَّهواتِ لا تكادُ تنضبطُ؛ بل تغيُّرُ حالِ الواحدِ منهم في اللَّحظةِ الواحدةِ إلى ألوانٍ كثيرةٍ مُتضادَّةٍ لِما فيهم من المكرِ وأحوالِ المغالبةِ والبغيِ والاستئثارِ باللَّهوِ بالأمرِ والنَّهيِ، وكان أكثرُهم يموتُ بنارِه من غيرِ أخذِ ثأرِه، واقتضت الحكمةُ ولا بدَّ أنَّه لا بدَّ لهم من يومٍ يجتمعون فيه يكونُ بينَهما فيه الفصلُ على ميزانِ العدلِ؛ خصَّهما بالذِّكرِ، فقال آتيًا في النِّهايةِ بالوعيدِ لأنَّه ليس للعصاةِ بعدَ الإنعامِ والبيانِ إلَّا التَّهديدُ الشَّديدُ للرُّجوعِ إلى طاعةِ الملكِ الدَّيَّانِ: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾(٣).

هذا تخلُّصٌ من الاعتبارِ بأحوالِ الحياةِ العاجلةِ إلى التَّذكيرِ بأحوالِ الآخرةِ والجزاءِ فيها، انتقل إليه بمناسبةِ اشتمالِ ما سبق من دلائلِ سَعةِ قدرةِ اللهِ تعالى، على تعريضٍ بأنَّ فاعلَ ذلك أهلٌ للتَّوحيدِ بالإلهيَّةِ، ومُستحِقٌّ الإفرادَ بالعبادةِ، وإذ قد كان

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٦٧-١٦٨).

(٢) فتح القدير (٥/ ١٦٤).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٦٨-١٦٩).

المخاطَبون بذلك مشركين مع اللهِ في العبادةِ؛ انتقل إلىٰ تهديدِهم بأنَّهم وأولياءَهم من الجِنِّ المُسوِّلِينَ لهم عبادةَ الأصنامِ سيُعرَضون علىٰ حكمِ اللهِ فيهم[(١)].

لمَّا ذكر تعالىٰ ما أنعم به من تعليمِ العلمِ وخلقِ الإنسانِ والسَّماءِ والأرضِ وما أَودَع فيهما وفناءِ ما علىٰ الأرضِ؛ ذكر ما يتعلَّقُ بأحوالِ الآخرةِ والجزاءِ، وقال: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[(٢)].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾

ولمَّا كان هذا من أجلِّ النِّعَمِ التي يدورُ عليها العبادُ، ويصلحُ بها البلادُ، وتقومُ بها السَّماواتُ والأرضُ؛ لأنَّ مطلقَ التَّهديدِ يحصلُ به انزجارُ النَّفسِ عمَّا لها من الانتشارِ فيما يضرُّ ولا ينفعُ، فكيف بالتَّهديدِ بيومِ الفصلِ؛ قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[(٣)].

تكريرٌ لنظائرِه، وليس هو خطابًا للثَّقَلينِ، ولا تذييلًا للجملةِ التي قبلَه؛ إذ ليس في الجملةِ التي قبلَه ذِكرُ نعمةٍ علىٰ الثَّقلينِ، بل هي تهديدٌ لهما[(٤)].

ولمَّا كان المعنىٰ: سنفرُغُ لحسابِكم، فنُثِيبُ أهلَ الطَّاعةِ، ونُعاقِبُ العصاةَ؛ عدَّ ذلك نعمةً عليهم بقولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[(٥)].

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾

ولمَّا كان التهديدُ بالفراغ ربما أوهَم أنَّهم الآنَ معجوزٌ عنهم أو عن بعضِ أمرِهم، بيَّن بخطابِ القبضِ المُظهِرِ لمحضِ الوحدانيَّةِ أنَّهم في القبضة، لا فعلَ لأحدٍ منهم؛ بدليلِ أنَّهم لا يَصِلُون إلىٰ جميعِ مرادِهم ممَّا هو في مقدورِهم، ولكنَّه ستَر

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٥٦).

(٢) البحر المحيط (١٠/ ٦٣).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٧٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٥٨).

(٥) محاسن التأويل (٩/ ١٠٨).

ذلك بالأسبابِ التي يُوجِبُ التقيُّدُ بها إسنادَ الأمورِ إلىٰ مباشرتِها، فقال بيانًا للمرادِ بالثَّقَلينِ: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾(١).

لمَّا ذكر سبحانه أنَّه مُجازٍ للعبادِ لا محالةَ، عقَّب ﷻ ذلك ببيانِ أنَّهم لا يقدرون علىٰ الخلاصِ من جزائِه وعقابِه إذا أراده، فقال سبحانه: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾(٢).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ ﴾

ولمَّا كان هذا نظرَهم فيما بينَهم وبينَ بقيَّةِ الحيواناتِ، بما أعطاهم من القوىٰ الحِسِّيَّةِ والمعنويَّةِ، وما نصَب لهم المصاعدِ العقليَّةِ والمعارضِ النَّقليَّةِ، التي يَنفُذون بها إلىٰ غايةِ الكائناتِ، ويتخلَّلون بما يُؤدِّيهم إليه علمُها إلىٰ أعلىٰ المخلوقاتِ، ثم نظرهم فيما بينَ الحيواناتِ وبينَ النَّباتاتِ، ثم بينَها وبينَ الجماداتِ، دالًّا دلالةً واضحةً علىٰ أنَّه ﷻ يُعطِي مَن يشاءُ ما يشاءُ، فلو أراد قوَّاهم علىٰ النُّفوذِ منها، ولو قوَّاهم علىٰ ذلك لكان من أجلِّ النِّعَمِ، وأنَّه سبحانه قادرٌ علىٰ ما يريدُ منهم، فلو شاء أهلَكَهم، ولكنَّه يُؤخِّرُهم إلىٰ آجالِهم حِلْمًا منه وعفوًا منه عنهم؛ سبَّب عن ذلك قولَه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾(٣).

﴿ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾

ولمَّا سلَب عنهم القدرةَ علىٰ النُّفوذِ المذكورِ؛ تنبيهًا علىٰ سلبِ جميعِ القدرةِ عنهم، وعلىٰ أنَّ ما يقدرون عليه إنَّما هو بتقديرِه لهم نعمةً منه عليهم، ولمَّا كان منهم مَن بلغ الغايةَ في قسوةِ القلبِ وجمودِ الفِكْرِ فهو يُحِيلُ العجزَ عن بعضِ الأمورِ إلىٰ أنَّه

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٧٠).
(٢) روح المعاني (١٤/ ١١١).
(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٧٢).

لم يجرِ بذلك عادة، لا إلىٰ أنَّه سبحانه المانعُ من ذلك، فعمَّهم شيءٌ من ذلك سطوته، فقال: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾[1].

استئنافٌ بيانيٌّ عن جملةِ ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟﴾ إلخ؛ لأنَّ ذلك الإشعارَ بالتَّهديدِ يُثِيرُ في نفوسِهم تساؤلًا عمَّا وراءَه[2].

استئنافٌ في جوابِ سؤالٍ مُقدَّرٍ عن الدَّاعي للفرارِ أو عمَّا يُصِيبُهم[3].

ثم ذكر ما أعدَّ لهم في ذلك الموقفِ العظيمِ، فقال: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾[4].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولمَّا كان التَّهديدُ بهذا لطفًا بهم، فهو نعمةٌ عليهم، والعفوُ عن المعالجةِ بإرسالِه لذلك؛ سبَّب عنه قولَه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[5].

ولمَّا كان التَّهديدُ لُطْفًا، والتَّمييزُ بينَ المُطِيعِ والعاصي بالجزاءِ والانتقامِ من الكفارِ من عدادِ الآلاءِ؛ عقَّب ذلك بقولِه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[6].

ولمَّا كان تخويفُه لعبادِه نعمةً منه عليهم، وسوطًا يَسُوقُهم به إلىٰ أعلىٰ المطالبِ وأشرفِ المواهبِ؛ امتنَّ عليهم، فقال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[7].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٧٢-١٧٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٦٠).

(٣) روح المعاني (١٤/ ١١٢).

(٤) تفسير السعدي (ص: ٨٣٠).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ١٧٤).

(٦) محاسن التأويل (٩/ ١١٠).

(٧) تفسير السعدي (ص: ٨٣٠).

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧ ﴾

ولمَّا كان هذا ممَّا لم تَجْرِ عادةٌ بعمومِه، وإنِ استطَرَدَتْ بجَرَيانِه منه في أشياءَ منه في أماكنَ مُتفرِّقةٍ كأشخاصٍ كثيرةٍ؛ بيَّن لهم وقتَه بقولِه: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴾[1].

تفريعٌ على إخبارٍ، فُرِّعَ على بعضِ الخبرِ المُجمَلِ في قولِه: ﴿ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ٣١ ﴾ إلى آخره، تفصيلٌ لذلك الإجمالِ بتعيينِ وقتِه، وشيءٍ من أهوالِ ما يقعُ فيه للمجرمين، وبشائرِ ما يُعْطاه المتقون من النَّعيمِ والحُبُورِ[2].

كأنَّه تعالى ذكر أوَّلًا ما يخافُ منه الإنسانُ، ثم ذكر ما يخافُ منه كلُّ واحدٍ ممَّن له إدراكٌ من الجِنِّ والإنسِ والمَلَكِ؛ حيثُ تخلو أماكنُهم بالشَّقِّ، ومساكنُ الجِنِّ والإنسِ بالخرابِ، ويحتملُ أن يُقالَ: إنَّه تعالى لمَّا قال: ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ ﴾ إشارةً إلى سُكَّانِ الأرضِ؛ قال بعدَ ذلك: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ بيانًا لحالِ سُكَّانِ السَّماءِ[3].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٨ ﴾

ولمَّا كان حفظُ السَّماءِ عن مِثْلِ ذلك بتأخيرِ إرسالِ هذا وغيرِه من الأسبابِ، وجعلِها محلَّ الرُّوحِ والحياةِ والرِّزقِ من أعظمِ الفواضلِ؛ قال مُسبِّبًا عنه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[4].

هذه الجملةُ مُعترِضةٌ، تكريرٌ للتَّقريرِ والتَّوبيخِ[5].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٦١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٦٤).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٧٥).

(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٦٢).

ولمَّـا كـان في هـذا التَّهديـدِ والتَّخويـفِ مـن حُسْـنِ العاقبـةِ بالإقبـالِ علىٰ الخيـرِ والإعراضِ عن الشَّرِّ، عقَّب ذلك بقولِه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[(١)].

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩ ﴾

ولمَّا كان يومُ القيامةِ ذا ألوانٍ كثيرةٍ، ومواقفَ مَهُولةٍ طويلةٍ شهيرةٍ، تكونُ في كلٍّ منها شؤونٌ عظيمةٌ وأمورٌ كبيرةٌ؛ ذكر بعضَ ما سبَّبه هـذا الوقـتُ مـن التَّعريـفِ بالعاصـي والطَّـائعِ، بآيـاتٍ جعلهـا اللهُ سـببًا في علمِهـا، فقـال: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾[(٢)].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠ ﴾

ولمَّا كان هذا التَّمييزُ من أجلِّ النِّعَمِ؛ لئلَّا يُؤدِّيَ الالتباسُ إلىٰ ترويعِ بعضِ المُطِيعين عاملًا أو نكايةً بالسُّؤالِ عنه؛ قال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[(٣)].

جملةُ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ تكريرٌ للتَّقريرِ والتَّوبيخِ[(٤)].

﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۝٤١ ﴾

ولمَّا كان الكلامُ عامًّا، عُرف أنَّه خاصٌّ بتعرُّفِ المجرمِ من غيرِه دونَ التَّعزيرِ بالذَّنبِ أو غيرِه من الأحوالِ، فقال مُعلِّلًا لعدمِ السُّؤالِ: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾[(٥)].

---

(١) فتح القدير (٥/ ١٦٦).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٧٥).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٧٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٦٢).

(٥) نظم الدرر (١٩/ ١٧٦).

هذا استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾؛ أي: يُستغنى عن سؤالِهم بظهورِ علاماتِهم للملائكةِ، ويعرفونهم بسِيماهم فيُؤخذون أخذَ عقابٍ، ويُساقون إلى الجزاءِ[(١)].

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ هذه الجملةُ جاريةٌ مجرى التَّعليلِ لعدمِ السُّؤالِ[(٢)].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾

ولمَّا كان ذلك نعمةً لا يُقامُ بشُكْرِها لكُلِّ مَن يسمعُها؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ ينتفي من الإجرامِ، ويَودُّ للمجرمين عظيمَ الانتقامِ؛ سبَّب عنه قولَه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[(٣)].

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ولمَّا كان أخذُهم على هذا الوجهِ مُؤذِنًا بأنَّه يصيرُ إلى خِزْيٍ عظيمٍ، صرَّح به في قولِه، بانيًا على ما هدى إليه السِّياقُ من نحوِ: أخذًا مَقُولًا فيه عندَ وصولِهم إلى محلِّ النَّكالِ على الحالِ التي ذكرتُ من الأخذِ بنواصِيهم وأقدامِهم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[(٤)].

استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ ناشئٍ من حكايةِ الأخذِ بالنَّواصي والأقدامِ، كأنَّه قيل: فماذا يفعلُ بهم عندَ ذلك؟ فقيل: يُقالُ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[(٥)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٦٢).

(٢) فتح القدير (٥/ ١٦٦).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٧٧).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٧٧).

(٥) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٨٣).

﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ (٤٤) ﴾

ثم استأنف ما يُفعَلُ بهم فيها، فقال: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾[1].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) ﴾

ولمَّا كان عذابُ المجرم -القاطعِ لِما مِن شأنِه أن يكونَ مُتَّصِلًا- من أكبرِ النِّعَمِ وأَسَرِّها لكُلِّ أحدٍ، حتى لِمَنْ سواه من المجرمين؛ سبَّب قولَه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[2].

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾

ولمَّا كان قد عرف ما للمجرمِ المجترِئِ على العظائمِ، وقدَّمه لِما اقتضاه مقامُ التَّكبُّرِ من التَّرهيبِ، وجعله سبعًا إشارةً إلى أبوابِ النَّارِ السَّبعةِ؛ عطَف عليه ما للخائفِ الذي أدَّاه خوفُه إلى الطَّاعةِ، وجعله ثمانيةً على عددِ أبوابِ الجنَّةِ الثَّمانيةِ، فقال: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[3].

انتقالٌ من وصفِ جزاءِ المجرمين إلى ثوابِ المتقين[4].

لمَّا قال تعالى في حقِّ المجرم: إنَّه يطوفُ بينَ نارٍ وبينَ حميمٍ آنٍ، وهما نوعانِ؛ ذكَر لغيرِه -وهو الخائفُ- جنَّتينِ في مُقابَلَةِ ما ذكَر في حقِّ المجرمِ[5].

شروعٌ في تَعْدادِ الآلاءِ الفائضةِ عليهم في الآخرةِ بعدَ تَعْدادِ ما وصل إليهم في الدنيا من الآلاءِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، واعلَمْ أنَّ ما عدَّد فيما بينَ هذه الآيةِ وبينَ خاتمةِ السورةِ

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٧٨).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٧٨-١٧٩).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٧٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٦٤).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٧١).

الكريمةِ من فنونِ الكراماتِ كما أنَّ أنفسَها آلاءٌ جليلةٌ واصلةٌ إليهم في الآخرةِ كذلك حكاياتُها الواصلةُ إليهم في الدنيا آلاءٌ عظيمةٌ لكونِها داعيةً لهم إلىٰ السَّعيِ في تحصيلِ ما يُؤدِّي إلىٰ نَيْلِها من الإيمانِ والطَّاعةِ، وأنَّ ما فصل من فاتحةِ السورةِ الكريمةِ إلىٰ قولِه تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ من النِّعَمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ والأَنفُسيَّةِ والآفاقيَّةِ آلاءٌ جليلةٌ واصلةٌ إليهم في الدنيا، وكذلك حكاياتُها من حيثُ إيجابُها للشُّكرِ والمثابرةِ علىٰ ما يُؤدِّي إلىٰ استدامتِها، وأمَّا ما عدَّد فيما بينَ قولِه تعالىٰ: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾، وبينَ هذه الآيةِ من الأحوالِ الهائلةِ التي ستقعُ في الآخرةِ؛ فليست هي من قَبِيلِ الآلاءِ، وإنَّما الآلاءُ حكاياتُها المُوجِبةُ للانزجارِ عمَّا يُؤدِّي إلىٰ الابتلاءِ بها من الكفرِ والمعاصي[1].

لمَّا فرغ سبحانه من تَعْدادِ النِّعَمِ الدُّنيويَّةِ علىٰ الثَّقَلينِ، ذكَر نِعَمَه الأُخْرويَّةَ التي أنعم بها عليهم، فقال: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[2].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٧﴾

ولمَّا كانت هذه نعمةً جامعةً، سبَّب عنها قولَه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[3].

جملةُ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مُعترِضةٌ بينَ الموصوفِ والصِّفةِ، وهي تكريرٌ لنظائرِها[4].

﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ٤٨﴾

ولمَّا كانت البساتينُ لا يَكمُلُ مدحُها إلَّا بكثرةِ الأنواعِ والألوانِ والفروعِ المُشتبِكةِ والأغصانِ، قال واصفًا لهما: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾[5].

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٨٣).
(٢) فتح القدير (٥/ ١٦٨).
(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٨٠).
(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٦٥).
(٥) نظم الدرر (١٩/ ١٨٠-١٨١).

ومن أوصافِ تلك الجنَّتينِ أنَّهما ﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴾[١].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٩ ﴾

ولمَّا كان في كلِّ غصنٍ فنونٌ من الفاكهةِ، سبَّب عنه قولَه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[٢].

﴿ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ٥٠ ﴾

ولمَّا كانت الجِنانُ لا تقومُ إلَّا بالأنهارِ، قال: ﴿ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴾[٣].

ثم ذكر صفةً أخرىٰ للجنَّتينِ، فقال: ﴿ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥١ ﴾

ولمَّا كانت العينانِ تسرحانِ لسقي تلك الأشجارِ والأغصانِ، فتُثمِرُ من جميعِ الألوانِ؛ سبَّب عن ذلك قولَه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ٥٢ ﴾

ولمَّا كان بالمياهِ حياةُ النَّباتِ وزكاؤُه، قال ذاكرًا أفضلَ النَّباتِ: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴾[٤].

وفصل بينَ الأفنانِ وبينَ ذِكرِ الفاكهةِ بذِكْرِ العينينِ، مع أنَّ الفاكهةَ بالأفنانِ أنسَبُ؛ لأنَّه لمَّا جرىٰ ذِكرُ الأفنانِ -وهي من جمالِ منظرِ الجنَّةِ-، أَعقَبَ بما هو من محاسنِ الجنَّاتِ -وهو عيونُ الماءِ- جمعًا للنَّظيرينِ، ثم أَعقَبَ ذلك بما هو من جمالِ المنظرِ؛ أعني: الفواكهَ في أفنانِها، ومن ملذَّاتِ الذَّوقِ[٥].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٨٣١).
(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٨١).
(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٨١).
(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٨١).
(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٦٦).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣﴾

ولمَّا كان تَعْدادُ هذه النِّعَمِ ووصفُها في هذا الكتابِ العزيزِ من التَّرغيبِ إلىٰ فعلِ الخيرِ والتَّرهيبِ عن فعلِ الشَّرِّ ما لا يخفىٰ علىٰ مَن يفهمُ، وذلك نعمةٌ عظمىٰ ومِنَّةٌ كبرىٰ؛ فكيف بالتَّنعُّمِ به عندَ الوصولِ إليه؟ سبَّب عن ذلك قولَه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(١).

جملةُ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مُعترِضةٌ بينَ الموصوفِ والصِّفةِ، وهي تكريرٌ لنظائرِها.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٤﴾

ولمَّا كان التَّفكُّهُ لا يَكمُلُ حُسْنُه إلَّا مع التَّنعُّمِ من طِيبِ الفُرُشِ وغيرِه، قال مُخبِرًا عن الذين يخافون مقامَ ربِّهم من قَبيلَي الإنسِ والجِنِّ، مُراعِيًا معنىٰ «مِن» بعدَ مراعاةِ لفظِها؛ تحقيقًا للواقعِ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾(٢).

ثم وصف فُرُشَ أهلِ الجنَّةِ وجلوسَهم عليها، فقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥﴾

ولمَّا كان ربما وُجد مَثَلٌ من ذلك شاهدٌ له من أغصانٍ تنعطفُ بجملتِها فتقربُ، وأخرىٰ تكونُ قريبةً من ساقِ الشَّجرةِ فيَسهُلُ تناولُها، قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(٣).

---

(١) فتح القدير (٥/ ١٦٩).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٨٢).

(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٨٣).

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦﴾

ولمَّا كان ما ذُكر لا تَتِمُّ نعمتُه إلَّا بالنِّسوانِ الحِسانِ، قال دالًّا على الكثرةِ بعدَ سياقِ الامتنانِ بالجمعِ الذي هو أَولىٰ من التَّثنيةِ بالدَّلالةِ علىٰ أنَّ في كلِّ بستانٍ جماعةً من النِّسوانِ؛ لِما بِهِنَّ من عظيمِ اللَّذَّةِ وفَرْطِ الأُنْسِ: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[1].

ضميرُ ﴿فِيهِنَّ﴾ عائدٌ إلىٰ ﴿فُرُشٍ﴾، وهو سببُ تأخيرِ نِعَمِ أهلِ الجنَّةِ بلذَّةِ التَّأنُّسِ بالنِّساءِ عن ما في الجنَّاتِ من الأفنانِ والعيونِ والفواكهِ والفرُشِ؛ ليكونَ ذِكرُ الفُرُشِ مناسبًا للانتقالِ إلىٰ الأوانسِ في تلك الفُرُشِ، وليجيءَ هذا الضَّميرُ مُفِيدًا معنًىٰ كثيرًا من لفظٍ قليلٍ، وذلك من خصائصِ التَّرتيبِ من هذا التَّركيبِ[2].

وبعدَ ذِكْرِ موضعِ الرَّاحةِ بعدَ التَّناولِ -وهو الفراشُ-، ذكر ما يكونُ في الفراشِ معَه[3].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧﴾

ولمَّا كانت تلك من النِّعَمِ العظيمةِ، تسبَّب عنها قولُه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾

ولمَّا دَلَّ ما تقدَّم من وصفِ المُستمتَعِ بِهِنَّ بالعِزَّةِ والنَّفاسةِ، زاده علىٰ وجهٍ أفادَ أنَّه يكونُ بِهِنَّ غايةُ ما يكونُ من سكونِ النَّفسِ، وقُوَّةِ القلبِ، وشِدَّةِ البدنِ، واعتدالِ الدَّمِ، وغيرِ ذلك من خواصِّ ما شبَّهَهُنَّ به، فقال: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٨٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٦٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٧٤).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٨٥).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ ﴾

ولمَّا ذكر من وصفِهِنَّ من تشبيهِ شيءٍ بشيئينِ لبلوغِ الأمرِ في الحُسْنِ إلىٰ حدٍّ لا يساويه فيه شيءٌ واحدٌ ليُشبَّهَ به، تسبَّب عن ذلك قولُه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[(١)].

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠ ﴾

ولمَّا كان ألذُّ ما أفاده الإنسانُ من النِّعَمِ ما كان تسبَّب منه، قال سارًّا لهم بذلك، مع ما فيه من لذَّةِ المدحِ؛ لا سِيَّما والمادحُ المَلِكُ الأعلىٰ، مُعظِّمًا له بسياقِ الاستفهامِ المفيدِ للإثباتِ بعدَ النَّفي المفيدِ للاختصاصِ علىٰ وجهِ الإنكارِ الشَّديدِ علىٰ مَن يتوهَّمُ غيرَ ذلك: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[(٢)].

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ تذييلٌ للجملِ المبدوءةِ بقولِه: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ ﴾؛ أي: لأنَّهم أحسنوا فجازاهم ربُّهم بالإحسانِ[(٣)].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١ ﴾

ولمَّا كان في الذي ذُكر نِعَمٌ عظيمةٌ لا يقاومُها عملٌ، بل مجرَّدُ تفضُّلٍ وامتنانٍ؛ قال بعدَ ذلك كلِّه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[(٤)].

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢ ﴾

ولمَّا كان قد عُلم ممَّا ذُكر أوَّلَ هذا الكلامِ من الخوفِ مع ذِكْرِ وصفِ الإكرامِ، وآخِرَه من ذِكْرِ الإحسانِ، أنَّ هذا الفريقَ مُحسِنون، وكان من المعلومِ أنَّ العاملين

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٨٦).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٨٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٧١).

(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ٥٠٥).

طبقاتٌ، وأنَّ كلَّ طبقةٍ أجرُها على مقدارِ أعمالِها؛ اقتضى الحالُ بيانَ ما أعدَّ لمن دونَهم: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾[1].

لمَّا ذكر الجزاءَ، ذكر بعدَه مِثلَه، وهو جنَّتانِ أُخْرَيانِ[2].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ ﴾

ولمَّا كانت تلك من النِّعَمِ العظيمةِ، تسبَّب عنها قولُه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

جملةُ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مُعترضةٌ بينَ ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ وصفاتِها اعتراضًا للازديادِ من تكريرِ التَّقريرِ والتَّوبيخِ لمن حُرموا من تلك الجنَّاتِ[3].

﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾

ولمَّا كان ما في هاتينِ من الماءِ دونَ ما في الباقيتينِ، فكان ربما ظُنَّ أنَّ ماءَهما لا يقومُ بأعلى كفايتِهما؛ قال: ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾[4].

صفةٌ لـ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ وسط بينَها الاعتراض لِما تقدَّم من التنبيهِ على أنَّ تكذيبَ كلٍّ من الموصوفِ والصِّفةِ حقيقٌ بالإنكارِ والتَّوبيخِ[5].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ ﴾

ولمَّا كانت تلك من النِّعَمِ العظيمةِ، تسبَّب عنها قولُه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

جملةُ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مُعترضةٌ بينَ ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ وصفاتِها اعتراضًا للازديادِ من تكريرِ التَّقريرِ والتَّوبيخِ لمن حُرموا من تلك الجنَّاتِ[6].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٨٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٧٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٧٣).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٨٨).

(٥) روح المعاني (١٤/ ١٢٠).

(٦) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٧٣).

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦ ﴾

ولمَّا كان ذكر ما يدلُّ على ريِّهما، حقَّقه بقولِه: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ (١).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٧ ﴾

ولمَّا كانت هذه من النِّعَمِ العظيمةِ، تسبَّب عنها قولُه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

جملةُ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مُعترضةٌ بينَ ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ وصفاتِها اعتراضًا للازديادِ من تكريرِ التَّقريرِ والتَّوبيخِ لمن حُرموا من تلك الجنَّاتِ (٢).

﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨ ﴾

ولمَّا ذكَر الرِّيَّ والسَّببَ فيه، ذكَر ما ينشأُ عنه، فقال: ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ (٣).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٩ ﴾

جملةُ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مُعترضةٌ بينَ ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ وصفاتِها اعتراضًا للازديادِ من تكريرِ التَّقريرِ والتَّوبيخِ لمن حُرموا من تلك الجنَّاتِ (٤).

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ ﴾

ولمَّا كان ما ذُكر لا تكمُلُ لذَّتُه إلَّا بالأنيسِ، وكان قد ورَد أنَّه يكونُ في بعضِ ثمارِ الجنَّةِ وحملِ أشجارِها نساءٌ ووِلْدانٌ، كما أنَّ أمثالَ ذلك في بطنِ مياهِ الدنيا ﴿وَجَعَلْنَا

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٨٨).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٧٣).
(٣) نظم الدرر (١٩/ ١٨٩).
(٤) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٧٣).

﴿مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾؛ قال جامعًا على نحوِ ما مضى من الإشارةِ إلى أنَّ الجنَّتينِ لكُلِّ واحدٍ من أفرادِ هذا الصِّنفِ: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾(١).

ضميرُ ﴿فِيهِنَّ﴾ عائدٌ إلى الجنَّاتِ الأربعِ: الجنَّتينِ الأوليينِ، والجنَّتينِ اللَّتينِ من دونِهما، فيجوزُ أن يكونَ لصاحبِ الجنَّتينِ الأُولَيينِ جنَّتانِ أُخْرَيانِ فصارت له أربعُ جنَّاتٍ، ويجوزُ أن يكونَ توزيعًا على مَن خافوا ربَّهم كما تقدَّم(٢).

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾

ولمَّا كان هذا التَّرغيبُ في هذه النِّعَمِ نعمةً جليلةً ومِنَّةً عظيمةً؛ لأنَّ به يَحصُلُ الحرصُ على الأعمالِ الصَّالحةِ، والفرارُ من الأعمالِ الطَّالحةِ؛ فكيف بالوصولِ إلى هذه النِّعَمِ والتَّنعُّم بها في جنَّاتِ النَّعيمِ بلا انقطاعٍ ولا زوالٍ؛ سبَّب عن ذلك قولَه: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(٣).

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾

ثم بيَّنَهُنَّ بقولِه: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾(٤).

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾

ولمَّا كانت هذه من النِّعَمِ العظيمةِ، تسبَّب عنها قولُه: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

واعترض بجملةِ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بينَ البدلِ والمُبدَلِ منه وبينَ الصِّفتينِ؛ لقصدِ التَّكريرِ في كلِّ مكانٍ يقتضيه(٥).

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٨٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٧٣).

(٣) فتح القدير (٥/ ١٧٠).

(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٩٠).

(٥) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٧٤).

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ۝٧٤﴾

ولمَّا كانت أَنفُسُ الأخيارِ، ذوي الهِمَمِ العاليةِ الكبارِ، في الالتفاتِ إلىٰ الأبكارِ؛ قال: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ (١).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥﴾

فتَسبَّب عن هذا التَّعدُّدِ لمِثْلِ هذه النِّعَمِ العظيمةِ أن يُقالَ تعجيبًا ممَّن يكذبُ؛ توبيخًا له، وتنبيهًا علىٰ ما له تعالىٰ من النِّعَمِ التي تفوتُ الحصرَ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢).

تكريرٌ في آخِرِ الأوصافِ لزيادةِ التَّقريرِ والتَّوبيخِ (٣).

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۝٧٦﴾

ولمَّا تمَّ التَّقريرُ بالنِّعَمِ المُحيطةِ بالجهاتِ السِّتِّ والحواسِّ الخمسِ علىٰ الوجهِ الأكملِ من درءِ المفاسدِ وجلبِ المصالحِ، أَوتَرَها بنعمةٍ أخرىٰ واحدةٍ؛ إشارةً إلىٰ أنَّ السَّببَ في هذا اعتقادُ وحدانيَّةِ الواحدِ تعالىٰ اعتقادًا أدَّىٰ الخضوع لأمرِ مُرسِلٍ كُلَّما جاء من عندِه تعالىٰ؛ فلذلك كانت نعمةً لا تنقطعُ أصلًا، بل كُلَّما تمَّ دَوْرٌ منها ابتدأ دَوْرٌ آخرُ جديدٌ، وهكذا علىٰ وجهٍ لا انقطاعَ له أبدًا، كما أنَّ الواحدَ الذي هو أصلُ العددِ لا انتهاءَ له أصلًا، وهذه النِّعمةُ الدَّالَّةُ علىٰ الرَّاحةِ الدَّائمةِ التي هي المقصودةُ بالذَّاتِ علىٰ وجهٍ لا يُرَىٰ أغربُ منه ولا أشرفُ، فقال تعالىٰ مُبيِّنًا حالَ المُحسِنين ومَن دونَهم، مُشرِكًا لهم في الرَّاحةِ علىٰ ما لا عينٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعتْ ولا خطَرَ علىٰ قلبِ بشرٍ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ (٤).

ما الحكمةُ في تأخيرِ ذِكْرِ اتِّكائِهم عن ذِكْرِ نسائِهم في هذا الموضعِ، مع أنَّه تعالىٰ قدَّم ذِكرَ اتِّكائهم علىٰ ذِكْرِ نسائِهم في الجنَّتينِ المُتقدِّمتينِ؟ والجوابُ عنه من وجهينِ؛

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٩١).
(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٩١).
(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٧٤).
(٤) نظم الدرر (١٩/ ١٩١-١٩٢).

أحدُهما: أنَّ أهلَ الجنَّةِ ليس عليهم تعبٌ وحركةٌ، فهم مُنعَّمون دائمًا، لكنَّ النَّاسَ في الدنيا علىٰ أقسامٍ؛ منهم مَن يجتمعُ مع أهلِه اجتماعَ مُستفِيضٍ، وعندَ قضاءِ وَطَرِه يستعملُ الاغتسالَ والانتشارَ في الأرضِ للكسبِ، ومنهم مَن يكون مُترَدِّدًا في طلبِ الكسبِ، وعندَ تحصيلِه يرجعُ إلىٰ أهلِه، ويُرِيحُ قلبَه من التَّعبِ قبلَ قضاءِ الوَطَرِ، فيكونُ التَّعبُ لازمًا قبلَ قضاءِ الوَطَرِ أو بعدَه؛ فاللهُ تعالىٰ قال في بيانِ أهلِ الجنَّةِ: مُتَّكِئينَ قبلَ الاجتماعِ بأهلِهم وبعدَ الاجتماعِ كذلك؛ ليُعلَمَ أنَّهم دائمًا علىٰ السُّكونِ، فلا تعبَ لهم لا قبلَ الاجتماعِ ولا بعدَ الاجتماعِ. وثانيهما: هو أنَّا بيَّنَّا في الوجهينِ المتقدِّمينِ أنَّ الجنَّتَينِ المتقدِّمتينِ لأهلِ الجنَّةِ الذين جاهَدوا والمتأخِّرين لذُرِّيَّاتِهم الذين أُلحِقُوا بهم، فهم فيهما وأهلُهم في الخيامِ مُنتظِراتٌ قُدُومَ أزواجِهِنَّ، فإذا دخل المؤمنُ جنَّتَه التي هي سُكْناه، يتَّكِئُ علىٰ الفُرُشِ، وتنتقلُ إليه أزواجُه الحِسانُ، فكَوْنُهُنَّ في الجنَّتَينِ المتقدِّمتينِ بعدَ اتِّكائِهم علىٰ الفُرُشِ، وأمَّا كونُهم في الجنَّتَينِ المتأخِّرتينِ فذلك حاصلٌ في يومِنا، واتِّكاءُ المؤمنِ غيرُ حاصلٍ في يومِنا، فقد ذكَر كونَهُنَّ فيهِنَّ هنا وأخَّره هناك[(١)].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ ﴾

ولمَّا كانت هذه من النِّعَمِ العظيمةِ، تسبَّب عنها قولُه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، وبهذه الآيةِ تمَّتِ النِّعَمُ الثَّماني المُختَصَّةُ بجنَّةِ أصحابِ اليمينِ؛ إشارةً إلىٰ العملِ لأبوابِها الثَّمانيةِ[(٢)].

هذه الجملةُ آخِرُ الجملِ المكرَّرةِ، وبها انتهىٰ الكلامُ المَسُوقُ للاستدلالِ علىٰ تفرُّدِ الله بالإنعامِ والتَّصرُّفِ[(٣)].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٨١).

(٢) نظم الدرر (١٩/ ١٩٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٧٦).

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨ ﴾

ولمَّا دَلَّ ما ذُكر في هذه السورةِ من النِّعَمِ علىٰ إحاطةِ مُبدِعِها بأوصافِ الكمال، ودَلَّ بالإشارةِ بالنِّعمةِ الأخيرةِ علىٰ أنَّ نِعَمَه لا نهايةَ لها؛ لأنَّه -مع أنَّ له الكمالَ كلَّه- مُتَعالٍ عن شائبةِ نقصٍ، فكانت ترجمةُ ذلك قولَه في ختامِ نِعَمِ الآخرةِ مناظرةً لِما تقدَّم من ختامِ نِعَمِ الدنيا، مُعبرًا هناك بالبقاءِ لِما ذُكر قبلَه من الفناءِ، وهذا بما من البركةِ؛ إشارةً إلىٰ أنَّ نِعَمَه لا انقضاءَ لها: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾[(١)].

إيذانٌ بانتهاءِ الكلامِ، وفَذْلَكةٌ لِما بُنِيتْ عليه السُّورةُ من التَّذكيرِ بعَظَمةِ اللهِ تعالىٰ ونَعْمائِه في الدنيا والآخرةِ[(٢)].

أنَّه تعالىٰ لمَّا ختَم نِعَمَ الدنيا بقولِه تعالىٰ: ﴿ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧ ﴾، ختَم نِعَمَ الآخرةِ بقولِه: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨ ﴾؛ إشارةً إلىٰ أنَّ الباقيَ والدَّائمَ هو اللهُ تعالىٰ لا غيرُ، والدنيا فانيةٌ، والآخرةُ إنْ كانت باقيةً لكنْ بقاؤُها بإبقاءِ اللهِ تعالىٰ[(٣)].

لمَّا ختَم تعالىٰ نِعَمَ الدنيا بقولِه: ﴿ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧ ﴾، ختَم نِعَمَ الآخرةِ بقولِه: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨ ﴾، وناسَب هنالك ذِكرُ البقاءِ والدَّيمومةِ له تعالىٰ؛ إذ ذكَر فناءَ العالَمِ، وناسَب هنا ذِكرُ ما اشتقَّ من البركةِ، وهي النُّموُّ والزِّيادةُ؛ إذ جاء ذلك عَقِبَ ما امتَنَّ به علىٰ المؤمنين، وما آتاهم في دارِ كرامتِه من الخيرِ وزيادتِه وديمومتِه[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ١٩٣-١٩٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٧٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٨٣).

(٤) البحر المحيط (١٠/ ٧٢).

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات